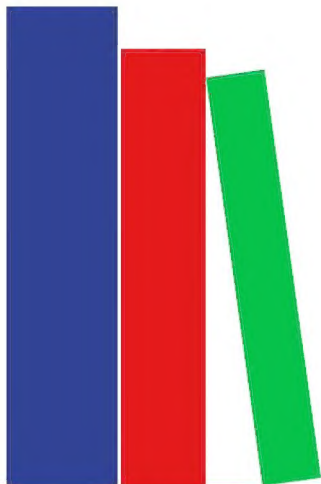


الكتاب من ربي لله رب العالمين

بقلم
أحمد أمين

٣-١

منشورات
شركة الأمل في الطباعة
بيروت - لبنان

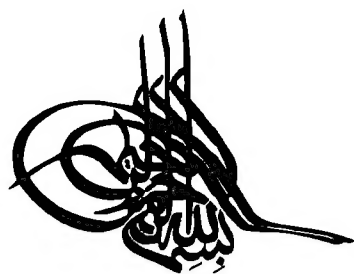


مكتبة مؤمن قريش

لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه.
(الإمام الصادق (ع))

moamenquraish.blogspot.com

الشيخ محمد بن محمد بن محمد



الترغاميل في زينة الله

بقلم
أحمد أمين

مترجم صادره وصحة
عند آية الله في الدين العلامة

الحزب الله

شركة النشر والتوزيع
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

جميع الحقوق محفوظة ومسجلة للنشر

يحظر نسخ أو تصوير أو ترجمة أو إعادة التنضيد بشكل كامل أو جزئي أو تسجيله على
أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على إسطوانات ضوئية إلا بموافقة
خطية من الناشر

Published by Alaalami co.

شركة الأعلامي للطبوعات

Beirut Airport Road
Tel: 01/450426 Fax: 01/450427
E-mail: alaalami@yahoo.com
<http://www.alaalami.com>



بيروت - طريق المطار - ملحق حارة حريك
قرب سنتر زعرور
هاتف: ٠١/٤٥٠٤٢٦ فاكس: ٠١/٤٥٠٤٢٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الإمام عليّ عليه السلام :

عباد الله زِنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوَزَّنُوا، وَحَاسِبُوا قَبْلَ أَنْ
تَحَاسَبُوا. وَتَنَفَسُوا قَبْلَ ضَيْقِ الْخَنَاقِ، وَانْقَادُوا قَبْلَ عُنْفِ السِّيَاقِ.
وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ لَمْ يَعْنِ عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى يَكُونَ لَهُ مِنْهَا وَاعِظٌ وَزَاجِرٌ
لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ غَيْرِهَا زَاجِرٌ وَلَا وَاعِظٌ.

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إذا صغت النفس الإنسانية مما علق بها من أدران وأوساخ، ونظر الإنسان نظرة دقيقة فيما جاء في الدين الإسلامي من واجبات ومحرمات ومستحبات ومكروهات ومباحات وسنن وآداب وأوامر ونواه، لرأى أنها برمتها ترمي إلى تكميل النفس الإنسانية وإبلاغها إلى أسمى مراتب الكمال، كمال من الله تعالى به على البشر، يتفاوت حسب جهودهم ومساعيهم، ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (٣٩) وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يُرَى﴾ [النجم: الآيتان ٣٩ / ٤٠]. ولئن كانت التجربة مدار العلم الحديث فنحن ندعو رجال الثقافة والتفكير وأعني بـ: (التفكير في العلوم المادية) للقيام بهذه التجربة الحيوية المنجية وأعني بها تطبيق القوانين الإسلامية دون أن يستثنوا منها شيئاً كتحويل الربا والنظر إلى ما حرم الله تعالى أو... حتى يروا في أنفسهم ذلك التقدم الروحي والتكامل النفسي، فيقيسوا إذ ذاك ما كانوا عليه من البهيمية مع ما بلغوا إليه من حالة قدسية حديثة، فيأسفوا على ما فرطوا معترفين أن الله قد أخرجهم من الظلمات إلى النور. فقد جاء في الحديث: «الناس كلهم بهائم إلا قليلاً من المؤمنين». وإن الله تعالى يقول: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: الآية ١٢]. ولكن هيهات. لا ينال توفيق هذه التجربة إلا من لم تنقطع صلته بالله وكان له، على الأقل، اتصال ضئيل بربه بعمل صالح كان يأتي به من حين إلى حين. إن الله تعالى يقول: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٥) إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ

وَحَشَى الرَّحْمَنُ بِالْغَيْبِ فَبَشَّرَهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿[يس: الآيةان ١٠/١١]﴾. فلا يوفق إلى هذه التجربة إلا من خشى الرحمن في خلواته ولو قليلاً: هُيئت له موائد الخمر ولا حرج عليه، فلم يشرب، أو كان وصولاً لأمه وأبيه، أو كان حسن الخلق غير متكبر ولا متجبر، أو كان عطوفاً على جاره ببعض ما يتمكن منه إلى غير ذلك.

ولكن من انقطعت صلته بالله تبارك وتعالى وأصبح جرثومة فساد لا يبدو منه عمل صالح لوجه الله أبداً، فقد انسدت عليه أبواب الهداية وأصبح لا تؤثر فيه الهداية أبداً.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَقُولُ عَلَى الثَّارِ فَقَالُوا يُبَلِّغُنَا وَرَدُّ وَلَا نَكَذِّبُ يَأْتِي رَبِّنَا وَلَكُن مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ بَلْ بَدَاهُم مَّا كَانُوا يَحْفَوْنَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿[الأنعام: الآيةان ٢٧/٢٨]﴾.

فمثل هذا الشخص لا يوفق للقيام بهذه التجربة التي بها حياة الإنسان وسعادته الأبدية. حتى إنه يستخف هذه التجربة ويرى ما فيها من نصوص خرافية. إنه قد عمى قلبه فأمسى لا يبصر شيئاً. كما في الحديث: «وإن أعمى العمى عمى القلب»^(١)، إن الله تعالى يقول:

﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ قَوِيلَ لِقَائِهِمْ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٢﴾﴾ [الزمر: الآية ٢٢]. ومعنى ذلك أن قساوة القلب تؤدي إلى الضلال ولا يقسو القلب إلا بارتكاب الجرائم.

إن الله تعالى يقول: ﴿﴿أَفَمَنْ يَمْلِكُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنَ الرِّقِّ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَذَّكَّرُ أُولَٰئِكَ الْأَلْبَسَ ﴿٦٨﴾﴾ [الرعد: الآية ١٩]. ولا يأتي هذا العمى إلا بسبب الفسوق. ولا يأتي الكفر إلا بسبب الفجور. لقوله تعالى: ﴿﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [البقرة: الآية ٩٩].

إن القلب ليبدأ بسبب المعاصي والآثام وأعني بذلك النفس أو الروح، فيكون هذا الصداً حجاباً حاجزاً دون رؤية الحق والواقع، لقوله تعالى: ﴿﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٤﴾﴾ [المطففين: الآية ١٤].

وإن هناك تلازماً بين العمل الصالح وتكامل النفس، كما أن هناك تلازماً بين

المعاصي وتسافل النفس . فلا يجزى الإنسان إلا من نوع عمله، صالحاً أو فاسداً؛ إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: الآية ١٦] .

وفي آية أخرى: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [يونس: الآية ٥٢] .

أيضاً قال سبحانه: ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الرؤم: الآية ٢٤] .

وإن هذا هو الحجاب الحاجز عن رؤية الحق فقد يكون كثيفاً إلى درجة يجعل صاحبه يسخر من الذين آمنوا، متهماً إياهم بالخرافة والرجعية، والواقع أن الرجعية هي الرجوع عن الحق إلى الجاهلية الجاهلاء . إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: الآية ٢٩] .

ولم يكن ضحكهم هذا واستهزاؤهم إلا لجرائمهم السابقة . ثم يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا مَرَأُوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ (٣٠) ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ (٣١) ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ [الأحزاب: الآيات ٣٠/٣٣] .

وقد يبلغ بهم العمى حتى تحجب عقولهم من أن تفهم أبسط عمل يقوم به المؤمن وهو أداء واجب الشكر تجاه خالقه بصلاة يصلحها لربه .

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَمَّا ذَكَرْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: الآية ٥٨] .

نعم، فقد ذهبت عقولهم، ذلك العقل الفطري الذي أودعه الله في الإنسان، فيبصر به الحق ويميزه عن الباطل . ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَلَمَّا فَرَغَ إِلَىٰ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَآذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ نَدَعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: الآية ٥٧] .

فالله جعل على قلوبهم أي عقولهم أكنة، أغطية وأستاراً حتى أمسوا لا يرون الحق ونسوا أنفسهم وذهلوا عن معالجتها وإصلاحها . إن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: الآية ١٩] ومعنى ذلك: أن تماديهم في فسوقهم هذا، جعلهم ينسون أنفسهم ويهملوها، وحاش لله أن يكون سبباً لغواية أحد وضلاله وقد أرسل ١٢٤٠٠٠ نبياً لتكميل البشر حتى جعل أول من خلق وهو آدم ﷺ، نبياً . لتسبق الهداية الخلق، إهتماماً بأمر تكامل البشر . ولكنهم لكثرة

ذنوبهم وبغيتهم أصبحوا لا يعون ولا يشعرون، فلا يفيد فيهم النصيح والهداية. إن الله تعالى يقول: ﴿ثُمَّ كَانَ عَقِبَ الَّذِينَ أُسْتُرُوا السُّورَةُ أَنْ كَذَبُوا بِعَهْدِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الرُّوم: الآية ١٠]. أي إن التماذي في الجرائم والموبقات حجب الأنوار الإلهية عنهم، حتى صاروا لا يفكرون في مصيرهم، موقنين أن ما هم عليه هو الصواب ونتيجة ذلك الاستهزاء بالحقائق الدينية وبما بعد الموت.

فإن الله تعالى وسعت رحمته كل شيء. وقد فتح باب التوبة للمذنبين من عباده، حتى جاء في الحديث (التائب من الذنب كمن لا ذنب له)^(١). فالله تعالى قد أفاض برحمته وألطفه على البشرية بأجمعها. ولكن أكثر الناس أبوا إلا الخروج من طاعته. إنه يقول: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: الآية ٧٩]. وإن ما يصيب الإنسان في حياته الدنيوية من فقر وسقم و... إنما هو لتطهيره وتزكيته وتكفير ذنوبه. فهي رحمت وألطف تزكو بها النفوس وتتطهر عما علق بها من أدران الذنوب. وفي الحديث: «ليس من المؤمن عرق ولا نكبة حجر ولا عثرة قدم ولا خدش عود إلا لأبذنب ولما يعفو الله عنه أكثر»^(٢) وليس هذا الخدش وذاك الاختلاج إلا أمراً طبيعياً لتطهير النفوس الملوثة. ذلك لأن الكامل وهو الله تعالى لا يصدر منه إلا الكمال. والتطهير هو مقدمة الكمال ولا كمال إلا به. وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول: «وعزتي وجلالي لا أخرج عبداً من الدنيا وأنا أريد أن أرحمه حتى أستوفي منه كل خطيئة عملها أما بسقم في جسده أو بضيق في رزقه وإما بخوف في دنياه، فإن بقيت عليه بقية شددت عليه عند الموت حتى يأتي ولا ذنب عليه فأدخله الجنة»^(٣).

دين الإسلام دين التكامل البشري بكل ما في التكامل من معنى سام رفيع. تكامل في علم النفس والروح لا في عالم المادة فحسب. ذلك لأن الإنسان بنفسه وروحه

(١) الكافي، ج ٢، ص ٤٣٥ باب التوبة.

(٢) مستدرک الوسائل، ج ٨، ص ٤٠٠ باب ٦١.

(٣) بحار الأنوار، ج ٩٨، ص ٢٩٦، باب ٢٤.

وليست المادة من حقيقة الإنسانية في شيء. لذلك جاء في الحديث (الصلاة معراج المؤمن). والتقوى أساس التكامل النفسي؛ قال رسول الله ﷺ: «ما اتقى الله امرء إلا وجعل الله له مخرجاً من الفتن ونوراً من الظلم ورزقه من حيث لا يحتسب»؛ والتزكية هي نوع من التكامل ولولا التزكية والتطهير لما حصل تكامل أبداً. إن الله تعالى يقول: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: الآية ٢]. وفي آية أخرى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَيُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: الآية ١٠٣].

فالعامل بما أنزل الله يؤدي إلى التزكية والتطهير. وإعطاء الزكاة يزكي المال ويزكي النفوس. والكفارات وردّ المظالم مزاكاة للنفوس عن الذنوب وأيضاً الحدود والقصاص كذلك. وكلها مراحل يتدرج فيها الإنسان في ساحات الكمال. ساحات ليس لعقولنا أن تحددها. فالكمال الذي من الله به على الإنسان، كمال لا يعلم مداه إلا الله تعالى. حتى يكون مصداق هذا الحديث القدسي: «عبدني أطعني أجعلك مثلي، تقول للشيء كن، فيكون»، وذلك بإذنه تعالى؛ كما كان لأنبيائه ﷺ وأوصيائه أنبيائه ﷺ بإذنه تعالى. وينحط الإنسان في أودية الضلال والتهيه والتسافل إلى حضيض لا يعلم مدى تسافله إلا الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: الآية ١٨٢]. إن الله تعالى يقول: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ① ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ② [التين: الآية ٥/٤].

أنظروا إلى هذا الحديث النبوي لتروا مدى اهتمام الدين الإسلامي بنظرية التكامل والكمال البشري. قال رسول الله ﷺ: «من استوى يوماء فهو مغبون. ومن كان غده شراً من يومه فهو ملعون. ومن لم يتفقد النقصان في عمله كان النقصان في عقله. ومن كان النقصان في عمله وعقله فالموت خير له من حياته»^(١).

وفي حديث آخر: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً».

لذلك يشعر المؤمن القائم بتطبيق ما جاء به الدين الإسلامي الذي أخذ يجاهد نفسه ويخالفها في مشتهياتها ونزواتها ورغباتها السلبية ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَتَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا

رَجِمَ رَبِّي ﴿٥٣﴾ [يُوسُف: الآية ٥٣] . كيف يتكامل يوماً بعد يوم وهو يجاهد نفسه الأماره بالسوء . إن الله تعالى يقول : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٦٩﴾ [التكوت: الآية ٦٩] .

وعن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام : «أن رسول الله ﷺ، بعث بسرية، فلما رجعوا قال: مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر. قيل يا رسول الله وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس»^(١). ثم قال: «أفضل الجهاد من جاهد نفسه التي بين جنبيه»^(٢). وفي حديث الإمام علي عليه السلام: «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك»^(٣).

إن الله تعالى يقول : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادْنَاهُ هُدًى وَآَنَّهُمْ نَقَبُهُمْ﴾ ﴿٧﴾ [محمّد: الآية ١٧] كل ذلك يشير إلى أن للهداية والكمال، درجات عديدة لا يمكن للبشر تحديدها : ﴿هُم دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: الآية ١٦٣] وفي آية أخرى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آَيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ [الأنفال: الآيات ٤/٢] .

فالمؤمنون مختلفون في درجاتهم عند ربهم، حسب مراتب تكاملهم النفسي . تكامل ليس للإنسان أن يحيد عنه، فإذا حاد عنه يهوي إلى الأسفل حيث لا أسفل دونه . وهذه هي الرجعية بالمعنى الصحيح دونما مغالطة . وكان من الذين خسروا أنفسهم . يقول الله تعالى : ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ ﴿١٢٢﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ ﴿١٢٤﴾ [الكهف: الآيات ١٠٣/١٠٤] . فمآله جهنم حتى يطهر في لظاها وسعيرها . لأن الله لا يريد أن يبقى شيئاً فاسداً فيما خلق . فكما أن الجرائم والمكروبات المؤذية تُعقّم بالماء المغلي، فهكذا الجرائم البشرية تُعقّم بالنار . ونستجير بالله من ذلك .

(١) الكافي: ج ٥، ص ١٢، باب وجوه الجهاد .

(٢) مستدرك الوسائل: ج ١١، ص ١٣٧، باب ١٠ .

(٣) عدة الداعي: ص ٣١٤ .

فأنت أيها القارئ الكريم، ترى في فصول هذا الكتاب بعض ما جاء في الدين الإسلامي من أحكام، وكيفية تكميل هذه الأحكام النفوس البشرية، لو عملت بها لوجه الله دونما رياء ولا رغبة في مال أو سمعة، وترى كيف تنقشع أمامك بعض الشُّبُه التي أولدها طغيان المادة وما أعقبت من شهوات ونزوات.

وفي الختام أسأل الله تعالى أن يستفيد الشَّبَّان بعد مطالعة هذه السطور فائدة تحرك جوارحهم إلى العمل بما أمر الله تعالى، خاشعين خاضعين منيبين مستغفرين نادمين تائبين، فتظهر بذلك نفوسهم وتكامل أرواحهم، فيروا أنفسهم في عالم من القدسية بعيداً عن حدود الوصف والبيان. وأن يمنَّ عليَّ بتقديم كتب أخرى على هذا المنوال، تتناول عملية تكامل الدين الإسلامي للنفوس البشرية الناهية، لاسيما في عصر طغت عليه المادة، فبغت وسحقت المقدسات والفضائل والمكرمات. فأصبح الرجل الديني مهيناً ممقوتاً وذنبه أنه يعبد الله تعالى، متمثلاً بما أمر الله، متجنباً عما نهى الله؛ والمتجاهر بالفسق موقراً محبوباً. وليعلم الشاب أن الدين الإسلامي دواء الروح وقانون تكامل النفس الإنساني والمجتمع الإنساني، وأن العمل بنصوص الدين الإسلامي يؤدي إلى تكامل في المعارف الإلهية وإلى تكامل اجتماعي. قال الإمام علي عليه السلام: «من عمل بما يعلم ورثه الله علم ما لم يعلم»^(١).

وأختم هذه المقدمة بهذا الحديث النبوي، فقد قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس توبوا إلى الله توبة نصوحاً قبل أن تموتوا وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا، وأصلحوا بينكم وبين ربكم تسعدوا، وأكثروا من الصدقة تُرزقوا، وأمروا بالمعروف تحصنوا، وانهوا عن المنكر تنصروا. أيها الناس إن أكيحكم أكثركم للموت ذكراً وإن أحزمكم أحسنكم استعداداً له. ألا وإن من علامات العقل التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والتزود لسكنى القبور والتأهب ليوم النشور»^(٢).

ومنه تعالى نستمد المعونة وبه نستعين.

(١) الفصول المختارة: ص ١٠٧.

(٢) إرشاد القلوب: ج ١، ص ٤٥، باب ١١.

لماذا وجدنا

سؤال يتبادر إلى أذهان كثير من الناس وكل يجيب عنه بشكل يتناسب مع شعوره وما وصلت إليه نفسه من الكمال وحسب شهواته ومشتهياته. فمنهم من يقول وجدنا لكي نأكل ونشرب ونستلذذ في هذه الحياة ونفنى.

لذلك يحاول أن يزداد تلذذاً وسروراً. فيسعى ليأكل لذياً ويشرب مريئاً وينام هنيئاً. وليست له غاية سوى الأكل والشرب والنوم. ومنهم من يقول وجدنا لكي نخدم الغير فهو يعمل في خدمة الآخرين دون أن يخدم نفسه. وقد يكون هو أحوج الناس إلى الإصلاح لما في نفسه من الدنس والرجس. ومنهم من يقول وجدنا للشقاء. فالحياة كلها شقاء. فهو متشائم معذب. ونريد الآن أن نحقق عن السبب الذي وجدنا لأجله. فإذا علمنا سبب وجودنا والغاية من خلقنا، عملنا وفق تلك الغاية ولنلنا السعادة. لأن السعادة إنما تتجلى بالعمل وفق الهدف المقصود والغاية المنشودة.

لننظر إلى ما حولنا من نبات وحيوان وجماد. نرى أنها كلها خلقت لأجلنا. هذه الأزهار الجميلة والفواكه المتنوعة اللذيذة والأشجار المختلفة والعقاير وأنواع الزروع كلها خلقت لأجلنا للتذوق والتلذذ والتغذي والتداوي إلى ما هنالك. يقول الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [التحل: الآية ١٠] ^(١).

﴿يُنِثُّ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَبَ وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ

(١) أي: ترعون ماشيتكم. ذرا: أي خلق. مواخر: أي جارية في الماء.

يَنْفَكُرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً ثَلَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلَكَ مَوَازِيرَ فِيهِ وَلِتَجْتَهِقُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿الرعد: الآيات ١١/١٤﴾.

وأما الحيوانات فقد سُخِّرَتْ لنا للأكل والركوب والستر. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْتَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّا تَكُونُوا بِلَيْفِهِ إِلَّا بِإِشْقٍ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَوُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [النحل: الآيات ٥/٧].

وأما الجماد فسُخِّرَ لنا للبناء والزينة والتداوي وفوائد أخرى لا تعد. يقول الله: ﴿لَقَدْ تَرَىٰ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلُكَ تَجْرَىٰ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [الحج: الآية ٦٥].

إذا كانت الحيوانات تنام وتأكل وتشرب وقد خُلِقَتْ لأجلنا وكذا الجماد والنبات، فلماذا خُلِقْنَا نحن مع علمنا أننا غير مستخرين لموجودات أخرى. وكلها مسخرة لنا. إذن ما الغاية من وجودنا؟

مع العلم بأن الذي خلق الأكوان بهذا الترتيب الرائع البديع، والذي نظم الأفلاك بقواعد رصينة رياضية متقنة، يحار فيها علماء الفلك العالي، الذي شكّل الثلج المتساقط من السماء بأشكال هندسية منظمة وأشكال مجسمة منتظمة الوجوه، الذي حرك الشمس بسرعة ٧٢٠٠٠ كيلو متراً في الساعة: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرَىٰ لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢٨﴾﴾ [يس: الآية ٣٨] لا يعمل شيئاً عبثاً ولا يلهو أبداً.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ﴿١١﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الأنبياء: الآيات ١٦/١٧]. وفي موضع آخر من القرآن الكريم:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١٦﴾﴾ [المؤمنون: الآيات ١١٥/١١٦].

فتبين من نظم خارقة رائعة نشاهدها في المخلوقات أن الحكمة متجلية في كل

زاوية من زوايا الكون. ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ فَأَتِمِصْ أَبْصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ ﴿٣﴾ ثُمَّ أَتِمِصْ أَبْصَرَ كَرْنَيْنِ يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ أَبْصَرَ حَاشِيًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ [الملك: الآية ٣/٤]. فكيف يجوز على الله أن يخلق الإنسان ويخلق لأجله جميع ما حوله ولا يقصد من وراء هذا المخلوق غاية سامية رفيعة تتناسب مع عظمته وكماله.

فظهر مما ذكرنا أن وراء خلق الإنسان، غاية دقيقة وهدفًا عاليًا يجب أن نتحراه. نرى أن ما حولنا من الأشياء يكون في غاية الكمال: فالحشرة كاملة في العالم الذي هي فيه. والذرة كاملة في غاية الكمال: الالكترونات تدور حول البروتونات بسرعة هائلة وبكمال ونظام. يتجاذب الجسمان بقوة تساوي حاصل ضرب كتلتيهما، مقسوماً على مربع المسافة بينهما مضروباً في النسبة الثابتة. ولو أردنا سرد أنواع الكمال المودع من قبل الخالق جلّ جلاله في هذا الكون، لأمكن إملاء كتب عدة بل كتب لا تتناهى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَةٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أُنْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: الآية ٢٧]. وفي موضع آخر من القرآن الكريم: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَفِدَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: الآية ١٠٩]. إذن كل شيء في هذا العالم ينادي بكمال الله تبارك وتعالى وينزهه عن كل نقص وعيب وهذا أحد معاني قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمُنُّ مِن شَيْءٍ إِلَّا يَسِيعَ بِهِ﴾ [الإسراء: الآية ٤٤]. فكيف يجوز على الإنسان أن يحيد عن سنة الكمال في عالم الكمال وأن يبقى ناقصاً في عالم التكامل.

للإنسان بُعدان: بُعد مادي وهو البدن الذي خلقه الله تبارك وتعالى وأتقن صنعه. فيه حركات غير إرادية لا دخل للإنسان فيها. وبُعد روحي وهو حقيقة الإنسان وهو الإنسان حقاً. فالإنسان إنسان بنفسه وروحه لا بعضلاته وأعصابه. نعم، قد بلغ المذهب في أوروبا في القرن التاسع عشر إلى حد قال أحد رجال المادة فيه: إن الإنسان يساوي كذا غراماً من الأزوت وكذا غراماً من الحديد وكذا غراماً من الأوكسجين وكذا غراماً من الكالسيوم... الخ كمعادلة كيميائية وليس وراء ذلك شيئاً!..

والفرق بين تكامل الإنسان الروحي وتكامل المادة أن كمال المادة كمال قسري فهري وكمال الإنسان الروحي كمال اختياري.

اتضح مما ذكرنا أن الإنسان خلق ليتكامل . والآن نتساءل بم يحصل هذا الكمال الروحي، وهل هذا الإنسان المملوء من الشهوات، وهل هذا الإنسان الذي يحمل نفساً أماراة بالسوء يستطيع أن ينظم لنفسه مناهج روحية صحيحة تؤدي به إلى الكمال المنشود، ذلك الكمال الذي خلق الله الإنسان لأجله . وهل لفيلسوف من الفلاسفة أن يضع منهجاً روحياً يؤدي بالإنسان إلى الغاية التي خلق لأجلها ويحقق علة الوجود . إذن فما هذا الاختلاف بين آراء الفلاسفة وما هذا التضارب في أفكارهم؟ وهل الفلاسفة استطاعوا أن يوجدوا إنسانية متكاملة، كما يريد الله تعالى أم هل تمكنوا من إصلاح أنفسهم؟!

إن الكمال النفسي أمر غير مادي، وإن الإنسان كثيراً ما يوفق لإصلاحات مادية واكتشافات مادية كما شاهدنا ذلك، لاسيما في القرن الأخير، ذلك لأن الخواص المادية ثابتة لا تتغير ويصل إليها الإنسان بأسلوب مادي وأعني به الاختبار والتجربة والمشاهدة، ولكنه لا يقوى على وضع مناهج روحية صحيحة تأخذ بالروح الإنساني إلى ذروة الكمال . وقد قال كوستاولوبون: «علمت الفلسفة بعد عناء طويل أن لا سبيل إلى ما وراء الطبيعة». فلا بد لنا من أطباء روحيين عالمين بخصائص الروح كي يحملوا على عواتقهم تكامل الإنسان الروحي، وهم الأنبياء سلام الله عليهم أجمعين . فهم بمنهجهم المتينة التي تأتي من وراء المادة لإصلاح ما هو وراء المادة (أي النفس) يوصلون الإنسان إلى ذروة الكمال، فيعرفون الله، يبينون الحلال والحرام والمدارج التي لو سلكها الإنسان لبلغ مرتبة الكمال المطلوب، ولتقرب شيئاً من معرفة رب العباد . وقد جاء في الحديث القدسي عن الله تعالى: «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق لكي أعرف».

أترى أن من لم يتبع مناهج الأنبياء الروحية تكون له نفس قميئة بأن يحل فيها حب الله، وبأن يعرف الله تبارك وتعالى . فإن معرفة الله تتناسب مع الكمال النفسي: «من عرف نفسه فقد عرف ربه . . الحديث» ولا تأتي هذه المعرفة إلا بعبادة الله تبارك وتعالى . فكلما عبد الإنسان ربه بخشوع وخضوع، عبده بصلاة مقبولة وحج مقبول وزكاة مقبولة وصدقات مقبولة وخمس مقبول وجهاد مقبول وأمر بالمعروف ونهى عن

المنكر خالصاً لوجهه الكريم، عبده بأعمال صالحة، كان أقرب إلى معرفة الله تبارك وتعالى، قريباً من الغاية التي وجد لأجلها. وما قدمناه فهو شرح للآية الشريفة: ﴿رَمَّا خَلَقْتُ الْإِنْسَ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادُونَ﴾ [الذاريات: الآية ٥٦]. فالعبادة ليست الصلاة والصوم فحسب بل تتجلى العبادة في الصلاة والصوم والزكاة والخمس والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والأعمال الصالحة، كقضاء حوائج الناس وصلة الرحم وبر الوالدين والتخلق بالأخلاق الإسلامية والتفقه في الدين والاعتبار بما أودع الله في الطبيعة من قوانين وخواص. نعم، تتجلى العبادة في تطبيق السنن والفرائض التي بها يكون الإنسان إنساناً كاملاً. فتزداد بدرجة تطبيقه وإخلاصه، معرفته بالله تعالى. فإن الله لم يخلقنا إلا لأجله أي لأجل أن نعرفه ونزداد معرفة به يوماً بعد يوم. فقد جاء في حديث قدسي: «خلقت الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي».

فطوبى لمن أدرك الغاية وعمل في تحقيقها ولم تخدعه زيارج الدنيا ومُغرياتها ومناصبها فخرج من هذه الدنيا طاهراً مطهراً نقياً. فقد «خُفت الجنة بالمكاره وخفت النار بالشهوات».

ماذا يراد من الدين؟

كثيراً ما يدور على ألسنة بعض الشباب المثقفين: إن الدين لم يعلمنا شيئاً عن الكيمياء والفيزياء، ولم يقدم للمجتمع اكتشافات كالتلفزيون واللاسلكي وغير ذلك. وإن المكتشفين والمخترعين كنيوتن، وهرتز، وأديسون، ودالامبر قدّموا إلى العالم اكتشافات هامة ومخترعات مفيدة ووسّعوا أفق العلم وفتحوا أذهان الناس وسخروا الطبيعة، فأفادوا العالم بعلومهم وتنقيبهم وفحوصهم. فأبي اكتشاف قدّمه أحد من الأنبياء؟ وأية ماكنة اخترعها الأوصياء؟ فيصغر في أنظارهم الأنبياء سلام الله عليهم أجمعين ويصغر الدين معه، فيرونه فارغاً خالياً من مادة مفيدة، فيعدونه خرافة وزخرفاً من الزخارف، أو بلاء مانعاً عن التقدم. فتراهم يابون من أن يوردوا اسم الله أو يقولوا ﴿يَسْمِ اللَّهَ الْكَفَرُ الْكَفَرُ﴾ ويعدونها تراجعاً إلى الوراء أو منقصة في لغة الثقافة

الحديثة أو وصمة خرافية يوصم بها قائلها، يعظمون المكتشفين أيما تعظيم ويوقرون الفلاسفة أحسن توقير، فإذا ذكر اسم أحد الأنبياء سخرؤا منه وتبسموا تبسماً فيه شيء من الازدراء والتوهين. كل ذلك لأنهم ينتظرون من الأنبياء معادلات كيميائية وقوانين فيزيائية. أو معادلات تفاضلية أو قانون الكسوف في الفلك العالي أو معادلات الحركة في الميكانيك الرياضي... .

وقد فاتهم أن الإنسان يتكوّن من نفس وبدن، فكما أن للبدن أمراضاً وحاجات، فكذلك للنفس أمراض وحاجات. وأن حاجات البدن ترجع إلى قوانين ثابتة مستقرة يصل إليها الإنسان بالاختبار والتجربة والمشاهدة عاجلاً أو آجلاً. فإن الخاصية المودعة من قبل الله تبارك وتعالى في الأجسام، ثابتة لا تتغير، بل يظفر عليها الإنسان عن طريق الفحص والتتبع والتجربة والصدفة.

(الأجسام تسقط. حجمان من غاز الايدروجين وحجم من غاز الاوكسيجين بعد إمرار تيار كهربائي يتحدان ويشكلان ماءً. الحرارة تمدد الأجسام. إلى ما هنالك). فالمخترع لا يأتي بشيء جديد بل يفتش عن خواص وقوانين أودعها الله في هذا الكون بتجارب ومحاكمات، وعقل منحه الله إياه، ولولا العقل والمحكمات والاستنتاج والاستقراء لما استطاع على ذلك. وبالعقل يمتاز الإنسان عن الحيوان. وترد نظرية داروين التكاملية وتفند سفسطة الحلقة المفقودة.

وهل يستطيع مخترع أن يأتي بخاصية غير ما أودعه الله في الأجسام؟ كلا، فالاختراعات أمور مادية ثابتة لا تغيير فيها، يصل إليها الإنسان باختبارات، ولا حاجة إلى نبي يملي على الناس القوانين الفيزيائية والكيميائية. والدليل على ذلك وصول الإنسان بنفسه إلى كثير منها بنتيجة قوى أودعها الله تعالى فيه ولا يعلم هل تقدم الإنسان بنتيجة هذه الاكتشافات روحياً وأخلاقياً أم تراجع؟ وهل استفادت الإنسانية وقطعت بذلك أشواطاً في الكمال النفسي والسمو الخُلقي أم لا؟ ثم أترى أن لخواص الأشياء وقوانين الفيزياء حداً ونهاية؟ فإن علم الله لا نهاية له، والخواص والقوانين التي أودعها الله في هذا الكون لا نهاية لها، وهذا معنى قوله تعالى:

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِثْقَالَ رَيْبٍ لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنفِذَ كَلِمَتِي رَبِّي وَلَوْ جِثَّتَا مِثْقَلَيْهِ مِثْقَالًا﴾
[الكهف: الآية ١٠٩] .

الأنبياء سلام الله عليهم بُعثوا لإصلاح النفس وتهذيب الروح . لأن الإنسان، إنسان بنفسه وروحه، وإن أمراض الروح أعقد من أمراض البدن، وإن معالجتها أصعب من معالجة أمراض البدن . إن وصفات الأطباء تعالج الأبدان لو صادفت نفس المرض ونفس الشروط وكان التشخيص صحيحاً؛ إلا أن الوصفات الروحية تؤثر في كل نفس حسب قابلية تلك النفس . فهي مشتبكة مرتبكة .

اتوا بثلاثة أشخاص مصابين بالمalaria، فإنهم يعالجون بوصفة واحدة عاجلاً أو آجلاً . ولكن لو أعطي لهؤلاء الثلاثة قوانين روحية وطبقوها على أنفسهم فلا يصلون إلى نتيجة واحدة . وكل يصل إلى غير ما وصل إليه الآخر حتى لو عورة أمر النفس وصعوبته؛ وعدم دخول النفس تحت قوانين ثابتة مطردة سهلة التناول . وعلى فرض وجود قوانين نفسية ثابتة، ليس للإنسان بما هو إنسان أن يكتشفها، وأن ما يكتشفه في هذا الحقل خيالات وأوهام . فإنه يظن أنها حقائق يستلذ بها . ذلك لأن الأساليب المادية لا تقوى على حل غوامض ما وراء الطبيعة . وقد يمكن تشبيه ذلك بالمعادلات العالية في الرياضيات كـ (ع = جا س) التي لا تقبل فيها (س) و (ع) التضعيف والتنصيف في وقت واحد أو بمعادلات الكميات المبهمة أو المحدثات التي نشاهدها في الهندسة التحليلية أو الجبر العالي، وإن بُعد التشبيه . نعم إنا كثيراً ما نشاهد في كتب الفلسفة وعلم النفس استعمال الحساب التكاملي (Integration) عند البحث عن الإحساس والشعور ولكن ذلك غير ثابت ولن يثبت وإنما هو مجرد اقتراح واحتمال . فلا سبيل إلى قياس القضايا الروحية بمقاييس مادية .

الأنبياء ﷺ بُعثوا ليعالجوا ما لم يستطع الإنسان أن يصل إليه بنفسه إلى طريق معالجته . بُعثوا ليعالجوا الأمراض النفسية، هذه النفس الأمارة بالسوء التي يرقبها الشيطان في كل آن وهو لها بالمرصاد .

بُعثوا ليقرروا قوانين روحية لكي يتكامل الإنسان بها ويخرج من دور الطفولة

والبهيمة والوحشية فيكون إنساناً كاملاً بل أعلى مرتبة من الملائكة فتكون الملائكة عند ذاك خداماً له .

بُعثوا ليحرروا النفس الإنسانية مما تلوثت به من دنس ورجس وخبث ولوم . بعثوا ليقرروا الآداب التي لو عمل بها الإنسان كان جديراً بأن يخلد مع الأنبياء والصديقين في جنة ﴿عَرَضُهَا أَسْكَنْتُ وَأَلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: الآية ١٣٣] بعثوا ليعلمونا الطرق التي تقربنا إلى الله، وكيفية عبادته تعالى وطرق الشكر .

بُعثوا ليعلمونا الحلال والحرام ؛ لأن النفس الإنسانية تتردى وتتدنس بالحرام وتزكى وتتطهر بالحلال . بُعثوا ليعرفونا آداب المعاشرة والاجتماع . بعثوا ليعلمونا الأعمال الصالحة التي بها تزكو النفس وتخرج من الظلمات إلى النور ؛ ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: الآية ١١٤] . بُعثوا ليبينوا للإنسان ماله وما عليه، ليحاسب نفسه كل يوم ولا يتكبر، فإن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿سَاءَ صِرْتُ عَنْ ءَايَتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ ءَايَةٍ لَا يُؤْمِنُوهَا وَإِنْ يَرَؤا سَيْلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَؤا سَيْلَ الْغِيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَبُوا بَعَايَتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٦] .

بُعثوا ليجعلوا الإنسان بين الخوف والرجاء، فهو خير ميزان يحث الإنسان على العمل الصالح، ويبعد الإنسان عن الموبقات والمناهي . فقد جاء في الحديث تنويعاً بالعبد الصالح : «لو وُزن خوف العبد ورجاؤه لم يرجح أحدهما . وإذا عظم الخوف كان أذعَى إلى السلام» . وفي حديث آخر :

«إن الله أنزل في بعض كتبه وعزتي وجلالي لا أجمع لعبدي المؤمن بين خوفين وأمنين . إذا خافني في الدنيا أمنت في الآخرة وإذا أمنتني في الدنيا أخفتني يوم القيامة»^(١) ، وقوله تعالى إذ يَمُنْ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَذُرِّيَّتِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ : ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ [ص: الآية ٤٦] . وهي ذكر الآخرة والتهويل لها .

بعث الأنبياء ليقووا الرابطة بين العبد وربّه، ليزداد تقرباً بالطاعة . فإن الكمال الإنساني يتناسب تناسباً طردياً مع التقرب إلى الله جلّ شأنه، ثم يزداد اطمئناناً كلما زادت هذه الرابطة

(١) مستدرک الوسائل : ج ١١ ، ص ٢٣١ ، باب ١٤ ، مع اختلاف في اللفظ .

فإنه تعالى يقول: ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ ظَنِينَ الْقُلُوبِ﴾ [الرعد: الآية ٢٨] .

بُعث الأنبياء لإبلاغ الإنسان إلى «مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» .

فالأنبياء يخاطبون النفس، لأن هدفهم تكامل النفس وما جاء في تعاليمهم صلوات الله عليهم مما يتعلق بالبدن والمأكّل والمشرب إنما هو من باب اللطف، أو لأن لذلك أثراً حسناً في تكامل النفس. إذ أنه ما من شيء يدخل في جوف الإنسان وما من حركة يقوم بها الإنسان إلا ولها أثر في تكامل النفس. ولعلنا نوفق إلى تفصيل ذلك في كتاب آخر إن شاء الله.

وقد بلغني أن شاباً كان يفاضل بين سياسي، فتح الأمصار وبين نبي، هدى الناس سواء السبيل. في حين أن ذلك السياسي لم يعمل إلا في تعمير المعدة والأمعاء، والنبي ﷺ يعمل في تعمير النفوس والأرواح. وما قيمة عمران يُفسد فيه الروح. ولو كان في استطاعة الإنسان أن يصل بعقله إلى القوانين المثلى التي بها كمال النفس ونجاتها وفوزها لما أرسل الله الأنبياء ولوكل الإنسان إلى عقله. ولكن العقل تغلب عليه الشهوات فينقلب إلى أهواء بصورة عقل ويؤدي بالشخص إلى أسفل درك من الجحيم. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ① ثُمَّ رَدَدْتُهُ أَسْفَلَ سَفِيلِينَ ② إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ③ [التين: الآيات ٤/٦]. ولقد توالى عدد غير قليل من الفلاسفة ورجال الأخلاق؛ اختلفت مشاربهم ومآربهم وآراؤهم ولم يتمكنوا إصلاح أنفسهم فكيف بالآخرين.

الأنبياء بعثوا ليملوا على الناس المثل العليا التي بها كمال الروح والسعادة الأبدية ولكي يكونوا قدوة صالحة.

فمن من هؤلاء الذين هم خطباء الأخلاق، وبتعبير أقرب: كتاب الفضيلة بلغ من الفضيلة مرتبة سامية توهله، ليكون قدوة لغيره كما يرتضيه الله تبارك وتعالى. فقد رأيت أستاذ فلسفة الأخلاق في إحدى الجامعات، أبعد شخص عن الأخلاق وأسوأ قدوة للمثل العليا، ما ترك منكراً إلا وارتكبه، فإذا سألته عن سبب ذلك أجاب بجواب خيالي سوفسطائي شعري لا قيمة له.

وإن بعض الأنبياء علموا الناس من باب اللطف من الصنائع والعلوم ما به يدفع الشر ويجلب الخير. فهذا داود عليه السلام، علّم الناس - بعد أن علّمه الله تعالى - صناعة الدروع وهو قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِنُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٨٠]. وإن النبي ﷺ قد سئل عن مسائل عدة في فنون مختلفة لا علاقة لها بالدين، فأجاب عنها بوحى من الله دون أي تفكير. وتفصيل ذلك يحتاج إلى مقال خاص. وإن علياً عليه السلام سئل عن مسائل رياضية صعبة ومسائل في الفيزياء والفلك والحيوان والنبات، عجز عنها الناس فحلّها وأجاب عنها بصورة مرتجلة. وإن الصادق عليه السلام أملى على تلميذه جابر بن حيان الكوفي خمسمائة رسالة في ألف ورقة عن الخواص الكيميائية والطبيعية. وكان علماء الكيمياء من قبله كخالد المتوفى سنة ٨٥هـ يروون عن علي عليه السلام موازين الصناعة. فالنبي على ما نعتقد هو أعلم أهل زمانه حتى في علوم لا تمت إلى الدين بصلة، تمييزاً له عن سائر الناس وتفضيلاً له على الآخرين.

فمن أراد الحياة الأبدية، حياة رفيعة متصلة بالكمال الأبدي، حياة ليس فيها خوف ولا حزن، حياة فوق حدود التصور والخيال، فليعتمد إلى تطبيق تعاليم الدين الحنيف، ليرى كيف يتجلى يوماً بعد يوم وكيف تترفع نفسه عن حضيض المادة سائراً إلى أوج الملكوت. ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: الآية ٦٢].

دين العقل

يمتاز الدين الإسلامي عن سائر الأديان بأن كل ما جاء فيه يوافق العقل المجرد عن الوسواس الشيطانية غير الملوث بالمعاصي والآثام. وقد أعطى للعقل قيمة سامية وجعله آلة التمييز. فقد قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ (٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: الآيتان ١٧/١٨]. ولا يمكن تشخيص أحسن القول إلا بالعقل المجرد عما يلوث النفس ويوبقها ويرديها. فقد روى محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: «ولما خلق الله العقل استنطقه ثم قال: أقبل فأقبل. ثم

قال: أدبر فأدبر، ثم قال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحب إليّ منك ولا أكملتك إلا فيمن أحب، أما إني إياك أمر وإياك أنهى وإياك أعاقب وإياك أثيب^(١).

نستتج من هذا الحديث بقول الله: «أقبل، فأقبل، ثم قال: أدبر فأدبر»، إن العقل بصورة فطرية وطبيعية يطيع أوامر الله تعالى. إذ أن أوامر الله منطقية وطبيعية ولا تخالف الفطرة وإن الإطاعة صفة غريزية في العقل. وهذا هو معنى الفطرة. وبهذا أتم الله الحجة على عباده، فلا يغفر الله لمن أشرك ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: الآية ٤٨]. يقول الله إتماماً لحججه على الخلق أجمعين: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: الآيتان ١٧٢/١٧٣]. فالله تبارك وتعالى قد أشهد الناس في عالم الذر على أنفسهم وأخذ منهم الإقرار والاعتراف بربوبيته تعالى. فليس لأحد أن يقول: لو شاء الله لكنت مؤمناً، لأن الله الأمر بالإيمان والغارس روح الطاعة والتمسك بالوحدانية في عقل الإنسان ونفسه لا يريد بالإنسان إلا الإيمان به والإطاعة له. ثم جاء في ذيل الحديث: (ولا أكملتك إلا فيمن أحب). أي إن الله لا يكمل إلا عقل من يحبه. وكيف تحصل هذه المحبة؟ أليس بالطاعة؟ أي باجتناّب كل ما نهى عنه العقل والشرع، وبالقيام بكل ما أمر به العقل والشرع. إذن أقرب الناس إلى الله أكملهم عقلاً. وأبعد الناس منه تعالى أضعفهم عقلاً. فالعقل: «ما عُبد به الرحمن واكتسب به الجنان» كما جاء في الحديث عن الإمام علي عليه السلام.

إن الدين الإسلامي دين تفكر وتدبر، دين تمحيص وتعق، دين المنطق الصحيح والمحاكمات المجردة عن كل عصبية ووسوسة. وهو القائل: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمّد: الآية ٢٤]. إن الله تبارك وتعالى قد عظم أمر العقلاء وخصص التدبر في آياته بهم بقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

وَالْفُلْكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَيَتَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿البقرة: الآية ١٦٤﴾ . ويقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَكَوُنُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلِيَبْلُغُوا أَجَلَآ مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [غافر: الآية ٦٧] . ويقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الرؤم: الآية ٢٤] . فالقرآن يدعو الناس إلى التعقل ويخاطب العقل في كثير من آياته . ولا يريد بالناس أن يقبلوا شيئاً دونما تعقل ودونما برهان . فدين الإسلام دين البرهان ودين الدليل . يقول الله تعالى في لزوم اتباع البرهان والدليل: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرًا تِلْكَ آمَانِيَّتُهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة: الآية ١١١] . نعم، هناك آيات كثيرة في القرآن تأمر بالتعقل، وتحذر العباد من عدم التعقل والتفكر بقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمِعُ الْأُصْمَ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [يونس: الآية ٤٢] . ثم إنه يمدح المتفكرون بقوله: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ ثَمَرٍ إِذَا تَلَوَّاتِ فِي ثَعْلَابِهَا سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بَطْنِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَفْكُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل: الآية ٦٨/٦٩] . فمنهج القرآن في الدعوة إلى الحق هو منهج العلوم الطبيعية الحاضرة . يستند إلى التجربة والملاحظة والاستقراء والاستنتاج . نعم، إن موضوع الآيات الكريمة المتقدمة وكثير من آيات أخرى هو نفس موضوع العلم الطبيعي بأوسع معانيه ما عرفه الإنسان وما سيعرفه، لأن العلم الطبيعي يبحث عن الأشياء الكونية، طبائعها وخواصها والعلاقات التي بينها ولكنها لا تصل إلى حقيقتها . فالعلم الطبيعي موضوعه آيات الله المودعة في الأشياء كلها . إن القرآن جاء بأصول الملاحظة والطريق البرهاني في وقت كان الغرب فيه جاهلاً هذه الأصول . لأنهم كانوا يعتقدون أن الإنسان يصل إلى ما يشاء بطريق عقلي بحت، دون أن يحتاج إلى التجربة والملاحظة . كانوا كثيراً ما يكتفون للوصول إلى الحقائق العلمية وأسرار الكون بالجلوس والتفكر .

فكانوا يصلون إلى قضايا كلية يزعمون أنها حقائق دون أن يدعمها دليل . ثم يبنون على هذه القضايا الموهومة قضايا أخرى هي أوهن من بيت العنكبوت . كان يقول فيثاغورث عن الكون: أنه متفرد كامل كروي، لأن الكرة أكمل الأشياء . وإنه حي عاقل، لأن ما هو حي وعاقل خير مما ليس بحي وعاقل . فإن القرآن ينكر مثل هذا النوع من الاستنتاج الخيالي . وقد أدى بالفلاسفة التخيل الباطل في ساحات العلم حتى قالوا: إن للأجرام السماوية في أفلاكها نغمات يطرب لها من يسمعها، وإن لهذه الأجرام أثراً كبيراً فيما يصيب الإنسان من نحس أو سعود . وقد سرت هذه الفلسفة الزائفة إلى الشرق وأدت إلى تبلبل العقائد وإدخال كثير من الخرافات في الدين الإسلامي . وإن فلاسفة الإسلام أخذوا يفسرون الدين الإسلامي على ضوء هذه الخرافات ويؤولون القرآن وفق نظريات أفلاطون وأرسطو . ذلك لأن علماء القرون الوسطى وهم تلامذة الفلسفة اليونانية ما كانوا يعتمدون على عقولهم وتجاربهم ومشاهداتهم وإنما كان الدليل هو رأي الفيلسوف . فكل ما وافق رأي الفيلسوف فذاك علم وذاك هو الحق، وما خالف ذلك، فليس بعلم . إلا إذا أمكن إرجاع ذلك بتأويل ما إلى ما يقوله أفلاطون أو أرسطو مثلاً، دون أن ينظروا في حجة أرسطو وأنه منطقي تويده التجارب والمشاهدات والمحاكمات الصحيحة أم لا . فابتلى الدين الإسلامي بشتى الخرافات وشتى المذاهب، أتته من الفلسفة اليونانية . وقد عالج ذلك بعض علماء الإسلام ولكنهم لم يستطيعوا قلعها وقمعها . مع أن الدين الإسلامي ينهى عن كل خرافة وكل ما لا يويده العقل والمنطق الصحيح والحجة القطعية وينهى عن إتباع الظنون والتخيلات الواهية، بقوله: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا خُرُوصُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٨] . قد أمر باتباع العلم الصحيح وأثنى على العلماء ومدحهم في كتابه المجيد بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْكُفْرَ لِيَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتٍ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٩٧] . ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَافُ أَسِنَّاتِكُمْ وَلُؤْلُؤُكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّعَالِمِينَ﴾ [الرؤم: الآية ٢٢] .

أنظروا كيف يويد القرآن طريقة التجربة والملاحظة واستعمال الحواس الخمس . يقول

الله تعالى في لزوم استعمال البصر والعقل: ﴿قَدْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: الآية ٢٠] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَائِرٌ وَيَقْبِضْنَ﴾ [المُلْك: الآية ١٩] .

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (٧) ﴿وَالِى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ (٨) [الغاشية: الآيتان ١٧/١٨] . ويقول تعالى في لزوم استعمال السمع مع العقل: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الحج: الآية ٤٦] . ويقول جلّ جلاله في لزوم استعمال السمع والبصر مع العقل: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٩) [التحل: الآية ٧٨] . ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: الآية ٣٦] . ويقول تعالى في لزوم استعمال جميع وسائل المشاهدة مع العقل: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: الآية ١٨٥] . وهكذا يحث القرآن الكريم على استعمال جميع الحواس والمواهب للوصول على أحسن سبل الهداية بقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ (١٠) ﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أَوَّلُ الْأَلْبَابِ﴾ (١١) [الزمر: الآيتان ١٧/١٨] .

فالدين الإسلامي يخاطب العقل ويحث على التمسك بالبرهان والدليل وينهى عن الظن والتخيل والخرافات ويأمر باستعمال طرق المشاهدة والتجربة وحسن الاستنتاج وينهى عن المغالطة والتدليس . ولا أعلم ديناً أو مبدءاً أو مسلكاً أو طريقة عدا الدين الإسلامي جعل البرهان شعاراً وطرق التجربة والمشاهدة معياراً وترك الظن والخيال دثاراً . ذلك لأنهم إن فعلوا ذلك أخفقوا ولم يجدوا من تابعين .

٢ - قد بينا في المقال السابق أن الله تعالى قد أودع في الإنسان عقلاً لو لم يلوث بالذنوب والمعاصي ولم يترد ولم يتسافل يهتدي به الإنسان إلى أحسن السبل وأنجعها ، ويعترف بربوبيته تعالى وبوحدانيته ، وتكون درجة هدايته متناسبة مع درجة طهارة عقله ونفسه . هذا مونتي الفيلسوف المربّي قد وصل بعقله أي بطريق المشاهدة والتفكير إلى وحدانية الله تعالى وأنه خالق كل شيء . إنه كان يقول: ليس للذكر أن يخلق لنفسه أنثى، لأنه عاجز عن أن يتصرف في نفسه، فلا بد أن يكون خالق الذكر هو الذي قد

خلق الأنثى لتداوم النسل البشري. وأن الله تعالى يقول في قرآنه الكريم: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: الآية ١٨٩]. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرُّوم: الآية ٢١]. فقد بلغ مونتني بتفكيره الطبيعي إلى مفاد الآية الشريفة المذكورة. ذلك لأن الله تعالى قد أودع قابلية التفكير والتدبر في خلق السموات والأرض في الإنسان بصورة طبيعية: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: الآية ١٩٠]. فالإنسان يصل إلى الاعتراف بالله ويوحدايته تعالى لا محالة إن لم تدنس نفسه بالجرائم والموبقات والانغماس في الشهوات، فتفسد هذه القابلية وتمحى هذه الموهبة. فيكون أعمى لا يبصر الحق في الدنيا ويحشر أعمى في الآخرة. إذ يقول عند الحشر: ﴿وَتَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [١٢٦] قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا [١٢٥] قَالَ كَذَلِكَ أَنتَكَ ءَابِتْنَا فَسَيِّئًا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنصَّبُ [١٢٧] وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى [١٢٧] طه: الآيات ١٢٤/١٢٧].

وقد قلنا في مقال سابق أن الفلسفة اليونانية المملوءة بشتى الخرافات قد أثرت في الدين الإسلامي وأدخلت فيه جملة من الخرافات: كالاقرار بأثر النجوم وحركاتها وأوضاعها في سعادة الإنسان وشقائه. وقد نفى الإسلام ذلك وشدد التنكير عليه وعلى أمثاله وفسر القضاء والقدر تفسيراً هو غاية المنطق وتمام الحكمة ولا مجال هنا لتفصيل ذلك. وإن أمير المؤمنين عليه السلام: أظهر لبعض أصحابه عزمه على المسير إلى الخوارج، فقال له أحدهم يا أمير المؤمنين إن سرت في هذا الوقت خشيت أن لا تظهر بمرادك من طريق علم النجوم، فأجابه عليه السلام: «أزعم أنك تهدي إلى الساعة التي من سار فيها صرف عنه السوء وتخوف الساعة التي من سار فيها حاق به الضر. فمن صدق بهذا فقد كذب القرآن واستغنى عن الاستعانة بالله في نيل المحبوب ودفع المكروه. وتبتغي في قولك للعامل بأمرك أن يوليك الحمد دون ربه. لأنك بزعمك، أنت هديته إلى الساعة التي نال فيها النفع وأمن الضر». ثم أقبل عليه السلام على الناس فقال: «أيها الناس إياكم وتعلم النجوم إلا ما يهتدى به في بر أو بحر، فإنها تدعو إلى الكهانة

والمنجم كالكاهن والكاهن كالساحر والساحر كالكاfer والكافر في النار، سيروا على اسم الله^(١). فبدد علي عليه السلام شمل الخوارج وكان النصر حليفه، خلافاً لما ادعاه من كان يعترف بتأثير النجوم في الفتح والنصر.

إن الدين الإسلامي يشجع كل علم يؤدي إلى انفتاح البصائر وبنير الطريق ويهدي الناس إلى الفلاح والصلاح ويحبذ تعلم الفلك أو الهيئة، ويدرس علم الهيئة مع العلوم الدينية في كليات العلوم الدينية على اختلاف مناهجها. وقد ألقت كتب جملة من قبل علماء المسلمين في علم الفلك لمعرفة القبلة والاستهلال والوقوف على بعض ما أودع الله تعالى من نظم ثابتة متقنة وقوانين رياضية محكمة في سير الأفلاك والأنجم. ولكن الدين الإسلامي يستنكر كل خرافة تؤدي إلى الوسوسة ورخاوة الأعصاب والفتور والقنوط كالإعتقاد بتأثير أوضاع النجوم في نحوسة أو سعود. فعن النبي ﷺ: من صدق منجماً أو كاهناً فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ^(٢). وعن الصادق عليه السلام: «إن المنجم ملعون والكاهن ملعون والساحر ملعون»^(٣) وفي رواية عبد الملك ابن أعين المروية عن الفقيه: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إني قد ابتليت، فأريد الحاجة. فإذا نظرت إلى الطالع ورأيت الطالع الشر جلست ولم أذهب فيها، فإذا رأيت الطالع الخير، ذهبت في الحاجة. فقال لي تقضي؟ قلت نعم، قال: أحرق كتبك»^(٤).

إن الدين الإسلامي ينهى عن كل ما يجعل الإنسان خيالاً خاملاً ذليلاً في حياته ويأمره بكل ما يجعل الفرد كاملاً نشيطاً، فعالاً، مقدماً في حياته. إنه ينهى عن السحر والعمل به ويعدّها من المعاصي الكبيرة. يقول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ

(١) بحار الأنوار: ج ٣٣، ص ٣٦٢، باب ٢٣.

(٢) وسائل الشيعة: ج ١٠، ص ٢٩٧، باب ١٥.

(٣) وسائل الشيعة: ج ١١، ص ٣٧١، باب ١٤.

(٤) من لا يحضره الفقيه: ج ٢، ص ٢٦٧، ح ٢٤٠٢.

فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْمَعْرِ وَرَزَقِهِمْ وَمَا هُمْ بِضَآئِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَيْئِكَ مَا شَكَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٧٢﴾ [البقرة: الآية ١٧٢].

إن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ فتعليم السحر كفر بنص هذه الآية الشريفة، والعمل به وإضرار الناس بسببه معصية كبيرة. وكذا يستفاد من قوله تعالى: فلا تكفر، لأن العمل بالسحر على حد الكفر. ثم يقول الله تعالى في الآية الثانية، بأن الإيمان والتقوى بابان لنيل مشيئة الله تعالى وطريقان قويمان للسعادة، فلا ينبغي أن يسلك أحد لنيل مآربه المشروعة طرق السحر والخيال، بل ينالها من طريق الإيمان والتقوى والعمل الصالح والفعالية والجد في الطرق المشروعة الموافقة للشرع والعقل. إن الدين الإسلامي ينهى عن إتباع الخيال وكل خرافة مبدؤها الخيال والظنون. لذلك يعبر عن السحر بالخيال بقوله جلّ من قائل: ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ بِخِطْلٍ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ تَسَعَى﴾ [طه: الآية ٦٦].

إن الدين الإسلامي حرّم إحضار الأرواح وإحضار الجن والاعتماد على هذه الوسائل الخيالية، على أن هذه الأمور الخيالية التي لا يدعمها دليل قطعي علمي، قد أثرت إلى حد ما في توجيه أوروبا نحو الاعتقاد على ما بعد الموت وخلود الروح توجيهاً ناقصاً لا يرتضيه العقل المجرد عن الوسواس الشيطانية.

أنظروا كيف يعظم الدين الإسلامي التفكير والتعقل والتدبر. يقول رسول الله ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه: «ركعتان مقتصدتان في تفكير خير من قيام ليلة والقلب ساه»^(١). وقد جاء في الحديث: «تفكر ساعة خير من عبادة سنة». وكان علي رضي الله عنه يقول: «ما عبد الله بشيء أفضل من العقل، وما تم عقل امرئ حتى تكون فيه خصال شتى: الكفر والشرك منه مأمونان، والرشد والخير منه مأمولان، وفضل ماله مبذول وفضل قوله مكفوف ونصيبه من الدنيا القوت، لا يشبع من العلم دهره، والذل أحب إليه مع الله من العز مع غيره. والتواضع أحب إليه من الشرف، يستكثر قليل المعروف من غيره ويستقل كثير المعروف

من نفسه. ويرى الناس كلهم خيراً منه وأنه شرهم في نفسه، وهو تمام الأمر^(١).

العقل والإيمان

إن العقل الإنساني قد جهّز بقابليات ربانية يتوجه بسببها بصورة طبيعية إلى الحق والواقع ويعترف بربوبية الله تعالى وأنه خالق كل شيء وأن من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى يجزى جزاءً حسناً وأن من أساء من ذكر أو أنثى يجزى حسب عمله، إن لم يمح ذلك بأعمال صالحة أخرى وتوبة واستغفار. ولسائل أن يسأل: فماذا الجحود الذي نشاهده في كثير من الناس، وما هذا الإنكار لعظمة الله تعالى؟ ولماذا يعبد بعض الناس مع مالهم من عقول ما يصنعونه بأيديهم من صنم أو ما يقومون بتربيته وإعاشته من حيوان؟ ألم يمن الله عليهم بعقل أم جردوا من القابليات الفطرية؟ إذن ما معنى: ﴿فَأَقْذِرْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَوِيمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الرُّوم: الآية ٣٠]. لماذا نرى بعض الفلاسفة مع ما أوتوا من قابليات عقلية فائقة، ملحدين جاحدين؟ لماذا بعض علماء الطبيعة أو الفلك غير موحدين؟ لماذا نرى نفرأ من الشبان مع دراسات سطحية ناقصة ينكرون الخالق الذي خلقهم وقد تأثروا بسخافات المتطرفين، ونرى شباناً آخرين في مستواهم، يعبدون الله تعالى بخشوع وخنوع، يصلُّون ويصومون، لا تأخذهم في الله لومة لائم؟ نرى علماء درسوا دراسات عُليا عميقة متمسكين بالدين غاية التمسك عن دليل وبرهان ويقين، ونرى آخرين مثلهم يحسبون الدين من الأمور الكمالية، لا يفكرون في مصيرهم وما سيؤول إليه أمرهم بعد الموت، ولا يكادون يعتقدون بأمور الآخرة والمعاد؟ ماذا التفاوت وماذا الاختلاف؟ ولقد يحار بعضهم بادئ ذي بدء ويظن أن الله تعالى هدى ثلثة من الناس دون بعض، فيسند عدم العدالة إلى الله الذي تنزه عن كل نقص. ﴿سُبْحَنُكَ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً﴾ [الإسراء: الآية ٤٣]. ولو رجع إلى نفسه، تلك النفس التي تلوث بأنواع المعاصي وضروب من الآثام، تلك النفس التي لم تطع الله طرفة عين

(١) أصول الكافي: ج ١، ص ١٧، كتاب العقل والجهل.

أبدأ وقد ملئت ظلماً وجوراً، تلك النفس التي خالفت كل ما أملى عليها العقل بشأن الوالدين والأهل والأرحام والأصحاب وكل ما يحوط به، لعلم أن نفسه هي التي أغلقت عليه أبواب الهداية وأنه هو سبب ضلال شخصه. نعم، قد هيا الله تعالى له أسباب الهداية ووسائل التوبة والإنابة فأبى إلا أن يشرّد ويحجم ويثابر في غيه وطيشه حتى اسودت من أوساخ الآثام والإجرام نفسه فأصبحت عمياء لا ترى ولا تبصر الواقع. ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: الآية ٧٢]. ﴿صُمُّ بَكْمٌ عَمَى فَمَنْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٨]. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: الآية ٦/٧]. فإن الأخلاق المذمومة هي الحجب المانعة عن المعارف الإلهية والنفحات القدسية. إذ هي بمنزلة الغطاء للنفس، فما لم يرتفع عنها لم تتضح لها جليلة الحق اتضاحاً. وكيف والقلوب كالآواني، فإذا كانت مملوءة بالماء لا يدخلها الهواء. فالقلوب المشغولة بغير الله لا تلج فيها معرفة الله وجهه وأنسه وإلى ذلك أشار النبي ﷺ: «لولا أن الشياطين يحومون إلى قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السموات والأرض»^(١). نعم، إن هذه النفوس تضيء وتتلاها بدرجة تنطهرها من الخبائث والأرجاس، فتظهر لها الحقائق بصورة جليلة واضحة. فإن رسول الله ﷺ يقول: «إن لربكم في أيام دهركم نفحات، ألا فتعرضوا لها»^(٢)، فإن التعرض للنفحات القدسية الربانية لا يتيسر إلا إذا تجردت هذه النفوس عن الأكدار الناجمة عن الأخلاق المذمومة، فكل إقبال على طاعة وإعراض عن سيئه يؤدي إلى جلاء نور القلب فيصبح مستعداً ليفيض بإذن الله علماً و يقيناً وهو القائل: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: الآية ٦٩]. وعن النبي ﷺ: «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم»^(٣). والضمير يعود إلى الله تعالى، حيث لا ييخل بإفاضته وأنواره

(١) بحار الأنوار: ج ٦٠، ص ٣٣٢، باب ٣.

(٢) بحار الأنوار: ج ٦٨، ص ٢٢١، باب ٦٦.

(٣) الفصول المختارة: ص ١٠٧.

القدسية على عبده وقد وسعت رحمته كل شيء . وإنما العبد هو الذي يسد على نفسه أبواب رحمة الله تعالى وأبواب هداية الله وأبواب المعارف الربانية لقيامه بذمائم الأخلاق وارتكابه ما يؤدي بنفسه المسكينة إلى أسفل السافلين . إنه يطيعها في مشتبهاتها ويأتمر بأوامرها ، فتحجب عنه تلك الفيوض الرحمانية التي يرافقها من السرور المعنوي ما لا يقوى على وصفه إلا من تشرف به ، سرور يفوق أنواع الملذات المادية وأعلاها . « فالعلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء » . وإليه يشير مولانا أمير المؤمنين علي عليه السلام : « من أحب عباد الله إليه عبداً أعانته الله على نفسه فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف ، فزهر مصباح الهدى في قلبه »^(١) . ويقول صلوات الله عليه في مكان آخر : « قد خلع سراويل الشهوات ، وتخلّى من الهموم إلا هماً واحداً انفرد به ، فخرج من صفة العمى ومشاركة أهل الهوى ومغاليق أبواب الردى ، قد أبصر طريقه وسلك سبيله وعرف مناره وقطع غماره واستمسك من العرى بأوثقها ومن الجبال بأمتنها ، فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس »^(٢) .

انظروا ماذا يقول الكاظم موسى بن جعفر عليه السلام في هذا المقام لهشام ؛ إنه صلوات الله عليه يقول : « يا هشام ، من سلط ثلاثاً على ثلاث فكأنما أعان على هدم عقله ؛ من أظلم نور تفكره بطول أمله ، ومَحَى طرائف حكمته بفضول كلامه ، وأطفأ نور عبرته بشهوات نفسه فكأنما أعان هواه على هدم عقله . ومن هدم عقله أفسد عليه دينه ودنياه ، يا هشام ، كيف يزكو عند الله عملك وأنت قد شغلت قلبك عن أمر ربك وأطعت هواك على غلبة عقلك »^(٣) .

فللعقل الإنساني إفاضات وتوجيهات ، لو خلى ونفسه ولم يدنس بالموبقات والشهوات بإطاعة النفس الأمارة بالسوء إفاضات توصل الإنسان إلى أعلى عليين ، فيكون أعلى منزلة من الملائكة . فماذا ينتظر هذا الغربي المطيع لشهوات نفسه مذ

(١) بحار الأنوار، ج ٢، ص ٥٦، باب ١١ .

(٢) بحار الأنوار، ج ٢، ص ٥٦، باب ١١ .

(٣) أصول الكافي: ج ١، ص ١٧، كتاب العقل والجهل .

نهوضه من فراشه إلى حين عودته إليه من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، فإن الشهوات قد أغلقت عليه أبواب الفيوضات الربانية والأنوار القدسية الإلهية، إنه يعصى الله بنظراته وحركاته وسكناته في كل طرفة عين. حتى أصبح لا يشعر أنه يعصى الله. فقد أمسى الانهماك في الملذات المحرمة والشهوات المنهى عنها عادة ثانية وطبيعة راسخة فيه، لا يتصور طبيعة غيرها. لذلك لا يعد نفسه مجرمًا أو عاصياً، فيقول إذا اعترف بالله حيناً، لو شاء الله لاهتديت. والله سبحانه كيف لا يريد هداية عبده؟ فقد أتم الحجة على عباده بتزويدهم بالعقل وبالفطرة التي توجّه الإنسان إلى الاعتراف بالله وجليل قدرته، وإرساله الرسل مبشرين ومنذرين. ويقول: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البكدة: الآية ١٠] ويقول: ﴿فَالْمَمْحَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: الآية ٨]. ولكنه خالف عقله وأفسد الفطرة بذمائم الأخلاق ومدنسات النفس فأمست هذه الذمائم وتلك المدنسات حجاباً كثيفاً يمنع نفوذ نور الهداية إلى نفسه.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسْتَرُوا الشُّوْأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الرؤم: الآية ١٠]. ومعنى ذلك: أن الإساءات والأعمال التي تفسد النفس ونفوساً أخرى وكل ما يؤدي إلى الفساد في الأرض لها آثار طبيعية، آثارها التكذيب بآيات الله تعالى وكتبه ورسله والاستهزاء بجميعها. ﴿بِكُلِّ مَنْ كَسَبَ سَكِينَةً وَأَحْطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: الآية ٨١]. فقد رأينا أناساً كانوا يعتقدون بالله وكتبه ورسله، يصلّون ويصومون ولكن غلبت عليهم شقوتهم وأطاعوا شيطانهم ومالوا إلى الدنيا وزبرجها وشهواتها ونزواتها، فدنسوا ولوثوا أرواحهم فانسلك منهم نور الإيمان شيئاً فشيئاً، وتركوا الصلاة وودعوا الصيام. فتركهم اليقين وودعهم الصراط المستقيم، فأخذوا يستهزئون بالمؤمنين. ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [٣٠] وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ [٣١] وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ [٣٢] [المطففين: الآيات ٣٠/٣٢]. ويختلفون لهم ألفاظاً كالرجعية والدروشة والتصوف، وأمثال ذلك، حين أنه لا رجعية ولا دروشة ولا تصوف في الإسلام، وإنما رجوع إلى الحق الصريح الذي يؤيده العقل المجرد عن مدنسات النفس، المنزّه عن كل خرافة ووسوسة.

منزلة العقل والعلم في الدين الإسلامي

بعث الله تعالى محمداً ﷺ في وقت كان الدين مجموعة تقاليد لا يدعمها برهان ولا يسندها دليل وقد انعزل العقل عن التفكير والتعمق والتدبير والسؤال والاعتراض، في وقت كان شعار قادة الأديان في مشارق الأرض ومغاربها: (أطفئ مصباح عقلك واعتقد وأنت أعمى).

جاء الإسلام وهو ينادي بصوت رفيع: «الدين هو العقل ولا دين لمن لا عقل له»؛ وقد نهى عن التقليد الأعمى وعن قبول شيء دونما برهان ودليل. فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ۝﴾ [البقرة: الآية ١٧٠]. وقال أيضاً: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ۝﴾ [المائدة: الآية ١٠٤].

فأول شيء وجه الإسلام عنايته إليه هو تحطيم القواعد التي يقوم عليها الدين من قبل؛ وهو التقليد الأعمى وإهمال النظر الشخصي وإغفال التفكير الحر ومناذرة العلم إلا ما كان فيه موافقاً للدين في نظرهم ومؤيداً لسلطان المتحكمين في إرادات الناس وعقولهم. ينادي الإسلام بصوت رفيع أن لا اعتبار إلا للعقل وأن لا سيادة إلا للعلم، ودعا إلى النظر والتفكير وتطلب البرهان بقوله في القرآن الكريم في آيات كثيرة، ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: الآية ٩]، ويقول: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَدْعُو بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝﴾ [البقرة: الآية ١٧١]، وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّهْمَ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ۝﴾ [يونس: الآية ٤٢]. وعظم أمر العلماء حتى جعلهم من الشهود على وحدانيته: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَالِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: الآية ١٨]. وقد وعدهم درجات رفيعة بقوله: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: الآية ١١]. وقد دعا الناس إلى التدبر في أسرار هذا الكون بقوله: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ ﴿يُونُس: الآية ١٠١﴾ . ويقول: ﴿وَكَايْنِ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ ﴿١٥﴾ [يُوسُف: الآية ١٠٥] . ويقول: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾ [آل عمران: الآية ١٩١] .

وقد قرر الأصوليون من علماء الإسلام أن الإيمان التقليدي مردود . وعلى كل مسلم الوقوف على أصول دينه بالبرهان العقلي والدليل المنطقي .

ولا تقليد إلا في الفروع، كأحكام الصلاة والصوم والحج والمناجر والحدود والديات والقصاص إلى ما هنالك . إن علماء الإسلام يعترفون بمستقلات عقلية . أي أن هناك حسناً عقلياً وقبحاً عقلياً يستقلُّ العقل بإدراكهما ويقولون: كل ما حكم به العقل حكم به الشرع وكل ما حكم به الشرع حكم به العقل إذا كمل العقل وتجرد عما يلوته ويدنسه . فإن هناك أحكاماً شرعية قد لا يصل العقل إلى معرفة أسرارها وآثارها في تكامل النفس وتزكيتها وتصفيتها حتى تكون قيمة للخلود في جنة ﴿عَرْشُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: الآية ١٣٣] . ولكن العقل سوف يدرك أسرار تلك الأحكام الشرعية مع تكامل الإنسان العلمي والخلقي، فليس من الصواب أن نعترض على بعض الأحكام الإسلامية من عليه أن يعترف أنه لم يوت من العلم إلا قليلاً وأن مجهولاته أضعاف معلوماته، وقد اشتبه في كثير من محاكماته طوال حياته مرات ومرات وقد خطأ نفسه وفنّد رأيه بعقله وهو يرى أن القوانين الوضعية البشرية تصلح وتعديل من حين إلى حين مع أن الظروف نفس الظروف لم تتبدل ولم تتغير . ولا يعلم أن هذا التعديل كان إصلاحاً أو إفساداً . فمن لم يفهم حكمة حكم من أحكام الدين الإسلامي ولم يقف على علة أمر من أوامر الشريعة الإسلامية، فليتهم نفسه وليسأل من هم أكثر منه علماً وإيماناً و يقيناً، كي يزداد بصيرة وإطلاعاً واطمئناناً . فقد قال علي عليه السلام: إعجاب المرء بنفسه دليل على ضعف عقله .

نعم، قد فتح الإسلام البصائر للنظر والعقول للفهم والقلوب للشعور، لذلك يقول المؤرخ الكبير (سديو): «لقد كان المسلمون متفرقين بالعلم في تلك القرون المظلمة، فنشروا العلم حيث وطئت أقدامهم» وقد روى إسحاق بن عمار عن أبي عبد الله

الصادق عليه السلام: «من كان عاقلاً كان له دين ومن كان له دين دخل الجنة». وعنه عليه السلام: «ليس بين الإيمان والكفر إلا قلة العقل». قيل: وكيف ذاك يا ابن رسول الله؟ قال: «إن العبد يرفع رغبته إلى مخلوق، فلو أخلص نيته لله لآتاه الله الذي يريد في أسرع من ذلك»^(١). وإن هذا لدستور تربوي عظيم يبعث على الاعتماد على النفس بعد الإتكال على الله تعالى ويحذّر عن الطريقة الإتكالية: أي الإتكال على الغير سوى الله تعالى. تلك الطريقة التي بسببها ذلت أمم وتدهورت أخرى.

وقد أعطى الدين الإسلامي للعقل منزلة فوق ما أسلفنا، فقد جعله ميزاناً للشواب والعقاب. فعن أبي جعفر عليه السلام: «إنما يداقُ الله العباد في الحساب يوم القيامة على قدر ما آتاهم من العقول في الدنيا»^(٢). وقد ذكر عند أبي عبد الله عليه السلام عبادة رجل ودينه وفضله. فقال عليه السلام: كيف عقله؟ فقبل له: لا ندرى، فقال: «إن الثواب على قدر العقل. إن رجلاً من بني إسرائيل كان يعبد الله في جزيرة من جزائر البحر، خضراء نضرة، كثيرة الشجر، ظاهرة الماء وأن ملكاً من الملائكة مرّ به، فقال: يا رب أرني ثواب عبدك هذا، فأراه الله ذلك، فاستقله الملك، فأوحى الله إليه أن أصبح به، فأتاه الملك في صورة إنسي، فقال له مَنْ أنت؟ فقال: أنا رجل عابد، بلغني مكانك وعبادتك في هذا المكان، فأتيته لأعبد الله معك، فكان معه يومه ذلك، فلما أصبح قال له الملك: إن مكانك لتزه وما يصلح إلا للعبادة، فقال له العابد: إن لمكاننا هذا عيباً، فقال له: وما هو؟ قال: ليس لربنا بهيمة، فلو كان له حمار، رعيناه في هذا الموضع، فإن هذا الحشيش يضيع، فقال له (ذلك) الملك: وما لربك حمار؟ فقال: لو كان له حمار ما يضيع مثل هذا الحشيش، فأوحى الله إلى الملك، إنما أثيبه على قدر عقله»^(٣). ثم إن الدين الإسلامي قد حذر عن إتباع الوسواس الشيطانية التي تظهر بمظهر العقل والتفكير وهي وبال. فعن عبد الله بن سنان قال: «ذكرت لأبي عبد

(١) أصول الكافي: ج ١، ص ٢٨، كتاب العقل والجهل.

(٢) أصول الكافي: ج ١، ص ١١، كتاب العقل والجهل.

(٣) أصول الكافي: ج ١، ص ١٢، كتاب العقل والجهل.

الله ﷻ رجلاً مبتلى بالوضوء والصلاة^(١) وقلت هو رجل عاقل، فقال ﷻ: أي عقل له وهو يطيع الشيطان، فقلت له: وكيف يطيع الشيطان؟ فقال: سله هذا الذي يأتيه من أي شيء هو، فإنه يقول لك من الشيطان^(٢). وقد جاء في الحديث: «أكمل الناس عقلاً أحسنهم خلقاً». فترون أن قيمة المرء تتناسب في الدين الإسلامي مع درجة عقله، والعقل حجة الله بينه وبين عباده، فإن رسول الله ﷺ يقول: «إذا رأيتم الرجل كثير الصلاة كثير الصيام فلا تباهاوا به حتى تنظروا كيف عقله»^(٣).

هذا دين يعلن للناس كافة أن كل ما فيه يوافق آخر ما استطاع أن تصل إليه العقول البشرية، وفيه من القوانين الحكيمة ما هو فوق العقل البشري، يصل العقل إلى بعض محسناته وفوائده ولا يبلغ كنهه. دين لا يريد بمعتقديه أن يخفوا ما لديهم من سنن وآداب، خشية أن تتحداه بقية الأديان. دين أجدر بعلماء العلوم المادية أن ينكبوا على اعتناقه والعمل بنواميسه إن كانوا للعقل والعلم خاضعين، فقد قال رسول الله ﷺ: «ما قسم الله للعباد شيئاً أفضل من العقل، فنوم العاقل أفضل من سهر الجاهل، وإقامة العاقل أفضل من شخوص الجاهل، ولا بعث الله نبياً ولا رسولاً حتى يستكمل فيه العقل ويكون عقله أفضل من (جميع عقول) أمته». وما يضمّر النبي ﷺ في نفسه أفضل من اجتهاد المجتهدين، وما أدى العبد فرائض الله حتى عقل عنه، ولا بلغ جميع العابدين في فضل عبادتهم ما بلغ العاقل، والعقلاء هم أولو الأبواب الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: الآية ٢٦٩].

تأخر العلوم الحديثة عن الدين

إن تقدم العلوم المادية في أوروبا ومعارضة الكنيسة لها أوجدت رد فعل أدى إلى مقت الدين ونبذته ثم إلى معتقدات وظنون بعيدة عن الواقع، ناتجة عن أهواء وشهوات

(١) أي كان يعيد وضوءه وصلاته مرات وقد أصيب بمرض الوسوسة فيهما.

(٢) أصول الكافي: ج ١، ص ١٢، كتاب العقل والجهل.

(٣) أصول الكافي: ج ١، ص ٢٦، كتاب العقل والجهل.

لا يؤيدها أي منطق ودليل . فقلّد الشرق الغرب في ذلك ، وظن البعض أن دين الإسلام لا يماشي العلوم الحقيقية ويعارضها كما تعارضها الكنيسة الكاثوليكية والبروتستانتية اللتين حكمتا على إعدام كل من (سرفيتوس) في ١٥٣٣م و (جورداتلو برونو) في ١٦٠٠م ، نعم ، إن هذا العداء أوجد هذه الفكرة التي أدت بالفيلسوف (كونت) أن يقول : «ويجب أن يتحول الإخلاص الديني من خدمة إله غير معروف إلى خدمة الإنسانية! وبهذه الطريقة يصبح الدين وسيلة لضمان وحدة الإنسانية وقوتها بدلاً من أن يكون مثاراً للانقسامات والمنازعات» . ولم يعلم أنه لم يظفر بدين تطمئن إليه نفسه (وأعني به الدين الإسلامي) ، دين يقول لمعتنقيه : (المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه) ، (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً) . ومتى كانت أوروبا تدين بدين؟ إن أوروبا جبلت على حب المادة وطبعت على حب الشهوات والملذات من أي وجه حصلت . وقد كان فيها منذ زمن بعيد من مجالس الرقص والمجون والتبرج والفسوق والفجور والخمر والميسر والربا والظلم ما لم يكن في بلاد أخرى . ولا مرأ أن هذه الموبقات تؤثر في النفس تأثيراً بالغاً وتؤدي بها إلى تسافل مرير ، فتظلم النفس ويعمى القلب وتفسد الفطرة وينطفئ ضوء العقل الفطري ويحلّ مكانه : جحود وإنكار واستهزاء بالمقدسات وعبادة المادة بشتى الألوان . ونتيجة ذلك تكذيب لما أنزل الله تعالى وتحريف وتغيير . إن الله تعالى يقول : ﴿وَلِيُؤْمِنُوا لِلْمُكَذِبِينَ ﴿١٦﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١٧﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٨﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [المطففين : الآيات ١٠/١٤] . وفي آية أخرى : ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف : الآية ٥] .

فكل دين ، مهما كان مبالغاً في تزكية النفس وأمرأ بالتقوى والورع إلى أقصى حد ممكن ، إذا حلّ في أوروبا أثرت فيه مادية أوروبا فأرجعته إلى مجالس الأنس والملذات والشهوات ، تختلف عن مجالس أخرى ، بأن فيها مسحة دينية ضئيلة ، تنطفئ تحت نير الشهوات وحباثك الشيطان . وهذا أحد أسباب عدم ظهور الأديان الحقّة في أوروبا . لأن أوروبا (أو الغرب) بمبادئها وشهواتها ومجونها غالبية مغيرة . والأديان

كسائر العناصر الحية تتغير وتنحرف وتأخذ أشكالاً تطابق المحيط والبيئة (Adaptation) إذا كان قد قدر لها ذلك، وإلاّ فتموت. ولقد سمعت من أحد الوزراء السابقين (وقد توفي رحمه الله) ما مفاده: لماذا ظهرت الأديان في الشرق ولم تظهر في الغرب؟ غير مميز بين الأديان الحقّة والأديان المختلفة البشرية، غير فارق بين البيئة الملائمة لنشر التعاليم الإلهية الحقّة والبيئة التي تؤثر في تلك التعاليم. فتمسي مضطهدة متأثرة، آخذة طوراً يناسب ذلك المحيط وتلك البيئة. وهذا الفرق يظهر بين البلدان المختلفة التي يعتنق أهلها ديناً واحداً.

إن طابع أوروبا مادي منذ عهد الرومانيين وقبلهم والدين يحتم على الإنسان أن يؤمن بما وراء المادة. وأن يعمل حسب التعاليم التي أرسلها الله من وراء المادة على لسان أنبيائه ﷺ، دون أن يغيّر فيها شيئاً. ولكن المدنية الغربية لا تخضع إلا لما تحتمه المقتضيات الاقتصادية والاجتماعية والقومية وكل ما هو مادي يؤدي إلى الراحة والرفاهية. فأوروبا مادية بكل ما في المادية من معنى وتعبد المادة منذ زمن بعيد وقد ألبستها لباس الحضارة. إن مدنية أوروبا اليوم هي نفس المدنية الرومانية القديمة التي لا تعترف لغير المادة الصماء، فهي نفعية بحتة. ولم توفق المسيحية في أوروبا في تخفيف هذا الجشع المادي الموروث بل أثرت مادية أوروبا فيها. فكانت اسماً بلا مسمى وتقاليد بلا روح. يريد الغربي أن يرى شيئاً عن (ما وراء الطبيعة) وعن الروح وعن مصير الإنسان بعد الموت في الطبيعة المادية نفسها أي في مختبراتها. وحيث لا يمكن ذلك، لأنهما من واديين مختلفين وعالمين متباينين، أمسى لا يقر لغير المادة، ولا يعمل إلا في تحقيقها والتزود منها بأوسع مقياس. إن الغربي يريد أن يرى الله تعالى في تحليلاته الكيميائية وفي أجهزة الاختبارات الفيزيائية! في حين أن الله تعالى مُظهرٌ في ذلك جليل قدرته وعظمة صنعه.

ولا ترتيب إلا بمرتب ولا تنظيم إلا بمنظم لاسيما إذا كان هذا الترتيب يحيز العقول ويدهش الألباب.

يقول الله تعالى:

﴿وَمَنْ يَأْتِنِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَحَمَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ

فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦١﴾ وَمِنَ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ لِسَانَكُمْ وَالزَّيْفَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٦٢﴾ وَمِنَ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَآيَاتُكُمْ مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَمِنَ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْجِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٤﴾ [الروم: الآيات ٢١/٢٤].

فدين الإسلام بهذه الآيات البينات يدعو إلى التفكير والعلم واستماع القول الحق والتعقل. لا إلى خرافات وضعها الاتجاه المادي المتغلغل في أوروبا ولا إلى شهوات من تربوا تربية مادية حتى أدى بهم إلى روح مادية مدلهمة لا تستنبط من خواص المادة ونظمها وقوانينها عظمة واضعها وخالقها. و «إن أعمى العمى عمى القلب». كما جاء في الحديث. نعم، أخطأ الغربي في التطبيق بسبب ظلمة في النفس. وقاس الأمور الروحية البحتة بمقاييس ومعايير تستعمل في المختبرات كمتشاعر كان يزن شعره بالسانتيترات! إن الغربي أراد أن يجد قوانين الكمال الإنساني وقوانين الشريعة التي تبلغ بالإنسان ذروة الكمال تحت المجاهر والمخابر. وقلده الشرقي، فانجرف نحو المادة الصماء وترك معنوياته التي تفوح كمالاً وجمالاً، معنويات بها يسمو الإنسان فيكون أعلى منزلة من الملائكة. أجل! استقى الشرق من فلسفة أوروبا المادية أكثر من أن يأخذ من رياضياتها وطبيعتها وصنائعها، بل أخذ من فساد أخلاقها واستهتارها وخلاعتها ومراقصها ومجونها وطيشها وترفها قبل أن يأخذ من مخترعاتها ويتعب ذهنه في حل غوامضها، ذلك لأن النفس الإنسانية تميل إلى التسافل والتدنس، وإن في اقتباس المخترعات والنظريات الدقيقة لتعباً وتفرّ منه النفس الشهوانية الميالة إلى الراحة. كان يفتش الشرقي عن مسلك يستريح به من القيود فوجدها في المدنية الغربية المادية. وهل الدين إلا قيود تتكامل بها النفس، وهل تكمل النفس إلا بإرادة قوية تقيدها عن المدنسات وهي كل ما حرم الله تعالى على لسان نبيه الكريم ﷺ. إن الله تعالى يقول: ﴿أَنفَجَلُ الثَّانِيَيْنِ كَالثَّانِيَيْنِ﴾ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ [القلم: الآيات ٣٥/٣٦].

فجعل الإسلام مضاداً للإجرام، ومعنى ذلك أن الإسلام الحقيقي موقوف على عدم الإجرام وعدم التصدي على الموبقات والمدنسات. لأن الإسلام مطهر الفرد عن كل

ما يلوث النفس الإنسانية، موصل إياه إلى أعلى مراتب الكمال. وليس الإسلام تسمية وأسماء فحسب، حتى يعد الشخص مسلماً بمجرد حمله هذا الاسم. نعم، إن النفس البهيمية تفهم الخلاعة والاستهتار والإنغماس في الخمر والفجور قبل النظريات العلمية، فتلبسها لباس المدنية والحضارة، فيكون هذا الاسم الكاذب مبرراً لشهواتها ونزواتها. لذلك كله دبّ في الشرق وتبلبل في العقائد والأفكار وأخذ يغالي البعض فيريد قلب البلاد الإسلامية إلى بلاد غربية بجميع مظاهرها وويلاتها. نعم، قلّد الشرقي الغربي تقليداً أعمى لجهله دينه وظنّه أن دين الإسلام لا يساير الحياة العلمية وإن لمعطيات القرن العشرين في العلوم، القول الفصل، وأن كل ما جاء في الدين مخالفاً للنظريات العلمية ومردود. ولم يفرق بين العلم الحقيقي الناصع وبين (الفرضيات!) الموضوعية المتحولة من وقت إلى وقت على قدر جهود المخترعين والمكتشفين. وإن نظرة بسيطة إلى تاريخ العلوم والفلسفة تربنا مدى تغير الحقائق العلمية ووضع نظريات جديدة «أو فرضيات!» وإلغاء نظريات قديمة كان البشر يظنها حقائق راهنة ينازع فيها رجال الدين ويسمهم بالخرافة والجهل. ﴿رَبِّنَا لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَسَخَّرْنَا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوَهِمَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: الآية ٢١٢].

كان يرى العلم الحديث إلى عهد قريب أن الشمس ثابتة وكان القرآن ينادي منذ مئات السنين أنها متحركة بقوله: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: الآية ٣٨]. ثم عدل العلم الحديث عن ما كان يعتقده بعد تقدم العلوم الرياضية وآلات الرصد فقال بحركة الشمس لمستقر لها سائرة نحو نجمة تدعى بالنسر الواقع، على شكل لولبي، وقال بحركة كثير من النجوم الثوابت بعد أن كان يراها ثابتة لا تتحرك. كم مرة عدل العلم عن ما قرره بعد العثور على حقائق جديدة وكم مرة سوف يعدل في المستقبل عما يقروه الآن، لا يعلم ذلك إلا الله. فما جاء في الدين، ثابت لا تغير فيه والعلم متأخر عنه، يصل إليه مع تقدم الوسائل والمخترعات إلا ما كان من أمر النفس فإنه سيقى مجهولاً أبد الأبد. ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: الآية ٨٥]. ويقول تعالى أيضاً: ﴿مَّا

أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الكهف: الآية ٥١] . فما لا يدركه العلم من الدين ويعجز عن تفسيره ليس إلا لقصور فيه وانقباض في سعة مداه الحاضر وقلة الوسائل ووجود الحاجة إلى اكتشافات أخرى ومخترعات جديدة وصفاء في النفس .

تأخر العلوم عن الحقائق الدينية

قد ثبت في العلم الحديث في زمن متأخر ما نطق به القرآن الكريم أن مبدأ الحياة وُجد بالماء . والماء من أهم البواعث في تكوين الحياة وكان يقول الله تعالى قبل مئات السنين في كتابه الذي : ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فُصِّلَتْ : الآية ٤٢] : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء : الآية ٣٠] . ثم اكتشف العلم الحديث أن الزوجية متأصلة في الأشياء كلها حتى أن الذرة مركبة من (الكترن وبروتون) ؛ كهربائية سالبة وكهربائية موجبة . وكان القرآن الكريم ينطق بذلك قبل أكثر من ألف وثلاثمائة سنة . ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات : الآية ٤٩] . أي لعلمنا نتذكر أن الوجدانية له تعالى لا يشاركه فيها أحد أنه تعالى يقول في آية أخرى : ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس : الآية ٣٦] .

كان الطب يجهل أدوار الجنين في الرحم إلى زمن غير بعيد ، وكان القرآن ينطق قبل أربعة عشر قرناً تقريباً : ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ [١٢] ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون : الآيتان ١٣/١٤] . ثم أنه تعالى قد أوضح مراحل تشكل الأمطار في آيات شتى تبهر العقول . يقول جلّ وعلا في سورة فاطر : ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرُ مَحَابٍ فَسَقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [١] .

إن للرياح أثراً فعالاً في حدوث الأمطار . ذلك لأن الرياح تعمل في تكوين السحاب وتكثيفه مطراً مستعينة بفعل الجبال والكهربائية الجوية .

فإذا حملت الرياح السحاب كانت الجبال مكثفات هائلة تساعد على تكثيف السحاب . إن الرياح تزجي السحاب بأمره تعالى فيقترب السحاب الموجب من

السحاب السالب مقداراً كافياً يؤدي إلى التجاذب وزيادة في كهربائية مجموعة السحاب بالحث. نعم، إن هذا التقارب ليتزايد بصورة تدرجية حتى تتحد كهربائيتهما عن بعد، فيحدث هذا البرق الذي نشاهده. ومن ثم يحدث المطر. وإن دراسة الجو أمر معقد، لتشعب مسائله ولزوم توحيد جهود الأمم وارتباط الحوادث الجوية بعضها ببعض ارتباطاً قوياً، حتى أن حادثة جوية تقع في شرق العالم لتؤثر في الأوضاع الجوية في غرب العالم. فإذا هبت الرياح على بلدة في العراق مثلاً أو هطلت الأمطار عليها فإن سبب ذلك لا ينحصر في جو هذه البلدة فحسب بل يجب أن نبحث عن السبب خارج هذه البلدة. نعم، قد يكون من السهل القيام بأعمال رصدية قريباً من سطح الأرض ولكن القيام بأعمال رصدية في مناطق عالية عسير جداً. لأن معلوماتنا عن حقيقة الرياح ومصيرها وعن الكهرباء الجوية وكل ما يتعلق بالجو قليلة جداً. ولعل الأقمار الصناعية تزيد في معلومات البشر في هذه النواحي المجهولة. على أن هذه المجهولات تبقى متنوعة وكثيرة أبد الأبد. وذلك لأننا كلما فُتح لنا نفق من العلم تجلت لنا مجهولات متعددة ومتنوعة لا تحصى. فسبحان الذي نظر هذا العالم بعلم لا يتناهى وقدرة لا تتناهى وحكمة لا تنهاى. وقد علم علماً يقيناً أن الرياح تثير السحاب (كما جاء في القرآن الكريم) أو بخار الماء. أي أنها تظهره بعد أن كان كامناً. يسوق الله تعالى السحاب حيث يشاء، ولم يتكلم العلم الحديث عن كيفية هذا السوق، لتعدد العوامل وتشعبها، ولا رابط بينها إلا الله تعالى.

إن المطر ليحدث بعوامل عدة: منها زيادة تشبع الهواء ببخار الماء، ومنها البرودة في المناطق العالية ومنها قلة الضعف في المناطق العالية ومجيء الرياح الباردة من المناطق القطبية، ومنها الجبال، ومنها نويات التكاثف كدقائق الغبار الخفية أو المرئية، ومنها تأين الهواء أي تكوين الأيونات فيه والـ (أيون) هو الذرة المكهربة أو الجزء المكهرب أو الهباء المكهرب وأن الجو ليتأين بعوامل مختلفة، البحث فيها من أصعب المواضيع.

يقول الله تعالى في آية أخرى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ لَوْحٍ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا كُنُوزَهُ وَمَا

أَنْشُرَ لَكُمْ يُخْرِجِينَ ﴿٢٢﴾ [الحجر: الآية ٢٢] . إن هذه الآية تعلمنا أن للرياح اللوائح أثراً فعالاً في نزول الماء من السماء وإسقاؤه الناس . فهذه الآية لا تريد أن تشير إلى أن الرياح لوائح للزرع ، بل تقول : إن الرياح تلعب دوراً خطيراً في الاتحاد بين كهربائية وكهربائية في سحبتين مختلفتين ، أي أن الرياح تعمل في الجمع بين الكهربائية الموجبة والكهربائية السالبة ، فتقع الملاحة بين سحبتين . فهذه الآية معجزة خالدة ، لأنها تخبر قبل ١٤٣٠ سنة تقريباً عن شيء هو عصارة العلم الحديث . وهذا دليل واضح على التطابق التام بين العلم والدين في الإسلام وبرهان قطعي على تأخر العلوم عن الحقائق القرآنية .

وهناك آية أخرى أدل من الآيتين المتقدمتين على كيفية حدوث الأمطار ، يطابق آخر ما وصلت إليه الاكتشافات الأخيرة . وهو قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ تَرَأَى اللَّهَ يُرْسِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَزَيَّ الْأَوْفَ يُخْرِجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُرْسِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكُادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿٤٣﴾﴾ [النور: الآية ٤٣] . ففي هذه الآية خلاصة كثير من الاكتشافات الحديثة في تشكل المطر فخص بالذكر قوله : ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ﴾ . أي أن الله تعالى يؤلف بين السحاب . وهو يدل بوضوح على الحقيقة الكهربائية التي تقوم عليها الظواهر الجوية . فإن التأليف بين السحاب ما هو إلا إشارة واضحة للتقريب بين السحاب المختلف الكهربائي حتى تتجاذب وتتعبأ في الجو حسبما يريده الله فيكون بأمره تعالى من بين السحاب برق أو صواعق ومطر وبرد . وإن عملية الركام تأتي بعد عملية التأليف . على أن الله جلّ جلاله لا يريد بذكر هذه الآيات تعليم الناس شيئاً من العلوم الكونية لأن كلمات الله وما أودعه في الأجسام من خواص لا تنهاى . ﴿وَلَوْ أَنَّكَ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمَ وَالْبَحْرِ يَمْدُّ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: الآية ٢٧] . ولكن الله يريد أن يرى العباد جليل قدرته وعظيم صنعه إتماماً للحجة . ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَوْلَا أَنْتُمْ لَأَنظَنَّا وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا قَوْمٌ مَنُوعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ قل فليجئ الحجة البالغة ﴿[الأنعام: الآية ١٤٨/١٤٩]﴾ . ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: الآية ٤٢] . نعم ، إن الإنسان يصل إلى العلوم الكونية عاجلاً أو آجلاً بفكر أودعه الله فيه ، ولثابتية خواص الأجسام وقوانينها . وقد عاش الإنسان

آلاف السنين دون أن يعلم قوانين (لوردكلوين) في الكهرباء وقوانين ليبنيتز (Leibnitz) في التحليل الرياضي أو معادلات (دكارت) في الهندسة التحليلية. ولا أعلم هل تكامل البشر روحياً بعد الوقوف على هذه القوانين، أم رجع القهقري يأكل بعضهم البعض؟ والمهم بل الغاية الأسمى التي خلق الإنسان لأجلها هي تزكية هذه النفس التي لا تفر على حالة ثابتة خلافاً للجسمادات التي لها قوانين ومعادلات ثابتة يظفر بها الإنسان بلطف من الله. وكثيراً ما يظفر بها بطريق الصدفة متاً منه تعالى. والبشر المادي أقل من أن يأتي بنظام يكفل سعادة البشر في الدارين. أما الدين فحقائقه ثابتة ترمى إلى غايات بعيدة قد يفهمها العلم وكثيراً ما يتأخر عن فهمها.

ونسأل الله تعالى نفوساً صافية وآذاناً واعية تعي الحق فتبعه، ولا تغتر بما يكتشف في هذا العصر مما أودع الله من كنوز ومعادلات في هذا الكون المادي. فإن الغرور يبعد الإنسان عن رؤية الحق وإتباعه أيما تبعد. إن الله تعالى يقول: ﴿كَذَلِكَ يَطْعَمُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٌ﴾ [غافر: الآية ٣٥].

علاقة الدين بالعلم والظن

إن الدين الإسلامي حث على تحصيل العلم إلى حد بعيد، ولم تقع معارضة بين الدين والعلم في العالم الإسلامي تشبه المعارضات التي حدثت بين الكنيسة والعلماء الكونيين في القرون الوسطى فأدت إلى الشقاق والنفي والسجن.

فإن الدين الإسلامي يحبذ العلم الصحيح الذي لا شبهة فيه ويؤيده أيما تأييد. ولكنه يندد بأولئك الذين يتبعون الظن ويعتبرونه علماً ويبنون على هذا العلم الباطل أشياء كثيرة لا أساس لها، تفسد بذلك عقائدهم وأخلاقهم فيكونون من الأخسرين أعمالاً. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٨].

فنهى الدين الإسلامي عن إتباع الظنون وهي النظريات التي لا تستند على أسس

رياضية رصينة ولا تؤيدها التجارب بصورة مطردة وإنما هي أهواء ووساوس تنجلي بصورة العلم . يقول الله تبارك وتعالى ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: الآية ٣٦] . وفي مكان آخر: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: الآية ٢٨] . وقد قال الله تعالى في سورة الكهف: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا] . فنهى عن الظن بقوله: ﴿وَمَنْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ . ويقول: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنِيعَ الظَّنِّ﴾ [النساء: الآية ١٥٧] . ويقول: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١١٦] (أي يكذبون).

وقد حث القرآن الكريم على التمسك بالعلم القطعي الصحيح واتخاذها أساساً للمعتقدات والحياة الاجتماعية بقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: الآية ٩] . فخص الله التذكر والوعي الديني والقيام بما فرض الله بأولي الألباب والعقول: أولئك الذين يتبعون العلم الصحيح، لا الظنون والأهواء . وإن الله تعالى أمر نبيه ﷺ مع ما آتاه من العلم والحكمة أن يدعو ربه لازدياد العلم بقوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: الآية ١١٤] . وهذا يشير إلى عدم انتهاء مدى العلوم . ويقول عز من قائل: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ [٦] وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ [٧] وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ [٨] وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ [فاطر: الآيات ١٩/٢٢] . ولا مرأى أن العلم الصحيح الناصع الذي يوصل الإنسان إلى الاعتقاد بالله والعمل بما يرضيه، فيه النور والحياة والسعادة الأبدية، وهذا هو العلم الذي يهيئ لنا سعادة الدارين .

قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «تعلموا العلم فإن تعلمه حسنة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وهو عند الله لأهله قربة . لأنه معالم الحلال والحرام، وسالك بطالبه سبيل الجنة، وهو أنيس في الوحشة، وصاحب في الوحدة، وسلاح على الأعداء، وزين الأخلاء، يرفع الله به أقواماً يجعلهم في الخير، أئمة يقتدى بهم ترمق أعمالهم وتقتبس آثارهم، وترغب الملائكة في خلعتهم،

يمسحونهم بأجنحتهم في صلواتهم . لأن العلم حياة القلوب، ونور الأبصار من العمى، وقوة الأبدان من الضعف. ينزل الله حامله منازل الأبرار ويمنحه مجالسة الأخيار في الدنيا والآخرة. وبالعلم يطاع الله ويعبد، وبالعلم يعرف الله ويوحد، وبالعلم توصل الأرحام، وبه يُعرف الحلال والحرام. والعلم إمام العقل والعقل تابعه. يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء^(١).

وقد قال رسول الله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ألا أن الله تعالى يحب بغاة العلم»^(٢). وإن الإسلام عظم منزلة العلماء الحقيقيين أيما تعظيم حتى جعلهم ورثة الأنبياء، وفي حديث: «عالم يتفجع بعلمه أفضل من سبعين ألف عابد»^(٣). ما هذا العلم الذي يعطيه الدين الإسلامي هذه المنزلة الرفيعة؟ هو كل علم يوصل الإنسان إلى توحيد الله تعالى والخشوع والخنوع بين يديه، علم يؤثر في النفس الإنسانية فتتشبع عنها الرذائل والخبائث ويزول عنها الرجس والدنس، فيكون هذا الإنسان بشراً على شكل ملك أو ملكاً على صورة إنسان، هذا العلم الذي يتخلله التوحيد والاعتبار بعظمة الله تعالى ثم القيام بتكميل النفس.

ولا شك أن الفيزياء والكيمياء والفلك وعلم النبات والحيوان وطبقات الأرض وغير ذلك من العلوم نوافذ، منها يتمكن العالم أن يبصر عظمة الله وجليل قدرته، فيزداد تسييحاً وتحميداً لله تعالى.

إذن فما الذي أدى بفريق من الناس حتى أصبحوا من عباد المادة؟ رجعوا وثنيين يعبدون المادة الصماء بعد الاطلاع على كثير من خواصها؟ ذلك لأنهم لم يستنتجوا من هذا العلم المادي استنتاجاً يوافق المنطق وإنما اتبعوا الظنون. أثرت فيهم ضوضاء المعامل والانقلاب الميكانيكي فاغتروا بها واستعملوا ذلك في الترف وإيجاد أسباب الراحة والركون إلى الدنيا وشهواتها وملذاتها، فعميت أبصارهم وتحلت إذاك لهم الظنون علماً، فقالوا: لا شيء وراء المادة.

(١) أمالي الصدوق: ص ٦١٥، مجلس ٩٠.

(٢) أصول الكافي: ج ١، ص ٣٠، باب فرض العلم.

(٣) أصول الكافي: ج ١، ص ٣٣، باب صفة العلم.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَفْئِدَةٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٧٩]. أي أن هذه الطائفة الضالة غفلت عن إتباع العلم الصحيح واتبعت ظنونها وشهواتها. ذلك لأن النفس الإنسانية إذا انطمست في الموبقات والمنكرات لا تبصر الحق ولا ترى سبيلاً إلى العلم الصحيح. لأن الموبقات والمنكرات والمعاصي تشكل حجاباً كثيفاً مدلهماً يحجب النفس الإنسانية عن رؤية الحق والواقع، فتظهر لها الظنون بلباس العلم وهي في أسفل درك من الظلمات. يقول الله تعالى: ﴿إِن هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِّن رَّبِّهِمْ الْهُدَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم: الآية ٢٣].

ظهرت المادية بأجلى مظاهرها في أوروبا في القرن التاسع عشر، وكان من أبشع مظاهرها ظهور المبدأ الشيوعي، حتى أنكروا وجود الخالق: ﴿أَفَى اللَّهِ شَكٌّ فَأُطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: الآية ١٠].

وقد سمعت من أحد كبار المبشرين بالدين الإسلامي: أنه قد أوفد (لينين) مندوبه إلى سمرقند ليهدم المساجد والكنائس، ويفهم الناس أن لا شيء وراء المادة، وأن هذه العبادات ليست إلا سخافة. فجاء المندوب وطلب إلى الناس أن يجتمعوا في ساحة كبيرة وقد أخبر العالم الديني (العالم بالدين الإسلامي) في سمرقند بما سيكون من أمر هذا المندوب، واجتمع إليه رؤساء الدين من أهل الكتاب، وقالوا إن البلية عامة وفوضوا إليه أمر الدفاع. حتى كان اليوم الموعد. فقام الشيوعي قائلاً: ماذا تعبدون؟ إن كان هناك إله فلم لا نراه بأبصارنا؟ ولم لا نلمسه بأيدينا؟ ولماذا لا نتذوقه بألسنتنا ونشمه بأنوفنا ونسمعه بأذاننا؟ إذن ليس وراء المحسوسات شيء. هدموا الجوامع والكنائس ودور العبادة.

فقام إليه العالم المسلم، وكان قد أحضر قبلاً كرتين بحجم واحد. إحداهما من خشب والأخرى من حديد ملونتين بنفس اللون، وقد وضعهما على المنضدة. فخاطب الشيوعي قائلاً: قل لي أي الكرتين أثقل، استعمل في ذلك حواسك الخمس كما

استعملتها لمعرفة الخالق. فأبصرهما الشيعي، ثم شتمهما، ثم لمسهما، ثم ذاقهما، ثم وضع أذنه بالقرب منهما لسمعهما. فقال: لا أتهدي بالحواس الخمس إلى معرفة أثقلهما، إلا أن عقلي يقول لي: ارفعهما وحركهما بيدك كي تعلم أيهما أثقل.

فقال له العالم المسلم: إذن العقل هو المرجع الوحيد عند قصور الحواس الخمس وعجزها وأخطائها، وبالعقل يدرك الخالق الذي جهزك بأعضاء لو تعطل عضو رئيسي منها لما استطاعت المعامل بأجمعها أن تعوض عنه. فكم تخطئ الحواس الخمس ويكون العقل مصححاً لها. هل الشمس بهذا الحجم الذي نشاهده؟ وهل النجوم بهذه الصغر؟ وهل الخطان المتوازيان الممتدان إلى حد بعيد يتلاقيان حقاً؟ وأمثال ذلك من أخطاء الحواس في الهندسة والفيزياء كثيرة. إن الله تعالى يقول: ﴿أَلَا إِنَّكَ لِلَّهِ مِن فِ السَّمَوَاتِ وَمَن فِ الْأَرْضِ وَمَا يَشْعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس: الآية ٦٦]. ويحق لي أن أكرر الآية الآتية لمطابقتها العصر الحاضر: ﴿وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَن فِ الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١١٦].

ونسأل الله توفيق إتباع العلم الصحيح وترك الظنون والأهواء. ف«العقل ما عُبد به الرحمن واكتسب به الجنان»^(١).

الدين والعلوم الحديثة

عندما يرى الطالب، المعلومات الحديثة في علم النبات والحيوان وطبقات الأرض والفيزياء والكيمياء والتاريخ والجغرافية والرياضيات ويرى مختلف التأليف وشتى المختبرات يندهش أمام العلم الحاضر ويظن بل يقطع أن العلم الحاضر له القول الفصل في كل ناحية من نواحي الكون. وإن ما يقوله حق لا يشك فيه. هذه العقيدة تكون قوية في المدارس المتوسطة أكثر من الثانويات وفي الثانويات أكثر من المدارس

(١) أصول الكافي: ج ١، ص ١١، كتاب العقل والجهل.

العالية، إذا كان الطالب ممن لا يسلم بما يلقي عليه دون تعمق وتدبر. وأما إذا كان من البسطاء الذين لا ينظرون إلى القول، بل القائل أهم منزلة عندهم مما يقول، بقي ثابت العقيدة في أن العلم الحاضر حلال المشكلات، وموصل الإنسان إلى أقصى مرتبة من مراتب التحقيق. وما يقال له فلا يناقش فيه. ويزداد تعجباً عندما يرى المعادلات التفاضلية التي تستعمل لحل غوامض القوانين الكهربائية ومباحث الحركة والحرارة الحركية من مباحث الفيزياء العالية.

وقد رأيت ذات يوم وأنا أقوم بتجربة فيزيائية: أن طالباً دُهِشَ لما رأى أن التجربة تدلّ على صحة القانون الفيزيائي وقال: هذا هو العلم! معجباً بالتجربة فرحاً مغروراً، وقد فاته أن ذلك ليس إلا ظاهرة من ظواهر العلم، ظاهرة بسيطة لا تدل على حقيقة إلا بعد استنتاج صحيح، وإنك لو سألت من تخصص في الكيمياء: كيف أن الغازين (الأوكسجين والهيدروجين) يشكّلان بالنسبة المعلومة الماء بعد إمرار تيار كهربائي، وما تأثير الكهرباء هنا؟ يبقى حائراً صامتاً لا جواب له. وغاية ما يقول: إن التجربة تدل على ذلك. وما التجربة إلا حادثة أو ظاهرة يجب تفسيرها. وإن المدقق المفكر من علماء الكيمياء الأخصائيين يعترف بأن إرادة ربانية تعمل في تركيب هذه العناصر ولولاها لما حصل هذا المعجز. إذ لا مناسبة بين الأوكسجين الغازي والماء. وقد زعم أينشتاين وكان من كبار الفيزيائيين الرياضيين بل كاد أن يكون أعظمهم بعد كشف النظرية النسبية (Relativite): أن أقصر الخطوط هو الخط المنحني وأن الضوء يسير على خط منحني غير مستقيم، وكان فيما يقوله يستند على تجاربه واستنتاجاته السابقة، ثم أتيح له أن رصد بالآلات أتقن من الآلات السابقة وقام بحسابات أخرى فعدل عن رأيه وقال: إن أقصر الخطوط هو الخط المستقيم، وإن الضوء يسير على خط مستقيم. فالتجارب الثانية والمشاهدات والحسابات التالية قد أصلحت الأخطاء الناتجة عن التجارب والمشاهدات والحسابات الأولى. إذ ليست التجربة كل العلم وإنما حسن الاستفادة وحسن الاستنتاج هو الذي يجب أن يعتمد عليه. ويكون الإنسان معرضاً للخطأ والزلل وقلّ أن يسلم منهما أحد إلا من عصمه الله.

كما أن النظريات أو بالأحرى (الفرضيات) التي توضع (لا عن تحقيق علمي وإنما لإمكان تفسير الحوادث أو التجارب) تتغير من حين لآخر. لأن الفيزيائي يضع (فرضية: Hypothese) تدل مثلاً على ماهية الكهرباء ويفسر الحوادث والمشاهدات الكهربائية على ضوء تلك (الفرضية)، حتى إذا رأى حادثة أو ظهرت له ظاهرة عفوية لا قصداً، تخالف (الفرضية) الموضوعة عمد إلى وضع (فرضية) جديدة صالحة لتفسير الحوادث السابقة واللاحقة، فلو كانت (الفرضية) الأولى صحيحة فما هذه الثانية؟ وإن كانت الثانية صحيحة فإذن بقينا في خطأ وضلال طيلة تمسكنا بالفرضية الأولى. ومن يقوى على القول بأن (الفرضية) الثانية صحيحة، ذلك لأنه ستظهر حوادث أخرى لا تفسر بالفرضية الثانية. كما أن (فرضية لا بلاس) في تشكل النظام الشمسي ليس بالشئ الذي يعتمد عليه. على أنها لا تضبط بحسابات وقوانين، وقد جرحت وعدلت كثيراً.

وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتْ رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٣٠]. ويقول الله في مكان آخر: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ١٠٤]. على أنه ليس من وظائف الدين تعليم الناس علم طبقات الأرض أو علم الأحياء، بل وظيفته إعطاء القوانين والأحكام المؤدية إلى تزكية النفس وتقريب الفرد إلى الساحة الإلهية القدسية وإيجاد سعادة الدارين. وإن ما جاء في القرآن الكريم من الآيات التكوينية إشارة إلى خلاصة ما يمكن أن يصل إليه العلماء المثقفون وتبيان لعظمته وجليل قدرته تبارك وتعالى. يقول جلّ وعلا في سورة نوح: ﴿الَّذِينَ نَزَّلْنَا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ۖ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ السَّمْعَ سِرَاجًا ۖ وَاللَّهُ أُنْتَبَهُ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۚ ثُمَّ نُعِيدُهُ فِيهَا وَنُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح: الآيات ١٥/١٨].

ولا مرأ أن مشاهدات محدودة في ناحية خاصة أو ناحيتين أو ثلاث لا توجب حكماً كلياً علمياً. كقولنا: إذا أضيفت أشياء متساوية إلى أخرى متساوية فالنتائج متساوية، أو مجموع زوايا مثلث يساوي قائمتين. وكل من تنبع العلوم العالية يرى ضعف العلماء وعجزهم عن استقصاء حقائق كثيرة لا تعد ولا تحصى، ويرى اعترافهم

بجهلهم أكثر من اعتزازهم بعلمهم . هذا أفلاطون يقول : علمت أنني لا أعلم شيئاً . وهذا نيوتون يقول : إن علمي بحقائق هذا الكون أقل بكثير من علم طفل صغير جالس على شاطئ بحر يلعب بالحصى بما في أعماق هذا البحر . كيف لا يكون كذلك وإن الخواص التي أودعها الله في تركيب هذا الكون ونظامه تكاد لا تتناهى لقوله تعالى في سورة الكهف : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَتِي رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنفَذَ كَلِمَتِي رَبِّي وَلَوْ جِثَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ [الكهف : الآية ١٠٩] . وإن كلمات الله هي الخواص والنظم والقوانين المودعة في مطاوي هذا الكون : تلك النظم التي تربط الكون ببعضه ببعض : ﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَأَنْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴾ [٢] ثُمَّ أَنْجِعِ الْبَصَرَ كَرَيْنٍ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِبًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك : الآيتان ٣/٤] .

نعم ، نرى أن كثيراً من قوانين الفيزياء العالية ناقصة وكثيراً من الاتمات (Integration) تكاد أن تكون لغزاً من الألغاز لا يتاح لأحد أن يحلها . ونرى أن العالم الفلاني قد وضع قانوناً لمحاسبة سرعة الصوت مثلاً في وسط معلوم وقد خطأه العالم الآخر وأصلح قانونه ، ثم أتى آخر وأصلح خطأ الثاني . ثم إن التخمين ضارب أطنابه في قياس الحوادث والتجارب ولا تكاد ترى نتيجة من النتائج بعدد حقيقي خالٍ عن التقريب . ترى يعطيك الفيزيائي قاعدة لاختلاف الضغط بنسبة الارتفاع إلى حد معين ثم يقف ويعطيك معلومات مضطربة تقريبية لارتفاعات أعلى ثم يسكت إذا تجاوز الارتفاع حداً معيناً .

فالعلوم الثابتة التي لا مرأ فيها والتي يعتمد عليها هي العلوم الرياضية (Mathematiques pures) كالحساب النظري والهندسة النظرية بأنواعها والهندسة التحليلية والحساب الأعلى والجبر العالي والتحليل الرياضي لأنها مجردة عن المادة . وسنعلم أنه لا تنافي بين القسم الصحيح من العلوم غير الثابتة وما جاء في الدين الإسلامي تبياناً لعظمة الله تبارك وتعالى وجليل قدرته .

لا تنافي بين الدين والعلم الصحيح

إن العلوم الثابتة التي لا مرأ فيها هي العلوم الرياضية البحتة كالحساب النظري

والهندسة التحليلية والتحليل الرياضي (Analyse mathématique).

وعندما تتدخل فيها المادة تخرج عن كونها علماً قطعياً لا يشك فيه: كالميكانيك الرياضي والفيزياء والفلك، وكذا الحال في علم النبات والحيوان وطبقات الأرض. لاسيما (الفرضيات): (Hypotheses) أو الموضوعات، فإنها ليست حقائق ناصعة وإنما مقترحات يقترحها العلم ظاناً أنها أقرب إلى الواقع من احتمالات أخرى، والاحتمال ليس من العلم الحقيقي في شيء. ثم إن فساد (الفرضيات، أو العنديات) والتخمين يتجلبان للإنسان في العلوم التربوية والاجتماعية والنفسية والفلسفية والقانونية أكثر من بقية العلوم. وحقاً أنها علوم غير ثابتة، لأنها تبني على (فرضية) واضعها فما رآه حسناً أقره. وإن البيئة تكفي لإثبات ما يدعيه! للسيطرة المادية على النفوس حين أن مدعاه شيء كل عام، يتجاوز البيئة التي شاهد فيها الحادثة. حتى آل الأمر إلى أن العالم الاجتماعي يقول بالقطع والبت في نظرياته وأفكاره. وهذا ما يعبر عنه عندهم بـ (Determinisme). وقد يبالغ العالم النفسي فيظن أنه وصل إلى حقائق النفس فيضع منحنيات تقريبية وجداول مشوشة وإحصاءاً ناقصاً تقريبياً. حين أن كل ما يعلمه إنما هو في ظواهر النفس، وذاك بشكل ناقص مبتور. والدليل على ذلك تضارب الآراء في مسألة واحدة في وقت واحد.

والنقطة الرئيسية في وضع النظريات: (الفرضيات) أو (العنديات) سواء في التربية والاجتماع وغيرهما هي البلوغ إلى تحقيق غاية قد تكون غير مشروعة وغير صحيحة، فيولف العالم أو المتظاهر بالعلم، الكتب الضخام ويفسر جميع الحوادث النفسية والاجتماعية تفسيراً يحقق تلك الغاية أو النظرية. فإن كان مادياً، فإن المادة تتدفق خلال أسطوره، حين أن الأصل فاسد منتقض مردود. وإن كان ملحداً يترشح من نظرياته ونتائج تفكيراته الإلحادا والمرجع هنا أيضاً تلك المادية المدلهمة الظلماء بشكل خداع.

إن بعض الشبان ليندهشون عندما يرون تراحم الكتب وتراكم المجلات، فلا يكاد من يجعل لنفسه بين الآراء رأياً أو يتصور لنفسه بين الأوزان الخيالية وزناً. فيفند كل

رأي يخالف نظريات (كلابارد) مثلاً (بنتهام) أو (شوينهاور) أو (دوركايم) أو لا سمح الله (بو خنر) المادي المعروف .

وإذا طالع الكتب الدينية ظن أن هناك تضارباً بينها وبين العلم الحقيقي الناصح المجرد عن كل شائبة، فيعتمد إلى السخرية والاستهزاء بالمتدينين ويحكم بأنهم خرافيون بعيدون عن العلم . حين أنه لا تضارب ولا منافاة بين القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة وبين العلم الصحيح الثابت ، لا النظريات : (الفرضيات) المضطربة والأهواء الباطلة التي ليست من العلم الحقيقي في شيء . كان يقول الفلكي إلى وقت قريب : إن الشمس ثابتة وكان القرآن الكريم ناطقاً قبل مئات السنين بهذه الآية المنيفة : ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس : الآية ٣٨] . وكان الطالب في المدارس المتوسطة يبقى حائراً لا يعلم هل يأخذ بقول الفلكي فيقول بسكون الشمس ، أم بقول الله في كتابه الذي ﴿لَا يَأْنِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفَةٍ﴾ [فُصِّلَتْ : الآية ٤٢] ، فيقول بحركتها . فإن كان مؤمناً حقاً خطأ نفسه في فهم القرآن الكريم وحاول التأويل . ولكن الحقائق التي بيّنها الله لإظهاراً لعظمته وجليل قدرته لا تماشي أهواء العلماء وأخطاءهم ، إنها ثابتة لا تغير فيها . نعم ، كان هذا التبلبل سائداً إلى زمن قريب حتى تقدمت العلوم الرياضية بفضل ما ألهم الله تعالى المشتغلين في العلوم الرياضية العالية ، فتقدم الميكانيك الرياضي والسماعي (Mecanique Celeste) وأثبت الفلكيون أن الشمس متحركة بحركة خاصة بها وتجري لمستقر لها بسرعة (٧٢٠٠٠) كيلو متر في الساعة على شكل حلزوني نحو نجمة تسمى بالنسر الواقع . ووصلوا إلى الحقيقة التي نطق بها القرآن في دور جاهلي ووسط جاهلي حيث لا فيزياء ولا فلك ولا ميكانيك . يقول الله تبارك وتعالى في سورة فاطر : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر : الآية ٤١] . أي ما أمسكهما من أحد من بعده . هذه الآية الشريفة تدل دلالة واضحة على أن النجوم ثوابتها وسياراتها معلقة وسابحة في الفضاء ويجذب بعضها البعض بإرادته تعالى حسب القوانين الرياضية الثابتة أودعها الله فيها وهو الذي يمسكها من أن تزول

وتنحرف عن مواضعها ومسيرها . فإن زالت وتخطت - لا سمح الله - فليس لأحد يعد الله تعالى أن يمسكها عن الاضطراب والتصادم والتدهور . ولولا قدرته وإرادته جلّ وعلا لما كان للجسم الجامد الصامت أن يتحرك بانتظام وقانون رياضي في مدار خاص محدود . وقد وقف على القليل منها الفلكيون بعد عناء شديد . وقد كشف إسحق نيوتون قانون الجاذبية العامة وكشفت بواسطته سيارة مجهولة من قبل عالَمين في وقت واحد ولكنه عجز هو ومن جاء بعده عن فهم حقيقة الجاذبية ولا يزال العلم عاجزاً عن فهم حقيقة الجاذبية وحقيقة الكهرباء والضوء والنفَس الإنسانية وكل شيء قُواني (منسوب إلى القوة) وسيبقى عاجزاً إلى الأبد ما دامت هذه النفس مرتبطة بالجسم . فقد جاء في الحديث : (الناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا)^(١) . ذلك لأنه لا يمكن قياس ما هو غير مادي بمقاييس مادية . كما لا يمكن قياس طول الغرفة بالغرام وإن بُعد التشبيه . وإن العلم الحديث لا يعمل إلا في كشف خواص المادة والتأثيرات المتقابلة المادية بين المواد . وليس له أن يتجاوز حدود المادة وأن يتغلغل في ما وراء الطبيعة ما دام يعمل في الطبيعة نفسها وبمقاييس طبيعية مادية : (غرام ، سانتي متر ، ثانية) فتكلم العالم المادي في ما وراء الطبيعة سفسطة وهراء .

وغريب أن بعض شباننا الذين يرون لزوم الاختصاص في كل شعبة من شعب الطب أو الهندسة مثلاً ، يفوتهم أن يعترفوا اختصاصاً للعلوم الدينية أو علوم ما وراء الطبيعة . فيقبلون ما يملية عليهم أستاذ الكيمياء مثلاً (من العلوم المادية البحتة) في ما يتعلق بتكامل النفس وأمور ما بعد الموت ومنازل الآخرة . إن شباننا يرون أن أستاذهم يبرهن بمعادلات متقنة على صحة قانون في الفيزياء أو الفلك مثلاً ، فتزداد ثقتهم به ويروه حجة في ما يقول حتى في شيء لم يشتغل فيه ولم يتصدّ له ! بل بعكس ذلك أخذ يتسافل فيه وابتعد عنه كل البعد . إنهم يصدّقون أستاذهم حين يستهزئ بالمقدسات الدينية وبما أخبر به الأنبياء ﷺ عن مراحل الآخرة . ذلك لأنّه معتمد عليهم ، أي أستاذهم

في الكيمياء مثلاً أملى عليهم فكرة خاطئة عن المقدسات وما بعد الموت فصاروا يوافقونه على استهزائه وجحوده . على أننا نعتقد أن كلمات الأستاذ في ما وراء الطبيعة (أي في ما لم يختص فيه) وفي الأمور الدينية لا تؤثر في الطالب كثيراً ما لم تكن نفس هذا الطالب مستعدة لقبول هذه الأفكار الفاسدة الملوثة . ولا تكون النفس مستعدة للقبول ما لم تلتوث بالمعاصي والآثام والإجرام وبما يدخل في جوف الإنسان من مآكل محرمة مغصوبة أو مشتهية . وتفصيل ذلك يطول .

على أن للمحيط أثراً فعالاً في التوجيه التكاملي أو التسافلي . فالنفوس تؤثر بعضها في بعض ، كتأثير المجال الكهربائي في المجال المغناطيسي . يقول الله تعالى : ﴿بِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةً فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت : الآية ٥٦] . أي هاجروا إلى أرض تيسر فيها العبادة . وفي الحديث : «عاشروا من يذكركم الله رؤيته» . فلو كانت هيئة المدرسة من مدير ومدرسين وكتاب وخدم متدينين عاملين بأوامر الدين ، متتهين عما نهى الدين لأفليت الطلاب على غير ما هم عليه الآن .

لا تنافي بين الدين والعلم الحديث

دين الإسلام دين الفطرة ، لذلك يتوصل الإنسان إلى التوحيد أي إلى لباب الإسلام وعصاراته بالفطرة ، دون أن يحتاج إلى معلم أو مرشد ، إن لم يندس الفطرة بما يلوث النفس الإنسانية من معاصي وآثام وظلم وبغي ولوم ونفاق وغيبة ونميمة وكل ما حرم الله تعالى على لسان أنبيائه ﷺ وتأباه الفطرة الإنسانية غير المدسوسة منها . وليست الفطرة إلا من مُعطيات العقل ، كما أن العلم حديثه وقديمه من مُعطيات العقل أيضاً . إذن وجب أن لا يكون تناف بين العلم الحديث والدين ، إذا كان هذا العلم الحديث قد بلغ من الصحة والتأييد ما يجعله علماً حقيقياً لا غبار عليه وقد خرج عن مرحلة الظن والشكوك . فالفرضيات التي توضع لتفسير بعض الحوادث الفيزيائية أو بعض المشاهدات في عالم الطبيعة ، ليست من العلم الحقيقي في شيء . لذلك نراها تتغير من حين لآخر وتعَدّل . فالفرضيات تعيش مدة من الزمن ما دامت مفسرة لجملة من الحوادث . فإذا ما

شوهدت حادثة لا تتفق والنظرية الموضوعة عدل العالم الطبيعي إلى وضع نظرية أخرى تفسر الحوادث السابقة واللاحقة. وقد خلط بعض المتعلمين بين الفرضية والعلم الصحيح الثابت الذي لا تبديل له ولا تغيير: كالرياضيات البحتة. فقالوا: إن هناك تنافياً بين ما جاء في الدين ومعطيات العلم الحديث. فاتهموا الدين ووصموه بما هو منه براء. إن الله تعالى يقول: ﴿أَمَنْ هُوَ فَبِئْسَ أَتَاءَ آلِئِل سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الرؤم: الآية ٩].

فإن الله عدّ الذين يحيون الليل بالعبادة ساجدين راكعين يحذرون الآخرة ويرجون رحمة ربهم (وهم بين الخوف والرجاء) من العلماء وأولي الألباب.

إذن، ما هو ذلك العلم الذي يميز الإنسان عن الجاهل ويجعله في عداد العلماء؟ هو العلم بعظمة الله وجليل قدرته، هو ذلك العلم الذي يؤثر في النفس فتؤثر في الجوارح وتنشطها للعبادة. هو ذلك العلم الذي يحمل النفس على الأعمال الصالحة وكل ما من شأنه التطهير والتزكية. هو ذلك العلم الذي ينمي الفرد ويكمّله حتى يكون أعلى منزلة من الملائكة. فالعلم الحديث الذي لا يتجاوز سماء الأرض ولا يبلغ بصاحبه إلى معرفة الله تعالى وتعظيمه وتقديسه لا يطهر النفس ولا يزيكها، إنه علم ضيق ناقص مبتور. علم ماديّ حالك، بل وبال على البشرية جمعاء إن لم يستعمل في صلاح النفس وتكاملها. وإن قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: الآية ٢٨] لا تفسر إلا على ما ذكر. أي إن العلماء الذين أدى بهم علمهم إلى توحيد الله وطاعته وتقديسه وإتباع شرائعه هم الذين يخشون الله ويخافون عقابه. فالعلم الناقص أي العلم الذي لا يبلغ بالفرق إلى المعارف الإلهية لا يورث الخشية. وكم رأينا من علماء في الطبيعة والرياضيات وغيرها ملحدين جاحدين يرتكبون المعاصي ولا يخشون الله. ذلك لأن علمهم مادي لم يتجاوز حدود المادة. فلم يسمّ بهم إلى ما وراء الطبيعة.

إن الله تعالى لم ينزل القرآن ليعلم الناس الفلك وعلم الحيوان وعلم النبات والرياضيات وغيرها. ذلك لأن العلوم لا تنتهى، وكلما كشف للعالم شيء بفضل الله أو بطريق الصدفة بفضلله أيضاً، شاهد وراء ذلك أودية من المجاهيل. إن الله تعالى

يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: الآية ٢٧] وإنما أنزل الله تعالى القرآن ليهدي الناس إلى الطريق المؤدية إلى تكميل النفس والبلوغ إلى معرفة الله بدرجة تكاملها. ذلك لأن الكامل على الإطلاق: وهو الله لا يريد أن يرى في ما خلق شيئاً ناقصاً. وقد سنَّ للإنسان الناقص سنن الكمال على لسان أنبيائه ﷺ. وإن أكملها وأسمها سنة خاتم النبيين ﷺ. ﴿لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: الآية ٢١]. وما جاء في القرآن الكريم من آيات كونية كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: الآية ٣٠] إنما هي عصارات العلوم وخلاصاتها، يصل إليها العلم الحاضر كلما نما وتكامل.

كان العلم الحديث إلى زمن قريب يقول: بسكون الشمس وإن السيارات تدور حولها. وكان القرآن الكريم ينادي منذ ألف وأربعمائة سنة تقريباً: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: الآية ٣٨]^(١). حتى إذا تكاملت المجاهر وتقدمت الرياضيات العالية بما فيها الميكانيك الرياضي (Mecanique Rationnelle) اعترف العلم الحديث بحركة الشمس وقال: إنها تجري بسرعة (٧٢٠٠٠) كيلو متراً في الساعة على شكل حلزوني نحو نجمة تسمى بالنسر الواقع. أي أنها تقطع مع سياراتها المنجذبة إليها في الثانية ٢٠ كيلو متراً ولذلك يتغير مدار الأرض من حين لآخر في الفضاء، والمحور هو الخط الواصل بين الشمس والنسر الواقع.

واعترف العلم الحديث أن ليس هناك شيء ساكن وأن الثوابت (من النجوم) بالرغم مما اصطلاح عليه، متحركة وتحرك في الفضاء بسرعة معينة. وأن سرعة البعض منها تبلغ مئات الكيلومترات في الثانية وإن الكواكب لبُعدها عنا، لا نشاهد لها حركة ولكن الشكل الظاهري أو الصورة الظاهرية للسماء تتغير خلال كل مائة سنة. وهذا مما يدل على تأخر العلوم الطبيعية والرياضية عن الحقائق القرآنية.

فلا ينبغي أن يتسرع الشاب المتعلم في حكمه على الدين الإسلامي بقوله: إن بينه

(١) إنما كررت هذه الآية لأهميتها في تحقيق الموضوع.

وبين معطيات العلم الحديث تنافياً. ذلك لأن العلم الحديث ما هو إلا خصائص وقوانين أودعها الله في مخلوقاته في هذا العالم. وليس الدين إلا قوانين ونظماً أرسلها الله تعالى رحمة للعالمين. فالمنبع واحد والمبدأ واحد، ولا يعقل التنافي مع وحدة المنبع الفياض. ثم إن شاهدنا بعض الاختلاف بين بعض المظاهر الطبيعية والحقائق الدينية ما علينا إلا أن نتهم المشتغل في علم الطبيعة في استنتاجه أو قلة عدد التجارب التي قام بها أو عدم الإحاطة بتمام الموضوع. ذلك لأن مشاهدة عدد قليل من النماذج في ظروف خاصة لا تعطي حكماً ثابتاً صحيحاً. فإذا كانت العلوم المستندة على الرياضيات تتغير وتفند من حين لآخر فكيف بالملاحظات الطبيعية وما يستنتج عنها.

ولنعم ما ناقش به عالم ديني فيلسوفاً كان يخالفه في العقيدة والمبادئ. كان يدعي هذا الفيلسوف: أنه نبي وأن كل ما يقوله وحى يوحى إليه، وأن كل عالم أو فيلسوف نبي أيضاً وما يقوله وحى يوحى إليه!.. فأجابه هذا العالم الديني قائلاً: إن كان كل ما تقوله أنت أيها الفيلسوف وحياً يوحى إليك، وإن كل ما أقوله أنا أيضاً وحى يوحى إليّ، والمبدأ واحد. إذن فماذا الاختلاف بيني وبينك؟ فلم يحضر الفيلسوف جواباً.

ذلك لأن النفوس مختلفة. منها ما هي ظاهرة، بعيدة عن الخبائث والأدناس ومنها ما هي ملوثة بفسوق سابقة وملذات محرمة، ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ لِرَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: الآية ٣٣]. ولكن من هذه النفوس رشحات ومظاهر ومعطيات. فلا يترشح من النفس الخبيثة إلا الخبث والإلحاد، ففلسفتها خبيثة مضلة، ولا يترشح من النفس الزكية إلا الخير والصلاح والهدى، ففلسفتها نقية هادية. لذلك أوجب العلماء العصمة للأنبياء ﷺ وقالوا بوجوب عصمتهم وطهارتهم عن الذنوب صغائرها وكبائرها.

فالعلم الذي يوصل الإنسان إلى المعارف الإلهية ويؤدي إلى تكامله إلى حيث لا يعلمه إلا الله هو ذلك العلم الذي يصح أن يقال عنه أنه من الدين ومن كمالات الدين. فلا يرى العالم، الذي لم يدنس عقله بالموبقات والجرائم ولم يلوث الفطرة بالفسوق والكبائر، تنافياً بين العلم الصحيح (ذلك الذي قد خرج من مرحلة الظنون والشكوك)

وبين الدين، بل يراه من الدين. لأنه يذكر الإنسان بعظمة خالقه. ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَنَّكِرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: الآية ١٩١]. (فالعلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء) ولا يقذف هذا النوع من العلم إلا في قلب أو نفس أخذت تتطهر بعبادات وأعمال صالحة وأخلاق إسلامية رفيعة وخشوع وخضوع لله تعالى وذكر الله بصورة دائمة، حتى صارت قمينة لإفاضات ربانية ونفحات قدسية. وقد جاء في الحديث: «إن لربكم في أيام دهركم نفحات، ألا فتعرضوا لها»^(١). والنفحات هي الإفاضات المعنوية. ونسأل الله تعالى أن يمن علينا بتوفيق العبودية وإفاضات نخرج بها عن حضيض المادة إلى قدسية تجعلنا أهلاً لتقدسه وتسيحه.

رأس الحكمة مخافة الله

قال رسول الله ﷺ: «ما أهدى المسلم لأخيه هدية أفضل من كلمة حكمة تزيده هدى وترده عن ردى»^(٢). أريد بمقالي هذا أن أزيل بفضل الله بعض الشبهات عن بعض الشبان المثقفة لعلهم يرجعون إلى تعاليم الدين الإسلامي فيعملون بموجبها حرفياً ولا يكتفون باسم الإسلام، فإن «الاسم» لا يغني عن الواقع شيئاً.

عندما كنت في الجامعة اعترض أحد طلاب فرع الفلسفة على هذا الحديث: «رأس الحكمة مخافة الله». فقال: كان الأولى أن يقال: رأس الحكمة محبة الله. ولم يرده أحد. وقد فاته أن الحكمة ومعرفة أسرار الكون لا تتجلى إلا في قلوب قد طهرت وتزكت بترك المعاصي واجتناب المحرمات وعبادات وأعمال صالحة. ولا تترك المعاصي ولا تجتنب المحرمات إلا بخوف الله تبارك وتعالى. لا تترك المعاصي إلا بوازع نفسي وهو خشية الله. فالنفس الملوثة بالذنوب والآثام، النفس المدلهمة بظلمات المعاصي والإجرام لا ترى إلى الحكمة سبيلاً ولا تفتح لها أبواب أسرار الكون. لقوله

(١) بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٢٢١، باب ٦٦.

(٢) بحار الأنوار، ج ٢، ص ٢٥، باب ٨.

تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ۖ﴾ [الكهف: الآية ٥٧].

فترون أن من ذكر بآيات ربه بعد إرسال الرسل سلام الله عليهم أجمعين، وأعرض عنها ولم يؤمن لما اقترفت يده من الذنوب، تسدُّ عليه أبواب الهداية وتغلق عليه أبواب الرحمة فيكون بينه وبين الحق حجاب حاجز يمنعه عن رؤية الحق فلا يرى الحق وينسى نفسه، وقد قال تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسَتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ [الحشر: الآية ١٩]. فلا يفكر في مصيرها وتهذيبها وتوجيهها إلى الغاية التي خلقت لأجلها، فيكون من الأخسرين أعمالاً. وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۖ﴾ [الزمر: الآية ٢١]. الَّذِينَ صَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۖ﴾ [الكهف: الآيتان ١٠٣/١٠٤]. فالله تبارك وتعالى يسد أبواب الحكمة على من أتم عليه الحجة ولم ينتبه وتوغل في الذنوب وتدنس بالموبقات، بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ [الكهف: الآية ٥٧]. أي إنا جعلنا على قلوب الذين عصوا الله ولم يتذكروا بما ذكرهم به أغطية وأستاراً تمنعهم عن أن يفقهوا الدين ويقفوا على أسرار الكون وحكمة الوجود. فيعترضون ويتذمرون وينكرون ويتفلسفون. وليس هذا الاعتراض والتذمر والإنكار والتفلسف إلا رشحات نفس تلوث بالذنوب ومظاهر قلب عمى عن رؤية الحق والواقع. فإنه تعالى يقول: ﴿فَإِنَّمَا لَا تَعَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: الآية ٤٦]. وجاء في الحديث: «إن أعمى العمى عمى القلب». ونستجير بالله من ذلك.

فلا يمكن أن تنجلي الحكمة في النفس الإنسانية إلا إذا طهرت بالعبادة وترك المعاصي والتزكية والتجلية والتحلية. وهذه لا تحصل إلا بعد أن يخاف الإنسان ربه ويخشاه فيواخذ نفسه على كل صغيرة وكبيرة، ويلومها ويؤنبها ويستغفر الله منها بأنواع الاستغفار.

إن الله تعالى يقسم بالنفس اللوامة تقديراً لها: بقوله تعالى: ﴿لَا أُقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۖ﴾ وَلَا أُقِيمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ ۖ﴾ [البقرة: الآية ٢/١]. فإذا لام الإنسان نفسه وكفر عن سيئاته أخذت نفسه تتزكى وتطهر شيئاً فشيئاً بنتيجة خوفه من الله تبارك وتعالى، فتفتح عليه أبواب الحكمة وتطمئن نفسه وتحل أمامه كل ما يختلج في نفسه من اعتراضات وتنقشع

عنه الشكوك والريب والأوهام. إن الصادق عليه السلام يقول: «ليس العلم في السماء فتستزلوه أو في الأرض فتستخرجوه، وإنما هو كامن في جبلتكم، تخلقوا بأخلاق الروحانيين، يكشف لكم». ومن كان في نفسه شك فيما أقول فليعمد إلى التجربة. فإن المريض بأمراض بدنية يطيع الطبيب فيما يقول ويعمل حسب وصفة الطبيب فيبرأ من مرضه. فمن كان يرتاب في ما أقول، فليدرس الدين الإسلامي ليقف على المناهي والمحرمات والمباحات، ليقف على الآداب الإسلامية. ليطلع على العبادات التي بها تزكو النفس، ثم يعمل مستعيناً بالله حسب علمه ليرى بعد زمن قليل كيف تتجلى في نفسه الحكمة وكيف يتقرب يوماً بعد يوم إلى الله تعالى وكيف يدخل في عالم جديد، عالم فرح واطمئنان، عالم كله نور وصفاء.

إن رسول الله ﷺ قرأ على ثلثة من الشبان سورة الزمر التي فيها: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كِتْمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبَشِّرْهُم بِمَوْتِ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ لَا وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الزمر: الآيات ٧١/٧٤]. فبكوا خوفاً من الله تبارك وتعالى، فبشرهم رسول الله ﷺ بالجنة.

يقول الله تبارك وتعالى في قرآنه الكريم: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: الآية ٢٨]. فلماذا نرى علماء لا يخشون الله تبارك وتعالى ويرتكبون أنواع المعاصي. نرى علماء في الرياضيات العالية، في الكيمياء العالية، في الفلك العالي، في الفيزياء العالية، في الفلسفة بأنواعها، في التاريخ والجغرافيا وفي بقية العلوم يعصون الله تبارك وتعالى ولا يبالون فرحين، كأن ليس وراءهم حساب. فليس إذن مراد الله من كلمة (العلماء) هذا العلم المادي الذي يحصل بعملية تفكير تشبه عمل النجار الذي اعتادت يده فن النجارة بنتيجة الممارسة والتمرين. وإنما مراد الله من هذا العلم: هو العلم

الذي يحصل نتيجة خشية الله ونتيجة خوف الله تبارك وتعالى وأعمال تترتب على هذه الخشية وذاك الخوف . وهذا العلم هو الحكمة التي مدحها الله تعالى في قرآنه الكريم بقوله : ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: الآية ٢٦٩] .

وقد عرف الله الحكمة بقوله : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ [لقمان: الآية ١٢] . فأعلى مراتب الحكمة شكر المنعم وهو بابها . وهذا الشكر يتجلى في جميع العبادات والأعمال الصالحة . فكلها مظهر من مظاهر الشكر ، ولا يحصل ذلك إلا بعد خوف الباري جلّ جلاله . ومن ثم تتجلى الحكمة وتطمئن النفس إذن : «رأس الحكمة مخافة الله» . يقول الله تبارك وتعالى : ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: الآية ٥٢] . وفي موضع آخر : ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [١] ﴿سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ [٢] . فعلق التنبيه والهداية والاستبصار على الخوف والخشية بقوله : ﴿سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ [٣] [الأعلى: الآية ١٠] . وهل الحكمة غير الهداية والاستبصار!

ويمدح الله في مكان آخر الذين يخشونه ويخافونه بقوله : ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الزهد: الآية ٢١] . ثم يشرهم تبارك وتعالى بقوله : ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَغْفِ الْدَّارِ﴾ [٤] ﴿جَنَّتْ عَنْهُمْ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ [٥] ﴿سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الزهد: الآيات ٢٤/٢١] . وعن إسحاق بن عمار قال : قال أبو عبد الله عليه السلام : «يا إسحاق خف الله كأنك تراه ، وإن كنت لا تراه فإنه يراك ، وإن كنت ترى أنه لا يراك فقد كفرت ، وإن كنت تعلم أنه يراك ثم برزت له بالمعصية فقد جعلته من أهون الناظرين عليك»^(١) .

وعنه عليه السلام ، أن النبي ﷺ قال : «يا أيها الناس ، إن لكم معالم فانتبهوا إلى معالمكم ، وإن لكم نهاية فانتبهوا إلى نهايتكم . ألا إن المؤمن يعمل بين مخافتين : بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه ، وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه . فليأخذ العبد المؤمن من نفسه لنفسه ، ومن دينه لآخرته ، وفي الشبهة قبل الكبر ، وفي

الحياة قبل الممات . فوالذي نفس محمد بيده ، ما بعد الدنيا من مستعتب وما بعدها من دار إلا الجنة أو النار^(١) .

فمن أراد أن تفتح عليه أبواب الحكمة وأن يتفهم الدين تفهماً يؤدي به إلى تكميل نفسه ليكون بشراً على شكل ملك أو ملكاً بصورة إنسان ، فليس عليه إلا أن يخاف الله جلّ جلاله بترك المحرمات جميعاً وأن يكون مسلماً حقاً ، عاملاً بكل ما يأمر به الدين المبين ، دين العقل والتفكير الصحيح .

أثر الخشية في تكامل النفس

إن خشية الله جلّ وعلا هي خير صفة يتحلّى بها الإنسان فتصرفه عن الولوج فيما حرّم الله تعالى . فهي رادع نفسي يمنع الفرد عن ميل النفس الأمارة بالسوء . وإن هذا الرادع ليكون مع الإنسان في خلواته وحيث لا يعلم بسرّائه إلا الله . فهو يمنعه عن الموبقات والمدنسات وكل ما يؤدي إلى تسافل النفس .

إن الله تبارك وتعالى قد أودع هذه الخشية في الإنسان بصورة فطرية بقوله : ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البَلَد : الآية ١٠] أي طريقي الخير والشر ، وقوله في سورة الشمس : ﴿فَأَلَمَمَّا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ . أي ألهم الله تعالى الإنسان طرق الفجور وسبل التقوى .

وقد أتم الله تعالى على عباده الحجة بهذا الإلهام وفتح لهم بعد ذلك باب الاستغفار والتوبة والإنابة ليستغفروا ويتوبوا . ألا ترى أن الإنسان عند محاولته أول كذبة أو أول افتراء أو أول سرقة أو أول ظلم أو أول دغ لليتيم تشمئز روحه ويحتبس طبعه . فوازع باطني يلومه ومؤنب داخلي يؤنبه ويوبّخه .

ثم أنه إذا تمادى في الفجور والفسوق والمعاصي خفّ أثر ذلك الوازع شيئاً فشيئاً حتى ينطفئ ويذول أثره . فيفسو القلب إذ ذاك وأعني به النفس الإنسانية ، فتكون

كالحجارة أو أشد قسوة. ﴿وَأَنَّ مِنَ الْجَارَةِ لَمَا يَفْجَرُ مِنْهُ الْأَنْهَرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُوقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: الآية ٧٤] . وما قدمناه تفسير لقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: الآية ١١٨] .

قال أنس بن مالك: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال يا رسول الله، أشكو إليك قسوة قلبي، فقال له: «اطلع إلى القبور واعتبر بيوم النشور»^(١). لذلك يجب على المربين أن ينبهوا الطلاب منذ نعومة أظفارهم بعواقب المعاصي الوخيمة وأن يحذروهم عنها أيما تحذير.

وأن يبينوا جسامة كل من المعاصي عند الله والحدود التي قررها الله تعالى لكل من المعاصي والجرائم، لئلا يرتكبوا المعاصي أبداً. وأن يتجنبوا المعصية الأولى اجتناباً لا مزيد عليه. فإنها مفتاح المعاصي والسبب الرئيس للولوج في معاصي أخرى. يقول الله تبارك وتعالى في مدح الأنبياء سلام الله عليهم أجمعين: ﴿الَّذِينَ يُلَاقُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: الآية ٣٩] . فالخشية صفة الأنبياء ﷺ وبها امتازوا عن سائر الخلق، لأنها طريق الحكمة وطريق الوصول إلى الحق وإلى الكمال المنشود.

يقول الله تبارك وتعالى في سورة الزمر: ﴿أَمَنْ هُوَ فَنُتِئْ ءَاتَاءَ الْبَلِّ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [١]. فجعل الله تبارك وتعالى الخشية والحذر باب العلم بالحقائق بقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾. وأراد بالإنسان أن يكون بين الخوف والرجاء. فهو خير ميزان يبعث على العمل الصالح ويبعد الإنسان عن المناهي والموبقات. فقد جاء في الحديث تنويعاً بالعبد الصالح: «لو وزن خوف العبد ورجاؤه لم يرجح أحدهما وإن عظم الخوف كان أدعى إلى السلام»^(٢).

وفي الحديث: «إن الله أنزل في بعض كتبه: وعزتي وجلالي لا أجمع لعبدي

(١) إرشاد القلوب: ج ١، ص ١٢.

(٢) قد تكرر الآية أو الحديث لأهمية هناك أو مناسبة. ولا شك أن في هذا التكرار تأثيراً في النفس.

المؤمن بين خوفين وأمنين، إذا خافني في الدنيا أمنتني في الآخرة، وإذا أمنتني في الدنيا أخفته يوم القيامة^(١). وقوله تعالى في امتنانه على إبراهيم وذريته ﷺ: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ [ص: الآية ٤٦]. وهي ذكر الآخرة.

وقال الله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الْجَنَّةَ لِمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ] [٣٣] مَن حَتَّى الرَّحْمَنِ بِالْفَتْبِ وَجَاءَ يَفْلُبُ مُنِيبٍ [٣٣] ﴿ق: الآيات ٣١/٣٣﴾. فصفاء القلب وإنابته وتزكياته تتوقف على خشية. وقوله تعالى أيضاً: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [٤١] ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [٤١] [التازعات: الآيتان ٤٠/٤١]. فعلق كمال النفس والفوز بالجنة على مخافته تعالى. وقال سبحانه عن هابيل يروي قوله لأخيه: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: الآية ٢٨]. وقال تعالى في مدح قوم: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوَاحِشِهِ﴾ [التحل: الآية ٥٠]. وقال: ﴿وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: الآية ١٧٥]. وقال: ﴿وَأَنَّىٰ فَارْهَبُونَ﴾ [البقرة: الآية ٤٠]. وقال أيضاً: ﴿وَنُحِيفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: الآية ٦٠].

وقال رجل لرسول الله ﷺ في قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً نَّاتِراً وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: الآية ٦٠]. يعني بذلك: الرجل الذي يزني ويسرق ويشرب الخمر وهو خائف؟ قال: لا، ولكن الرجل الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو مع ذلك يخاف أن لا يقبل منه. وقد جاء في الحديث: «ياكم ومحقرات الذنوب، فإن لها من الله طالباً، وإنها لتجتمع على المرء فتهلكه»^(٢). وقال لقمان عليه السلام لابنه: «يا بني، خف الله خوفاً لو أتيت بعمل الثقيلين خفت أن يعذبك، وارجه رجاءاً لو أتيت بذنوب الثقيلين رجوت أن يغفر لك»^(٣).

وقال الصادق عليه السلام: «بينما كان رسول الله ذات يوم قاعداً إذ نزل جبرئيل كثيراً حزناً، فقال له رسول الله ﷺ: يا أخي جبرئيل، ما لي أراك كثيراً حزناً؟ فقال كيف لا أكون كذلك وقد وضعت منافخ جهنم اليوم. فقال: وما منافخ جهنم؟ قال: إن الله

(١) مستدرك الوسائل: ج ١١، ص ٢٣١، باب ١٤.

(٢) وسائل الشيعة: ج ١٥، ص ٣١٣، باب ٤٣.

(٣) وسائل الشيعة: ج ١٥، ص ٢١٦، باب ١٣ مع اختلاف في اللفظ.

أمر بالنار فأوقد عليها ألف عام حتى أحمرَّت، ثم أوقد عليها ألف عام حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت. فهي سوداء مظلمة، ظلمات بعضها فوق بعض، فلو أن حلقة من السلسلة التي طولها سبعون ذراعاً وضعت على الجبال لذابت من حرها، ولو أن قطرة من الزقوم والضريع قطرت في شراب أهل الدنيا لمات أهلها من نتنها. فبكى رسول الله ﷺ وبكى جبرئيل عليه السلام. فأوحى الله إليهما قد أمنتكما من أن تذنبا ذنباً تستحقان به النار، ولكن هكذا كونا^(١). وروي أن إبراهيم عليه السلام كان يسمع منه أزيز كأزيز المرجل من خوف الله تعالى في صدره. وكان سيدنا رسول الله ﷺ كذلك. وكان أمير المؤمنين علي عليه السلام إذا قال: «وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض» يتغير وجهه ويصفر لونه فيعرف ذلك في وجهه من خيفة الله تعالى. وقد اعتق ألف مملوك من كد يمينه. وكان يغرس النخل ويبيعها ويشتري بثمرها العبيد ويعتقهم، ويعطيهم مع ذلك ما يغيثهم عن الناس.

وأخبره بعض مواليه أنه قد نبع في بستانه عين ينبع منها الماء مثل عنق البعير فقال: «بشر الوارث، بشر الوارث، بشر الوارث. ثم أحضر شهوداً فأشهدهم أنه وقفها في سبيل الله حتى يرث الأرض ومن عليها، وقال: إنما فعلت ذلك ليصرف الله عن وجهي النار»^(٢). وشاهد رجل علياً عليه السلام وهو يناجي ربه؛ وإذا به أضحى كالخشبة اليابسة؛ فجاء مسرعاً إلى بيت فاطمة عليها السلام يخبرها بأن بعلمها قد مات؛ فقالت: في أية حالة رأيته؟ قال رأيته: يعبد ربه. قالت: أنه يُغَمَى عليه كل ليلة مرات من خشية الله تعالى^(٣).

وجاء في الحديث: «حرمت النار على عين بكت من خشية الله». وعن أبي لمامة قال، قال النبي ﷺ: «ما يقطر في الأرض قطرة أحب إلى الله من قطرة دمع في سواد الليل من خشية الله لا يراها أحد إلا الله عز وجل»^(٤). وعنه عليه السلام: «إذا اقشعر قلب

(١) إرشاد القلوب: ج ١، ص ١٠٦، باب ٢٨.

(٢) إرشاد القلوب: ج ١، ص ١٠٥، باب ٢٨.

(٣) أمالي الصدوق: ص ٧٧، مجلس ١٨ مع اختلاف في اللفظ.

(٤) مستدرك الوسائل: ج ١١، ص ٢٣٩، باب ١٥.

المؤمن من خشية الله تحاتت عنه خطاياهم كما يتحات من الشجر ورقها»^(١).

وإن فاطمة سلام الله عليها أوصت بأن تدفن معها قارورة كانت تجمع فيها دموعها من خشية الله جوف الليل. وعن الصادق عليه السلام قال: حدثني أبي عن أبيه: «إن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام كان أعبد الناس في زمانه وأزهدهم وأفضلهم. وكان إذا حج حج ماشياً وربما مشى حافياً، وكان إذا ذكر الموت بكى، وإذا ذكر القبر بكى، وإذا ذكر البعث والنشور بكى، وإذا ذكر العرض على الله تعالى ذكره شق شقة يغشى عليه منها. وكان إذا قام في صلاته ترتعد فرائضه بين يدي ربه عز وجل، وكان إذا ذكر الجنة والنار اضطرب اضطراب السليم وسأل الله الجنة وتعوذ بالله من النار»^(٢) كل ذلك مع عصمتهم وطهارتهم سلام الله عليهم بنص من الكتاب والسنة. فنسأل الله تعالى توفيق الخشية والخيفة، واجتناب الآثام صغائرها وكبائرها، ونستعيز به من الركون إلى الشهوات والأمانى، فكم من أناس خرجوا من هذه الدنيا وهم يمتنون أنفسهم بالاستغفار والإنفاق في سبيل الله، فلم تتح لهم الفرص وألهتهم شهواتهم، وأبعدتهم عن معاصيهم وما اجتاحت أيديهم توفيق الملائكة والإنابة، فذهبوا بلا زاد ولا عمل، فخسرت صفقتهم، فخسروا أنفسهم ﴿وَيَذَٰلِكُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: الآية ٤٧]. إنه تعالى يقول: ﴿وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝﴾ [العصر: الآيات ١/٣].

قيمة البلى في تكامل النفس

ما من شخص إلا ويصاب في حياته بنوع أو أنواع من البلى والنوائب. يختلف ذلك باختلاف الأشخاص والأفراد. فمنهم من يبتلي بين آن وآخر بضيق في العيش أو مرض بسيط لا يستغرق زمناً طويلاً، بينما نرى الآخر يبتلي طيلة حياته بمرض مزمن أو عاهة مزمنة أو فقر مدقع مستمر أو علة لا مفر منها. أو نراه مقعداً يتمنى المشي أو

(١) أصول الكافي: ج ٢، ص ١٧٩، باب المصافحة.

(٢) بحار الأنوار: ج ٤٣، ص ٣٣١، باب ١٦.

مصاباً بمرض في المعدة لا يقوى على الأكل كما يجب، ويتمنى لو أنفق نصف ماله فيأكل كما يأكل أحد عماله الذين لا يملكون إلا قوت يومهم.

نرى أشخاصاً يتلون بأنواع من الأمراض في أواخر عمرهم وهم مترفون في أوائل حياتهم منعمون مع كمال الصحة.

نرى أشخاصاً بعكس ذلك مصابين بأنواع البلاء من فقر ومرض وغيرهما في أوائل حياتهم، مترفين منعمين في أواخر حياتهم الدنيوية مع صحة كاملة. وقد نسمع كثيراً من الشكاوى من الطبقة المريضة أو المبتلاة بالفقر. يقول بعضهم: لماذا فلان مع عدم قيامه بأمور خيرية وأكله أموال الناس، منعم مرفه؟ لماذا فلان مع تقواه وورعه مبتلي بأنواع المرض والفقر؟ ما هذا الاختلاف؟ ألا يحب الله الصالحين من عباده فيبتليهم بأنواع الأسقام ومختلف النوائب؟

ونسمع أيضاً بعض الشكاوى من الطبقة المنعمة لخسارة نصيبهم، أو فقدهم ولداً أو لطمعهم في مال أكثر.

وقد سمعت رجلاً متوسط الثقافة وقد علّ، ينسب عدم التدبير إلى مدبر هذا الكون ويتهم العالم بعدم الانتظام والتبلي!

وقد ينسب بعضهم الظلم إلى الباري وينفي عنه العدل والرحمة، نستجير بالله من ذلك. لذلك ظهرت مذاهب فلسفية: كمذهب النشأوم ومذهب التفاؤل. والفيلسوف المبتلى في حياته بأنواع البلاء والمحن يرى الدنيا كلها محناً ونوائب، والفيلسوف الذي عاش وديع الخاطر، مترفاً منعماً يرى الدنيا كلها مسرات. فالأول متشائم والثاني متفائل. ولم تفسر لنا الفلسفة علل ذلك. إنما تعزو بعض الموفقيات إلى فعالية الإنسان الشخصية لاسيما مذهب (Pragmatisme). وهذا لا يحل لنا مسألة النوائب السماوية والأمراض والأسقام والأضرار غير المنتظرة مهما بذل الإنسان كفائه وجهوده في دفعها.

ولا شك أن السعي في أمور الدنيا يؤدي إلى نتيجة ملموسة وهذا معنى قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَمَنْ فَهِيًا لَا يَبْخُسُونَ ﴿٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّكَارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطِلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ [هود:

الآيتان ١٥/١٦]. وإن السعي في أمور الآخرة، من عبادات وأعمال صالحة نافعة وخدمة الغير قربة إلى الله تعالى يؤدي إلى نتيجة محمودة لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۚ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ [النجم: الآيتان ٣٩/٤٠].

ولكن كيف تفسر هذه المحن والأمراض والنوائب. أوفي استطاعة الإنسان رفعه أو دفع كل ذلك؟ كلا. ولا مرء أن لا حقيقة بعد حقائق القرآن. وقد فسر لنا ربنا جلّ وعلا كل ما يختلج في صدورنا عن الجهل ويؤدي بنا إلى الاعتراض الواهي: ﴿وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَآسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: الآية ٥٩]. ﴿مَا فَرَطْنَا فِي أَلْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: الآية ٣٨]. ولكن لبعدنا عن تفهم القرآن والعمل بما فيه أصبحنا مجموعة شكوك واعتراضات واهية، فنسمي هذه الاعتراضات فلسفة وهذه الشكوك حكمة. مع أنه لا مجال إلى الشك والريب بعد تفهم القرآن الكريم والأحاديث النبوية.

فهذا قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: الآية ٢]. أي خلق الله الإنسان للامتحان والاختبار؛ وكيف يكون هذا الإختبار؟ فهذه اختبارات تُختبر بها النفس ولا تشبه اختبارات الحوادث الفيزيائية أو الكيميائية، وإنما هي امتحانات تتوجه إلى النفس مباشرة. فإما أن تتوفق فيها النفس فتقبلها بصدر رحب وتعمل فيها حسب أمر الله تعالى، أو تراها ثقيلة فترفضها وتتبع شهواتها وميولها الجامحة الأمارة بالسوء، أو تكون بين هذا وذاك، فتكتب لها درجة في الكتاب الخاص بها حسب ما تقوم به من أعمال.

يُختبر الغني بالفقر: يأتي الفقير الغني. فإما يستقبله هذا الغني استقبالا شيقاً، استقبالا فيه من البشر والحنان فيعطيه ما يغنيه، إن أمكن، أو يعطيه حسب وسعه، وإما أن يخفي نفسه في بيته فيقول لخدمته: قل لهذا الفقير العاجز، إني لست في البيت أو مسافرا فيرجع المسكين العاجز خائبا منكسرا يائسا من جود هذا الغني أو بالأحرى من عدم قيام هذا الغني بواجبه، غير يؤوس من رحمة الله تعالى. لذلك يجيب أصحاب الشمال عندما يسألهم أصحاب اليمين: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ [قَالَوا لَوْ نَكَّ مِنْ الْمُصَلِّينَ] [وَلَوْ نَكَّ نَطْعُومُ الْمُسْكِينِ] [المذثر: الآيات ٤٢/٤٤]. فإنهم يذكرون عدم إطعامهم المسكين بعد عدم أدائهم الصلاة

مباشرة. وهذا دليل على ما لإطعام المسكين في الإسلام، من أهمية فائقة. لذلك يقول الله تعالى في مقام آخر: ﴿وَلَا يَحْضُرْ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ [الحاقة: الآية ٣٤].

إن الله يمتحن الفقير بالصبر فإن لم ييأس من رحمة الله وصبر فقد فاز في هذا الامتحان العالمي. وإن تدمر وتضجر واعترض على حكمة الله وأساء الظن في جعله فقيراً بعده عن رحمة الله مع فقره ومسكته. فالله يقول: كما في الحديث القدسي: «إني عند حسن ظن عبدي». وجاء في الحديث القدسي أيضاً: «وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ولو صرفته إلى غيره لهلك». يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ إِيَّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: الآية ٧]. فجعل علة الخلق: الابتلاء. أي إن الله تعالى إنما خلقنا ليبولونا ويمتحننا بمرض وسقم وعاهة وطاعة وغيرها.

يكون الإنسان في تمام الصحة فيأخذه الغرور ويمتني نفسه طول العمر، فلا يسمى في تزكية نفسه وتطهيرها ويمتني نفسه: إنه سوف يكون إنساناً صالحاً في أواخر أيام حياته. فالله يمرضه كي ينتبه ويعلم أن ليس هناك وقت معين للموت (كما يخمن الإنسان)، فإن صبر على ما يصيبه في مرضه وشكر الله على بلائه كان له، كما يقال: (أجر وعافية)، فيكون هذا المرض سبباً لتنبه واستبصاره وسقوط شيء من ذنوبه السابقة. فقد جاء في الحديث: إن الله تعالى يقول: «ما من عبد أريد أن أدخله الجنة إلا ابتليته في جسده. فإن كان ذلك كفارة لذنوبه وإلا ضيقت عليه رزقه. فإن كان ذلك كفارة لذنوبه، وإلا شددت عليه الموت حتى يأتيني ولا ذنب له ثم أدخله الجنة، وما من عبد أريد أن أدخله النار إلا صححت جسمه، فإن كان ذلك تماماً لطلبته عندي، وإلا أمنت له من سلطانه. فإن كان ذلك تماماً لطلبته عندي، وإلا أمنت له من سلطانه، فإن كان ذلك تماماً لطلبته وإلا هونت عليه الموت حتى يأتيني ولا حسنة له، ثم أدخله النار»^(١).

وحاش لله أن يريد بعبد دخول النار إلا إذا أتم عليه الحجة مرات ومرات وتمادى

(١) أصول الكافي: ج ٢، ص ٤٤٦، باب تعجيل عقوبة الذنوب.

في البغي والفجور والضلال وانقطع الاتصال ويشس من رحمة ربه ولم تغد فيه أية هداية وأية رحمة واستحق العقوبة فأصبح لا يطهره إلا النار. وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَقَّ نَبَعَتْ رَسُولًا﴾ [الإسراء: الآية ١٥].

أثر النوائب في تطهير النفس وتكاملها

يشكو كثير من الناس عندما تتابهم النوائب وتكتنفهم المصائب. يشكون متذمرين غير شاكرين ولا صابرين. ذلك لأن حكمة النوائب والبلايا قد خفيت عليهم ولو أنهم علموا أسباب ذلك، لصبروا بل ولشكروا واستغفروا. فلقد رأينا أحب الخلق إلى الله أنبياءه وأوليائه قد ابتلوا ببلايا جمّة ومصائب عدة، لم يبتل بمثلها غيرهم وهم أعزاء الله وخيرة خلقه.

نرى كثيراً ممن أفسدوا في الأرض واستوجبوا سخط الله، مترفين منعمين لا يتلون في حياتهم بما يتلى به غيرهم من أصفياء الله وصالححي عباده. ولو تتبعنا القرآن الكريم وتعمقنا فيه لعلمنا أن النوائب والمصائب، وإن شئت فقل، إن الاختبارات والامتحانات تتوجه إلى كل نفس لا محالة لتبدي ما عليها من صبر وشكر واستغفار وعزم وتوكل وإنفاق لجبران ما فات، أو لتظهر ما تحمل من غي وطيش وكبر وتذمر وكفر وجحود أي إما إلى تكامل أو إلى تسافل وتدهور ما بعده انحطاط. إن الله تعالى يقول: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ ① وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ② [العنكبوت: الآيتان ٢/٣].

فإن الإقرار بالإيمان وحده لا يكفي للدخول في سير التكامل النفسي والبلوغ إلى حيث يشاء الله، أي في: «مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»، ولا بد من اجتياز امتحانات صعبة دقيقة أصعب بكثير من الامتحانات المدرسية مهما كان الموضوع صعباً والنجاح فيها عسيراً. كي يعلم الإنسان حقيقة نفسه، حتى إذا عوقب بعد الموت أو قبل الموت اعترف بأنه إنما عوقب لسوء سريره واتباع هوى نفسه وسقوطه في الامتحانات الإلهية، تلك الامتحانات التي كان بإمكانه أن ينجح فيها.

هذا رجلاً قد أنعم الله عليه بمال كثير، يأتيه جاره المسكين العاجز، فلا ترق له نفسه ولا يعطيه مما فرضه الله عليه، وهذا مريض بائس، قد أشرف على الموت وهو طبيب ذو ثراء، فلا ينهض لمداواة أخيه المسلم ولا يعينه من فضول ماله، ألم يكن ذلك في إمكانه؟ ما الذي منعه عن ذلك؟ أليست نفسه الأمانة بالسوء؟ ولو حَكَمَ عقله في وقت لا يغلب عليه هواه، في وقت أزيح عنه شيطانه، لعلم أنه خان نعماً أنعم الله بها عليه، بل خان نفسه وخسرها. فكان من الذين ﴿خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [الأنعام: الآية ١٢].

إن الله تعالى يقول: ﴿وَلَنْبَلُوكُمْ بِثَقَلٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقَصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالْعُرَىٰ وَبَشِيرِ الصَّائِرِينَ﴾ [١٥٥] الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ [البقرة: الآيات ١٥٥/١٥٧].

فكما أن الإنسان يُمتحن في حياته بالمال الكثير والعلم الغزير وأنواع الفنون والصناعات وملكات وقابليات ومواهب ونبوغ واستعداد فائق وأمثال ذلك من أنواع الكمال والجمال، يُمتحن أيضاً بكل ما يؤدي إلى الخوف والجوع والفقر وفقد الأولاد والأعزة وقلة الثمرات، ليؤدي امتحانه بالصبر على كل ذلك.

فبالصبر يبرز الإيمان العملي، الإيمان الفعلي، كما أن بالنطق يظهر الإيمان القولي، وهذا تفسير لقوله تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسَ أَن يَتَذَكَّرُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْقَهُونَ﴾ [الغنكبوت: الآية ٢]. لأن مجرد القول بالإيمان لا يظهر حقيقة الإيمان، ولكن الصبر وتفويض الأمر إلى الله وتطمين النفس بنعيم الآخرة والرجوع إلى الله هو الذي يظهر إيمان الشخص الفعلي الواقعي. لأن حقيقة الإيمان تتجلى بالاعتقاد بالبعث والحياة الآخرة والثواب والعقاب. فمن زاد إيماناً بالبعث والحياة الآخرة قوي على الصبر. فكان معيار الإيمان الحقيقي هو الصبر على النوائب والمصائب على أنواعها. لذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَبَشِيرِ الصَّائِرِينَ﴾ [١٥٥] الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾. ثم أعقبه بمنزلتهم العظيمة وبإلهامها من منزلة، بقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: الآيات ١٥٥/١٥٧].

نعم: «إن عظيم الأجر لمن عظيم البلاء، وما أحب الله قوماً إلا ابتلاهم» كما جاء في الحديث.

فالنواب والمصائب إنما هي بمثابة الأعمال الكيميائية التي تجري على قطعة من المعادن المختلفة لاستخراج الذهب الخالص منها، فإن الإنسان تجري عليه أنواع الامتحانات حسب منزلته ولياقته ليخرج إن كان مؤمناً حقاً من هذه الدنيا بالذهب الخالص. ولنعم ما قال الشاعر «الناشي الصغير»: عليّ الدرّ والذهب المصقّى.

وعن أبي عبد الله عليه السلام: «أربعة لا يخلو منهم المؤمن أو واحدة منهم، مؤمن يحسده، وهو أشدهن عليه، ومنافق يقفو أثره، وعدو يجاهده، وشيطان يغويه»^(١).

هذه هي سنة الله في الأولين والآخرين، إن الله تعالى يقول: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: الآية ٢٠].

تبعوا أحوال الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين وأحوال الأئمة الأطهار عليهم السلام وأحوال المؤمنين، تروا أن أقربهم إلى الله كان أشدهم ابتلاء وأكثرهم غرضاً لسهام المنافقين والأعداء. وهم على حسب مراتبهم يختلفون في درجات الصبر، وإن نبينا محمداً عليه السلام وهو سيد المرسلين كان أكثر الأنبياء ابتلاءً. لذلك قال صلوات الله عليه وعلى آله الطاهرين: «ما أودى نبي مثل ما أوديت».

وممن صبر على المصيبة صبراً لا يقوى عليه غيره، صبراً يتجلى فيه الإباء والبطولة الخالدة: الحسين عليه السلام. وهو القائل: «رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه ويوفينا أجور الصابرين»^(٢). ويقول عليه السلام في مكان آخر مخاطباً رب العباد: «إلهي رضى بقضائك لا معبود سواك». فوليّ الله جعل دائماً غرضاً لعدو الله، فقد قال أبو عبد الله عليه السلام: «إن الله جعل وليّه في الدنيا غرضاً لعدوّه»^(٣).

إن البلايا لتختلف شدة وضعفاً، كما أسلفنا، حسب قابلية الممتحن واستعداده. وهذا من عظيم لطف الله وجزيل سيّبه. فلا يمتحن المؤمن كما يمتحن النبي أو الوصي. لذلك يقول لنا أبو جعفر محمد الباقر عليه السلام: «أشد الناس بلاءاً، الأنبياء ثم الأوصياء ثم

(١) أصول الكافي: ج ٢، ص ٩٤، باب الشكر.

(٢) كشف الغمة: ج ٢، ص ٢٩.

(٣) أصول الكافي: ج ٢، ص ٢٥٠.

الأمثل فالأمثل»^(١). ولذلك يقول رسول الله ﷺ لسبطه الحسين عليه السلام: «يا بني، أخرج إلى العراق، شاء الله أن يراك قتيلاً وأهل بيتك سبايا، وإن لك درجة لن تبلغها إلا بالشهادة». نعم، «مثل المؤمن مثل كفتي الميزان، كلما زيد في إيمانه زيد في بلائه، ليلقى الله عز وجلّ ولا خطيئة له»^(٢). كما يحدثنا موسى بن جعفر عليه السلام. وإن درجة الإيمان تتناسب مع تحمل عظيم البلاء، فإن الإنسان قد يعرض عليه المال الكثير من مورد مشكوك أو محرم أو تعرض عليه رئاسة فيها هتك حرمة الله والتصدي إلى أنواع الجور والظلم فقلّ من ينجح في هذين الامتحانين بترك المال لحرمة والرضا بالفقر والمسكنة، أو رفض الرئاسة والعمل حسب هذه الآية الشريفة: ﴿تِلْكَ الْأَمْثَلُ الَّتِي رَجَعْنَا الْبَشَرِ فِيهَا مِثْلُ كِفْتِ الْمِيزَانِ﴾ [الفصل: الآية ٨٣].

فالتقوى: أن ترى وجه الحيلة ويصدقك عن ارتكابها خوف الله. لذلك يقول الحسين عليه السلام في كلمته الخالدة: «الناس عبيد الدنيا والدين لعن على ألسنتهم، يحوطونه ما درت معاشهم، فإذا محصوا بالبلاء قل الديانون»^(٣).

أثر الصوم في تكامل النفس

الإنسان في طريقه إلى التكامل يحتاج إلى ما يطهر نفسه ويزكيها فيخرجه من ماديته الحالكة إلى معنوية وضاعة تؤدي به إلى التقرب إلى الله تعالى وإلى حلول حب الله، جلّ وعلا، في نفسه. ولا يحلّ هذا الحب العظيم إلا في نفس لها من الكمال نصيب، ولا كمال إلا بما يبعد الإنسان عن أدان المادة.

فالصوم عدا ما فيه من معنوية ذاتية، لو قصد به التقرب إلى الله تعالى، تقريباً لا شائبة فيه وأريد به إطاعة الله وابتغاء مرضاته، يذيب المادية التي تعارض معنوية النفس وسير تقدمها نحو الكمال المنشود. لذلك كان من المستحب أن يصوم الإنسان يوماً في

(١) أصول الكافي: ج ٢، ص ٢٥٩.

(٢) مستدرك الوسائل: ج ٢، ص ٤٣٦، باب ٦٥.

(٣) تحف العقول: ص ٢٤٥.

أول الشهر ويوماً في وسطه ويوماً في آخره، وثواب ذلك ثواب من صام الشهر كله. فهو بعمله هذا يذيب المادية ويدخل في عالم قدسي فيه حب الخالق جلّ شأنه والتفكير في عظمته وعدم الاكتراث بالدنيا وزخرفها وزبرجها.

فإن تكامل الإنسان إنما يتناسب مع درجة تفكره في الآخرة وعدم رغبته في الدنيا. إن الله تعالى يقول: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّكَارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: الآيتان ١٥/١٦].

وإن قول رسول الله ﷺ: «صوموا تصحوا» يشمل الصحة في النفس والصحة في البدن، ولا ريب أن صحة النفس هي الغاية القصوى التي يجب على الإنسان أن يسعى لتحقيقها، ولا تصحّ هذه النفس إلا إذا سلمت من أسر الهوى والشهوات. إذ ذاك يعمل عقله الفطري فيصدق بما أنزل على النبي محمد ﷺ. يقول الإمام علي عليه السلام: «يشهد بذلك العقل لو سلم من أسر الهوى»، وإن الصوم خير قانع لهوى النفس والأهواء الفاسدة. لذلك جاء في الحديث: «خِصَاءُ أَمْتِي الصُّومِ». أي أن الصوم خير قانع للشهوات، فلو تعود الشاب في عنفوان شبابه أن يصوم أكثر أيامه، فإنه لا يتصدى إلى ما حرم الله تعالى من أعمال قبيحة وفعال شنيعة ويتنظر حتى يرزقه الله تعالى زوجة صالحة. فيكون ملكاً على شكل إنسان، فيه من الروحانية وصفاء النفس ما لا يوصف. ومن كان غير مصدق فليجرب، فالتجربة سند العلوم الحديثة ومدارها.

ومما لا مرأى فيه أن الإنسان لم يوت به إلى هذه الدنيا بهذه الصورة التي يولد إلا ليتكامل. ذلك لأنه ناقص حين يولد. والله تعالى لا يصدر منه إلا الكمال. فوجب على الإنسان أن يتكامل لا محالة، فإن أبى فمصيره النار ليطهر فيها. فإذا تكامل كان أهلاً ليخلد في جنة ﴿عَرَفْنَاهَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: الآية ١٣٣] ولذلك يقول الله تعالى في كتابه المجيد، حين يتساهل مع من لا يقوى على الصوم إلا بمشقة لا تكاد تطاق بقوله: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: الآية ١٨٤]. ذلك لأن ما يستفيد هذا البشر (رغم تحمله مشقة كبيرة) من المعنوية الفائقة والفوز بمعرفة الله تعالى

هو أضعاف هذا العناء. فليس للبشر إلا أن يتبع ما سنّه الله لتكميله على لسان أنبيائه ﷺ، إن أراد الفوز والنجاح في دوره التكاملي، وإلا كان من الأخسرين أعمالاً وممن خسروا أنفسهم، على حد قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ لَكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: الآيتان ١٠٣/١٠٤].

ولا ريب أن الشيطان هذا الذي يرانا ولا نراه (وكم من أشياء لا نراها وهي ترانا) هو عدو الإنسان اللدود. يقول الله جلّ وعلا: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنَ الْمُحْسِبِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ [فاطر: الآية ٦]، ولولا إتباعنا إياه وإطاعتنا له لعرجنا في ساحات القدس. على أن ليس للشيطان أية سلطة علينا أو نفوذ، على حد قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الحجر: الآية ٤٢]. وقوله تعالى أيضاً: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [التحل: الآيات ٩٨/١٠٠].

فلا سلطان ولا سيطرة للشيطان على الإنسان، خلافاً لما يقوله بعض من يريد تبرير موقفه عند ارتكاب المعاصي واجتراح السيئات. إنما الشيطان يدعونا فحسب ولا يتعدى أمره: (الدعوة). فما علينا إلا أن لا نلبي دعوته. وإن الشيطان ليعترف يوم القيامة قائلاً: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنفُسُكُمْ﴾ [إبراهيم: الآية ٢٢]. وقد جاء في الحديث: «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم، لنظروا إلى ملكوت السموات».

إن الشيطان يدخل فينا كالأشعة السينية (Rayons x) وقد جاء في الحديث: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، فضيقوا مجاريه بالجوع والعطش»^(١).

إن أول من ظفر بأن في الفضاء أمواجاً كهربائية - مغناطيسية تشبه أمواج الضوء المرئي في خواصها وقوانينها هو (جيمز). إنه أثبت بمعادلات رياضية وجود هذه

الأمواج في الجو. وما كان ليصدقه أحد لأن غيره ما كان يرى ما يراه (جيمز) بعقله! فإن ما لا يرى بالعين المجردة أكثر ما يرى بها وهو موجود. وإن الموجات التي لا ترى بالعين أكثر فعالية وتأثيراً مما يرى بالعين: فالكهرباء أكثر فعالية من الخشبة، والنفس أكثر فعالية من الكهرباء، والعقل أكثر فعالية من النفس وهكذا. فكلما كان الشيء دقيقاً لا تراه العيون (المحدودة في قابلياتها) كان أكثر تأثيراً وهيمنة. وكلما كان إلى المادية والتجسم أقرب، كان محكوماً لما هو أدق منه خلافاً لما يهذي المادي الطائش.

إن الشيطان موجود كوجود النفس والعقل والجن والأمواج الهرتزية، وهو يرانا من حيث لا نراه، فالله تعالى يقول: ﴿إِنَّهُ يَرْنَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَلَلْنَا السَّيِّطِينَ أُولَئِكَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٧]. وفي آية أخرى يقول الشيطان: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٦/١٧].

فالشيطان يدخل في جوف الإنسان من طرق شتى ويقوم بمحاكمة مع العقل الإنساني. أرايت إنك إذا أردت أن تعطي مسكيناً عشرة دنانير وأنت لك حاجة كمالية يمكنك أن تستغني عنها، كيف يحدث بينك وبين ناطق في خلدك محاكمات ونقاش، أنت تريد العطاء وهو يسؤل لك الدنيا ويزينها ويعدُّ لك حاجات عدة. يدعوك إلى أن تعدها من الواجبات، فتتنصرف عن هذا العطاء الذي يقربك إلى الله ويزكي بدنك ومالك ونفسك. هذا الناطق هو الشيطان...

أرايت إذا كان وقت السحر (قبل طلوع الفجر) وأردت النهوض إلى صلاة الليل والتهجد بين يدي رب العباد، تأخذ بنفسك لتعرج بها إلى الملكوت الأعلى، كيف يخدعك ناطق في جوفك قائلاً: إنك مُتعب، فتم هنيهة، النوم عافية، ولا بد لك من أن تحافظ على صحة بدنك فإنك إذا قمت إلى صلاة الليل لا تقوى على إنجاز الأعمال التجارية في النهار، فتكون متعباً... إلى ما هنالك، حتى جعلك تنام وتندم في آخر ساعة حياتك على ضياع عمرك وعدم زرعك في دنياك ما تحصده: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ ﴿لَا مَنْ أَقَى اللَّهَ يَنْفَعُ سَلِيمٌ﴾ [الشعراء: الآية ٨٨/٨٩]. ذلك لأن الدنيا مزرعة

الآخرة، كما جاء في الحديث. ولا ريب أن القلب لا يكون سليماً إلا بأعمال يتعلمها الإنسان من خاتم النبيين محمد وأهل بيته الأطهار سلام الله عليهم أجمعين ويعمل بها بإخلاص ولوجه الله الكريم.

فلو تمكن الإنسان أن يسيطر على هذا العنصر الذي لا يراه ببصرته (هذه الباصرة التي تبصر على مسافة محدودة وأجساماً معينة في الصغر ولا تتعدهاها) وأعني به الشيطان، لولج في عالم من المعنوية والقدسية فيه من السرور مالا يوصف، ومن الحبور مالا يُحدّد. ولا تتحقق له هذه السيطرة إلا بما يخفف وطأة المادة في بدنه ومنه الصوم والصلاة وكل ما يؤدي إلى تخفيف الذنوب وتكفيرها ومحوها. لذلك جاء في الحديث: «الصلاة صابون الخطايا»^(١).

واني أذكر فقرة من دعاء يقرأ كل يوم من أيام شهر رمضان يتعوذ فيه المؤمن بالله من عدوه الشيطان لأهميته: «اللهم صلّ على محمد وآل محمد وأعذني فيه من الشيطان الرجيم وهمزه ولمزه ونفثه ونفخه ووسوسته وتثييطه وكيدته ومكره وحبالته وخدعه وأمانيه وغروره وفتته وشركه وأحزابه وأتباعه وأشياعه وأوليائه وشركائه وجميع مكائده»^(٢).

تتكامل النفس الإنسانية بمقدار ما تذوب فيها المادية وتقتلع عنها الصفات الرذيلة والأخلاق الذميمة، فمعالجة النفس غير معالجة البدن ولها طرق خاصة ومن أهمها الصوم. فله أثر فعال في تكامل النفس.

أنظروا إلى بعض ما جاء في دعاء اليوم الخامس من شهر رمضان المبارك. إنه معالجة للروح والنفس والقلب. فإن القلوب مريضة ومعالجتها لا تكون إلا بما يناسبها. ولا يعلم طرق هذه المعالجة إلا أطباء الأرواح وهم الأنبياء والأوصياء من بعدهم سلام الله عليهم أجمعين بما أوحى أو ألهم إليهم من جانب الله تعالى.

يقول الصائم وهو خاشع ذليل بين يدي ربه في اليوم الخامس من شهر الغفران: «اللهم صلّ على محمد وآل محمد وأنزع ما في قلبي من حسد أو غل أو غش أو فسق

(١) شرح نهج البلاغة: لابن أبي الحديد، ج ٢٠، ص ٣١٣، باب الحكم المنسوبة.

(٢) إقبال الأعمال: ص ٢٥.

أو فرح أو مرح أو بطر أو أشر أو خيلاء أو شك أو ريبة أو نفاق أو شقاق أو غفلة أو قطيعة أو جفاء أو ما تكرهه مما هو في قلبي». إلى أن يقول: «اللهم ارزقني سلامة الصدر وانفتاحه إلى ما تحب وترضى، ونور القلب وتفهمه لما تحب وترضى، وضياء القلب وتوقده في ما تحب وترضى، وحسن القلب وإيمانه بما تحب وترضى. يا من بيده صلاح القلب، أصلحه لي. يا من بيده سلامة القلب، فاجعله سالماً لي»^(١).

عندما كنت أدرس في الجامعة حاولت أن أحقق أول مادة من هذا الدعاء وهو قلع (الحسد) عن نفسي. فصرت أترجم بعض المسائل الصعبة من كتب مهمة أخرى وأقدمها قبل أن أحلها إلى من كان يناقشني في الصف، وأقدم له الحل إن تعسر عليه، ولا أضنُّ عليه بشيء مما أعلم أو أوفق إلى حله بلطفه تعالى.

إن الصوم والدعاء (والجوف في معزل عن المادة) وما يقوم به المؤمن في ليالي القدر، خير وسيلة لتعمير القلب وإصلاح النفس حتى تصبح النفس مصداق هذا الحديث: «من سرته حسنة وسأته سيئة فذلكم المؤمن»^(٢).

فكما أن لضغط الجو مقياساً (بارومتر) ولحرارة الجو مقياساً (ترمومتر) كذلك لدرجات سمو النفس وتكاملها مقياس بل مقاييس. من تلك المقاييس: الحديث المتقدم. ومنها مفاد هذه الآية الشريفة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۖ ۝ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۖ ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝﴾ [الأنفال: الآيات ٤/٢].

فالوجل والخوف من الله تعالى عند ذكره وانهمال الدموع عند سماع أي الذكر الحكيم من علائم الإيمان. إن الله تعالى يقول عندما يمتدح خواص عباده الأنبياء عليهم السلام: ﴿إِنَّا نُلْقِي عَلَىٰ آلِهِمُ النَّوْءَ وَالرَّحْمَنُ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مریم: الآية ٥٨].
أذكر ليلة من ليالي شهر رمضان المبارك، كنت في روضة علي أمير المؤمنين عليه

(١) إقبال الأعمال: ص ١٢٦، دعاء اليوم الخامس من شهر رمضان.

(٢) أصول الكافي: ج ٢، ص ٢٣٢، باب المؤمن وعلاماته.

أفضل الصلاة والسلام بعد منتصف الليل . وكان بجنبي رجل يقرأ دعاء (أبي حمزة الشمالي) أم أدعية السحر . رأيته يبكي بكاء الثكلى حتى ابتلت لحيته . وكان يعلوه من الانكسار والخنوع والانقطاع والابتهاال مالا يوصف . ولا يعلم قيمة ذلك إلا من علم ما عليه نفسه من ذنوب وآثام ومعاصي وخطايا وهو نادم عليها . ذنوب احتطبها على ظهره ، فأثقلت كاهله . والإنسان ليشعر برفع هذا الثقل عن كاهله إذا ناجى ربه وذرفت عيناه بالدموع . لاسيما إذا قرأ دعاء السحر (دعاء أبي حمزة الشمالي) وخشع في دعائه وجرت دموعه على خديه . إنه ليشعر بعد الانتهاء من الدعاء كيف تخف نفسه ، كأنه قد وضع حملاً ثقيلاً عن كاهله ، وكيف يعلوها سرور وابتهاج بصورة لا شعورية . فإن من علائم الإيمان دمة الفرح والانجذاب إلى آيات الله ، دمة هي أمانة التسليم والانقطاع . إن الله تعالى يقول : ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة : الآية ٨٣] .

إن القلب ليصدأ إن لم يبك الشخص على ذنوبه أو حباً لله تعالى . وإن صدأ القلب أمر معنوي ، وإزالته لا تكون إلا بشكل معنوي ، والبكاء أمانة هذا الانقلاب المعنوي . نعم إن الدمة على ما ثبت في الطب الحديث تدفع مئات الأمراض عن البدن . ومما لا ريب فيه أن الله لو أراد أن يهدي عبداً (حين يتوجه إليه العبد مكفراً عن ذنوبه) وأحب أن يغفر له جعله يبكي على ذنوبه جوف الليل وأوقات العبادة . وهذا من علائم التقرب إليه تعالى .

تلا رسول الله ﷺ على ثلثة من الشبان آية من سورة الزمر : ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٦﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبَشِّرْهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٧٧﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طَابْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الزمر : الآيات ٧٦/٧٧/٧٨] . فبكوا وفاضت عيونهم بالدموع ، فبشرهم رسول الله ﷺ بالجنة .

يقول رسول الله ﷺ مخاطباً علياً عليه السلام : «يا علي ، كل عين باكية يوم القيامة إلا

ثلاث أعين: عين سهرت في سبيل الله، وعين غَضَّتْ عن محارم الله، وعين فاضت من خشية الله^(١). ومن جرب القسم الأخير شعر بما يعلوه من سرور وحبور، نزيهين طاهرين لا يضاھيهما أي سرور.

يقول الله تبارك وتعالى في وصف المؤمنين حين تتلى عليهم آياته: ﴿وَيَحْمَدُونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: الآية ١٠٩]. فهذه الدموع في شهر رمضان المبارك عند تلاوة القرآن وقراءة أدعية النهار وأدعية الليل وأدعية السحر وفي صلاة الليل ولا سيما في ركعة الوتر تذيب المادية المتأصلة في النفوس وتزيل الأدران والأرجاس وذمائم الأخلاق فيرى الإنسان نفسه، بعد ذلك، في عالم جديد من القدسية؛ تصفو النفس بهذه الدموع، فإذا صفت رشحت عليها المعارف الإلهية من عالم القدس، فتزداد معرفة بالله تعالى وهي غاية الغايات. فغاية ما يتكامل به الإنسان أن يزداد معرفة بالله تعالى، أي إن تكامل الإنسان يتناسب طردياً مع درجة معرفته بالله تعالى. فكلما كانت معرفته بالله تعالى أكثر كان سائراً في مدارج الكمال أكثر فأكثر. وإن شهر رمضان المبارك يهيئ الوسائل التي تصفو بها النفس لتتال نصيبها من الكمال وعن المعارف الإلهية.

وفي الحديث: «أبغض الناس إلى الله المتخمون المملأى، وما ترك العبد أكلة يشتهيها إلا كانت له درجة في الجنة»^(٢). وفي حديث آخر: «لا تمتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب. فإن القلب كالزراع يموت إذا كثر عليه الماء»^(٣).

نعم، إن المعارف الإلهية لا تحصل إلا إذا أذيت المادية في الإنسان كما جاء في الحديث. فإذا ذابت المادية بالصلاة والصيام والحج والزكاة والخمس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإنفاق والإيثار ومجاهدة النفس والأعمال الصالحة ازداد الإنسان معرفة بالله وأفيضت عليه المعارف الإلهية، فإن الإمام الصادق سلام الله

(١) تحف العقول: ص ٨، باب وصيته لأمير المؤمنين عليه السلام.

(٢) تنبيه الخواطر: ج ١، ص ١٠٢، باب تهذيب الأخلاق.

(٣) مستدرك الوسائل: ج ١٦، ص ٢٠٩، باب ١.

عليه يقول: «ليس العلم بالتعلم. إنما هو نور يقع في قلب من يريد الله تبارك وتعالى أن يهديه. فإذا أردت العلم، فاطلب أولاً في نفسك العبودية، واطلب العلم باستعماله، واستفهم الله يفهمك»^(١).

فالعبودية أساس العلم ومقدمة للإفاضات الربانية والمعارف الإلهية. وإن الصوم من أجلى مظاهر العبودية، وخير وسيلة لتكامل النفس الإنسانية.

أثر الحج في تكامل النفس

نرى جميع ما حولنا من حيوان ونبات وجماد في غاية الكمال. أي إن العالم المادي بما أودع الله تعالى فيه من قوانين دقيقة وخواص متعددة وقابليات خطيرة قد بلغ الغاية من الكمال. وإن أجزاءه مرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً بقوانين رياضية رصينة، مما يدل على أن الكمال قد بلغ متناه فقد جاء في القرآن الكريم: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَأَرِجْ أَلْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ۚ ثُمَّ أُنِجْ أَلْبَصَرَ كَذَيْنٍ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ أَلْبَصَرُ حَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [المُلْك: الآيتان ٤/٣].

وإن العلم الحاضر لم يكتشف عشر معشار ما أودعه الله تعالى من قوانين وخواص في هذا الكون المادي. وإنما قلت: (الكون المادي)، ذلك لأن العلم الحاضر علم مادي بجميع شراشره. لا يعمل إلا في المادة ولا يقف إلا على جزء ضئيل مما أودع الله تعالى من خواص ومعادلات لقوانين تربط عوالم المادة بعضها ببعض.

على أن ما ظفر به المتتبعون والمجربون (بفضل الله تعالى) من بعض القوانين والخواص المودعة في هذا الكون بأمره تعالى، لا يزال في حضيض لا يتناهى (الأصغر غير المتناهي). وسيبقى كذلك أبد الأبدين. ذلك لأن علم الله لا يتناهى، ونسبة المحدود إلى غير المحدود صفر: $\frac{\infty}{\infty} = \text{صفر}$.

إن الله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرٍ أَقْلَدُّ وَابَّحَرُ بِمُدُّ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: الآية ٢٧].

والعالم الحقيقي، كلما فتح الله له باباً من أبواب معرفة الحقائق المادية اعترف بعظم جهله وأنه في اللانهاية من مراتب الجهل. ولا يأتي الغرور إلا من ناحية الجهل. إن الإنسان مركّب من روح وجسم، فجسمه في غاية الكمال ولكن الإنسان ليس بجسم فحسب، بل ليس من الجسم في شيء. إنه إنسان بروحه ونفسه وهو مخلوق الله الكامل على الإطلاق. والكامل (وهو الله تعالى) لا يصدر منه إلا الكمال. ولذلك تفضل الله على الإنسان بغية تكميل نفسه الناقصة، تكميلاً يناسبها، بأنبياء ﷺ ومن بعدهم بأوصياء ﷺ يهدونه سواء السبيل ويتصدون لتكميل نفوس البشر وإبلاغها إلى حيث يشاء الله تعالى من مراتب الكمال. ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: الآية ٢].

فالغاية الحقيقية من خلق الإنسان: هو أن يعرف الله تبارك وتعالى وأن يزداد معرفة به تعالى بتزكية نفسه. ذلك لأن حب الله ومعرفة الله لا يحلان نفوساً مدلهمة حالكة بذنوب وأخلاق ذميمة وفسق وفجور. فوجب تطهيرها وتزكيتها، ولا تزكو إلا بالعبادة والأعمال الصالحة. والأعمال الصالحة هي نوع من أنواع العبادات إذا كانت لوجه الله وطلباً لمرضاة الله.

إننا خلقنا لمعرفة الله تعالى كما جاء في الحديث القدسي: «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق لكي أعرف». والعبادة باب معرفة الله تعالى ولا تحصل هذه الغاية الرئيسية من خلق الإنسان (هي معرفة الله تعالى) إلا بالعبادة. قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: الآية ٥٦]. فهم إذا عبدوا الله فتحت عليهم أبواب المعارف الإلهية، وازدادوا معرفة بالله تعالى كلما ازدادوا اهتماماً بالعبادة بإخلاص، دونما رياء أو حب لجاه أو طلب للرئاسة.

ومن جملة تلك العبادات المطهرة للنفوس والفاتحة على الإنسان أبواب المعارف الإلهية: الحج. ولا مراء أن المال يقسي القلب ويؤدي إلى شيء من الغرور والكبرياء ويبعد الإنسان - بما يترشح منه من ذمائم الأخلاق - عن الله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾ [العلق: الآية ٦/٧]. وقد جاء في الحديث القدسي: «وإن من

عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ولو صرفته إلى غيره لهلك»^(١). فوجب ملاقة ذلك،
لثلاث توصل إلى الثري أبواب المعرفة. فشرع الشارع الزكاة والخمس والزكاة المندوبة
والصدقات، وأوجب أمراً عبادياً فرضه على أولى الاستطاعة تفضلاً منه عليهم. حتى
لا يكون هذا المال حجر عثرة في طريق تقدمهم في مجالات المعارف الإلهية الواسعة
التي لا تتناهى. فهيأ لهم في بيته الحرام مواقف تذرف فيها دموعهم وتخضع فيها
قلوبهم وتلطف بها نفوسهم. يشاهدون المقامات القدسية ويتقربون فيها إلى ربهم
مخبتين، فلا يبقى حاجب يحجبهم عن الله تعالى لقدسية تلك المواقف. فيذكرون
ذنوبهم ثم ييكون عليها نداماً وحزناً منيبين خاضعين. وإن لكل عمل في الحج أثراً في
تكميل النفس الإنسانية والتساوي بين الوضيع والشريف. فليس هناك اعتبارات دنيوية
ما أنزل الله بها من سلطان. ذلك لأن الله تعالى قد جعل المفاضلة بين الناس بالتقوى
فحسب، أي بحسب سمو نفوسهم في حقول التزكية ومجالات التصفية، لقوله تعالى:
﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: الآية ١٣]، على أن في الحج فوائد اجتماعية
أيضاً لا تعد ولا تحصى لو استفاد منها المسلمون.

وقد جعل الله المقامات التي يتقرب فيها إليه في مثل مكة وجبالها القاحلة الجرداء
لينصرف العبد إلى عبادته، لا يلهيه الشيطان بزخارف الدنيا وجمالها الخداع، لذلك
يقول علي عليه أفضل الصلاة والسلام:

«ألا ترى أن الله سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم صلوات الله عليه إلى الآخرين
من هذا العالم بأحجار لا تضر ولا تنفع ولا تسمع ولا تبصر. فجعلها بيته الحرام الذي
جعله للناس قياماً ثم وضعه بأوعر بقاع الأرض حجراً، وأقل نتائج الأرض مدرأ
وأضيق بطون الأودية قطراً، بين جبال خشنة ورمال دثة وعيون وشلة (أي قليلة الماء)
وقرى منقطعة، لا يزكو بها خوف ولا حافر ولا ظلف، ثم أمر آدم وولده أن يشنوا
أعطافهم نحوه. فصار مثابة لمنتجع أسفارهم وغاية لملقى رحالهم. تهوى إليه ثمار
الأفئدة من مفاوز قفار سحيقة ومهاوي فجاج عميقة وجزائر بحار منقطعة. حتى يهزوا

(١) أصول الكافي: ج ٢، ص ٣٥٢، باب من أذى المسلمين.

مناكبهم ذللاً، يهللون لله حوله، ويرملون على أقدامهم شعناً غيراً له، قد نبذوا السراويل وراء ظهورهم، وشوهوا بإعفاء الشعور محاسن خلقهم، ابتلاءً عظيماً وامتحاناً شديداً واختباراً مبيناً وتمحيصاً بليغاً. جعله الله سبباً لرحمته ووصلة إلى جنته. لو أراد سبحانه أن يضع بيته الحرام ومشاعره العظام بين جنات وأنهار وسهل وقرار، جم الأشجار داني الثمار ملتف النبات، متصل القرى، بين بركة سمراء وروضة خضراء وأرياف محدقة وعراض مغدقة ورياض ناضرة وطرق عامرة لكان قد صغر قدر الجزاء على حسب ضعف البلاء ولو كان الأساس المحمول عليها والأشجار المرفوع بها بين زمردة خضراء وياقوتة حمراء ونور وضياء لخفف ذلك مسارعة الشك في الصدور، ولوضع مجاهدة إبليس عن القلوب، ولنفي معتلج الريب من الناس (أي زال الريب والشك من صدور الناس). ولكن الله يختبر عباده بأنواع الشدائد ويتعبد بهم بألوان المجاهد وبتليهم بضروب المكاره لإخراجاً للتكبر من قلوبهم وإسكاناً للتذلل في نفوسهم وليجعل ذلك أبواباً فتحة إلى فضله، وأسباباً ذللاً لعفوه^(١).

فلا بيان بعد هذا البيان، فلقد أوضح صلوات الله عليه علة التكليف وحكمة الحج بأبلغ تبيان. فعباد الله الصالحون كانوا، طمعاً في الثواب الجزيل ومزيداً للخشوع والخضوع، يحجون ماشين على أقدامهم أذلاء صاغرين وأن الإمام الحسن عليه السلام كان يقول: «إني لاستحيي من ربي أن ألقاه ولم أمش إلى بيته». فمشى عشرين مرة من المدينة إلى مكة على رجله، وإن النجائب لتقاد معه.

فالله تبارك وتعالى قد أوجب الحج على المستطيعين من عباده بقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: الآية ٩٧]. فالمتخلف عن الحج مع الاستطاعة كافر، لأنه لم يشكر ربه على ما تفضل عليه من نعم وقد مكّن له أن يحج بيته الحرام ليزداد تقرباً إليه ومعرفة به. فقد جاء في خبر عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: الآية ٧٢] ذاك الذي يسوّف الحج أي (حجة الإسلام) حتى يأتيه

الموت»^(١). وعنه عليه السلام: «من مات وهو صحيح موسر لم يحج فهو ممن قال الله تعالى فيه: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه: الآية ١٢٤]»^(٢).

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «من مات ولم يحج حجة الإسلام، ولم يمنعه من ذلك حاجة تجحف به أو مرض لا يطيق فيه الحج أو سلطان يمنعه، فليمت يهودياً أو نصرانياً»^(٣). وقد بنى الإسلام على خمس: الصلاة والزكاة والحج والصوم والولاية.

فالحج عظيم فضله، خطير أجره، جزيل ثوابه، جليل جزاؤه. وكفاه ما تضمنه من وفود العبد على سيده ونزوله في بيته ومحل ضيافته وأمنه، وعلى الكريم إكرام ضيفه وإجارة الملتجئ إلى بيته. فعن الإمام الصادق عليه السلام: «الحاج والمعتمر وفد الله، إن سأله أعطاهم، وإن دعوه أجابهم، وإن شفعوا شفعهم، وإن سكتوا بدأهم، ويعوضون بالدرهم ألف درهم»^(٤) وإن من الذنوب ما لا يكفره إلا الوقوف بعرفة، كما جاء في الحديث.

وقال النبي صلى الله عليه وآله لرجل فاته الحج والتمس منه مابه ينال أجره: «لو أن أبا قبيس لك زنته ذهبه حمراء فأنفقته في سبيل الله تعالى ما بلغت ما يبلغ الحاج»^(٥).

وقال: «إن الحاج إذا أخذ في جهازه لم يرفع شيئاً ولم يضعه إلا كتب الله له عشر حسنات ومحا عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات، وإذا ركب بعيره لم يرفع خفاً ولم يضعه إلا كتب الله له مثل ذلك، فإذا طاف بالبيت خرج من ذنوبه، فإذا سعى بين الصفا والمروة خرج من ذنوبه، فإذا رمى الجمار خرج من ذنوبه، قال: فعذ رسول الله صلى الله عليه وآله كذا وكذا موقفاً إذا وقفها الحاج خرج من ذنوبه. ثم قال: أنى لك أن تبلغ الحاج»^(٦)؟.

ويكره ترك الحج للموسر في كل خمس سنين.

فترون: كيف يتكامل الإنسان لما يراه من مواقف قدسية تذهب عنه الذنوب وتطهر

(١) الكافي: ج ٤، ص ٢٦٨، باب من سوف الحج.

(٢) الكافي: ج ٤، ص ٢٦٩، باب من سوف الحج.

(٣) الكافي: ج ٤، ص ٢٦٩، باب من سوف الحج.

(٤) الكافي: ج ٤، ص ٢٥٥، باب فضل الحج.

(٥) الكافي: ج ٤، ص ٢٥٨، باب فضل الحج.

(٦) تهذيب الأحكام: ج ٥، ص ١٩، باب ٣.

النفوس عندما يوفق إلى حج بيت الله . فإن هذه المواقف وما يقرأ فيها من أدعية وما يقوم به الحاج من أعمال تذيب المادية التي تصيب الثري من جراء المادة . فما على الحاج إلا أن يحتفظ بهذا الصفاء الذي من الله به عليه في بيته ، فلا يلوث نفسه بآثام جديدة ، ليذهب من هذه الدنيا إلى حيث الخلود نقي الثوب طاهر الضمير .

كل منا ممتحن لا محالة

يقول الله جلّ شأنه : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنكُمُ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوًا أَخْبَارَكُمْ﴾ [مَحَمَّد : الآية ٣١] . فاللام في (ولنبلونكم) للقسم والنون المشددة للتوكيد ومعنى ذلك : إن الله تعالى بصورة حتمية وقطعية يختبر كل فرد ، على اختلاف الطبقات : بالطاعة والصبر على الفقر والسقم وفقد الأولاد والأرحام وبأنواع البلايا والمنايا والحوادث المحزنة والمفرحة والرخاء والشدة إلى ما هنالك . كي يتضح لدى شخص الإنسان مبلغ جهاده مع نفسه الأمانة بالسوء وعدم إطاعته لها وعدم طغيانها في السراء وعدم الجزع في الضراء . وهذا الجهاد هو الجهاد الأكبر . وإن هذا الجهاد على ما أرى لأصعب بكثير من حل أصعب مسألة في التحليل الرياضي Analyse Mathématique أو الفيزياء العالية . ذلك لأن الذي أوتى موهبة فائقة قد يتمكن بتلك الموهبة وبتمارين متتابعة وجدّ متواصل من حل تلك المسألة الصعبة ، ولكن هذا الشخص نفسه لا يقوى على كبح الشهوات إلا بنفس لها من الجلد والعزم وخوف الله تعالى والتقوى الشيء الكثير . لذلك من السهل جداً أن يبلغ الإنسان مرتبة (الدكتوراه : Doctorat) إذا أتيحت له الفرص (لاسيما في العلوم الاجتماعية) أو يكون عالماً في فرع من الفروع . ومن الصعب جداً أن يكون إنساناً كاملاً .

وكم رأينا من علماء متضلعين فيما اختصوا فيه ، مغلوبين تجاه شهواتهم ، مستضعفين أمام ميولهم .

قد عرفت أستاذاً (شيخاً للمدرسين : Doyen) في إحدى الجامعات كان يدرس الفيزياء الرياضية العالية . وكان قد ألف ثلاثة مجلدات عن ما دونه المسلمون في القرنين الثالث والرابع الهجري في الرياضيات .

فاستأذنت منه الولايات المتحدة (في أمريكا) لتقوم بترجمة ما ألف تجاه مبلغ جسيم. فأذن واستلم المبلغ. فلم يشاهد هذا الأستاذ بعد استلامه المبلغ إلا بعد انتهاء العطلة وهو مبتلى في عقله! فجاء إلى الجامعة ليدرس الفيزياء الرياضية في الصف الذي كان يدرس فيه. وإذا به يقول: أريد أن أدرسكم اليوم (التاريخ)! ويخاطب أحد طلابه فيشتبه فيه ويظنه غيره. وإذا به مجنون! يحمّل إلى دار المجانين ويموت هناك وهو مجنون. ذلك لأنه بعد استلامه المبلغ إزاء جهوده ذهب مباشرة إلى دور البغاء والعواهر وابتلى بمرض الزهري (syphilis). وأن ميكروب هذا المرض يهجم على أضعف عضو في الشخص، فهجم على مخه وأدى به إلى الجنون. فلو كانت الاتمامات (Types) الصعبة التي لا تنطبق على ما دون من نماذج: (Integrations) تكفي لردعه عن المدنسات وعما حرّم الله تعالى لما ابتلى بالجنون.

فالشيطان لا يخشى شيخ الأساتذة في الجامعة ولا من حمل لقب (الدكتوراه: Doctorat)، سواء كان قد حملها بحق أو بغير حق، وسواء ثابر بعد حمله هذا اللقب على التتبع أو اكتفى باللقب فحسب، وسواء بلغ من التتبع درجة يحق له أن يحمل لقب (الدكتوراه) ولكن الظروف لم تساعد لعرض آثاره على جامعة من الجامعات، أو لم يبلغ. إن الشيطان ليهجم على النفس الإنسانية مهما كان نوعها. فيدعوها إلى ما يدنسها ويرديها. وأن العلم حديثه وقديمه ليس بالشيء الذي يمنع النفس عن إطاعة الشيطان. ذلك لأن (العلم) عملية فكرية وليس بعملية نفسية.

فالذي يمنع النفس عن إطاعة الشيطان، إنما هو خشية الله وخوف الله إنما هو العبادات وعلى رأسها الصلاة المقبولة: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [التكوير: الآية ٤٥]. صلاة فيها خشوع وخضوع وتفكير وتدبر.

جاء في الحديث: «أعلمكم بالله أخوفكم له». ويراد بهذا العلم: العلم الإلهي والمعارف الإلهية. أي أن المعارف الإلهية لا تحل إلا في نفس تخاف الله كثيراً وتخشاه كثيراً. فالعلم الكثير في غير طاعة الله ممد الذنوب كما أثر عن علي عليه الصلاة والسلام حيث يقول: «كثرة العلم في غير طاعة الله مادة للذنوب».

ويستفاد من الأحاديث الآتية، أن العالم يؤاخذ على ذنبه أضعاف ما يؤاخذ عليه الجاهل: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يغفر للجاهل أربعين ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنباً واحداً»^(١). وقال أيضاً: «زلة العالم كبيرة». وقال علي عليه السلام: «إن الله تعالى أوحى إلى نبي من الأنبياء ﷺ: «قل للذين يتفقهون لغير الدين ويتعلمون لغير العمل ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة، يلبسون للناس مسوك الضأن وقلوبهم قلوب الذئب، ألسنتهم أحلى من العسل وأعمالهم أمر من الصبر، إياي يخادعون ويبي يغترون ويديني يستهزئون»^(٢).

وقال الإمام الباقر عليه السلام: «من طلب العلم ليباهي به العلماء أو يماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس، فليتبوأ مقعده من النار، إن الرئاسة لا تصلح إلا لأهلها»^(٣). وفي حديث آخر: «لا طاعة إلا بعلم، ولا علم إلا بتعلم، والتعلم من عالم رباني»^(٤).

عرفت أستاذاً في علم التربية وعلم النفس: بلغ مرتبة (الدكتوراه) كان يدرّس في المعاهد العالية، إنه لم يقو على كبح نفسه عن شرب الخمر فكان يشرب بدرجة تؤدي به إلى تشويه سمعته مع علمه أن: «شارب الخمر كعابد وثن»، كما جاء في الحديث.

فقد ذكر لي أحد تلاميذه أنه شاهده ذات ليلة ملقى على قارعة الطريق في الأوحال وهو ثمل لا يشعر. يقول: «إنني أردت أن أؤدي ما للأستاذ على التلميذ من حقوق، فدعوت سيارة وحملت مع السائق ووضعناه في السيارة ونقلناه إلى فندق كان يسكن فيه. قمت بإسعافه قليلاً حتى صبحا. فقلت: يا أستاذ، أنت تلقي علينا دروساً في ضبط النفس وفي التحلي بالأخلاق الفاضلة ومجاهدة النفس البهيمية. فما هذا الذي أرى بك يا سيدي؟ فأجاب جواباً سوفسطائياً بقوله: إنما أنا أقتل مرارة الحياة بمرارة الخمرة! وقد فاته أنه يقتل نفسه.

فترون أن ليس هناك أية علاقة بين ما تحمله الحافظة من معادلات وقوانين

(١) بحار الأنوار: ج ٢، ص ٢٧، باب ٩، وفيه سبعون بدل أربعين.

(٢) إرشاد القلوب: ج ١، ص ١٤، باب ١.

(٣) الكافي: ج ١، ص ٤٧، باب المستأكل بعلمه.

(٤) وسائل الشيعة: ج ٢٧، ص ١٩، باب ٣.

وخواص وما يقوى عليه التفكير المجرد من استنتاج واستقراء أو تجريد وتعميم، وبين اتجاه النفس نحو المبدأ الأعلى وإطاعة الله تعالى وردعها الشهوات المميتة وقمعها المرديات، إنهما من واديين مختلفين فالأول من وادي المحافظة والتفكير والذكاء، والثاني من عالم النفس، وبينهما بون شاسع. فلو انطفأ العقل بما يلوث به من موبقات وجرائم حل محله الشيطان والخداع والنكراء ومُنَى النفس بما يبعدها عن الله تعالى حتى تبلغ أسفل السافلين.

إن الله تعالى يقول: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُم اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (٢٠) [الأعراف: الآية ٣٠] والهداية عند البعض، في يومنا هذا، أن ينال الشخص شهادة عالية فهو مثقف مهدي.

إن الله تعالى يقول: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: الآية ١١] فقدم الله تعالى (الإيمان) على (العلم)، ذلك لأن العلم الحقيقي وأعني به المعارف الإلهية لما يترشح من (الإيمان).. فكلما قوي الإيمان بتطهير النفس، بالعبادة والأعمال الصالحة، ترشح من هذا، الإيمان «العلم الصحيح» الموصل إلى معرفة الله تعالى. وإذا أردنا أن نفسر هذه الآية على غير ما قلنا نقع في مشكلة. ذلك لأننا نرى علماء في بعض ما أودع الله في هذا الكون من خواص وقوانين رياضية، مجردين عن المعارف الإلهية. بل البعض منهم زنادقة ملحدون. فكيف يرفع الله (حسب الآية المتقدمة) هؤلاء الزنادقة والملاحدة درجات؟!

ولا فرق في هذا المقام بين العلوم الدينية من فقه وأصول وفلسفة.. وغيرها وبين العلوم الرياضية والفلكية والكيمائية الخ.. فيجوز أن يكون الشخص قد درس الحكمة الإلهية ولكنه مع ذلك ضعيف الإيمان، يشوبه كثير من الشكوك، أو درس القرآن دراسة متقنة مع مراجعة كثير من التفاسير ولا يؤمن به كما نرى ذلك في المستشرقين.

ذلك لأن الإيمان ليس بالشيء الذي يترشح من الذكاء أو الحافظة بل هو عصارة كف النفس عن المحرمات والقيام بالأعمال الصالحة لوجه الله تعالى. إن الله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَ وَذَكَرْنَا لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم

بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِمَّنْ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٨﴾ [الأنبياء: الآيات ٤٨/٤٩]. أي أنه لا يومن بآيات الله إلا المتقون الذين يخافون ربهم من فوقهم فلا يعصون الله في السر والعلن. ويقول الله تعالى في آية أخرى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٥١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿٥٢﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٥٣﴾ وَلَا الظُّلُمُتُ وَلَا النُّورُ ﴿٥٤﴾ وَلَا الظُّلُمُتُ وَلَا النُّورُ ﴿٥٥﴾ وَلَا الظُّلُمُتُ وَلَا النُّورُ ﴿٥٦﴾﴾ [فاطر: الآيات ٢٣/١٨]. فالمواعظ والإرشاد والإنذار لا تؤثر إلا في من يخاف الله بالغيب، (أي بينه وبين الله، لا يعلم بذلك أحد) وفي من أقام الصلاة لوجه الله. وهما بابان عظيمان لتزكية النفس.

ومن كان لا يخاف الله ويرتكب المعاصي في السر والعلن، يظلم نفسه ويظلم الناس، فنتيجة ذلك: الجحود وعدم الإيمان عاجلاً أو آجلاً. إن الله تعالى يقول: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّكُمْ لَيَحْزَنُونَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ يَبْتَئِينَ اللَّهَ يَجْحَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام: الآية ٣٣]. أي إن الظلم لا يترشح منه إلا الجحود بآيات الله تعالى مع تصديقهم بالنبوة أحياناً.

فإذا رأيت شيخاً أو مراهقاً أو شاباً جاحداً مستهزئاً، فكذب بآيات الله تعالى فاعلم أنه مجموعة ظلم وجور وعقوق وخيانة وفجور وفسوق. . سواء أتيحت له الفرص فحقق ما ذكر أو لم تتح. فإن عقيدة الإنسان خلاصة حالته النفسية سواء أظهرت إلى الوجود أم لم تظهر.

ثم إن معيار الاختبار يجب أن يكون عاماً، يعم أفراد البشر قاطبة بلا تفرق وتمييز، أوتوا بعض المواهب أم حرموها. ولا يمكن ذلك إلا إذا توجه الاختبار إلى النفس التي ألهمت طريقي الخير والشر. بقوله تعالى: ﴿فَالْهَمُّهَا جُورُهَا وَقَوْلُهَا ﴿٨﴾﴾ [الشمس: الآية ٨]، كي يشترك في ذلك الوضع الشريف والغني والفقير والرئيس والمرؤوس. فتكون التقوى إذن معياراً للمفاضلة وأساساً لفوز الشخص بسعادة الآخرة، فقد قال تعالى:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ﴾ [الحجرات: الآية ١٣].

الدنيا أشبه شيء بمدرسة يطبق فيها طلابها دروس تكامل النفس. وتعطى لهم عليها درجات. درجات موجبة لأعمال صالحة بما فيها العبادات ودرجات سالبة لأعمال سيئة بما فيها العقائد. ثم تجمع هذه الدرجات، فإن كانت النتيجة موجبة فهو من أصحاب الجنة، وإن كانت سالبة فهو من أصحاب النار، وهذا معنى قوله تعالى:

﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦١﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٦٢﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦٣﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٦٤﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا هِيَ ﴿٦٥﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿٦٦﴾﴾ [القارعة: الآيات ٦/١١]. ويقول الله تعالى في موضع آخر: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ [الأعراف: الآية ٨].

ليس في هذه الامتحانات الإلهية مجال للإكمال كالامتحانات المدرسية فلما إلى الجنة ولما إلى النار. لأن الإنسان ينقطع عمله بعد موته. فلا عمل ولا تحضير ولا تزود بعد الموت. (فالدنيا دار عمل ولا حساب، والآخرة دار حساب ولا عمل).

وقد جاء في الحديث ما موداه: إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا عن ثلاثة: صدقة جارية وعلم ينتفع به وولد صالح يستغفر له. إن الصدقة الجارية تحتاج إلى مال ونفس سخية وقل من يوفق إليها. وأما العلم الذي يأخذ بالفرد إلى ساحات القدس والتقرب منه تعالى فقل من يوفق إلى بثه ونشره اليوم، وإن ما يكتب اليوم عن الطبيعة والفلك وغيرهما إنما يكتب بأسلوب مادي، ولا يذكر العبد بعظمة الله وجليل قدرته وحسن إبداعه، وأما الولد الصالح فأصبح نادراً جداً. كم ألفيت آباء يحزنون على سلوك أبنائهم، ورأيت البعض منهم يكون حزناً على ما عليه أبنائهم من نهج معوج، واتجاه سقيم، لا يصلون ولا يذكرون الله أداء لواجب الشكر. ورأيت بعض الآباء يقدم مبلغاً يعتد به إلى ولده يريد أن يصلي فلا يلبي طلبه! ورأيت آباء آخرين ييغضون أبنائهم غاية البغض لعدم قيامهم بواجباتهم الدينية حتى أنهم لا يريدون أن ينظروا إلى وجوههم. كل ذلك لشدة إيمانهم.

إن الله تعالى يقول: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

وَرَبُّوْا عَنْهُ أَوْلِيَّكَ حِزْبَ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٢٢﴾ [المجادلة: الآية ٢٢] . على أن إطاعة الوالدين أمر واجب بعد توحيد الله تعالى : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: الآية ٢٣] . وفي الحديث : «نظر الولد إلى والديه حباً لهما عبادة»^(١) . وما أقل الأبناء العاملين بهذا الحديث . .

فالعاقل هو الذي لا يعتمد على ما سيقوم به أرحامه وذووه بعد موته من أجله من مبرات وخيرات ، فيبادر بتعمير آخرته قبل حلول أجله .

وقد قال تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: الآيتان ٩٩/١٠٠] .

وقد قال رسول الله ﷺ حين جمع الأقربين من قريش : «إن الرائد لا يكذب أهله . والله لو كذبت الناس ما كذبتكم ، ولو غررت الناس ما غررتكم . والله الذي لا إله إلا هو ، إني لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة . والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً ، وإنها الجنة أبدأ أو النار أبدأ»^(٢) . ولذلك قال تعالى : ﴿وَتَكَزَّوْذُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَأْتُوا فِي الْآلَتِ﴾ [البقرة: الآية ١٩٧] .

فتعديل امتحان درجات الله تبارك وتعالى إنما يكون في هذه الدنيا . فمن حصل على درجة (٥ -) مثلاً لعدم الصبر على نائبة جزع فيها ، يعدله بالصبر على فقر يصاب به ، فينال فيه (٦ +) مثلاً ، فتكون النتيجة (١ +) وهو فوق الصفر . وعن علي عليه السلام : «إذا صبرت جرى عليك القضاء وأنت مأجور ، وإذا جزعت جرى عليك القضاء وأنت مأزور» .

ومن بخل في مال أعطاه الله إياه ولم ينفق منه فأمست درجته لعدم الإنفاق الواجب (١٠ -) مثلاً ، فإنه يعدله بفقر يصاب به ، فيعطي من هو أفقر منه من ماله الضئيل أضعاف ما كان يعطي حين كان غنياً ، مع مراعاة النسبة ، فينال (١٥ +) مثلاً ، فتكون النتيجة (٥ +) . فيصفي حسابه في دنياه قبل أن يحاسب في الآخرة . ولا أعني بهذه

(١) مستدرك الوسائل : ج ٩ ، ص ١٥٢ ، باب ١٤٥ .

(٢) مناقب آل أبي طالب : ج ١ ، ص ٤٦ ، فصل في مبعث النبي ﷺ .

الأرقام التي جئت بها على سبيل المثال، إن الله يحاسب العباد على طبقها، وإنما تمثيل وتقريب وتفسير.

لا ريب أن حساب الآخرة لدقيق جداً. والدرجات في غاية الدقة أيضاً ولا تقبل الشفاعة فيها إلا إذا كانت الشفاعة مقرونة برضا الله تعالى. لقوله عز من قائل: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: الآية ٢٨]. فإن الأنبياء والأوصياء سلام الله عليهم أجمعين لا يشفعون إلا إذا اطلعوا على مرضاة الله تعالى. فإنهم: ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ لا يَسْأَلُونَكَ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ [الأنبياء: الآيتان ٢٦/٢٧].

وعن علي عليه السلام: «وإن من شيعتنا لمن لا تدركه من لا تناله شفاعتنا إلا بعد عذاب الله له ثلاثمائة ألف سنة»^(١).

قال طاووس: رأيت علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام يطوف من العشاء إلى السحر ويتعبد. فلما لم ير أحداً رمق السماء بطرفه قال: «إلهي غارت نجوم سماواتك وهجعت عيون أنامك وأبوابك مفتحات للسائلين، جئتك لتغفر لي وترحمني وتريني وجه جدي محمد ﷺ في عرصات يوم القيامة». ثم بكى وقال: وعزتك وجلالك، ما أردت بمعصيتي مخالفتك، وما عصيتك إذ عصيتك وأنا بك شاك، ولا بنكالك جاهل، ولا لعقوبتك متعرض، ولكن سؤلت لي نفسي وأعاني على ذلك سترك المرخى علي. فالآن من عذابك من يستنقذني وبحبل من اعتصم إن قطعت حبلك عني، فوا سواتاه غداً من الوقوف بين يديك إذ قيل للمخفين جوزوا، وللمثقلين حظوا، أمع المخفين أجوز، أم مع المثقلين أحط، ويلي كلما طال عمري كثرت خطاياي ولم أتب، أما الآن لي أن استحيي من ربي ثم بكى وأنشأ يقول:

أتحرقني بالنار يا غاية المنى فأين رجائي ثم أين محبتي
أتيت بأعمال قباح زرية وما في الوري خلق جنى كجنايتي
ثم بكى وقال: «سبحانك تعصى كأنك لا ترى وتحلم كأنك لم تعص تتودد إلى خلقك بحسن الصنيع كأن بك الحاجة إليهم، وأنت يا سيدي الغني عنهم» ثم خر إلى الأرض

ساجداً. فدنوت منه وثلت برأسه ووضعت على ركبتي وبكيت حتى جرت دموعي على خده، فاستوى جالساً وقال: «من الذي أشغلني عن ذكر ربي» قلت: أنا طاووس، يا ابن رسول الله ما هذا الجزع والفزع؟ ونحن يلزمنا أن نفعل مثل هذا ونحن عاصون جانون، أبوك الحسين بن علي وأمك فاطمة الزهراء وجدك رسول الله ﷺ فالتفت إلي وقال: «هيهات هيهات يا طاووس، دع عني حديث أبي وأمي وجدي. خلق الله الجنة لمن أطاعه وأحسن ولو كان عبداً حبشياً، وخلق النار لمن عصاه ولو كان ولدأ (سيّداً) قرشياً. أما سمعت قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْأَلُونَ﴾ [المؤمنون: الآية ١٠١]، والله لا ينفك غداً إلا تقدمة تقدمها من عمل صالح»^(١).

فإذا كان علي بن الحسين عليه السلام يفعل مثل ذلك مع عصمته وطهارته بنص من الكتاب أو السنة، فكيف بنا ونحن ملثنا معاصي وأناماً. كل ذلك ليعلمونا سلام الله عليهم آداب التقرب إلى الله، آداب الدعاء والخضوع، آداب التوبة والاستغفار، لكي تطهر هذه النفوس الملوثة بدموع تذرفها جوف الليل نادمة على صنيعها، آسفة على فعالها. إن الأئمة سلام الله عليهم كانوا يعبدون الله تعالى بهذه الآداب العالية أداء لواجب الشكر، لما ميزهم الله تعالى عن سائر البشر.

يدخل جابر رضوان الله عليه على علي بن الحسين عليه السلام يقول: «يا ابن رسول الله أما علمت أن الله خلق الجنة لكم ولمن أحبكم، وخلق النار لمن أبغضكم وعاداكم. فما هذا الجهد الذي كلفته نفسك». ذلك لأن زين العابدين عليه السلام قد انخرم أنفه وثقت جبهته وركبته وراحته مما أدأب نفسه في العبادة حتى سمي بذي الثغفات، فيجيبه الإمام عليه السلام قائلاً: «يا صاحب رسول الله، أما علمت أن جدي رسول الله ﷺ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فلم يدع الاجتهاد، وتعبد بأبي هو وأمي حتى انتفخ الساق وورم القدم، وقيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً»^(٢).

(١) مناقب آل أبي طالب: ج ٤، ص ١٥١، فصل في زهده عليه السلام.

(٢) بحار الأنوار: ج ٥١، ص ١٠، باب ١٤.

إن الله تبارك وتعالى قد امتحن أنبياءه وأوصيائه ﷺ امتحانات صعبة شاقة لا يقوى عليها البشر العادي، هذا إبراهيم عليه السلام قد امتحنه الله تعالى بأن أُلقي في النار فكان له برداً وسلاماً. وامتحنه بذبح ولده إسماعيل، وامتحنه بأن أرسل له ملكاً على شكل إنسان فقال: سبوح قدوس ربنا ورب الملائكة والروح. فافتتن إبراهيم عليه السلام بهذا النداء اللاهوتي. فطلب إليه أن يعيد ما قال. فأجابه: أنه لا يعيد حتى يعطيه نصف غنمه، فأعطاه. فقالها ثانية: «سبوح قدوس، ربنا ورب الملائكة والروح». ثم إن إبراهيم عليه السلام طلب إليه أيضاً أن يقولها ثالثة. فقال: إلا أن تعطيني بقية غنمك، فأعطاه. وقالها ثالثة: «فهذه مرتبة من مراتب الولاء» لا يصل إليها البشر العادي.

مراتب الامتحان الإلهي

إن الله تبارك وتعالى يختبر عباده حسب عظم نفوسهم وقابلياتهم، فيبوؤهم ما يستحقون من المنازل الدنيوية والأخروية. قال نبينا ﷺ: «ما أُوذي نبي مثل ما أُوذيت». فكان ابتلاؤه أعظم من ابتلاء من سبقه من الأنبياء والمرسلين سلام الله عليهم أجمعين.

وأما علي عليه السلام، فقد امتحن لامتحانات تزيد عن العدد والإحصاء منها مبيته على فراش النبي ﷺ وعرضه نفسه للقتل. ومنها برازه إلى عمرو بن عبد ود الذي كان يعد بألف فارس في غزوة الخندق، وقد قال فيه رسول الله ﷺ: «برز الإيمان كله إلى الشرك كله، وقال فيه أيضاً كما رواه الحاكم في المستدرک: لمبارزة علي بن أبي طالب لعمرو بن عبد ود يوم الخندق أفضل من أعمال أمتي إلى يوم القيامة»^(١). وقد روى الحاكم أيضاً أن النبي ﷺ قال: «قتل علي لعمرو بن عبد ود أفضل من عبادة الثقلين»^(٢).

وأما الحسين عليه السلام فقد امتحن بما لم يمتحن به من قبله ولن يمتحن به من بعده. والأئمة كلهم امتحنوا بامتحانات صعبة جداً لا يقوى عليها البشر العادي، ولا مجال لذكر ما امتحن به الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين من امتحانات شاقة جداً يفر منها غيرهم.

(١) بحار الأنوار: ج ٣١، ص ١٦٥، باب ٣٩.

(٢) بحار الأنوار: ج ٣٩، ص ٥، باب ٧٠.

وقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: إن أشد الناس بلاء النبيون، ثم الوصيون ثم الأمل فالأمل وإنما يتلى المؤمن على قدر أعماله الحسنة، فمن صح دينه وحسن عمله اشتد بلاؤه، ومن سخط دينه وضعف عمله، قل بلاؤه، والبلاء أسرع إلى المؤمن التقى من المطر إلى قرار الأرض، ذلك: أن الله عز وجل لم يجعل الدنيا ثواب المؤمن ولا عقوبة الكافر^(١).

والامتحان أو البلاء إما أن يكون لزيادة الدرجات وبلوغ المنازل الرفيعة وهذا خاص بالأنبياء ﷺ والأوصياء ﷺ ثم الأمل فالأمل، وإما أن يكون لتطهير النفوس مما علق بها من أدران وأوساخ: ذنوب وآثام. فهو تكفير لما اجتاحت الأيدي من ظلم وبغي ولما قامت به النفوس من حسد وغيبة ونميمة وكل ما نهى عنه الدين.

فعن أبي جعفر ﷺ قال: إن الله عز وجل إذا كان من أمره أن يكرم عبداً وعليه ذنب، ابتلاه بالسقم، فإن لم يفعل ذلك به ابتلاه بالحاجة، فإن لم يفعل ذلك به شدد عليه الموت ليكافيه بذلك الذنب، وإن كان من أمره أن يهين عبداً وله عنده حسنة صحح بدنه، وإن لم يفعل ذلك به وسع عليه رزقه، فإن لم يفعل به هون عليه الموت، فيكافيه بتلك الحسنة^(٢).

وعن أبي عبد الله ﷺ قال: «إن العبد إذا كثرت ذنوبه ولم يكن عنده من العمل ما يكفرها ابتلاه الله بالحزن ليكفرها»^(٣) وقال رسول الله ﷺ: «لا يزال الغم والهم بالمؤمن حتى لا يدع له ذنباً»^(٤).

أنظروا كيف يأمرنا الإمام ﷺ بمحاسبة نفوسنا. فعن أبي الحسن الماضي ﷺ^(٥): قال: «ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم. فإن عمل حسنة استزاد الله عز وجل، وإن عمل سيئة استغفر الله منها وقاب إليه»^(٦).

(١) أصول الكافي: ج ٢، ص ٢٥٩، باب شدة ابتلاء المؤمن.

(٢)، (٣)، (٤) أصول الكافي: ج ٢، ص ٤٤٤، باب تعجيل العقوبة.

(٥) إنه الإمام السابع: موسى بن جعفر ﷺ.

(٦) أصول الكافي: ج ٢، ص ٤٥٣، باب محاسبة العمل.

إن العبد ليمتحن في كل يوم من حياته امتحانات عدة حسب قابليته واستعداده . فطوبى لمن وفق في امتحانات الله تعالى بعزم ثابت وإرادة قوية مستمداً التوفيق منه تعالى . فهذه هي الإرادة الحقيقية التي يجب أن تبحث عنها التربية الحديثة : (pedagogie Moderne) وأن تعمل في تمتها .

يقول أحد رجال التربية في الغرب : كان لي صديق وقد زرنا معاً الهند، فرأيتهم يغيب بعض الليالي . فسألته السبب قال : إني لأجد في إرادتي ضعفاً وأحب تقويتها . أخرج جوف الليل إلى الغابة أو إلى الصحراء وأبارز الأسد وبعض الحيوانات المفترسة وأهيم ناراً إن أنا تأخرت عن لقاءها عليها ثانية واحدة، كان في ذلك موتي المحتوم، وبهذا أجد أن مقاومتي للشدائد أصبحت أكثر من ذي قبل .

نعم، إن هذا النوع من الأعمال التربوية تقوي الإرادة وإن كتب التربية مشحونة بهذه الأساليب التربوية . ولكن للتوجيه أثراً عظيماً في مستقبل الإنسان الديني وتوجهه نحو خالقه أي في تكامل نفسه . فربما قوي الإرادة يصرف إرادته في أمور محرمة وأشياء نافهة .

إن الله تعالى يقول : ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَقَّ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْتَسِلِقَ الْفَرِيقَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزخرف: الآيات ٣٦/٣٨] . أو يصرف إرادته في دنيا محضه أي في تقوية جانب المادة مع إهمال جانب تكامل النفس : الأمر الذي وجد الإنسان على وجه البسيطة لأجله . فلو عنيت التربية بناحية التوجيه كما تهتم بناحية تقوية الإرادة لجمع الشاب بين سعادة الدنيا والآخرة . ولكن تربيتنا الحاضرة تربية مادية بنتائجها . تنظر إلى الحياة المادية كأنها الهدف الأسمى وتربّي الشاب للتزود من هذه الحياة المادية وإن فسدت النفس في أثناء التربية وانحطت الملكات الأخلاقية والدينية .

وليس تكامل النفس بشيء يمكن قياسه بأسئلة امتحانية تلقى على الطلاب في الامتحانات النهائية، لأنها أعمال وملكات أكثر منها نظريات وعبارات أدبية . لذلك انحطت الأخلاق الاجتماعية والأخلاق الإسلامية الموروثة : أعني الصفات الإنسانية الكاملة التي ورثناها عن آبائنا وأجدادنا فناب منابها مجاملات صورية لا تتجاوز الحنجرة وحركات الوجه .

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّمَن يَسْبُلُوهَا أَمَّا سَمَّاؤُهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۖ﴾ [الكهف: الآية ٧]. قد خلق الله جلّ شأنه من النعم والمأكّل والمشارب والملابس والمساكن ما يجذب الإنسان ببهجته وروائه فيطمع الإنسان فيها. ولا تتأنى كلها لكل شخص من مورد حلال طيب. فتغلب الشهوة وينقاد إليها الإنسان، فإذا به يُفسد نفسه ويرتكب الظلم والبغي ليتزود من هذه النعم والمأكّل ويتزيّن بأنواع الزينة فيرسب في هذا الاختبار النفسي العسير. إن الله لم يحرم على الناس الاستفادة من نعيم الدنيا وزينتها وزبرجها إذا كان من مورد حلال شرعي واستعمل حسبما عيّنه الشرع: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رِيَّ الْفَوَاحِشِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِتْمَارُ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝﴾ [الأعراف: الآيات ٣٢/٣٣]. ففي هذه الدنيا يشترك المؤمن مع الكافر في التمتع بالطيبات من الرزق وزينة الدنيا الفانية، أما في الآخرة فيكون ذلك للمؤمنين خالصة خاصة بهم، بمقياس لا يحيط به العقل البشري.

فالدنيا بمظاهرها الخلابة وجمالها الفتان وأشجارها ونباتها ومائها وهوائها مواد للامتحان: (كالفيزياء والهندسة المجسمة وعلم الهيئة وحساب الاحتمالات و....)، ولا يقوى على ردع النفس عن الشهوات المحرمة إلا من أوتي يقيناً صادقاً وتوجهاً خالصاً ولطفاً ربانياً: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَدْعُونَ أَزْوَاجَهُمْ هَدًى وَآيَاتُهُمْ تَقْوَاهُمْ ۖ﴾ [محمّد: الآية ١٧].

قد يصادف الإنسان في عنفوان شبابه مائدة خمر جلس عليها أصحابه فيلحون عليه بالشرب وهو يمتنع لظاهرة أودعها الله تعالى فيه بالفطرة، ثم يلحون عليه ثانية وثالثة والشیطان بالمرصاد. فهنا صراع بين العقل والنفس الأمار بالسوء أو بالأحرى بين العقل (إن لم يحجب وبقي على فعاليته) وبين الشيطان. فإن غلب الشاب على أمره فقد سقط في هوة سحيقة. وإن تذكر أمر الله واليوم الآخر وعزم على الرفض واستعان بالله جلّ وعلا في خلاصه ونجاته فإن الله يهيء له أسباب النجاة. وإن ارتداعه هذا في هذا الاجتماع الفاسد وكبحه شهوته بعزم رصين يفتحان عليه أبواب رحمة الله فيزداد بفضل هدى وتقوى وصلاًحاً. فقد جاء في الحديث: «لو مشى العبد نحو شراً لمشيته نحوه

ذراعاً». وما من تقي إلا ويُمْتَحَن في حياته بامتحان أو امتحانات نظائر هذا الامتحان . كثيراً ما تقوى إرادة الإنسان على النجاح في أمور دنيوية ولكن نفس هذه الإرادة تراها مغلوطة تجاه الشهوات والمغريات ، ضعيفة أمام محارم الله تعالى . فالإرادة كل الإرادة إذا استطاع المرء أن يكبح شهواته ويجعل رزقه من مورد حلال طيب . فإن الأموال المحرّمة أو المشتبهة لها آثار سلبية في اتجاه الإنسان نحو خالقه وفي قمع الشبهات وحصول اليقين .

أرأيت مرابطاً بلغ من الإيمان مرتبة تذكر ، أم رأيت سارقاً تخشع نفسه عندما يسمع كلمات الله تعالى . ولا فرق بين السرقة وبين المتاجر المحرمة والمعاملات غير المشروعة والنجاح في مهمة باستعمال المكر والخديعة . فكل عضو من أعضاء الإنسان يمكن استعماله في حلال أو حرام . وهذا هو معنى الاختيار . فالعين يمكن استعمالها في الحرام بالنظر إلى أعراض الآخرين ويمكن صرفها عن الحرام بالتجنب عن النظر إلى المحرمات . فقد جاء في الحديث : «الأولى لك والثانية عليك» . أي أن الله يغفر لك النظرة الأولى التي جاءت عفواً وأنت آثم في الثانية مدنس فيها نفسك . واليد يمكن استعمالها في دَعِّ اليتيم وضربه ويمكن استعمالها في المسح على رأس اليتيم وأعمال صالحة أخرى كالكسب والعمل في المعامل وأمثال ذلك . وكذلك الرجل يمكن استعمالها في الذهاب للسرقة أو دور البغاء ، ويمكن استعمالها في حمل الطعام إلى أرملة بائسة أو السؤال عن حال مريض معوز ومساعدته .

وقد بين الله تعالى كل ما من شأنه ارتقاء النفس وكل ما من ورائه انحطاط النفس على لسان نبيه الأُمِّي ﷺ : ﴿لَيْتَ لَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء : الآية ١٦٥] . وقد أوصى النبي ﷺ أمير المؤمنين علياً عليه السلام بهذه الوصية :

«سر ميلاً عُذ مريضاً ، سر ميلين شتيع جنازة ، سر ثلاثة أميال أجب دعوة ، سر أربعة أميال زر أخاً في الله ، سر خمسة أميال أجب دعوة الملهوف ، سر ستة أميال أنصر المظلوم وعليك بالاستغفار»^(١) .

قال الله تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: الآية ٤٢]

إنما المؤمنون إخوة

يقول الله تبارك وتعالى في قرآنه المجيد: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: الآية ١٠] فإنما أداة حصر، أي أن المؤمنين لا يكونون إلا إخوة يتوادلون ويتحابون. يوازر بعضهم بعضاً ويعاضد أحدهم الآخر. فالإيمان هو الرابطة القوية فيما بينهم. ذلك لأن الإيمان شعور مشترك يجمع القلوب فيقرب فيما بينها. فكان الإيمان سيال كهربائي أو خطوط مغناطيسية تؤثر في الكون فتجذب ما يناسبها وإن بعد التشبيه.

ذلك لأن الإنسان مجموعة طاقات، والمادة تشع فتتحول إلى طاقة. فكما أن المجال المغناطيسي يتأثر بالمجال الكهربائي فيكون بين الجسمين الحاملين لهذين المجالين تقارب أو تباعد كذلك النفوس تتجاذب بعضها مع بعض لو كانت مؤمنة بنفس الدرجة من الإيمان أو مع تفاوت يسير وتبتعد بعضها عن بعض لو كان الاختلاف كبيراً. ووفقاً لهذه النظرية اختار النبي ﷺ علياً عليه السلام أخاً له في الدنيا والآخرة وأخى بين المهاجرين ثم أخى بين المهاجرين والأنصار. ولذلك كان يقول علي عليه السلام كما يحدثنا النسائي: «أنا عبد الله وأخو رسوله وأنا الصديق الأكبر»^(١).

لو أمررنا تياراً كهربائياً على سلك وعلقنا بجانبه إبرة مغناطيسية لرأيناها تتحرك يميناً أو يساراً حسب جهة التيار، كما هو ثابت في الفيزياء. أي يتأثر المجال المغناطيسي بالمجال الكهربائي، لأنهما من واد واحد على وجه التقرب. كذلك تؤثر النفوس بعضها في بعض، تتباعد أو تتقارب، لأنها أيضاً من مفاهيم القوى.

فكّر في رجل يمشي أمامك تفكيراً مجرداً عن كل شيء إلا في نفس ذلك الرجل، فتراه يدير بوجهه إليك. ذلك لأن نفسك قد أثرت في نفسه فوجهته إليك. على أن هناك قواعد يجب أن تراعى: من قوة النفس ودرجة هيمنتها على نفس أخرى.

قد طرد في أمريكا صاحب معمل أحد عماله، وبقي هذا العامل لا شغل له. وتأثر كثيراً، فعمد إلى عمل لعله يؤدي به صاحب المعمل وكان يعلم شيئاً من آثار النفس، فأحضر تصوير صاحب المعمل وأخذ ينظر إليه بحدة ضارباً بمطرقة على سندان بصورة مستمرة، فصار يحس صاحب المعمل بوجع شديد في رأسه ويشعر بضربات في مخه، راجع الأطباء فلم يتمكنوا من معالجته. يئس من الحياة، فأراد أن يسترضى من ظلمه. قيل له: إنك طردت عاملاً لك دونما مبرر. فتوجه إلى بيت العامل ورأى ما كان يقوم به العامل، فأرجعه إلى محله وشفى مما ألمَّ به.

إن هذه الحادثة تعلمنا أن هناك خطوطاً مغناطيسية أو ما يشابهها تأثرت بهذه الدقات العنيفة على السندان، فأثرت في رأس صاحب المعمل وكادت أن تقضي عليه. فالتجاذب والتحابب والأخوة من آثار الإيمان الحقيقي، فكلما زاد إيمان الشخص أصبح له إخوة مؤمنون بصورة طبيعية وهذا من النظم الروحية التي أودعها الله تعالى في الكون.

وقد روي أنه كان يقاس إيمان الشخص في زمن رسول الله ﷺ بحب علي عليه السلام. فكلما كان حب الشخص لعلي عليه السلام أكثر كان إيمانه أقوى، على أن لا يبلغ هذا الحب مرتبة الغلو والتأليه، فقد قال رسول الله ﷺ: «يا علي، هلك فيك اثنان: محب غال وعدو قال»^(١).
إنني أعتقد أن هناك سبباً إيمانياً (كالسيل الكهربي) يوصل الفرد المؤمن بعلي عليه السلام وهو شمس الإيمان فيحبه. ففي قلب كل مؤمن شعاع من تلك الشمس حسب درجة إيمانه. فقد قال رسول الله ﷺ حين برز علي عليه السلام إلى عمرو بن عبد ود: «برز الإيمان كله إلى الشرك كله».

فعلي عليه السلام الإيمان كله على حدّ تعبير رسول الله ﷺ والمؤمنون لهم نصيب من هذا الإيمان بدرجة حبهم لعلي، على أن لا يبلغ هذا الحب درجة الغلو، فبعد أن كان موجباً يصبح سالباً، مثال ذلك: (ع = ظاس^(٢)). وعندما تكون س = ٩٠°، أو

(١) خصائص الأئمة: ص ١٢٤ وفيه: مبغض قال.

(٢) لا يخفى أن هذا المثال الرياضي لا ينطبق على الموضوع. وإنما ذكر للتقريب والتوضيح. ولم =

٢٧٠° ، ينتقل الظل من ٨+ إلى ٨-) فيكون المغالي مخلصاً في النار: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: الآية ٤٨] .

ويؤيد ما قلنا ما روي عن النبي ﷺ: في حديث قدسي: «إن الله عهد لي في علي عهداً. قلت يا رب بيته لي. قال: إن علياً راية الهدى وإمام أوليائي ونور من أطاعني، وهو الكلمة التي ألزمها المتقين، من أحبني أحبه ومن أطاعني أطاعه»^(١).

وعن حلية الأولياء عن النبي ﷺ: «قسمت الحكمة عشرة أجزاء. فأعطي علي تسعة أجزاء والناس جزء واحد منها»^(٢).

تري شخصاً لا تعرفه من ذي قبل، فتجبه حباً جماً وتود أن تجالسه وتعاشره. كلما تفتش عن السبب لا تهتدي إليه. السبب: هو انجذاب الأرواح المؤمنة بعضها إلى بعض بصورة طبيعية.

رأني يوماً مؤمن من أهل الفضل. فقال: إني كنت أحبك عن بعد. وإن حبي إياك يزداد يوماً فيوماً. فلم أقو على الكتمان. وأظن أنا قد تحابينا في عالم الذر. فأرجو أن تجعل فطورك غداً عند الصباح في بيتي، وقرأ لي هذا الحديث: «الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»^(٣). فالله تعالى ينص الآية: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: الآية ١٠] (الآية) أراد بالمؤمنين أن يكونوا إخواناً يساعد بعضهم البعض.

يحدثنا سعيد بن الحسن عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: «أبجيء أحذكم إلى أخيه فيدخل يده في كيسه فيأخذ حاجته فلا يدفعه، فقلت لا، فقال: ليس هؤلاء شيعة... إلى آخر الحديث»^(٤). وهذا غاية الكمال في الأخوة، أو ليس ديننا دين الكمال. أو

= نبلغ من العلم درجة تمكنا من وضع قوانين رياضية لقضايا نفسية. ﴿وَنَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: الآية ٨٥] .

(١) بحار الأنوار: ج ٢٧، ص ٢٠٨، باب ٩.

(٢) بحار الأنوار: ج ٤٠، ص ١٤٩، باب ٩٣.

(٣) من لا يحضره الفقيه: ج ٤، ص ٣٨٠.

(٤) وسائل الشيعة: ج ٥، ص ١٢٠، باب ٣.

ليس هذا الدين قد جاء به الرسول الأمين ليخرج الناس ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ [إبراهيم: الآية ١] . وليس النور إلا ما يبلغ إليه الشخص من الكمالات النفسية من توحيد الله والقيام بما أمر به الله .

يقول الله تبارك وتعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مریم: الآية ٩٦] . ومعنى ذلك أن الله يحدث في قلوب المؤمنين حباً ووداً للذين آمنوا به تعالى وقاموا بأعمال صالحة . فإن الإيمان والأعمال الصالحة لها آثار طبيعية ذاتية ، وهي حدوث مودة طبيعية في قلوب المؤمنين . فقد جاء في الحديث : «من أراد عزاً بلا عشيرة وهيبة بلا سلطان فليخرج من ذل معصية الله إلى عز طاعته»^(١) .

يقول الله تبارك وتعالى : ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَيَّكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: الآية ١٠٣] . النعمة هي نعمة الإسلام ونعمة الإيمان . فالمؤمنون متآخون فيما بينهم بنص القرآن الكريم . لا تباغض بينهم ولا تشاحن بل هم «كالبنیان المرصوص يشد بعضهم بعضاً» . هذه أخوة المؤمنين في الدنيا . وهناك أخوة أبدية بعد الموت في عالم الخلود في جنة ﴿عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: الآية ١٣٣] . وهو قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ أَتْلُوهَا بِسُلُوكٍ مُّامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الجعر: الآيات ٤٥/٤٧] . فمن لم يدخل في الأخوة الإسلامية ، فليس من الإيمان في شيء ، وأن الإيمان لم يلج في قلبه .

وعن المفضل بن عمر . قال : قال أبو عبد الله عليه السلام : «إنما المؤمنون إخوة بنو أب وأم . فإذا ضرب على رجل منهم عرق سهر له الآخرون»^(٢) . ومعنى ذلك بأن المؤمنين يتألم بعضهم لبعض وأنهم يعملون ساهرين ، لأجل دفع المكروه عن إخوانهم وإسعافهم وإزاحة الكربة عنهم .

نعم ، إن المؤمنين يتألم بعضهم لألم الآخر بصورة غير إرادية : (لا عن شعور) .

(١) بحار الأنوار: ج ٤٤ ، ص ١٣٨ ، باب ٢٢ .

(٢) أصول الكافي: ج ٢ ، ص ١٦٥ ، باب أخوة المؤمنين .

ذلك لأن أشعة الإيمان توصل بعضهم ببعض، فيشعر هذا بحزن ذاك، فيحزن، ويشعر بسروره فيسر.

هذا جابر الجعفي يقول: «تقبضت بين يدي أبي جعفر عليه السلام فقلت جعلت فداك: ربما حزنت من غير مصيبة أو أمر ينزل بي حتى يعرف ذلك أهلي في وجهي وصديقي. فقال: نعم يا جابر، إن الله عز وجل خلق المؤمنين من طينة الجنان وأجرى فيهم من ريح روحه، فلذلك: المؤمن أخو المؤمن لأبيه وأمه. فإذا أصاب روحاً من تلك الأرواح في بلد من البلدان حزن حزنت هذه لأنها منه»^(١). وفي حديث آخر: «المؤمن أخو المؤمن عينه ودليله، لا يخونه ولا يظلمه ولا يغشه ولا يعده عداً فيخلفه»^(٢).

إن للإيمان حيوية تربط نفوس المؤمنين ببعضها ببعض وتجعلهم كنفس واحدة. وإن هذه الرابطة لا يضاهيها أية رابطة أخرى، هي رابطة معنوية رفيعة أودعها الله الصالحاء من خلقه. وهو قول أبي عبد الله عليه السلام: «المؤمن أخو المؤمن كالجسد الواحد، إن اشتكى شيئاً منه وجد ألم ذلك في سائر جسده، وأرواحهما واحدة، وإن روح المؤمن لأشد اتصالاً بروح الله من اتصال شعاع الشمس بها»^(٣). وهذا حفص بن البحتري يقول: «كنت عند أبي عبد الله الصادق عليه السلام فدخل عليه رجل. فقال لي: تحبه: فقلت: نعم، فقال لي: ولم لا تحبه وهو أخوك وشريكك في دينك وعونك على عدوك ورزقه على غيرك»^(٤). نعم، المؤمنون يخدم بعضهم بعضاً ويفيد بعضهم بعضاً كما هو مضمون الحديث.

إن الدين الإسلامي قد فرض حقوقاً على كل من المؤمنين، عليهم أن يؤدوها وهو قول محمد الباقر عليه السلام: «من حق المؤمن على أخيه أن يشبع جوعته ويواري عورته ويفرج كربته ويقضي دينه، فإذا مات خلفه في أهله وولده»^(٥).

وهل يتصور البشر أخوة أعلى من هذه الأخوة، وهل يتصور سلام في الكون أرفع شأناً من سلام يتأتي من تطبيق الدستور المذكور. نعم، يصل الإنسان إلى تطبيق هذا

(١)، (٢) أصول الكافي: ج ٢، ص ١٦٥، باب أخوة المؤمنين.

(٣)، (٤) أصول الكافي: ج ٢، ص ١٦٦، باب أخوة المؤمنين.

(٥) أصول الكافي: ج ٢، ص ١٦٩، باب حق المؤمن.

الدستور حرفياً لو قوي إيمانه وزاد يقينه وصار مظهراً للتقوى والورع. فالكمال: فرع الإيمان ورشحات التقوى وآثار الورع. فمن فتنش عن الكمال الإنساني في واد آخر فقد تاه وضل. ولا تطمئن نفس امرئ ولا تعترف بفعالية آثار الإيمان والتقوى فيها إلا إذا كان ممن جرب وسار في مجالات تكميل النفس بتزكيتها وتحليتها.

هذا معلى بن خنيس يروي عن أبي عبد الله عليه السلام يقول: «قلت له: ما حق المسلم على المسلم، قال له سبعة حقوق واجبات، ما منهن حق إلا وهو عليه واجب، إن ضييع منها شيئاً خرج من ولاية الله وطاعته ولم يكن له فيه نصيب. قلت له: جعلت فداك وما هي؟ قال: يا معلى، إني عليك شفيق، أخاف أن تضيع ولا تحفظ وتعلم ولا تعمل. قال قلت له: لا قوة إلا بالله، قال: أيسر حق منها أن تحب له ما تحب لنفسك وتكره له ما تكره لنفسك. والحق الثاني: أن تجتنب سخطه وتتبع مرضاته وتطيع أمره. والحق الثالث: أن تعينه بنفسك ومالك ولسانك ويدك ورجلك. والحق الرابع: أن تكون عينه ودليله ومرآته. والحق الخامس: لا تشبع ويجوع ولا تروى ويظماً ولا تلبس ويعرى. والحق السادس: أن يكون لك خادم وليس لأخيك خادم، فواجب أن تبعث خادماً فيغسل ثيابه ويصنع طعامه ويمهد فراشه والحق السابع: أن تبر قسمه وتجب دعوته وتعود مريضه وتشهد جنازته، وإذا علمت أن له حاجة تبادر إلى قضائها ولا تلجئه أن يسألكها ولكن تبادرها مبادرة، فإذا فعلت ذلك وصلت ولايتك بولايته وولايته بولايتنا»^(١).

هذه درر من درر هذا الدين القويم ولآلئ من لآلئ هذا الناموس العظيم تلاًلاً بكل وضوح وجلاء. لآلئ لا يصل إلى عمقها فيلسوف تربى في أحضان المادة الدكناء ولا تعيها إلا قلوب زكية وأرواح نقية. ونسأل الله تزكية قلوبنا وتطهير أرواحنا وأن يجعلنا مؤمنين متآخين.

التراحم في الإسلام

يصف الله تبارك وتعالى المؤمنين بقوله: ﴿يُحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ

رَحْمَةً يَنْهَبُ عَنْهُمْ رُكْعًا سَجْدًا يَتَتَوْنَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴿٢٩﴾ [الفتح: الآية ٢٩]. فالمؤمنون متراحمون فيما بينهم متعطفون، يرحم بعضهم بعضاً ويعطف كل منهم على الآخر، فإنهم راکعون ساجدون ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾. وأن الركوع والسجود بإخلاص وإقبال ليؤثران في توجيه النفس إلى الله تعالى فتشع منهما أنوار من أنوار الله القدسية فتلطف النفوس وتدرج في مجالات الكمال فتكتسب الفضائل والمكارم ومنها التراحم والتعاطف. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ رِئَاسَةً لِّلصَّلَاةِ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة: الآية ٧١].

فوصف الله المؤمنين بأن بعضهم أولياء بعض، يتوادون ويتحابون ويتراحمون فيما بينهم. فلا ترى فيهم محتاجاً ولا بائساً ولا مسكيناً. لأن المستطيع منهم يبادر إلى مد يد المعونة إلى الضعيف، يفتش عن الفقراء والمساكين ويجهد نفسه في سد حاجاتهم ورفع الكرب عنهم. لماذا؟ لأن المؤمن المتخلق بهذه الأخلاق الكريمة القائم بهذه الأعمال الواجبة من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإطاعة الله وإطاعة رسوله ﷺ لا يكون إلا ولي المؤمن الآخر، يساعده ويؤازره ويضحي بنفسه ونفيسه في سبيل إنقاذه مما أصابه، حتى يكون موضع رحمته تعالى. لقوله تعالى: ﴿سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ [التوبة: الآية ٧١].

فإن الحياة الاجتماعية السعيدة لا تتحقق إلا إذا توادت القلوب وتراحمت وتعاطفت. وإن التراحم لا يحصل إلا إذا تركز الإيمان في قلوب الناس وكانوا مؤمنين حقاً.

إن القوانين المدنية الحاضرة أو التربية الاجتماعية الخالية من الأسس الروحية ومن التوجيهات النفسية الدينية لا تقوى على ربط أفراد المجتمع ربطاً عميقاً يؤدي إلى سعادة الدارين. ذلك لأن هذه القوانين قيود ميكانيكية لا تلج النفوس ولا تربيتها تربية تجعلها متأثرة متحاببة متراحمة فيما بينها. ولا شك أن أقل حظ للأمم من الأخلاق ما أمرت به القوانين المدنية وقامت الشرطة بحراسته. فخير رابطة تربط البشر بعضهم ببعض هي رابطة الإيمان. يقول (غوستاو لوبون): «من الخطأ الضار محاولة بناء الأخلاق على المعقول وحده كما ذهب إليه كثير من الفلاسفة، لأنه إذا لم يكن للأخلاق سند من المشاعر والروح الديني، فلا بقاء لها ولا قوة». وقد فاته أن ما جاء

النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ [آل عمران: الآيةان ١٣٠/١٣١]. ألم يبلغه هذا الحديث :
«درهم ربا عند الله أعظم من سبعين زنية بذات محرم في بيت الله الحرام»^(١).

نعم، إن للمؤمن على المؤمن حقوقاً يجب عليه أن يؤديها حتى يستحق لقب الإيمان. وليست العبادة الصلاة والصوم والحج... فحسب، بل تتجلى العبادة في كل عمل اجتماعي أمر الله به، فيه التحابب والتوادد والتراحم والتعاطف وإيجاد حياة اجتماعية سعيدة. وهو قول أبي عبد الله عليه الصلاة والسلام: «ما عبد الله بشيء أفضل من أداء حق المؤمن».

هذا دين جعل القيام بأداء حقوق المؤمن أفضل العبادات وأجلها. أفلا يجدر بالعالم أن يتخذ هذا الدين ديناً عالمياً وتربية عالمية لإنقاذ هذا البشر مما ينتابه من شرو وويلات؟ أفلا يليق بفلاسفة الأخلاق وعلمائها أن يجتمعوا أياماً وأشهرات وأن يتبعوا هذا الدين بامعان وإنعام وأن يتفقهوه بتبصر وأرواح مجردة عن العصبية والحمية الجاهلية فيقرؤا «الإسلام» كدين عالمي ويجبروا الحكومات على تقبله وتطبيقه.

نعم، من نواميس هذا الدين ما يقول جعفر الصادق عليه السلام: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله ولا يخونه، ويحق على المسلمين الاجتهاد في التواصل والتعاون على التعاطف والمواساة لأهل الحاجة وتعاطف بعضهم على بعض، حتى تكونوا كما أمركم الله عز وجلّ رحماء بينكم متراحمين، مغتمين لما غاب عنكم من أمرهم... على ما مضى عليه معشر الأنصار على عهد رسول الله»^(٢).

هذا دين اجتماعي يجمع بين سعادة الفرد وسعادة المجتمع وسعادة الإنسان بعد الموت تلك السعادة التي تستغرق ملايين السنين، لا نفاد لها ولا انتهاء. تلك السعادة التي هي فوق حدود التصور ودائرة التفكير. نعم، لا يمكن الوصول إلى هذه السعادة إلا إذا طُبق دستور أبي عبد الله عليه السلام وهو القائل: «اتقوا الله وكونوا أخوة برة متحابين في الله، متواصلين، متراحمين، تزاوروا وتلاقوا وتذاكروا أمرنا وأحيوه»^(٣).

ونسأل الله التوفيق للإيمان الصادق والأخوة الكاملة والتحابب والتواصل

(١) الكافي: ج ٥، ص ١٤٤، باب الربا.

(٢)، (٣) أصول الكافي: ج ٢، ص ١٧٤، باب حق المؤمن.

والتراحم والتزاور والتلاقي وإحياء أمر الأئمة الأطهار عليهم الصلاة والسلام.

التآلف في الإسلام

الإسلام دين الألفة والتوادد والتحابب في الله، دين الاجتماع والتعاون والتعاقد، دين لو عمل بنواميسه وطبقت قوانينه ونظمه لرأيت الأرض جنة من الجنان وفردوساً، كان يحلم به أفلاطون، بل فوق ما كان يتصوره أفلاطون وغير أفلاطون من الفلاسفة بدرجات. ذلك لأن ما كان منبعه فياضاً، منبعه الإفاضات الربانية لا ينضب ولا يغور بل يزداد بصورة لا تتناهى نحو الكمال إذ أن المنبع الفياض لا نهاية له ولا أمد. ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقُوا لَفَنَحْنَاهُمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٩٦]. ﴿وَإِنْ نَعْدُوا نَعْتَهُ اللَّهُ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: الآية ٣٤].

إن الله تعالى يقول في مقام الإمتنان على المؤمنين بنعمة الألفة معظماً شأن الائتلاف: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٦٣]. وهو القائل: ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ أي بنعمة الألفة. ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: الآية ١٠٣]. إن هذا لدستور هام للأمم الإسلامية يأمرهم بوجوب الاتحاد والاتفاق متمسكين بحبل الله المتين جميعاً وهو دينه القويم، عاملين به، غير منحرفين عنه قيد شعرة. وقد قدم التمسك بحبل الله والتدين بدينه القويم على عدم الفرقة، مشيراً إلى أن التمسك بالدين تمسكاً صحيحاً يؤدي إلى عدم الفرقة وتمام الألفة، لأن الإيمان يلقي في النفس الإنسانية نوراً يتجاذب مع بقية الأنوار الإيمانية التي تماثلها، فألفة المؤمنين أمر طبيعي وخاصية طبيعية كخواص الأجسام المادية.

انظروا ماذا يقول سيد البشر المرتبي الأعظم خاتم النبيين محمد بن عبد الله ﷺ في هذا المقام: إنه صلوات الله عليه يقول: «المؤمن ألف مألوف ولا خير في من لا يألف ولا يؤلف»^(١). وهذا هو السر في أن الدين الإسلامي يرغب الناس كثيراً في التسليم والمصافحة والمعانقة.

قال رسول الله ﷺ: «أولى الناس بالله تعالى وبرسوله من بدأ بالسلام». فإن رسول الله ﷺ والأئمة الأطهار ﷺ كانوا يبدأون الناس بالسلام مع مقاماتهم الرفيعة التي انحصرت فيهم، فإن البدء بالسلام يكسر كبرياء النفس وغرورها. ولا يبعد العبد عن الإفاضات الربانية شيء كالكبرياء والتبخر. وقال علي عليه السلام: «لا تَغْضَبُوا ولا تُغْضِبُوا، أفشوا السلام وأطيبوا الكلام. وصلّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»^(١) وقد جاء في الحديث: «مثل الأخوين إذا التقيا مثل اليدين يغسل أحدهما الأخرى». «ما تلاقى المؤمنان قط إلا أفاد الله أحدهما من صاحبه خيراً».

إن علياً عليه السلام صاحب ذات ليلة مسيحياً في الكوفة، وهو خليفة المسلمين، حتى كانا في مفترق الطريق، فلم يفارقه علي عليه السلام بل صاحبه ماشياً نحو بيت المسيحي على مسافة ما، ثم ودّعه وأمّ الرجوع، فقال له المسيحي: ظننت أن لك في هذه الحارة شغلاً، فقال عليه السلام ما موداه: كلا، بل من شأن المصاحب أن يشايح صاحبه إلى مسافة ما. هذه أخلاق خليفة المسلمين مع مسيحي وهو قانون رائع يجب أن يقتدى به. فإن الإسلام إنما جاء لإتمام مكارم الأخلاق.

ثم إن الدين الإسلامي قد نص على أن تكون الألفة مع مؤمن يذكر الله ويذكر الله. لأن الألفة كثيراً ما تؤدي إلى الفساد والإفساد. فكم من أناس بسطاء اكتسبوا صفات ذميمة وأخلاقاً سيئة نتيجة الألفة والمصاحبة، لأنهم لم يفكروا في ديانة المصاحب وأخلاقه ونبله، وإن هذه النقطة الدقيقة يجب أن تلاحظ في عنفوان الشباب ودور المرافقة حيث تنهيج في الشباب أحاسيس شتى وميول عدة. فإن صادق أصدقاء طيبين أتقياء سلم واجتاز هذه المرحلة العصبية بسلام وإلا وقع في أشراك شياطين الإنس حيث الهوة السحيقة والتسافل المرير. فخير لشاب لا يجد صديقاً تقياً نجيباً أصيلاً أن يبقى وحيداً فريداً لا يعاشر أحداً. فإن العزلة خير من الوقوع فيما يدنس النفس الإنسانية ويلوثها ويبعدها عن الساحة القدسية الإلهية. لذلك يقول رسول الله ﷺ: «عاشروا من يذكركم الله». وفي حديث آخر «لا تجالس شرّاب الخمر فإن اللعنة إذا نزلت عمت من في

المجلس»^(١). وفي حديث آخر: «الغناء مجلس لا ينظر الله إلى أهله».

فترون أن الألفة مقيدة بذكر الله وطاعة الله وإقامة حدود الله، وقد قال الصادق عليه السلام: «إن المسلم إذا رأى أخاه كان حياة لدينه إذا ذكر الله»^(٢). وقال عليه السلام لأبي خديجة: «كم بينك وبين البصرة؟ قال: في الماء خمس، إذا طابت الريح، وعلى الظهر ثمان أو نحو ذلك. فقال ما أقرب هذا، تزاوروا ويتعاهد بعضهم بعضاً، فإنه لا بد يوم القيامة من أن يأتي كل إنسان بشاهد يشهد له على دينه»^(٣).

وقد نهى الدين الإسلامي عن التباغض والتدابير وهو القائل: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: الآية ١٣]. وقد قال رسول الله ﷺ: «لا يحل لمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث، والسابق إلى كلام أخيه أسبقه إلى الجنة»^(٤). ويراد من الأخ هنا: الأخ المسلم. وكما رأينا إخواناً من أبوين هجر أحدهم الآخر لأمر تافه. ولو رجعوا إلى عقولهم لعلموا أن الشيطان هو الذي ألقى بينهم العداوة والبغضاء وأرادهم متفرقين، متباغضين.

جاء في أعمال ليلة القدر أن أول عمل وأفضل عمل يقوم به المؤمنون هو قلع الضغائن والأحقاد من القلوب. قال رسول الله ﷺ: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث». وقال أيضاً: «أيما مسلمين تهاجرا فمكثا ثلاثاً لا يصطلحان إلا كانا خارجين من الإسلام ولم يكن بينهما ولاية، فأيهما سبق إلى كلام أخيه كان السابق إلى الجنة يوم الحساب». فحري بكل مسلم حدث بينه وبين مسلم آخر أحنة أو سوء تفاهم أن يسبق إلى منزله، يسلم عليه ويتفاهم معه ويقلع الإحنة والبغضاء بكلمات طيبة، لا تأخذه في الله لومة لائم، فيكون هو السابق إلى الجنة.

أنظروا ماذا يقول الصادق عليه السلام في هذا المقام: «لا يفترق رجلان على الهجران إلا استحق أحدهما البراءة واللعنة، وربما استوجب ذلك كلاهما. فقال له، معتب. جعلني

(١) مستدرك الوسائل: ج ٨، ص ٣٥١، باب ٢٧.

(٢) روضة الكافي: ج ٨، ص ٣١٥.

(٣) روضة الكافي: ج ٨، ص ٣١٥.

(٤) وسائل الشيعة: ج ١٢، ص ٢٦٣، باب ١٤٤.

الله فداك، هذا الظالم، فما بال المظلوم؟ قال: لأنه لا يدعو أخاه إلى صلته ولا يتعاسم^(١) له عن كلامه. سمعت أبي عليه السلام يقول: إذا تنازع اثنان فعازاً أحدهما الآخر، فليرجع المظلوم إلى صاحبه حتى يقول لصاحبه: أي أخي، أنا الظالم، حتى يقطع الهجران بينه وبين صاحبه، فإن الله تعالى حكم عدل يأخذ للمظلوم من الظالم^(٢).

هل يتصور إنسان أن هناك دستوراً يولف بين الناس أعظم من هذا الدستور الإلهي، يأتي الصديق المظلوم إلى صديقه الظالم فيتهم نفسه ويقول أنا الظالم، ليرفع ما بينهما من تشاحن وتباغض، فيحزن الشيطان إذ ذاك. إذ أنه لتباغض المسلمين بالمرصاد. فقال أبو عبد الله عليه السلام: «لا يزال إبليس فرحاً ما اهتجر المسلمان، فإذا التقيا اصطكت ركبته وتخلعت أوصاله، ونادى يا ويله، لما لقي من الثور»^(٣).

قال الباقر عليه السلام: «إن الشيطان يغري بين المؤمنين ما لم يرجع أحدهم عن دينه، فإذا فعلوا ذلك استلقى على قفاه وتمدد وقال: فزت. فرحم الله امرأة ألف بين وليين لنا، يا معاشر المؤمنين تأكفوا وتعاطفوا»^(٤).

ومن أفضل أنواع التألف، إصلاح ذات البين وإدامة المودة والمحبة بين الأرحام. فإن علياً عليه السلام يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «إصلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام وإن البغضة حالقة الدين، وفساد ذات البين ولا قوة إلا بالله، أنظروا ذوي أرحامكم، فصلوهم، يهون الله عليكم الحساب»^(٥).

وقال عليه السلام: «عليكم بالتواصل والتبادل والتبار وإياكم والتقاطع والتدابير والتفرق، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب»^(٦). يقول الله جلّ وعلا: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْدِيكُمْ أَنْ تَبْزُوا وَتَتَّقُوا

(١) لا يتعاسم - لا يتفاضل ولا يتجاهل.

(٢) أصول الكافي: ج ٢، ص ٣٤٤، باب الهجرة.

(٣)، (٤) أصول الكافي: ج ٢، ص ٣٤٦، باب الهجرة.

(٥) من لا يحضره الفقيه: ج ٤، ص ١٨٩، باب رسم الوصية.

(٦) الكافي: ج ٧، ص ٥١، باب صدقات النبي صلى الله عليه وآله.

وَتُصَلِّحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْفُحْوَ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ [البقرة: الآيتان ٢٢٤/٢٢٥].

التزاور في الإسلام

الإسلام دين جامع لجميع الكمالات التي تؤدي إلى كمال الفرد وكمال المجتمع، وليس ديناً يأمر بالعبادة فحسب. فالمؤمن مستجمع لجميع الكمالات الفردية والاجتماعية وما به يكون الإنسان إنساناً كاملاً.

وقد زعم بعض من أخذ طرفاً من مدينة الغرب وآدابها الاجتماعية أن الإسلام: دين زهد وانزواء وجمود وخمول، وأنه لا يصلح لتحقيق مدنية فاضلة تؤدي إلى تكامل الأمة وسيرها في ساحات الرقي والتقدم، وأخذ يلتمس الرقي في تقليد الغرب - تقليداً أعمى - في حياته الاجتماعية الخالية من أسس الكمال، تلك الحياة العارية عن الأسس الروحية والفضائل العليا التي يبلغ بها الإنسان ذروة الكمال. كل ذلك لجهله نوااميس الإسلام وآداب الإسلام وأوامره ونواهيها. ذلك لأن المدارس لم تهتم بهذه الناحية وأهملتها إهمالاً أدى إلى مقت الشاب، الدين الإسلامي وطلبه السعادة والنور في أحضان الغرب. نعم، إن طالبنا ليعلم عن جبال استراليا وجزر الفلبين أكثر مما يعلمه عن دينه: ذلك الدين الذي من الله تبارك وتعالى به عليه من بين سائر الأمم، وبعث نبيه ﷺ في خير بقاع الأرض وهي مكة المكرمة. ولا تزال مدارسنا لا تدرس الدين الإسلامي تدريساً يشبع الطالب بحقائقه وجلال سننه وتعاليمه وكم مدرساً تجدون في العراق قد أحاط بفلسفة الدين الإسلامي وعمل به عملاً يستوجب الاقتداء والانتعاض.

ولم يحصل هذا التبلبل في العقائد وهذه الاتجاهات الباطلة الفاسدة والمبادئ الهدامة إلا من جراء عدم وجود مدرسين أكفاء يدرسون الدين الإسلامي في المدارس بعقيدة راسخة وإيمان رصين مع تطبيق حقيقي. وعدم تخصيص حصص كافية تتناسب وسعة هذا الموضوع الحيوي.

بديهي أن الإنسان لا يخلو من اتجاه، كما لا يخلو مكان على وجه الأرض من

هواء بصورة اعتيادية. فإن لم يتجه الفرد إلى الحق والصواب، فهو متجه لا محالة إلى الباطل والفساد: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالشَّرِّ﴾ [يُوسُف: الآية ٥٣].

أنظروا إلى ما يقوله هذا الدين القويم في حسن التعارف وإيجاد حياة سعيدة اجتماعية. قال رسول الله ﷺ: «ما اصطحب اثنان إلا كان أعظمهما أجراً وأحبهما إلى الله عز وجلّ أرفقهما بصاحبه»^(١). . هذا دين يوفق بين سعادة المجتمع وسعادة الفرد بربط أعمال الفرد إلى الله وتقريبه إليه.

ويقوّي رابطة العبد والمعبود إلى حد بعيد. لأن الكمال الإنساني يتناسب مع قوة هذه الرابطة. ومن أين يستقي هذا الإنسان المخلوق من نطفة مذرة الفضائل والكمالات؟ أليس من خالقه العظيم المنعم المتفضل المنان، وهو القائل: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: الآية ٢].

الغربي لا يدخل ضمن روابطه الاجتماعية مفهوم التقرب إلى الله والقيام بالأعمال الصالحة لوجه الله، بل روابطه نفعية مادية حالكة، لا يرجو من ورائها إلا المنافع الخسيسة، فهي مظلمة، قاتمة دكئاء. ألا ترى أن الغربي إذا فكر في مصيره بعد الموت تختلج أعصابه وترتبك أفكاره، فيزيحها بخمرة أو مجلس قمار أو رقص، فيدنس بها نفسه أكثر مما هي عليه كي لا يشعر بمصيرها: ﴿سَوْأَ اللَّهُ فَاَسَنَّهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ [الحشر: الآية ١٩]. وعن أنس قال: «كان الرسول ﷺ إذا افتقد الرجل من إخوانه ثلاثة أيام سأل عنه، فإن كان غائباً دعا له وإن كان شاهداً زاره وإن كان مريضاً عاده»^(٢).

وعن أبي حمزة عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «من زار أخاه لله لا لغيره التماس موعد الله وتنجز ما عند الله، وكل الله به سبعين ألف ملك ينادونه ألا طبت وطابت لك الجنة»^(٣).

هذا خيشمة يقول: دخلت على أبي جعفر «وهو الإمام الباقر عليه السلام» أودعه فقال: يا خيشمة، أبلغ من ترى من موالينا السلام، وأوصهم بتقوى الله العظيم، وأن يعود غنيهم على فقيرهم، وقويهم على ضعيفهم، وأن يشهد حيّهم جنازة ميتهم، وأن يتلاقوا في

(١) أصول الكافي: ج ٢، ص ١٢٠، باب الرفق.

(٢)، (٣) أصول الكافي: ج ٢، ص ١٧٥، باب زيارة الإخوان.

بيوتهم، فإن في لقيا بعضهم بعضاً حياة لأمرنا، رحم الله عبداً أحيا أمرنا، يا خيشمة أبلغ موالينا: إنا لا نغني عنهم من الله شيئاً إلا بعمل، وأنهم لن ينالوا ولا يتنا إلا بالورع. وأن أشد الناس حسرة يوم القيامة من وصف عدلاً ثم خالفه إلى غيره»^(١).

هذا دين جعل زيارة الإخوان في الله بمثابة زيارة الله على سبيل المجاز تعظيماً لشأن المؤمن واهتماماً بالتربية الاجتماعية. فقد قال جعفر الصادق عليه السلام: «من زار أخاه في الله، قال الله عز وجل: إياي زرت وثوابك علي ولست أرضى لك ثواباً دون الجنة»^(٢).

فهذه الزيارة لله وفي الله وابتغاء لوجه الله الكريم. لا يرجى من ورائها تثبيت في وظيفة حكومية أو مقدمة لنيل درجة أو مقام من المقامات أو جلب نفع مادي، بل يؤتى بها أداء لحقوق المؤمن فحسب وتعظيماً لشأنه.

هذه زيارة لا يتخللها غيبة ولا اتهام ولا افتراء. هذه زيارة لا ترى فيها محلاً للقمار والميسر ولا أثراً للخمرة ونظرات السوء. هذه مجالس لا ترى فيها التلذذ بأعراض الآخرين من رقص وغرام وتغزل بالباطل. هذه مجالس يذكر فيها اسم الله تعالى ويتخللها تسبيح وتحميد والتحدث في ما بهم المسلمين وقضاء حوائجهم. هذه مجالس تذكر الآخرة وتوجه الإنسان إلى محاسبة نفسه فقد جاء في الحديث: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا. وزنوها قبل أن توزنوا»^(٣). هذه ليس تكفر عن الذنوب بما يتخللها من إنابة واستغفار فقد جاء في الحديث: «عاشروا من يذكركم الله رؤيته». هذه مجالس ينظر إليها الله بنظر الرحمة ويتغمد بها بعظيم اللطافة.

نعم، في هذه المجالس تزاور يصفه أبو عبد الله عليه السلام بقوله: «من زار أخاه في الله في مرض أو صحة لا يأتيه خداعاً ولا استبدالاً، وكُلَّ الله به سبعين ألف ملك ينادون في قفاه أن طبت، وطابت لك الجنة. فأنتم زوار الله وأنتم وفد الرحمن حتى يأتي منزله. فقال له بشير (وهو أحد أصحابه) جعلت فداك. فإن كان المكان بعيداً؟

(١) أصول الكافي: ج ٢، ص ١٧٥، باب زيارة الإخوان.

(٢) أصول الكافي: ج ٢، ص ١٧٦، باب زيارة الإخوان.

(٣) وسائل الشيعة: ج ١٦، ص ٩٩، باب ٩٦.

فقال ﷺ: نعم يا بشير، وإن كان المكان مسيرة سنة، فإن الله جواد، والملائكة كثيرة يشيعونه حتى يرجع إلى منزله^(١).

أنظروا إلى أثر وزيارة الإخوان في حسن العاقبة فإن الإمام محمداً الباقر ﷺ يقول: «إن لله عز وجل جنة لا يدخلها إلا ثلاثة: رجل حكم على نفسه بالحق، ورجل زار أخاه المؤمن في الله، ورجل أثر أخاه المؤمن في الله»^(٢). فإن «لقاء الإخوان مغنم جسيم وإن قلوا»^(٣) كما قال أمير المؤمنين علي ﷺ:

لا أعلم نظاماً اجتماعياً أعلى من هذا النظام يكفل سعادة النشأتين ويبلغ بالإنسان إلى أقصى حد من مراتب الكمال، ولا أرى تحايلاً فوق التحابب في الله والله، ولا أرى فضيلة أسمى مما نصت إليه التعاليم الإسلامية الرفيعة. ونسأل الله تطهير القلوب وتوفيق التحابب والتراحم والتزاور في الله... وما أحوج العالم الإسلامي إلى التفاهم والتآزر وصرف هذه الطاقات التي تتجلى فيها الإيمان لدعوة شاملة ورفع لواء الإسلام في أصقاع الأرض عالياً، حتى لا تكاد تسمع في أية بقعة من بقاع الأرض إلا: قائلاً يقول: لا إله إلا الله. محمد رسول الله...

التعاطف في الإسلام

إذا تداعت أخلاق أمة عاجلها الفناء. لذلك اهتم الدين الإسلامي بتقويم الأخلاق اهتماماً بالغاً فوق حدود التصور والخيال وجاء بقوانين متينة مثالية لا يضاهيها أي دستور بشري. فقد قال رسول الله ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». فإنما أداة حصر، أي إن علة بعث الرسل وإرسال نبينا محمد بن عبد الله ﷺ إنما هي تكميل مكارم الأخلاق وإبلاغ الإنسان إلى آخر حد ممكن من الكمالات الأخلاقية، لكي يخرج من هذه الدنيا زكياً تقياً طاهراً حرياً ليحشر مع: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: الآية ٦٩].

(١)، (٢) أصول الكافي: ج ٢، ص ١٧٧، باب زيارة الإخوان.

(٣) أصول الكافي: ج ٢، ص ١٧٩، باب زيارة الإخوان.

فمن جملة تلك الأخلاق المثالية الفاضلة ما يرويه محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد بن عيسى عن محمد بن سنان عن كليب الصيداوي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «تواصلوا وتباروا وتراحموا وكونوا إخوة بررة كما أمركم الله عز وجل»^(١).

هذا دستور اجتماعي قويم لو عمل به المسلمون لأضاءوا العالم بأنوارهم ولكانوا خير وسيلة لإخراج البشر من دياجير المادية الدكناء.

فعلى المسلمين أن يربوا أولادهم منذ نعومة أظفارهم على التراحم والتعاطف والتوadd والتحابب بصورة عملية: يرسل الوالد ولده لمساعدة جاره العاجز في شؤونه البيتية، أو يرسل معه ثيابه التي لا يحتاجها إلى أناس فقراء، أو يرسل معه ما فضل من طعامهم إلى بيت مسكين من المساكين أو يعطيه مبلغاً فيقدمه إلى مقعد أو ذي عاهة لا يطيق عملاً. وليعلم ولده أن يجعل عمله هذا لوجه الله الكريم وأن يرجو بذلك رضا الله تبارك وتعالى. فإن كثيراً من الناس يقومون بأعمال صالحة ولكنهم لجهلهم أو ظلمة نفوسهم لا يقومون بها ابتغاء مرضاة الله تعالى بل خدمة للإنسان. فإن هؤلاء قد يجازون إزاء خدمتهم هذه جزاءاً حسناً في الدنيا من عزّ دنيوي ورفاهية وصحة وطول في العمر ولكن ليست لهم مكافأة أخروية بعد الموت، ولا يفيدهم عملهم الصالح ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ [الشعراء: الآيات ٨٨/٨٩]. في يوم ﴿يَوْمَ الْمُنْجَرِّمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بِبَنِيهِ﴾ (١١) وَصَنْجِبِهِ وَآخِيهِ ﴿٧﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿٤﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَأَطْلَى ﴿٥﴾ نَزَاعَةٌ لِلشَّوَى ﴿١٦﴾ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ﴿٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴿١٨﴾ [المعارج: الآيات ١١/١٨]. في ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٢٤﴾ وَأُخِيهِ وَأُبِيهِ ﴿٢٥﴾ وَصَنْجِبِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣١﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُنْبِيهِ﴾ (٣٧) [يس: الآيات ٣٤/٣٧]. ذلك لأن كمال النفس الإنسانية إنما يحصل بتوجهها إلى الله تعالى وشكرها لله وخضوعها لله وربط الأعمال كلها إلى الله. وكلما قويت هذه الرابطة - أي الرابطة بين العبد والمعبود - سطعت من الأنوار الإلهية على العبد أنوار قدسية وسار العبد في ساحات الكمال بسرعة متناهية وخرج من عالم الناسوت وتخلص من برائن المادة العمياء، وما بينها تفسير لقوله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِّعْمَةٍ

تَجَزَّى ﴿٢٨﴾ إِلَّا ابْتَغَاءَ وَجْهَ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿٢٩﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿٣٠﴾ [الليل: الآيات ٢٨/٢٩]. فإن رضا الله تبارك وتعالى منوط بأن تكون الأعمال الصالحة ابتغاء لوجهه الكريم وتقرباً إليه، ولا تفيد الخدمات الإنسانية المجردة عن روح الشكر والتقرب إلى الله تعالى.

ويا حبذا لو قامت المدارس بتأسيس جمعيات إسلامية أو لجان للإرشاد الديني لتطبيق ما جاء في الدين الإسلامي من أحكام التراحم والتعاطف بصورة عملية؛ تجمع هذه الجمعية أو لجنة الإرشاد الديني من الطلاب الأغنياء بعض المبالغ اليسيرة وما خلق (بلى) من ثياب وحذاء فتذهب بها إلى بيوت الأراامل والأيتام، فتقدمها بكل احترام وبآداب إسلامية وتعمل في إقامة الصلاة داخل المدرسة وفي المساجد وإلقاء خطب دينية، إلى ما هنالك...

قال أبو عبد الله عليه السلام: «إن من حق المؤمن على المؤمن المودة له في صدره والمواساة له في ماله والخلف له في أهله والنصرة له على من ظلمه، وإن كان نافلة في المسلمين وكان غائباً أخذ له بنصيبه، وإذا مات، فالزيارة إلى قبره، وأن لا يظلمه وأن لا يغشه وأن لا يخونه وأن لا يخذله وأن لا يكذبه وأن لا يقول له أف، وإن قال له: أف، فليس بينهما ولاية، وإن قال له: أنت عدوي فقد كفر أحدهما، وإذا اتهمه انماث الإيمان في قلبه كما ينماث^(١) الملح في الماء»^(٢).

فترون أن الإيمان يتناسب مع القيام بالواجبات الأخلاقية، فكلما قام الإنسان بالواجبات الأخلاقية لوجه الله الكريم وطلباً لمرضاته تعالى قوي إيمانه وزاد يقينه وكلما تماهل وتكاسل في تطبيق الأوامر الأخلاقية الإسلامية ضعف إيمانه وتضعضع يقينه.

هذا أبان بن تغلب كان يطوف مع أبي عبد الله جعفر الصادق عليه السلام حول البيت والطواف أمر واجب لا يتم الحج إلا به. فعرض له رجل يسأله حاجة يريد به الذهاب معه، فكره أن يدع أبا عبد الله عليه السلام ويذهب لقضاء حاجة أخيه المؤمن، وقد أشار إليه صاحب الحاجة مرة ثانية. وإذا بأبي عبد الله عليه السلام يراه، فأمر أبان بن تغلب بقطع

(١) إنماث: ذاب.

(٢) أصول الكافي: ج ٢، ص ١٧١، باب حق المؤمن.

الطواف والذهاب إلى قضاء حاجة الأخ المؤمن، ولو كان هذا الطواف الفريضة. ثم يسأل أبان الإمام عليه السلام عن حق المسلم، فيجيب عليه السلام: حق المؤمن أن تقاسمه شطر مالك. ثم نظر على أبان إمارات التعجب. فيقول الإمام عليه السلام: يا أبان، أما تعلم أن الله عزّ وجلّ ذكر المؤثرين على أنفسهم. فيقول أبان: بلى، جعلت فداك، فيقول الإمام عليه السلام: «أما إذا أنت قاسمته فلم تؤثره بعد، إنما أنت وهو سواء إنما تؤثره إذا أنت أعطيته من النصف الآخر»^(١). وقد جاء في حلية الأولياء: أن زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام قاسم الله ماله مرتين، يقول محمد بن عجلان: كنت عند أبي عبد الله الصادق عليه السلام فدخل رجل فسلم. فسأله كيف من خلفت من إخوانك. قال: فأحسن الثناء وزكى وأطرى فقال له عليه السلام: «كيف عبادة أغنيائهم على فقرائهم. فقال: قليلة. قال: فكيف مساعدة أغنيائهم لفقرائهم. قال: قليلة قال: فكيف صلة أغنيائهم لفقرائهم في ذات أيديهم. فقال: إنك لتذكر أخلاقاً قلّ ما هي في من عندنا. قال: فقال عليه السلام: فكيف يزعم هؤلاء أنهم شيعة»^(٢).

يقول أبو إسماعيل: قلت لأبي جعفر - وهو الإمام محمد الباقر عليه السلام جعلت فداك: أن الشيعة عندنا كثير فقال: «هل يعطف الغني على الفقير ويتجاوز المحسن عن المسيء ويتواسون. فقلت: لا فقال: ليس هؤلاء شيعة. إنما الشيعة من يفعل هذا»^(٣). وقد سأل مَعلى بن خنيس الصادق عليه السلام عن حق المؤمن فقال: سبعون حقاً. لا أخبرك إلا بسبعة، فإنني عليك مشفق، أخشى أن لا تحتمل فقلت بلى، إن شاء الله تعالى. فقال عليه السلام: «لا تشبع ويجوع ولا تكتسي ويعرى وتكون دليله وقميصه الذي يلبسه ولسانه الذي يتكلم به وتحب له ما تحب لنفسك وإن كانت لك جارية بعثتها لتمهد فراشه وتسعى في حوائجه بالليل والنهار. فإذا فعلت ذلك وصلت ولايتك بولايتنا وولايتنا بولاية الله عزّ وجلّ»^(٤).

(١) أصول الكافي: ج ٢، ص ١٧١، باب حق المؤمن.

(٢)، (٣) أصول الكافي: ج ٢، ص ١٧٣، باب حق المؤمن.

(٤) أصول الكافي: ج ٢، ص ١٧٤، باب حق المؤمن.

هذا دين يهتم بشؤون الفرد والمجتمع وإيجاد حياة سعيدة للجميع إلى حد بعيد حتى جعل ذلك من صلب الدين وواقعه، وعدّ ذلك من أفضل العبادات. فإن علياً عليه السلام يقول: «إن لله عباداً يختصهم الله بالنعم لمنافع العباد فيقرها في أيديهم ما بذلوها. فإذا منعوها نزعها منهم ثم حولها إلى غيرهم»^(١).

ليست السعادة الحقيقية في جمع المال فحسب، بل في بذله وإنفاقه لوجه الله الكريم. فبذلك تتكامل النفس وتخلص من برائن المادة وتتصل بالملكوت الأعلى وتكون إنساناً كما يرتضيه الله تبارك وتعالى، ونسأل الله أن يوفقنا إلى إتباع سنة الرسول وآله الأطهار عليهم الصلاة والسلام، فنكون متعاطفين، متراحمين، مؤمنين.

آداب السلام في الإسلام

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها﴾ [النساء: الآية ٨٦] ومعنى ذلك: لو أن أحداً سلم عليك بقوله: السلام عليك. فيجب عليك إما أن تقول: (السلام عليك ورحمة الله) أو (وعليك السلام ورحمة الله). أو تقول: (وعليك السلام). فإن قلت: (وعليك) ولم تزد فقد عصيت. كل ذلك لأن الدين الإسلامي يحافظ على حقوق الأفراد غاية المحافظة ويريد بالناس ليكونوا شاكرين مقدرين بعضهم حقوق البعض. فالذي يسلم أولاً هو ذو حق وفضل فينبغي أن يجازي بأحسن مما أتى به. وهذا ما يقره العقل ويأمر به الدين الإسلامي. وهل لأحد أن يجد في الدين الإسلامي أمراً أو نهياً أو تكليفاً يخالف العقل المتكامل. وعن ابن عباس في تفسير الآية المتقدمة: «إذا قال المسلم: السلام عليكم، فقلت: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. فقد حيّته بأحسن منها وهذا منتهى السلام»^(٢). وروي: «أن رجلاً دخل على النبي صلى الله عليه وآله، فقال: السلام عليك. فقال النبي صلى الله عليه وآله: وعليك السلام ورحمة الله. فجاءه آخر فقال: السلام عليك ورحمة الله. فقال النبي صلى الله عليه وآله: وعليك السلام

(١) وسائل الشيعة: ج ١٦، ص ٣٢٥، باب ١٤.

(٢) بحار الأنوار: ج ٨١، ص ٢٧٣، باب ١٧.

ورحمة الله وبركاته. فجاءه آخر فقال: السلام عليك ورحمة الله وبركاته، فقال النبي ﷺ: «وعليك، فقل يا رسول الله: زدت للأول والثاني في التحية ولم تزد للثالث فقال: إنه لم يبق لي من التحية شيئاً. فرددت عليه مثله»^(١).

روى الواحدى بإسناده عن أبي أمامة عن مالك بن النيهان. قال: «قال رسول الله ﷺ: من قال: السلام عليكم، كتب له عشر حسنات ومن قال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، كتب له ثلاثون حسنة». وقال رسول الله ﷺ: «السلام تطوع والرد فرض»^(٢). ثم الرد ربما يكون من فروض الكفاية ومعنى ذلك: لو أن رجلاً دخل مجلساً وسلم لا على شخص معين. فإن رد عليه (السلام) شخص من الجالسين أو أشخاص عدة، سقط التكليف عن الآخرين. وإن خص بالسلام أحداً من الحاضرين فقد تعين عليه الرد. وقال أيضاً: القليل يبدأون الكثير بالسلام والراكب يبدأ الماشي وأصحاب البغال يبدأون أصحاب الحمير. وأصحاب الخيل يبدأون أصحاب البغال. كل ذلك لتعليم الغني التواضع للفقير بما أنعم الله عليه. وقد دلت الأخبار أن رسول الله ﷺ: كان يسلم على النساء ويرددن عليه. وإن السلام على الشابة مكروه تخوفاً من استحسان صوتها. فيدخل على المسلم من الإثم أكثر مما يطلبه من الأجر.

وقد مر رسول الله ﷺ على صبيان فسلم عليهم. وإن الشارع قد أوجب رد السلام وإن كان المخاطب بالسلام في حالة الصلاة الواجبة أو المستحبة. فإن كنت في صلاة وسلم عليك رجل أو امرأة بأن قال أحدهما: سلام عليكم، وجب أن تقول في الجواب: سلام عليكم. وأن تسمعه. ففي الصلاة تضارب بين حق الله وحق العبد وهو المسلم، فالله تعالى لعظيم لطفه أثر حق العبد على حقه وأمر بأن يرد المصلي السلام وأن يستمر في صلاته من حيث انتهى إليه. وهذا شأن الدين الإسلامي في جميع أحكامه.

وعن أبي عبد الله ﷺ: إذا مرت الجماعة بقوم أجزأهم أن يسلم واحد منهم وإذا

(١) بحار الأنوار: ج ٨١، ص ٢٧٤، باب ١٧.

(٢) أصول الكافي: ج ٢، ص ٦٤٤، باب التسليم.

سلم على القوم وهم جماعة أجزأهم أن يرد واحد منهم . وقد قال رسول الله ﷺ : ابدأوا بالسلام قبل الكلام . فمن بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه . وقال أيضاً : «أولى الناس بالله ورسوله من بدأ بالسلام»^(١) . وقال : أبو جعفر الإمام الباقر عليه السلام : «إن الله يحب إفشاء السلام» . وقال أبو عبد الله الصادق عليه السلام : «من التواضع أن تسلم على من لقيت»^(٢) . وقال أيضاً : يسلم الصغير على الكبير والمار على القاعد والقليل على الكثير^(٣) .

هذه آداب يقرها الدين الإسلامي احتراماً لحقوق الأفراد مهما كانت مراتبهم . ومع الأسف نرى بعض المسلمين يغفلون عن تطبيق هذا الدستور الإسلامي الرفيع . نرى أناساً يردون السلام مع شيء من الكبرياء والتبخر أو لا يردونه رداً تاماً ، فيكونون آثمين . نرى قسماً من الناس يردون السلام بصوت خشن قائلين : (عليك) . أو (عليكم) . تكبراً على من تفضل فسلم عليهم . ولا شيء أبغض عند الله من الكبر . فإن الله تعالى يسلب إيمان المتكبر لكبره . فالكبرياء خاصة به تعالى . إن الله تعالى يقول : ﴿سَاصْرِفْ عَنْ عَائِلَتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف : الآية ١٤٦] . وإن الكبر من أصول الكفر ويؤدي إلى ضعف الإيمان بل سلبه . ففي الحديث ، أصول الكفر ثلاثة : الحسد والبخل والكبر . ثم يستحسن رد السلام مع البشر والابتسام . فإن المؤمن هشٌّ بشٍّ . وإن رسول الله ﷺ كان دائم البشر ، سهل الخلق ، لين الجانب فلا يحسن بالمسلم أن يرد السلام بامتناع وخشونة بل يستحب له أن يجازي المحسن مع زيادة لسابق فضله .

قرأت للأستاذ محمد علي الحوماني مقالاً قبل حوالي خمسة عشر عاماً : يقول فيه ما موداه : بينما كنت أسير في طرقات لندن ، عند الزوال وإذا بي أشاهد رجلاً كبير السن واقفاً على عتبة داره يؤذن لصلاة الظهر ، فانتظرت حتى أنهى الأذان . فسلمت عليه قائلاً : السلام عليكم ، فأجاب : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته . عملاً بالآية المباركة : ﴿وَإِذَا حُيِّئْتُمْ بِهِ جَنَّتُمْ فَجِئُوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء : الآية ٨٦] . ثم تعارف معي وطلب إليّ الدخول إلى البيت . فدخلت ، فرأيت أنه قام مع عقيلته فصليا صلاة

(١) أصول الكافي : ج ٢ ، ص ٦٤٤ ، باب التسليم .

(٢) ، (٣) أصول الكافي : ج ٢ ، ص ٦٤٦ ، باب التسليم .

الظهر، ثم جلسا على مائدة الطعام وألحا عليّ أن أتناول معهما الطعام وقد لفت نظري أنهما لم يبدأ بالأكل حتى قالوا: (بسم الله الرحمن الرحيم) ولما انتهيا من الطعام، قالوا: (الحمد لله رب العالمين). إن الشيخ كان أحد كبار الأساتذة في جامعة لندن، قد اعتنق الدين الإسلامي عن تتبع وتنقيب وبحث عميق. وكم من رجال في الغرب: أولئك الذين لم يلوثوا أنفسهم بالخمور والفجور والمراقص والمجون والربا وأكل لحم الخنزير، اعتنقوا الدين الإسلامي وخرجوا من الظلمات إلى النور. ذلك لأنه لا مجال للضوء والنور (وأعني به الإيمان) من يدخل نفوساً مدلهمة حالكة بالمعاصي والآثام: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنَ الْإِهْدَىٰ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝٤٢﴾ أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأُولَىٰ فَلَنْ يُجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ يُجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ۝٤٣﴾ [فاطر: الآية ٤٢/٤٣]، لاسيما إذا بلغت النفوس مرتبة من التسافل حتى صارت ترى الحق باطلاً والباطل حقاً، أي بلغت درجة من الانحطاط حتى انطفأت آثار الفطرة، فأمست لا تبصر الحق، بل الحق لديها ما هي عليه من تساهل مرير: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: الآية ٤٦].

ونرى بعض المسلمين إذا دخلوا مجلساً عند الصباح قالوا: صباح الخير. وقالوا عند المساء: مساء الخير. أو رفعوا أيديهم كعلامة للتحية. فلا يحيون الحاضرين بتحية الإسلام، اقتباساً عما جاءنا من الغرب. ما أثر رفع اليد في جلب الخير للمخاطب. وما معنى صباح الخير؟ أي أرجو أن يكون صباحك خيراً. وما قيمة هذا الرجاء إن لم يفتن بمشيئة الله تعالى. وما قيمة الرغبات الشخصية، والأمر كله لله. فقول المسلم: السلام عليكم ورحمة الله، وتعقيب ذلك بـ (صبحكم الله بالخير) هو إرجاع الصحة والسلامة والخير إلى الله تعالى وطلب ذلك كله للشخص المخاطب، من الله تعالى.

وقد سمعت في لبنان: يقول أحدهم لآخر عند ملاقاته ليلاً: (سعيدة). أي لتكون ليلتك سعيدة. ما أثر هذا الأمل في جعل الليل سعيداً، لو لم يرد الله تعالى ذلك. فالأمور كلها بيده تعالى. فطوبى لمن توكل عليه وعمل بما أمر به، ليفوز بسعادة حقيقية أبدية. إن

المدينة الحاضرة في حياتها تمثل الدور الجاهلي، فلا نجد لذكر الله فيها أثراً. وإن تقليد الغرب في الآداب الاجتماعية هو الارتجاع (أي الرجعية) بالمعنى الصحيح.

نعم، إنا قد تأثرنا بمدينة الغرب المادية في آدابنا الاجتماعية وأصبحنا مقلدين حتى في ما تعودنا عليه منذ ثلاثة عشر قرناً. إذا دخل الرجل منا قال: مرحباً. عوضاً عن أن يقول: السلام عليكم ورحمة الله. لأنه يرى ذلك أقرب إلى القبول وأطيب إلى القلوب. مع أن الله يريد بنا أن نذكره دائماً كي تتصل أعمالنا وأرواحنا به تعالى ونستقي من ينبوعه الفياض جميع الكمالات التي بها يكون الإنسان إنساناً. فإن ذكر الله حسن على كل حال. ولم يستثن الشارع موضعاً لا يذكر فيه اسم الله.

ولا ريب أن لذكر الله تعالى أثراً عظيماً في ردع النفس عن غلواتها وشهواتها ونزواتها. فقد جاء في القرآن الكريم في مواضع كثيرة وجوب التسبيح والتحميد وذكر الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۖ﴾ [الأحزاب: ٤١/٤٢]. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الشعراء: ٢٢٧]. وقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: الآية ١٥٢].

كثيراً ما نجد أناساً تغلغلوا في المدينة الغربية لا يذكرون اسم الله في كل يوم وليلة ولا مرة واحدة. إنهم قد يحترمون آباءهم ويقدمون أمهاتهم وهو ما أمر الله تعالى به: ولكنهم لا يذكرون ولا يعظمون من تفضل عليهم بالآباء والأمهات. وقد جاء في حديث: «لا يزال ينقص من هذا الدين حتى لا يقال: الله».

إن العلامة الفارقة بين المدينة الإسلامية والمدينة الغربية: أن شعار الثانية رفع مفهوم الله عن الحياة الاجتماعية وربط الأمور بحبول مادية مقتضة خسياسة والاعتماد على الوسائل المادية. ولذلك تتحجز النفس في هذه المدينة فلا تشعر بما وراء الطبيعة ولا تعترف به. ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقَىٰ فَيَرْجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: الآية ٧٤]. وأن هذا البشر لميال إلى رفع القيود والتدهور والتسافل. فيتقبل ما يؤدي إلى التسافل وينطبع عليه أسرع مما يؤدي إلى التعالي والتكامل. وإن المادية بآثارها ومظاهرها

ونتائجها وخلاعتها ومجونها وصحافتها ومسارحها ومراقصها وإعلاناتها تدهور وتسافل .
لذلك تجد قبولاً بسائق الغريزة من أناس غلبوا على أمرهم فخالفوا ما تملبه عليهم عقولهم ،
فتراءت لهم الشهوات بلباس العقل والفكر والثقافة فاتبعوها حتى صاروا لا يشعرون إلى
أين هم سائرون . فطوبى لمن حكم عقله ولم تغره المظاهر الخلابة والمناظر الخداعة ،
المبعدة عن ذكر الله والآخذه بهذا الإنسان المسكين (المغرور بلفظ الثقافة) إلى أسفل
سافلين : ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التحل : الآية ١١٨] .

آداب التلاقي في الإسلام

إن الدين الإسلامي قد استوعب كل ما من شأنه إبلاغ البشر إلى أعلى مراتب الكمال .
عطى حكمه في كل أمر اجتماعي أو خلقي أو حقوقي أو عبادي . حكماً هو غاية
الأحكام ، حكماً يؤيده العقل السليم ، ذلك العقل الذي لم يتلوث بالمدنسات والجرائم ،
حكماً يصل الإنسان إلى كنهه وحقيقته كلما تكاملت معارفه وسمت نفسه . ومن جملة تلك
الأحكام وتلك الآداب ما يقوم به الإنسان الاجتماعي عندما يلاقي إنساناً آخر .
فيستحب أن يلاقي المرء أخاه المسلم بالبشر وأن يبدأه بالسلام وأن يظهر إليه أنه
يودّه ويحبه . فعن أبي عبد الله عليه السلام : «مجالمة الناس ثلث العقل»^(١) . وقد قال رسول
الله ﷺ : «ثلاث يصفين ود المرء لأخيه المسلم : يلقاه بالبشر إذا لقيه ، ويوسع له في
المجلس إذا جلس إليه ، ويدعوه بأحب الأسماء إليه»^(٢) . وإن من التواضع : أن يبدأ
المسلم أخاه المسلم بالسلام لينال الأجر والزلفى . فـ «البادئ بالسلام أولى بالله
وبرسوله» ومن أخلاق المؤمن الإنفاق على قدر الإقتار والتوسع على قدر الوسع
وإنصاف الناس وابتدأه إياهم بالسلام عليهم»^(٣) . كما جاء في الحديث . وقد نهى
الدين الإسلامي عن الكلام قبل السلام ، فقد قال رسول الله ﷺ : «ابدأوا بالسلام قبل
الكلام فمن بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه»^(٤) .

(١)، (٢) أصول الكافي : ج ٢ ، ص ٦٤٣ ، باب التحيب إلى الناس .

(٣) أصول الكافي : ج ٢ ، ص ٢٤١ ، باب المؤمن وعلاماته .

(٤) أصول الكافي : ج ٢ ، ص ٦٤٤ ، باب التسليم .

ومن جملة تلك الآداب: المصافحة. فيستحب أن يصافح المسلم أخاه المسلم، فإن الذنوب تتساقط عنهما، لأن الله يريد بالمسلمين أن يكونوا متحابين متوادين، متآزرين متعاضدين، وهو القائل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: الآية ١٠]. وقد بالغ الدين الإسلامي في ذلك فعد المتباغضين من المؤمنين خارجين عن الإسلام حتى يصطلحا. روى أبو عبيدة الحذاء، قال: كنت زميل أبي جعفر عليه السلام وكنت أبدأ بالركوب ثم يركب هو، فإذا استويينا سلم وساءل مسائلة من لا عهد له بصاحبه وصافح، قال: وكان إذا نزل نزل قبلي، فإذا استويت أنا وهو على الأرض سلم وساءل مسائلة من لا عهد له بصاحبه، فقلت له يا بن رسول الله، إنك لتفعل شيئاً ما يفعله أحد من قبلك وإن فعل مرة فكثير، فقال: «أما علمت ما في المصافحة، إن المؤمنين يلتقيان فيص فح أحدهما صاحبه، فما تزال الذنوب تتحات عنهما كما يتحات الورق عن الشجر وإن ينظر إليهما حتى يفترقا»^(١) وفي حديث آخر: «إن المؤمنين إذا التقيا فتصافحا أدخل الله عز وجلّ يده بين أيديهما وأقبل بوجهه على أشدهما حباً لصاحبه، فإذا أقبل الله عز وجلّ عليهما بوجهه تحاتت عنهما الذنوب كما يتحات الورق عن الشجر»^(٢). ومعنى أدخل الله عز وجلّ يده بين أيديهما. أي أنزل عليهما عظيم رحماته وجزيل بركاته. على حد قوله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: الآية ١٠]. فإن الله تعالى لا يشبه مخلوقاته في شيء: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية ١١]. فيستحب للمسلم أن يلاقي أخاه المسلم بالتسليم والتصافح وأن يفارقه بالاستغفار، وأن من يلزم التصافح أعظم أجراً من الذي يدع. وكان رسول الله ﷺ إذا لقيه الرجل فصافحه لم ينزع يده من يده حتى يكون الرجل هو الذي ينزعها. وقد عظم الله تعالى أجر المؤمن حتى جعله أعلى منزلة من الملائكة، فقد جاء في الحديث: «مصافحة المؤمن أفضل من مصافحة الملائكة»^(٣).

كل هذه الآداب، ليستكمل المؤمن مكارم الأخلاق ويتكامل في عالم الوجود. وأهم أدب يتأدب به المؤمن ويقربه إلى الله بل يجعله أهلاً ليكون من المقربين هو

التواضع وقطع الكبرياء عن نفسه، فإن في كثير من النفوس شيئاً من الزهو والكبر والتبختر والتعجرف، ولا تخضع هذه النفس لله الذي خلقها ولا تسجد له ولا تطيعه في عالم النكامل ما لم تقلع داء الكبرياء عنها، فالبدء بالسلام والمصافحة وتعظيم أمر الأخ المؤمن ممهّدات لقلع صفة الكبر وقمعها. وإن طرد إبليس عن الساحة القدسية الإلهية لم يكن إلا لتكبره وخيلائه. فـ «أكثر أهل النار المتكبرون»^(١) كما جاء في الحديث.

وفي تحف العقول: أن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام مرّ برجل من أهل السواد دميم المنظر، فسلم عليه ونزل عنده وحادثه طويلاً، ثم عرض عليه السلام عليه نفسه في القيام بحاجة إن عرضت له. فقبل يا ابن رسول الله أنتزل إلى هذا ثم تسأله عن حوائجك وهو إليك أحوج؟ فقال عليه السلام: «عبد من عبید الله وأخ في كتاب الله وجار في بلاد الله، يجمعنا وإياه خير الآباء آدم عليه السلام وأفضل الأديان الإسلام ولعل الدهر يرد من حاجتنا إليه فيرانا - بعد الزهو عليه - متواضعين بين يديه»، ثم قال عليه السلام:

نواصل من لا يستحق وصالنا مخافة أن نبقي بغير صديق^(٢)
وكان علي بن موسى الرضا عليه السلام إذا خلا ونصبت الموائد أجلس على مائدته ممالئكه ومواليه حتى البواب والسائس^(٣). وقد روى الكليني في الكافي أن الرضا عليه السلام دعا يوماً في سفره إلى خراسان بمائدة له، فجمع عليها موالیه من السودان وغيرهم، فقال له بعض أصحابه، جعلت فداك، لو عزلت لهؤلاء مائدة، فقال عليه السلام: «مه، إن الرب تبارك وتعالى واحد والأم واحدة والأب واحد والجزاء بالأعمال»^(٤).

لنتعلم مكارم الأخلاق من أئمة نوروا الأرض بنور كمالهم وكانوا مثلاً علياً للفضائل وكمال الصفات، لا في إعطاء الأحكام والتشريع فحسب، بل كانوا في حياتهم العملية فوق ما يملونه من أحكام. فقد روى إبراهيم بن العباس: أن الرضا عليه السلام

(١) وسائل الشيعة: ج ١٥، ص ٣٧٨، باب ٥٨.

(٢) تحف العقول: ص ٤١٣.

(٣) عيون أخبار الرضا: ج ٢، ص ١٨٤، باب ٤٤.

(٤) الكافي: ج ٨، ص ٢٣٠، حديث بأجوج ومأجوج.

ما جفا أحداً بكلام قط ولا قطع على أحد كلامه حتى يفرغ منه ، وما رد أحداً عن حاجة قدر عليها ، ولا مد رجله ولا اتكأ بين يدي جليس له قط ، ولا شتم أحداً من مواله ومماليكه ولا تفل قط ولا تفهقه في ضحكك ، بل كان يتبسم ^(١) .

نعم ، هذه صفات يحق للإنسان أن يدعي بها خليفة الله في أرضه . فقد جعل الله للإنسان مثلاً أعلى لا يعقل أن يتصور مثلاً أسمى منه مهما حلقتنا في جو الخيال واستلهمنا العلم والحكمة ، ذلك المثل الأعلى هو إنسان قد بلغ مراتب من الكمال ، يحق له أن يدعي خليفة الله في أرضه على حد قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَتَذَكَّرُ أُنثَاهُمْ يَا آدَمُ أَنْبَأْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة: الآيات ٣٠/٣٣] . فالأئمة الأطهار عليهم السلام هم المثل العليا وخلفاء الله في أرضه .

إن هذه الآيات الشريفة تصرّح بأن أنواع العلوم والمعاني التي لم تصل إليها الملائكة مغروسة في جبلة الإنسان ، وإذا كان الإنسان من سمو الفطرة وشرف التكوين في درجة تسجد له الملائكة فأى وازع أقوى من هذا ، يزرعه عن مقارنة الرذائل ومقارنة الخسائس . وأي دافع أشد منه يدفعه لطلب الغايات البعيدة وبلوغ النهايات القصوى وذلك بالتمسك بالكتاب والعترة الطاهرة عليهم السلام .

لو تتبعتم الدين الإسلامي لرأيتم أنه يهدف في جميع شرايعه ونظمه وتعاليمه إلى تكميل النفس الإنسانية وإبلاغها أعلى مراتب الكمال .

أنظروا كيف يعرف علي عليه السلام الإيمان ويحصره في مقدسات أخلاقية فيها الكمال الإنساني . إنه عليه السلام يقول : «علامة الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضررك على الكذب حيث ينفعلك ، وأن لا يكون في حديثك فضل عن علمك ، وأن تتقي الله في حديث

غيرك^(١). ولا يخفى أن الإنسان لا يبلغ هذه الدرجة من الكمال الأخلاقي إلا بالتقوى ولا تعلم مراتب التقوى ولا تدرك إلا بأداء واجب الشكر لله تعالى، ولا يمكن أداء واجب الشكر إلا بعبادات يتخللها خشوع وخضوع وإقبال نفسي حقيقي. فمن ظن أنه يبلغ مراتب أخلاقية دون أن يعبد الله حق عبادته فهو كـ ﴿أَمْ مَنْ أَسْكَسَ بُيُوتَكُمْ عَلَى شَفَا جُرُيِّ هَارٍ فَأَتَاهَا فِي نَارٍ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: الآية ١٠٩].

نعم، إن العبادات واجباتها ومستحباتها، والمدنسات، محرماتها ومكروهاتها وما قرره الشرع من زكاة وخمس وصدقات واجبة ومستحبة وحج وجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى غير ذلك، توصل الإنسان إلى الغاية العظمى التي خلق من أجلها الإنسان وهي الكمال النفسي، إن الفيلسوف قد يعين بصورة ناقصة المثل الأعلى ولكنه لا يقوى أبداً على عرض الوسائل الناجعة التي يبلغ بها الإنسان إلى تلك المثل العليا. والدليل على ذلك هو نفس الفيلسوف الناقصة، تلك النفس التي لم تخط في مساحات الكمال: في مجالات تزكية النفس وتطهيرها شبراً. فكيف يريد أن يكون مربياً للعالم وهو أحوج الناس إلى التربية النظرية والعملية في حقل الكمال النفسي.

فطوبى لمن وعى الحق والحقيقة وأقبل على نفسه فأصلحها ولم تأخذه في الله لومة لائم، وارتحل من هذه الدنيا بنفس زكية إلى خلود كله سرور وحبور وجله سعادة وهناء لا يتخلله كدر ولا شقاء.

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهيَ الْحَيَوانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٦٤].

التربية الاجتماعية في الإسلام

الإنسان اجتماعي بالطبع، فلا يمكن أن يعيش بصورة منفردة. ولا بد له من الاجتماع والتعاون. ولكن إن لم يبن هذا الاجتماع على أسس مشروعة صحيحة أدى إلى

(١) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج ٢٠، ص ١٧٥.

الفساد والإفساد كما نشاهد اليوم . وقد يشذ الإنسان عن الاجتماع المرضي عند الله تعالى أو لا يؤدي واجبه نحو المجتمع . أو لا يعلم كيف يقوم بواجبه الاجتماعي في كثير من الأحيان . لذلك عنت الأديان السماوية بالتربية الاجتماعية والأخوة والتراحم والتعاطف والتوادر وصلة الرحم والرفق وإطعام البؤساء والمساكين واكسائهم . وأكملها وخاتمها الدين الإسلامي . فقد اهتم بالتربية الاجتماعية وشؤون المجتمع إلى حد بعيد .

ففي الحديث : «من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم» . وقال رسول الله ﷺ : «أنسك الناس نسكاً : أنصحهم جيداً وأسلمهم قلباً لجميع المسلمين»^(١) .

إن المربين لشعورهم بحاجة المجتمع الإنساني وحيوية قوة الاجتماع ، فقد أدخلوا التربية الاجتماعية في مناهجهم وخصصوا لها أبحاثاً وفصولاً وكتباً خاصة . إن التربية الفردية أو الاستقلالية كانت قد تغلغلت في المدارس منذ زمن غير بعيد؛ ومن مظاهرها تخصيص رحلة خاصة لكل طالب وخزانة خاصة ومختبر خاص ومجموعة خاصة من نماذج النبات والحيوان والأحجار أو قطعة أرض يزرعها الطالب بيده إلى ما هنالك .

لم يكن هنالك اهتمام خاص بالتربية الاجتماعية . ولكن (فرويل) مؤسس جنينات الأطفال قد تنبه إلى هذا النقص ، فقال : «إن المجتمع الحاضر يختلف عن الجمعيات القديمة بأن روحاً تسمى بالروح الاجتماعي . فعلى الأفراد أن يوحّدوا المعنوية لينجحوا ويحصلوا على نتيجة محسوسة كما هم فاعلون في الحياة المادية وعلينا تقوية التشبث الفردي في التلاميذ بالألعاب على أن تعقب غاية مشتركة اجتماعية فيكون سرور اللعب مخلوطاً بعمل اجتماعي» .

إن الله تبارك وتعالى قد أودع في الطفل جميع القابليات التي من جرائها يكون الطفل فمرداً كاملاً مفيداً لنفسه ولمجتمعه . إلا أن الإنسان لعدم تفهمه الحياة قد يضغط على هذه القابليات فلا يدعها أن تبرز وتنمو . فالوالدان أو المدرسة كثيراً ما يمنعون الأطفال من الألعاب الاجتماعية أو الفعاليات المشتركة الاجتماعية ، ساهين إنّ ما من طبيعة أو غريزة أودعها الله تبارك وتعالى في الطفل إلا ولها فائدة تعود عليه وعلى المجتمع بالخير

(١) أصول الكافي: ج ٢، ص ١٦٣، باب الاهتمام بأمور المسلمين .

لو استعملت واستخدمت حسب قوانين يقرها العقل والشرع . كان علماء التربية إلى زمن غير بعيد يعترفون بمبادئ ثلاثة للطفل : بدنية وعقلية وخلقية وقد فاتهم أن يضيفوا عليها المبدأ الاجتماعي الذي أو شك اليوم أن يسود على المبادئ الأخرى .

يقول (جون دوي) : الفيلسوف الأمريكي في مقاله : (المدرسة والرقى الاجتماعي) : «الجمعية مؤسسة من أفراد يسعون بفكرة واحدة وشعور واحد معقبين غاية مشتركة . فإن اشتراك الآمال والحاجات في الجمعيات مما يزيد في تصادم الأفكار ويؤدي إلى تجاذب متقابل . وإن ما يمنع مدارسنا عن الرقى الاجتماعي خلوها عن الوحدة الاجتماعية في الألعاب والنزه . فالأطفال حين شروعهم بلعب يقسمون الأعمال فيما بينهم ويعينون وظيفة لكل واحد منهم . وإن أفدح نقص في مدارسنا اليوم اهتمامها بتربية الطلاب في بيئة غير جامعة لمزايا اجتماعية» . نعم ، إن المدارس الحديثة قد أخذت تربي الطلاب تربية اجتماعية بتوزيع مقدمات الدرس ووسائل الإيضاح على ثلة من الطلاب وحملهم على التتبعات المشتركة بشكل اجتماعي . وتشكيل جمعيات مختلفة إلى ما هنالك .

وقد يظن أن التربية الاجتماعية من مكتشفات القرن العشرين ، مع أن الدين الإسلامي قد أيد الناحية الاجتماعية إلى حد بعيد . بل إن الدين الإسلامي دين اجتماعي بجميع مظاهره وتعاليمه وذلك بشكل يتناسب مع التكامل الروحي ، يتناسب مع الغرض الأسمى الذي خلق الإنسان لأجله . وأي اجتماع خير من اجتماع المسلمين عدة مرات في صلاة الجماعة في جو تعلوه الطمأنينة وتغشاه رحمة رب العالمين .

يعيش الإنسان في حياته اليومية في عالم من عدم المساواة وعالم من منازعات وعداء وبغضاء . وإن حياة الأخوة الإلهية التي تتجلى في صلاة الجماعة تعدل نواقص الحياة الاجتماعية وتلقي دروساً قيمة عن الود والمحبة والمساواة وتدعم قواعد الوحدة ورفاهية الجنس البشري .

إن صلاة الجماعة درس عملي لتطبيق قواعد الإخاء والمودة الإلهية وإيجاد مجتمع متأزر متعاقد على أساس الإيمان الصحيح . وهكذا تتجلى الأخوة الإسلامية في صلاة العيد وصلاة الجمعة والحج وتشجيع الجنائز والتزاور والتلاقي والمصافحة والمعانقة .

والفرق الأساسي بين التربية الاجتماعية الإسلامية والتربية الاجتماعية الغربية هو أن التربية الاجتماعية الإسلامية ترمي إلى تربية النفس والبدن معاً، فتزكو النفس وتسير إذ ذاك في ساحات الكمال حيث لا حد ولا انتهاء. وهو التقدم في عالم الصناعة وإيجاد وسائل الراحة فحسب، فلا تنفذ إلى الروح الإنسانية ولا تعمل في تكميلها وتهذيبها وتطهيرها من الدنس والرجس ومن آثارها: هذه الحروب التي لا تبقي ولا تذر.

فجدير بالمسلم أن لا ينخدع بمظاهر الغرب، فإن النفوس غير المؤمنة لا يترجى منها الخير، وأن يعلم أن تراثه في عالم التربية وتكامل النفس غنيّ وغنيّ جداً ولا يحتاج أن يأخذ شيئاً من الغربي في التربية الاجتماعية والأخلاقية والمدنية ففي شريعة الإسلام الغراء يجد الإنسان الكمال الأخلاقي بأوسع معانيه الفلسفية السامية. ومما يؤسف له أن ثلة من شبابنا يذهبون إلى الغرب لتعلم بعض العلوم الاجتماعية والتخصص فيها! فيحسبون أن ما يمليه الأستاذ أو الدكتور حقائق ثابتة لا شبهة فيها، ويزعمون أن الدين الإسلامي لم يعالج القضايا الاجتماعية ولم يقل فيها قوله الفصل المؤدي إلى الكمال البشري، فيسخرون من الدين ويستهزئون بعلماء الدين ويعبرون عنها بكتب صفراء شأن الجاهل الذي يعادي ما جهله. ولو أن هؤلاء تخصصوا في الفلسفة الإسلامية وآدابها أو درسوا الدين الإسلامي وعملوا به قبل التخصص في فرع آخر، وورعوا واتقوا وجانبوا المعاصي والآثام، لعدّوا هفوات دكاترة الاجتماع وأساتذة الأخلاق، وخرجوا من حدود التقليد الأعمى إلى التفكير الصحيح والجرح والتعديل. ولكن هيهات!

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: الآية ١٨٢].

ومن هؤلاء الذين يتخصصون في الدراسات الاجتماعية من يركبه الغرور إلى درجة يستهزئ في كتاباته بعبارات المتدينين التي مفادها: التوكل على الله تعالى في الأمور، وتفويض الأمر إليه مع عمل متواصل وجد واجتهاد. فيقول دونما مناسبة: (معاذ الله) وأمثال ذلك. فكأنه غنيّ عن التعوذ بالله تعالى من مكائد الشيطان. وقد فاته أن الدراسات الاجتماعية من أسهل المواضيع تخصصاً، وأسرعها تناولاً، ولو أدخل هذا المتخصص في فرع من فروع علم الاجتماع، جبراً، في فرع من العلوم الرياضية أو الفلكية أو الفيزيائية لرُسب حتماً ولما نال هذا اللقب المغري (دكتوراه: Doctorat) ولما تكبر وتجبر

ولا اعترف بالجهل، والاعتراف بالجهل يفتح على الإنسان أبواب الهداية.

إن العلوم الاجتماعية لا تضبط بضابط من حيث الصحة والسقم كالعلوم الرياضية والكيميائية والفيزيائية. فليس هناك كما يدعي (Determinisme) لتضارب الآراء فيها وتغير هذه الآراء من حين لآخر، حتى أنك ترى أن الفيلسوف يغير رأيه في موضوع واحد طيلة حياته مرات مع اتحاد الظروف.

فإذا كان العالم الاجتماعي غير عامل بالدين ومستهتراً بالمقدسات، فلا يترشح من كتاباته في موضوع الدين إلا ما يناسب نفسيته التي أخذت تتسافل بالمعاصي والآثام. لأنه أمسى بذلك لا يبصر الحق ويظن (الشهادة قد نالها) أنه قد بلغ الغاية من التبع والتحقيق. إن الله تعالى يقول:

﴿بَكَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّكَارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: الآية ٨١].

فلو أحاطت الخطايا بفرد من الأفراد فلا يترشح منه إلا ما يناسب تلك الخطايا والسيئات. «وكل إناء ناضج بالذي فيه». وبديهي أن الإنسان لو حاد بسوء اختياره عن الصراط السوي فإن الله تعالى يبعده عن ساحة القدس، وهذه سنة الله في خلقه ﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ [غافر: الآية ٨٥]. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصّف: الآية ٥].

ولو كان يشك هذا العامل الاجتماعي في ما أقول فليعمد إلى تجربة منجية: فليقم بتطبيق جميع ما أمر به الدين وليتبه عما نهى عنه الدين ثم ليأت بشيء من المستحبات، فإنه سوف لا يقول بما كان يقول به قبلاً متبخترأ مغروراً. بل يندم على مقالاته المضلة ويبرأ إلى الله تعالى منها، مستغفراً، منيباً.

ولنختم هذا المقال بذكر درر من الأحاديث في التساند الاجتماعي.

تساند يأمر به الدين الإسلامي ولا يعمل به (مع الأسف) المسلمون إلا أفراداً قلائل. يقول أبو عبد الله عليه السلام: «عليك بالنصح لله في خلقه. فلن تلقاه بعمل أفضل منه»^(١).

وقوله سلام الله عليه أيضاً: «من لم يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم»^(١).
 وعن النبي ﷺ: «من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم. ومن سمع رجلاً
 ينادي يا للمسلمين فلم يجبه، فليس بمسلم»^(٢).
 وعن رسول الله ﷺ: «الخلق عيال الله. فأحب الخلق إلى الله من نفع عيال الله
 وأدخل على أهل بيت سروراً»^(٣).
 وقال ﷺ أيضاً: «من رد عن قوم من المسلمين عادية ماءً أو ناراً، وجبت له الجنة»^(٤).
 وقال الصادق عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ [مریم]:
 الآية [٣١]. قال: نفاعاً^(٥).
 فيجدر بالمسلم أن يطلع على هذه الكنوز الثمينة من آداب دينه وأن يملئها بلسان
 فلسفي وتحليل علمي والهام رباني (يأتيه من ناحية التقوى والورع) على أساتذة الغرب
 وفلاسفتها، فيكون معلماً قبل أن يكون متعلماً. ومؤثراً قبل أن يكون متأثراً. ومن الله
 التوفيق ولا توفيق إلا بعمل صالح.

الإنفاق في الإسلام

إن الأديان السماوية برمتها تأمر بالرحمة والشفقة والرفق والإحسان. وخاتمتها
 وأكملها الدين الإسلامي الذي جاء به خاتم النبيين محمد ﷺ رحمة للعالمين لقوله
 تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ١٠٧]. فكل أمة تعمل
 بنصوص هذا الدين تكون في سلام ودعة وطمأنينة، لا ترى فيها فقيراً ولا مسكيناً ولا
 بائساً ولا جائعاً ولا عارياً. فالناس كلهم، إذ ذاك، في دعة ورغد ورفاهية تامة كل
 بحسبه. وهذا شأن الدين الكامل، فإنه يؤسس مدنية فاضلة لا ترى في أية ناحية منها
 خللاً يحتاج إلى إصلاح بشري.

وقد شاهدنا النظم البشرية والقوانين الموضوعة، تتبدل من وقت إلى وقت ومن
 حين إلى حين. يشعر الواضعون فيها بالنقص، فيصلحون ما أعوج منها وإذا بهم أمام

(١)، (٢)، (٣)، (٤)، (٥) أصول الكافي: ج ٢، ص ١٦٤، باب الاهتمام بأمور المسلمين.

نقص آخر أو عيب آخر . فالواضعون يضعون القوانين والمصلحون يصلحون والبشر في تعب وعناء وفي خسر وويل .

أتى لهذا البشر الذي قد حُدد عقله أن يأتي بشيء كاملاً لا نقص فيه ، إما أن يأتي بشيء خيالي لا مجال لتطبيقه ، وإما أن يأتي بشيء يصلح ناحية ويفسد نواحي عدة ، ذلك لأن النفس التي تضع هذا القانون مهما أوتيت من عقل وتفكير محكومة تجاه شهواتها وميولها ورغباتها وشعورها وانطباعاتها السابقة والظروف التي تحيط بها والبيئة التي تعيش فيها .

يقولون : يجب أن يتناسب النظام مع البيئة . أو يجب أن يؤخذ القانون من روح المحيط . فنجيبهم ما قولكم في بيئة فاسدة ، في بيئة متفسخة ؟ أو هل يصلحها نظام يضعه من هو حامل جرائم تلك البيئة ؟

يقولون : إن الحاجات تتجدد من وقت إلى وقت ، فيجب أن تتغير التعاليم الدينية حسب الحاجات الحادثة . فنقول : إن الله تبارك وتعالى أعلم بحاجات البشر الحقيقية التي تضمن سعادة الدارين من هذا البشر الناقص .

وإن الحاجات الجديدة تعالج ، وتسن لها قوانين على ضوء المبادئ الإسلامية العامة والأصول المقررة في علم أصول الفقه . نعم ، إن النظام يجب أن يكون مجرداً عن الأهواء والتأثيرات الخارجية والداخلية آتياً من منبع فياض زكي نقى لا كدر فيه .

النظام هو نظام الأنبياء ، والقانون هو ما سنّوه ودوّنوه . فلا سعادة للبشر ولا هناء إلا إذا اتبعت النظم السماوية . وإن أكملها وأسماها هي النظم الإسلامية الخالدة التي تكفل سعادة الإنسان في جميع مرافق الحياة الدنيوية فضلاً عن الحياة الأخروية الخالدة . فإن الدين الإسلامي ليس مجموعة عبادات فحسب بل هو مجموعة قوانين رصينة وتعاليم خالدة تعيّن وظيفة الإنسان في معاملاته ومتاجره وفي حياته الشخصية والاجتماعية والمدنية . إلا أن الأهواء البشرية قد طغت عليها ، فمنعت تعميمها في أرجاء العالم وبذلك بغت على البشرية المسكينة ، فتاه الناس في دياجير الظلمات وكانت نتيجة ذلك ظهور مبادئ هدامة . وإن أشنع هذه المبادئ الهدامة وأفسدها لهو المبدأ الشيوعي ، وهذا المبدأ هو عصارة المذهب المادي الذي انتشر في أوروبا باسم

العلم والعلم منه بريء. هو نتيجة شيوخ الفحشاء والمنكرات في الغرب، فرجع بثلة من البشرية المسكينة إلى جاهلية جهلاء.

وما أثر العلم إن لم يقترب بالدين، أي يتحد بنفس زكية طاهرة تعمل حسبما أمر به الدين وإن ظهور مثل هذا المبدأ المميت لأمر طبيعي إذا ما درسنا طيش أوروبا وانغمارها في الشهوات والمنكرات طيلة قرون. «فكل إناء بالذي فيه ينضح».

لو أردنا أن نعلم صحة مسلك من المسالك، فلننظر إلى واضعيه، فإن كانوا أناساً صلحاء في حياتهم الشخصية والعائلية والاجتماعية، يخافون الله ويؤمنون باليوم الآخر لا تجرفهم أطماع الدنيا وزيتها وحب الرئاسة جاز لنا أن نفكر في تحقيق هذا المسلك وأن نعرضه على النصوص القرآنية والسنة النبوية والنظم الإسلامية الخالدة فإن وافق فذاك، وإلا ضربنا به عرض الجدار.

إن الدين الإسلامي حث على الإنفاق والبذل والكرم واقراء الضيف والتصدق وإيتاء الزكاة والخمس ضمن آيات عديدة في القرآن الكريم وأحاديث جمعة عن النبي ﷺ والأئمة ﷺ. وقد عمل بذلك النبي الكريم ﷺ والأئمة الأطهار ﷺ بمقياس مثالي واسع. فلنقتف آثارهم ليسود السلام في العالم ويهنا البشر قاطبة.

إن الإنفاق في الدين الإسلامي على نوعين: مستحب مؤكد، يكاد يكون واجباً، وواجب مفروض.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَمْعَ سَائِلٍ فِي كُلِّ سَبِيلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة: الآية ٢٦١]. ماذا يريد الإنسان؟ أجزاء أعظم من هذا الجزاء، وهذا هو الإنفاق المستحب إستحباً مؤكداً، لو عمل به لأصبح الناس كلهم في رفاهية تامة ولزال الفقر، وهو غير الزكاة الواجبة.

إن الزكاة الواجبة نفسها تكفي الفقراء والمعوزين والمحتاجين. ذلك لأن الإمام أبا عبد الله ﷺ يقول: «إن الله فرض الزكاة كما فرض الصلاة، فلو أن رجلاً حمل الزكاة وأعطائها علانية لم يكن عليه في ذلك عيب وذلك أن الله فرض في أموال الأغنياء للفقراء ما يكتفون به ولو علم أن الذي فرض لا يكفيهم لزادهم، وإنما يؤنى

الفقراء^(١) فيما أتوا من منع من منعهم حقوقهم لا من الفريضة^(٢). يقول الله جلّ وعلا: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: الآية ٢٦٢]. هذا، الإمام الحسين عليه السلام يقد عليه أعرابي وهو في المسجد فيراه مصلياً يقف بإزائه وينشئ قائلاً:

لم يخب الآن من رجاك ومن حرّك من دون بابك الحلقة
أنت جواد وأنت معتمد أبوك قد كان قاتل الفسقة
لولا الذي كان من أوائلكم كانت علينا الجحيم منطبقة
فسلم الحسين عليه السلام من صلاته وقال: «يا قنبر، هل بقي من مال الحجاز شيء؟»
قال: «نعم أربعة آلاف دينار». فقال: «هاتها، قد جاء من هو أحق بها منا». ثم نزع
بردته ولف الدنانير بها وأخرج يده من شق الباب حياءً من الأعرابي وأنشأ يقول:
خذها فلاني إليك معتمد واعلم بأنني عليك ذو شفقة
لو كان في سيرنا الغداة عصا أمست سماناً عليك مندفقة
لكن رب الزمان ذو غير والكف منا قليلة النفقة
فأخذها الأعرابي وبكى، فقال الحسين عليه السلام: «لعلك استقلت ما أعطيناك» قال:
«لا، ولكن كيف يأكل التراب جودك»^(٣).

هذا نموذج من الكمال الإنساني في الإنفاق، لا يقوى عليه البشر العادي.

المثل العليا في الإنفاق

إن الدين الإسلامي حث كثيراً على الإنفاق المستحب وهو غير ما فرض الله تعالى من زكاة وخمس. يقول الله جلّ وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طِبْعَتِ مَا كَسَبْتُمْ

(١) معنى: يوتى الفقراء فيما أتوا: أي يتلون بما يتلون به.

(٢) الكافي: ج ٣، ص ٤٩٨، باب فرض الزكاة.

(٣) مناقب آل أبي طالب: ج ٤، ص ٦٥.

وَمِمَّا أَرْجَبْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ ﴿البقرة: الآية ٢٦٧﴾ . قال أبو عبد الله عليه السلام: «إن الزكاة ليس يحمد بها صاحبها وإنما هو شيء ظاهر، إنما حقن بها دمه وسمى بها مسلماً». فقلت: «أصلحك الله، وما علينا في أموالنا غير الزكاة؟». فقال: «سبحان الله، أما تسمع الله عز وجل يقول: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٧﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾». ثم قلت: ماذا الحق المعلوم الذي علينا؟ فقال: «هو والله، الشيء الذي يعلمه الرجل في ماله، يعطيه في اليوم أو في الجمعة أو في الشهر، قل أو كثر. غير أنه يدوم عليه». قال: «وقلت: قوله عز وجل: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ [الماعون: الآية ٧] فقال: «هو القرض يقرضه، والمعروف يصطنعه ومتاع البيت يعيره وليس منه الزكاة». فقلت له: «إن لنا جيراناً، إذا أعرناهم متاعاً كسروه وأفسدوه، أفعلينا جناح أن نمنعهم؟» قال: «لا، ليس عليكم جناح أن تمنعوهم إذا كانوا كذلك». قال قلت له: «ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيمماً وأسيراً؟» قال: «ليس من الزكاة». قال: فقلت له: قوله عز وجل: ﴿إِنْ بُدِّدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفَوْهَا وَتُؤْتَوْهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: الآية ٢٧١]؟ قال: «ليس من الزكاة. وصلتك قرابتك ليس من الزكاة»^(١).

وقد ذكر الزمخشري في تفسيره ما لفظه: «إن الحسن والحسين مرضا فعادهما رسول الله في ناس معه، فقالوا: يا أبا الحسن، لو نذرت على ولديك. فنذر علي وفاطمة وفضة جارية لهما إن برءا مما بهما أن يصوموا ثلاثة أيام. فشفيا وما معهم شيء، فاستقرض علي عليه السلام من شمعون الخبيري اليهودي ثلاثة أصوع من شعير، فطحنت فاطمة صاعاً واختبزت خمسة أقراص على عددهم. فوضعوها بين أيديهم ليفطروا، فوقف عليهم سائل. فقال: السلام عليكم أهل بيت محمد، مسكين من مساكين المسلمين، أطعموني، أطعمكم الله من موائد الجنة. فآثروه وياتوا لم يذوقوا إلا الماء وأصبحوا صياماً. فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقفل عليهم يتيم فآثروه. ووقف عليهم أسير في الثالثة ففعلوا مثل ذلك، فلما أصبحوا أخذ علي عليه السلام بيد

الحسن والحسين وأقبلوا إلى رسول الله ﷺ فلما أبصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع قال: ما أشد ما يسوؤني مما أرى بكم وقام فانطلق معهم فرأى فاطمة في محرابها قد التصق بطنها بظهرها وغارت عيناها فساء ذلك. فنزل جبرائيل عليه السلام وقال: خذها يا محمد، هناك الله في أهل بيتك فأقرأه السورة وهي سورة الدهر ومنها: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرُونَ مِنْ كَاسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۖ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۖ يُؤْتُونَ بِالنَّذْرِ وَيَحْكُمُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۖ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ وَبِسَتْ لَبَاسُهُمْ ۚ وَيُؤْتُونَ فِيهَا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ فِيهَا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ فِيهَا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ﴾ [الإنسان: الآيات ٨/٥] (١).

وأما علي عليه السلام فقد روى المفسرون أنه كان لا يملك إلا أربعة دراهم، فتصدق بدرهم ليلاً وبدرهم نهاراً، وبدرهم سراً وبدرهم علانية فأنزل الله فيه: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِتْيَالِ وَالْإِنْهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [البقرة: الآية ٢٧٤]، وكان يستقي بيده لنخل قوم من يهود المدينة حتى مجلت يدها ويتصدق بالأجرة ويشد على بطنه حجراً (٢).

قال الشعبي: «كان علي أسخى الناس، كان على الخلق الذي يحبه الله: السخاء والجود، وما قال: لا، لسائل قط». وقد قال فيه معاوية: «لو ملك علي بيتاً من تبر وبيتاً من تبين لأنفق تبره قبل تبينه». وهو الذي كان يكنس بيوت الأموال ويصلي فيها وهو القائل: «يا صفراء ويا بيضاء غري غري» (٣). ولم يخلف ميراثاً وكانت الدنيا كلها بيده إلا ما كان من الشام. وهو الذي عمل بآية النجوى وتصدق دون غيره.

وأما الحسن بن علي عليه السلام، فكما روى أبو نعيم في الحلية، قاسم الله ماله ثلاث مرات. وقد روى في المناقب أن رجلاً سأله فأعطاه خمسين ألف درهماً وخمسمائة ديناراً. وقال: ائت بحمال يحمل لك. فأتى بحمال فأعطاه طيلسانه وقال هذا كراء الحمال. وجاءه أعرابي، فقال الحسن عليه السلام: أعطوه ما في الخزانة. فوجد فيها عشرون ألف درهماً. فدفعها إليه. فقال الأعرابي يا مولاي ألا تركتني أبوح بحاجتي وأنثر مدحتي، فأنشأ الحسن عليه السلام يقول:

(١) سعد السعدي: ص ١٤١.

(٢)، (٣) بحار الأنوار: ج ٤١، ص ١٤٣، باب ١٠٧.

نحن أناس نوالنا خضل يرفع فيه الرجاء والأمل
تجود قبل السؤال أنفسنا خوفاً على ماء وجه من يسأل^(١)
وروى المدائني قال: خرج الحسن والحسين عليهما السلام وعبد الله ابن جعفر، حجاجاً
ففاتهم أثقالهم، فجاعوا وعطشوا فراوا عجوزاً في خباء، فاستسقوها فقالت: هذه
الشوية، احلبوها وامتدقوا لبنها، ففعلوا. واستطعموها فقالت: ليس عندي إلا هذه
الشاة، فليذبحها أحدكم. فذبحها أحدهم وكشطها ثم شوت لهم من لحمها فأكلوا
وقالوا عندها. فلما نهضوا قالوا: نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه. فإذا عدنا فألمي
بنا فإننا صانعون بك خيراً. ثم رحلوا. فلما جاء زوجها أخبرته. فقال: ويحك تذبحين
شاتي لقوم لا تعرفينهم ثم تقولين نفر من قريش.

ثم مضت الأيام فأضرت بها الحال. فرحلت حتى اجتازت بالمدينة، فرآها
الحسن عليه السلام فعرفها. فقال لها: «أتعرفينني». قالت: «لا» قال: «أنا ضيفك يوم كذا
وكذا». فأمر لها بألف شاة وألف دينار وبعث معها رسولاً إلى الحسين عليه السلام فأعطاهما
مثل ذلك ثم بعثها على عبد الله بن جعفر فأعطاهما مثل ذلك^(٢).

والحسن صلوات الله عليه كان مع هذا الجود المثالي في غاية التواضع. يمر على
فقراء وقد وضعوا كسيرات على الأرض وهم قعود يلتقطونها. فقالوا هلم يا ابن رسول
الله إلى الغذاء. فنزل وقال: إن الله لا يحب المتكبرين. وجعل يأكل معهم حتى اكتفوا
والزاد على حاله ببركته. ثم دعاهم إلى ضيافته وأطعمهم وكساهم. فهذا نموذج من
الأخلاق الإسلامية المثالية.

وفي المناقب عن يعقوب بن إسحاق النوبختي، قال: «مرّ رجل بأبي الحسن
الرضا عليه السلام فقال له: أعطني على قدر مروءتك، قال: لا يسعني ذلك، فقال: على قدر
مروءتي. قال: أما هذا فنعم. ثم قال: يا غلام، أعطه مائتي دينار». قال: «وفرق عليه السلام
بخراسان ماله كله في يوم عرفة». فقال له الفضل بن سهل: «إن هذا لمغرم». فقال:

(١) مناقب آل أبي طالب: ج ٤، ص ١٦.

(٢) بحار الأنوار: ج ٤٣، ص ٣٤٨، باب ١٦.

«بل هو المغنم. لا تعدن مغرمًا ما ابتعت به أجرًا وكرمًا»^(١).

وروى الكليني في الكافي بسنده عن اليسع بن حمزة قال: كنت في مجلس أبي الحسن الرضا عليه السلام وقد اجتمع إليه خلق كثير يسألونه عن الحلال والحرام، إذ دخل عليه رجل طوال آدم. فقال: «السلام عليك يا ابن رسول الله. رجل من محبيك ومحبي آبائك وأجدادك. مصدري من الحج وقد فقدت نفقتي وما معي ما أبلغ به مرحلة. فإن رأيت أن تنهضني إلى بلدي. والله عليّ نعمة، فإذا بلغت بلدي تصدقت بالذي توليني عنك. فليست موضع صدقة»: فقال له: «أجلس رحمك الله». وأقبل على الناس يحدثهم حتى تفرقوا وبقي هو وسليمان الجعفري وخيشمة وأنا. فقال: «أتأذنون لي في الدخول». فقال له سليمان: «قوم الله أمرك». فقام فدخل الحجرة وبقي ساعة، ثم خرج وردّ الباب وأخرج يده من أعلى الباب وقال «أين الخراساني؟» فقال: «ها أناذا». فقال: «خذ هذه المائتي دينار واستعن بها في مؤونتك ونفقتك وتبرك بها ولا تتصدق بها عني وأخرج فلا أراك ولا تراني». ثم خرج فقال سليمان: جعلت فداك، لقد أجزلت ورحمت. لماذا سترت وجهك عنه؟ فقال: «مخافة أن أرى ذل السؤال في وجهه لقضائي حاجته. أما سمعت حديث رسول الله ﷺ: المستتر بالحسنة تعدل سبعين حجة والمذيع بالسيئة مخذول والمستتر بها مغفور له». أما سمعت قول الأول: منى أنه يوماً لأطلب حاجة رجعت إلى أهلي ووجهي بمائة»^(٢)

الصدقات في الإسلام

إن الدين الإسلامي قد حثّ الناس على الإنفاق حثاً لا مزيد عليه، لو عملوا به لسادت الطمأنينة في العالم ولما وجد على وجه الأرض فقير. وهذا قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحْضُرْ عَلَى طَعَامِ الْيَسِيرِ ﴿٣﴾

(١) بحار الأنوار: ج ٤٩، ص ١٠٠، باب ٧.

(٢) الكافي: ج ٤، ص ٢٣، باب من أعطى بعد المسألة.

[الماعون: الآية ٧]. فجعل الله مآل دُعَ اليتيم وعدم الإهتمام بطعام المسكين: التكذيب بآياته تعالى ورسله وكتبه. فكان من دع اليتيم ولم يرفه عنه من فضول ماله ولم يحض على طعام المسكين تنسلخ عنه العقيدة الدينية شيئاً فشيئاً، تتوارد عليه الشكوك والأوهام وهو لا يعلم من أين أتاه هذا الانقلاب، وكيف أمسى مظلماً لا يرى شيئاً وراء المادة الزائلة، فلا تتسلى نفسه إلا باتخاذ مبادئ فاسدة تتناسب ونفسه المريضة الطائشة، ويزعم أنه بلغ من التفكير مرتبة أو وجد طريقاً جديداً يحل به مشاكل الحياة. وهذا عقاب لمانع اليتيم حقه والمسكين طعامه، وابتعاد عن رحمة الله وانطماس في ظلمات ما فوقها ظلمات. ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: الآية ١٤]. فتشوا عن أناس سخت نفوسهم فاهتموا بأمر اليتيم وحضوا على طعام المسكين، تروا نفوسهم منيرة وضاءة تحب الله وتحب الحق، تميل إلى الخشوع وتتوجه نحو صانعها وتعبد على قدر ما قامت بالأعمال الصالحة لوجه الله الكريم.

فالإيمان إذن عصارة الأعمال الصالحة، والتصديق بالدين مآل الإهتمام باليتيم والحض على طعام المسكين. لذلك كله قد حث الدين الإسلامي على الإهتمام بأمر الفقراء والمساكين وندب إلى التعطف على الضعفاء والأيتام بإعطاء زكاة واجبة ونفقات مندوبة وصلة الرحم وصدقات مستحبة. وقد يراد بالصدقات الزكاة الواجبة، ولسنا بصدد بيانها الآن.

ولقد قال أبو عبد الله عليه السلام: «لا يكمل إيمان العبد حتى يكون فيه أربعة خصال: يحسن خلقه، وتسخر نفسه، ويمسك الفضل من قوله، ويخرج الفضل من ماله»^(١). ولقد كان في وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمر المؤمنين عليهم السلام: «أوصيك في نفسك بخصال، أحفظها عني، ثم قال: اللهم أعنه... إلى أن قال: «وأما الصدقة فجهدك جهدك، حتى تقول قد أسرفت ولم تُسرف»^(٢) لذلك يبيع علي عليه السلام بستاناً له. فيعلم بذلك فقراء المدينة، فيرجع إلى بيته وليس معه شيء. ويستأجر دار للسكنى في الكوفة وهو خليفة

(١) وسائل الشيعة: ج ٩، ص ٣٧٢.

(٢) الكافي: ج ٤، ص ٥، باب فضل الصدقة.

المسلمين . ويحمل الطعام إلى فقراء الكوفة جوف الليل . حتى أن الحسن عليه السلام بعد رجوعه ليلاً من دفن والده سمع أنين مسكين عاجز في إحدى خرائب الكوفة ، فجاءه يسأله عن حاله ، فقال : كان لي رجل يأتيني كل ليلة بما أحتاحه من طعام وشراب وقد مضت ثلاث ليال لا أراه يأتيني ، فقال الحسن عليه السلام ذاك أبي ، قد قتل في محرابه .

وقد جعل الدين الإسلامي التصديق بالليل أفضل من التصديق بالنهار لأن صدقة السر تطفئ غضب الرب ، كما جاء في الحديث . كان أبو عبد الله جعفر الصادق عليه السلام إذا أعتم وذهب من الليل شطره أخذ جراباً فيه خبز ولحم ودراهم فحمله على عنقه ثم طاف به على أهل الحاجة من أهل المدينة فيقسمه فيهم وهم لا يعرفونه ، فلما مضى جعفر الصادق فقدوا ذلك فعلموا أنه كان أبا عبد الله ، أي الصادق عليه السلام ^(١) . نعم ، هذا دين يقول : «إصنع المعروف إلى من هو أهله وإلى من ليس من أهله فإن لم يكن هو أهله فكن أنت من أهله» ^(٢) .

هذا دين يقول : «إن الصدقة بالليل تدفع ميتة السوء وتدفع سبعين نوعاً من البلاء وإنها تطفئ غضب الرب» ^(٣) .

هذا دين يقول : «يستحب للمسلم أن يعول أهل بيت المسلمين ويختار ذلك على الحج وعلى العتق» .

هذا دين يقول : «اتقوا النار ولو بشق تمر» .

هذا دين يقول : «داووا مرضاكم بالصدقة» اهتماماً بأمر الفقراء .

هذا دين يقول : «يستحب لمعطي الصدقة أن يقبل يده بعد العطاء» ، ذلك لأن يده قد

تبركت وتيمنت ببركة عطفه على الفقير ، وفي الخبر : إذا أعطيته فأغنه . وقال علي عليه السلام : «إذا ناولتم السائل فليرد الذي ناوله يده إلى فيه ، فيقبلها ، فإن الله عز وجل يأخذها» ^(٤) .

(١) الكافي : ج ٤ ، ص ٨ ، باب صدقة الليل .

(٢) الكافي : ج ٤ ، ص ٢٧ ، باب فضل المعروف .

(٣) وسائل الشيعة : ج ٩ ، ص ٣٩٨ ، باب ١٣ .

(٤) بحار الأنوار : ج ١٠ ، ص ٩٨ ، باب ٧ .

هذا دين يقول: «إذا أملتكم فتاجروا الله بالصدقة». لذلك يقول الصادق عليه السلام لابنه محمد: «يا بني كم فضل معك من تلك النفقة، قال: أربعون ديناراً، قال: اخرج فتصدق بها. قال: إنه لم يبق معي غيرها قال: تصدق بها فإن الله يخليها، أما علمت أن لكل شيء مفتاحاً ومفتاح الرزق الصدقة، فتصدق بها؛ ففعل. فما لبث أبو عبد الله إلا عشرة أيام حتى جاءه من موضع أربعة آلاف ديناراً. قال يا بني: أعطينا الله أربعين ديناراً فأعطانا أربعة آلاف ديناراً»^(١).

يأتي شيخ من مهاجرة العرب رسول الله ﷺ وهو في المسجد والناس حوله وعلى الشيخ سمل قد تهلل وأخلق وهو لا يكاد يتمالك ضعفاً وكبراً فيقول: يا رسول الله، أنا جائع الكبد، فأطعمني وعاري الجسد، فاكسني وفقير، فأثرنني. فيقول له رسول الله ﷺ: ما أجد لك شيئاً، ولكن الدال على الخير كفاعله. انطلق إلى ابنتي فاطمة. وأمر بلالاً فوقف به على منزل فاطمة عليه السلام فنادى بأعلى صوته: السلام عليكم يا أهل بيت النبوة ومختلف الملائكة... يا بنت محمد، أقبلت على أبيك سيد البشر مهاجراً من شقة، عاري الجسد، جائع الكبد، فارحميني، يرحمك الله. وكان علي وفاطمة عليهما السلام ثلاثاً ما طعموا طعاماً.

فعمدت فاطمة إلى جلد كبش مدبوغ بالقرظ كان ينام عليه الحسن والحسين عليهما السلام وتعطيه الشيخ قائلة: عسى الله أن يتيح لك ما هو خير منه فيقول الشيخ أنا شكوت إليك الجوع، فناولتيني جلد كبش فما أنا صانع به مع ما أجد من السغب؟ فعمدت فاطمة عليه السلام إلى عقد في عنقها، أهدها إليها فاطمة بنت عمها حمزة، فتقطعه من عنقها وتنذه إلى الأعرابي، وتقول: خذ وبعه. فعسى الله أن يعوضك بما هو خير لك منه. فيأتي الشيخ إلى المسجد ويبيع العقد، فيشتريه عمار بعشرين ديناراً ومائتي درهم وبردة يمانية وراحلة تبلغ الشيخ إلى أهله، فيقول رسول الله ﷺ: «لو اشترك في شراء هذا العقد الثقلان ما عذبهم الله بالنار».

فينطلق عمار بالأعرابي وفيه بما ضمن له، عاد الأعرابي إلى النبي ﷺ فقال له:

أشبعنا واكتسبت؟ قال: نعم، واستغفرت بأبي أنت وأمي. فيقول رسول الله ﷺ: فاجزي فاطمة في صنعها معك خيراً. فيقول: «اللهم أنت إله ما استحدثناك، ولا إله لنا نعبده سواك، أنت رازقنا، فأعط فاطمة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت».

فأمن رسول الله ﷺ على دعائه وأقبل النبي ﷺ على أصحابه وقال: «إن الله قد أعطى فاطمة ذلك وأنا أبوها وما في العالمين مثلي، وعلي بعليها، ولولا علي ما كان لها كفؤ أبداً. أعطها الحسن والحسين وما في العالمين مثلهما سيدا أسباط الأنبياء، وسيدا شباب أهل الجنة: وقال: أزيدكم». قالوا: نعم يا رسول الله، قال أتاني الروح يعني جبرئيل ﷺ أنها إذا هي قبضت ودفنت يسألها الملكان في قبرها: من ربك؟ فتقول الله ربي؛ من نبيك؟ أبي؛ من وليك؟ فتقول: «هذا القائم على قبري علي بن أبي طالب». «ألا وأزيدكم من فضلها» فيقولون زدنا.

فيقول رسول الله ﷺ: «إن الله وكل بها رعيلاً من الملائكة يحفظونها من بين يديها ومن خلفها وعن يمينها وعن شمالها وهم معها في حفرتها يكثرون من الصلاة عليها وعلى أبيها وبعليها وبنيتها» يقول جابر بن عبد الله: أن عماراً بعد ذلك طيب العقد بالمسك ولفه في بردة يمانية وبعث به مع عبده (سهم) إلى رسول الله ﷺ وقال: «أنت لرسول الله مع العقد» ورسول الله ﷺ يرسل العبد مع العقد إلى فاطمة قائلاً: «أنت لها مع العقد» فتأخذ فاطمة ﷺ العقد وتقول للعبد: «اذهب أنت حر لوجه الله». يضحك العبد ويقول: «ما أكثر بركة هذا العقد، أشبع جائعاً وكسى عرياناً وأغنى فقيراً وأعتق مملوكاً ورجع إلى أهله»^(١).

هذا نموذج من الكمال الإنساني في التصديق والإنفاق من فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين ﷺ، وإن حياتها كلها لنماذج رفيعة من الكمالات المثالية التي هي فوق متناول الفيلسوف وفوق مستوى التفكير البشري. فطوبى لمن تأسى بها وتخلق بأخلاقها فإن «قيمة كل امرئ ما يحسنه» على ما جاء في كلام علي ﷺ.



ويمكن تشبيه محصلة القوى الموجبة والسالبة المؤثرة في نقطة ما (في جسم) بقيمة المرء. ذلك لأن القوى المؤثرة في نقطة (م) على امتداد محور (س س) والمتوجهة إلى اليمين تعتبر (كما في علم الميكانيك) موجبة، فحاصلها موجبة أيضاً. والقوى المؤثرة في نفس النقطة (م) والمتوجهة إلى اليسار على نفس الامتداد تعتبر سالبة، فحاصلها سالبة أيضاً. ثم تركب هاتان النتيجةتان أو تطرح إحداهما من الأخرى (إن كانت على استقامة واحدة، حسب الفرض) فتكون النتيجة النهائية إما متوجهة إلى اليمين، فصاحبها إذن من أصحاب اليمين، فمصيره الجنة، أو متوجهة نحو اليسار (أو الشمال حسب ما جاء في القرآن الكريم) فصاحبها إذن من أصحاب اليسار، فمصيره النار.

يقول الله تبارك وتعالى في سورة الواقعة: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ۖ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۖ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ۖ وَظِلٍّ تَمْدِيدٍ ۖ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ۖ وَفُكْهَةٍ كَثِيرَةٍ ۖ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ۖ وَفُرْشٍ مَّرْجُوعَةٍ ۖ إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنشَاءً ۖ جَعَلْنَهُمْ أَفْكَارًا ۖ عُرْبًا أَتْرَابًا ۖ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ۖ ثَلَاثَةٌ ۖ مِنَ الْأَوَّلِينَ ۖ وَثَلَاثَةٌ ۖ مِنَ الْآخِرِينَ ۖ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ۖ فِي سُومٍ وَمَحِيرٍ ۖ وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُورٍ ۖ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ۖ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ۖ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذَا لَتَبْعُوْنَ ۖ أَوْ مَا نَحْنُ إِلَّا رَمْلٌ ۖ وَالْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ۖ لَتَجْعَلُوْنَ إِلَيْنَا مِيقَاتٍ يَوْمَ مَعْلُومٍ ۖ﴾ [الواقعة: الآيات ٢٧/٥٠] (١).

فكل عمل صالح يقوم به الإنسان لوجه الله تعالى، له أثر فعال في معتقده وسيره التكاملي، وكل عمل سيء يأتي به الإنسان له أثر فعال في تسافله وولوج الشكوك والريب في نفسه. فالإيمان نتيجة الأعمال الصالحة والأعمال السيئة. فالأعمال الصالحة تشكل القوى الموجبة المؤثرة في نقطة (م) والأعمال السيئة تشكل القوى السالبة المؤثرة في نقطة (م) أيضاً فالنتيجة إذن إما أن تكون موجبة أو تكون سالبة. إن الله تعالى يقول في سورة القارعة: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۖ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاغِبَةٍ ۖ

(١) في سدر مخضود: لا شك له؛ وطلح: شجر الموز؛ وماء مسكوب: جار أبدأ؛ أكراراً عربياً: متحبيات إلى أزواجهن؛ أتراباً: مستويات في السن أو مثل أزواجهن في السن؛ يحموم: دخان أسود؛ مترفين: منعمين لا همين عن الطاعة؛ الحنث: الذنب.

وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿١٨﴾ فَأَثْمُهُ كَافٍ ﴿١٩﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا هِيَ ﴿٢٠﴾ نَارُ حَامِيَةٍ ﴿٢١﴾ ﴿القارعة: الآيات ١١/٦﴾. (١).

إن الأعمال الصالحة لها الأثر الكلي في اتجاه الإنسان الديني. فمن أعطى الحقوق المترتبة على أمواله (مثلاً) يرى أن نفسه تميل إلى العبادة ومعرفة الخالق جلّ جلاله ومجالس الوعظ والإرشاد. ذلك لأنه بإعطائه الحقوق يجعل ما يدخل في جوفه طاهراً شبيهاً فيه. وإن هذا المأكل الطاهر له أثره الفعال في توجيه النفس، فقد جاء في الحديث: «إن الحجر المغصوب في الدار رهن على خرابها». وفي حديث آخر عن النبي ﷺ: «ترك لقمة حرام أحب إلى الله من صلاة ألفي ركعة تطوعاً، ورد دائق حرام يعدل عند الله سبعين حجة مبرورة». وفي حديث آخر: «من أراد أن يستجاب دعاؤه فليطلب مطعمه ومكسبه» (٢).

نعم، لو كان بعض ما يتجر به الشخص شيئاً محرماً فإن الأموال التي تجنى بهذه الوسيلة مخلوطة بالحرام، فتؤثر في سير الإنسان الديني والتكاملي. ولقد جربت ذلك في أشخاص. فعندما كان يتجر به أحدهم حلالاً طيباً، يوافق ما جاء في الشرع المحمدي. كان هذا الشخص مصلياً، صائماً يذهب إلى دور العبادة وإلى ﴿يُؤْتِ أَذْنَ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَمْ فِيهَا بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ﴾ [النور: الآية ٣٦]. وبعد أن أدخل في ما يتجر به ما حرم الله، أخذت نفسه تتسافل شيئاً فشيئاً، فصار يصلي صلاة الصبح. ولكنه إذا اعترته حاجة شديدة، نذر نذراً، فسافر لأداء نذره ويصلي في اليوم الذي يفي بنذره فقط. ثم يترك صلاته غير مبال بما سيصيبه من جراء هذا العصيان مع تقادم عمره.

فإذا جاءت ليلة القدر هرع إلى محال العبادة لانطباع سابق، فإذا أذهبت ليالي القدر ترك صلاته وهكذا. إلا أنه مع ذلك يعتقد بأصول الدين. وهكذا لو تأبر هذا الشخص على عدم إخراج الحقوق المترتبة على أمواله (٣) ضعف يقينه بأصول الدين

(١) ثقلت موازينه: بأن رجحت حسناته؛ خفت موازينه: بأن رجحت سيئاته؛ فأمه هاوية: ماواه النار.

(٢) جامع الأخبار: ص ١٥٧، الفصل ١٨.

(٣) إنما ذكرت (إخراج الحقوق كالخمس والزكاة) على سبيل المثال. فكل معصية صغيرة أو كبيرة، =

بصورة تدريجية فيزول اعتقاده بوجود الحجة المهدي عجل الله تعالى فرجه وأنه حي يرزق، ثم يشك في المعاد، ثم في النبوة ثم في العدالة الإلهية. وقد يبلغ به الأمر (لو) بالغ في ارتكاب كبائر المعاصي والظلم والبغي) إلى الإلحاد. ثم يزعم، فيوقن أنه كان في واد من الخرافة وقد دخل اليوم في عالم جديد من الثقافة، وواد من نور، وتخلص من برائن الجاهلية الجهلاء.

فإذا صادف أناساً يحبذون الدين ويؤيدونه إلى حد ما، أخذ يفسر الدين كما تشاء له نفسه المتسافلة ظاناً أنه جاء بفلسفة جديدة ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿الذين: الآيتان ٤/٥﴾.

وقد يكون السير سيراً تكاملياً بعكس ما قلنا، يأتي الإنسان بعمل صالح هام في محله، فيؤثر هذا العمل الطيب في نفسه، ففي معتقده، ثم يقوم بعمل صالح آخر فأخر، فتتمحو هذه الأعمال الصالحة بعض السيئات ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِيَّاتٍ﴾ [هُود: الآية ١١٤] فيتنور قلبه شيئاً فشيئاً، فتتبدد عنه غياهب الشكوك ويسير في طريق الهداية رويداً رويداً.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًى وَآثَنَهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمّد: الآية ١٧] فيدخل في عالم من الصلاح والفلاح الحقيقي سائراً نحو تزكية النفس فمعرفة الخالق وهي غاية الغايات من تكامل هذا الإنسان على وجه الأرض.

هذا التحليل له اليوم مصداق في ثلثة من الناس. فليعقب من شاء سير بعض الأفراد العقائدي والديني خلال ٢٠ عاماً مثلاً، رابطاً هذا السير بما بدأ منه من أخلاق وأعمال وكسب وتجارة وأمور تطابق الشرع أو تخالفه ليرى صدق ما ذهبت إليه. ومن الله التوفيق. ولا بد من عمل صالح في حدود الاختيار لجلب توفيقه تعالى.

= تؤثر تأثيراً مباشراً في سير الإنسان التسافلي، لو لم يعقبها حالاً بتوبة عملية وقلبية. أنصتوا إلى ما يقوله زين العابدين علي ابن الحسين عليه السلام. كيف أن الذنوب تमित القلوب وكيف أن التوبة تحييها. أنه صلوات الله عليه يقول معلماً إيانا: «إلهي البستني الخطايا ثوب مذلتي، وجللني التبعاد عنك لباس مسكتي، وأمات قلبي عظيم جنايتي، فأحيه بتوبة منك يا أُملي وبغيتي ويا سولي ومنيتي». الجفان، جمع جفنة: قصعة.

الزكاة وأثرها في تكامل النفس

إن الدين الإسلامي قد استهدف في جميع نظمته وسننه تهذيب النفس الإنسانية وإبلاغها أقصى مرتبة من مراتب الكمال، بل إن الغرض الأسمى من شريعة محمد ﷺ هو تكوين نفس طاهرة زكية خالية من الأدران والأوساخ متحلية بالكمال.

فالنفس الإنسانية أشبه شيء بقطعة حجر فيها معادن خسيصة لا قيمة لها وفيها الذهب الثمين. فإن الكيماوي يجري على هذه القطعة أنواع العمليات والصناعات ويضعها في أنواع المحاليل كي يظفر بالذهب الخالص. كذلك الدين الإسلامي: فإنه بقوانينه وأحكامه يجري على النفس الإنسانية أنواع الامتحانات والرياضات النفسية كي تصفو رويداً رويداً عما علق بها من ردى الصفات وذمائم الأخلاق، فتتوجه نحو مكارم الصفات وفضائل الأخلاق، وتتمرن عليها لتكون لها طبيعة ثانية: طبيعة فيها من المكارم والفضائل ما يجعل الإنسان قميناً ليتنعم ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: الآية ٦٩]، جديراً بالخلود في جنة ﴿عَرَضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: الآية ١٣٣].

فحري بالإنسان أن يجاهد نفسه ليخرج من هذه الدنيا بالذهب الخالص ولنعم ما قال الشاعر (الناشئ الصغير): «عليّ الدر والذهب المصفى».

فإن الإنسان ناقص عندما يولد، وفيه من ذمائم الصفات ما لا يوصف. ولا بد له من أن يدخل في هذا السير التكاملي بتطبيق ما جاء في الدين المحمدي وأن يتمسك بالكتاب والعترة الطاهرة ﷺ. فلا كمال ولا نجاة إلا بالتمسك بهما والعمل بما أمرا به، لوجه الله الكريم. ومن وفق إلى هذه التجربة المنجية فقد شعر بتلك التجليات القدسية والكمال النفسي نادماً على ما فرط في جنب الله، متأسفاً على ما سوّف من توبة واستغفار وتلافي ما فات.

إذا تتبعتم العبادات بأنواعها وما أمر به الدين الإسلامي من زكاة وخمس وإيتاء ذي القربى واليتامى والمساكين وما نهى عنه من خمر وميسر وأنصاب وأزلام وزنا

وكذب وغيبة ونميمة وبهتان وافتراء وسرقة وعقوق الوالدين وقطيعة الرحم وبغي وظلم إلى ما هنالك لرأيتم أنها برمتها تستهدف تنزيه النفس الإنسانية مما علق بها من أدران المادة والصفات الرذيلة واللوم والخبث وحب المال والركون إلى المادة وتحليلتها بالفضائل والمكرمات والصفات الإنسانية الكاملة كي تكون لائقة للقاء الله تعالى حرية بالخلود في نعيم أبدي سرمدي .

ولا مرأ أن الله تعالى جلّ شأنه عن أن يلاقي، وإنما يكون العبد بقطعه مراحل التكامل موضع عطفه ورفده، فيكون مقرباً إليه . إنه تعالى يقول : ﴿وَجُودٌ بِوَمِيذٍ نَازِلَةٍ ۖ وَإِلَىٰ رَبِّهَا نَازِلَةٌ ۖ﴾ [القيامة: الآيتان ٢٢/٢٣] . أي تنال هذه الوجوه من مراتب الزلفى بحيث تكون كأنها ناظرة إلى ربها . ويقول الله في آية أخرى : ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِيزٍ لَمَحْجُونُونَ ۖ﴾ [المطففين: الآية ١٥] أي مبعدون معذبون منسيون .

إن الله تبارك وتعالى وهو معطي الكمالات قد خلق الموجودات المادية كلها في أكمل وجه، وأراد بالإنسان أن لا يشذ عن سنة الكمال، ونبه على ذلك بقوله : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝﴾ [التين: الآية ٤] . فأرسل أنبياء ورسلاً يملون على الإنسان طرق الكمال النفسي . وجهاز الإنسان بعقل يأمره بإتباع سنة الكمال (بصورة فطرية) لو لم يدنس الإنسان نفسه بإتباع الشهوات ويلوثها بارتكاب الموبقات . فالدين الإسلامي دين صناعة النفس، دين تكوين النفس وإبلاغها الكمال المنشود .

ومن جملة تلك الصناعات الخطيرة التي لا يمكن أن يتوصل إليها العقل البشري بذاته، هو الزكاة . فالزكاة - كما يقول الله تعالى مخاطباً نبيه الكريم ﷺ : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: الآية ١٠٣] - وسيلة لتطهير النفس عن رذيلة البخل والشح . لأن النفس الإنسانية مجبولة على البخل بالمال، مادية مظلمة . فتتنور بتقديمها من فضول ما أنعم الله عليها، فتصفو شيئاً فشيئاً وتتخلق بالكرم والجود وترتاض في هذا الحقل فتؤدي الأمانات إلى أصحابها وتوصل الحقوق إلى مستحقيها .

فالفرق بين المدنية الإسلامية والمدنية الغربية، أن المدنية الإسلامية تنظر إلى النفس وتستهدفها وتعمل ضمن تحقيق الحياة المادية السعيدة من أجل تكامل النفس

وارتقاؤها. لذلك يستحب للشخص أن يعطي الزكاة المندوبة سرّاً دون أن يعلم أحداً بذلك. كي لا يخالط عملية التزكية العجب وحب الثناء وحب الجاه وأمثال ذلك. فلا يسري أثر الزكاة والعطاء إلى نفس المعطي مع العجب وحب الثناء وحب الشهرة. فلو لم يتوخ في عطائه هذا وجه الله لن تزكو نفسه ولن تسير في مجالات الكمال خطوة واحدة.

وهكذا يمزج الإسلام بين المدنية الروحية والمادية. بل الهدف الأسمى من الدين الإسلامي هو المدنية الروحية. وإنما يحقق الإسلام المدنية المادية للبلوغ إلى مدنية روحية رفيعة. إذ «الدنيا مزرعة الآخرة». والآخرة هي الحياة الحقيقية التي يحق أن يطلق عليها لفظ (الحياة). ذلك لأن السبب الرئيسي من وجودنا في هذه الدنيا: بلوغنا إلى أسمى مدنية روحية فيها كمال الملكات أي كمال النفس الإنسانية، وهذا الكمال ينتهي إلى معرفة الله تعالى. لا يفهم حقيقتها ومدارها إلا من تذوق الكمال النفسي. وإن طريقة هذه المعرفة السامية: (معرفة الله تعالى) هي العبادات والأعمال الصالحات. إنه تعالى يقول: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوةُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [١٦] [العنكبوت: الآية ٦٤]. لننظر إلى بعض حِكَم الزكاة وآثارها المادية: نرى بعض الأغنياء يشكون البطنة من كثرة الأكل، ونرى فقراء يشكون الجوع. فلو أعطى الأغنياء ما فضل عن حاجتهم من الطعام لهؤلاء الفقراء، لما شكى واحد منهم سقماً ولا ألماً. فجدير بالغني أن يتناول من الطعام ما يشبع جوعته ويغطي غلته. ولكن لحبه لنفسه ومغالاته بها يضم إلى مائدته ما اختلسه من صحفة الفقير، فيعاقبه الله في الدنيا بالبطنة حتى لا يهنئ للظالم ظلمه ولا يطيب له عيشه وفي الآخرة عذاب أليم! وإن أصحاب النار ليعترفون (بعد دخول النار) بعدم إطعامهم المسكين بعد اعترافهم بتركهم (الصلاة) وذلك بقولهم: ﴿لَوْ نَكُنْ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ [١٧] وَلَوْ نَكُنْ نَطُوعُ الْمُسْكِينِ﴾ [المذثر: الآيتان ٤٣/٤٤]. وإن الله جلّ وعلا جعل أحد عوامل التكذيب بدينه: عدم حث النفس أو حث الغير على تهينة طعام المسكين بقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَكْذِبُ بِالَّذِينَ﴾ [١٨] فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ [١٩] وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ﴾ [الماعون: الآيات ١/٢].

لذلك يعلمنا المثل الكامل علي عليه السلام عندما يخاطب سهل بن حنيف عامله على البصرة بقوله: «أما بعد يا ابن حنيف، فقد بلغني أن رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة، فأسرعت إليها، تستطاب لك الألوان، وتنقل إليك الجفان! وما ظننت أنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم^(١) مجفو^(٢) وغنيهم مدعو فانظر إلى ما تقضمه من هذا المقضم^(٣). فما اشتبه عليك علمه فالفظه^(٤) وما أيقنت بطيب وجوهه فنل منه. ألا وإن لكل مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه. ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه^(٥) ومن طعمه بقرصيه. ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك. ولكن أعينوني بورع واجتهاد، وعفة وسداد. فوالله ما كنزت من دنياكم تبراً^(٦) ولا أدرخت من غنائمها وفرأ. ولا أعددت لبالي ثوبي طمراً^(٧) ولا حزت من أرضها شبراً ولا أخذت منه إلا كقوت أتان دبيرة^(٨) ولهي في عيني أوهى وأهون من عفصة^(٩) مقرة^(١٠) بلى، كانت في أيدينا فذك من كل ما أظلمته السماء، فشحت عليها نفوس قوم، وسخت عناء نفوس قوم آخرين. ونعم الحكم الله. وما أصنع بفذك وغير فذك. والنفوس مظانها في غد جدت^(١١) تنقطع في ظلمته آثارها، وتغيب أخبارها. وحفرة لو زيد في فسحتها، وأوسعت يدا حافرها لأضغطها الحجر والمدر. وسد فرجها التراب المتراكم. وإنما هي نفسي، أروضها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر، وتثبت على جوانب المزلق. ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القز. ولكن هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جشعي إلى تخيير الأطعمة. ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص، ولا عهد له بالشبع! أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثي وأكباد حري!! أو أكون كما قال القائل:

-
- | | |
|------------------------------------|---|
| (١) العائل: المحتاج. | (٧) ثوباً. |
| (٢) مجفو: مطرود. | (٨) أتان دبيرة: حمارة أصيبت بقرحة تحدث من |
| (٣) المقضم: المأكول. | الرحل ونحوه. |
| (٤) فالفظه: فاطرحه. | (٩) عفصة: نتوء يكون على شجرة البلوط. |
| (٥) الطمر - بالكسر - الثوب البالي. | (١٠) مقر: نبات مر. |
| (٦) فئات الذهب والفضة قبل أن يصاغ. | (١١) الجدث: القبر. |

وحسبك داء أن تبسيت ببطنة وحولك أكباد تحن إلى القدر^(١)
أأقع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر؟ أو أكون
أسوة لهم في جشوبة^(٢) العيش؟ فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة
همها علفها، أو المرسلة شغلها تقمها^(٣)، تكثرش^(٤) من أعلامها وتلهو عما يراد بها،
أو أترك سدى وأهمل عابثاً، أو أجزّ حبل الضلالة أو اعتسف طريق المتاهة... إلى
أن قال: وأيم الله - يميناً استثنى فيها بمشيئة الله - لأروضن نفسي رياضة تهش معها إلى
القرص إذا قدرت عليه مطعوماً، وتقنع بالملح مأدوماً. ولأدعن مقلتي كعين ماء نضب
معينها مستفرغة دموعها. إلى أن قال: طوبى لنفس أدت إلى ربها فرضها، وعركت
بجنبها بوسها^(٥)، وهجرت في الليل غمضها، حتى إذا غلب الكرى^(٦) عليها افترشت
أرضها، وتوسدت كفها، في معشر أسهر عيونهم خوف معادهم، وتجاغت^(٧) عن
مضاجعهم جنوبهم، وهممت بذكر ربهم شفاههم، وتقشعت بطول استغفارهم
ذنوبهم. ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: الآية ٢٢].

فاتق الله يا ابن حنيف. ولتكفك أقراصك، ليكون من النار خلاصك^(٨). ولا
أظن أن هناك موعظة تؤثر في النفوس كهذه الموعظة. فإن علياً عليه السلام يضع لنا منهاجاً
قوياً لو عملنا به لأوصلنا إلى «مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب
بشر». فطوبى للعاملين على ضوئه والناهجين وفق دستوره.

الزكاة الباطنة

عن المفضل بن عمر قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فساله رجل: في كم تجب
الزكاة من المال؟ فقال له: الزكاة الظاهرة أو الباطنة تريد؟ فقال: أريدهما جميعاً.

(١) جلد السخلة كان يוכל في الجذب.

بجنبه.

(٢) خشونة.

(٦) النعاس أو النوم.

(٣) التقاطها القمامة أي الكتامة.

(٧) تنحت.

(٤) تملأ كرشها.

(٨) نهج البلاغة: ص ٤١٦، كتاب رقم ٤٥.

(٥) عركه بالجنب: الصبر ليه كأنه شوك فيسحقه

فقال: «أما الظاهرة: ففي كل ألف، خمسة وعشرون. وأما الباطنة: فلا تستأثر على أخيك بما هو أخرج إليك منك»^(١).

ولسنا الآن بصدد بيان الزكاة الظاهرة، لظهورها. ونريد أن نتكلم عن الزكاة الباطنة. وقد حث الدين الإسلامي على هذا النوع من الزكاة: صلة الرحم والتصدق والإنفاق، بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ﴾ [سَبَأ: ٣٩].

فلماذا يبخل هذا الإنسان وقد وعده الله تعالى أنه يخلف له ما أنفقه وهو أصدق الصادقين. أليس ذلك لضعف في الإيمان وخلل في التقوى وانحطاط في النفس وتسافل نحو المادة وركون إلى الأرض الفانية وشح مميت؟ وقد جاء في الحديث: «إياكم والشح، فإنما هلك من كان قبلكم بالشح، أمرهم (أي الشح) بالكذب فكذبوا، وأمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا»^(٢).

قال علي عليه السلام: «تعاهدوا أمر الصلاة وحافظوا عليها». . . إلى أن قال «ثم إن الزكاة جعلت مع الصلاة قرباناً لأهل الإسلام، فمن أعطاها طيب النفس بها فإنها تجعل له كفارة، ومن النار حجاباً ووقاية. فلا يتبعنها أحد نفسه ولا يكثر عليها لهفة. وإن من أعطاها غير طيب النفس بها يرجو بها ما هو أفضل منها، فهو جاهل بالسنة مغبون بالأجر، ضال العمر طويل الندم»^(٣). وقال: «سوسوا إيمانكم بالصدقة وحصنوا أموالكم بالزكاة، وادفعوا أمواج البلاء بالدعاء»^(٤)، فبالصدقة يساس الإيمان ويصان، ومع عدم أدائها يضعف الإيمان ويزول.

سئل أبو عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْحَرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤/٢٥]. أهو سوى الزكاة؟ فقال: «الرجل يؤتيه الله الثروة من المال فيخرج منه الألف والألفين والثلاثة آلاف والأقل والأكثر، فيصل به رحمه ويحمل به الكل عن قومه»^(٥). وقد قال أيضاً: «المعروف شيء سوى الزكاة، فتقربوا

(١) الكافي: ج ٣، ص ٥٠٠، باب فرض الزكاة. (٤) نهج البلاغة: ص ٤٩٥.

(٢) وسائل الشيعة: ج ٩، ص ٤٢، باب ٥. (٥) الكافي: ج ٣، ص ٤٩٩، باب فرض الزكاة.

(٣) الكافي: ج ٥، ص ٣٦.

إلى الله بالبر وصلة الرحم^(١). حقاً: ليس هناك شيء يقرب العبد إلى الله في السر والعلن ويشوقه إلى المناجاة والاستغفار والإثابة والشكر والتسبيح والرضا والتسليم كالبر وصلة الرحم. نعم، إن البر والصدقة ينفيان الفقر ويزيدان في العمر ويدفعان سبعين ميتة سوء، كما جاء في الحديث.

ولقد قال رسول الله ﷺ: «من منع الماعون من جاره إذا احتاج إليه، منعه الله فضله يوم القيامة ووكله إلى نفسه، ومن وكله الله إلى نفسه هلك ولا يقبل الله تعالى له عذراً»^(٢).

وهذا علي الرضا عليه السلام يقول: «سئل رسول الله ﷺ هل في المال حق سوى الزكاة؟ قال نعم، بر الرحم إذا أدبرت وصلة الجار المسلم، فما آمن بي من بات شعبان وجاره المسلم جائع»^(٣). ثم قال: «وما زال جبرائيل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه يورثه»^(٤). وهو القائل: «أتدرون ما حق الجار؟ إذا استعان بك أعتته، وإن استنصرك نصرته، وإن استقرضك أقرضته وإن مرض عدته، وإن مات شيعت جنازته، وإن أصابه خير هنأته وإن أصابته مصيبة عزّيته، ولا تستطل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه، ولا تؤذه، وإذا اشترت فاكهة فأهدها له، وإن لم تفعل فادخلها سراً ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده، ولا تؤذه بقتار»^(٥) قدرك إلا أن تغرف له منها. ثم قال: «أتدرون ما حق الجار؟ والذي نفسي بيده لا يبلغ حق الجار إلا من رحمه الله»^(٦).

وهذا علي الهادي عليه السلام يدخل عليه أبو عمر وعثمان بن سعيد وأحمد بن إسحاق الأشعري وعلي بن جعفر الهمداني. فيشكو إليه أحمد بن إسحاق ديناً عليه، فيقول الإمام عليه السلام يا أبا عمرو - وكان وكيله - إدفع إليه ثلاثين ألف ديناراً، وإلى علي بن جعفر

(١) الكافي: ج ٤، ص ٥٩٠، باب دعوات موجزات.

(٢) وسائل الشيعة: ج ٥، ص ٣٤٠، باب ٢٧.

(٣) وسائل الشيعة: ج ٩، ص ٥٢، باب الحقوق.

(٤) بحار الأنوار: ج ٧٩، ص ٩٣، باب ١٦.

(٥) القنار: رائحة الطعام.

(٦) بحار الأنوار: ج ٧٩، ص ٩٣، باب ١٦.

ثلاثين ألف ديناراً، وخذ أنت ثلاثين ألف ديناراً، وقد اشترى له إسحاق الجلاب غنماً كثيرة يوم التروية فقسمها في أقاربه.

وهذا علي بن الحسين عليه السلام يدخل على محمد بن أمامة بن زيد في مرضه فجعل يبكي. فيقول له الإمام: ما شأنك؟ يقول: عليّ دين: خمسة عشر ألف دينار. فيقول الإمام عليه السلام: «فهو عليّ».

وعن الزمخشري في ربيع الأبرار: إنه لما أرسل يزيد بن معاوية مسلم بن عقبة لقتال أهل المدينة واستباحتها، كفل زين العابدين عليه السلام أربعمئة امرأة مع أولادهن وحشمن وضمهن إلى عياله بنفقتهم وإطعامهن، إلى أن خرج ابن عقبة من المدينة. فأقسمت واحدة منهن: إنها ما رأت في دار أبيها وأما من الراحة والعيش الهنيء ما رأت في دار علي بن الحسين عليه السلام. وما كان يأكل الطعام حتى يبدأ فيتصدق بملئه (بثلثه).

وروى أحمد بن حنبل أن علي بن الحسين عليه السلام كان يعول مائة أهل بيت من فقراء المدينة، في كل بيت جماعة. وروى في الحلية أنه حين مات وجدوا بظهره آثاراً مما كان يحمل بالليل الجراب إلى المساكين^(١).

وفي الحلية بسنده عن ابن عائشة عن أبيه: سمعت أهل المدينة يقولون: ما فقدنا صدقة السر حتى مات علي بن الحسين عليه السلام.

وقد روى الصدوق في العلل بسنده عن سفيان بن عيينة: رأى الزهري علي بن الحسين عليه السلام في ليلة باردة ممطرة وعلى ظهره دقيق وهو يمشي فقال: يا ابن رسول الله ما هذا؟ قال: «أريد سفراً أعد له زاداً أحمله إلى موضع حريز». قال: فهذا غلامي يحمله عنك. فأبى. فقال: أنا أحمله عنك فلاني أرفعك عن حمله... قال الإمام عليه السلام: «لكني لا أرفع نفسي عما ينبغي في سفري ويحسن ورودي على ما أرد عليه. أسألك بحق الله لما مضيت لحاجتك وتركتني». فلما كان بعد أيام قال له: يا ابن رسول الله، لست أرى لذلك السفر الذي ذكرته أثراً. قال: «بلى يا زهري، لست ما ظننت ولكنه الموت وله أستعد. إنما الاستعداد للموت تجنب الحرام وبذل الندي في الخير»^(٢).

(١) بحار الأنوار: ج ٤٦، ص ٦٦، باب ٥.

(٢) وسائل الشيعية: ج ٩، ص ٤٠١، باب ١٤.

وكان ذلك الدقيق قد حمله ليتصدق به ويَعِدُهُ زاداً لسفر الآخرة .

كيف لا يكون كذلك ، وهو خريج مدرسة علي عليه السلام . فعلي كان يأكل أكلة العبد؟ ويجلس جلسة العبد ، وإن كان ليشتري القميصين السنبلايين فيخير غلامه خيرهما ثم يلبس هو الآخر . فإذا جاز أصابعه قطعه ، وإذا جاز كعبه حذفه ، ولقد ولي إمرة المسلمين خمس سنين ما وضع آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة ، ولا أقطع قطعية ، ولا أورث بيضاء ولا حمراء ، وإن كان ليطعم الناس خبز البر واللحم وينصرف إلى منزله ويأكل خبز الشعير بالزيت والخل ، وما ورد عليه أمران كلاهما لله رضى إلا أخذ بأشدهما على بدنه .

ولقد أعتق عليه السلام ألف مملوك من كدّ يده ، تربت فيه يداه وعرق فيه وجهه ، وما أطاق عمله من الناس أحد . وإن كان ليصلي في اليوم واللييلة ألف ركعة . نستنتج من كل ذلك أن دواء البشر الوحيد هو الدين ، ففيه علاج الفقر وعلاج الشقاء وعلاج المفاسد الاجتماعية والأخلاقية والمدنية ، وفيه صفاء القلوب واطمئنان النفوس وراحة الوجدان والضمير .

الزكاة الواجبة

إن الدين الإسلامي قد عالج كل نقص في الحياة الروحية والاجتماعية والمادية ، فأوجد التوازن بين الروح والبدن ولم يهمل ناحية دون ناحية . فبينما يأمر بالصلاة لتزكو بها النفس الإنسانية ، فتؤدي بها واجب الشكر وتتطهر مما علق بها من صفات خبيثة وخصال مميتة لتسمو فتبلغ ذروة الكمال ، يأمر الفرد في الوقت نفسه بإعطاء الزكاة ، وتقديم شيء يسير من فضول المال إلى إخوانه المسلمين الذين حرّموا من المال لحكمة يعلمها الله تعالى وهي في صالح الإنسان لو تعمق وتدبر . . لذلك ترون أن الله تعالى يكرر في قرآنه الكريم الصلاة والزكاة متعاقبتين ويصف المتقين بقوله : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: الآية ٣] .

فعن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام : « فرض الله الزكاة مع الصلاة » أي إن الزكاة قرينة الصلاة وفي مرتبتها .

وقد روى عبد الله بن سنان في حديث له، أنه نادى منادي رسول الله ﷺ في المسلمين: «زكّوا أموالكم تقبل صلاتكم»^(١).

وقد منع رسول الله ﷺ جماعة كانوا يصلون في المسجد عن الصلاة، ذلك لأنهم ما كانوا يزكون أموالهم. فليعلم مانعوا الزكاة أن صلاتهم لا تقبل ولا يموتون على الإسلام. فعن أبي عبد الله عليه السلام: «من منع قيراطاً من الزكاة فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً»^(٢). وقد روى أبو بصير، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «من منع قيراطاً من الزكاة فليس بمؤمن ولا مسلم، ولا تقبل له صلاة»^(٣). وهو قوله تعالى: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾^(٤) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ذلك لأن مانع الزكاة يسأل الرجعة عند الموت.

إن الله تعالى بالغ في الاهتمام بأمر الفقراء والمساكين حتى قال جل من قائل: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ لَا يَوْمَ يُخْمَلُ عَلَيْهِمَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فُتُكُونَ بِهَا صِبْهُهُمْ وَجُثُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كَنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾^(٥) [التوبة: الآيتان ٣٤/٣٥].

وقد سئل أبو عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿سَيَطُوفُونَ مَا بِحُلُوبِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: الآية ١٨٠]. فقال: «ما من أحد يمنع من زكاة ماله شيئاً إلا جعل الله ذلك يوم القيامة ثعباناً من نار في عنقه ينهش من لحمه حتى يفرغ من الحساب»^(٦).

ثم الله تعالى هو معطي المال وهو المهيئ أسباباً ينال بها الشخص المال الكثير، وقد وعد جلّ جلاله: أنه سيعوض المزكي أضعاف ما يزكي من ماله، بقوله: ﴿وَمَا آتَيْنَا مِنْ دَكَّوْرٍ تَرِيْدُونَ وَبِعَةِ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْغِفُونَ﴾ [الرّوم: الآية ٣٩]. وبقوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: الآية ٢٧٢]. وبقوله: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: الآية ٣٩].

والزكاة منمية للمال حافظة لها من التلف والغرق (وهناك حوادث كثيرة تبرهن

(١) الكافي: ج ٣، ص ٤٩٧، باب فرض الزكاة.

(٢)، (٣)، (٤) الكافي: ج ٣، ص ٥٠٥، باب منع الزكاة.

على صدق ما قلنا لا مجال لذكرها). كما أن عدم دفع حق الفقراء والمساكين يؤدي إلى إنفاق ذلك في الباطل. فقد قال الصادق عليه السلام: «من منع حقاً لله أنفق في الباطل مثليه»^(١).

ولقائل أن يقول: فلماذا ترى أناساً لا يودون حق الله ولا يزكون أموالهم وهم يزدادون يوماً فيوماً غنى وثراء؟ جواب ذلك: ان الله تعالى يهيئ وسائل الهداية والرشاد لكل عبد من عباده، فيتم عليهم الحجة، فإن تمادوا في غيهم وثابروا على هتك حرمة الله واستهتروا بما سنّه الله وقرره، تركهم وأنفسهم وأملى لهم بإعطائهم من الأموال والأولاد الشيء الكثير وفي الآخرة عذاب أليم. وقد قال جلّ من قائل: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ مَتْلَى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نَمْلَى لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِسْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: الآية ١٧٨]. وفي موضع آخر: ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران: الآيتان ١٩٦/١٩٧].

وبالزكاة تحصن الأموال وتحفظ، فقد قال موسى بن جعفر عليه السلام: «حصنوا أموالكم بالزكاة». وإنّ من لم يزك ماله عد في لسان الشرع سارقاً. و«السراق ثلاثة: مانع الزكاة، ومستحل مهوور النساء، وكذلك من استدان ديناً ولم ينو قضاءه»^(٢)...

الحديث. إن العقل ليحكم بصورة طبيعية أنّ شكر المحسن أمر واجب. وشكر كل شيء زكاته. فإن منّ الله على عبد بعظيم نعمه فليس لهذا العبد إلا أن يقوم بواجب الشكر تجاه خالقه لما ميزه عن بعض مخلوقاته وخصه بلطفه ورفده. ويلزم أن يتناسب الشكر مع النعمة التي أولانا الله بها. فقد قال علي عليه السلام: «زكاة السلطان: إغاثة الملهوف، وزكاة الجمال: العفاف، وزكاة القدرة: الإنصاف، وزكاة الشجاعة: الجهاد في سبيل الله»^(٣).

(١) الكافي: ج ٣، ص ٥٠٥، باب منع الزكاة.

(٢) تهذيب الأحكام: ج ١٠، ص ١٥٣، باب ١٠.

(٣) غرر الحكم في قصار الحكم للإمام علي عليه السلام.

فيكون إذن زكاة المال أن تعطي شيئاً ضئيلاً من مالك إلى من فضلت عليهم بمنه تعالى. هذا أمر طبيعي يحكم به كل ذي وجدان سليم: لم تدنس الذنوب والآثام ولم تخرجه عن حالته الفطرية الطبيعية الموبقات والإجرام. ولذلك شدد الله النكير على ما نعي الزكاة وأبعدهم عن ساحته وتوعدهم بالعذاب الأليم. وقد قال الصادق عليه السلام: «ما فرض الله على هذه الأمة شيئاً أشد عليهم من الزكاة وفيها تهلك عامتهم»^(١).

ما أقل ما فرض الله على عباده! فلقد فرض في النقدين: الفضة والذهب، ٢,٥٪: (اثنان ونصف في المائة). أي من كانت له ١٠٠ دينار وبقيت على حالها ومضى عليها حول كامل، عليه أن يزكيها بإعطاء: دينارين ونصف دينار منها.

ولا فرق، على رأي بعض العلماء، بين النقود الفضية والذهبية، وما يقوم مقامها من الأوراق النقدية. ذلك لأن الأوراق النقدية بمثابة أسناد و (صكوك) تعطى بيد الناس تنوب عن النقود الذهبية والفضية المودعة في المصارف (البنوك). وقد توضع في البنوك إزاء هذه الأوراق النقدية، سبائك ذهبية وأحجار ثمينة تبدل إلى نقود أيضاً. فالشخص إنما يرجع أخذ الأوراق وحفظها لسهولة استخدامها. وليس معنى ذلك أنه يحتفظ بأوراق لا قيمة لها، حتى تعتبر أوراقها لا علاقة لها بالنقود. ذلك لأن الشخص الذي يستلم هذه الأوراق لو علم أنها لا تستبدل بنقود ذهبية وفضية لما حفظها لديه ولما خاصم خصمه عليها ولما راجع المحاكم. وإن دين الله لا يقبل الالتواء. إذن، الأوراق النقدية تقوم مقام النقود الذهبية والفضة دونما ريب، لإمكان تحويلها إليها متى شاء الشخص ذلك ولأنها مدار العيش وتتوقف عليها حياة الفقير.

ولامراء أن الغرض الرئيس من فرض الزكاة هو تزكية الأموال المتكدسة وإيجاد راحة الفقير العاجز المسكين. فلو جمدنا على الألفاظ ولم نتطرق إلى حكمة التشريع فقد ألغينا الغرض الذي وضعت لأجله الزكاة وكأنها لم توضع، وأبطلنا أعظم حكم من أحكام الإسلام وحرمنا الفقراء والمساكين حقوقهم مع ما هنالك من تأكيد لا مزيد عليه في الكتاب والسنة.

(١) الكافي: ج ٣، ص ٤٩٧، باب فرض الزكاة.

إن عامة الناس تطلق على الأوراق النقدية: النقود، فتقول: إن فلاناً يملك نقوداً كثيرة مع علمها أنه لا يملك غير الأوراق النقدية. وليس من المعقول أن يقال: إن المعاملات قد تقع على الأوراق النقدية مجردة عن قيمتها الحقيقية النقدية. ذلك لأن الذي يتعامل بها لو علم أن الحكومة قد أعلنت سقوط هذه الأوراق عن درجة الاعتبار يلغي المعاملة حالاً ويراها لا قيمة لها.

ففي الأوراق النقدية زكاة كما في النقدين إذا بلغ كل منهما حد النصاب حفظاً لحق الفقير وعملًا بالتأكيدات الواردة في الشرع، تأكيداً لا يقل عن الصلاة! وتستحب الزكاة في الحبوب مما يكال أو يوزن، وفي الثمار والبقول وفي مال التجارة والخيول والأماكن والعقارات.

يقول أحد كبار علماء الاقتصاد في الغرب: ما أحسن ما سنه الدين الإسلامي من زكاة الأموال، فهو العلاج الوحيد لرفع البحران الاقتصادي والتضخم المالي. أنظروا إلى هذه النسبة الضئيلة التي فرضها الله في زكاة الأنعام الثلاثة: الإبل والبقر والغنم، فهو لا يتجاوز ٢,٥٪. ففي خمس من الإبل شاة، وفي ست وعشرين، بنت مخاض؛ وهي الداخلة في السنة الثانية، وفي ست وسبعين، بنتاً لبون. وشرح ذلك مسطور في كتب الفقه المختصرة والمفصلة.

وأما زكاة الغلّة: فالعشر إذا كان السقي بالماء الجاري أو المطر أي بلا واسطة ميكانيكية. فإن كان السقي بواسطة ميكانيكية فنصف العشر أي ٥٪ وذلك بعد إخراج الضرائب والمؤونة من أجرة الحارث والسافي وأجرة الأرض إن كانت مستأجرة وأجرة الحفظ والحصاد إلى غير ذلك.

نعم، إن الله قد علم أن هذا المقدار الضئيل من الزكاة كاف لسد حاجات المحتاجين وإيجاد حياة سعيدة في هذه الأرض، ومانع عن تدمير المتدمرين وإفساد المفسدين، وقد قال الصادق عليه السلام:

«إنما وضعت الزكاة اختباراً للأغنياء ومعونة للفقراء ولو أن الناس أدوا زكاة أموالهم ما بقي مسلم فقيراً محتاجاً، ولا استغنى بما فرض الله. وإن الناس ما افتقروا

ولا احتاجوا ولا جاعوا ولا عروا إلا بذنوب الأغنياء . وحقيق على الله أن يمنع رحمته من منع حق الله في ماله . وأقسم بالذي خلق الخلق وبسط الرزق أنه ما ضاع مال في بر ولا بحر إلا بترك الزكاة . وما صيدَ صيدٌ في بر ولا بحر إلا بتركه التسبيح في ذلك اليوم ، وإن أحب الناس إلى الله أسخاهم كفاً ، وأسخى الناس من أدى زكاة ماله ولم يخل على المؤمنين بما فرض الله لهم في ماله^(١) .

نعم ، إن الدين الإسلامي يربي الفرد بصورة عملية على الصفات الحميدة والخصال المجيدة للبلوغ إلى الكمال الإنساني ، ومنها السخاء ومفتاحه الزكاة . فإن رسول الله ﷺ قال لرجل من المشركين : «لولا أن جبرئيل أخبرني عن الله عزّ وجلّ أنك سخي ، تطعم الطعام لشردت بك وجعلتك حديثاً لمن خلفك . فقال له الرجل : وإن ربك ليحب السخاء؟ فقال نعم ، قال : (المشرك إذا ذاك) : أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله»^(٢) . ولجباية الزكاة آداب سامية ، يعلمنا عليّ عليه السلام ، فإنه كان يقيم عماد الحق ويشرع أمثلة العدل في صغير الأمور وكبيرها ، دقيقها وجليلها . ومن جملة وصاياه لمن كان يستعمله على الصدقات :

«انطلق على تقوى الله وحده لا شريك له ، ولا تروعن مسلماً ولا تتجاذن عليه كارهاً ولا تأخذن منه أكثر من حق الله في ماله . فإذا قدمت على الحي ، فأنزل بمائهم من غير أن تخلط أبياتهم . ثم امض إليهم بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم . فتسلم عليهم ولا تخذج (أي لا تبخل) بالتحية لهم . ثم تقول : عباد الله ، أرسلني إليكم ولي الله وخليفته لآخذ منكم حق الله في أموالكم . فهل لله في أموالكم من حق فتؤدوه إلى وليه؟ فإن قال قائل لا ، فلا تراجع . . . الخ»^(٣) .

ويقول ﷺ في مكان آخر مخاطباً عامله على الصدقات : «وإن لك في الصدقة نصيباً مفروضاً وحقاً معلوماً وشركاء أهل مسكنة وضعفاء ذوي فاقة ، وإنا موفوك

(١) من لا يحضره الفقيه : ج ٢ ، ص ٧ .

(٢) الكافي : ج ٤ ، ص ٣٩ ، باب معرفة الجود .

(٣) نهج البلاغة : ص ٣٨٠ ، خ ٢٥ .

حقك، فوفهم حقوقهم، وإلا فإنك من أكثر الناس خصوماً يوم القيامة، وبؤساً لمن خصمه عند الله الفقراء والمساكين والسائلون والمدفوعون والغارمون وابن السبيل. ومن استهان بالأمانة ورتع في الخيانة ولم ينزه نفسه ودينه عنها فقد أحل بنفسه في الدنيا الذل والخزي وهو في الآخرة أذل وأخزى. وإن أعظم الخيانة خيانة الأمة وأفظع الغش غش الأئمة^(١).

كيف يجب أن نكون

سؤال يجيب عنه كثير من علماء الأخلاق والفلاسفة في الغرب بطرق عدة، كل حسب ما توصل إليه من المعتقدات. ولا يتوصل الشخص إلى معتقدات إلا بدرجة تكامل نفسه وتجردها من الرجس والأدناس. «وكل إناء بالذي فيه ينضح». فالمعتقدات مرآة النفس، فإذا شئت أن تحكم على أخلاق شخص ودرجة تكامله النفسي عليك أن تبحث عن معتقداته ودرجة عمله في تحقيق مصاديق تلك المعتقدات مع نفسه ومع غيره. فهذا البحث يهديك إلى تقدير درجة نفسية أو درجة كمالية لذلك الشخص. إنني لا أريد أن أبين هنا شيئاً عن آراء شتى الفلاسفة وعدد من الأخلاقيين في الغرب، لتضارب آرائهم وجرح بعضهم البعض. ذلك لأن آراءهم خرجت عن التفكير الفطري المجرد عن كل شائبة خارجية أو داخلية وإنما أريد أن أستنبط جواب هذا السؤال ببحث علمي بحث.

يرى المطالع في أحوال الكون: أن الأنجم تسير في أفلاك معينة لا تحيد عنها، وكل هذه الأفلاك أو المدارات التي تضبط بمعادلات رياضية متقنة تشير إلى النظام الرائع والانتظام البديع الذي أودعه الله في هذا الكون. يرى أن للكسوف أو الكسوف حسابات خاصة وقوانين معينة على وجه يمكن حساب زمان وقوعهما قبلاً ومدة دوامهما. يرى أنه لو لا ميلان مدار الأرض عن دائرة الكسوف ٢٣ درجة و ٢٧ دقيقة لما حدث اختلاف الليل والنهار الذي ينتج منه الحر والبرد واختلاف الفصول وفوائد لا

تعد ولا تحصى. ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهَ يُوَلِّجُ أَيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: الآية ٦١].

يرى لولا حركة الأرض الوضعية لكان النصف من الكرة الأرضية في ظلام دائم والنصف الآخر في ضياء دائم واحترق شديد. ﴿وَنَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَمْدًا وَهِيَ تَمُوتُ مَرَّةً السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: الآية ٨٨] ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَمْ لَا تَسْمَعُونَ﴾ [٦١] ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [٦٢] [الفصص: الآيتان ٧١/٧٢].

يرى أن الحكمة البالغة جعلت السيارات (الكواكب) تدور على مسير اهليلجي (قطع ناقص) حول الشمس على أن تكون الشمس أحد محراقيه (بورتية). يرى أن الشعاع الحامل الذي يوصل الشمس بإحدى السيارات (الكواكب) يقطع في أزمنة متساوية سطوحاً متساوية. وفي ذلك من الحكمة الفائقة. يرى أن مربعات أزمنة الدور النجمي للسيارات (الكواكب) تتناسب مع مكعبات نصف المحور الأطول لمداراتها، وفي ذلك الحكمة العالية.

يرى أن نظرية (لابلاس) في تشكل المنظومة الشمسية موجودة بشكل صحيح لا يقبل الجرح والتعديل في القرآن الكريم: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [٢٥] ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [٢٦] [الأنبياء: الآيتان ٣٠/٣١].

يرى أن تشكل المطر أو الودق قد جاء ذكره في القرآن لتوجيه الناس إلى عظيم صنع الله بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُرْسِي مَعَابِئَهُمْ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَجْعَلُهُمُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَافِرُهُ يَذْهَبَ بِالْأَبْصَرِ﴾ [النور: الآية ٤٣] ^(١). والجبال التي فيها من برد هي الثلجات (Clacier) أو (Iceberg) تتوجه من النروج إلى خليج مكزيك في المحيط الأطلسي.

(١) يزجي سحاباً: أي يسوق السحاب أو البخار.

يرى أن قوة خارقة تسير السيارات (الأنجم) بانتظام خاص وتمنعها عن الميدان والانحراف والاضطراب. وهذا ما يعبر عنه: بالجاذبية العامة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسَيِّدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: الآية ٤١].

يرى أن الأجسام تمتد بالحرارة وتتقلص بالبرودة أي عند تقليل درجة الحرارة، إلا الماء. ففي الدرجة الرابعة من الحرارة المثوية يكتسب الماء الكثافة العظمى، فإذا قللتنا درجة الحرارة عن (٤°م) تقل كثافة الماء ويزداد حجمه، فيكون (١) ستيومتر المكعب من الماء في درجة الصفر المثوي أقل وزناً عن نفس الكمية من الماء في ٣°م، بخلاف بقية الأجسام، لذلك يكون الجليد أخف من الماء مع اتحاد الحجم، فيطفو على سطح الماء. وقد وجد أن حجم الغرام الواحد من الجمد أو الجليد في درجة الصفر المثوي = ١/٠٩١ سم^٣، فإذا ساح إلى الماء في درجة الصفر أيضاً أصبح حجمه = ١٠٠١٢/١ سم^٣. فالجليد أو الجمد أخف من الماء حتى في درجة الصفر.

ولولا هذا الشذوذ بأمره تعالى في تغير الكثافة أي لو كانت كثافة الماء العظمى في درجة الصفر (لا في ٤°م) كبقية السوائل، لغاص كل ما تجمد من سطح الماء ورسب في القعر. وتجمد ما يزيحه الجليد الراسب الساقط في قعر الماء إلى الأعلى وعلى هذا المنوال كان يتجمد البحر أو البحيرة من الأعلى إلى الأسفل ولأصبحت البحيرة قطعة ثلج! فلا ترى حيواناً يتنعم بالحياة في أعماق البحار والبحيرات. ولا نقرب البحر برمته إلى ثلاجة ما كان يكفي لذوبانها حرارات الفصول، لاسيما في المناطق الباردة، ولانتفى عند ذلك انتفاع الإنسان بالبحر.

وبما أن الله تعالى قد جعل كثافة الماء العظمى في (٤°م) فإذا برد الجو وصارت درجة حرارة الماء للسطح العلوي (+٤°م) نزل هذا الماء إلى القعر لثقله بالنظر إلى وزن الماء في الطبقات السفلى وهكذا حتى تصبح درجة حرارة الماء في القعر (+٤°م). ثم إذا نقصت درجة الحرارة إنجمد السطح الأعلى فقط من البحيرة عن قشرة غير سميقة، ولما أمكن نزول هذه القشرة إلى القعر لخفته وبقي القسم الأسفل من البحيرة سالماً من الانجماد تعيش فيه الحيوانات بهناء وسرور.

فيرى أنه لو أطرّد انقباض الماء بالبرودة وتمدده بالحرارة كبقية الأجسام (أي لولا هذا الشذوذ رآفة بالحيوانات البحرية لتبقى حية) لانقلب البحر كله إلى جليد في فصل الشتاء ولتلفت الحيوانات كلها بتجمده ولا تمتنع التجارة البحرية ولا انقلب الجو بارداً بتأثير الثلوج البحرية ولتعسرت الحياة البشرية. فيستنتج من ذلك كله أن ليس للطبيعة العمياء أن تفكر في حياة الحيوانات البحرية والتجارة البشرية فتجعل كثافة الماء (+٤م) في النهاية العظمى خلافاً لبقية الأجسام.

يرى قوانين رياضية دقيقة منظمة لا تعد ولا تحصى في ربط الحوادث الفيزيائية بعضها ببعض كلها تحت أغراض حكيمة ومصالح دقيقة.

يرى مثلاً أن التيار المتناوب يفسر بالكميات المبهمة أو المحدثّة في معادلاتها في الفيزياء العالية.

يرى أن أشعة روتكن لها من الخواص ما يبهر العقول، وأن أشعة: أورانيوم وتورיום وراديوم تنقسم حسب نفوذها في المادة إلى أشعة: ألفا وبيتا. لكل منهما خواصها.

يرى أن أشعة (إس) كيف يحصل عليها من أشعة (اكس) ويحار في انتظاماتها وقوانينها.

يرى أن الأشعة الكونية لها من الآثار والقوانين ما يعجز عن استقصائها العلماء وإن اشتغلوا مئات السنين، حتى يقول الفيزيائي نحن في ساحل بحرٍ من المجهولات لا ندرك نهايته: ﴿وَأَن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: الآية ٢١].

يرى أن الأجزاء الصغيرة من الماء المعلقة في الهواء أو الأبخرة عند انقلابها إلى الثلج (الصقيع) تأخذ أشكالاً هندسية منظمة بديعة يعجز عن نحتها المهندسون.

يرى ويندهش من النظام المودع في مختلف أجزاء بدنه ووظائف كل من أعضائه وكذا في بقية الحيوانات: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: الآية ٤٥].

يرى أنه لو كتب عشرات الكتب في ما أودع الله من خواص وقوانين في عين الإنسان لكان هنالك أيضاً حقائق لا تعد ولا تحصى يجب أن تدون.

يرى أن الحيوانات قد جهزت بوسائل للدفاع عن نفسها إلى درجة معينة لغرض خاص

وأنها أقل من أن تفكر لنفسها في ما يسد رمقها ولكنها ترزق وتعيش على الرغم منها : ﴿وَكَيْفَ أَتَى مِنَ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: الآية ٦٠] .

يرى أن في الأرض أدوية متنوعة لأمراض الإنسان ، فلا يدري هل وجد الدواء قبلاً أم الدواء وما المناسبة بينهما وفي أي محل عقدا مؤتمر حفظ النسل الإنساني من الأمراض الفتاكة ؟ ومن أين أتت الحيوية (الحياة) إلى هذه الجرائم الحية المولدة لشتى الأمراض ؟ يرى عجائب لا تعد ولا تحصى في عالم النبات من بري وبحري والأمراض التي تعثرها وطرق معالجتها ، وإن الرياح تلعب دوراً في تحقيق مهمة اللقاح ولم يكن هناك توافق نظر بين الرياح والنباتات !

يرى الخوارق في حياة النملة وكذا في كثير من الحيوانات وتلك النقوش البديعة على أجنحة الطيور والحشرات يستوحي منها كبار المصورين ويعجز عن ابتداعها الفنانون ! يرى في الكيمياء النظام الرائع في تركيب العناصر وتشكل أجسام جديدة شتى : ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزِدَّادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: الآية ٨] . يرى ويحار من توزع الالكترونات حول البروتونات في بطن الذرة بطرز هندسي عجيب ويرى أن الإلكترون يسير بإرادة عالية حكيمة من الخارج ولا يتبع المصادفات بوجه من الوجوه .

يرى أنه لو كتب آلاف الكتب في تحقيق خواص الذرة ومعادلاتها لبقيت هنالك أيضاً حقائق مجهولة يجب الاعتراف بجهله لها : ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: الآية ٢٧] .

يرى المطالع في أحوال الكون أن الاختلاف ضارب أطنا به في كل شيء على وجه يؤدي إلى كمال الأشياء وانتظامها في سير متكامل لا يشوبه نقص . وهو دليل على إرادة الله تعالى في تنظيم الأجزاء المختلفة من هذا الكون . ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [٦] ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوُكُوفُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الروم: الآيات ٢١/٢٢] .

يرى المتتبع أن الجنين في رحم أمه لا يحتاج إلى عين أو أذن إلا بعد الولادة، وليس للطبيعة العمياء أن تفكر في المستقبل، بل من الخطأ أن تنسب الحكمة والتدبير إلى الطبيعة (وهي مخلوقة). فيستنبط من هنا أن الكمال شيء مطرد في الممكنات مستدام في جميع أدوارها.

يرى المفكر في أحوال الكون أن كل شيء قد أخذ قسطاً من الكمال بقدر استعداده وقابليته: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ يَقْدَرُهَا﴾ [الرعد: الآية ١٧]، وإن الكمال سائد في كل شيء ولا يشذ عنه شيء. فالذرة كاملة والبروتون كامل والنيوترون كامل والايونات كاملة والوردة كاملة وشعاع روتكن كامل: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: الآية ٤٤]. أي إن كل شيء في تمام كماله وكمال تكامله، وأنه يشير إلى تنزه الباري جل جلاله من كل نقص وإلى حسن إبداعه وجليل إتقانه الخلق: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: الآية ١٨]. ولكننا لا نفقه درجة هذا الكمال وحقيقة هذا التنزيه إلا بقدر ما توصلت إليه معلوماتنا ومعارفنا، ولم تصل معلوماتنا إلى حد نفقه بها تسبيح الأشياء والكمال المودع فيها إلا ظواهر ومعلومات ضئيلة نسلي بها أنفسنا، يغتر بها المغرور فيتردى إلى أسفل السافلين.

ولا ريب أن عدم تفقهننا تسبيح الأشياء إنما هو ناشئ عن الذنوب التي نرتكبها، فترين على قلوبنا (نفوسنا) فتكون حجاباً حاجزاً عن مشاهدة الحق والواقع. على أن الكثيرين ممن تطبعوا على المدنية الغربية لا يقيمون للذنوب وزناً ولا يعتبرونه. ﴿كَذَّابٌ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [المطففين: الآية ١٤]. إلا أن الله جل جلاله كما يرى في نهاية الآية المتقدمة حلیم غفور ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: الآية ٤٤]، فلا يترك عبده يتخبط في دياجير الظلمات بل يهيئ له (تفضلاً منه) دواعي التنبيه ويقبض له وسائل الهداية والرشاد في أهله ونفسه وصحبه ومجتمعه وبيئته، إتماماً للحجة وقطعاً لدابر العذر: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٩].

ثم يرى المدقق أن الله تبارك وتعالى قد خلق كل هذه الأشياء الكاملة في صنعها

لهذا الإنسان، فهل يجوز أن يكون الإنسان: (هذا الذي قد خلق لأجله جميع الأشياء في غاية الكمال) ناقصاً يفسد في الأرض، يظلم ويبغي، يزني ويفسق. ينهب أموال الناس ويرابي. ثم يرى - بحصر عقلي - أن الكامل وهو الله تعالى لا يصدر منه إلا الكمال. فكيف يجوز على الله أن يرى بين هذه المخلوقات المتكاملة مخلوقاً ناقصاً وأعني به الإنسان؟ فلا بد وأن الله تعالى يقيض لهذا (الإنسان) الذي خلق لأجله كثيراً من الموجودات وسائل عدة بغية تكميله وإيصاله إلى الغاية التي خلق لأجلها.

إذن بطريق عقلي بحث، يصل المتتبع في أحوال الكون إلى وجوب بعث الرسل وعدم خلو الأرض من حجة بالغة من قبل الله تعالى عملاً بسنة الكمال.

على أن الله تعالى قد أودع في النفس الإنسانية بذور التكامل والهداية بصورة فطرية. فإنه تعالى يقول: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا ۖ فَأَلَمَّهَا تَجْوَرًا وَنَقَوْنَهَا ۖ ۞﴾ (٨) قَدْ أَلَمَحَ مِنْ رُكْنِهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا ﴿١٠﴾ [الشَّمْسُ: الآيتان ٧/١٠]. ويقول في موضع آخر: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۖ ۞﴾ [البَلَدُ: الآية ١٠]. أي طريقَي الخير والشر. ألا ترى أن من لم يطلع على العلوم الطبيعية وغير الطبيعية قد تكون له عقيدة راسخة في الدين، تفوق عقيدة من توغل في كثير من العلوم، لأن كثرة العلم لا توجب الهداية بصورة مطردة. ولا تناسب درجة الهداية مع كثرة العلم، وإن الهداية شعاع يشع من نفس تعمل بالفطرة فلا تفسد في الأرض ولا تبغي ولا تجور، من نفس كلها عاطفة وإيثار وأخلاق فاضلة حميدة.

نعم، إن ما تقوم به الأيدي من أعمال وما تكسبه هذه النفس من درجات، هو الذي يسلك بالإنسان طريق الفلاح والصلاح. إن الأمي يكفيه نمو النبات وهبوط الأمطار ليعترف بوجود الخالق ويزداد يقيناً به تعالى ويعلم أنه إنما خلق لغاية سامية وغرض رفيع وأنه سائر نحو تحقيق تلك الغاية وذلك الغرض. ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَارِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَذَّاءً فَهْلَقِيهِ ۖ ۞﴾ [الانشقاق: الآية ٦].

إن الله تعالى يقول: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۖ ۞﴾ [الرُّوم: الآية ٣٠].

وفي الحديث: «كل مولود يولد على الفطرة، حتى يكون أبواه يهودانه وينصرانه

ويمجّسّانه^(١). فالمولود يولد موحداً معترفاً بخالقه، لكنه لذنوب يرتكبها ومآكل محرمة يتناولها، يتغلب عليه شيطانه، فيجعله متبعاً طريق والديه المعوج. وإنه لو لم يندس نفسه بالمعاصي والآثام، أو تمكن من غسلها بأعمال صالحة وتوبة واستغفار، لتوجهت نفسه إلى حيث النور، إلى حيث الكمال المنشود، ألا وهو الدين الإسلامي؛ دين الفطرة. فكم رأينا أفراداً ولدوا من آباء وأمّهات غير مسلمين ولكنهم وفقوا إلى اعتناق الدين الإسلامي لأهلية في نفوسهم وصفاء في أرواحهم.

إن الفيلسوف حسب وظيفته يبحث كثيراً عن المثل الأعلى (Superman) للإنسان، ولكن أنى لهذا الفيلسوف أن يصل إلى ما يريده الله تعالى وهو بعيد عن الله وملوث بشتى الجرائم التي تهلك النفس وتفسد السرور. أبعد القرآن يحق للفيلسوف أو لغير الفيلسوف أن يبدي نظرية في الكمال النفسي؟ أو يخط للبشر خطة تؤدي إلى سعادته في النشاطين؟ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٧]. ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٣٠].

إن من يرى ليالي باريس وما هنالك من مخازي ومفاسد يحكم بأن الإنسان هناك مسرف متجاوز الحد الذي عين لتكامله وهو في سيره السلبي يتدهور إلى أسفل السافلين. ومن يرى التقوى والورع والخشوع لله لدى المؤمنين واجتنابهم المعاصي من كبائرهم وصغائرهم خوفاً من الله تعالى، واهتمامهم في قضاء حوائج الناس وقيامهم بأعمال صالحة وما هم عليه من فضائل الأخلاق يحكم بأن هذا الإنسان قمين بأن يخلق له كثير من الموجودات وهو سائر في سير تكاملي يريده الله لعباده في الأرض.

فالإنسان إذا اتبع سنة محمد وآله الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين وجعل التقوى نصب عينيه، لا تأخذه في الله لومة لائم ولا تزحزحه عن طريق الحق مخالفة أهل زمانه، ثم ابتهل إلى الله جلّ وعلا بخشوع وخضوع وتذلل في إزاحة كيد الشيطان

ووساوسه عن نفسه الشريرة الجموحة العادلة عن الصراط المستقيم ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ
بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجَعَهُ رَبِّي﴾ [يُوسُف: الآية ٥٣] وقام جوف الليل محاسباً نفسه مستغفراً منيباً،
فصلّى وانقطع إلى الله بإخلاص تام، تفتح بصائر قلبه، فيهتدي إلى الحق، يمقت
الملاهي المفسدة للنفس، وتشتت نفسه من الأغاني المحرمة وإن لم يكن قد بلغه حرمة
ذلك، (وذلك لصفاء في نفسه)، فيترك مجالسة أهل الفسق والفجور ويمتعض من
معاشرة أهل البغي والسوء، ثم يبحث عن أشخاص هم أقرب إلى التقوى وقمع
الشهوات فيرتاح إلى مجالستهم ويستفيد منه غرر كلماتهم وجميل بياناتهم. ﴿وَالَّذِينَ
جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: الآية ٦٩]. فإذا رأيت
رجلاً يستبجح ما حرّم الله وهو يدعي الإيمان، اعلّموا أن إيمانه ناقص مبتور وإن في
نفسه من الأمراض المعنوية أمراضاً منعت أن يرى الحق فينطبع عليه.

تولستوي الفيلسوف الروسي المعروف، بسبب عطفه على الفقراء والمساكين
والبوساء وبذله أموالاً طائلة في سبيل خدمة الآخرين، قد رأى بصيصاً من الحق.
ولكن نفسه - أو قل - نتائج أعماله السابقة كانت أقل من أن تدعه ليرى الحق كله جلياً
أو يهتدي إلى صراط الله القويم (ألا وهو دين الإسلام). فكان تولستوي يبحث عن
الحق وبينه وبين الحق حجاب. وكان الحجاب نفسه. حتى كان مآل أمره أن خرج من
مزرعته هائماً على وجهه في برد قارس كان فيه هلاكه.

إن من ينظر إلى ولد لم يبلغ الحلم وهو يصلي بخضوع وخشوع، يركع ويسجد
للمنعم المنان، يعلم بل يقطع أنه عامل حسب ما لأجله خلق. لأن من شأن العبد
والمُنعم بنعم المولى أن يشكر مولاه. وذلك أمر فطري لا ينكره كل من كان له مسحة
من العقل. إلا إذا كان من الذين رانت ذنوبهم على قلوبهم فأصيبوا بعمى القلب؛ وهو
أشدّ عمى يصاب به الإنسان المسكين بما كسبت يده. ﴿لَا تَعْنَى الْأَبْصَرُ وَلَكِنْ تَعْنَى
الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الضُّلُومِ﴾ [الحج: الآية ٤٦]. فيستهزئ بالمصلي ويرى الصلاة شيئاً زائداً أو
(لا سمح الله) عملاً خرافياً، ولكنه يفرح ويبتهج لو رأى امرأة مسكينة في مقطع أحد
الشوارع تنظم سير السيارات تحت الثلوج، حين أن زوجها وأخاها لا شغل لهما
ويفتشان عن عمل فلا يلتفت إليهما. وهذا هو التبليل الاجتماعي بعينه.

نعم، لو زاغت النفس عن الفطرة يرى الفرد، الحق باطلاً والباطل حقاً، فتتردى هذه النفس للذنوب أدبرت لذاتها وأقامت تبعاتها. إن الله تعالى يقول: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: الآية ٤٤].

نعم، إن الغربي ليقدر وفاء الكلب إذا وفي لصاحبه وحرسه بكل نشاط وإخلاص ويكتب في إطراره والثناء عليه كتابات قيمة كثيرة. وإنك لا ترى كتاباً للمطالعة إلا وفيه وصف لوفاء الكلب وأنه يقابل الإحسان بالإحسان ويشكر بأعماله ووفائه. أجدد الإنسان وهو أشرف المخلوقات أن يكون أحط من الكلب في تقدير نعم الخالق التي لا تعد ولا تحصى والقيام بواجب الشكر بصلاة وزكاة... ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٤].

يتعجب الإنسان ويندهش عندما يرى رجلاً من الغرب يتقبلون في نعم الباري جلّ جلاله في قصور مشيدة وأبنية فخمة ومناظر جذابة مع خدم مطيعين في خفض عيش ودعة وسرور وحبور مع ذلك كله لا يخطر ببالهم أن يفكروا في من أولاهم هذه النعم ومن أين أتتهم، فيقوموا تجاهه بواجب الشكر.

وقد يكون أحد هؤلاء ذلك الفيلسوف الذي يريد أن يضع قوانين لسعادة البشر! متبخرأ بفلسفته الواهية الحالكة، مغروراً ببياناته السخيفة، يريد أن يسن للبشر سنن الرقي والتكامل وهو في آخر درك من النقصان. هذا (بنتهام) فيلسوف من فلاسفة الغرب يقول: «إن الأخلاق يجب أن تقوم على المنافع المقابلة». وهل هذه أخلاق أم تجارة بأخس معانيها أم بهيمية أو شيء أحط من البهيمية؟ ﴿مَا يَجْدِلُ فِي إِيمَانِكَ اللَّهُ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْزُرَكَ نَفْسُهُمْ فِي الْبَلَدِ﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: الآيتان ٤/٥].

قد يقول الشخص أمثال (روكفلر) و (فورد): إنا قد حصلنا عليه بجهد واجتهاد وغيرنا لم يتمكن من ذلك. وقد فاته أن الله هو الذي قد هيا له أسباب هذه الثروة الطائلة وأوجد له إمكانيات، هيا له ظروفاً خاصة ولولا توفيق الباري جلّ وعلا لكان حاله حال أحد عماله. وقد يكون أحد عماله أقرب إلى الله. وكم بين عماله من هم أشد منه قوة وذكاءً واجتهاداً وسهراً على المصالح الدنيوية!!

﴿إِنَّ الْقُرُونَ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ مُؤْمِنٍ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُفُورِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِينَ ﴿٧٧﴾﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أُولَٰئِكَ لَمْ يَعْلَمِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ دُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الإنسان: الآيات ٧٦/٧٨].

ذكر لي أحدهم وكان من الذين درسوا الفلسفة الغربية: أنه استقال من وظيفة هامة وعمد إلى تجارة الأفرشة والسجادات وكان يملك شيئاً من المال. فكانت تتوارد عليه الأرباح مع جهله بنوعية الأفرشة. وبعد ثلاث سنوات وقف على أنواع الأفرشة جيدها ورديثها وصار يميز بينها تمييزاً صحيحاً. فقدر لنفسه أنه سوف يكون مع هذا الاطلاع أحد كبار الأثرياء بعد قليل. ولكن انعكس الأمر، فتراكمت عليه الخسارة وحوادث مؤلمة تباعاً، وأفلس قسم من التجار الذين كانوا يتعاطون معه، فكان عاقبة أمره الإفلاس أيضاً. وصار يحتاج إلى قوت يومه. وقد رأته ذات يوم وهو في هذه الحالة، فدنا مني قائلاً: أمسيت في حالة أخشى أن تضع الناس في يدي فلساً زاعمين أنني سائل مسكين! ثم سكت وقال: إني علمت الآن: إن الله هو مدبر الأمور وهو الموفق وليس الفن كل شيء، وإن هناك بدأ خفية لها أثرها في تسيير الأمور. فمهما كان الإنسان موهوباً، لا بد من يد خفية تساعد في النجاح وتهيء له الفرص على أن المواهب كلها منه تعالى ثم قال: إن ما درسته من الفلسفة الغربية هواء في شبك، وعلمت بعد التجارب أنها تفكير بشري لا توافق الواقع وأيقنت أن نصيحة أمي - وأنا طفل صغير - هي كل الحقيقة وتمام الحقيقة. إنها كانت تقول لي: «ولدي، كل شيء بيد الله تعالى».

وصادف رجلاً آخر كان قد ترك الصلاة واندمج في زمرة من لا يخشى الله. ففصل عن وظيفته وبقي لا عمل له، فباع كل ما لديه لبقثات بثمانه، فنقد ما لديه. وبقي حائراً يعالج الجوع. والجوع خير مرب في كثير من الأحيان. ففكر في نفسه وفي الغاية التي خلق لأجلها مدة سنتين وهو في حالة يرثى لها. حتى أيقن أنه محتاج، وأن الحاجة لا

تعرض إلا على أغنى الأغنياء ومعطي الغنى وهو الله . فابتهل إليه جلّ وعلا وخشع وتذلل وبدأ يصلي ويصوم ويقدس المقدسات . فحسنت أخلاقه وتحسنت سريرته وطابت نفسه ثم إنني أحببت أن أستقصي سبب هذا الانقلاب التكاملي . فكنت ذات يوم في بيته عند الغروب ، رأيته حاملاً أمه العرجاء وقصد بها إلى السطح ، وكان يأتي بها هكذا عند الصباح إلى ساحة الدار ، يقدها أيما تقديس . رأيته عطوفاً على أخيه المسكين الذي كان عالة عليه ، وصولاً أرحامه . رأيته يساعد الفقراء والمساكين . فعلمت أنه لم يقطع صلته بالله تعالى في زمن كان قد ترك الصلاة فيه . فصرت أنصحه . فوجدته يوم الجمعة في روضة الإمامين موسى والجواد عليهما السلام يصلي . فهنأته على رجوعه إلى صلاته وهديه .

ثم انه دعاني يوماً إلى طعام . فجيء بالمائدة وانتظرت قليلاً حتى حضر . سألته عن سبب التأخير . قال : أليت أن لا أتناول ما منّ الله به عليّ من عظيم الرزق حتى أشكره بصلاة قبلاً . وأصبح رجلاً ديناً يشار إليه بالبنان .

نعم ، هكذا تعمل النوائب في تكميل بعض النفوس . فإن إخراجهم من الوظيفة وتجرحه آلام الجوع والفقر فتحا عليه أبواب الهداية . لأن المعدة المملوءة قد تكون حجاباً حاجزاً عن الوصول إلى الحق ، وإن أبخرتها الكثيفة تغشي الحقائق فلا يشعر الإنسان إلا بشهوة نفسه . وهذا أحد الأسباب التي سنّ الله تعالى من أجلها الصوم . وأحد أسباب استحباب الزهادة في الدنيا . ولا بأس بذكر هذا الحديث في المقام : قال سعد لسلمان المحمدي ، في مرضه : كيف تجد نفسك؟ . فبكى ، فقال : ما يبكيك؟ قال : «والله ما أبكي حزناً على الدنيا كزاد الراكب ؛ فأخاف أن أكون قد تجاوزت ذلك . وليس حوله في بيته غير مطهرة وإجانة وقصعة» .

وقد يتعجب البعض من ذكرى هذا الحديث في عصر قد بلغت فيه الكماليات أقصى الحدود حتى لم تبق وقتاً للعبادة . كأنه نسي قول الله تعالى : ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ ثُمَّ يَسِيحُ فَرَنَهُ مَصْفًى ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا

كيف يجب أن نكون ١٧٩.

إِلَّا مَتَّعَ الْعُرُورَ ﴿٢٠﴾ [الحديد: الآية ٢٠] . إن الدين يعطينا المثل الأعلى في الكمال النفسي لأفراد (Superman) هم أوتاد الأرض . وكل يأخذ من هذا الدين حسب اختياره بمقدار ما يشاء .

إن الله تبارك وتعالى يتم الحجة على العباد بغية تنبيههم وإرشادهم إلى سبل الرشاد بمرض أو ضنك في عيش أو غرق أو عواصف وزلازل وبلايا أخرى . لعل العبد يفكر في عاقبة أمره فيعالج نفسه المريضة . إن الله تعالى يقول : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: الآية ١٩] . وفي آية أخرى : ﴿وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: الآية ٤٨] . وفي أخرى : ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٦٨] .

يتجلى الكمال النفسي في الدرجة الأولى في (الشكر) . فمن كان شكره أكثر كانت نفسه أسمى وأكمل . فلا يجب أن ينخدع الشخص بعلم الأستاذ لأنه أستاذ ورب أستاذ لنعم الله جاحداً . إذ لا رابطة بين العلم والكمال النفسي . يقول زين العابدين عليه السلام مخاطباً رب العباد : «كيف لي بتحصيل الشكر، وشكري إياك يفتقر إلى شكر . فكلما قلت : لك الحمد، وجب عليّ لذلك أن أقول : لك الحمد»^(١) .

وإنما كان الأنبياء عليهم السلام أنبياء ، لعظيم شكرهم وكمال إخلاصهم . فقد فدى إبراهيم عليه السلام بجميع غنمه عندما سمع من ينادي : «سبح قدوس ربنا ورب الملائكة والروح» . ويقول الله جواباً لأولئك الرؤساء الذين تعجبوا من إيمان من آمن من الضعفاء : إنهم إنما آمنوا لشكرهم : ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: الآية ٥٣] .

إن الصلاة المفروضة نوع شكر . وقد ورد في الأخبار : يستحب للعبد أن يقول كل

يوم ٣٦٠ مرة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. وهذا قليل مما ينبغي أن يقوم به العبد من واجب الشكر تجاه خالقه وبارئه.

وقد يقول الجاهل المغرور: ليس لنا من الوقت ما يكفي لإقامة الفرائض فضلاً عن المستحبات. ولكنه يقضي ساعات عدة في المقاهي، يتعاطى فيها الميسر، يغتاب فيها الناس ويقوم بالنسيمة، فيصرف أوقاتاً غير قليلة في اللهو واللعب: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْكَامُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: الآية ٩٠].

إن الله تعالى أكد في تحريم الخمر والميسر وعظم أمرهما بجعلهما من الرجس وقرنهما بالأصنام والأزلام وجعلهما من عمل الشيطان. فمن تعاطى الخمر أو القمار كأنه عبد الأصنام وقدها. والحق، أن من كان محبوه الخمر أو القمار كأنه عبد الأصنام وقدها. والحق، إن من كان محبوه الخمر والميسر لم يكن له طريق إلى المقامات القدسية وتدهور إلى أسفل السافلين، فيكون مأكله ومشواه ما يناسب نفسيته المتسافلة ألا وهو الجحيم. فعلى الآباء أن يمنعوا أولادهم من ارتياد المقاهي ومجالس القمار واللهو والرقص.. إلى ما هنالك، وأن يحذروهم مجالسة الأوغاد والسفلة من الناس وأن يجبروهم على أداء الصلاة والقيام بالفرائض الدينية ويعرفوهم كبائر الذنوب وصغائرها، وأن يعوّدوهم مساعدة الفقراء والمساكين والأعمال الصالحة وحسن المعاملة وصلة الرحم ومراعاة الجيران، وأن يحذروهم عواقب الخيانة على حساب الآخرين. فإن ذلك أوجب وأهم من الطعام والثياب. ذلك لأن عاقبة مروق الولد من الدين نار مُسْعِرة: ﴿كَأَلَّا إِنَّمَا لَطَىٰ ۖ نَزَاعَةٌ لِّلشَّوٰى ۖ تَدْعُوْنَ مِّنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۖ﴾ [المعارج: الآيات ١٥/١٧].

إن الله تعالى يقول: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَوَ أَنفُسِكُمْ وَأَفْلِكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: الآية ٦].

وكم نرى في زماننا هذا آباء يعطون أبنائهم، يرشدونهم ويهدونهم سواء السبيل، ولكن أبنائهم يسخرون منهم في قلوبهم ويصمونهم بالخرافة والرجعية! فإذا رأوهم صلوا، وإذا غابوا عنهم رجعوا إلى غيهم. ﴿يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا

أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِمْ نَرَضُ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لُعُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ فَمَا رَبَحَتْ بِمَحْرَجَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ [البقرة: الآيات ٩/١٦].

إن كثيراً من الأبناء اليوم لعوامل شتى هم مصداق هذه الآية: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَلَدَيْهِ أَفْنِي لَكُمَا أَتَعِدَانِي أَنْ أَخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَكْبِرَانِ اللَّهُ وَبِكَ ءَامِنُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأحقاف: الآية ١٧].

من تلك العوامل: خلو التعليم عن دراسة دينية صحيحة وتربية أخلاقية متينة وعدم إدخال دروس الدين في المدارس العالية، وعدم إعداد مدرسين أكفاء لتدريس الدين وعدم تعيين مفتشين للدين بصورة خاصة للمدارس الابتدائية والثانوية والعالية وإعطائهم صلاحيات واسعة، وتقليد الغرب في فلسفتها المادية وأخلاقيها النفعية. عندما يدرس الإنسان الدين الإسلامي ويتبع أوامره ونواهيه في المأكل والمشرب ومعاملة الجار والأرحام وفي جميع مرافق الحياة الاجتماعية والاقتصادية وينظر في ما أمر به من عبادات بدنية ومالية وما نهى عنه من معاملات في المتاجر والمكاسب يقطع أنه هو دين الله في أرضه، هو دين يأخذ بهذا الإنسان الناقص إلى حيث الكمال المنشود.

الترتيب لا يولد الحياة

جاء في مقال: (الحياة في علم الحياة) في العدد السادس من مجلة الاعتدال الغراء نقلاً عن مذهب الماديين: «أن العلماء الحديثين قد ذهبوا مذهباً آخر في تعليل كيفية حلول الحياة في مادة (البروتوبلازم) (protoplasm) وذلك بأن المقدرة على القيام بالأعمال الحياتية ناتجة عن ترتيب خاص واندماج أو تآلف معلوم بين العناصر التي تكون مادة البروتوبلازم الحية».

وبما أن هذه النظرية عارية عن الصحة لا يعترف بها الفلاسفة المحيطون بمبادئ كافة العلوم وأكثر العلماء الحديثين، أحببت أن أرد هذا الرأي، مع علمي أنه ليس من رأي كاتب المقال ولا معتقده، دفعاً للشبهات ودرءاً لزللة الشبان، وانجذابهم إلى المذهب المادي الفاسد (Materialisme).

إن الدليل الذي يقيمه الماديون على أن الترتيب هو الباعث لحلول الحياة في مادة البروتوبلازم، كما جاء في المقال، هو أن: (ترتيب ذرات الهيدروجين والأكسجين والكربون، حسب نظريات الكيمياء العضوية الثابتة، ينتج مواد عضوية كالسكر والخشب والنشأ وما أشبه).

وليت شعري هل السكر بعد قطع علاقته من النبات شيء حي له أعمال حياتية كالتنفس والإفراز والتغذي والنمو والتوالد وهكذا الخشب والنشأ. فمن شاهد تنفساً وتغذيةً ونمواً للخشب الموضوعة فوق منضدة الكتابة طوال السنين له أن يدعي بأن فيها حياة تشبه ما عرفناه آنفاً. وهكذا الحياة للحوامض الحاصلة عن ترتيب خاص للذرات الأكسجين والهيدروجين مع عنصر الكبريت أو الكلور على ما هو معلوم في الكيمياء. نعم، إن الحوامض تمتاز بخصائص مختصة بها، ولكن هذه الخصائص عوارض مادية فاقدة الحياة. ولا شك أن ترتيب الذرات بنهج خاص يسبب خواص جديدة، ولكن الخواص هي آثار مادية غير حياتية، ولا تشبه آثار النبات والحيوان من حيث التغذية والتمثيل والتنفس إلى غير ذلك.

وبما أن عملية الترتيب عملية مادية، فالمعلول يكون أمراً مادياً أيضاً ولا يتجاوز حدود المادة، لأن الحيوية مفهوم غير مادي وليس للمادة أن توجد ما ليس فيها. ومعلوم، أنا إذا رتبنا آلات مضخة الماء الرافعة (مثلاً) حسب ما يجب، فهل تتحرك بنفسها دون أن تحركها قوة خارجة عنها مسيطرة عليها مؤثرة في آلاتها وأدواتها؟ كلا، ولا مرأ أن روح تلك القوة بما هي قوة ليست من جنس المادة من حيث هي مادة وبينهما بون عظيم. وإذا استطاع العالم بعلم الحياة أو (Biologiste) (Biologue) أن يقتل حشرة ويأخذ المواد المشكلة لها كالأوكسيجين والهيدروجين والكربون

والآزوت (نيتروجين: Nitrogene) إلى غير ذلك بمقدار ما هو موجود فيها، ويرتب هذه العناصر على الترتيب الذي يراه فيشكل منها تلك الحشرة الحية، له أن يعترف أن الباعث للحياة هو الترتيب والتأليف؛ ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبٌ مِّثْلُ مَا سَمِعُوا لَكُمْ إِنْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج: الآية ٧٣] .

فالترتيب عملية موجودة في جميع العناصر غير الحية. ولولا الترتيب لما أمكن وجود العناصر المختلفة بصرف النظر عن وجود الحياة. فإن النظريات الحديثة التي لا تزال في تزلزل وسقوط، تدعي اليوم: أن كل آتوم (ذرة) مركب من بروتون: (الكهربائية الموجبة) المجتمع في الوسط والمحاطة بالالكترونات: (الكهربائية السالبة) المحدودة وعدد آخر من الالكترونات بحيث يساوي زيادة عدد البروتونات على الالكترونات المحيطة المحددة. وبذلك يتساوى عدد الالكترونات وعدد البروتونات في كل ذرة، إلا أن البروتونات كلها مندمجة في الوسط. فمثلاً: ذرة الليثيوم مركبة من (٧) بروتونات و(٤) الكترونات محددة.

وإذا رسمنا مكعبات حول المركز (البروتون) في إمكاننا أن نضع (٣) الكترونات في رؤوس المكعب ليكون عدد الالكترونات مساوياً لعدد البروتونات. وإن العدد الذي لكل عنصر يعادل عدد البروتونات أو عدد الالكترونات الموجودة في ذلك العنصر. وإن هذه النظرية المسماة. بنظرية (أو كنت) أبديت من قبل (لويس) و (لانكمو) الأمريكيين. إلا أن هناك نظرية أخرى، تدل على أن الالكترونات، التي توضع في رؤوس المكعب كما رأينا في ذرة الليثيوم والتي نسميها أقماراً، تدور حول البروتونات المندمجة في المركز، كالكواكب السيارة التي تدور حول الشمس.

وإذا سلمنا بالنظرية الأولى نرى أن العناصر كلها من كلور، حديد، ليثيوم (Lithium) كالسيوم، هيدروجين هليوم... الخ. مركبة من (بروتون) و (الالكترون). ومع اختلاف خواصها فإنها مركبة من شيئين متساويين في العدد، مجهولين من حيث الماهية ومرتبين بترتيب خاص. ولولا هذا الترتيب والاختلاف في العدد لما وجد

عناصر مختلفة ولما حصل اختلاف في الخواص المادية . فالترتيب واختلاف العدد يوجب أن تبدل الخواص الكيميائية فحسب ، لا الحياة !

على أن الترتيب لا بد له من مرتب . فلا يأتي الترتيب المؤدي إلى وجود عناصر مختلفة وإلى وجود ارتباط بين أجزاء العالم ارتباطاً وثيقاً ، عفوياً . ومحال أن يعترف العقل الإنساني بأن الترتيب المؤدي إلى وجود ما لا يعد ولا يحصى من الموجودات - وهي في غاية النظام وتمام الإنقان - يأتي جزافاً دون تروء وحكمة .

يقول أحد علماء الطبيعة رداً على نظرية الترتيب والصدقة : إننا لو وضعنا في كيس عشر قطع متماثلة من المعدن وقد كتب عليها الأرقام من (١) إلى (١٠) بالترتيب ، فلاحتمال في أن نعر على رقم (١) هو واحد من عشرة . ولو أردنا أن نظفر بالرقمين (١ - ٢) بصورة متتالية فلاحتمال يكون : واحداً من مائة ، وإذا أردنا أن نظفر بثلاثة أرقام متتالية ، فمرتبة الاحتمال تكون واحداً من ألف ، وإذا أردنا أن نوفق إلى سحب الأرقام من ١ إلى ١٠ بصورة متتالية فمرتبة الاحتمال تكون واحداً من عشرة آلاف مليون . وإذا علمنا أن الأجزاء التي ترتب هذا الكون مختلفة ، ومتعددة جداً ، وإن ما خلق الله من الموجودات تكاد لا تتناهى ، وإن الترتيب في هذه الموجودات يختلف بعضه عن بعض ، إذن ستكون مرتبة الاحتمال :

$$\frac{1}{10^n}$$

فإذا كانت، $n = \infty$ (أي n تساوي اللانهاية)

$$\text{إذن :} \quad \frac{1}{10^n} = 0 \quad (\text{صفر}) \quad \text{غـ} \quad \infty \leftarrow n$$

$$\text{أي أن :} \quad \frac{1}{\infty} = 0 \quad (\text{صفر}) \quad \text{غاية} \quad \text{لا محالة}$$

يستنتج مما سبق أن قيمة الاحتمال أو الصدفة تساوي الصفر. أي ليس هناك صدفة أبداً^(١).

فليس في الإمكان: أن أجزاء لا تتناهى من هذا الوجود من مادية وغير مادية تترتب ترتيباً بديعاً محيراً للعقول، يؤدي إلى انتظام رائع نشاهده في هذا الكون، لاسيما وجود هذه الحيوية في النبات والحيوان ووجود هذا العقل الإنساني! ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿١﴾﴾ [الرعد: الآية ٢]. وفي آية أخرى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الرؤم: الآية ٤٨]^(٢).

تقول نظرية لابلاس: إن الأرض كانت في الابتداء قطعة نارية في درجات عالية من الحرارة. فما كان يمكن أن تعيش على سطحها آن ذاك لا حيوان ولا نبات ولا مكروب. فمن أين إذن جاءت هذه الحيوية (أو الروح) للحيوان والنبات والميكروبات لولا خلق الله إياها؟ ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾ [التور: الآية ٤٥].

أنى للصدفة أن تضع معادلات دقيقة وقوانين محكمة تربط أجزاء العالم بعضها ببعض وأنى لها أن تخلق الروح والعقل. ثم كيف وجدت هذه الأجزاء المترتبة؟ هل وجدت في آن واحد؟ (وهذا مالا يوافق عليه العقل لما يشاهد من موجودات جديدة)، أم وجدت تباعاً؟

(١) على أن ما فكر فيه هذا العالم من نظرية الاحتمال لا تنطبق تماماً على هذا الكون لأن الأشياء لم تكن موجودة كلها قبلاً وإنما وجدت بأمر الله تباعاً ويترتب بديع وتحت نظم وديساتير. ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَرَأْسٍ ثُمَّ مِنْ نُفُوسٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ [فانر: الآية ٦٧]. ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [التحل: الآية ٨]. ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [فاطر: الآية ١].

(٢) الودق: المطر.

فمن الذي أوجدها تباعاً ووضع دستور التتابع والتسلسل في أجزاء لا تتناهى بحكمة فائقة ونظام رائع. ثم أن الجزء الأول هل وجد من تلقاء نفسه وهو في غاية الحاجة والافتقار ومولف من عناصر عدة، في فضاء لا بد له من خالق؟ ومن رتب هذه العناصر ترتيباً حكيماً محيراً للألباب؟

ثم من الذي وهب له روحاً تحركه وتعطيه قابلية الإيجاد والخلق والتنظيم بقوانين وقواعد رياضية رصينة. أم ماذا؟ ﴿فَلِلَّهِ الْكُفْرُ الْبَاطِلُ وَمَا كَانَ اللَّهُ بِمُتَّبِعٍ لِّلْكَافِرِينَ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَٰؤُلَاءِ فَسَيَكُونُوا سَبْعًا مِّنْ أَصْنَافٍ مَّا يَتَّبِعُهُمُ الْغَايِبُ إِنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: الآيتان ٣٢/٣٣].

يتألف محرك الصاروخ من (٣٠٠,٠٠٠) قطعة. فإن كان صنع إحدى هذه القطع يخالف الهندسة التي يجب أن تصنع بحسبها مخالفة بسيطة ولم تبدل الدقة المتناهية في إنتاج كل قطعة أخفق الصاروخ عند إطلاقه وفشل. فكيف بهذا العالم المؤلف مما لا يتناهى من قطع في عالم الجماد والنبات والحيوان، ثم ارتباط هذه العوالم بعضها ببعض عدا عوالم الأرواح والعقول.

كما أن للمفكر أن يفكر من الذي هندس القطع التي تتألف منها محرك الصاروخ أم وجدت من تلقاء نفسها، حتى يأتي دور الصدفة! على أن درجة الاحتمال في هذا الترتيب هي الصفر لاسيما إذا كانت الأجزاء لا تتناهى.

إذن وجب بحصر عقلي أن يعترف العقل أن هناك خالقاً قديراً وقد أعلى الوجود، وأوجد الأشياء بقدرته ورتبها بحكمته. ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: الآية ٣٦].

وفي خلق الله تعالى جميع ما في الكون من حيوان ونبات وجماد^(١) بصورة زوجية حكمة بالغة، كي يوقن هذا الإنسان أن الوحدة خاصة بالله تعالى، لا يشاركه فيها

(١) الذرة تتألف من الكترون (كهربية سالبة) وبروتون (كهربية موجبة). وتدور الالكترونات حول البروتونات كما في المنظومة الشمسية. وإن كل نجمة نراها في مسافات شاسعة هي في الواقع نجمتان، تدور إحدهما حول الأخرى. تحقيقاً للزوجية في عالم التكوين.

أحد، وأن كل شيء من المخلوقات لابد له من شريك ومزاج: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^١ وَهُوَ السَّيِّعُ الْبَصِيرُ ﴿[الشورى: الآية ١١] .

وإذا سلمنا بالنظرية الثانية: (وهي أن الالكترونات في الذرة تدور حول البروتونات المندمجة في المركز، كالمنظومة الشمسية)، نرى أن الحركات حول المركز كلها متماثلة، إذن لزم أن يكون كل ما في الكون متحركاً من الابتداء! فما هو إذن هذا التفاوت في الموجودات يا ترى؟ ثم من أين أتت هذه الحركة: حركة الأقمار أو الالكترونات حول البروتونات. ومن المحرك لها؟ ومن جاء بهذا الترتيب وهذا النظام حتى وجدت هذه العناصر؟

وسواء سلمنا بالنظرية الأولى أو الثانية فإن الالكترون (الذي هو القوة بعينها) موجود في ذرات الأجسام، إذن ليست الذرة بشيء مادي بحت. فكيف إذن: انقلبت الطاقة أو القوة إلى مادة؟ وقد ثبت حديثاً أن المادة تتحول إلى طاقة وقوة: إما بالإشعاع أو بطرق أخرى. وأول من عثر على هذه النظرية (مادام كوري) مدرسة الفيزياء في جامعة (السوربون) حينما وضعت في جيبها قطعة من الراديوم أدت إلى خدشه في صدرها بنتيجة الإشعاع وقد خف وزنها بعد مدة.

ولسائل أن يسأل: من أين جاءت هذه الطاقات الهائلة التي تكاد لا تنتهى حتى شكلت هذا العالم المادي. وقد وضع الله تعالى ذلك في القرآن الكريم بقوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِثْقَا ذَرَّةٍ فِي الْمِصْبَاحِ الَّتِي فِيهَا زُجَاجَةٌ كَأَنَّهُ تُورِي قُدْرًا مِنْ شَجَرٍ مُبَارَكٍ زَيْتُونُهُ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ تُوْرُ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [النور: الآية ٣٥].

وقد صرح الدكتور (كرستاولبون) في آرائه الفلسفية: أن تحول المادة إلى القوة مما أوجب إفلاس الماديين (Materialistes) وتقهرهم. فوجب إذن أن نعترف بأن قوة خفية مدبرة عظيمة تسيطر على المادة (التي مخلوقة لها)، فتعطيها الحياة وتجعلها نباتاً، فحيواناً، فإنساناً وهو الله تبارك وتعالى، وأن جوهر الحياة ليس بمادي. كما أنا نرى أن للإنسان نفساً مجردة عن البدن حاكمة عليه. (يعترف بذلك العلم الحديث بعد انكشاف بعض حقائق الذرة).

إن الإنسان يرى في منامه أنه يسافر إلى بلاد شاسعة ويقوم بأعمال غريبة وقد تستمر أعماله ليالي وأياماً، وبدنه المادي ملقى على فراشه. أليس الذهاب إلى البلاد النائية والقائم بأعمال مختلفة هو نفسه التي بين جنبيه؟ مع أن النوم لم يستمر إلا سويغات ولكن الأعمال قد تستمر أكثر من ذلك.

وقد اكتشف حديثاً: أن الماء ليس مركباً من الأوكسجين والهيدروجين فحسب بالنسبة المعلومه، بل فيه ما لا يدخل تحت المجهر (ميكروسكوب) والأدوات والمواد والمؤثرات التحليلية الموجودة في المختبرات، وهو قوة حيوية مفيدة. فإذا كان في الماء شيء غير مادي، موجب للحياة، فكيف لا يوجد في (البروتوبلازم) وقد قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: الآية ٣٠].

يقول (بركسون) الفيلسوف الفرنسي: «إن ما حدا بالإنسان إلى النزعة المادية في تفكيره، هو ارتباطه بالمكان ارتباطاً وثيقاً». وإن من يقف على أفكار هذا الفيلسوف الدقيق لا يلبث أن يستهزئ بمبادئ الماديين السخيفة الذين أخذوا في هبوط مستمر بعد تقدم علم النفس وتسخير الأرواح أو تحضيرها في الغرب. (على أن إحضار الأرواح عمل حرّمه الدين الإسلامي. وعدّه من كبائر الذنوب كالسحر والتنجيم).

أرى أنه من واجب كل مسلم أن يعلم: أن ليس للغرب مع اندماجه في حياة مادية مدلهمة أن يمد يداً إلى ما وراء الطبيعة على حد قول (كوستاولوبون)، فإنه كان يقول: «لقد علمت الفلسفة بعد عناء طويل أن لا سبيل إلى ما وراء الطبيعة».

ولكنه لو تمسك بدين محمد ﷺ وعبد الله وأطاعه وقام بأعمال صالحة لوجهه تعالى وجرد نفسه مما علق بها من غرور ودنس ورجس وأوساخ مادية وترك عبادة المادة والزخارف الدنيوية حتى يبلغ مرتبة المخبتين وتكون نفسه مطمئنة بعد أن كانت أماره بالسوء، فلوئمة لآمن بما جاء في الدين مما يتعلق بما وراء الطبيعة، وكان من الذين: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: الآية ٣] ولدخل في زمرة أولئك الذين يقول علي عليه السلام: «وهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون. قلوبهم محزونة وشرورهم مأمونة، أجسادهم نحيفة وحاجاتهم خفيفة».

وأنفسهم عفيفة. صبروا أياماً قصيرة أعقبتهم راحة طويلة. تجارة مربحة يسرها لهم ربهم. أرادتهم الدنيا فلم يريدوها. وأسرتهم فقدوا أنفسهم منها. أما الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن. يرتلون ترتيلاً. يحزنون به أنفسهم ويستثيرون دواء دائهم. الخ...»^(١).

ذلك لأن ليس للإنسان أن يدرك المجرد ويوقن به قبل أن يتجرد مع كونه في عالم الشهود. فإن الذنوب والآثام والشهوات والنزوات ظلمات بعضها فوق بعض، تحجب النفس الإنسانية عن رؤية الحق والواقع وتمنعه من أن يمد يداً إلى ما وراء الطبيعة فيكون من الذين لا يؤمنون بالآخرة وتزين له أعماله ويظن بل يوقن أنه سائر سيراً حسناً وأنه من المهتدين! ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِرُونَ ﴿٥﴾. فليجرب من كان يرتاب في ما أقول. فلقد شاهدت أناساً كانوا منحرفين وقد وفقوا بفضل من الله أن يخطوا في ساحات الكمال بعزم رصين، فصاروا ممن يؤمنون بالغيب وقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وذلك بترك المعاصي والآثام. وكم شاهدت من أطباء وغير أطباء يحضرون مجالس الوعظ والإرشاد ومجالس تفسير القرآن الكريم بخشوع ورغبة، ورأيت من بين هؤلاء متعجدين متعبدين، يقومون بأعمال صالحة.

* * *

واني أكرر هنا دستور تكامل النفس بصورة بسيطة: كل ردع لهذه النفس عن مشتبهاتها المحرمة يفتح على الإنسان باباً من أبواب الهداية، فقد جاء في الحديث: «النظرة سهم مسموم من سهام إبليس لعهن الله، فمن تركها خوفاً من الله آتاه الله إيماناً يجد حلاوته في قلبه»^(٢). ويراد بالنظر: النظر إلى من حرم الله من النساء. وكل ذنب يقتربه الإنسان يسد عليه باباً من أبواب العقل الفطري الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيسد عليه باباً من أبواب الهداية. فيلج إذ ذاك شيئاً فشيئاً في أودية من الضلال

(١) بحار الأنوار: ج ٦٤، ص ٣١٥، باب ١٤. نهج البلاغة، خطبة المتقين.

(٢) مستدرك الوسائل: ج ١٤، ص ٢٦٨، باب ٨١.

والظلمات . دليل ذلك : ما قاله علي عليه السلام : «من قارف ذنباً فارق عقل لم يعد إليه أبداً» .
إن التركيب والتحليل وما في المختبرات من أجهزة دقيقة فنية للقيام بتجارب في الفيزياء (physique generale) و (Biologie) (Bacteriologie) لا تكفي للاطلاع على حقيقة الحياة أو الحيوية الموجودة في النبات أو الحيوان . على أن التجربة وحدها لا تفيد علماً يقيناً إذا لم تكن مستجمعة للشروط اللازمة من الوضع والمكان ومختلف الحالات . كما أن أخذ النتيجة من التجربة على فرض صحتها ليس داخلياً في التجربة نفسها . فالتجربة شيء والاستنتاج أو الاستقرار شيء آخر . أي أن التعليل وربط المشاهدات والنتائج ليس بأمر مادي .

إن مظاهر التجربة أمور مادية والاستنتاج أمر عقلي . وقد يقوم الشخص بتجربة فيستنبط منها نتيجة مغلوطة لنقص في المحاكمة أو لاستيلاء الميول الخاصة على القوة المفكرة ، فتصبح النتيجة غير صحيحة . فينساق إلى قبول هذه النتيجة المغلوطة أناس عقولهم بعين الدرجة من ضعف المحاكمة ، لظلمات في النفس ، ونفسياتهم متفقة مع نفسية هذا المجرب المنحرف أو قريية منها^(١) . فتصبح النتيجة المغلوطة برهة من الزمن كحقيقة راهنة ثابتة : ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوَى السَّوَاءُ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الرؤم : الآية ١٠] حتى يقبض الله من يقوم بتجارب أخرى مع استنتاج صحيح فيردّها ويجرحها . وقد وقع ذلك في أوروبا مراراً . فقد أخفق المادي مرة بعد أخرى ! ولكن آثامه حجت عليه طريق الهداية وأخذ يتشدد باسم العلم ! وبينه وبين العلم مسافات لا تحدد . ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين : الآية ١٤] .
فالنظريات تتبدل من حين إلى حين ولا ينبغي أن يعتمد عليها وتتخذ كحقيقة يستحيل عليها التزلزل ، ذلك ليست كالرياضيات البحتة ، حقائق ثابتة .

(١) ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج : الآية ٤٦] . فلا يفيد السبر في الأرض في سلوك النفس التكاملية مع قلوب متحجرة ونفوس مدلهمة مظلمة بذنوبها وآثامها .

إن الفلاسفة الواقعيين يعترفون أن علمنا ومعرفتنا بالنسبة إلى الأجسام (المادة) ناقصة وستبقى ناقصة إلى الأبد. ويقولون: «إننا لا نعرف إلا أفكارنا الخاصة»، فأني لهم بعد اعترافهم هذا أن يتوصلوا إلى حقيقة الحياة وحقيقة الروح. يقول دكارت: «فإذا سلمنا أننا لا نستطيع معرفة الواقع مباشرة امتنعت علينا معرفة الواقع على الإطلاق».

أنى للمحاط (الإنسان) أن يحيط بالمحيط (وهو الله). لذلك يقول علي عليه السلام: «تكلموا في خلق الله ولا تتكلموا في الله. فإن الكلام في الله لا يزداد صاحبه إلا تحيراً»^(١). وقال عليه السلام أيضاً: «كيف أصفه بالكيف وهو الذي كيف الكيف حتى صار كيفاً. فعرفت الكيف بما كيف، كيف لنا من الكيف»^(٢).

أنى لهذا الإنسان أن يحيط بالله تعالى وقد كان في ابتداء أمره جرثومة (نطفة) ولم يكن له أدنى تصرف في توجيه هذه الجرثومة وتحولاتها في الرحم وبعد الخروج من الرحم. وكان ولا يزال مسيراً إلا ما كان من إرادته^(٣) في إتباع طريق الخير وطريق الشر. فـ «لا جبر ولا تفويض، بل أمر بين الأمرين». ويؤيده قول علي عليه السلام: «عرفت ربي بفسخ العزائم ونقض الهمم. لما أن هممت فحيل بيني وبين همي، وعزمت فخالف القضاء والقدر عزمي علمت أن المدبر غيري»^(٤).

وفي القرآن الكريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: الآية ٤٤]. وفي آية أخرى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: الآية ٧٩]. وفي آية أخرى أيضاً: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: الآية ٣٠]. وفي آية أخرى: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٨].

(١) أصول الكافي: ج ١، ص ٩٢، باب النهي عن الكلام.

(٢) يريد به الله تعالى.

(٣) أي من إرادة الإنسان نفسه.

(٤) بحار الأنوار: ج ٣، ص ٤٢، باب ٣.

كل هذه الآيات تدل دلالة واضحة على أننا نحن المسؤولون عن سلوكنا واتجاهاتنا وعن أعمالنا السيئة. والله قادر على تغيير سلوكنا وهدايتنا لو جعلنا نفوسنا لائقة إلى قبول فيوضاته القدسية بالمداومة على أعمال صالحة. وفي استطاعته تعالى أن يسد علينا أبواب رحمته وهدايته وأن يبعدنا عن ساحات القدس، إن لوثنا أنفسنا بالذنوب وذمائم الأخلاق.

أنظروا كيف يصف الله تعالى مراتب تكامل الجنين في رحم أمه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝﴾ [المؤمنون: الآيات ١٢/١٤]. وقد جاء في تفسير: «أنشأناه خلقاً آخر» أي إن الله تعالى أنشأ خلقاً آخر بنفخ الروح فيه.

ما معنى نفخ الروح في جسم مشكل من عظام ولحم. ذلك لأن الروح ليس من المادة في شيء. ولعل الروح هي مشيئة الله تعالى وإرادته سبحانه. فهذه المشيئة أو الإرادة بقوله تعالى: ﴿كُنْ﴾ تنقلب إلى طاقة وقوة. والقوة لها مظاهر وأنواع حسب مشيئته تعالى. فتارة تكون هذه الطاقة أو القوة: (أي الإرادة الإلهية المتحولة إلى الطاقة بأمره تعالى) عقلاً وتارة تكون روحاً ونفساً إنسانية أو نفساً حيوانية، وتارة تكون هذه الحيوية التي نلمسها في (البروتوبلازم) وتارة تكون مادة. أي أن هذه الطاقة تنقلب إلى مادة بأمره تعالى على ما ثبت في العلم الحديث، وذلك بعد التعرف إلى فلق الذرة (تحطيمها) أو: دمج الذرات أو نواها. فإنهما يتيحان لنا من القوة العظيمة ما يجلب عن الفهم والتقدير. فالطاقة التي تخرج من رطل واحد من اليورانيوم تعدل طاقة الحرارة التي تخرج من مئات الأطنان من الفحم أو من ألوفها والطاقة التي تخرج من دمج نوى ذرات الهيدروجين أعظم.

وقد ذهب (آينشتاين) أن الطاقة الكامنة في الذرة تساوي الكتلة، مضروبة في مربع سرعة الضوء. أي: ط = ك × س^٢ وبما أن سرعة الضوء = ٣٠٠٠٠٠٠ كيلومتراً في

الترتيب لا يولد الحياة ١٩٣

الثانية، فإنّ الطاقة في ذرّة ما تشكل مقداراً هائلاً أي: $ط = ٩٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ ك$ $٩ \times ١٠^{١٠} \times ك$. فإذا ما فلتت (حطمت) أي أخرجت الطاقة الكامنة فيها إلى الخارج جاءت بالتدمير والتحطيم.

ويمكن احتساب الطاقة المتحررة من تفاعل نووي، من معرفة النقص الحاصل في الكتلة. ذلك لأن العلم لم يتوصل بعد إلى إخراج جميع ما في الذرة من طاقة إلى الخارج. ففي انفلاق نواة اليورانيوم يتحول نحو عشر الواحد في المائة إلى طاقة. وهكذا لتكوين ذرة هليوم عند انصهار أربع نوى من الهيدروجين يتحول سبعة أعشار الواحد في المائة إلى طاقة. وهكذا..

إن مشيئة الله بالنسبة إلى إيجاد الشيء جليلة ودقيقة على حد سواء. إن الله تعالى يقول: ﴿مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بِعَثْكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [القمان: الآية ٢٨]. ولقد قال جل من قائل: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٨٧) [يس: الآية ٨٢]. فالمشيئة الربانية هي الموجدة للأشياء بقوله تعالى: ﴿كُنْ﴾ أي الإرادة وحدها أو الطاقة المنبعثة من هذه الإرادة هي الموجدة لهذه العوالم من: عقلية ونفسية وحيوانية (وحبوية) ومادية.

إن ظني القاصر قد بلغ إلى هذه المرتبة من التحليل. ولعل الله تعالى يقبض من يوصلنا إلى حقائق أخرى إبداءاً لعظمته تعالى وإظهاراً لجليل قدرته. ولقد جاء في حديث قدسي: «والذين عملوا بما علموا لنهدينهم إلى ما لا يعلمون».

على أن الإيمان بالله وبما وراء الطبيعة وبالأنبياء والمرسلين وأوصيائهم ﷺ ليس أمراً صعباً يستدعي الاطلاع على شتى العلوم والمعارف الكونية. وإنما الإيمان أمر معنوي قلبي يترشح من نفس طاهرة وقلب زكي. وإن لهذا الإيمان درجات، تتناسب مع درجة طهارة النفس. كما أن الإيمان بأن الروح والحيوية وأن كل شيء في هذا الوجود أوجده واجب الوجود - وهو الله تعالى - ليس متوقفاً على معرفة حقائق عام الكيمياء وعلم الحياة (Biologie). فقد يصل الأمي إلى إيمان رصين لا يبلغه من بلغ مرتبة

(الدكتوراه) في أصعب الفروع . والفرق بينهما ناشئ عن درجة طهارة النفس .

إن هذه الحقيقة (أو النظرية) لا تستدعي الشك والارتياب . والتجربة تبرهن على صدق ما ذهب إليه . فليجرب من شاء . فإن الطرق واضحة جلية لا غبار عليها . وكُتب الدين كثيرة والمراجع متوفرة . وإن الذنوب تحجب القلب (النفس) عن رؤية الواقع . لذلك جاء في حديث عن النبي ﷺ : «إن مثل الصلاة كممثل نهر جارٍ يمر بباب أحدكم . فيغتسل به في اليوم واللييلة خمس مرات ، فلا يبقى عليه شيء من الأدران . وكذلك الصلاة لا تبقى على الإنسان شيئاً من الذنوب» .

وغير خاف أن النبي ﷺ إنما عني بهذه الصلاة ، الصلاة المقبولة ؛ وهي التي تمحو الذنوب فتطهر النفس بقوله ﷺ : «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزد من الله إلا بعداً» . وعن الإمام الصادق عليه السلام : «من أحب أن يعلم أقبلت صلاته أم لم تقبل ؟ فلينظر هل منعه عن الفحشاء والمنكر ؟ فيقدر ما منعه قبلت منه» .

وأهم ما يجب أن يقوم به هذا المجرب أن يرد إلى الناس حقوقهم ويظهر مأكله ومشربه عن الحرام والمشتبهات ، وأن يترك ما كان يقوم به من موبقات ومدنسات . وأن يعاشر أهل التقوى والورع ويترك معاشرة تاركي الصلاة ومانعي الزكاة . . . الخ ، ليرى كيف تتجلى له الحقائق وتنقش عنه سحائب الشكوك والأوهام . . .

* * *

ولقد ذكر لي من أثق به : أن رجلاً قروياً كان يسكن في قرية قريبة من مدينة (رشت) وكان يعيش من كد يمينه ، لم يخالط مأكله ومشربه شيء من الحرام أبداً . وكان يهيئ ما يحتاجه من مأكّل ومشرب وملبس في بيته ومزرعته . وكان مع ذلك متقرباً إلى الله بأعمال صالحة ، يتعبد ويشكر الله تعالى على ما أولاه من نعم ، يعطي فضول ماله إلى الفقراء والمعوزين ويطبق ما كان يعلم من الآداب الإسلامية ؛ فأشكلت عليه مسألة شرعية . جاء إلى عالم ديني في مدينة (رشت) ليتبصر فيها . فدخل المدينة عند الظهر . وسمع المؤذن يؤذن ، فبادر إلى صلاة الظهر في أفضل أوقاتها وأخذ طريقه إلى بيت العالم الديني . فدخل عليه قائلاً : إني أرى شيئاً غريباً في هذه البلدة . فسأله العالم وما

الذي تراه؟ قال: لم أر في شوارع المدينة إلا بهائم: حميراً وبغالاً.. ولم أصادف في طريقي إلا شخصين على شكل إنسان. أين ذهب الناس؟

أدرك العالم الديني، لطهارة نفسه وتضلعه في شتى العلوم، السبب في هذه الرؤية الباطنية. وأن الرجل لطهارة مأكله ومشربه وحسن سريره وتطبيقه أوامر الشرع تطبيقاً صحيحاً أخذ ينظر بنور الله، وتتمثل له بعض الخلائق حسب حالتهم النفسية الصحيحة وما بلغوا من التسافل والتكامل من جراء أعمالهم وما اجتاحت أيديهم. ثم أن العالم الديني خاطب القروي قائلاً: هل تناولت طعام الظهر؟

قال: كلا، فدعا العالم خادمه وقال له: اذهب إلى السوق واثبط طعام إلى هذا المؤمن، (مع وجود طعام في البيت). أطاع الخادم أمر سيده وجاء بطعام من السوق وقدمه إلى القروي فأكل القروي وجلس في مجلس العالم وأخذ يسأله عن مسائل شتى، حتى مضى شطر من الوقت، ثم أمر خادمه بأن يأخذ هذا القروي إلى الشوارع ويعود به إلى البيت. قاد الخادم القروي وصار يسير معه في الشوارع ورجع به إلى البيت فسأله العالم: ماذا رأيت؟ قال: «رأيت الشوارع مملوءة بالناس». فقال العالم: «إن الطعام الذي تناولته قبل ساعات مشته فيه، فيه الطاهر والخبيث. وإن طعاماً مخلوطاً بالحرام أو النجس ليؤثر في النفس تأثيراً سيئاً وإن كانت النفس لا تعلم ذلك. فيخرج هذا الطعام، الإنسان عن الحالة الملكوتية أو العالم القدسي، فلا تتجلى له الحقائق كما كانت تتجلى قبلاً. إلا أنك سترجع إلى حالتك السابقة بعد رجوعك إلى قريتك إن شاء الله».

نعم، لقد جاء في حديث: «الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا». ذلك لأن علاقته المادية: (هذه العلاقة التي تكون حجاباً دون رؤية الحق والواقع) ترتفع مع الموت، فتتجلى للروح المجردة عن المادة، الحقائق. ويقال عن أحد المؤمنين أنه اشترى مقداراً من التمر من تمار. فلم ترقه ثمرة واحدة، فاستبدلها بغيرها عند الانصراف دون أن يستأذن التمار. فم يتوفق تلك الليلة إلى صلاة الليل ونام حتى الصباح. وقد رأى في ما

يرى النائم أن رجلاً يقول له : إن تلك الثمرة أثرت في نفسك فحرمت مناجاة ربك . إن ظلمات بعض النفوس اليوم تعزى في الدرجة الأولى إلى تلوث المآكل والمشارب بكثير من المحرمات ، سواء باختلاط يحصل من جراء المعاملات الربوية في المصارف والبنوك أو بشراء بضاعة بصكوك يعلم معطيها أنها تنزل في البنوك حتماً بحساب الربح البسيط أو المركب ، أو بكذب في المعاملات والعقود ، حتى عند الزواج ، أو خديعة عند عرض السلعة التجارية أو الجهل بما أمر الله في المعاملات ، وعدم الحضور في مجالس العلماء للتفقه في المكاسب والمتاجر المحرمة إلى غير ذلك .

ومما لا شك فيه ، أن كل خديعة أو تمويه أو كذب في مقدمات النكاح أو في الأوصاف التي يقع عليها الرضا بالزواج لتؤثر في اتجاه النسل نحو اليمين أو اليسار . يقول علي عليه السلام : «يا كميل أنظر فيم تصلي وعلام تصلي ، فإن لم يكن من وجهه وحله فلا قبول . يا كميل ، القلب واللسان يقومان بالغداة ، فإن لم يكن ذلك من وجهه وحله لم يتقبل الله لك تسبيحاً ولا شكرياً»^(١) . فالانجذاب إلى ما وراء الطبيعة والإيمان بالغيب والاعتراف بوجود الله تعالى وملائكته وكتبه ورسله أمر قلبي . سواء اعترف بهذه الحقيقة من سلك مسالك مادية أو لم يعترف . فلا بد من تعمير القلب (النفوس) وتزكيتها وتطهيره ليكون حرياً للاعتراف بما وراء المادة العمياء .

إن الله تعالى يقول : ﴿وَلَيَبْتَغِيَنَّ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلَيُمَخِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران : الآية ١٥٤] .

أنظروا إلى ما يقوله علي عليه السلام حيث يسأله ذعبل اليماني قائلاً : «هل رأيت ربك يا علي؟» فيقول عليه السلام : «أفأعبد ما لا أرى؟» فقال : «وكيف تراه؟» فقال : لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان . قريب من الأشياء غير ملامس ، بعيد عنها غير مباين ، متكلم بلا روية ، مريد لا بهمة ، صانع لا بجارحة ، لطيف لا بهف بالخفاء ، كبير لا يوصف بالجفاء ، بصير لا يوصف بالحاسة ، رحيم لا يوصف

بالرقة تعنو (تذل) الوجوه لعظمته، وتجب (تضطرب) القلوب من مخافته^(١).

يقول الحسين بن علي عليه السلام مخاطباً رب العباد: «سبحانك متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك. ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك، عميت عين لا تراك عليها رقيباً وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيباً»^(٢). فالعالم مهما بلغ من العلم بأحوال الكون لا يمكن أن يؤمن إلا إذا ظهرت نفسه وصلحت أعماله وطاب مأكله ومشربه، فيكون علمه إذاً موبداً لعقيدته يستدل به على خصمه. فقد جاء في الحديث «البلاهة أدنى إلى الإخلاص من فطانة براء».

على أنني لا أنكر أن كثرة الاطلاع في أحوال الكون والوقوف على أسرارهِ وغوامضهِ وما أودع الله فيه من دقائق يزيد المؤمن إيماناً وثباتاً ويمنحه خشوعاً وتقديساً لله تعالى. ولا يخفى أن لا بد هناك من نفس بلغت مرتبة ولو ضئيلة من الطهارة ومن إيمان يترشح من تلك النفس فيرسخ هذا الإيمان بكل ما يرى الإنسان من مظاهر عظمة الله تعالى في ما خلق من أشياء مادية ونفسية، وقوى وطاقات ومعجزات وكرامات إلى ما هنالك.

فقد كان في جامعة بيروت الأمريكية أستاذ للفلك العالي، كان إذا تكلم عما أودع الله من معادلات وقوانين مدهشة في نظام الكواكب والأنجم، فاضت عيناه بالدموع، فيسأل عن السبب، فيجيب: لو رأيتم ما أرى لذبتكم خضوعاً وخشوعاً لمن أقام هذا السماء بهذا الترتيب البديع الذي يحار في استقصائه أولوا الأبواب!

قلت: عن العلم بأحوال الكون لا يولد العقيدة بل يؤيدها. إن الله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاؤُوا وَهُمْ كَاٰفِرُونَ ۝١٢٥﴾ [التوبة: الآيةان ١٢٤/١٢٥].

فحال العالم بالعلوم الحديثة والجاهل بها في مقام الإيمان على حدٍّ سواء، لأن القضية قضية استعداد في القلب وصفاء في النفس وخلوها من الكبر.

(٢) بحار الأنوار: ج ٦٤، ص ١٤٢.

(١) شرح نهج البلاغة: ج ١٠، ص ٦٤.

إن الله تعالى يقول: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارًا﴾ [غافر: الآية ٣٥]. وإن الكبرياء وحده يجزئ الإنسان إلى إنكار المعاد، على حد قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر: الآية ٢٧]. فإذا أدلهم القلب وتلوث، فلا قبول ولا إيمان، بل جحود وكفر. لذلك جاء في حديث قدسي: «من أخلص لله أربعين صباحاً جرت من قلبه على لسانه ينابيع الحكمة»^(١). فترون أن ينابيع الحكمة والمعارف الإلهية إنما تفيض على الإنسان من جراء الإخلاص والخشوع والخضوع والتذلل بين يدي رب العباد.

دواءك فيك وما تبصر وداؤك منك وما تشعر
أترغم أنك جرم صفيـر وفيك انطوى العالم الأكبر
إن معرفة النفس طريق لمعرفة الخالق. فقد جاء في الحديث: «أعرفكم بنفسي أعرفكم بربه». وعن علي عليه السلام: «من عرف نفسه فقد عرف ربه». وقال المسيح عليه السلام: «إعرف نفسك تعرف ربك». ونسأل الله تعالى أن يطهر نفوسنا حتى نتعرف إليها فنزداد معرفة بالله تعالى. وأني أختتم هذا المقال بهذا الحديث ففيه الحكمة البالغة. فقد قال علي عليه السلام: «إن من أحب عباد الله إليه عبداً أعانه الله على نفسه، فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف فزهر مصباح الهدى في قلبه... إلى أن قال: قد خلع سراويل الشهوات. وتخلّى من الهموم إلا هما واحداً إنفرد به. فخرج من صفة العمى ومشاركة أهل الهوى. وصار من مفاتيح أبواب الهدى ومغاليق أبواب الردى. قد أبصر طريقه وسلك سبيله، وعرف مناره، وقطع عماره واستمسك من العرى بأوثقها، ومن الحبال بأمثنها، فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس»^(٢).

فمفاد هذا الحديث حقيقة ما بعدها حقيقة. يعلم ذلك من وفق إلى تحقيقه، فسار في عوالم الكمال.

ولا تكامل لهذا الإنسان إلا بالإسلام.

(انتهى، ولله الحمد، الجزء الأول. وسيليه الجزء الثاني، إن شاء الله تعالى).

الكتاب المجلد في شرح الحديث

بقلم
أحمد أمين

فريق صادره وصحة
عند الترتيب للشيخ

الجزء الثاني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لا مالَ أَعُوذُ مِنَ الْعَقْلِ، ولا وَحْدَةً أَوْحِشُ مِنَ الْعُجْبِ، ولا
عَقْلَ كَالْتَدْبِيرِ، ولا كَرَمَ كَالْتَقْوِ، ولا قَرِينَ كَحَسَنِ الْخَلْقِ، ولا
مِيرَاثَ كَالْأَدَبِ، ولا قَائِدَ كَالْتَوْفِيقِ، ولا تِجَارَةً كَالْعَمَلِ الصَّالِحِ،
ولا رِيحَ كَالثَّوَابِ، ولا وَرَعَ كَالْوَقُوفِ عِنْدَ الشَّبْهَةِ، ولا زَهْدَ
كَالزَّهْدِ فِي الْحَرَامِ، ولا عِلْمَ كَالْتَفَكُّرِ، ولا عِبَادَةً كَأَدَاءِ الْفَرَائِضِ،
ولا إِيْمَانًا كَالْحَيَاءِ وَالصَّبْرِ، ولا حَسْبَ كَالْتَوَاضِعِ، ولا شَرَفَ
كَالْعِلْمِ، (ولا عِزًّا كَالْحِلْمِ)، ولا مَظَاهِرَةً أَوْثَقَ مِنَ الْمَشَاوِرَةِ.

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لقد نفذت، والحمد لله، نسخ الطبعة الأولى للجزء الأول من هذا الكتاب في مدة وجيزة، مما يدل على أن الرغبة الدينية وحب الاطلاع على حقائق الإسلام متأصلان في النفوس، وأن الدين حاجة ملحة للمجتمع لا يمكن أن ينفك عنه بحال من الأحوال وبأية قوة من القوى. وإن تساهل البعض في تطبيق الأحكام الشرعية وتعاليمها، إنما هو أمر عارض يزول بإصلاح المجتمع من حيث التمسك بالفضائل والمكرمات ومراتب التقوى.

نعم، إن الدين أمر طبيعي ارتكازي فطري في روح البشر، لا ينفك عنه أحد إلا إذا غيّر الفطرة بالفسوق والعصيان. ولذلك عمدت كنيسة روما إلى إدخال الخمور والفجور في الأندلس العربية المسلمة بشتى الوسائل ليفر الدين من جراء تلويث النفوس. فيمكن الاستيلاء على البلاد المفتوحة من قبل المسلمين. وقد نجحوا في ذلك وأصابوا الهدف.

فالرجل مهما أراد انتزاع نفسه عن الدين، لا يمكنه ذلك، إلا إذا سعى بشتى الوسائل في إذهاب أو إضعاف العقل الفطري، المرتكز فيه التوجيه الديني على حدّ قوله تعالى: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ أَلَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الرؤم: الآية ٣٠].

استمعوا لما يقوله الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، عن كيفية هدوء العقل وانسحابه لهشام أحد أصحابه:

«يا هشام، من سلط ثلاثاً على ثلاث فكانما أعان هدم عقله: من أظلم نور تفكره بطول أملة، ومحا طرائف حكمته بفضول كلامه، وأطفأ نور عبرته بشهوات نفسه، فكانما أعان هواه على هدم عقله، ومن هدم عقله أفسد عليه دينه ودنياه».

«يا هشام، كيف يزكو عند الله عملك وأنت قد شغلت قلبك عن أمر ربك، وأطعت هواك على غلبة عقلك»^(١).

أنظروا كيف يصف الله تعالى العقلاء وأولي الألباب. فليعرض من يشاء نفسه على مفاد هذه الآيات البينات، فإن وجد أن أعماله مصداق هذه الآيات فليحكم: إن عقله يعمل عمله وهو غير منسحب عن فعاليته، وإن لم توافق نفسه وأعماله منطوق هذه الآيات، فليعلم أن عقله الفطري قد فارقه وانسحب عنه، وأن الشيطان تمركز فيه وحل محل العقل.

إن الله تعالى يقول: ﴿أَمَنَ بَعَثَ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَنْذَرُ أَتُولُوا الْأَلْبَابَ ۚ الَّذِينَ يُرِيدُونَ عَهْدَ اللَّهِ وَلَا يَفْقَهُونَ اللَّيْثُ ۚ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ۚ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ۚ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۚ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عُقْبَى الدَّارِ ۚ﴾ [الرعد: الآيات ١٩/٢٤].

فالعقل الطبيعي غير الملوث بالذنوب هو العقل الذي يعمل بكل ما جاء في الآيات الكريمة المتقدمة من صفات وأعمال والذي يخالف بعض ما جاء في الآيات المتقدمة إنما هو ناقص العقل، والذي يخالف جميع ما جاء فيها إنما هو مسلوب العقل، يهدم عقله بسوء اختياره وفساد أعماله^(٢).

ومن المؤسف أن أوروبا لم تتشرف بالديانة الإسلامية؛ دين الحياة ودين تصفية النفوس استعداداً لجنة ﴿عَرَضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: الآية ١٣٣] وقد

(١) أصول الكافي: ج ١، ص ١٧، كتاب العقل والجهل.

(٢) وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُوعًا وَلَبَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: الآية ٥٨].

توجهت إليها المسيحية المحرّفة التي لا قواعد فيها لتأسيس دولة عادلة؛ فعارضت العلم واستبدت وضغطت على الحرّيات بأساليب لا تبررها المسيحية والروحانية البحتة، فأدّى ذلك إلى عداء بين العلماء المحدثين ورجال الكنيسة وأخذ يستفحل هذا العداء حتى أدّى إلى تبلبل في العقائد وفصل الدولة عن الكنيسة وبالتالي معاداة الكنيسة ونموّ الإلحاد والزندقة وظهور مذاهب مادية شتى، فأنجبت فلاسفة ماديين أمثال: (فوريباخ، بوخنز، نيتشه، شوينهاور....).

ولو أن الفلاسفة الماديين استطلعوا تعاليم الإسلام وفلسفته العادلة التي تطابق المنطق الطبيعي ولا تقر نظرية الكبت في المسيحية، وجانبوا إلى حد ما الطيش والشهوات المميتة للنفس والمفسدة للمجتمع لتغيرت فلسفتهم ولأخذت تؤيد الإسلام كدين عالمي خالد.

وكم رأينا من الفلاسفة تغيرت وجهات نظرهم في مستقبل العمر وفي نهايته، فبعد أن كان أحدهم موحداً بالفطرة أصبح ملحداً، أو اهتدى من جديد فغداً موحداً. فحين يقول أحد هؤلاء الفلاسفة: «إن الأخلاق الدينية تعارض ميول الإنسان الطبيعية»، إنما يعني الأخلاق الدينية التي تعلمها عن المسيحية المحرّفة. ولو تتبع الدين الإسلامي لعلم أن دواء الروح، وأنه دين يستجيب لكل الغرائز وجميع الميول بشكل لا يؤدي إلى فساد الدنيا والآخرة. وليس في الإسلام كما في المسيحية المحرّفة: طبقة سيّدة وأخرى مسودة. ولا يقر الإسلام الظلم والاضطهاد. بل جاء لرفعهما بقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى﴾ [الحُجَرَات: الآية ١٣]. ويقول كما في الحديث: «أنتم بنو آدم، وآدم من تراب»، «ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي ولا أسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى». وأقر القصاص والديّات بين جميع الطبقات.

ولو أن كنيسة روما كانت قد ساعدت على دخول الإسلام إلى أوروبا وتابعت الواقع والحق، لرأيت بلاد أوروبا من أحسن بلاد الله تطبيقاً لتعاليم الإسلام في السياسة والعلم والاقتصاد والحياة الاجتماعية وما وجد الإلحاد طريقه إلى مدارس الغرب.

وعسى أن يستيقظ العالم في يوم من الأيام من رقدته ويتنبه من سباته تاركاً العصبية العمياء وراء الظهور، فيعتنق الدين الإسلامي ديناً علمياً كما تنبأ بذلك (برنارد شو) مطبقاً إياه في جميع شؤون الحياة حتى يصل إلى طمأنينة وحياة وادعة، لا في الدنيا فحسب، بل بعد الموت أيضاً في عالم خالد يستمر ملايين السنين.

وليس الاستدلال الفلسفي أو على حد تعبير البعض: (العلمي)١، إلا رشحات النفس الإنسانية، سواء أكانت متكاملة أم متسافلة. فالنفس المتسافلة فلسفتها رجعية أي هي فلسفة تعاكس الفطرة، تعاكس ما أودع الله تعالى في نفس الإنسان من توحيده والاعتراف بعظمته، وترك الظلم والجور والبغي. والتعاطف والتراحم^(١)... الخ. وهي تبرهن، على ما تزعم بطرق علمية؟ على أنها في طريق الحق وعلى صراط مستقيم وما عداه ضياع وكبت!...

والنفس المتكاملة، أو بالأحرى: النفس السائرة نحو الكمال، فلسفتها فلسفة بناءة، متكاملة، وبراهينها براهين توافق الفطرة وتطابق الواقع والعقل الفطري غير الملوث بالإجرام والفسوق.

فحالة النفس من حيث التكامل والتسافل تسبق موضوع الدليل والاستدلال مهما سمي علمياً أو فلسفياً... فيجب قبل أن ينظر في الدليل أو سير الاستدلال، أن ينظر في حالة الفيلسوف النفسية وأخلاقه الشخصية مع ذويه وأصدقائه، وصفاته الكمالية في صغره وبعد كبره، كما يفعل مع الأنبياء والأوصياء سلام الله عليهم أجمعين.

ذلك لأن الفلسفة ليست بشيء ثابت مثل ثبوت الرياضيات البحتة، حتى لا تقبل التحريف والانحراف. فطريق الحق والواقع واحد لا يتعداه، والفيلسوف الحقيقي المتكامل، هو الواجد لهذا الطريق المستقيم الذي لو انحرف الإنسان عنه قيد شعرة لما أصاب الواقع في الصميم.

(١) عن أبي عبد الله عليه السلام: «من كانت له دار، فاحتاج مؤمن إلى سكنها فمنعه إياها»، قال الله عز وجل: «ملأناكتي بخل عبدي على عبدي بسكنى الدنيا، وعزتي فلا يسكن جناني أبداً» [الكافي: ج ٢، ص ٣٦٧].

وإن التجارب تدل على أن الشخص إنما يصل إلى عقيدة فلسفية خاصة حسب درجة صفاء نفسه وأخلاقه وسلوكه في سره وعلمه وفي ظروف مختلفة. ففلسفة الفرد هي رشحات نفسه من حيث النعمة والكمال. والعقيدة هي عبارة السلوك الشخصي وغايته. وإن هذه الحقيقة من أهم المواضيع الفلسفية التي يجب أن يعتني بها المفكرون من فلاسفة وعلماء، كي لا ينخدعوا بفلسفة المتفلسفين وهراء المتطفلين، دون تمحيص للنفسيات والصفات المتغلغلة في النفوس في ظروف مختلفة وما تجترح الأيدي من ذنوب وآثام. وهذا هو السر في تحميم طائفة من المسلمين: (العصمة) في الأنبياء والأوصياء عليهم السلام من بعدهم. فبالعصمة يعلم أن ما يترشح من المعصوم صافٍ نقي لا كدر فيه. على أننا نعتز أن الفلسفة المادية لا تقيم وزناً للغذاء الروحي ولا ترى قيمة للنفس الإنسانية وحاجاتها الطبيعية من سمو وكمال، فالنفس الإنسانية في نظرها كالخشب الجامدة لا تحتاج إلا إلى صبغ وتدهين!..

والحقيقة الثانية التي يجب أن يعتني بها الفلاسفة والمفكرون، أن النفوس تتصل بعضها ببعض وتتصادق وتقترب اقتراباً طبيعياً. (لا لأغراض خاصة مؤقتة) حسب درجاتها من الكمال أو التسافل. فالنفس الشريرة تميل إلى مثلها والنفس الطاهرة تميل إلى مثلها أيضاً مع حفظ الدرجات في التكامل والتسافل. وقد قالوا قديماً:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي
ولقد جربت ذلك في حياتي وتتبع الموضوع بشتى جوانبه عند كثيرين، فوقفت على صدق ما أذهب إليه. ولعل للنفوس خطوطاً مغناطيسية أو مجالات كهربائية من نوع خاص غير مادي. تختلف من حيث نوع الخطوط أو المنحنى حسب الصفات والخصال، أو حسب درجات التكامل أو التسافل فتميل بعضها إلى بعض أو بعضها عن بعض، كالإبرة المغناطيسية بالقرب من إبرة مغناطيسية أخرى. ذلك لأن العالم حسب آخر ما توصل إليه العلم المادي مجموعة من قوى جاذبية ومغناطيسية وكهربائية، سواء كانت ظاهرة أو باطنة. وقد خلق الله تعالى أيضاً عدا هذه القوى المادية، أنواراً مختلفة وقوى متنوعة لا تمت بالمادية في شيء ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: الآية

[٣٥]. وإن لكل نفس فلسفة (على ما قدمنا) تتناسب مع درجة تكاملها أو تسافلها، وهي تصر على صحة فلسفة تتبناها وتبرهن عليها بشتى البراهين. وتظهر لها أن هذه البراهين صحيحة، لأنها توافق ما عليه نفسه من ضعة أو كمال. وليست هذه البراهين بقوانين رياضية كي يرى الخطأ واضحاً فيها أو في تطبيقها. فيلفق هذا الفيلسوف في البرهان ويأتي بمقدمات باطلة ويبني عليها بناءً أوهن من بيت العنكبوت. إنها هي نفسه والبراهين هي من نوعها. بل هي هي...

فلسائل أن يسأل: إذن، كيف يتجلى الحق والواقع؟ يتجلى الحق والواقع بعد الاطمئنان بكمال نفس الفيلسوف (أو معطي النظرية) أو سيرها في عوالم التكامل وتحليلتها بالفضائل والمكرمات المتفق عليها عند العقلاء والأفاضل: كالصدق والوفاء وعدم الغيبة أو النسيمة، وحب الخير والقيام بحاجات الناس لوجه الله، وعدم الانحراف عن الفطرة: أي الإيمان بالله الخالق المتعال...

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۗ﴾ [الشمس: ٨/٧]. فالفضيلة والرذيلة أمور ارتكازية راسخة في النفوس، مهما كانت هذه النفوس بدائية، يشعر بها فاعلها عند القيام بها من ارتياح أو انكماش، ولكنه لو تأثر على الرذيلة تصبح هذه طبيعة ثانية، ووجداناً ثانوياً (Conscience) بانسحاب العقل، فلا يشعر فاعلها إذ ذاك بعتاب وجداني أو وخزة الضمير كقاطع الطريق. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين: الآية ٥]. وحاشا لله أن يريد لعبده التسافل. إنما ينسب هذا الرد إليه، لأنه تعالى هو الذي سنّ هذا القانون العام، على حد قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: الآية ٥]^(١).

وإن علم النفس الحديث أو بالأحرى علم آثار النفس يقول بانحراف الوجدان أو الضمير (Conscience) من وقت إلى آخر، حسب البيئة والأعمال التي يقوم بها الإنسان، فبعد أن كان يرى الوجدان السركة، رذيلة؛ كان الحاكم هو العقل الطبيعي

(١) زاغوا: عدلوا عن الحق ومالوا عنه. أزاغ: تركهم وسوء اختيارهم.

وبعد ممارسته السرقة طويلاً انسحب العقل وحلّ محله الشيطان والنفس المطيعة له، فصار يرى الرذيلة مكسباً وفضيلة.

وأنت أيها القارئ الكريم، ستري في فصول هذا الكتاب بعض حقائق الإسلام، دين الحق والفضيلة. فتتجلى لك عظمة الإسلام فتشكر الله إذ ذاك على ما منّ عليك وعلى البشر أجمع بهذا الدين الحنيف والشرعة السمحاء، دين الكمال البشري الخالد.

وأختم هذه المقدمة بخطبة لسيد المرسلين وخاتم النبيين سيدنا ومقتدانا محمد بن عبد الله ﷺ. فقد خطب ذات يوم، فقال: «أيها الناس، إن لكم معالماً، فانتبهوا إلى معالمكم. وإن لكم نهاية، فانتبهوا إلى نهايتكم. ألا إن المؤمن يعمل بين مخافتين: بين أجل قد مضى، لا يدري ما الله صانع فيه، وبين أجل قد بقي، لا يدري ما الله قاض فيه. فليأخذ العبد المؤمن من نفسه، ومن دنياه لآخرته، وفي الشبيبة قبل الكبر، وفي الحياة قبل الممات. فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من مستعجب وما بعدها من دار إلا الجنة والنار»^(١).

وأورد أيضاً هذين الحديثين، ليعلم أن الإسلام، (وإن لم يعمل به المسلمون)، قد عالج القضايا الاقتصادية، بشكل يؤدي إلى تكامل النفس والسير في عوالم الكمال والتقرب منه تعالى. لا ضغط فيه ولا إجبار، ليربي النفس الإنسانية تربية تكاملية واقعية ويحقق لها (الاختيار). ليستند الثواب والعقاب على اختيار الفرد.

قال رسول الله ﷺ: «إن الله فرض على أغنياء المسلمين في أموالهم بقدر الذي يسع فقراءهم»^(٢).

وعن أبي عبد الله ﷺ: «أيما مؤمن حبس مؤمناً عن ماله وهو محتاج إليه، لم يذقه الله من طعام الجنة ولا يشرب من الرحيق المختوم»^(٣).

(١) أصول الكافي: ج ٢، ص ٧٠، باب الخوف والرجاء.

(٢) دعائم الإسلام: ج ١، ص ٢٤٥.

(٣) وسائل الشيعة: ج ١٦، ص ٣٨٩، باب ٣٩.

أفي الله شك فاطر السماوات والأرض

إن كان هناك شيء من أوضح الواضحات وأجلى البديهيات فهو وجود الله تعالى، الموجد لهذه النفوس والمعطي لها هذه القابليات الخارقة البديعة. فالطفل يشعر بهذا الشعور وهو وجود موجد له وصانع، لما يرى حوله. ذلك، لأن الله تعالى قد أوجد فيه قابلية التفكير. فهو إذا بلغ السنة الرابعة أو الخامسة، يبدأ، فيسأل: لماذا؟ ولأي سبب؟ من صنع هذا؟ من أوجد هذا؟ ومن أين وُجد ذاك؟

إن الله تعالى قد أتم الحجة على عباده بأن غرس فيهم قابلية التفكير وإرجاع الأشياء (المسببات) إلى أسبابها. فالطفل على سذاجته وطبيعته الفطرية يعترف بوجود خالق له. كيف لا، وهو يرى أن ليس له أن يتصرف في نفسه وهو في غاية العجز وأنه لم يصنع عضواً من أعضاء بدنه. ثم أن الله قد جهز عقله بإرجاع كل معلول إلى علة. وكل مسبب إلى سبب. وهو القائل ﴿فَظَرَّتْ اللَّهُ أَلَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الرؤم: الآية ٣٠] أي أن الإنسان بالفطرة وبصورة طبيعية يعترف بوجود خالقه وموجده. ولذلك، سُمِّي دين الإسلام بدين الفطرة، أي إن كل ما فيه فطري وضروري، يعترف به العقل بصورة طبيعية إرتكازية. وإن هذا الاعتراف بوجود الخالق شيء مرتكز من قبل الله تعالى في عقل الإنسان منذ نعومة أظفاره. وعدا ذلك، فإن الله بقوله جلّ من قائل:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَنْهَلِكُمْ مَا عَمِلَ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٧٢/١٧٣] قد تم الحجة على عباده، فحسب مفاد هذه الآية المنيفة: إن الله تعالى قد أحضر في عالم الذر كل

إنسان ذكراً أو أنثى وجعلهم شهوداً على أنفسهم وأخذ منهم الاعتراف على وجوده ووجدانيته . بقوله ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ .

أي: أخرجهم الله من أصلابهم على نحو توالدهم نسلًا بعد نسل إلى يوم القيامة، فخرجوا كالذر، فعرفهم نفسه وأراهم صنعه كما جاء في بعض التفاسير . وإنما فعل ربنا جلّ جلاله ذلك كي لا يقول قائل: إنا كنا عن الاعتراف بوجود الله ووجدانيته غافلين، أو يعتذر المعتذر عند الإشراك أو الكفر بالله وبما أنزل قائلاً: إنما أشرك آبائنا، وأما نحن فـ(كنا ذريةً من بعدهم)، فلا ينبغي أن نعاقب ونهلك . قالوا ذلك اعتراضاً على الله وختموا مقالهم بقولهم: ﴿أَفَنُكَلِّمُكُمَا بِمَا فَعَلَ الْمُظْلُمُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٣] . أي إن آبائنا قد أشركوا وذهبوا مذهباً باطلاً، فما ذنبنا حتى نهلك؟

وقد قال بعض المحققين: أن في قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٢] . إشارة لطيفة: فإنه سبحانه استفهم الإقرار منهم بربوبيته لا بوجوده، تنبيهاً على أنهم كانوا مقرين بوجوده في بداية عقولهم وفطرة نفوسهم .

نعم، ليس لأحد أن يعتذر بهذا العذر . وأن يقول: إني اتبعْتُ دين أبي وأمي، فصرت أدين بما دانوا أو أشركت «والعياذ بالله»، لأن أبي كان مشركاً . وأنكرت وجود الله، لأن أبي كان منكراً لوجود الله . فإن مخالفة الفطرة أمر يأتيه الفرد من تلقاء نفسه وسوء اختياره . بل لإفساده سريره وطبيعته الفطرية المتوجهة إلى الحق والواقع بالفطرة . أنظروا، ماذا يقول علي عليه السلام، إنه صلوات الله عليه يقول: «ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله ومعه وبعده» . هذا غاية ما يبلغ الإنسان من معرفة ربه، إذا كان قد بلغ من طهارة النفس مرتبة من مراتب الكمال . ومن مثل علي عليه السلام في ترويض النفس وتكميلها . فقد كان يغمى عليه مرات في الليل من خوف الله تعالى .

إن الإنسان ليعصي ربه باختياره وإرادته، دون أن يجبره على ذلك أحد . إنه يفسق ويظلم ويبغي وينهب أموال الآخرين ويهتك أعراضهم . إنه يكذب، ويغتاب، يفسد في الأرض، ثم لا يرتدع ولا يتوب ولا يندم . وقد يكون ما يدخل في جوفه ليس من مورد حلال طيب لسوء اختياره . كل هذه تربيّن على نفسه وقلبه وعقله ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: الآية ١٤] ، فتفسد لوحة نفسه الصافية البيضاء . فتصبح مظلمة

حالكة دكناء . لا تبصر الحق ولا تعي . فهذه الذنوب وتلكم المعاصي تمسي حجاباً حاجزاً دون رؤية الحق والواقع ، ثم أن الشيطان له بالمرصاد ، فيمته حسن العاقبة وأنه على صواب من أمره . إنه تعالى يقول : ﴿ وَمَنْ يَعِشْ ^(١) عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ ^(٢) لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ۖ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ۝ ^(٣٧) حَقَّ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْسَأَ الْقَرِينُ ^(٣٨) ۝ ﴾ [الزخرف : الآيات ٣٦/٣٨] .

فالله تعالى يجعل لأولئك الذين تمادوا في غيهم وبغيهم وظلمهم وفجورهم وفسوقهم ولم يعقبوها بتوبة وعمل صالح ، قرناء من الشياطين يصدونهم عن السبيل ، لأنهم بلغوا مرتبة من التسافل لا يجدي معها أي توجيه وإرشاد . ثم إنه يطمئن إلى ما هو عليه من مذهب أو مسلك جديد . فيزعم أنه قد بلغ مرتبة سامية من الهداية . وأنه كان قبل هذا في ضلال وخرافة ، يحمل عقائد سخيفة ، أولدتها جهالة القرون الأولى وسذاجة عقولهم ، وها هو في عصر الذرة . حين أن بركسون (Bergson) الفيلسوف الفرنسي الموحد الذي أتعب نفسه في العلوم الرياضية برهة من الزمن ، عندما ينظر إلى تلك المعادلات والخوارق في الذرة ، يقول : إن الله موجود في الذرة ، يبدعها إبداعاً ، وينظمها تنظيماً . فـ(بركسون) عندما يرى في الذرة حركات في غاية الحكمة لا ربط لها بالصدفة .

يدعن أن يداً ربانية موجودة في الذرة نفسها ، تعمل في هذا الترتيب الحكيم . نعم ، إن الأخلاق المذمومة ، الكذب والإفك والآثام ، على اختلاف أنواعها ، تجعل للشيطان مجالاً للولوج في نفس هذا الإنسان الذي سلك طريق الغواية والضلالة بأعماله . فتجعله منكراً للبديهيات وأولها : وجود الخالق جلّ جلاله .

إنه تعالى يقول : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَا تَتَزَلَّى الشَّيَاطِينُ ^(١) تَتَزَلَّى عَلَىٰ كُلِّ فَأَلٍ أَثِيرٍ ^(٢) يُثْقُونَ ^(٣) السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَذِبُونَ ۝ ﴾ [الشعراء : الآيات ٢٢١/٢٢٣] .

فإذا استولى عليه شيطانه يكون إلهه هواه على حد قوله تعالى :

﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝ ﴾ [الفرقان : الآية ٤٣] .

نعم ، إن التمادي في الظلم يؤدي إلى الظلمات ، فيزيح عن الإنسان الاعتراف

بأوضح البديهيّات وهو وجود الله تعالى . ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [الرُّوم: الآية ٢٩] ، إنه ينسى أن أبيقور (Epicure) وهو الفيلسوف اليوناني، كان ينكر وجود الخالق ولا يعترف بما وراء الطبيعة وذلك قبل الميلاد بـ (٣٠٠) سنة .

أسفًا على الفلسفة حين يُدعى منكر أوضح البديهيّات فيلسوفًا! نعم، كان لهذا الملحد: (أبيقور) أتباع ملاحدة منحرفون . كل ذلك لتبديلهم الفطرة (لوحة نفسم البيضاء) بآثام وأجرام وفسوق وفجور وشهوات ونزوات، إلى نفسية جاحدة جامحة، لا ترى الحق ولا تبصره .

هذه حقيقة من أوضح الحقائق . فليجرب علماء النفس وليتبعوا أحوال الناس، كي يروا صدق ما أقول . فالأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة ومراعاة حقوق الآباء والأمهات والأرحام تؤدي إلى الاعتراف بوجود الخالق والتوجه إلى الدين الصحيح، ذلك الدين الذي بدعمه العقل ولا يختلف معه في شيء، ذلك الدين الذي لا يحيد عن المنطق الصحيح قيد شعرة . فإن المسلك الذي يختاره الإنسان أو الدين الذي يكون عليه إنما يتناسب مع درجة طهارة نفسه وكمالها . إن الله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [١٣٣] وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [١٣٤] [النساء: الآيتان ١٢٣/١٢٤] ^(١) .

إن المنطق الإنساني يبقى ثابتاً في حل المعادلات الرياضية أو الفيزيائية أو المحاكمات الهندسية . . الخ أي في كل ما يتعلق بالأمور المادية الحسية . ولكن هذا المنطق يحيد عن الطريق السوي والاعتراف بالله عند الزيف والانحراف عن السبل القويمة واجتراح السيئات، أي أن العقل الفطري يكون محجوباً عند اسوداد النفس وادلهاؤها . فيقوم مقامه عقل شيطاني، يملي على هذا المسكين المنحرف ما يشاء من إنكار الخالق وعدم بعث الأنبياء وعدم الاهتمام بأمر الصلاة والصوم والزكاة

(١) النقيير هي النقرة التي في ظهر النواة ويضرب به المثل في الشيء الطفيف .

والخمس؛ إلى ما هنالك. وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً^(١) أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا^(٢) يَتَخَوَتُونَ رُزْخًا وَإِنْ كُنَّ لَكُمْ لَمَامَةٌ أَلْبَيَةُ^(٣)﴾ [الكهف: الآية ٥٧].

إن الله تعالى يتم الحجة على عباده بتذكيرهم بآياته وما يجب عليهم أن يقوموا به يعرضون منكبين. فيفسقون ويفسدون، فتظلم نفوسهم وتدلهم قلوبهم فتكون إذ ذاك محجوبة عن رؤية الحق والواقع كأن عليها أغطية وكأن في آذانهم وقراً وصمماً، فلا يفقهون الحق ولا يرون الواقع البديهي. فلا تفيد فيهم الهداية مهما دعوا. فيأتي إذ ذاك، دور الاستهزاء بالمقدسات، وما أنزل الله من أوامر ونواهي. فقد قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَفْتَوْا السَّوَائِيَ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ^(٤)﴾ [الرُّوم: الآية ١٠].
﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبَأٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ^(٥)﴾ [الزَّخْرَف: الآية ٧].

قلنا إن الإنسان ليتسافل لسوء سريره وفساد أعماله وعقوقه وشروعه. الخ... إلى مرتبة يختم الله معها على سمعه وقلبه ويجعل على بصره غشاوة كي لا يبصر الحق. وذلك، لأنه أمسى جرثومة فساد لا تطهره إلا نار جهنم. فإذا تدهور الإنسان إلى هذا الحضيض كان من المنكرين لوجود الخالق، على أن له تعالى في كل شيء آية تدل على أنه واحد لا شريك له. لذلك يقول الله تعالى في سورة الجاثية

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ^(٦)﴾ [الجاثية: الآية ٢٣].

نستجير بالله من هذه المرحلة أو الهوة السحيقة. نعم، إن الله تعالى لا يضل فرداً من الأفراد إلا بعد إتمام الحجة عليه بأنواع الهداية والإرشاد بعقله الفطري أولاً وبأنبياء ومرسلين وكتب سماوية ومرشدين ثانياً، فإن أبى وكفر واتبع الطرق الشيطانية من فساد وإفساد، يسد إذ ذاك على نفسه أبواب الهداية على حد قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ^(٧) إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ^(٨)﴾ [التوبة: الآية ١١٥].

أجل إن الإفك والإثم وارتكاب كل ما نهى الله تعالى عنه يؤدي إلى الكبرياء ومن

ثم إلى الاستهزاء بالمقدسات على حد قوله تعالى: ﴿وَبَلِّغْ لِكُلِّ آفَاقٍ بَلِيغًا﴾ (٧) ﴿يَسْمَعُ أَيْدِي اللَّهِ تُنَلِّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُغْرِقُ مُسْتَغَرًّا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرَةً لِّعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ [الجاثية: الآيات ٧/٩].

وقد يؤدي ذلك إلى الاستكشاف من سماع ذكر الله وآياته على حد قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٣٥) [الصفات: الآية ٣٥].

فقد لاقيت شخصاً في إحدى العواصم الإسلامية قبل حوالي ثلاثين عاماً كان يشكو أذان الصبح عند الفجر. كان يقول أن هذا المؤذن في هذا الجامع يوقظني بأذانه عند الفجر من نومي. أليس هناك رادع أو مانع! نعم، إن من يقضي ليله في سفساف الأمور ويسهر في أمور باطلة إلى بعد منتصف الليل، في أمور تذهب بدينه ودينه، يريد أن ينام عند الفجر إلى بعد طلوع الشمس بساعات. وقد يأتي إلى فراشه ثملاً، لا يعي ولا يشعر، قد تلوث نفسه بهذا المسكر الذي أقل ما يفعله بالشخص أنه يزيل إيمانه بالمقدسات ويجعله يستهزئ بها، ففي الحديث: «شارب الخمر كعابد وثن»^(١). أي، أن المثابرة على استعمال المسكرات تؤدي إلى إنكار المقدسات، فيترك شيئاً فشيئاً عبادة الخالق جلّ جلاله ويؤول أمره إلى عبادة المادة وحب الدنيا الفانية، فيكون كمن عبد الأوثان. أي يرجع بدم من الخمر إلى جاهلية جهلاء. ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوِينَ﴾ [السجدة: الآية ١٨]. نعم، قد يؤدي بهؤلاء الأشخاص الحال، أنهم يمتعضون من سماع ذكر الله وآياته، فيكونون مصداق هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا ذُكِّرَ اللَّهُ وَحْدَهُ شَمَزَتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِّرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: الآية ٤٥].

إن الله تعالى كما في الآية الآتية يحصر الاعتبار بالآيات والانتعاض بعصارات العلوم الطبيعية وما خلق الله في هذا الكون من عجائب وما وضع من أحكام وقوانين، في من كان متصفاً بالصبر والشكر. إنه يقول:

﴿أَلَمْ نَرَأَنَّكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ يَبْعَثُ اللَّهُ لِرَبِّكَ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [لقمان: الآية ٣١].

وقد جاء في الحديث: «الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر». ولا يعلم معنى هذا الحديث وأثره في تكامل النفس إلا من جرب ذلك وأخذ يسير في ميادين تطهير النفس وتزكيتها. ولكن من تسافتل نفسه وتلوث بأنواع المظالم والموبقات يرى الحق باطلاً والباطل حقاً. فيتذرع تبريراً لموقفه بالمنطق الحديث! ظناً منه أن الأحكام الأخلاقية تتغير حسب ميول الناس وشهواتهم. فإذا تسافلوا، فما هم عليه من التسافل في الأخلاق فهو المنطق! لكنه حديث وجديد! لزعمهم أن لكل زمان منطقاً! إن هذا النوع من الاعتقاد ناشئ عن الاعتقاد بأن الله تعالى لم يرسل نبياً لتكامل الإنسان ورفع نواقصه، وإن البشر يسير حسبما يحب ويريد فلا تسافل ولا تكامل! بل التكامل ما عليه الناس في كل وقت من عادات مهما كانت متسافلة في متن الواقع.

هناك فرق بين المنطق (Logique) وما عليه الناس من عادات وأفكار مملوءة بالشهوات: (Mentalite) أو الذهنية. فإن المنطق يجري في حل المسائل الهندسية والفيزيائية والكيميائية، وقد أودعه الله تعالى في الإنسان تفضلاً منه ورحمة ولا تبديل يعتريه. ولكن العادات والذهنية الحاكمة وما عليه الناس من أخلاق تتسافل وتتكامل وتتغير، فلا يجوز أن يعبر عنها بالمنطق الحديث والمنطق منه براء.

ولقد سمعت وأنا أدرس في الجامعة من أحد المهوسين المدافعين عن أخلاق الغرب مدحاً كثيراً، لاسيما عن الحرية التي شاهدها في حياتهم. وذكر لي شاهداً على صحة قوله، أن رجلاً من رجال الغرب كان يفسق في غرفته، فاستأذن عليه صديق له، فأذن له بالدخول. ودخل، فلم يكتث ولم يرتبك كأنه يقوم بعمل طبيعي، ذلك لأن الفسق في نظره عمل طبيعي، أهذه حرية أم سلوك بهيمي؟!

إن سنن الكمال ثابتة لا تغير فيها حسب الزمان والمكان. سواء ارتضى الغربي أو لم يرتض. فليس هناك مجال للقول بالمنطق الحديث والمنطق القديم. فلا قديم ولا حديث. والحق ثابت على لسان الأنبياء ﷺ.

﴿يَكُنِّيْٓ اٰدَمَ فَاَنْزَلْنَا عَلَيْكَوْاٰيٰسَٓا يُوْزٰى سَوَٓءُكُمْ وَّرِشَٓا وَيٰٓاٰسَٓا النَّفٰوٰى ذٰلِكَ خَيْرٌ ذٰلِكَ مِّنْ ءَايٰتِ اللّٰهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُوْنَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأعراف: الآية ٢٦].

فطوبى لنفوس تقيدت بالفضيلة وسارت بإرادة وعزم رصينين في ساحات الكمال

لتصل إلى الغاية التي قد خلقت لأجلها ولم تتأثر بزخارف الغرب ومدنيتها المادية الشهوانية، فزادت إيماناً بخالقها وبارئها.

* * *

وكم قرأنا في تاريخ الإسلام أن أناساً أسلموا بمجرد سماع آيات الله البينات، القرآن الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فُصِّلَتْ: الآية ٤٢]، فقالوا ما هذا بكلام الآدميين، وإنما هو كلام سماوي أنزله رب العالمين. كل ذلك لصفاء في نفوسهم وفطرة لم تلوث بالظلم والموبقات.

وهذا خير دليل على أن الإنسان لو خلي ونفسه ولم يلوث نفسه بالجرائم والموبقات يعترف بخالقه وبكل ما أنزل الله، بصورة فطرية. ويرى ذلك من أوضح الواضحات ومن البديهيات، ولا يشك في ذلك قيد شعرة، على حد قوله تعالى: ﴿أَفَى اللَّهِ سَكُّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: الآية ١٠]. إلا أن الذنوب وعلى رأسها الخمر تؤدي به إلى هذا الجحود أي مخالفة الفطرة. فقد جاء في الحديث القدسي: «وكل عبادي خلقتهم حنفاء، فاحتالهم الشياطين عن دينهم وأمروا بأن يشركوا بي غيري».

وقد جاء في بعض ما نشر عن أسباب استيلاء الغربيين على الأندلس: أن كنيسة روما كانت مضطربة أيما اضطراب من جراء دخول المسلمين الأندلس وانتشار الإسلام في تلك الأصفاع. فكانت تعقد الجلسات والاجتماعات لمعالجة هذا الأمر. حتى استقر رأيهم على أن يرسلوا كميات وافرة من الخمر بصورة سرية إلى الأندلس وأن يؤسسوا تحت الأرض معامل سرية لاستحصاال الخمر، فيقدموا للمسلمين ولاسيما رجال الحكم، الخمرة بثمان بخس أو متبرعين. فانتشرت الخمرة بين المسلمين، لا سيما أصحاب النفوذ والثراء، وانتشر نتيجة لذلك، الترف والفساد بأنواعه، فضعفت العقيدة وذهبت الغيرة والتضحية في صيانة الدين وصيانة وطن المسلمين. وكانت نتيجة ذلك أن ارتحل الدين الإسلامي من إسبانيا وأصبح في خبر كان.

نعم، إن الاعتراف بوجود الخالق هو من أوضح الواضحات وهو من أشكال المشاكل وأوعرها لو تدنس النفس بفجورها وخمورها، بغيا وظلمها.

* * *

أفي الله شك فاطر السماوات والأرض ٢١٧

أنظروا إلى دكارت (Rene Descartes) وهو الفيلسوف الفرنسي الرياضي (١٥٩٦ - ١٦٥٠م) كيف توصل إلى وجود الخالق جلّ جلاله، لعدم تلوّثه نفسه بما يبعدها عن الاعتراف بأوضح الواضحات.

إنه شك أولاً في وجود نفسه، فقال: «أنا أفكر، إذن أنا موجود». ثم قال: «إن لديّ فكرة الكمال وأنا غير كامل، فلو كنت مخلوقاً من قبل ذاتي لكنت خلقت ذاتي كاملاً، لأنني أمتلك فكرة الكمال، ولأن أعطاني لذاتي ضروب الكمال، سيكون ولا ريب، أقل صعوبة من أن أجذب نفسي من العدم، وبما أنني غير كامل، فأنا إذن، لم أخلق نفسي بنفسي».

يقول الإمام علي عليه السلام عن الله تعالى: «شيء لا كالأشياء» ومعنى ذلك أن الله تعالى لا يشبه ما نراه من الأشياء أو نتصورها.

يستنتج من كلام علي عليه السلام ما يلي: أنا محدود، فعليه يجب أن يكون الله تعالى غير محدود. ذلك لأن المحدودية قيد ولا بد أن يكون هناك من يقوم بهذا التحديد. والله جلّ من أن يحده أحدٌ أو يحده شيء وهو خالق الأشياء عليها^(١). ثم إن علمي محدود. وعلمي من الله تعالى، ولولا إعطاء الله إياي القوى العقلية والفكرية لما علمت. فيجب أن يكون علم الله تعالى غير محدود. لأنه الكمال المطلق. ولا يشبهه شيء. وهكذا نقول في قدرة الله تعالى، أن قدرتي محدودة، إذن قدرة الله تعالى غير محدودة ولا تنهاى. أنا أبصر بعين والله تعالى هو معطي العين وهو لا يشبهني في شيء ولا يحتاج إلى آلة لأنه هو خالق الآلات، إذن، لا يحتاج الله تعالى في الإبصار إلى عين (أي إلى آلة). وقد جاء في الأدعية الرجبية: «يا من لا ينعت بتمثيل، ولا يمثل بنظير، ولا يُغلب بظهير».

ويستحيل على العقل أن يعترف للمخالق بخالق آخر، إذ لا بد من خالق أزلي لم يُخلق،

(١) وقد جاء في دعاء يقرأ في كل يوم من أيام رجب: «يا موصوفاً بغير كنه، ومعموفاً بغير شبه، حاد كل محدود، وشاهد كل مشهود، وموجد كل موجود، ومحصي كل معدود، وفاقد كل مفقود، ليس دونك من معبود. أهل الكبرياء والجود، يا من لا يكيف بكيف، ولا يؤت بآين. يا محتجياً عن كل عين، يا ديموم يا قيوم وعالم كل معلوم». مفاتيح الجنان، أعمال شهر رجب.

لا يحده زمان وهو خالق الزمان والمكان وموجدها، كان قبل أن يكون شيء غيره.

قيل لعلي بن موسى الرضا عليه السلام وهو الإمام الثامن من الأئمة الاثني عشر، المعصومين عليهم السلام؛ يا ابن رسول الله، ما الدليل على حدوث العالم؟ قال: «أنت لم تكن ثم كنت، وقد علمت أنك لم تكون نفسك، ولا تكونك من هو مثلك»^(١). وقال عليه السلام «إني لما نظرت إلى جسدي ولم يمكني فيه زيادة ولا نقصان في العرض والطول ودفع المكاره عنه وجر المنفعة إليه، علمت أن لهذا البنيان بانياً بناءه، فأقررت به مع ما أرى من دوران الفلك بقدرته وإنشاء السحاب وتصريف الرياح ومجرى الشمس والقمر والنجوم وغير ذلك من الآيات العجيبات المينات، علمت أن لهذا مقدرًا ومنشأً»^(٢).

إن هذا المادي المتطفل على العلم، والعلم منه براء، يريد أن يحيط بالله الذي لا يحده شيء، يريد من شخصيته المحدودة في كل قابلية وفي كل ملكة، المحدودة في الجسم والنفس. يريد منها أن تحيط بخالقها الذي لا تتناهى كل صفة من صفاته التي هي نفس ذاته.

ما أعظم هذه الفقرات من دعاء يقرأ في كل يوم من أيام رجب: «يا من سما في العز ففات خواطر الأبصار، ودنا في اللطف فجاز هواجس الأفكار، يا من توحد بالملك فلا ند»^(٣) له في ملكوت سلطانه، وتفرد بالآلاء والكبرياء فلا ضد له في جبروت شأنه. يا من حارت في كبرياء هيبتة دقائق لطائف الأوهام، وانحسرت دون إدراك عظمتة خطائف أبصار الأنام»^(٤).

أترى أن ذرات التباشير على السبورة (اللوحة) تشعر بتشكيلات أعضاء من رسمها على السبورة، تشعر بعقل الراسم ونفسه ومحاكماته، هل لهذه الذرات (ذرات التباشير) أن تحيط براسمها ومصورها. كلا . . . على أن الراسم على السبورة لم يكن

(١) بحار الأنوار: ج ٣، ص ٣٦، باب ٣.

(٢) أصول الكافي: ج ١، ص ٧٨، باب حدوث العالم.

(٣) الند: المثل، جمعه: أنداد.

(٤) بحار الأنوار: ج ٤٩، ص ٨٢، باب ٥.

قد أوجد ذرات التبشير من العدم والموجد لها غيره وهو الله تعالى، بل رتب الذرات أو الأجزاء بشكل آخر. (مع عدم جواز التشبيه). فكيف بهذا الإنسان المغرور، يريد أن يحيط بخالقه الذي أوجده من العدم. كان نطفة، فعلة، فمضغة... الخ. وقد سار في أدوار التكامل التكويني مراحل عديدة جداً رسمها الله، وقف على بعضها العلم الحديث.

إن الاعتقاد بوجود الخالق أمر ارتكازي في الإنسان. ولكن هذا الإنسان بارتكابه المعاصي واتباعه أوامر الشيطان، يحيد عن الفطرة، فينكر خالقه ويتخذ لنفسه مما صنع بيده آلهة، فيبعد الأوثان والحيوانات إلى ما هنالك.

لذا يسأل أتباع موسى عليه السلام: **لماذا جعل لهم إلهاً؟** **﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ^(١) عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ^(٢)﴾** **﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ^(٣) مَا هُمْ فِيهِ وَطَلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ^(٤)﴾** [الأعراف: الآيةان ١٣٨/١٣٩].

سئل أعرابي عن الدليل على وجود الصانع (الله)، فقال: «البعرة تدل على البعير، وآثار الأقدام تدل على المسير، أفسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج لا تدلان على الصانع الخبير»^(٣).

وسُئلت عجوز عن الدليل على وجود الصانع، فقالت دولابي هذا، إن حركته تحرك وإن لم أحرّكه سكن.

كل ذلك لأن فكرة الاعتراف بوجود الخالق مرتكزة في النفس الإنسانية من القديم. أي أن الله تعالى ودع هذه الفكرة في النفس الإنسانية عند خلقه إياها. فهي إن لم تتلوث تعترف لا محالة بخالقها بالفطرة. وإن هذا الاعتراف أمر فطري خارج عن إرجاع المعلول إلى العلة. على أن الطرق لمعرفة الخالق كثيرة جداً وأهمها إرجاع المعلول إلى العلة. فالإنسان المفكر (غير الملوّث فطرته) لا بد وأنه يؤمن بموجد أزلي

(٣) بحار الأنوار: ج ٦٦، ص ١٣٣.

(١) يعكفون: يقيمون ويلازمون.

(٢) متبّر: مُهْلِك، مُدْمِر.

لم يوجد شيء وهو الله الكامل على الإطلاق . لا يشابه ما خلق في شيء من الأشياء .
ولولا إيداع الله تعالى في العقل الإنساني ملكة البحث عن علة الأشياء لصعب
علينا السير في ساحات العلم . ولكن هذا البشر العادي عندما يلوث نفسه بالمعاصي
والموبقات ، يحجب عقله الفطري الذي يعترف بعظمة خالقه وكمال صنعه بصورة
طبيعية ، فلا تفيده الأدلة ولا ربط المعلولات بعلمها . على حد قوله تعالى : ﴿سُئِلَ اللَّهُ
فَتَسَبَّحَهُمُ﴾ [التوبة : الآية ٦٧] . وقوله تعالى : ﴿وَلَا تُطِيعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قُلُوبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ
أَمْرُهُ قَرْطًا﴾ [الكهف : الآية ٢٨] .

وقد يسأل بعضهم : لماذا يسد الله تعالى على بعض عباده أبواب الهداية . ذلك ،
لأن نفوس هؤلاء تبلغ من التسافل والانحطاط مرتبة لا ينفعه معها أي إرشاد ووعظ .
فتستحق الخذلان ، فتسد عليهم أبواب الهداية . إن الله تعالى يقول : ﴿بَلْ بَدَأْتُمْ مَّا كَانُوا
يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رَدُّوْا لَمَّا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام : الآية ٢٨] .

ومع الأسف ، إن طبقة الضالين والمنحرفين هم أكثر عدداً على وجه البسيطة من
المؤمنين بالله تعالى . فإنه تعالى يقول : ﴿وَإِنْ تُطِيعُ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ
اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام : الآية ١١٦] . ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ
وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف : الآية ١٠٣] .

أسفاً لبعض هؤلاء الذين قد بلغوا مرتبة مرموقة من ثقافة العصر ، ثم هم ينكرون أوضح
ما في الوجود ، ألا وهو الله تعالى ، لادلهام في النفس وظلمات بعضها فوق بعض .
ولأنهم (مع مزيد الأسف) قد بلغوا مرتبة من تسافل النفس بسبب ما ارتكبوا من موبقات
حتى صاروا لا يشعرون بما هم فيه من انحطاط نفسي مرير . ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ
مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [١٨٢] وَأَمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿[١٨٣]﴾ [الأعراف : الآيتان ١٨٢/١٨٣] .

يقال عن بعض الفضلاء^(١) أنه أراد أن يكتب رسالة في إثبات وجود الخالق
(واجب الوجود) ، قالت له زوجته : ماذا تريد أن تكتب؟ فقال : أريد أن أكتب رسالة

(١) ألا وهو السيد المرتضى ، علم الهدى ، شقيق السيد الرضي مدون نهج البلاغة .

يقال: إن ملكاً من الملوك كان يشك في وجود الصانع وهو الله تعالى. وكان قد تنبه إلى ذلك وزيره. فأراد أن يزيل عن الملك ما يختلج في صدره من شك. فأمر بصورة سرية ببناء قصور عالية وإجراء مياه جارية وإحداث بساتين عامرة وحدائق غناء في مفازة من الأرض. ولم يُعلم الملك بذلك. ثم ذهب الوزير بالملك إلى تلك المفازة على سبيل المرور ببلدة ما، فلما رأى الملك ذلك سأل الوزير قائلاً: من الذي بنى هذه القصور ومن هو الذي نظم هذه الحدائق؟ فأجاب الوزير قائلاً: قد حدث كل ذلك من تلقاء نفسه! وليس لها بائ ولا صانع!

غضب الملك وقال بامتناع: أفيمكن ذلك؟ أفيجوز أن تنظم هذه الحدائق بهذا النظام البديع وتبنى هذه الغرف بهذا الترتيب الجميل دون أن يكون هناك منظم ومرتب؟. ما هذا الجواب السخيف؟ فأجابه الوزير، قائلاً: فكيف يصح وجود هذه المخلوقات المتنوعة مع ما فيها من جمال وكمال وترتيب، وهذه السموات والأرض بهذا النظام البديع والدقة المتناهية دونما صانع وخالق قدير متعالٍ؟ فتنبه الملك وأيقن بالحق والواقع وزال شكه.

إن التصديق بوجود الخالق أمر فطري. ولا يعتره الشك أو لا يزيحه إلا الكبائر من الآثام والذنوب وقد قال تعالى: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بَدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الْبَیْتُ الْقَیْمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾﴾ ﴿مُتَّبِعِينَ إِلَيْهِ وَأَتَّقُوهُ وَأَقِمُْوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٢١﴾﴾. فقد ورد في تفسيرها: أنهم فطروا على المعرفة أي على معرفة الخالق جلّ جلاله. وقال رسول الله ﷺ: كل مولود يولد على الفطرة. ولذلك ترى الناس عند اشتداد الأمور وتعسر الأحوال وفي الأهوال يتوجهون إلى مَنْ خلقهم، يرجون منه كشف ما توجه إليهم من النوائب والبلايا بصورة فطرية. لأنهم مجبولون على ذلك.

كم رأينا من الطيارين عند حدوث عطل في طياراتهم وعلمهم بالسقوط لا محالة، تضرعوا إلى الله تعالى وتوسلوا به بإخلاص لا مزيد عليه. فنجوا بشكل خارق لم يكن بالحسبان. نقرأ ذلك في كثير من المجالات. ويشهد لذلك قوله تعالى:

﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيُؤْتِنَا اللَّهُ﴾ [الزمر: الآية ٣٨] وفي آية

أخرى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَعْبَرِ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ بَلْ إِلَٰهَآ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنعام: الآيتان ٤١/٤٢].

وفي آية أخرى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِ (٢) وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَبَئَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ فَلَمَّا أَجَبَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْقُونَ (٣) فِي الْأَرْضِ يُغَيِّرُ الْحَقُّ يَأْتِيهَا النَّاسُ لِنَمَّا بَغْيِكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ لَنُنَبِّئَكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: الآيتان ٢٢/٢٣].

وكم رأينا مصداق هذه الآية في الحرب العالمية الثانية. حتى الملحدين الذين كانوا يتجاهرون بالإلحاد والزندقة والمسلك المادي ويدعون إليه، كانوا يطلبون إلى الناس وإلى رجال الدين، أن يتوسلوا بالله تبارك وتعالى في المعابد والكنائس، ليمنَّ الله عليهم بالنصر والتفريج. وقد فعل سبحانه. ولكنهم رجعوا بعد ذلك إلى طيشهم وخمورهم وفجورهم وبغيهم! ونشر الإلحاد والزندقة بشتى الطرق والأساليب. وأخذوا يتذرعون بما وجدوا (على زعمهم)! من قوانين غير ثابتة في حياة النبات والحيوان في سيرهما التكاملي! مطبقين إياها خطأ على الحياة الاجتماعية للإنسان، ظناً منهم أنهم قد توصلوا إلى فلسفة الحياة!

لهذا آمنت بالله (٤)

يقول الدكتور: أ. ج. كرونين «كنت ملحدًا عندما كنت أدرس الطب في جامعة لندن، وعندما كنت أفق أمام جسم إنساني في غرفة التشريح، أحس بأنني أمام جهاز شديد التعقيد، وفي الوقت نفسه، كنت أفكر في الروح الخالدة في الله وكانت ابتسامة الاستخفاف والسخرية ترسم على وجهي، وكنت أرى في ذلك كله أسطورة قديمة بالية. وكان يشاركني في هذا الشعور أكثر طلاب الجامعة؛ بقيت هكذا إلى أن أصبحت طبيباً

(١) أرايتم: أي أخبروني.
(٢) الفلك: السفن.
(٣) يبغون: يظلمون.
(٤) نقل هذا المقال من مجلة المختار لشهر كانون الثاني ١٩٥٦ لأهميته.

وسافرت إلى منطقة المناجم بجنوب (ويلز)، وصرت أجد أنني أنفذ في مملكة الروح الإنسانية. لقد شاهدت معجزة ميلاد الإنسان وجلست إلى الموتى واستمعت في الظلام إلى رفرفة أجنحة الموت فتخلّى عني غروري، فصرت أؤمن بالله».

ورأيت العمال كلهم يؤمنون بالله. ولا يمضي أسبوع واحد دون أن يقع هناك ما يؤيد إيمانهم بالله وتوكلهم عليه.

لن أنسى ذلك اليوم ما حييت. فقد حدث انفجار مروع أدى إلى سقوط المنجم على ١٤ عاملاً، وبقي هؤلاء العمال مدفونين تحت التراب خمسة أيام كاملة. وظلت القرية تصلي لله لأجلهم، وأخيراً استطاع رجال الإسعاف أن يشقوا طريقهم إلى المنكوبين واستمعوا إلى دعاء خافت ينبعث من الأنقاض إنه صوت العمال، يترنمون بأنشودة: «يا أرحم الراحمين».

أخرجوا أحياء من تحت الأنقاض وهم منهوكون القوى، والتفّ حولهم ألوف من العمال وراحوا يرددون: «يا أرحم الراحمين في كل حين».

وعندما وقفت إلى جوار هؤلاء المنكوبين، اجتاحتني هذه الموجة من الدعاء والصلوات. إنها دليل آخر على أن إيمان الإنسان، قد تجاوز كل كلام وكل تعبير.

«وبعد سنة انتقلت للعمل في منطقة أخرى، والتقيت بمرمضة كانت تشتغل ليلَ نهار في التمريض والإسعاف مدة عشرين عاماً وهي تدور مسافة طولها عشرة أميال يومياً بلا توقف للقيام بما هو فوق واجبها. فقلت لماذا لا تطلين زيادة لراتبك؟ فإنك تستحقين أكثر مما يعطى لك! فقالت بعد صمت يسير: إذا كان الله يعلم أنني أستحق هذه الزيادة فهذا كل ما أطمع فيه.

حادث المنجم وإيمان هذه الممرضة الساذجة. كل ذلك قد أخرجني من عذاب الشك والقلق وأوقفني على أرض ثابتة عالية من الإيمان.

نحن لا نستطيع أن نبرهن على وجود الله كما نبرهن على المعادلات الرياضية. ولكن إذا تأملنا الكون وأسراره وعجائبه ونظامه ودقته وضخامته وروعته فلا بد أن نفكر في إله خالق. مَنْ ذا الذي يتطلع إلى السماء في ليلة صيف صافية ويرى النجوم

اللانهاية وهي تتألق بعيداً، ثم لا يؤمن بأن هذا الكون كله، لا يمكن أن يكون وليد الصدفة العمياء.

وعالمنا هذا هو يدور في الفضاء في حركة دقيقة وفي فصول متتابعة، هذا العالم لا يمكن أن يكون مجرد كرة من المادة خالية من الدلالة، قد نزعَت من الشمس وألقيت في الفضاء، بلا معنى ولا سبب.

أطرح عن رأسك، إن شئت، كل ما أشارت إليه الكتب المقدسة عن الله وعن العالم، وإن الله قد سوى العالم بيده في ستة أيام، وأقبل، إن شئت، نظرية التطور كاملة، وتتبع الخلقة منقوشة على الحفريات، وتتبع سير الأنواع، وترقيها حتى بلغت صورة الإنسان، وأقبل - إن شئت - كل النظريات العلمية التي قامت عليها، فإنك ستواجه لغزاً غامضاً وسراً عميقاً، لا يمكن أن تقول أن هذا كله قد صدر من العدم، فلا شيء يخرج من لا شيء.

ومن بضع سنوات، عندما كنت في لندن نظمت نادياً للشبان ودعوت إليه أحد المشتغلين بعلم الحياة، ليلقي محاضرة للأعضاء. وقد اختار هذا الباحث الممتاز موضوع محاضرتة عن «بداية عالمنا» وتحدث بأسلوب العالم الملحد! وجعل يصف عصور «الأيون» السابقة على التاريخ. وكيف تحولت الأرض على مر هذه العصور من الغازية إلى السيولة، إلى الصلابة، وكيف أن الأرض كانت مطمورة في مياه المحيطات، وكيف أن الأمواج تعلو وتهبط على القشرة الأرضية، وكيف أن القشرة الأرضية قد تكونت نتيجة تفاعلات طبيعية كيميائية. وكيف أن هذا التفاعل مع الزبد قد أدى إلى تكوين سطح الأرض التي نعيش عليها، ومن هذه الأرض ظهرت الحياة الأولى على هيئة بروتوبلازم.

وعندما فرغ المتحدث من محاضرتة، صفق له الحاضرون تصفيقاً مهذباً، ولكن تلميذاً وقف في صورة عصبية وسأله: لا تؤاخذني يا سيدي، لقد حدثتنا عن الأمواج الهائلة التي كانت تضرب الشواطئ، ولكن كيف وجدت هذه المياه كلها أول الأمر؟.

وساد صمت كله حرج واحمر وجه الأستاذ المحاضر، وقبل أن يجيب بكلمة واحدة، أغرق الموجودون في الضحك. لقد انهار منطق الحديدي بسؤال من تلميذ صغير.

والحقيقة هي أنه لا يوجد في كل هذه الأبحاث العلمية عن الطبيعة والحكمة منها والعمليات المروعة الرائعة التي تجري فيها . أساس واحد سليم لإنكار وجود الله بل إن الإنسان ليجد نفسه مضطراً إلى القول بأن هناك عقلاً كبيراً وراء هذا الخلق والحياة وقوانين الطبيعة .

والعقبة الكبرى التي تقف في وجه الإيمان، أمام أناس كثيرين، هي وجود الشر والألم بين الناس . كيف يمكن الإيمان بالله مع وجود العواصف المهلكة والفيضانات المفجرة، والمجاعات والأوبئة والزلازل والبرق المحرق، والرعد الصاعق والموت في أقسى صورة . ؟ إن هذه الأشياء لا تدلّ على وجود إله كامل خير^(١) .

ومما يوسف له حقاً : إننا في هذا العصر المادي لا يشغلنا إلا البحث عن اللذة . وننسى أن اللذة ليست هي كل شيء ، وليست نهاية كل شيء في هذا الوجود . فإذا نحن آمنّا بالله وآمنّا بخلود الروح الإنسانية، فإننا ندرك أن حياتنا ليست تافهة عابرة، وإنما هي تجربة واستعداد وتهيو . وإن حياتنا ليست إلا لحظة من اللحظات الأبدية . وامتحاناً لصبرنا، عندما يجيء ذلك اليوم الذي نقف فيه على أعتاب الآخرة .

(١) لم يبلغ (كرونين) ما قاله سيد المرسلين محمد ﷺ : «إن الله إذا أحب عبداً ابتلاه ليمسح نضره» وفي هذا تصفية للنفوس الملوثة وتنكية للأرواح المدنسة . فالدنيا مدرسة تكامل وتطهير وما يتلوه به الإنسان من فقر ومرض وفقد الأولاد وزلازل وحريق ورعد وصواعق إنما هي مواد وضعت من جانب الله ليمارسها الإنسان في هذه المدرسة الكونية، يطهر بها نفسه فيكفر عن ذنوبه وينال بها درجات في البصر والرضاء والتسليم . ويقول الله تعالى : ﴿وَلَتَبْلُوكُمْ بِمَنِّ مِنَ السَّمَاءِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّرَاثِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِلَيْهِ رُجُوعُنَا ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥/١٥٦/١٥٧] . الدنيا دار تكامل وتصفية . ولا يتكامل الإنسان إلا بعبادة ربه، وبالعבודה يزداد معرفة بالله . وإن الأعمال الصالحات من أهم مراتب العבודה . وقد قال الله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي ﴿٥١﴾﴾ [الدّاريات: الآية ٥١] . والعبودية . (كما جاء في الحديث) تتجلى في خمسة أشياء :

١ - خلاء البطن . ٢ - تلاوة القرآن . ٣ - صلاة الليل ٤ - التضرع عند الصباح . ٥ - البكاء من خشية الله . فمن أراد أن يزداد إيمانه وتصفو نفسه، فتكشف له حقيقة الحياة وفلسفة النوائب فليطبق ما يتحقق به العبودية . ليرى كيف تنقش عنه الشبهات ويدخل في عالم من الطمأنينة جديد ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يُمْسِكُوا قُلُوبَكُمْ﴾ [الزمر: الآية ٢٨]

وحين نرضى عن الشقاء والألم واليأس والأسف، فإننا نخضع لإرادة الله، وهذا الرضاء والإيمان المُشرق، هو الذي يرينا الله. فإن العقل مهما تبلغ قدرته، لا يبلغ إلا قشرة واهنة من الأبدية. والله يتجلّى للقلب لا للعقل».

حدث، بعد أن زرت معبدًا في إيطاليا ورأيت فيه لوحات فنية رائعة تمجّد الله. وبعد أن تجولت في حديقة الدير، أن رأيت عجوزاً قد أقعده الروماتيزم عمل في هذه الأرض منذ ثلاثين عاماً، ورحت أسأله عن حياته، فقال وهو يشير إلى الحديقة: «إنني أرى أشجار الكرز وهي براعم، ثم أرى أزهارها وبعد ذلك ثمارها، فيزداد إيماني بالله».

وقابلت ذات مرة رجلاً في شمال إنجلترا، كان يفخر طول حياته بأنه رجل ملحدًا وحرّم ابنته الوحيدة من الميراث. لأنها تزوجت مدرساً شديد الإيمان بالله. وفي نهاية حياته أصيب بمرض عضال. فحاول جهده أن يبرر موقفه بالنسبة لصهره... وكان صهره يستدرجه بين الحين والحين إلى مناقشة تنتهي عادة بقوله: «لا تخدع نفسك، إنني لست نادماً على شيء، فما زلت أكفر بالله».

وفي يوم ردت عليه ابنته قائلة:

ولكن الله يا أبي يؤمن بك!

وأمام هذه العبارة سقطت آخر مقاومة لهذا الرجل الملحد.

فمهما نفكر ونفعل، فنحن من صنع الله، وكلمة واحدة تكفي لشكره وحمده.

وإننا لنلمح خلال القرون التي لا تحصى، عدداً لا نهائياً؛ من الناس قد عاشوا حياتهم نبيلة طيبة، وكان الله مثلهم الأعلى. لقد أعطى الخائف شجاعة ومنح الضعيف قوة، وأنزل السكين على قلوب الحائرين، وملأ بالأمل قلوب البائسين، إنه في كل واحد منا، إذا نحن بحثنا عنه.

رُبَّ قائل أن يقول: لماذا كان (أ.ج. كرونین) يسخر من الاعتقاد بالله عندما كان في الجامعة. وما هي العوامل التي جعلته يؤمن بالله إيماناً رصيناً بعد تعيينه في منطقة المناجم. فإن ما شاهده من مناظر وحوادث تُشاهد من قبل كثيرين من الملاحدة ولا تؤثر إلا في القليل منهم جداً.

إن للإيمان بالله عوامل شتى. منها طهارة المأكّل والمشرب، برّ الوالدين، صلة الرحم،

العمل الصالح لوجه الله، اجتناب الفسوق والخيانة، والإنفاق وأظنه أهمها: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون: الآيات ٦٠/٦١].

لا شك أن الشاب ينهمك في ملذات غير مشروعة في شبابه إلا من عصم الله. وإن حياة الجامعة واختلاط الجنسيتين حافزان قويان للولوج في ما نهى عنه، ثم إن الغرور الذي يصيب الطالب الجامعي لثقافة بنالها، يجعله لا يبالي بوالديه وأرحامه، وهذه وغيرها أسباب حقيقية تؤدي إلى اسوداد القلب وظلمة النفس وتكون حجاباً حاجزاً دون رؤية الحق. إنه تعالى يقول: ﴿فَلَا تَطِيعُ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَذُؤَا نُفُوسٍ فَاكِهُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تَطِيعُ كُلَّ حُلَافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَامٍ بَنِمِيمٍ ﴿١١﴾ مَتَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْبٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَنَبِينٍ ﴿١٤﴾ إِذَا تَنَازَعْتُمْ عَلَيْهِ بَيْنُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾ [القلم: الآيات ٨/١٥].

ولا ريب أن النفس الإنسانية في عنفوان الشباب طاغية باغية. منقادة للشيطان الذي يزين له عمله، أمارة بالسوء أكثر من وقت آخر إلا من عصم الله تعالى، وإن النفس كثيراً ما تميل عن الطاعة لما هنالك من مشقة وهكذا شأن الدواء. وتميل إلى المعصية، لما هنالك من لذة ورغبة، كمريض يتناول ما يضره لما فيه من لذة. لذلك جاء في الحديث عن الإمام علي عليه السلام: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحَفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ»^(٢). وقول علي عليه السلام: «واعلموا أنه ما من طاعة الله شيء إلا ويأتي في كره. وما من معصية الله شيء إلا ويأتي في شهوة. فرحم الله رجلاً نزع شهوته وقمع هوى نفسه»^(٣). ولا مرأى أن الفسق يؤدي إلى ظلمات في النفس، فشكوك، فجحود، فالحاد! على حد قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [البقرة: الآية ٩٩].

لكن الدكتور عندما انتقل إلى معالجة المرضى في منطقة المناجم صار بعيداً عن تلك الحوافز التي تسود القلب، وأخذ يقوم بمعالجة المرضى وأعمال أخرى صالحات، مما جعل تلك النقاط السوداء التي تلبدت على قلبه تزول رويداً رويداً،

(٣) بحار الأنوار: ج ٦٧، ص ٧٨، باب ٤٦.

(١) أساطير: خرافات.

(٢) بحار الأنوار: ج ٦٨، ص ٧٢، باب ٦٢.

فصار مؤمن بالله تعالى . ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُتَّعٍ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس : الآية ٢٦] .

لذلك يعمل الدين الإسلامي في إبعاد وسائل اللعب وكل ما يؤدي إلى الفساد وتساقل النفس في كل بلدة، وذلك يجعل ثلثة من الناس (وهم المحتسبون) يقومون لوجه الله بالوعظ والإرشاد مطبقين أحكام الحسية، متجولين في الأسواق والشوارع، يمنعون الناس من النقص في المكيال والميزان والغش ومزاحمة المارة وبيع السلع المضرة والمحرمة والتجاوز على حقوق الآخرين وما يضر بالأخلاق العامة^(١)، وبذلك يكون المحيط (البيئة) محيطاً صالحاً لا يتأثر فيه الشاب تأثراً سلبياً يؤدي به إلى التسافل .

وإن ما جاء في الدين الإسلامي من أحكام وقوانين كلها تعمل في دفع الظلم عن هذا الإنسان . فالكذب ظلم، والزنا ظلم، وقتل النفس المحترمة ظلم، وعقوق الوالدين ظلم، وشرب الخمر ظلم، والبخل ظلم، والحسد ظلم، والكبر ظلم، وعدم إعطاء حقوق الفقراء والمساكين ظلم؛ ﴿وَالَّذِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٦٤﴾ لِّسَائِلٍ وَالْحُرْمِ ﴿٦٥﴾﴾ [المعارج : الآيتان ٢٤/٢٥] . وعن الصادق عليه السلام ، «اتقوا الظلم، فإنه ظلمات يوم القيامة» . وفي حديث آخر : «اجتنبوا دعوات المظلوم ولو كان كافراً، فإنها ليس دونها حجاب» . فبالظلم يُسودُّ القلب وتدهمُّ النفس، فيأتي دور الجحود والإلحادا . على حد قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَقَلْبُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم : الآية ٣٤] .

وإن الآية الآتية تشرح لنا بوضوح كيف أن الذنوب تؤثر في النفس، فتبعدها عن رؤية الحق والواقع : ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُوكَ الْآرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ فُشِّئَ أَصْبَتْهُمْ يَدُوتُهُمْ وَنُطِيعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأعراف : الآية ١٠٠] . كما أن الآية الآتية تدل دلالة واضحة : أن الفسق مزيل للإيمان : ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾ وَجَدْنَا لِكَثْرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ جَدَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأعراف : الآيتان ١٠١/١٠٢] .

وقد يكون الإنسان مجموعة ظلم وطيش وفسق وفجور . فلا يفيد أي وعظ وإرشاد، فلا شيء يجعله موقناً بالله إلا نار جهنم : ﴿أَفَيْسَرَ هَذَا أَمْ أَنْتَ لَا تَبْصُرُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

(١) ويراقبون السراق ويجمعون اللقطة وهو كل ما يرى مطروحاً لا صاحب له .

أَصْلُهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ [الطور: الآية ١٥]
 ١٦]. فيكون إذ ذاك مصداق الآية: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٢٣]. ونستجير بالله من هذه المرحلة المتسافلة.

فلا ينبغي للمؤمن أن يبهره ما لهؤلاء الجاحدين من مال وبنين وحياة طيبة وادعة (Confort). ذلك لأن الله تعالى يقول: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُسِّدُهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ تُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْفَيْزِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: الآيتان ٥٥/٥٦]. فإن الله قد زين لهم أعمالهم في الدنيا وتركهم وما هم عليه من ظلمات، بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿١﴾﴾ [النمل: الآية ٤] ^(١). وقربهم إلى الهلاك مستدرجاً إياهم بتواتر النعم عليهم على حد قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٧﴾ وَأُمْلِ لَهُمْ إِنَّا كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٨٨﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٨٢/١٨٣].

أدلة أخرى في إثبات الصانع

سُئِلَ الإمام الصادق عليه السلام وهو الإمام السادس، عن الله تعالى، فقال للسائل: يا عبد الله، هل ركبت سفينة قط؟ قال: بلى، فقال: فهل كسرت بك حيث لا سفينة تنجيك ولا سباحة تغنيك؟ قال بلى. قال: فهل تعلّق قلبك هناك أن شيئاً من الأشياء قادر أن يخلصك من ورطتك. قال: بلى. قال الصادق عليه السلام: فذلك الشيء هو الله القادر على الانجاء حين لا منجى، وعلى الإغاثة حين لا مغيث ^(٢).

فلو لم تكن فكرة التوجه إلى الخالق متمركزة لدى الإنسان لما توجه إلى خالقه عند نزول كارثة من الكوارث.

إن الله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَاَنَا لِنَجِّيهٖ ﴿٣﴾ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يونس: الآية ١٢].

(١) يعمهون: يتحيرون ويترددون في ضلالهم. (٢) لجنه: مضطجعاً.

(٢) بحار الأنوار: ج ٣، ص ٤١، باب ٣.

فالمسرف، أي الشخص الذي خرج بأعماله عن حد الاعتدال فاتخذ الربا مكسباً عوضاً عن أرباح المكاسب المحللة واتخذ الزنا أو اللواط ديدناً بدلاً من زوجة شرعية صالحة. . . إلى غير ذلك، ينسى خالقه بعد كشف الضر عنه. فينسى أن تمادى في النسيان. إن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: الآية ١٩]. وقد ذكر لي أحدهم وكان أمياً، أن سخله له جاءها المخاض، فعسر عليها الأمر وشق كثيراً وطال معها الوجع مدة غير قليلة من الزمن. ثم أنها رمقت يبصرها نحو السماء مستنجدة مستغيثة مما ألم بها وإذا بها تضع حملها صحيحة سالمة. فإذا كانت الحيوانات تتوجه إلى خالقها بصورة فطرية، فما بال هذا الإنسان! وهو أشرف المخلوقات، هذا الإنسان الذي يتسافل بعض أفراده بسبب نفوسهم الملوثة وما اجتاحت أيديهم فيكون أخط من الحيوان على حد قوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: الآية ٤٤]. ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْأَبْكُمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [٢٢] وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ [الأنفال: الآية ٢٢/٢٣]. وهذا معنى قوله تعالى في سورة التين: ﴿ثُمَّ رَدَدْتَهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين: الآية ٥] وحاش لله أن يظلم أحداً أو أن يرُدَّ أحداً، دونما ذنب، إلى أسفل السافلين. وإنما الإنسان نفسه، يأخذ بنفسه المسكينة لسوء اختياره وكثرة فحشائه إلى أسفل الدركات ولكن الله ينسب، لإرجاع العبد إلى أسفل السافلين إليه بقوله: (رددناه)، لأنه هو الذي سن هذا القانون ووضع هذا النظام العادل ﴿سُتَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ بُدِيلًا﴾ [الأحزاب: الآية ٦٢].

قال الإمام الباقر عليه السلام، وهو الإمام الخامس، في تفسير قوله تعالى: ﴿حُفَّاءَ لِلَّهِ عَبْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ [الحج: الآية ٣١]: هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها. وفي تفسير قوله تعالى: ﴿لَا بُدِيلَ لِمَ خَلَقَ اللَّهُ﴾ [الروم: الآية ٣٠] أي فطرهم الله على المعرفة. وقد جاء في روايات كثيرة: «أن الفطرة هي التوحيد». ولذلك يسأل أحدهم عن الدليل على وجود الصانع، فيجيب: أغنى الصباح عن الصباح^(١).

وحكى الفخر الرازي عن رجل: أنه اتفق في بعض الأزمنة جذب وقحط شديد. فخرج الناس إلى الصحراء للاستسقاء ودعوا فلم يستجب لهم. قال الرجل: فصعدت إلى الجبال. فرأيت ظلياً يسرع إلى المياه من شدة العطش، فلما انتهى إلى الغدير، رآه جافاً من الماء، فتحير وجعل يكرر النظر إلى السماء ويحرك رأسه مراراً، فظهرت سحابة وارتفعت وأمطرت، حتى امثلاً ذلك الغدير. فشرب الظبي ورجع.

وروي عن سليمان بن داود عليه السلام: أنه خرج يستسقي. فمر بنملة ملقاة على ظهرها، رافعة قوائمها إلى السماء. وهي تقول: «اللهم إنا خلقنا من خلقك، ولا غنى بنا عن رزقك، فلا تهلكنا بذنوب غيرنا». فقال: سليمان عليه السلام: «ارجعوا فقد سُقِيتُم بغيركم»^(١). ونقل عن صباد: أنه رأى ظبية ترضع ولدها. قال: فلما قصدت أن أصيدها فرت مني وتركت ولدها. فأخذته. فلما رآته في يدي رفعت رأسها إلى السماء وكأنها تستغيث وتستعين بالله تعالى، فإذا بحفرة في طريقي، فوقعت فيها، وانفلت ولدها من يدي... فأخذته أمه وذهبت به.

ولسائل أن يسأل: لماذا ترفع الأيدي إلى السماء حين يريد الإنسان أن يسأل الله تعالى قضاء حاجة ملحة وحين يتضرع ويستغيث. ويمكن أن يقال في جواب ذلك: لا شك أن الله تعالى منزّه عن المكان وهو خالق المكان وما كرة الأرض في هذا الفضاء اللانهائي إلا جرم صغير جداً من ملايين ملايين ملايين بل من عدد لا يتناهى من الأجرام التي خلقها الله في هذا الكون، فلا أسفل ولا أعلى لصغرها بالنسبة إلى عظمة الكون. ولكن لما كانت السماء منشأ الخيرات وتوحي رفعتها وعظمتها وعلوها (حسب ظن الإنسان الخاطيء)، عظمة الله القادر الجليل (والله هو الذي خلقها وكوّنها من العدم، وهو الذي يوحي ويعرّف الإنسان عظمته)، وحيث لا شيء أكبر من الله وأن الله لا يحده شيء وهو غير متناه في جميع الملكات لذلك كله، فطرت طبيعة الخلاق تعظيماً لله تعالى على التوجه إلى السماء، لعلوها، عند طلب الرزق وسائر الخيرات وعند الالتجاء في الشدائد والملمات. مع العلم بأن الله لا يوجد في جهة دون جهة.

(١) من لا يحضره الفقيه: ج ١، ص ٥٢٤، باب صلاة الاستسقاء.

وهو في كل مكان ولا يخلو منه مكان. ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: الآية ٤].
وقد قال بعض الأبدال في إثبات الخالق جلّ جلاله: «إنك لم تخلق جسدك ولا روحك ولا حياتك ولا عقلك ولا ما خرج من اختيارك من الآمال والأحوال والآجال ولا خلق ذلك أبوك ولا أمك ولا من تقلبت بينهم من الآباء والأمهات. لأنك تعلم يقيناً أنهم كانوا عاجزين عن هذه المقامات ولو كانت لهم قدرة على تلك الماهيات ما كان قد حيل بينهم وبين مرادهم فصاروا من الأموات. فلم تبق مندوحة أبداً عن وجود صانع واحد منزّه عن إمكان الحادثات، خلق هذه الموجودات التي قد كانت معدومات، فصارت موجودات».

إذا نظر الإنسان إلى هذا الكمال الرائع الذي أودعه الله في تمام مخلوقاته من (أميبا Ameoba)^(١) إلى الإنسان: في الجماد والنبات والحيوان، ثم إلى ربط التنظيمات الأرضية، بالتنظيمات السماوية ربطاً لا ينفك بعضها عن بعض ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ﴾ [الملك: الآية ٣]. ثم إلى هذه القوانين التي تربط الحوادث الكونية من فلكية وفيزيائية وكيميائية بعضها ببعض، ثم إلى المعادلات التي يراها في ما يشكل الذرة من الإلكترون وبروتون ونيوترون وغيرها، ثم ما يعترف به من عجز في تفهم حقائق لا تنهاى في هذا الكون: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرٍ أَفَلَدٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [القمان: الآية ٢٧] يقطع بأن المنظم لهذا الكون حكيم قادر متعال. ليس للإنسان إلا أن يخضع له إجلالاً وتعظيماً، خشوعاً وخنوعاً.

لذلك كله، فإن الطريقة في إثبات وجود الخالق جلّ جلاله هي طريقة نظر وتدبر واعتبار وتفكير. انظروا إلى هذه الآية المنيفة وتدبروا فيها، كيف توضح عظمة الخالق بأوضح بيان وأجلى تبيان. إنه تعالى يقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقِ الْإِنسَانِ فِي الْأَرْضِ وَالنَّهَارِ وَاللَّيْلِ الْآتِي بِمَنْفَعَةٍ لِّلنَّاسِ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ الْبَحْرُ مِمَّا يُنْفَعُ بِهِ إِنَّ اللَّهَ لَذِي الْحِكْمِ﴾ [الأنعام: الآية ١٠١].

(١) الكائن الحي، ذي الخلية الواحدة.

بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَفَصَّرِيفَ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسْحَرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَأَيِّتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ [البقرة: الآية ١٦٤] ^(١).

حقاً إن اختلاف الليل والنهار وما يتج من ذلك من فوائد جمّة لأمر عجيب . فليرجع من شاء إلى كتب الفلك وعلم الأحياء والجغرافية الطبيعية ليدرك إلى حدّ ما كيف ربط الله تعالى أجزاء العالم بعضها ببعض لحدوث الحياة على وجه الأرض . ثم ليدع ربه ليُجعله من قوم يعقلون . فيقول : ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلاً سُبْحَنَكَ﴾ ^(٢) ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: الآية ١٩١] . إن الله قد عظم أمر (اختلاف الليل والنهار) بقوله : ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتَلَفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [المؤمنون: الآية ٨٠] . فعقبه بعد الإحياء والإماتة لأهميته الفائقة . فلا عقل لأولئك الذين لا يؤخّدون الله في آياته .

وها نحن نذكر نبذة سيرة عما يتج من دوران الأرض حول نفسها كمثال لما أودع الله من نظم خارقة لاستمرار الحياة على وجه الأرض وارتباط هذه الأنظمة بعضها ببعض بحيث لا يدع مجالاً للقول بالصدفة ، وأنى للصدفة أن توجد من الجماد نباتاً وحيواناً (حيوية) وإنساناً فعقلاً الخ . ﴿وَرَأَيْتُ لَمْ أَكُنْ مِنَ الْأَرْضِ أَلَيْتُ أَحْيَيْتُهَا وَأَخْرَجْتُ مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس: الآية ٣٣] .

لولا دوران الأرض حول نفسها بهذا النظام البديع لاستحالت الحياة على وجه الأرض . ذلك لأن للأرض جاذبية تجذب المياه نحو مركزها . وتحدث من دوران الأرض حول نفسها قوة طاردة تطرد الأجسام عن سطح الأرض إلى خارجها (قوة عن مركزية) . ولكن الدوران يختلف في نقاط الأرض المختلفة ، لكروية الأرض . فالمدينة التي على خط الاستواء تقطع بنتيجة دوران الأرض حول نفسها في الساعة الواحدة ، ألف ميل وتزيد قليلاً . ولكن مدينة مدريد عاصمة أسبانيا (التي هي على عرض ٤٠°) لا تقطع في ٢٤ ساعة محيط الأرض كله . فسرعة دورانها نحو ٨٠٠ ميل في الساعة . وكلما صعدنا إلى الشمال (نحو القطب) تكون سرعة المدن أقل فأقل من جراء حركة

(١) قال رسول الله ﷺ : «ويل لمن قرأ هذه الآية نمج بها» .

(٢) سبحانه : تنزيهاً لك ، وسبح الله ، أي نزهه وقده .

أدلة أخرى في إثبات الصانع ٢٣٥.

الأرض حول نفسها. فإن الله جعل الأرض في القطبين متفرطحة، أي ليست الأرض كرة تماماً. لذلك، فالقطب أقرب إلى مركز الأرض من مدينة واقعة على خط الاستواء. فتكون الجاذبية على القطبين أكثر.

وإن زيادة الجاذبية عند القطبين عن الجاذبية عند خط الاستواء تؤدي إلى دفع المياه من خط الاستواء إلى القطبين. ولكن زيادة قوة الدافعة (القوة الطاردة) عند خط الاستواء منها عند القطبين تدفع بالمياه من القطبين إلى خط الاستواء. وقد تعادلت القوتان: (قوة الجاذبية والقوة الطاردة الناتجة من حركة الأرض حول محورها)، من حيث زحلقة البحار والمحيطات إلى القطبين أو إلى خط الاستواء، بحيث توزعت مياه هذه المحيطات توزيعاً عادلاً كما نرى. ولولا هذا التعادل لفرق ما على أواسط الأرض من أشياء وأحياء. وهذا تقدير قدره الله تعالى بقدرته. ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: الآية ٢١].

ولو دارت الأرض حول نفسها أسرع مما تدور الآن لتناثرت المنازل وتفككت الأرض وتناثرت الأرض نفسها في الفضاء. وذلك بتأثير القوة الطاردة الحاصلة من حركة الأرض حول نفسها بصورة سريعة، كما ينقطع خيط المقلاع في يد الطفل إذا أداره بسرعة كبيرة القوة (عن مركزية) الطاردة.

$$\text{قم} = \frac{\text{لك س}^2}{\text{نق}} \quad (\text{بالموحدات المطلقة})$$

ولو تباطأت الأرض في دورانها حول نفسها أي أخذت تكمل دورتها حول نفسها في (١٠٠) ساعة مثلاً بدلاً من ٢٤ ساعة، لمات ما على الأرض من حيوان ونبات. ذلك لأن نصف الأرض يصبح معروضاً للشمس مدة طويلة مما يؤدي إلى إماتة ما على الأرض من جراثيم وحيوان ونبات بتأثير حرارة الشمس المهلكة. وإذا أراد المتبع أن يستعرض ما هنالك من حكم فائقة في دوران الأرض حول نفسها بهذه السرعة الحالية وربط الحياة به لاحتاج إلى تأليف كتاب خاص بل كتب عدة. ﴿وَرَوَى الْجِبَالُ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: الآية ٨٨].

وقد قال تعالى أيضاً: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: الآية ٤٠] فلا سكون في هذا العالم على حد قوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزهد: الآية ٢].

ثم لولا كثافة الماء بمقدار يعتد به (١غم/سم^٣ في ٤م) لما أمكن أن تسير السفن والفلك في البحار والأنهار. ﴿وَعَايَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ﴾ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَلَنْ نَشَأَ نُفِرَهُمْ فَلَا صَرْيَخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُقْدُونَ (٤٣) [يس: الآيات ٤١/٤٣].

وإن نزول الأمطار أمر عجيب يعزى إلى تآين الجو وأسباب أخرى عدة قد رتبها الله تعالى ليس هنا موضع ذكرها وقد بينا شيئاً يسيراً منها في الجزء الأول من هذا الكتاب. ثم أمر الرياح والعواصف يستدعي بحثاً عميقاً، ولدوران الأرض من الغرب إلى الشرق أثر خطير في ذلك. وفي كل ذلك: ﴿لَا يَنْتَرِفُونَ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٦٤].

فما بال الملحدين والماديين ينكرون وجود الخالق؟ أليست لهم عقول؟ نعم، كانت لهم عقول، عقل فطري معترف بوجود الخالق وجليل عظمته قبل أن يولدوا، ولكن انسحب وأسدل عليه ستار من الظلمات بسبب الفسوق والفجور، فانكمش واختفى وقام مقامه الشيطان، يملي عليه ما شاء من زندقة والحاد. والدليل على ذلك أن هذا الملحد، لو تمكن من توبة، ورجوع إلى الله تعالى وأعمال صالحة يكفر بها عن سيئاته ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِنَاتِ﴾ [هود: الآية ١١٤]، لرأى أن عقله يرجع إليه. معتبراً بما خلق الله، من سماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج، خاشعاً تجاه عظمته وجلاله.

ولقد كنت أفكر في أمر هؤلاء الماديين، فصرت أعتبرهم أناساً شذوا عن الطرق العلمية الصحيحة وأساليب البحث، واعتمدوا في ادعاءاتهم على السفسطة والخيال و«من عنديات» لا يدعمها العلم الصحيح، فلا ربط في ما يستندون إليه من أدلة واهية، وأرى أن علاج هؤلاء أن يجبروا على دراسة الرياضيات العالية، ونظريات آينشتاين ونظريات السطوح (القسم المجسم من الهندسة التحليلية) فالفيزياء الرياضية العالية فنظرية الأعداد فحساب الاحتمالات فالفلك العالي. فإنهم ولا شك يتخططون خبط عشواء عند حل تلك المعادلات التي بقيت لا تحل وأمسّت لغزاً من الألغاز، فيعترفون

إذ ذاك بجهلهم . لأنه لابد للمعادلة التفاضلية (Equation differentielle) من حل صحيح لا يتعداه، وليست القضية هاهنا، قضية: (أرى، وأظن، ولعلّ وسوف يكشف لنا العلم) !، هذه الكلمات التي يرددها المادي . فإذا شاهد عجزه وتصاغره تجاه عظمة العلم بل عظمة ما أودع الله من قوانين وأحكام في ربط أجزاء هذا العالم، عند ذلك يعترف بجهله، وإن هذا الجهل يدفع عنه الغرور، فيجعله معترفاً بمن أودع هذه المعادلات والقوانين الرياضية الصعبة في هذا الكون، إن أزاح عن نفسه الخمر والفجور ولو بصورة موقته .

ما من دابة إلا أمة

ننقل هنا فقرات مما جاء في مقال كتبه الدكتور عبد المحسن محمد صالح، المدرس بكلية العلوم في جامعة القاهرة عن النمل الأبيض وما أودع الله تعالى فيها من غرائز تفسيراً لهذه الآية الكريمة: ﴿وَمِنْ دَابَّتْ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلِمَ يَطِيرُ بِجَنَاحِهِ إِلَّا أُمٌّ تَسْأَلُكُمْ مَا فَرَطْنَا^(١) فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِنَّكُمْ يُخْشَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُدُّوا بِكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ مِنْ يَشَأُ اللَّهُ يُضِلُّهُ وَمَنْ يَشَأُ يُجَمِّلُهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنعام: الآيتان ٣٨/٣٩] .

«النمل الأبيض حشرة تعيش في جماعات على مستوى عالٍ من الحياة الجماعية، ولكنه مع هذا الرقي وباء مدمر. وتخريبه في الإقليم الجنوبي يعتبر هيناً إذا ما قورن بما يحدث في المناطق الاستوائية الحارة حيث يبني مستعمرات ضخمة تضم الواحدة منها عدة ملايين، يعيش في سراديب أرضية دون أن يرى، ويخرب دون أن يحس به أحد. فهو يقوم بعمل سراديب أو أنفاق كثيرة مختفية في الشبايك والأبواب وسقوف المنازل. فهو يأكل الخشب والتبن الذي يدخل في (اللبن) أي في الجدار المصنوع من الطين» .

منذ أيام استيقظ أهل قرية من قرى مركز «أبو حمص» بمديرية البحيرة «عزبة شلبي»

ليجدوا أنفسهم بلا قرية وبلا مساكن سلط عليهم العدو «النمل الأبيض» أسلحته الفتاكة وتركهم بلا مأوى .

والآن تعالَ معي لزيارة مستعمرة من تلك المستعمرات الضخمة التي بناها النمل الأبيض في أواسط أفريقيا .

ستجد برجاً شامخاً في الهواء، يبلغ ارتفاعه عن سطح الأرض حوالي ستة أمتار . ومحيط قاعدته قد تصل إلى خمسة عشر متراً .

إنها كحصن من حصون العصور الوسطى، مصممة بطريقة خاصة . فهي على هيئة أعمدة مخروطية متصلة عند قواعدها بالمستعمرة الأصلية . ومادة البناء مكونة من الطين الذي يخلطه النمل بلعابه فتصير متينة قوية كأنها الخرسانة المسلحة . وهذا المبنى الضخم مقفل كأنه القبر، ساكن سكّون الموتى . . لكنه يموج من الداخل بملايين الأفراد، هذه واحدة من المستعمرات، وتجد في جهة أخرى حصناً صمم بطريقة خاصة . إذا سألت عنه أحد الأهليين فسيخبرك بأنه «البوصلة» .

وبواسطة هذا المبنى يستطيع الأهالي معرفة الجهات الأصلية في الصحاري والجبال ! ذلك لأن لها سطحين عريضين . أحدهما يشير إلى الشرق والآخر يشير إلى الغرب، وسطحين ضيقين متجهين إلى الجنوب وإلى الشمال !؟

ولا يمكن أن تشذ عن هذه القاعدة أي مستعمرة من مستعمرات هذا النوع من النمل . ولهذا يثق الأهالي في ذكائه الغريب . ولم يستطع أحد أن يعرف الحكمة التي تكمن وراء هذا النظام .

وإذا سرت في مكان ثالث . فستجد المستعمرات المعلقة . وهي التي يبنها بعض أنواع النمل ويثبتها على أفرع الأشجار وغصونها .

وقد بلغ الذكاء حداً بعيداً عند بعض الأنواع التي تقطن في المناطق التي تكثر فيها الأمطار . فيبنون ستائر أو حواجز تتدلى من أعلى المستعمرة تماماً، كما تبنى أسقف المنازل في البلاد المطيرة مثل انكلترا أو غيرها . فإذا ما هطلت الأمطار، انحدرت على الستائر لتسقط بعيداً، فلا يبتل البناء .

وهناك أنواع تسكن المناطق الجافة ذات الحرارة الشديدة، فيبني النمل فيها أنفاقه، وعندما يجد الجفاف قد حل بالمستعمرة، تنفتق عند حيلة أو غريزة^(١) للتغلب على مثل هذا الأمر، فيقوم بعمل أنفاق أرضية تمتد إلى عدة أمتار تحت سطح الأرض حتى تصل إلى مستوى الماء الجوفي بالتقريب. وعندئذ يخرج منه بخار الماء ليتبخر في أنحاء المستعمرة. فيخلق جواً رطباً كأنه جهاز صمم لتكييف الهواء.

والآن تعال بنا لنزور إحدى هذه المستعمرات المبنية فوق سطح الأرض من الداخل.

ستجدها مدينة منظمة يسكنها عدة ملايين من الأفراد يحكمها ملكة وملك، ورعية تتكون من العساكر والشغالة. لكل وظيفة معينة لا يتعدهاها. ولكل مبنى نظام خاص. يحتفظ به الجنس على مدى الأجيال. ليتناقله الخلق عن السلف كأنه سر لا يبوح به لأحد سواه.

سأخذك الآن إلى القاعة الكبرى التي تتوسط المستعمرة، إنها حجرة فسيحة نظيفة جهزت لعودة الملكة من حفلة زفافها في الهواء.

وعندما يتم التلقيح تعود ومعها الملك ليدخلا الحجرة الملكية ولا يتركانها بعد ذلك أبداً لعدة سنوات قد تصل إلى الثلاثين أو الخمسين عاماً.

ويفقد الملك والملكة أجنحتهما. ثم تأتي الرعية أو الشغالة لتسمح بملكتهما كما يتمسح السذج بأضرحة الأولياء^(٢) ويحيط بالملك والملكة حرس خاص من جنود أقوياء لا يغفلون عن الحراسة أبداً.

(١) وهي ما أودعه الله تعالى فيه.

(٢) لا نوافق الكاتب فيما ذهب إليه. فإن استلام الحجر الأسود بمكة، واستلام أضرحة الأولياء أو التمسح بها، إنما هو لإظهار الولاء والحب، مع العلم أن ليس للعادة أثر في تقرب العبد إلى الله تعالى، وإنما يتقرب العبد إلى ربه بحب أوليائه، لأنهم عباد الله المخلصون، وتقوية العلاقة بينه وبينهم بهذا الاستلام. لأنهم كانوا أذلاء لله مطيعين، وإنما يتقرب العبد إلى الله بالقيام بما قرب أولياء الله إلى الله من أعمال ليكون: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالضَّالِّفِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: الآية ٦٩]. على أن هذا الحب (حب الأولياء) من رشحات الإيمان. يعترف بذلك من جرب تكامله الإيماني طيلة حياته.

وتأتي الشغالة ليقدموا للملك والملكة غذاءً خاصاً . . . وتظهر على الملكة أعراض الحمل . فتنتفخ بطنها حتى تصل إلى مائة مرة من حجمها الأصلي . فلا تستطيع أن تتنقل من مكان لآخر . وتحول بعد هذا إلى آلة سريعة لوضع البيض ، فهناك نوع يضع حوالي ٣٦ ألف بيضة في يوم واحد أو ١٣ مليون بيضة في كل سنة .
أما أعظم الملكات نشاطاً فهو جنس (ماكروثيرمس) . ففي كل ثانية تمر ، تكون قد وضعت بيضة . وتستمر هذه العملية دون توقف لمدة ثلاثين عاماً تكون قد وضعت فيها ما يقرب من ٩٤٦ مليون بيضة .

ووراء الملكة يقف نفر من الشغالة لا تهدأ حركتهم . فعندما تضع الملكة البيض يحمله هؤلاء إلى حجرات خاصة تشبه حجرات التمرير حتى يتم فقسه .
فإذا ما تركت الحجرة الملكية من أي باب من أبوابها العديدة ، لوجدت أمامك ما يشبه الشوارع والحارات التي تتصل بالآلاف الحجرات .

فهناك ركن خاص للخدم يقومون بتنظيف المستعمرة ، وركن خاص بالتمريض وفيه يربي الأفراد الجدد ، ويقدم لهم طعام خاص ، حتى يصيروا أفراداً جدداً ينضمون إلى رعية الملكة .

وتوجد عدة حجرات مغلقة ، وهي سجن المستعمرة التي يساق إليه الأسرى من الحشرات الأخرى حية . ثم تزج داخل هذه السجون تحت حراسة قوية ، وبعدها يهجم عليها النمل الأبيض ليأكلها كما تفعل قبائل نيام مع الجنس البشري .

وقد تجد في بعض المستعمرات مخزون لمواد التموين التي يحتاجها النمل من وقت لآخر . فإذا ما توجهت إلى أعلى المستعمرة وجدت صالة كبيرة تتصل بعدد وفير من الحجرات ، وقد شيدت هذه القبوة الكبيرة لتجديد الهواء في المستعمرة .

= فهذا هنا إضافة تشريعية كجلد المصحف ، فيقبل الجلد لاحتوائه المصحف ، وكتقيل الحجر الأسود ، لقضية تاريخية لا مجال للذكرها . ونذكر الكاتب بقول الشاعر :

أمر على الديار ديار ليلي أقبل ذا الجدار وذا الجدار

وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديار

وإن هذا التمسح ليدل أيضاً على احترام الأفراخ للأمهات . فليتعلم الإنسان هذا الأدب الرفيع من هذه الحشرة : فـ «الجنة تحت أقدام الأمهات» .

إذا ثقت عدة ثقب في المستعمرة، لوجدت عدة فكوك قوية قد ظهرت أمامك، إنهم حرس المستعمرة الذين يسهرون على حراستها بالليل والنهار وهم يقفون على هذه الفتحات كأنهم يتأهبون لأي هجوم.

ثم تأتي الشغالة فيفسح الحرس لها مكاناً تنتقل فيه، لتقوم بعملية ترميم في هذه الثقب، حتى تعود إلى ما كانت عليه من قبل.

وللحراس وظيفة أخرى عامة. فهم يصبحون شغالتهم إذا ما تركوا مستعمراتهم سعياً وراء الرزق. فتراهم يحيطون بهم من كل جانب ليدفعوا عنهم أي مكروه قد يصيبهم من أعدائهم.

وعندما تعود الشغالة إلى بيوتهم يقف حرس خاص على الأبواب ليمنع أي حشرة دخيلة قد تندس بين أفراد المستعمرة.

والمستعمرات تختلف في تعميرها على حسب النوع الذي يسكنها. فهي قد تعمر سنوات قليلة، وقد يصل عمرها إلى ثلاثين عاماً أو أكثر وقد يصل إلى ١٠٠ عاماً.

فقد جاء أحد التقارير أنه في عام ١٨٧٢م كانت هناك مستعمرة ضخمة قائمة، عاقت الفنيين عند مدهم لأسلاك التليفون في بعض جهات استراليا. وكان لابد من تحطيمها حتى يمكن أن يتمموا عملهم فحطموها بالديناميت. وكان عمر المستعمرة في ذلك الوقت لا يقل عن ٣٥ عاماً. وبالرغم من هدم المستعمرة في عام ١٨٧٢، فقد وجدوها تزخر بالحياة حتى عام ١٩٣٥م أي عاشت حوالي مائة عام.



وقد فات الكاتب أن يكتب شيئاً عن منطق النملة وطرق محادثتها. وأخلاقها ونفسياتها. فإن العلم الحديث لا يزال بعيداً عن التوغل في مثل هذه الأمور التي لا تدخل في صميم المادة. إن الله تعالى يقول: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَاءَتِيهَا النَّاسُ عُثْمَانُ مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ١١﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودٌ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ١٢﴾ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَتَاءَتِيهَا النَّملُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ

وَجُودُهُمْ وَهُمْ لَا يَعْتَرُونَ ﴿١٨﴾ فَلَبَسَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَتِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ [النمل: الآيات ١٦/١٩].

وقد كشف أخيراً شيء عن منطق النحل بحركات تقوم بها . فإن النحلة تذهب للكشف عن أزهار . فإن كانت هذه الأزهار قريبة ، رجعت ترقص رقصاً خفيفاً ، تريد أن تفهم قرب الأزهار . وإن كانت الأزهار بعيدة ، رجعت ترقص رقصاً متواصلاً سريعاً . ولعل هذه الحركات ترافق منطقها الذي لم يقف عليه العلم الحديث . بل وقف على الحركات فنظنها منطقاً .

من الذي أودع تلك الحياة الاجتماعية الرائعة في حياة النملة وهذا المنطق والحركات في النحلة . كل ذلك دليل واضح على وجود الله القادر المتعال الذي أودع في كل زاوية من هذا الكون من وسائل الاعتبار والتدبر ما يبهر العقول . ﴿سَرُبِيهِمْ ءَايَتَنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فُضِّلَتْ: الآية ٥٣] ولكن الله حصر الاعتبار ، فالتوجه إلى الحق في الخاشعين المنيبين الطائعين بقوله: ﴿تَبَيَّرَ وَذَكَرْنِي لِكُلِّ عَبْدٍ مُّتَبِّرٍ﴾ [ق: الآية ٨] . فلا يعتبر من اسود قلبه بالإجرام ولا يسلم إسلاماً حقيقياً ، على حد قوله تعالى: ﴿أَفَتَجْمَلُ الْكَافِرِينَ كَالْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [القلم: الآيتان ٣٥/٣٦] . فلا يلتقي الإسلام مع الإجرام . فإذا جاء الإجرام انسحب الإسلام . وكان المجرم منسياً يلهو ويلعب كما يشاء ، ﴿سُئِلُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: الآية ٦٧] . ﴿فَذَرَهُمْ يَخْضِبُونَ وَيُلْعَبُونَ﴾ [الزخرف: الآية ٨٣] . فيكون شيئاً فشيئاً مصداق هذه الآية ، ونستجير بالله من ذلك: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَآلَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزهد: الآية ٣٣] .

كيف يتسرب الشك إلى النفوس

كيف يتسرب الشك إلى النفوس وتندك الفطرة فلا تعمل عملها . راقبوا أشخاصاً عندما كانوا فقراء بائسين وما كانوا عليه من اعتقاد بالله وصلاة وصوم وإحسان إلى آخرين . ثم راقبوهم وهم قد خرجوا من مرحلة الفقر إلى غنى وثراء لا يعطون حقوق

الله، يتجبرون ويتكبرون^(١) ويتكلمون فوق ما هم مدركون. ظناً منهم أنهم قد بلغوا غاية الفهم ووصلوا إلى الحقيقة! حين أنه لا تناسب بين كثرة المال والمعرفة والكمال. فتراهم يتكلمون كثيراً ولا يريدون أن يصغوا إلى ما يفيدهم وينجيهم من عذاب أليم. راقبهم في حالاتهم الخاصة تجدوهم لا يخضعون إلا لمادة أضخم وأرقى وأعظم. ولو أن هؤلاء أنفقوا مما من الله عليهم من مال وجاه، وقاموا بحوائج الناس ولم يتكبروا وعاملوا الناس بأخلاق فاضلة، حضروا الجماعة وتفقدوا أحوال الفقراء وأوجدوا لهم عملاً يقتاتون من ورائه، لم يتسرب الشك إلى نفوسهم بل ازدادوا إيماناً و يقيناً بالله وأصبحوا ملائكة تنور الأرض بنور إحسانهم وتضيء ببركات أعمالهم ولنالوا سعادة الدارين.

ولعلك تقول إنني أجد شباناً في مستقبل العمر، لم يملكوا شيئاً من الثروة، ولم يركنوا إلى ركن وثيق، ولكنهم مع ذلك منحرفون غير عاملين بما أمر به الدين. نفوسهم مدلهمة، مظلمة، لا يصلون ولا يخشعون، ولكن إذا اعترتهم كارثة عظيمة توشك أن تودي بحياتهم تمسكوا بالخالق العظيم. فما سبب انحراف هؤلاء؟

وقد حققت عن سلوك هؤلاء وحالاتهم النفسية وأخلاقهم الشخصية فألفيتهم ضواري وحيوانات مفترسة عند الاستطاعة وسنوح الفرصة، لا يباليون بارتكاب المعاصي وأنواع الفسق إذا ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً. غير وصولين آباءهم وأمهاتهم وأرحامهم. هتاكين للحرمان. فهم في خلواتهم غير ما هم في محاضرتهم.

وإنما الإيمان رشحات الأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة والقيام بأداء الحقوق الواجبة (بل المستحبة).

لذلك ترى الإيمان عند هؤلاء ضعيفاً بل قد تجده عند البعض منهم معدوماً فهم لا يصلون ولا يقدسون المقدسات. بل ملء صدورهم الشكوك والريب، يستهزئون بالمقدسات إذا خلوا بمن يوافقهم في طيشهم ومروقهم.

فلا يفيد في هؤلاء النصح والوعظ والإرشاد بل إصلاح هؤلاء يكون، إما بنظام

(١) إن الله تعالى يقول: ﴿سَاءَ صِرْفٌ عَنْ ذَاتِ اللَّهِ يُكْبَرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٦]. وفي الحديث: «أكثر أهل النار المتكبرون».

صارم يبعدهم عن ارتكاب الموبقات ويفرض عليهم القيام بما أمر به الدين، فتلين قلوبهم شيئاً فشيئاً. (لأن الرياء، كما يقال، فطرة الحقيقة).

ولما بترك ما هم عليه من مدنسات وآثام وعقوب وكذب وأخلاق فاسدة ومعاملات غير مشروعة «الدين المعاملة» بصورة تدريجية. فإن نفوساً مدلهمة مظلمة لا تستطيع تقديس الله تعالى وتعظيمه، وإن حب الله تعالى لا يحل إلا في نفوس فيها شيء من الصفاء.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ^(١) السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ^(٢)﴾ فَلَمَّا جَنَّ^(٣) عَلَيْهِ أَيْتُلْ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ^(٤) قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ^(٥) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا^(٦) قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ^(٧) لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ^(٨) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً^(٩) قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُغَوِّرُ^(١٠) إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ^(١١) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ^(١٢) ﴿[الأنعام: الآيات ٧٥/٧٩].

إن هذه الآية تعلمنا الطريقة التي يجب أن نسير عليها لإرجاع المنحرفين إلى الفطرة. فإن إبراهيم عليه السلام يفرض أن ربه وخالقه كوكب رآه في الليل، ثم رآه آفلاً غائباً عن الأنظار فعلم أنه متغير ومتحول من مكانه. والمتحول لا بد له من محوّل، فهو إذن محتاج إلى غيره مُسَيَّرٌ بإرادته. وإن شيئاً كهذا غير قائم بنفسه لا يكون رباً بل هو مربوب: والرب هو المحرّك لهذا الكوكب والمنظم لحركاته، لأفوله وشروقه وحركاته الأخرى..

يستنتج من كل ذلك أن لا بد للمحدث من محدث ولا بد للنظام من منظم، لا سيما إذا كان هذا النظام بالغاً أسمى مراتب الدقة، فيه من المعادلات والأحكام ما لا يحيط به البشر مهما تسامى في عالم التفكير. «ومن أين جاء هذا التفكير؟»

إذن وجب أن يكون هناك خالق قدير عليم، خلق هذا الكون بقدرته، وجعل فيه من النظم والقوانين، ما لا يصل إليه البشر، بعلمه. خالق لم يخلقه غيره، خالق أزلي قديم، لم يسبقه شيء من الأشياء، وهو خالق كل شيء، معطي الوجود، ولم يعطه الوجود غيره.

(١) ملكوت: أي عجائبها وبدائعها. (٢) جنّ: أي ستره الليل. (٣) أفَلَ: غروب. (٤) بازعاً: طالعاً.

إن العقل المجرد عن الشوائب والمدنسات ليحكم بصورة فطرية أن لا بد من إله موجود من تلقاء نفسه، أزلي ليس بحادث، قديم لم يسبقه شيء، هو موجد جميع ما في الكون المادي والمعنوي بهذا النظام البديع. كان ولم يكن معه شيء. فطوبى لأولئك الذين لم يحجبوا الفطرة بتلويث نفوسهم ولم يحجبوا العقل السليم بسوء فعالهم. «صبروا أياماً قليلة أعقبتهم راحة طويلة». فصاروا إلى جنات الخلد مهتئين فرحين مستبشرين.

فمن أحسَّ بشك أو شكوك في نفسه. فما عليه إلا أن يبدأ حالاً، معالجة نفسه؛ بأن يترك ما نهى الله عنه من موبقات لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ لِكَلِمَتِكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: الآية ٣٣]. وأن ينتهي عما كان عليه من إجرام وظلم لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُتَجَرِبِينَ﴾ [٢٥] لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ. حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ [٢٦] [الشعراء: الأيتان ٢٠٠/٢٠١]. وفي آية أخرى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: الآية ٥١].

وأن يطهر ما كله ومشربه ويجعلها من مورد حلال طيب، وأن يجانب الترف لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ: الآية ٣٤]. وقد قال رسول الله: «لا تجالسوا الموتى، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: كل غني مترف»^(١).

وأن يساعد الفقراء والجيران ويتفقد أحوالهم فقد قال رسول الله ﷺ: «ما آمن بي من بات شبعاناً وجاره جائعاً»^(٢). وفي حديث آخر: «أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله».

«وأن يبذل من فضول ماله»، فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شَحْنَنِي فَاُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: الآية ٩]. أي ومن يحفظ من شح نفسه. والشح أشد البخل. وأن يترك الكذب. فقد جاء في الحديث: «الكذب يجانب الإيمان». وفي حديث

(١) بحار الأنوار: ج ٢، ص ١٢٨، باب ١٧. (٢) الكافي: ج ٦، ص ٣٠٥، باب الأسواق.

آخر: «إياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار»^(١). وفي حديث آخر: «إياكم والكذب، فإنه جماع الآثام»^(٢). وقد قال أحد الفلاسفة: «ترك الكذب يوقن الإنسان بخالق معبود عظيم».

وأن يترك الغيبة والنميمة والافتراء والخيانة. فقد جاء في الحديث: «الغيبة أشد من الزنا». وفي حديث آخر عن الرسول ﷺ: «يؤتى بأحدكم يوم القيامة فيوقف بين يدي الله تعالى ويدفع إليه كتابه، فلا يرى حسناته. فيقول: إلهي، ليس هذا كتابي. فإنه لا أرى فيه طاعتي. فيقول الله تعالى له: «إن ربك لا يضل ولا ينسى، ذهب عملك باغتيال الناس. ثم يؤتى بآخر ويدفع إليه كتابه، فيرى فيه طاعات كثيرة، فيقول: إلهي، ما هذا كتابي، ما عملت هذه الطاعات. فيقول الله سبحانه: إن فلاناً، اغتابك فدفعت حسناته إليك»^(٣).

وأن يبرّ والدیه ويصل أرحامه. فقد جاء في الحديث: «والديك فبرهما وأطعمهما حيّين وميتّين، فإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك فافعل، فإن ذلك من الإيمان»^(٤). وفي حديث آخر، «لا صدقة وذو رحم محتاج»^(٥).

وأن يترك مجالسة الأوغاد ويترك مجالس اللهو وسماع الأغاني المحرمة. فقد جاء في الحديث: «مجالسة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار». إلا إذا كان بغية الإرشاد والهداية. وفي حديث آخر: «الغناء مجلس لا ينظر الله إلى أهله». وقال علي عليه السلام: «جالس أهل الخير تكن منهم، وباين أهل الشر ومن يصدك عن ذكر الله، تبين منهم»^(٦).

وأن يجالس الفقراء والمساكين ويسير في حوائجهم. فقد جاء في الحديث: «إن الفقراء هم صفوة الخلق، وإن من أراد الله فليطلبه عند الفقراء». وقد قال محمد الباقر عليه السلام وهو الإمام الخامس: «إياكم ومجالسة الأغنياء، فإن الإنسان يجالسهم وهو يرى أن الله عليه نعمة، فما يقوم حتى يرى أن ليس الله عليه نعمة»^(٧).

(١)، (٢) وسائل الشيعة: ج ١٢، ص ٢٥٠، (٥) من لا يحضره الفقيه: ج ٢، ص ٦٨.

باب ١٤٠. (٦) من لا يحضره الفقيه: ج ٤، ص ٣٨٤.

(٣) مستدرک الوسائل: ج ٩، ص ١٢١، باب ١٣٢. (٧) وسائل الشيعة: ج ١٢، ص ٣٥، باب ١٨.

(٤) وسائل الشيعة: ج ٢١، ص ٤٨٩، باب ٩٢.

إن الشك لا يأتي إلا بسبب ذهاب العقل ولا ينسحب العقل إلا بسبب رجس في النفس والرجس أساسه الذنوب وعدم القيام بما أمر الله من عبادة وأخلاق فاضلة وتراحم وتعاطف على حد قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جِئِمًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّحْمَنُ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [يونس: الآيتان ٩٩/١٠٠].

وإن كل عمل صالح يؤدي إلى قليل من الهداية، فقليل من الإيمان، ثم إن الله تعالى يزيد في إيمان الشخص تفضلاً منه ورحمة. فيزداد العبد إيماناً و يقيناً على حد قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فَتِيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: الآية ١٣]. فالناس مجزيون بأعمالهم ومواخذون حسب أفعالهم. فقد قال نبينا محمد ﷺ: «إنما أعمالكم ترد إليكم». فطوبى لأولئك الذين قاموا بإصلاح نفوسهم بعزم رصين وأزالوا عنها الشكوك والأوهام، فازدادوا إيماناً و يقيناً وخرجوا من الظلمات إلى النور؛ ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَمْ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٢٢].

إن العقل لو لم يلوث بالمعاصي والآثام وبقي على فطرته لا يصيبه أي شك فيعترف بصحة كل ما جاء في الدين الإسلامي الحنيف، على حد ما قاله سيد الوصيين علي عليه السلام: «يشهد بذلك العقل، لو سلم من أسر الهوى». فلا شيء ترتاح إليه الإنسان نفسه، كدين الإسلام، إن بقي العقل على فعاليته. ولا شيء كالضلال ترتاح إليه النفس إن انسحب العقل عن فعاليته: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [آل عمران: الآية ٨٣].

تفنيد أقوال الماديين

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَالِقُ يُؤَفِّكُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأنعام: الآية ٩٥].

فالله تبارك وتعالى بعظيم قدرته: تلك القدرة التي ليس للبشر أن يصل إلى شيء من

حقيقتها، يفلق الحب والنوى، فيكون نباتاً وشجرة ذات جذور وساق وأغصان وأوراق وأزهار. ولو كتب في هذا السير التكاملي للنبات مئات الصفحات، للزم أن تدون أيضاً آلاف الصفحات. أفيكون كل هذا من تلقاء نفسه، هذا ما لا يقره حيوان فكيف بإنسان. ولكن، مع الأسف يعلق هذا الإنسان على نفسه الاعتراف بوجود الله، بما كسبت يده، إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۝﴾ [يونس: الآيات ٩٦/٩٧]. ولا تحقق كلمة الله عليهم إلا لما اجترحت أيديهم من معاصي وآثام تقشعر منها الجلود وتستك منها الآذان.

فهل علم العلم الحديث كيف يخرج الله الحي من الميت ويخرج الميت من الحي وما هي حقيقة الحيوية؟ وكيف تتولد هذه الحيوية ومن المعطي لها؟ إن ما يقوله الماديون لا يستند على تفكر علمي مركّز خال من الهذيان. إنما هو تخيلات يرافقها خبث وظلمات وتصورات باطلة لا يدعمها دليل علمي أو تأييد تجريبي. بل هو إلتباع للهوى ولما يمليه عليهم شيطان سيطر على عقولهم، ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝﴾ [الفرقان: الآية ٤٣].

إن الماديين يتذرعون بما قاله داروين عن تكامل الأنواع. وهو ليس ممن أنكر الخالق. وقد قال: إني لا أعلم كيف جهز هذا الإنسان بالعقل والمنطق. وقال أيضاً: إن الأنواع مشتقة كلها من أصل واحد، أو أصول متعددة، نفخ فيها الخالق روح الحياة. فـ (داروين) يعتقد بأن الأنواع استمدت الحياة من خالق أوجدها ثم أخذت بالتنوع على مقتضى نظرية الانتخاب الطبيعي. وقد ردت نظرية الانتخاب الطبيعي من علماء آخرين جاؤوا من بعده.

قال العلامة المشهور (روسل دلاس) مندد (داروين) في كتابه: (عالم الحياة): «إن الظواهر القائمة بالكائنات الحية هي من العجب وخصائصها من التفوق على جميع الصور المادية الخاضعة للنواميس الآلية، طبيعية وكيميائية، بحيث أنه من العبث المحض أن يحاول علماء الأحياء الوقوف على سر مظاهرها العجيبة وتحديد ماهية الحياة بوضوح تام وبعبارات علمية».

وقال: أرست هيكل الألمانى:

«إن كل خلية لها روح، تدبرها ولكنها لا تشعر بوجودها».

وقال: توماس هكسلى:

«الحياة هي علة الأجسام، لا أنها نتيجة لها. لأنه لا يصادف الباحث فى الأميبا: (الكائن الحي ذى الخلية الواحدة) مهما توسل بالآلات الدقيقة التى نملكها اليوم أى أثر للتركيب الجثمانى فيها. فإن هذه الأحياء لا شكل لها ومجردة عن الأعضاء ومن الأجزاء المحدودة ومع ذلك فإنها تملك الخصائص والمميزات الأصلية للحياة. حتى أنها تستطيع أن تبني لنفسها مواقع ذات تراكيب معقدة أحياناً وعلى غاية ما يمكن من الجمال».

نعم، إن (داروين)، كما قلنا لم يكن منكراً لمبدع هذا الكون إلا أن الماديين المتهوسين، هؤلاء الذين طغت نفوسهم، فبغت، فلفقت هذه الأفكار الزائفة التى لا يرافقها المنطق بحال، نسبوا إليه نظرية النشوء بشكل يعطل تصرف الله تعالى فى هذا الكون. كمدمن الأفيون يعزو كل كمال وصحة إلى الأفيون!

قال بعض العلماء المحدثين: إن كل كائن حي غير مولود ولا متكامل عن حي آخر. وإن كل حي قد خلق بصورة مستقلة وإن كان هناك تشابه فى بعض الأصناف. وقال القسم الآخر من علماء العصر الحاضر: «إن الله خلق عدداً معيناً من الكائنات الحية وأودع فى قسم منها قابلية التكامل، فتكامل البعض منها بإذن الله وبما أودع الله فيها من قابليات وإمكانات، فوجدت أصناف مختلفة وفصائل متعددة والأمر كله لله».

وقد ثبت أخيراً أن البيئة لا تؤثر فى خلق عضو أو إيجاد كائن حي أكمل وأرقى. وإن أثر البيئة ضئيل جداً وأثرها ينحصر فى العوارض الخارجية كاللون. حتى أن الطول يعزى إلى عامل وراثى ولولاه لما اختلفت الأطوال.

ثم زاد هؤلاء الماديون فقالوا: «إن الاستعمال مولد للعضو وموجد إياه». (Fonction fait organe) وقالوا: «إن الحاجة تولد العضو». حين أنه قد ثبت: أن عضو من الأعضاء، مهما استعمل فى ناحية من النواحي ومهما دعت الحاجة لا يأتى بعضو جديد. فمن ولد مثلاً مقطوع الكف، مهما استعمل يده، لا يولد له هذا الاستعمال كفاً وإن توالى الدهور.

إن المادي ليعترف أن لا حد لقدرة الطبيعة، وإن هذه الطبيعة تخلق كل شيء ولها منطق وعقل وتدبير، تنظم الأشياء وترتبها خير ترتيب، وتربط بينها بقوانين رياضية متقنة، تؤدي إلى دوام واستمرار. إذن، فليقل لنا المادي، دونما مغالطة، ما هي على وجه التحديد هذه الطبيعة التي تخلق كل شيء ولا حدود لقدرتها على حد تعبير داروين؟ فإن لم تكن الطبيعة شيئاً معيناً، له حدود معلومة وماهية مفهومة، فما المبرر المنطقي أو العلمي لترك فكرة الإله والاستعاضة عنها بفكرة الطبيعة. أليست القضية، قضية عاطفة متحجرة وقلب أعمى، يبصر الحق فينكره. وقد جاء في الحديث: «ما ضرب ابن آدم بعقوبة أعظم من عمي القلب».

ولعل المادي يريد أن يرى إلهاً يشبهه من حيث الأعضاء، أي إلهاً محتاجاً إلى أعضاء ومركباً من أجزاء. ولكن المحتاج مصنوع بيد من يرفع حاجته، والرافع للحاجات لا يشبه خلقه في شيء، وهو غير محتاج إلى غيره وهو الله سبحانه. ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: الآية ٤٣].

غريب أمر هؤلاء الماديين. يرون حادثة أو حادثتين فيفسرونها تفسيراً خاطئاً، حسب ميولهم، لأنهم ملحدون قبل العثور على مكتشفات العلماء: تلك التي إن دلت على شيء، فإنما تدل على عظمة الخالق جلّ جلاله. فيستنتجون من هذه الحادثة أو الحادثتين استنتاجاً باطلاً يوافق أهواءهم. نعم، إنهم قبل العثور على هذه الحادثة أو الحادثتين كانوا ماديين منحرفين عن الصراط السوي. ورأوا أن هذا الظرف من الزمان هو ظرف العلوم والمكتشفات، ومن لا يسند ادعاءه، بل هوى نفسه إلى العلم ولا يكرر كلمة (Science) يعد جاهلاً وتُردّ نظريته، فأخذوا ينسبون أفكارهم الزائفة التي هي من رشحات أهوائهم وانعكاسات نفوسهم إلى العلم، والعلم منها براء. وقد يبلغ ببعضهم الطيش درجة قاصية، فيسمى هذيانه (من عندياته) فلسفة. حين أن مرحلة الفلسفة متأخرة عن العلم، الفلسفة: هي الربط بين عصابات العلوم وحقائقها. فما لم يثبت علمياً كيف يجوز أن تُحاك منه فلسفة في عصر الذرة!

وقد برهنا في الجزء الأول من هذا الكتاب (صفحة ١٧١): عدم إمكان القول

بالصدفة، مع ما نرى من أجزاء لا تتناهى قد ترتبت بعضها إثر بعض بطريق منطقي . وهل رأيت سيارة توجد مرتبة أجزاؤها ترتيباً محكماً بالصدفة؟ أو صاروخاً يحدث صدفة، وأيهما أعقد؟ المكروب مع ما فيه من حياة، أم القمر الصناعي المسير بقوة الصاروخ أولاً، ثم حسب ما أودع الله في الكون من قوة جاذبية ثانياً؟ وما قيمة القمر الصناعي تجاه قدرة الله تعالى؟ على أن الإنسان لو لم يجهز بعقل فعّال . . ولم يكن قد خلق الله قبلاً ما يصنع منه الصاروخ من عناصر ومواد وقوى . فهل كان من الممكن الوصول إلى القمر الصناعي؟ فماذا الجحود؟ ثم من هو الذي أوجد المادة الأولى وأوجد فيها تلك القابلية الهائلة، حتى تنبثق منها هذه القوى الهائلة المدبرة المرتبة . ومن جهزها بعقل حتى تودع هذا السير التكاملي في النبات والحيوان وتعطي الحياة للكائنات الحية وتجهز الإنسان بعقل مرتب منظم، فإن فاقد الشيء لا يعطيه! فلا بد وأن العاقل الأزلي، العاقل الذي لا يدرك مدى عقله وحكمته هو الذي خلق العقل وهو الله سبحانه . ﴿تَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل : الآية ٦٣] .

كان يقول (لا ووازيه) الكيميائي المعروف : بقاء المادة :

(Rien ne se perd, rien ne se cree)

أي أن المادة لا تفنى ولا تستحدث . إنه اعترف بقوله : إن المادة لا تخلق من تلقاء نفسها : Rien ne se crée وأن لا بد من وجود خالق أزلي حكيم، هو خالق الأشياء كافة، أودع فيها نظاماً وقوانين عميقة، وأن المخلوقات تتأثر بعوامل شتى وليس الله بمتأثر بشيء وهو المؤثر وحده . وهو خالق الزمان والمكان، ولا يمكن أن يتصور وقت لم يكن الله فيه موجوداً، فهو أزلي أبدي سرمدي .

قد قُند قانون (لا ووازيه) بعد اكتشاف بعض حقائق الذرة، فيجب أن يسمى الروم بقانون تبادل الإلكترونات . فإن قانون (لا ووازيه) المذكور لا ينطبق في الانفعالات النووية وفعاليتها، بل ينطبق على فعالية الألكترونات وتغيراتها الخارجية ولمدة موقفة أي بمقدار عمر الأرض .

إن نظرية (دالتون - لا ووازيه) تدرس منذ ٢٠٠ سنة في الجامعات، وقد أدت إلى تحريف أفكار بعض الشبان لتفسير البعض إياها تفسيراً خاطئاً يوافق ميول الملحدين مع

ما فيه من خطأ فاحش . ذلك لأن نفوساً ضالة جعلتهم يظنون أن المادة (الصماء) ! شيء أزلي وأبدي وهي باقية دائمة لا نفاد لها ولا زوال . فاستنتجوا خطأ قدم العالم المادي وعدم وجود خالق له .

لقد تحطم قانون لاووازيه مع تحطيم الذرة وفلقها ومعرفة الإلكترون والبروتون المشكَّلين للذرة . وثبت أن هذا العالم المادي مجموعة طاقات تكدست على شكل لا يعلمه إلا الله تعالى حتى صارت مادة بأنواع مختلفة وترتيب يؤدي إلى وجود هذا العالم بهذا النظام البديع . ولا يمكن حدوث هذه المراحل اللانهائية الدقيقة المترتبة والمؤدية إلى هذه الحياة إلا بالاعتراف بعاقِل جبار لا نهائي وهو الله تعالى . ففي ملعقة من الزُبُبُق طاقة تتمكن من تسير قطار كبير سبع مرات حول محيط الأرض . وإن الجهد الكهربائي الذي يمكن الحصول عليه عند انفلاق الذرة يعادل ستة ملايين فولت حين أن جهداً كهربائياً مقداره ٢٢٠ فولتاً يؤدي إلى هلاك الإنسان . وإن قانون أينشتاين : $E = MC^2$ الطاقة الكامنة في الذرة تساوي الكتلة ، مضروبة في مربع سرعة الضوء ؛ يجعلنا نعلم مقدار ما كدّس الله تعالى من طاقات لإيجاد هذه العوالم .

وقد أثبت العلم الحاضر أن جميع ما في الكون من مواد وعناصر ستلاشى فلا يبقى إلا وجه الله الكريم ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القَصَص : الآية ٨٨] وذلك لأنهم رأوا أن الإلكترون الموجب يتصادم مع الإلكترون السالب في بعض الأحيان فينعدم كلا الإلكترونين ويفنيان وهذا ما يدعى (Annihilation de la matiere) أي إنعدام المادة أو موت المادة . إن الله تعالى يقول : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٦١﴾ وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٦٢﴾﴾ .

ما أعظم القرآن حين يقدم لهذا البشر خلاصة ما يمكن أن يتوصل إليه العلماء بعد جهد جهيد .

أين (بخنر) هذا المادي المعروف حتى يرى ما توصل إليه العلم ، حيث جعل أساس الموجودات القوى (أو الطاقات) وأثبت أن الموجودات كلما ابتعدت عن المادية ، كانت كثيرة التأثير وكثيرة الفعالية ، كالكهرباء والنفس والعقل والملائكة . . . إلى ما هنالك .

أين (بخنر) حتى يرى أن ماث الأطنان من مواد وعناصر تنعدم في كل ثانية في الفضاء وتتحول إلى أشعة وأمواج وينقص بصورة تدريجية من وزن الأرض ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد: الآية ٤١] .

أولم يفكر هذا المادي من أين جاء لهذا الإنسان هذا المنطق والاستنتاج والاستقراء والتعميم والتجريد . وكيف تمكّن من النطق وربط ما في الدماغ بالناطقة . أفيحدث كل ذلك بأعمال انعكاسية؟ وما معنى الانعكاس في حل المسائل المجردة وما تأثيره؟ إن هذا لهذيان!

وهل التفكير عمل ميكانيكي وهل هو نتيجة الفيتامينات التي تأتينا مما نأكل ونشرب . فلماذا لا يمكن معالجة الغباوة والبلاهة وإيجاد نبغاء بالفيتامينات ، فإن كان ذلك ممكناً لأمكن أن يكون الناس كلهم علماء الرياضيات العالية! وفهموا جميعاً «نظرية النسبية» بقوانينها .

ولقد جرحت نظرية «العقل السليم في الجسم السليم» . فقد شاهدت في الجامعة شاباً نحيفاً ضعيف المزاج ، كان بارعاً في الفيزياء الرياضية العالية . وما قولك في الرياضيين برياضات بدنية (Athletes) ، فلقد وجدتهم أبعد الناس عن التفكير المجرد . وهل علم العلم المادي كيف يحدث النبوغ وما هو سببه؟ هل هو مادي بحث ، أم ماذا؟

ثم من أين جاء لهذا الإنسان الحدس (Intuition) وما علاقة (الحدس) بالأعمال الإنعكاسية؟ . إن الرياضي ليعترف أن (الحدس) يلعب دوراً هاماً في حل المسائل الهندسية والحسابية وكشف النظريات ، وقد يصل الإنسان إلى حل مسألة بإلهام خاص .

ثم إن الصدفة (المصادفات) تلعب دوراً هاماً في المكتشفات الحديثة ، فبينما يعمل المكتشف في تجربة ما ، ليعلم ماذا سيحدث بنتيجة هذه التجربة وإذا به يسهو فيربط الأسلاك على غير ما يريد ، فتحدث حوادث جديدة وخواص غريبة فتفتح على المكتشف أبواباً جديدة من العلم . وهكذا كشف ربط الأسلاك بصورة متوازية في الأعمدة (بحث الكهرباء) وكشفت الأشعة السينية (rayon x) وكثير من مخترعات

أخرى لا مجال إلى ذكرها . ذلك لأن الاكتشاف هو الظفر بما أودع الله من خواص وقواعد في الكون . وهل للمادة الصماء أن تضع قوانين؟

ذكر لنا مدرس الهندسة التحليلية في الجامعة ، أنه قد أشكلت عليه مسألة ، فكلما فكر فيها لم يقوَ على حلها . وذات ليلة رأى في ما يرى النائم أنه يحل المسألة بصورة صحيحة . فانتبه من نومه فزعاً وقال لزوجته اتيني بالسراج حالاً لأدوّن الحل ، فأنت له بالسراج ودوّن الحل وكان الحل صحيحاً .

يقال : إن العقل الباطن كان يعمل طيلة ليلته في حل المسألة . ما حقيقة العقل الباطن؟ وما الذي جعل العقل الظاهر مع ما بذل من جهد جهيد طيلة أيام أن يتقاعس أو يعجز عن الحل ، حتى يصل الدور إلى العقل الباطن؟ وما النسبة بينهما؟ الإنسان عقلان؟ ثم ما حقيقة الحدس؟ وكيف يلهمنا حلولاً عجيبة لم تكن بالحسبان . وما علاقة العقل الباطن أو الحدس بالإلهام؟ وما مبلغ علم البشر بهذه الحالات النفسية ، فإنه لا يتجاوز عن بعض الظواهر بصورة ناقصة! ونظريات تجرح وتعذل من وقت إلى وقت .

* * *

قد قطع قسم كبير من ظفر (أديسون) أثناء قيامه بتجربة في مختبره . فزاره صديقه المهندس . وتأسف لما حدث . فقال له (أديسون) : سأعرض ظفري هذا على طبيب حاذق ، وسيعيده على ما كان عليه بعد مرور ٤٠ يوماً . فقال المهندس متعجباً : «ومن هذا الطبيب الحاذق؟» فقال أديسون : هو الله .

غريب أمر هؤلاء الماديين . فإنهم مع جهلهم وإخفاقهم في فهم العلوم المادية . كنظرية (أينشتاين) النسبية ، يعطون أحكاماً سخيفة لا تتفق والواقع في شيء . هل كان أحد هؤلاء الماديين يقوى على حل ما صعب من معادلات تفاضلية (Equations differentielles) وهل كان أحدهم يقوى على حل غوامض نظرية السطوح في الهندسة التحليلية؟

غريب أمر هذا المادي . إنه يرى أن المكتشف يصرف سنين من الوقت للعثور على قانون أو نظرية مع ما أوتي من قوة في التفكير والمحاكمة والحافطة وتفوق على

الأقران . ثم يقول بعد ذلك كله : إن المادة (الصماء) هي التي صنعت بنفسها هذا القانون وشقت طريقها لتتوالد كمالاً أو لتتكاملاً أو أن تكامل هذا الكائن الحي كان نتيجة طفرة ! Mutation أو طفرات عجيبة ! (Mutation teratologiques) . ولا يفكر أن إرادة الله هي التي مكنت لهذا الكائن الحي أن يأخذ بهذه الطفرة المرادة من جانب الله شكلاً خاصاً . وأن إرادة الله تعالى ومشيته هي التي أوجدت الإمكانيات .

أنى لهذا الكائن الحي وهو في غاية الضعف وتماطل الاحتياج (كالإنسان) أن يجد لنفسه من العدم شيئاً ويؤسس لنفسه طريق التكامل . فما بال الإنسان لا يقوى على ذلك . ليجعل نفسه غير محتاج إلى كثير من الأشياء . مكنهم في النفوس تفضل وترتد بسوء اختيارها ومجونها وطيشها .

إن الله تعالى يقول : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَن تَكْفُرُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَعْمَلُ الرَّحْمَنُ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُقِي الْأَيَّاتِ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس : الآيات ٩٩/١٠١] .

ويقول الله تعالى في مكان آخر : ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَّنا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ وَكَلَّمَهُمُ النَّوْ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام : الآية ١١١] . وفي آية أخرى : ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجر : الآيات ١١/١٥] ^(١) .

كانت فرضية (Hypothese) التطور (Evolution) وأعني بها فرضية : (لامارك - داروين) . قد أثرت في نفوس كثير من الناس ، ففسروها تفسيراً خاطئاً حسب ميولهم النفسية ، مما أدى إلى الاعتقاد بأن الكائن الحي في تغير مستمر من تلقاء نفسه وليس له حالة ثبات ولا استقرار ، وأن هذا الكائن الحي يتلاءم (Adaptation) في نموه مع

البيئة، فيتغير بحسبها. وإن البيئة هي المؤثرة في تغير وتطور هذا الكائن الحي بما فيها من مؤثرات وعوامل! حتى أنهم أرادوا تفسير ما يدرس في علم طبقات الأرض من مواضيع حسب هذه النظرية المغلوطة. حتى أن البعض منهم فسروا أخلاق الأمم ومعتقداتها حسب هذه النظرية وعزوها إلى اختلاف البيئة أو المحيط!

ولكن سرعان ما وجد علماء آخرون شكوا في صحة تطبيق نظرية (داروين) وفحصوا الكائنات الحية على اختلاف أنواعها فحصوا دقيقاً وجربوا واختبروا كثيراً فلم يظفروا بما قاله (داروين) من حلقات رابطة بين الكائنات الحية جميعها. وعلموا أن الكائنات الحية قد خلقت كل حسب فصيلتها ونوعها بصورة مستقلة دون أن يتكامل عن (آميا) هذا الكائن الحي ذي الخلية الواحدة.

وعلموا أيضاً أن التركيب الوراثي (Genotype) والتركيب الحيوي (Biotype) هما أساساً للأنواع. وهما يبديان مقاومة دائمة عنيفة تجاه الحوادث الخارجية أي لا أثر للبيئة عليهما أبداً. ولقد ثبت أيضاً أن ما هنالك من استعداد وقابليات التكامل والنمو في الدواب والكائنات الحية، موجود ومعبأ في العامل الوراثي (Gene) أي في ذرات النطفة بصورة ثابتة ولا تأثير للبيئة في حصول هذه التطورات والتغيرات.

كما أنه لا تأثير للبيئة في حدوث الطفرات (Mutations) التي نشاهدها في ذرات النطفة أي في (Gene) وأخفقت النظرية القائلة: «إن تغيرات البيئة التدريجية هي السبب الرئيسي في حدوث الطفرات».

يقول إميل كوينو (Emil Guynot): «إن الطفرات تحدث دونما علة أو سبب، بل بالصدفة». وهذا دليل على أن هنالك خالقاً قد أمر بهذه الطفرة وكونها. وهذا ما أدى إلى هانري بركسون (Henri Bergson) الفيلسوف الفرنسي أن يكون موحداً.

«وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد».

عشاً يحاول هذا المادي أن يبرهن ويثبت، وإن سَمَى المادية ماديةً نظرية أو جدلية. ذلك أنه يعترف في كتاباته حين يعجز عن الاستدلال أن العلم لا يؤيد ما يقول. وإنما العلم سيكشف له في المستقبل صحة ما يدعيه الآن، وصحة ما يعجز عن

فهمه وتطبيقه وفق معطيات العلم في الوقت الحاضر! وهل يجوز التمسك بقواعد نظرية تخالف العلم، رجاء أن يأتي زمان يكشف فيه العلم صحة النظرية!

فأنت أيها المادي، جئت، مع جهلك بحقائق الكون، جهلاً غير متناه، بنظرية ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخُجِرُ^(١) لَلْبَالُ هَذَا ﴿١٠﴾﴾ [مریم: الآية ٩٠] .

ولنعد إلى ما يقوله المادي (Materialiste)، إنه يقول: الوجود قديم، وإن المادة قديمة، وهي مصدر كل ما وجد في العالم، تلازمها خصائص لا تنفك عنها وهي ترقى من الجماد إلى أكبر عالم ألمعي! والمادة مقودة بنواميس غير متزلزلة، ولا عقل للمادة ولا شعور. ولكنها تعمل في خلق أشياء في غاية الإتقان وكمال النظام! لا تنفك عن حكمة وعقل جبار. وإن ما يرى من آثار التدبر والتعقل في سير الحوادث! وارتباطها ينتهي بالتحليل العلمي! إلى المادة الأولية وما فيها من خصائص ذاتية. ولا شيء وراء المادة. وما يقال عن ما وراء الطبيعة ونزول كتب سماوية وإرسال أنبياء إنما هو كظلمات فارغة تمسك بها الجهال وبعض الناس لأغراض خاصة ومصالح معينة، وسوف لا يمضي قرن أو قرنان حتى نرى العالم أجمع يدينون بالمبدأ المادي ويسIRON على المحجة المادية البيضاء! ويخرجون من دياجير الظلمات والخرافات إلى حيث الحق والواقع!.

هكذا يتخبط المادي في ادعاءاته ومن عندياته ومتناقضاته. إنه يقول: الوجود قديم ويريد به المادة. ويقول المادة قديمة. هل من الطريق العلمي أن ندعي شيئاً دونما دليل. فإذا كان المادي يتبنى فلسفة حسية. فكيف يجوز له أن يدعي شيئاً لم يحسه ولم يره. وأن يقول بقدم المادة وأنها غير مخلوقة، مع اعترافه أنه يجهل أصول الكائنات ومصائرها. وهل يتمكن المادي أن يتسلسل بصورة غير خيالية، بصورة غير ظنية ولا حدسية من المادة الأولى إلى وجود العقل الإنساني، فيوضح لنا بصورة متقنة وأدلة متينة مراحل هذا التسلسل وعللها. هل له أن يقول مثلاً عن علة حدوث الماء بنتيجة

(١) تخر: تسقط.

اتحاد الأوكسجين والهيدروجين بنسبة معينة بعد إمرار تيار كهربائي . ما أثر هذا التيار وما حقيقته؟ هل يمكن المادي من أن يفسر لنا حقيقة الجاذبية ومن أين أتت وكيف صارت وهكذا يفسر لنا حقيقة الكهرباء وحقيقة (الأبصار)، وحقيقة السماع، وحقيقة العقل، (ولعله لا يعترف بالعقل) ! ألم يتوغل هذا المادي في أعماق العلوم كي يرى هنالك من مجاهيل لا تتناهى عدداً وإحصاءاً، ألم يعلم عندما اكتشفت (الأشعة الكونية) نادى العلماء بصوت رفيع: إننا أصبحنا أمام أودية من المجاهيل... ماذا يقول المادي، لو سألناه: هل مجهولاتنا بالنسبة إلى ما في هذا العالم من خصائص ومعادلات وحقائق أكثر من معلوماتنا الناقصة التي تصحح وتعذل يوماً بعد يوم.

أليس الأفضل أن يتمسك المادي بآخر ما توصل إليه العلم الحديث من حقائق الذرة، فيعترف بأن المادة مخلوقة. وأنها طاقات تكدست فأصبحت مادة بمقدار معين على ما ثبت أخيراً في علم الذرة. ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: الآية ٤٩]. ذلك لأن الشيء غير مؤثر في نفسه وغير قادر أن يغير شيئاً من ذاته. فالتمسك بما أثبتته العلم بعد جهد أولي من التمسك بأمر خيالي لا يدعمه دليل. فإذا كان الأصل هو الطاقة (لا المادة) وأن الطاقات تكدست فكانت عناصر مختلفة كالحديد والأورانيوم والألمنيوم... وأشياء أخرى لا نعلمها بنسب معينة وبنظام خارق ومعادلات متقنة؛ ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ١٩] ﴿[الرعد: الآيتان ٩/٨]، إذن وجب أن نعترف للطاقة بعقل جبار وفعالية غير متناهية وإدراك وشعور. وهذا ينافي ما يدعيه المادي. وبما أن الشيء حسب قانون القصور الذاتي الثابت في علم الفيزياء، غير مؤثر في نفسه، فلا بد من مؤثر خارجي قد أثر في هذه الطاقات بحكمة فائقة وتدبير خارق، وهو لا يشبهها في شيء، حتى كان هذا العالم الذي نراه.

ثم نسأل المادي: أليست المعادلات ووضعها نتيجة عقل مفكر جبار، لاسيما إذا كانت متعددة تكاد لا تحد، أليس تنظيم أجزاء وأعضاء الحشرة أو الحيوان دليلاً على عقل فعال، لاسيما إذا كانت هذه التنظيمات في الجماد والنبات والحيوان متعددة إلى حد تكاد لا تتناهى وبأشكال مختلفة ونظم حكيمة متباينة، هذا عدا ولوج الروح فيها.

ثم هل الترتيب بين الأجزاء يولد الحياة وما العلاقة بين الترتيب والحياة؟ وليس هناك إلا دعوى وخيال وهوى نفس ضلت عن الطريق بآثامها وقساوتها. ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: الآية ٤٦] . إن المادي يقول بنظرية لا بلاس: إن الشمس والكواكب التابعة لها كانت في البداية قطعة من السديم، ثم انتزعت منها هذه الكواكب وإلى مسافات معينة وصارت تدور حول الشمس بحكم الجاذبية، وإن الأرض كانت ابتداء قطعة من نار (معادن مذابة) كما يظهر لنا ذلك عندما ننزل إلى باطن الأرض مسافة يعتد بها . فإن درجة الحرارة تزيد (٣٠) درجة مئوية لكل كيلومتر من العمق . وهكذا تبلغ نحو عمق (٥٠) كيلومتراً من سطح الأرض درجة انصهار الصخر . وهي تقع ما بين ١٢٠٠ درجة مئوية و ١٨٠٠ م . والبراكين وما يخرج منها من صخر منصهر خير دليل على ذلك . فالكرة الأرضية، بناء على هذا، تتألف من قشرة كروية جامدة سمكها نحو ٥٠ كيلومتراً، تلتف حول قلب الأرض التي هي نار حامية، من صخر مصهور ومعنى هذا أن لب الأرض سائل ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَاهُ مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٣٠] . فإذا كانت الأرض عند انتزاعها عن الشمس ناراً حامية فلا يبقى فيها كائن حي ولا أساس للحياة . فكيف يفسر لنا المادي وجود الكائن الحي على وجه الأرض وكذا النبات وما فيه من نظم وجمال .

وكيف بالتحليل العلمي يمكن إرجاع عقل الإنسان إلى المادة الأولى الأزلية، لاسيما بعد الاعتراف بأن الأرض كانت قطعة نار سيالة حامية . ومن أودع في المادة الأولى هذا العقل الجبار لتضع قواعد رياضية رصينة في هذا الكون، وتسلسل هذه المادة وتندرج مراحل تكاد لا تتناهى، مراحل معقولة حكيمة، ثم ننظر في حاجة ما سيوجد في المستقبل، فتهيئها قبلاً، وهل للمادة الصماء غير العاقلة (على ما يقوله المادي) أن تفكر في مستقبل الأشياء وحاجاتها وتعين مثلاً أوقاتاً لخروج السن والشعر في الإنسان والحيوان . . . الخ .

حقاً إن التفكير المادي تفكير عامي لا يمت إلى الأسلوب العلمي بصلة: ﴿إِنْ هِيَ

إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَإِبْرَاهِيمُ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴿٢٣﴾
[النجم: الآية ٢٣] .

يقول (روبينيه) في كتاب «الفلسفة الحسية» .

«إن الفلاسفة الحسيين يريدون الابتعاد عن كل وهم وخيال وبناء فلسفتهم على المشاهدة الحسية. ولكنهم بعيدون عما يدعون كل البعد. وهل من الفلسفة الحسية أن يقال جزافاً بقدّم المادة وأبديتها، وهل من الفلسفة الحسية الحكم بعدم وجود عالم أرفع منها وهل منها الاعتماد على افتراضات علمية غير ثابتة ومتزلزلة وبناء مذهب إلحادي عليها. وهل يصدّق الحس في ما يعطى من معطيات وما المصحح له، أليس العقل؟ فكيف يجوز الاعتماد على فلسفة حسية، أساسها الحواس. وكيف يجوز الاعتماد على نظريات علمية لا ثبات لها ولا استقرار. وكيف يجوز أن تبني فلسفة الحياة الاجتماعية، من اقتصادية وأخلاقية وإدارية على نظريات تتبدل من حين إلى حين. ألم يدرس المادي تاريخ العلوم. ألم يتتبع تغير النظريات وتحولها. وهل الفرضية: (Hypothese) دستور رياضي مجرد لا يقبل الشك والارتياب. وهل وجود أتباع كثيرين لنظرية ما يدل على صحتها. ﴿وَإِنْ تَقَعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١١٦] .

إن المادي يقول: إن المادة مقودة بنواميس ثابتة غير متزلزلة. من الذي قاد هذه المادة حتى أمست مقودة تبعاً لهذه النواميس؟ هل المادة نفسها فكرت، فوضعت هذه النواميس والقوانين؟... فما بال الإنسان وهو ذو عقل، لم يعلم لحد الآن إلا شيئاً جسيماً جداً عن حقائق حياة النبات والحيوان والذاتية الرياضية المودعة في هذا الكون؛ إذن، عقل المادة في الأزل أعظم بكثير من عقل هذا الإنسان المتكامل علمياً يوماً بعد يوم. ومع ذلك يشكو جهلاً مريراً لا نهاية له.

ثم إن القوانين والمعادلات الرياضية التي تعمل في تنظيم هذا الكون وربط الأرض بالسماء وربط أجزاء السماء بعضها ببعض بمعادلات لا تُعد ولا تحصى، (وقد وجدت تباعاً)، كيف كانت موجودة في الأزل في المادة؟ والمادة كانت مشكلة من ماذا؟ ومن الذي شكّلها؟

إن العلم الحديث يقول، بعدم وجود مادة في الأزل. وإنما طاقات أوجدها الله تعالى. تكدست بإرادته، فصارت مواد كما يشاء سبحانه. وتلاشى هذه المواد فتكون طاقات وهذه بدورها تتلاشى فلا يبقى إلا وجه الله ذو الجلال والإكرام.

ثم كيف قطعت الطاقات هذه المراحل الحكيمة التي هي في غاية الإتقان وتمام الدقة وتكاد لا تنتهى. ذلك لأن الكون على حد تعبير (أينشتاين) مجموعة من قوانين رياضية.

وأين الدستور والعقل من المادة. وإن المادي ينفي العقل عن المادة خشية أن يقال: إن العاقل الفعال والميسر للمادة هو الله تعالى. وهكذا يستدل الفيلسوف الفرنسي (بركسون) على وجود الله جلّ جلاله. ثم ليقول لنا المادي، إذا كانت المادة فاقدة العقل، فكيف تحدث هذه العوالم المعقولة المتقنة بأوامر من مادة بلا عقل.

كيف يجوز الاعتماد على ما يقوله المادي: وهو ادعاء لم تثبت أركانه، ادعاء أوهن من بيت العنكبوت، ذلك لأنه حيث لا يجد جواباً مقنعاً يتذرع بكبريائه وغروره، أي بهذا العلم الذي لم يقطع فيه البشر إلا مراحل ضئيلة وضئيلة جداً، يعترف بذلك كبار العلماء الباحثين، لا أولئك الذين انحصرت دراستهم في مدارس بسيطة أياماً فعلية، وتركوا البحث والتنقيب وصاروا يكتبون دونما تدقيق وتحقيق. يتذرع المادي بالعلم تذرعاً واهي الأركان، متفكك العرى والأوصال، بعيداً عن المنطق الطبيعي والفطري، ذلك لأن العلم مهما كان ناقصاً يدل على موجد قادر متعال. وخلاصة القول، أن المادي ينسب (من عندياته) واقتراحاته وادعاءاته بل هذيانه إلى العلم اعتباطاً، ويسمى هوى نفسه ومدعياته نظريات علمية! وبينها وبين العلم الواقعي الصحيح مسافات. وإن قضية تاريخية أو قضيتين، كافية لتجعل للمادي دليلاً وبرهاناً دون ملاحظة ما هنالك من عوامل.

إن المادي كلما عجز عن جواب مسألة تعرض عليه، قال: «إن كنا نجهل السبب الآن، فإن العلم سيكشف لنا ذلك». إذن كيف يجوز أن تملي على الناس نظرية إلهادية واهية الأركان، ويعوّل في إثباتها على ما سيكشف العلم في المستقبل من مكتشفات.

ثم من الذي ألهم الحيوانات، لاسيما الدنيئة منها، ما به قوام حياتها قبل أن يتقل بطريق وراثي؟ وما حقيقة الانتقال الوراثي على الوجه الصحيح؟

إن المادي يقنع بالتعريف فحسب، فيقول: جاذبية، ورائة، دون أن يتوغل فيقول لنا عن الماهية والواقع. وإن الوصف اللغوي أو الاصطلاح لا يغني عن الحق والواقع شيئاً. حقاً، أن المادي قد حجب نفسه عن المنطق الصحيح، (هذا المنطق الذي يستعمله في حل المسائل الكيميائية أو الفيزيائية)، حين يأتي دور إرجاع المخلوقات المترتبة غاية الترتيب إلى مرتب حكيم عليم. ذلك لأن قضية الاعتراف بالخالق ليست بقضية منطقية فحسب، بل هي رشحات النفس الزكية. فالقضية قضية نفسية بحتة، لا أثر للمنطق في ذلك، ومعنى ذلك، أن منطق هذا المادي منطق صحيح في العلوم المادية، ولكنه ينسحب عندما يأتي دور الاعتراف بالله تعالى لظلمات في النفس ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: الآية ٥٧].

إن المنطق الإنساني، منطق طبيعي ثابت الأركان، لا تبدله الأهواء والنفوس مهما اصطلاح عليه من اصطلاحات وعبر عنه بتعابير مختلفة، فالإنسان إنما يعترف بخالقه بنور منه. والمنطق الطبيعي، إذ ذاك، يؤيد ذلك. ولولا هذا النور لما أمكن الاعتراف وإن قوي الشخص على حل أصعب المسائل الرياضية. ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: الآية ٤٠].

ولا يحل هذا النور القدسي إلا في نفوس فيها شيء من الصفاء. وقد اعتادت إلى حد ما على عمل صالح وأخلاق فاضلة، بعيدة عن الخمر والفجور..

نعم، قد يصبح الإنسان بفجوره وفسوقه، وبعد ذلك بظلمات نفسه أخط من الطير والجماد. فهما يسبحان الله ويقُدرسانه، على حدّ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْأَطْيَارِ صَفَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: الآية ٤١]. فنحن نقترح على المادي أن يرتب لنفسه منهاجاً للقيام بأعمال صالحة لا لنيل مقام دنيوي أو طلب شهرة أو صيت، ثم لترك ما هو عليه من ارتكاب المحرمات، لاسيما الكذب، ليرى كيف تزكو نفسه شيئاً فشيئاً، فتحل فيها معرفة الخالق، فخشوع، فطمأنينة ما بعدها طمأنينة، ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: الآية ٢٨].

ليعلم المادي أن هذه النظريات الفلسفية التي اخترعها والتي يعتمد عليها الآن هي نظريات متحولة، متبدلة، سيظهر له فسادها بعد حين، كما ظهر فساد كثير من النظريات العلمية والفلسفية منذ العهد اليوناني إلى يومنا هذا، وسيأتي يوم يكون فيه أكبر عالم في يومنا هذا تلميذاً لأولئك الذين سيظهرون بفضلهم تعالى بعد أعوام أو قرون.

ثم إن النفس الإنسانية ليست من المادة في شيء. فلا يجوز تطبيق خواص المادة وقوانينها في تكميل النفس الإنسانية وسير الإنسان التكاملي، وجعل الاقتصاد أساساً لكل فضيلة. ولا يعلم حقيقة النفس وطرق تكاملها إلا خالق النفس وهو الله تعالى. فوجب إذن، أن يبعث الله أنبياء ومرسلين حاملين قوانين نفسية من عنده تعالى لإكمال البشر. إن كل ما يستنه البشر لإكمال نفسه ملوث، مبتور، آت من رشحات نفس ملوثة ناقصة. إذن ما يترنم به المادي لظلمات نفسه، من عدة إنزال كتب سماوية وإرسال أنبياء، إنما هو كلام فارغ لا يدعمه دليل. ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٠].

فجدير بالمادي أن يتنازل عن غروره وأن يقطع بأن خالق الكون يريد بهذا الإنسان الكمال، ذلك لأن سنة الكمال ضاربة بأطنابها في هذا العالم، فلا ينبغي أن يستثنى منها هذا الإنسان، وما يستنه الناقص، ناقصاً. والله أعلم بما خلق، وأعلم بطرق تكامل نفس خلقها، وهي النفس الإنسانية. وأن يقطع بأن الله أرسل رسلاً مبشرين ومنذرين بغرض إكمال هذا الإنسان، ومعهم جميع ما يحتاجه الإنسان في شتى الحقول، من نفسية وعبادية، واجتماعية وقضائية وإدارية واقتصادية، وإن دين الإسلام وهو خاتمة الأديان مستجمع لجميع ما يؤدي إلى تكامل هذا البشر ولم تمسه يد التحريف، فجدير به أن يتخلى عن غروره، وطيشه وغلوائه، وفجوره وخموره. وأن يتمسك بدين محمد خاتم النبيين ﷺ، لكي يعلم بعد قليل ما كان عليه من خطأ فاحش وظلمات بعضها فوق بعض.



إن الفلاسفة الواقعيين يعتقدون أن علمنا ومعرفتنا بالنسبة إلى الأجسام تبقى ناقصة إلى الأبد وإننا لا نعرف إلا أفكارنا الخاصة.

إن القرن التاسع عشر كان قرناً مُتَّسماً بالمادية، فقد ساد الاعتقاد في الأوساط المادية أن المادة هي كل شيء وأن الإنسان يساوي كذا غراماً من الآزوت وكذا غراماً من الحديد وكذا غراماً من الكالسيوم وكذا غراماً من الماء (بما فيه من أوكسجين وهايدروجين) ... الخ. . . وليس وراء ذلك شيء! ولم يُحسب للروح أو النفس والعقل أيّ حساب. وصاروا يدعون أن العقل وليد المادة والمادة هي التي تخلق النفس والعقل! (ولا تنس قول علي عليه السلام: كثرة العلم في غير طاعة الله مادة الذنوب).

حتى إذا تقدمت العلوم المادية بما فيها الفيزياء الرياضية وعلم الذرة وتقدمت الرياضيات العالية بما فيها الميكانيك الرياضي والميكانيك السماوي، وتطورت الفلسفة على ضوء هذه المكتشفات التي هي مفخرة القرن العشرين، أخذت تقول الفلاسفة الواقعيون والعلماء الحقيقيون «أولئك الذين لم تلوث نفوسهم» أن العقل هو الكل في الكل، والعقل هو يسرّ المادة، وصاروا يعتقدون أن هناك عالماً آخر وراء العالم الذي تنحصر فيه الفيزياء، وأن هذا العالم وحدة روحية أو عقلية وأن العقل وحده هو الشيء الحقيقي، وأن المادة هي من مخلوقات العقل، بخلاف ما كان يقال قبل ٥٠ سنة حين طغيان المسلك المادي. والنفس هي الأساس والمادة خادمة لها وأن الروح أو النفس لا تفنى بعد موت الإنسان.

كل ذلك لما رأوا من عجائب ما أودع الله تعالى في الكون تحت قوانين رياضية رصينة، وحقائق لمسوها في بنية الذرة لا يمكن أن تفسر إلا مع الاعتراف بخلاق عظيم وعقل فعال^(١).

وهكذا يتكامل الفيلسوف في معتقداته وفي فلسفة يتبنّاها لو تكامل نفسياً. والدكتور جود (Dr. C. M. Joad) خير مثال في ما نذهب إليه. إنه يقول، عندما تخرجت من الجامعة كنت لا أعني ولا أفهم شيئاً عن حقيقة الكون وكنت أعتقد: أن المادة الحياة والقيمة (Matter, Life and value) هي أمور مختلفة، مستقلة بعضها عن بعض،

(١) وكان لإحضار الأرواح (على ما يعبرون)! هيبنوتيزم (Spiratism) (Hypnotism) أثر في التوجه الروحي.

اجتمعت لتتفاعل بعضها مع الآخر. ثم عدلت عن هذه العقيدة، وعلمت أن هذه الأشياء الثلاثة هي على الأرجح وجهات لوحدة واحدة أو مظاهر لفعل إله خالق.

لو سألت أحد هؤلاء الماديين لماذا يجذب المغناطيس الحديد ولا يجذب الرصاص، يعجز عن الجواب وغاية ما يقول، أن هناك خاصية في هذا الجسم دون غيره. ونحن نسأل كيف اكتسب هذا الجسم هذه الخاصية دون غيره. وما حقيقة هذه الخاصية وما حقيقة الجذب؟ ومن هو الواهب لهذه الخاصية؟ هذه أسئلة يجيب عنها المادي بكلمة واحدة، «لا أعلم»؛ أو «سوف يكشف لنا العلم ذلك». وهل يجوز لمن يدعي العلم أن يتكهن بقوله «إن العلم سيكشف لنا» ويبنى نظريات خاطئة على أساس واهن. ثم يقول نفسه «قد انصرم دور الكهانة ونحن نعيش في عهد الحقيقة والواقع، عهد العلم والحقائق وقد خرجنا عن دور الاحتمال»!

إن الله تعالى يقول ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ﴾ [النساء: الآية ١٥٧].

أنظروا كيف يفصل الله جلّ جلاله ما خلق من أنواع النبات والإبداع الكامن فيها. إنه تعالى يقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ^(١) وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ^(٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٩٩]. وإن ما دوّن في كتب النبات هو تفسير لبعض ما جاء في هذه الآية الكريمة. وسوف تدون كلما تفضل الباري جلّ جلاله على هذا البشر بالكشف والتنقيب، آلاف الصفحات. ولكن لا يعتبر بكل ما دوّن في الموسوعات الخاصة بالنبات وما سيدون إلا المؤمنون، على حد قوله تعالى في الآية: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [التحل: الآية ٧٩]. ويؤيد ذلك قوله تعالى في سورة يونس: ﴿إِنَّ فِي آخِلَافٍ أُتِيلَ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْتَبِرُونَ﴾ [يونس: الآية ٦]. نعم، لا بد للمعتبر بهذه الآيات البيّنات من قليل من التقوى، فقليل من الإيمان.

(١) قنوان: جمع قنو: عقود التمر؛ دانية: قرية التناول.

(٢) وينعه: حينما ينضج.

ولا يعطى الشخص قسطاً من الإيمان إلا إذا كان له عمل صالح يقوم به من وقت لآخر، بصلة رحمه ولو بمقدار ضئيل، أو مساعدته بعض الفقراء والمعوزين ولو كانت هذه المساعدة قليلة جداً، أو تفقده حال المساكين والبؤساء، ولو بين فترات متباعدة إلى ما هنالك . فإن هذا العمل الصالح على قلته وضآلته مصباح ضعيف الضوء ينير القلب، فلا يطفأ العقل . فالعقل، إذ ذاك، يقوم بواجباته الطبيعية في حدود معينة وهو توجيه صاحبه إلى الخالق المعبود؛ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: الآية ٢٩] . إن التقوى . (اجتناب المعاصي) والمأكل الحلال الطيب يفتحان على الإنسان أبواب الهداية، فيفرق بين الحق والباطل ويؤدي ذلك أيضاً إلى القيام بتكفير الذنوب وجلب غفران الله تعالى . تدبروا مفاد هذا الحديث لتروا كيف أن الله تعالى وسعت رحمته كل شيء وأراد بالناس جميعاً الاهتداء . فقد قال رسول الله ﷺ: «أبى الله أن يجعل الباطل في قلب الكافر حقاً وأبى أن يجعل الحق في قلب المؤمن باطلاً»^(١) .

أنظروا كيف يوضح الله تعالى أن العمل الصالح مقدمة لنيل الفيوضات الربانية ودرك أنوار الهداية الإلهية . إنه تعالى يقول: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُم سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: الآيتان ١٥/١٦] ومعنى ذلك إن الله يهدي الفرد إلى سبيل الهداية والسلام وإلى طريق يؤدي على روح وريحان، إن اتبع هذا الفرد رضوان الله تعالى بالاجتناب عما حرم الله والعمل بما أمر الله . نعم، إنه لينطفئ العقل انطفاء تاماً أو ينسحب انسحاباً كاملاً إذا غدا الفرد جرثومة فساد وقسوة وقوة. ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: الآية ٣٤] . فليست الآيات البيّنات والمعجزات الباهرات هي الكل في توجيه الشخص نحو خالقه . بل لابد من نفس بقي فيها شيء من الصفاء والنور، لتبصر به الحق . إنه تعالى يقول: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصاص: الآية ٥٦] . وهو

القائل أيضاً: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: الآية ١٠٨] . وفي آية أخرى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: الآية ٥١] . وفي أخرى: ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٢٣] . وقد سد طريق الهداية على أولئك الذين خسروا أنفسهم بالمعاصي. ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١٢] .

فانحصر توفيق الاهتداء في أناس لم يبلغوا من الفسق والظلم مرتبة تسد عليهم أبواب الهداية، فتتطفئ بذلك عقولهم. فيخرجون من زمرة أولي الألباب. إنه تعالى يقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: الآية ١٩٠] . فالذي لا يعتبر بما خلق الله وبما أودع من نظام في اختلاف الليل والنهار لا يعد من أولي الألباب. وما على من وجد في اتجاهه الروحي زيغاً وانحرافاً إلا أن يفتش عما قام به وما يقوم به الآن من ظلم وجور فيقطع عما هو فيه من اعتداء وتجاوز، كي يسير في سيره التكاملي، وتتجلى له الحقائق وينكشف له الواقع. فلا يمكن مد الأيدي إلى ما وراء الطبيعة إلا من زاوية تزكية النفس وتطهيرها من الأرجاس والأدران. وقد نصّ على ذلك كثير من الفلاسفة الواقعيين.

أنظروا كيف يصف الله تعالى ما أودع من نظام رصين في سير الشمس والقمر، لا يعلم مدى ذلك إلا من درس الرياضيات العالية ومعادلات الحركة في الميكانيك الرياضي والميكانيك السماوي. على أن وراء ما توصل إليه الفلك العالي، معادلات وقوانين كثيرة جداً بل قوانين لا تتناهى سوف يمنّ الله تعالى على المتتبعين من علماء الفلك بالكشف والعثور عليها. إنه تعالى يقول: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّنِّ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: الآية ٥] .

حقاً، إن المنغمسين في علم الفلك العالي على ضوء ما توصل إليه العلم الحديث قلّ أن ينحرفوا عن الاعتراف بعظمة الله الذي وضع هذه النظم الدقيقة والقوانين الرياضية. ورأيت منهم من تفيض عيناه بالدموع فرحاً وخشوعاً لله تعالى، ولكنك ترى كثيراً من الملحدين، ممن لا يستطيعون فهم معادلات الفلك العالي وقوانينه مهما حاولوا، منحرفين عن الصراط السوي لكبر في النفس وقساوة في القلب. فقد جاء في

الحديث «إن أعمى العمى عمى القلب». وقد أوضح لنا ربنا تعالى فلسفة الإيمان بقوله: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كُفْرًا مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ۝٣٥﴾ [غافر: الآية ٣٥]. أمثال بوخنر، فورباخ، كارل ماركس اليهودي، أنكلز، شوبهاور وغيرهم. إن الله يصف هؤلاء بقوله: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا ءَايَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ۝٥٦﴾ [الكهف: الآية ٥٦]. ويصفهم بالجدل، جدل إن دل على شيء فإنما يدل على فساد فلسفتهم وفساد ما بني عليها من قوانين. ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ۝٥٧﴾ [الكهف: الآية ٥٧]. وبقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ ۝٦٠ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَتَهُ بُضُلًا مِّنْ بَيْنِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ۝٦١﴾ [الحج: الآيتان ٦٠/٦١].

إلا أن هذا المادي سوف يعترف بالواقع لا محالة حين لا يفيد الندم على ما فرط في جنب الله: ﴿يُعَرِّضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّئَا قَالِ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأحقاف: الآية ٣٤].

انظروا كيف يتم الله تعالى الحجة على عباده بدليل قاطع على وجوده بقوله: ﴿وَمِنَ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١﴾ [الرؤم: الآية ٢١].

أنى للذكر أن يخلق لنفسه أنثى، ومن أين جاءت هذه الحاجة وكيف فكر هذا الذكر أن يجعل الأنثى بشكل يودي إلى استدامة النسل مع تعقد المراحل في تشكل الجنين. هذا ما يقوله الفيلسوف (مونتني). حقاً، إن إنكار الله تعالى ضرب من الجنون. فهؤلاء المنكرون هم مجانين جنوا على أنفسهم وعلى من هم على شاكلتهم ببيغيهم وظلمهم وفسقهم، فذهبت عقولهم. ومن ليس له عقل يدرك به خالقه فهو مجنون لا محالة.

في عهد الرسالة، صادف رسول الله ﷺ في طريقه رجلاً خولط في عقله، فقال له أحد أصحابه أنه مجنون، فأجابه رسول الله ﷺ ما موداه: أنه مريض، والمجنون من لا يفكر في آخرته.

هل توصل هذا المادي إلى فلسفة اختلاف الألسنة والألوان بصورة صحيحة عميقة، دون الاكتفاء بالظواهر. وهل درى عوامل اختلاف الألسنة، وكيف تكلم الإنسان وكيف ارتبط اللسان بالفكر، حتى أمسى معبراً عما يختلج في نفسه. وإن الله تعالى يقول: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَخَلَقَ لَكُمْ أَلْسِنَكُمْ وَالْوَيْكَرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَاسِكُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَبْغَاؤُكُمْ مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ٢٣ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٢٤﴾ [النور: الآيات ٢٢ / ٢٤].

فحصر سبحانه وتعالى الاعتبار بالآيات الكونية وما أودع من حالات مختلفة تضبط بقوانين رياضية متقنة بالعقلاء دون غيرهم. أي أن العقلاء هم وحدهم يعترفون بعظمة الخالق ويتدبرون في أحوال الكون والحوادث الكونية ولذلك يقول تعالى في سورة الحشر ﴿فَاعْتَرِضُوا يَنَاقِلُوا الْبَصِيرَ﴾ [الحشر: الآية ٢]. ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: الآية ٢٦٩]. فلا بصيرة ولا لب لغير المؤمنين. وجل ما عند هؤلاء الملاحدة ذكاء أو تفكير يقوم بلطفه تعالى في إدارة شؤونهم والهام العلاقات الموجودة بين الحوادث (سواء أكانت النفس ملوثة أم لم تكن)، كل ذلك تفضلاً منه تعالى، ﴿قُلْ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُ﴾ [عبس: الآية ١٧]. ولكن الاستبصار والتوجه إلى مقامات القدس لا يتم إلا في نفس زكية طاهرة. فهؤلاء هم أولوا الألباب حقاً، لخروجهم من حضيض المادة إلى تفهم ما وراء الطبيعة والعروج إلى حيث الطمأنينة والخلود، إلى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

هل من حاجة

إلى الدور والتسلسل في إثبات الصانع

جاء في بعض الكتب الكلامية بشأن إثبات وجود الخالق: إننا لو فرضنا أن ب مثلاً خلق أ، وح خلق ب، ود خلق ح، وهكذا... ينتهي بالفرض إلى ما لا نهاية له من الموجودات، خلق المتقدم منها المتأخر. وهذا، تسلسل، والتسلسل باطل. لأنه لا بد

من خالق لم يخلقه آخر. حتى ينتهي الأمر إلى خالق هو في الحقيقة خالق جميع الأشياء. ومما لا شك فيه، أن المخلوق ليس فيه قابلية الخلق. لأنه إن كان فيه قابلية الخلق لأوجد شيئاً من العدم. أو تصرف في نفسه فحقق ما يريد. والمصنوع ليس بصانع شيء من العدم. أما صانع التلفزيون مثلاً فهو قد جمع أجزاءه مما وجدته قبلاً. ووجد أن له عقلاً يعقل ويستنتج وهو لا يعلم كيف أتاه. يرى نفسه يأكل وتخرج فضلاته وتقوم أجهزته بأعمال دقيقة مختلفة وهو لا يحيط بكل ما هنالك من أسباب وعلل. ولا يعلم كيف كان كل ذلك. فليس للمخلوق أن يخلق شيئاً من العدم. ومن أين يأتي لهذا المخلوق قابلية الخلق من العدم، وهو عاجز عن التصرف في نفسه. فإذا قلنا باستحالة خلق المخلوق شيئاً من العدم، لم يبقَ مجال للقول بهذا التسلسل من المخلوقات أو من الخلائق وجعل المتقدم خالقاً للمتأخر. د، ح، ب، أ. فلا ضرورة لهذا الفرض الباطل: (التسلسل)، بل لا يبقى مجال لتصوره.

وأما الدور: فهو أن يكون وجوداً متوقفاً على وجود ب ووجود ب متوقفاً على وجود أ، فأصبح وجود أ متوقفاً على وجود أ. أي وجود أ متوقف على نفسه. ويقولون إن هذا (دور)، والدور باطل، أي توقف وجود شيء من الممكنات على نفسه باطل. لأن الممكن لكونه ممكناً أي مصنوعاً ومخلوقاً من قبل غيره ليس له أن يوجد نفسه بنفسه حتى يكون وجوده متوقفاً على نفسه. والله تعالى هو الذي متوقف وجوده على نفسه لم يسبق بعدم وهو واجب الوجود، أي لا بد من وجوده لوجود هذه المخلوقات بهذا النظام البديع.

لا أظن أن رجلاً قبل أن يدرس علم الكلام يفكر في الدور كما يفكر في ذلك المشتغل في علم الكلام. ذلك، لأنه يرى أن كل ما في الكون من نبات وحيوان وجماد مفتقر غاية الافتقار، وذو حاجات شتى ونواقص عدة ومحل للحوادث، ومضطهد تحت نير الحوادث والكوارث. وليس له أدنى تصرف بل ليس له أن يغير شيئاً من تركيبه الأساسي من تلقاء نفسه. فلا يفكر أن هناك خالقين يتوقف وجود كل منهما على الآخر. حتى يأتي دور توقف وجود الشيء على نفسه. بل يقطع أنه لا بد من خالق لا يشبه خلقه في شيء. لما يرى من عجز وافتقار في من سواه. خالق لا تؤثر فيه

المؤثرات ولا الحوادث بل هو خالق المؤثرات والحوادث وموجدها . هو الذي خلق الأشياء برمتها ونظمها ورتبها ووضع فيها قوانين ليس للعلم أن يقف إلا على جزء ضئيل منها . وذلك أيضاً بمشيئة الله وإلهامه المكتشفين تفضلاً منه ورحمة . فلا أرى كثير فائدة من تمسك علماء الكلام بالدور والتسلسل في إثبات الصانع جلّ جلاله . لأن هذا النوع من التفكير ليس بطبيعي ولا فطري ، وليس بمعقول . ولا تؤيده الحوادث . وأن الإنسان قد زُوّد بفضلته تعالى بعقل يحكم بوجود خالقه بصورة طبيعية دون اللجوء إلى تعلّم مناقشات أصحاب الكلام والحكماء . بل قد يكون العامي أقوى اعتقاداً من الكلامي بوجود الصانع لنورانية في نفسه حصل عليها بسبب ما قام به من أعمال صالحة لوجه الله تعالى وعبادات خالصة دونما رياء . ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: الآية ٦٩] .

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمُ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّادِقِينَ﴾ [آل عمران: الآية ١٤٢] .

استحالة معرفة الله معرفة تامة

إذا كان الإنسان لا يقوى على معرفة نفسه ولا يتمكن من أن يتعرف إلى حقيقة النفس أو الروح ﴿وَسْتَخْلُوكَ عَنْ الرَّوحِ قُلُ الرُّوحِ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: الآية ٨٥] . فأنى له أن يعرف خالق الروح معرفة تامة . إذا كان الإنسان لا يقوى على معرفة حقيقة الجاذبية الأرضية أو حقيقة القوة الكهربائية أو حقيقة الإلكترون فأنى له أن يعرف حقيقة خالق الجاذبية وخالق الإنسان ، في مقدوره أن يحيط باللامتناهي وهو الله تعالى .

وما من شك أن ما خلق الله تعالى من عوالم ، تكاد لا تُعد ولا تحصى . وقد عُلم أنه تتشكل في الكون كرات جديدة وتبديد أخرى . وإن العلم الحديث ليعترف بالعجز عن الإحاطة بما أودع الله من خواص وقوانين رياضية ومعادلات رصينة تربط حوادث الكون وأجزائه بعضها ببعض . وإن علم البشر بالنسبة لهذا العلم اللانهائي (الخواص

والقوانين الكونية) شيء ضئيل وضئيل جداً: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنْفَذَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِثًّا يَغِيْلُهُ مَدَدًا﴾ [الكهف: الآية ١٠٩] وأن علم الله تعالى الذي وضع هذه الخواص والقوانين لا يتناهى ولا يحاط به. إذن نتج من هذه المحاكمة أن علمنا (علم البشر كله)، بالنسبة إلى العلم المودع في هذا الكون يكون صفراً؛ بل هو صفر. ذلك لأن نسبة المحدود إلى غير المحدود تكون صفراً. فلو فرضنا علم البشر = ب. والخواص والقوانين التي أودعها الله تعالى في هذا الكون (أو الأكوان) = لا نهاية = ∞.

$$\text{..} \quad 0 = \frac{\text{ب}}{\infty} \quad (\text{صفر})$$

إذن وجب أن نقول (بطريق أولى) إن علم البشر بالنسبة إلى علم الله تعالى، ذلك العلم الذي لا يدرك غوره، صفر أيضاً.

فلنفرض علم الله = ∞

أي لا نهاية = ∞ مرفوعة إلى قوة ∞.

$$\text{..} \quad 0 = \frac{\text{ب}}{\infty \infty} \quad (\text{صفر}) \text{ دون أي ريب}$$

فكيف يرجو هذا البشر أن يعرف الله تعالى معرفة تامة وأن يحيط به إحاطة كاملة وهو في الحضيض، (لكنه مغرور لما من الله عليه بمعرفة بعض القوانين وبعض المكتشفات)!

إن الماديين تذرعو بسخافات عجيبة، وأرادوا أن يروا الخالق في تحاليلهم الكيميائية أو تجاربهم الفيزيائية أو بعين مجردة، أو مجهزة بمكبرة وغيرها. حين أن الله، وهو الذي لا يحده مكان ولا زمان، هو خالق كل هذه الآلات وهو خالق العقل الذي قام بترتيب هذه الآلات Telescope.

أنى للحواس الخمس أن ترى الله تبارك وتعالى وهي محدودة القوى والقابليات وكثيرة الأخطاء والعقل هو المصحح لهذه الأخطاء. أو ما رأيت في بعض كتب الفيزياء خطوطاً مستقيمة مقطوعة بخطوط أخرى، ونظرت إليها لألفيتها تتقاطع ولكن لو اختبرتها وجدتها متوازية. وترى أيضاً خطين مستقيمين أحدهما أطول من الآخر،

ولكن لو دقت لوجدتهما متساويين في الطول وهذا دليل على خطأ العين . والعقل وأعني به الذكاء أو التفكير هو المصحح له .

أو ما رأيت كيف يعوج القضيب حين يوضع قسم منه في الماء . وذلك لانكسار الضوء واختلاف سرعة الضوء في وسطين مختلفي الكثافة (الهواء والماء) . ما الذي يصحح خطأ العين ويريك أن ليس هناك اعوجاج حقيقي إنما هو العقل .

وهكذا السراب فإنك ترى أن هنالك ماءً وأشجاراً فإذا وصلت إلى ذلك المكان، لم تجد شيئاً، كل ذلك بتأثير انكسار الضوء لاختلاف كثافة طبقات الهواء وترى النجمة في غير موقعها الحقيقي لنفس السبب .

هل رأيت كيف : أن الدرهم الملقى في قعر إناء فيه ماء كيف يُرى في مستوى أعلى من القعر حسب قوانين الانكسار (Refraction) وكيف يحلل الضوء بهذا أو بالمنشور . هل العين حين تشاهد هذه الألوان تعتقد أن هناك تكاسراً أو تعتقد أن ألواناً مختلفة وجدت في (رغوة) الصابون . ما الذي يصحح هذا الخطأ .

إن الأذن لا تقوى أن تسمع صوتاً، تردده^(١) في الثانية أقل من (٢٠) أو أكثر من (٢٠٠٠٠) ذبذبة وأن الاهتزاز وجميع ما يؤدي إلى حدوث الصوت موجود لكن الأذن لا تسمع ولا تحس . لأن قابليتها محدودة .

إذن لا يمكن الاعتماد على الحواس الخمس في إثبات وجود الخالق وذلك لأن الحواس كثيراً ما تخطئ ولا يصحح هذا الخطأ إلا العقل . فالعقل هو الذي يعتمد عليه في التعرف إلى الأشياء . وبالعقل يعرف الله ويوحّد .

هل للحواس الخمس أن تشعر بتيار ضعيف على سلك . كلا . بل الـ (كلفانو متر) هو الذي يعرفنا وجود هذا التيار الضعيف . إن الأخطاء البصرية كثيرة، فلا يعتمد على البصر فحسب، أي دون مداخلة العقل والتجربة لمعرفة الأشياء . أو ما ترى أن الأرقام

(١) التردد هو عدد اهتزاز الجسم المهتز في الثانية . أو عدد تذبذب الشحنة الرنانة ذبذبات كاملة في الثانية .

البيضاء تبدو أكبر من الأرقام السوداء. ولا يمكن الاعتماد على حاسة اللمس دائماً. فإذا أمرنا كرة بين السبابة والإبهام وهما متقاطعان فإننا نحس أن المار كرتان لا كرة واحدة. وعضو السمع لا يعطي الأثر نفسه في جميع الناس. فالموسيقيون يستطيعون تمييز النغمة الموسيقية الخاطئة فوراً. إذن لا يمكن أن نجزم أن الملاحظة السطحية المباشرة تطابق الحقيقة بصورة دائمة.

أنظروا إلى ما يقوله عليّ عليه السلام في هذا المقام: «الحمد لله الذي لا تدركه الشواهد، ولا تحويه المشاهد، ولا تراه النواظر، ولا تحجبه السواتر. الدال على قدمه بحدوث خلقه وبحدوث خلقه على وجوده وباشتباهم أن لا شبه له»^(١).

فما هو الذي يجعل هؤلاء الماديين مع دراستهم للفيزياء وكثير من علوم الطبيعة أن ينكروا الخالق. نعم، إن المؤثر الحقيقي في ذلك، إنما هو شهواتهم ونزواتهم وبغيتهم وظلمهم حتى منعوا بذلك الفطرة أو العقل من القيام بعمله الطبيعي، وحجبوه من أن يؤثر أثره. ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٣) [يونس: الآية ٣٣].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ﴾ (١) ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (١١) ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١٢) ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ﴾ (٢) ﴿سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣) ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ (١٤) ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ (١٥) [الحجر: الآيات ١٠/١٥].

ويتصور البعض بأنهم لا يمكنهم أن يعترفوا بوجود الله تعالى لأنهم عاجزون عن إدراكه فالإنسان السوي الذي لم يلوث الفطرة بما كسبت يده والذي يتمتع بغريزة حب الاستطلاع العلمي لا يحتاج إلى رؤية الله أكثر من حاجة الفيزيائي إلى رؤية الإلكترون. وكل محاولة في كلتا الحالتين باطلة ولا قيمة لها. فالإلكترون لا يمكن إدراكه مادياً ومع ذلك فهو معروف تماماً بآثاره أكثر من قطعة من الخشب. ثم إن العلم يعترف بوجود فراغ غير مدرك تسبح فيه الإلكترونات. فراغ ذي ثلاثة أبعاد، لكل إلكترون، وثلاثون بعداً لكل عشرة إلكترونات. ويعترف أن هذا الإلكترون ما هو إلا موجة

(١) الاحتجاج للطبرسي: ج ١، ص ٢٠٤. (٢) خلت: مضت.

احتمال، ويعترف بوجود جزيئات كالنيوترونات (الكهارج) واللاتينيوترونات التي افترض وجودها لأسباب تناظرية رياضية بحثة. ويتقبل بدون تردد وجود تلك الكيانات المتناقضة ظاهرياً ولكنه يرفض ومع الأسف (بإصرار) أن يتقبل وجود ذي قوة خارقة خلاقة، كَوْن هذه الأشياء التي يعترف بها مع عدم إمكان رؤيتها بأية واسطة من الوسائط. ﴿يَلَّ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: الآية ١٤].

دخل رجل من الزنادقة على أبي الحسن، علي بن موسى الرضا عليه السلام وهو الإمام الثامن وعنده جماعة، فقال أبو الحسن عليه السلام: «أيها الرجل، أرأيت إن كان القول قولكم، وليس هو كما تقولون، ألسنا وإياكم شرعاً سواء لا يضرنا ما صلينا وصمنا وزكينا وأقررنا. فسكت الرجل. ثم قال أبو الحسن عليه السلام: «وإن كان القول قولنا، وهو قولنا، أستم قد هلكتم ونجونا. فقال: رحمك الله. أوجدني كيف هو؟ وأين هو؟ فقال: ويلك، إن الذي ذهبت إليه غلط. هو أين الأين بلا أين وكيف الكيف بلا كيف، فلا يعرف بالكيفية ولا بأيونية، ولا يدرك بحاسة ولا يقاس بشيء. فقال الرجل: فإذا، إنه لا شيء، إذا لم يدرك بحاسة من الحواس. فقال أبو الحسن عليه السلام: «ويلك، لما عجزت حواسك عن إدراكه أنكرت ربوبيته، ونحن إذا عجزت حواسنا عن إدراكه أيقنا أنه ربنا بخلاف شيء من الأشياء. قال الرجل فأخبرني متى كان. قال أبو الحسن عليه السلام: «أخبرني متى لم يكن، فأخبرك متى كان». قال الرجل: فما الدليل عليه؟ فقال أبو الحسن عليه السلام: «إني لما نظرت إلى جسدي ولم يمكني فيه زيادة ولا نقصان في العرض والطول ودفع المكاره عنه وجرّ المنفعة إليه، علمت أن لهذا البنيان بانياً فأقررت به، مع ما أرى من دوران الفلك بقدرته وإنشاء السحاب وتصريف الرياح ومجرى الشمس والقمر والنجوم وغير ذلك من الآيات العجيبات المينات، علمت أن لهذا مقدراً ومنشأ»^(١).

ومن الواضح أنه لا يعرف الله تعالى أحد حق معرفته إلا هو. فقد جاء في الحديث: «سبحان من لا يعلم كيف هو إلا هو». إنه تعالى يقول: ﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ﴾ [الكهف: الآية ٥١]. فليس للبشر أن يعرف كيف خلق

الله السموات والأرض وكيف خلق هذه النفوس . وبطريق أولى يستحيل عليه أن يعرف الله تعالى معرفة كاملة . لذلك يقول رسول الله ﷺ : «سبحانك ما عرفناك حق معرفتك» . ومعنى سبحانك : أي ننزهك ربنا عن كل نقص ومن كل عيب ، فأنت الكامل الذي لا نقص فيه .

إذن كيف يجوز للناقص وهو هذا الإنسان أن يعرف ربه معرفة تامة . إلا أن هذا الإنسان الناقص ، لو تكامل بتزكية نفسه وتطهير خلده وإتباع أوامر مولاه (وهو الله تعالى) ، واجتناب ما نهى عنه ، يتكامل شيئاً فشيئاً تكاملاً عَيْنَ الله تعالى له حدود . فقد جاء في الحديث :

«أعلمكم بالله أخوفكم له» .

فيزداد هذا الإنسان معرفة بالله تعالى حتى يكون مصداق هذا الحديث ، حيث قال رسول الله ﷺ يوماً لعلي عليه السلام : «يا علي ، لم يعرف الله إلا أنا وأنت ، ولم يعرفني إلا الله وأنت ، ولم يعرفك إلا الله وأنا» . كيف لا يكون كذلك ، وإن علياً عليه السلام كان يغمى عليه من خوف الله تعالى كل ليلة مرات . ولا شك أنه يراد من هذه المعرفة ، أسمى مرتبة من معرفة يتمكن البشر من الوصول إليها بإذن الله تعالى . وأما المعرفة الحقيقية فمستحيلة . لقول علي عليه السلام : «لا يدركه بعد الهمم ولا يناله غوص الفطن»^(١) . ولقوله ﷺ : «لا تناله الأوهام فتقدره ، ولا تتوهمه الفطن فتصوره»^(٢) وقوله ﷺ : «فلسنا نعلم كنه عظمتك إلا إنا نعلم أنك حي قيوم»^(٣) . وقوله ﷺ : «عظم من أن تثبت ربوبيته بإحاطة قلب أو بصر»^(٤) .

قال رسول الله ﷺ : «إن الله احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار . وإن الملأ الأعلى يطلبونه كما يطلبونه أنتم»^(٥) .

(١) أصول الكافي : ج ١ ، ص ١٣٤ ، باب جوامع التوحيد .

(٢) بحار الأنوار : ج ٤ ، ص ٢٥٤ ، باب ٤ .

(٣) نهج البلاغة : ص ٢٢٤ .

(٤) نهج البلاغة : ص ٣٩٤ .

(٥) بحار الأنوار : ج ٦٦ ، ص ٢٩١ ، باب ٣٧ .

وقال موسى بن جعفر عليه السلام: وهو الإمام السابع من الأئمة الاثني عشر عليهم السلام: «إن الله أعلى وأجل وأعظم من أن يبلغ كنه صفته، فصِفوه بما وصف به نفسه وكفُّوا عما سوى ذلك»^(١).

وقال علي عليه السلام: «لم يطلع العقول على تحديد صفته، ولم يحجبها عن واجب معرفته»^(٢). لذلك نعرف الله ونوحده بالفطرة، معرفة تتناسب مع إمكانياتنا.

وقال عليه السلام أيضاً: «لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ولكن تدركه بحقائق الإيمان»^(٣). وقال عليه السلام: «فلا عين من لم يره، تنكره ولا قلب من أثبتته بيصره»^(٤).

أنى لهذا البشر العادي أن يعلم كيف هو خالقه، فإذا كان علي عليه السلام وهو أكمل الخلق بعد رسول الله ﷺ يقول: «كيف أصفه»^(٥) بالكيف وهو الذي كيف الكيف حتى صار كيفاً، فعرفت الكيف بما كيف لنا من الكيف»^(٦) فكيف بالآخرين. لا سيما أولئك الذين قيدوا أنفسهم بقيود من شهوات وبخل وحسد وكبر. فقد جاء في الحديث: «أصول الكفر ثلاثة: البخل والحسد والكبر».

فمهما أوتي الإنسان من علم وحكمة ليس له أن يصف الله تعالى حق الوصف، لأنه محدود في كل ما يفكر والمحدود لا يحيط بغير المحدود. والمحاط لا يحيط بمن يحيط به «سبحانه وتعالى عما يصفون». ولقد قال رسول الله ﷺ: «لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك».

وقد قال علي عليه السلام: «وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة»^(٧). وقال عليه السلام أيضاً: «لا تقع

(١) أصول الكافي: ج ١، ص ١٠٢، باب النهي عن الصفة.

(٢) نهج البلاغة: ص ٨٧، خ ٤٩.

(٣) بحار الأنوار: ج ٤، ص ٥٤، باب ٥.

(٤) بحار الأنوار: ج ٤، ص ٣٠٨، باب ٤.

(٥) أي كيف اصف الله تعالى.

(٦) أصول الكافي: ج ١، ص ١٠٣، باب النهي عن الصفة.

(٧) بحار الأنوار: ج ٤، ص ٢٤٧، باب ٤.

الأوهام على صفته^(١).

فمخلوقات الله خير دليل على وجود الله تعالى وهو القائل: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فُصِّلَتْ: الآية ٥٣]. قال بعض العلماء: «المتفرد بالوجود هو الله سبحانه إذ ليس موجود معه سواه. فإن ما سواه أثر من آثار قدرته، لا قوام له بذاته، بل هو قائم به فلم يكن موجود معه. لأن المعية توجب المساواة في المرتبة والمساواة في المرتبة نقصان في الكمال. بل الكمال لمن لا نظير له في رتبته وكما أن إشراق نور الشمس في أقطار الآفاق ليس نقصاً في الشمس بل هو من جملة كماله وإنما نقصان الشمس بوجود شمس أخرى تساويها في المرتبة، كذلك وجود العالم كله يرجع إلى إشراق أنوار القدرة فيكون تابعاً. إذن معنى الربوبية التفرد بالوجود وهو الكمال».

على أن في هذا التشبيه نظراً، يجب أن لا يفوت القارئ اللبيب، ذلك لأن الشمس بإشعاعها وإشراق ضوئها (أو نورها) تفقد طاقة، وليس الله تعالى كذلك، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية ١١].

إن الله تعالى يقول: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٢٢]. ذلك لأن كل إله يريد ما لا يريده الآخر. وهذا مما يؤدي إلى الاختلاف والفساد فالنظم التي تربط الأرض بالسماء. وإن توافق الإلهان، فإن تأثير أحدهما كافٍ لإيجاد وجود هذا الكون. فيمنع تأثير الآخر فيه مرة أخرى. مع ما هنالك من اتصال وثيق بين ما نراه من قوانين فيزيائية وفلكية في السماء والأرض تربط البعض بالآخر ربطاً وثيقاً لا يجعل مجالاً للشك بأن المرتب واحد لا شريك له؛

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ لَهُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَادًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًا وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النمل: الآيتان ٦٠/٦١]

(١) أصول الكافي: ج ١، ص ١٢٤، باب تأويل الصمد.

وقد قال أمير المؤمنين علي عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام في وصاياه: «واعلم يا بني، أنه لو كان لربك شريك لأتتك رسله، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه ولعرفت أفعاله وصفاته، ولكته إله واحد كما وصف نفسه، لا يضاده في ملكه أحد ولا يزول أبداً»^(١). وإن الله وهو الكامل على الإطلاق قد أخبر عن نفسه أنه واحد لا شريك له. ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: الآية ١٢٢].

وقد ذكر الصدوق قدس سره في كتاب التوحيد أن «أعرابياً قام يوم الجمل إلى أمير المؤمنين صلوات الله عليه، فقال: يا أمير المؤمنين، أقول إن الله واحد؟ فحمل الناس عليه وقالوا: يا أعرابي، أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسيم القلب؟ فقال أمير المؤمنين، دعوه، فإن الذي يريده هو الذي نريده من القوم».

ثم قال: يا أعرابي، إن القول في أن الله واحد على أربعة أقسام: فوجهان منها لا يجوزان على الله عز وجل، ووجهان يثبتان فيه. فأما اللذان لا يجوزان عليه فقول القائل: واحد، يقصد به باب الأعداد. [فهذا لا يجوز. لأن ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد،]^(٢) ألا ترى كفر من قال «ثالث ثلاثة».

وقول القائل: هو واحد الناس، يريد به النوع من الجنس، فهذا ما لا يجوز عليه. لأنه تشبيه، جل ربنا عن ذلك وتعالى.

وأما الوجهان اللذان يثبتان فيه: فقول القائل: «إنه واحد ليس له في الأشياء شبيه، كذلك ربنا...» وقول القائل: «إنه عز وجل أحدي المعنى، يعني به أنه لا ينقسم في وجود ولا عقل ولا وهم، كذلك ربنا عز وجل»^(٣).

غريب أمر هذا الإنسان، كان فاقداً جميع ما عليه الآن من ملكات وقوى. ولولا أن الله تعالى من عليه بهذا الفكر لكان حيواناً أو جماداً. فهو يفكر ويدبر بقدر ما أوتي من جانب الله تعالى من قوى.

(١) بحار الأنوار: ج ٤، ص ٣١٧، باب ٤.

(٢) ما بين المعقوفتين ليس في المصدر.

(٣) روضة الواعظين: ص ٣٦.

فمن السخافة إن أراد الإنسان أن يعلم كيف أعطاه الله هذا المقدار من الفكر، وكيف هو علم الله، وكيف قدرته، وكيف يقول للشيء كن، فيكون... وهو لا يحمل إلا هذا الشيء القليل المحدود من الفكر بفضلته تعالى. وإذا سلط الله على عقله جرثومة ضئيلة لأمسى مجنوناً ومهزلة للناس أجمعين. ألا إن الله يمهل ويؤخر هؤلاء المغرورين من الماديين المتحجرة عقولهم: (تلك العقول التي كانت مضيئة بالفطرة)، لظلمات في النفس، جاءتهم بسبب المعاصي الكثيرة، يؤخرهم: ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ^(١) فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ^(٢)﴾ مَقْنَعِي^(٣) رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ^(٤) وَأَفْنَدْتُمْ هَؤُلَاءِ ﴿إِبْرَاهِيمَ: الْآيَاتَانِ ٤٢/٤٣﴾. وهو القائل: ﴿فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يَأْتِيَ الْيَوْمَ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْنَاثِ^(٥) سَرَّاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصْبٍ يُؤْفَضُونَ^(٦)﴾ ﴿٤٤﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِفُهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المعارج: الآيات ٤٢/٤٤].

يقول الإمام محمد الباقر، الإمام الخامس عليه السلام: «ما سمي (يعني الله تعالى) عالماً قادراً إلا لأنه وهب العلم للعلماء والقدرة للقادرين. وكلما ميزتموه بأوهامكم في أدق معانيه فهو مخلوق مصنوع مثلكم مردود إليكم»^(٧). ومعنى ذلك أن هذا الإنسان الناقص يتصور تبارك وتعالى كملاً يتناسب مع نقصه. لأن الناقص لا يترشح منه إلا شيء ناقص. كما أن الكامل وهو الله تعالى لا يترشح منه إلا الكمال. فكلما فكر الإنسان في الله تعالى لا يتجاوز تفكيره حدوداً معينة محدودة نقل عن الواقع مسافات لا تحُدُّ. فافكارنا بشأن عظمة الخالق، أفكار ناقصة مخلوقة من قبلنا مردودة إلينا، لا توافق الواقع في شيء.

(١) تشخص: تفتح فيه الأبصار فلا تغمض هولاً وفزعاً.

(٢) مهطعين: مسرعين.

(٣) مقنعي: رافعيها إلى السماء.

(٤) طرفهم: أي لا تطرف أعينهم بل تبقى شاخصة.

(٥) الأجداث: القبور.

(٦) إلى نصب: إلى كل ما ينصب للعبادة. يوفضون: يسرعون.

(٧) بحار الأنوار: ج ٦٦، ص ٢٩٢، باب ٣٧.

وقال بعضهم: لعل النمل الصغار تنوهم أن الله تعالى زبانيين، لأنهما كمالها، وتتصور أن عدمهما نقصان. هكذا حال بعض الناس في وصف خالقهم!

قد اختلف جماعة من اللاهوتيين والأخلاقين والعقليين والماديين في ما هم عليه من عقائد ونزعات. فأحبوا أن يتحاكموا إلى (أينشتاين) ليروا رأيهم في الله جلّ جلاله. فأجاز لهم أن يمكثوا عنده ١٥ دقيقة لكثرة أشغاله. فعرضوا عليه سؤالهم قائلين: ما رأيك في الله؟

فأجاب قائلاً: «لو وفقت أن أكتشف آلة تمكّني من التكلم مع الميكروبات، فتكلمت مع ميكروب صغير واقف على رأس شعرة من شعرات رأس إنسان وسألته أين تجد نفسك؟ لقال لي: إني أرى نفسي على رأس شجرة شاهقة، أصلها ثابت وفرعها في السماء. عند ذلك أقول له: إن هذه الشعرة التي أنت على رأسها إنما هي شعرة من شعرات رأس إنسان، وإن الرأس عضو من أعضاء هذا الإنسان. ماذا تنظرون؟ هل لهذا الميكروب المتناهي في الصغر أن يتصور جسامة الإنسان وكبره؟ كلا، إني بالنسبة إلى الله تعالى لأقل وأحط من ذلك الميكروب بمقدار لا يتناهى. فأنى لي أن أحيط بالله الذي أحاط بكل شيء بقوى لا تتناهى وعظمة لا تحدّ».

فقام هولاء المتشاجرون من عند (أينشتاين) وعلموا أن الحق مع جماعة اللاهوتيين. إنه تعالى يقول: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: الآية ١٠٣]. وفي آية أخرى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطاً﴾ [النساء: الآية ١٢٦].

إن المادي هو مصداق هذه الآية المباركة: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾^(١) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ^(٢) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ^(٣) [العاديات: الآيات ٨/٦].

ما أعظم ما يقوله الإمام علي عليه السلام حين يصف عظمة الله تعالى بقوله: «الحمد لله

الذي لا يبلغ مدحته القائلون، ولا يحصي نعماءه العادون، ولا يؤدي حقه المجتهدون. الذي لا يدركه بُعد الهمم، ولا يناله غوص الفطن، الذي ليس لصفته حدٌ محدود، ولا نعت موجود، ولا وقت معدود، ولا أجل ممدود^(١).

مالبرانش: (Malobranche) (١٦٣٨ - ١٧١٥) فيلسوف فرنسي موحد. له نظريات في التوحيد، لا بأس بذكر البعض منها:

إنه يقول: نحن ننقل من فكر إلى فكر، ومن تصور إلى آخر، ومن ممكن إلى ممكن، حتى ننتهي بوجود عظيم، ممتنع إدراكه تماماً لعظمته ويستحيل معرفته معرفة تامة لعدم تناهيه. ذلك لأن كل موجود من الموجودات (سواء) قائم به. أما هو، فمستغن عن أي مقوم. وهو قائم بذاته منذ الأزل. وهذا الوجود (أي الله تعالى) وجودٌ لا نهاية له.

إنه يقول: بما أنني باستطاعتي أن أتصور وجوداً لانهائياً، إذن وجب أن يكون هذا الوجود موجوداً، لأنه لا يمكن تصور شيء معدوم^(٢). إذن، ربنا غير متناه ولا يحده شيء. ذلك لأنني أستطيع أن أتصور اللانهائي بقدرته. فالله هو واجب الوجود.

إنه يقول: لا يمكن رؤية الله تعالى ولا فهمه حق الفهم ولا تفهيمه حق التفهيم. ويكفي في يقيننا أننا نؤمن بوجوده بآثاره.

إنه يقول: «نحن ندرك وجود الله بلا واسطة، حين أن الأشياء كلها (ما عدا الله تعالى) إنما تدرك به تعالى وبما أودعه الله من وسائل وأدوات. فلا حاجة لتجلي مفهوم الله تعالى في أذهاننا إلى واسطة أو أدوات. نحن لا نعرف الله بفكر وسيط. فإنه هو الفكر! وهو فكر الأفكار ومعطي الأفكار».

هذا ما يقوله مالبرانش: ولكن، انظروا إلى ما يقوله سيد الأوصياء أمير المؤمنين علي عليه السلام في هذا المقام في دعاء الصباح حين يخاطب ربَّ العباد. إنه صلوات الله عليه يقول:

(١) نهج البلاغة: ص ٣٩، خ ١.

(٢) خلافاً لما يقوله (فورباخ) المادي، حيث جعل ما هو دليل وجود الله دليلاً على عدمه، لظلمات في نفسه. وقد سئل صديق لي عن الدليل على وجود الباري. فقال: «سؤالك هذا خير دليل على وجود الله».

«يا من دلَّ على ذاته وتنزَّه عن مجانسة مخلوقاته وجلَّ عن ملائمة كفياته»^(١).
على أن لـ (مالبرانش) في القضاء والقدر ومسائل أخرى نظريات لا تتفق مع الواقع وما جاء في الدين الإسلامي. وأنى لفيلسوف لم يستق الحقائق من خزائن آل الرسول سلام الله عليهم أجمعين أن يصل إلى حقائق ثابتة غير متزلزلة.
إن (مالبرانش) يوافق صدر المتألهين صاحب الأسفار بقوله: «الوجود خير محض والشر أمر عديم».

فطوبى لنفوس لازمت التقوى وجانبت الآثام وسفاسف الأمور حتى المكروهات فتجلت فيها الحقائق بفضل منه تعالى واضحة جلية، لا غبار عليها ولا شكوك، فخرجت إلى عوالم القدس والحقيقة الأبدية...

فقد قال علي عليه السلام: «إن من أحب عباد الله إليه عبداً أعانه الله على نفسه، فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف، فزهر مصباح الهدى في قلبه»^(٢).

وطوبى لنفوس تطلعت إلى رحمت الله تعالى بإخلاص وخشوع وأعمال صالحة، فقد جاء في الحديث القدسي: «إن لربكم في أيام دهركم لنفحات، ألا فتعرضوا لها»^(٣).

لا تقاس الناس بالمال ولا بالجاه ولا بعلم لا يعمل به. بل تقاس بدرجة معرفتها خالقها أو بدرجة تزكيتها نفوسها. ولا تزكو النفوس إلا بالتقوى. فتتعرف إلى الخالق سبحانه بدرجة ما تقوم به من تزكية. ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: الآية ١٣]. وفي الحديث: «رُبَّ أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه به، لو أقسم على الله لأبره».



إن مقياس الكمال عند الماديين هو: المادة!.. فمن كانت مادته من حيث المال والجاه أعظم، كان إلى الكمال أقرب. لذلك يخاطب (فرعون) قومه، هؤلاء الذين

(١) دعاء الصباح لأمر المؤمنين مفاتيح الجنان (٢) بحار الأنوار: ج ٢، ص ٥٦، باب ١١.

(٣) يُروى هذا الحديث عن النبي ﷺ.

ما أثمرت فيهم دعوة موسى ﷺ لفسقهم وفجورهم كما تخبرنا الآية الآتية: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِي أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰؤُلَاءِ آلُفْتُرُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٥١﴾ أَمَّا أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ۝٥٣﴾ فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ۝٥٤﴾ [الزخرف: الآيات ٥١/٥٤].

حين أنه لا قيمة للدنيا ولا للمادة عند الله تعالى، في مجالات التكامل. فإن النفس غير المادة بل تضاد المادة. «الدنيا والآخرة ضرتان». إلا أن المادة تؤثر في الكمال النفسي إذا وقعت وسيلة خير وعطف ورفع حاجة الآخرين لوجه الله. وفي الحديث: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة لما سقى الكافر منها شربة ماء»^(١). والكافر هو الجاحد لنعم الله، الذي لا يقوم بما أوجب الله عليه من واجب الشكر، من عبادات وأعمال صالحة. وهل هناك دين يعلم البشر كيفية القيام بواجب الشكر كدين الإسلام. ولذلك عُدَّ غير المعتقد لدين الإسلام وغير العامل به كافراً. ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝٨٥﴾ [آل عمران: الآية ٨٥].

يرى الأستاذ جب: «أن الإسلام ليس ديناً بالمعنى المجرد الخالص الذي نفهمه اليوم من هذه الكلمة. بل هو مجتمع بالغ تمام الكمال يقوم على أساس ديني ويشمل كل مظاهر الحياة الإنسانية».

ويقرر الأستاذ (برج): أن فلسفة الإسلام الاجتماعية تقوم دائماً على وضع المصلحة العامة فوق المصلحة الفردية. وذلك على عكس أوروبا التي تزعم أنها مسيحية. ويقرر في موضع آخر أن مبدأ الإخاء الإنساني هو أساس فلسفة الأخلاق الاجتماعية في الإسلام. ولذلك يؤكد الأستاذ أن ليس هناك مجتمع آخر سجل له التاريخ من النجاح كما سجل للإسلام في توحيد الأجناس الإنسانية المختلفة مع التسوية بينهم في المكانة والعمل وتهيئة الفرص للنجاح في هذه الحياة. ويرى الأستاذ أن لا بد لأوروبا أن تتعاون مع الإسلام في سبيل تقدمها الروحي والثقافي.

هل هناك تولد ذاتي

قد برهنت العلوم الطبيعية على أن ليس للبيئة أو الطبيعة أدنى أثر أو تأثير في خلق البشر أو الكائنات الحية، وإن الكائنات الحية برمتها قد وجدت بالقدرة الإلهية المتجلية في فعالية النطفة والعوامل الوراثية (جينات Genes) والكروموزومات.

إن ثلثة من الناس (ومع الأسف) كانوا يظنون أن البيئة هي الخلاقة لبعض الحشرات أو الحيوانات. وكانوا يعتقدون أنه لو وضعت لبنتان نديتان إحداهما فوق الأخرى، تتولد بعد مدة يسيرة عقارب كثيرة بينهما.

إن هذه العقيدة كانت سائدة من لدن عهد (أرسطو) إلى القرن السابع عشر. وإن بعض الناس لا يزالون يعتقدون أن الديدان والضفادع والعلق تولد من تلقاء أنفسها في اللحوم الفاسدة العفنة أو في المياه التنتنة الآسنة. ويظن البعض أن البيئة هي الخالقة لهذه الكائنات الحية، وهذا ما يسمى بنظرية التولد الذاتي: (Generation spontanee).

كما أن البعض يظنون أن (الأمبيات) أو الكائنات الحية ذات الخلية الواحدة والأسماك والقواقع وغيرها إنما تتولد في المياه بتأثير حرارة الشمس وضوئها ومواد أخرى موجودة في الماء. ودليلهم على ذلك أن السمكة لو أخرجت من الماء، فإنها تموت حالاً.

ولقد برهن العلم الحديث على أن البيئة ليست بخلاقة للحياة وإنما هي عامل مساعد للنمو واستمرار الحياة. فقد أثبت (ردي Redi) سنة ١٦٨٨ م، بعد إجراء تجارب عدة عميقة. أن الديدان التي تتولد في اللحوم العفنة إنما تتولد من بويضات الذباب الموجودة في اللحوم، ولولا هذه البويضات لما وجد كائن حي.

كان يقول الطبيب البلجيكي (وان هلمونت van Helmont) قبل (٣٥٠) سنة: أنه لو ملئ كوز بالدقيق وسد فوهة الكوز بقماش بالٍ ملوث عتيق، فإن الفأرة تتولد في وسط ذلك الدقيق. وأن هذه الفأرة تأخذ بالتوالد بعد ذلك شيئاً فشيئاً.

إلا أن (ردي) فند هذه النظرية: بأن جاء بدورق زجاجي ذي عنق ملتوٍ طويل، بعد أن

وضع فيه قطعة لحم، فعقم داخل الدورق وسد فوهته سداً محكماً. وجاء أيضاً بدورق آخر وضع فيه قطعة لحم ولم يسد فوهته، فرأى أن الديدان تتولد في اللحم الذي وضع في الدورق المفتوح فقط بسبب ما تضعه الذباب من بويضات على اللحم. وقد أجرى هذه التجربة مع لحوم مختلفة ومتنوعة فرأى أنه يتولد نوع واحد من الذباب مهما اختلفت اللحوم وتنوعت، وفي نوع واحد من اللحم تتولد أنواع مختلفة من الذباب لاختلاف البويضات التي تقع على ذلك اللحم من الخارج. فأثبت بهذه التجربة أن التوالد الذاتي فكرة سخيفة وأن التولد لا يكون إلا عن بويضة سابقة أو تلقيح سابق: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاَسْتَحْمِلُوا لَهُ؟ إِنَّكَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْأَلُهمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج: الآية ٧٣].

ثم إن (ليون هوك Leewen Hoek) اكتشف المجهر (Micro-scope) واكتشف بذلك الميكروبات (الجراثيم الحية) التي لا ترى بالعين المجردة. وضع (ليون هوك) قطرة ماء تحت مجهره فرأى أن الأحياء المجهرية (الابتدائيات ذات الخلية الواحدة) تسير في هذه القطرة يميناً ويساراً. فأدى ذلك إلى تنازل الماديين عن رأيهم السابق بالنسبة إلى تكوّن الحيوانات والحشرات من البيئة أو بتأثير البيئة والمحيط. ولكنهم أخذوا يقولون بعد ذلك أن الميكروبات والكائنات الحية تتولد من تلقاء أنفسها في المياه العفنة. ولقد حدث شجار عنيف بين الموحدين والماديين (Materialistes) منذ سنة ١٦٧٦م. وهي السنة التي أثبت فيها (ليون هوك) أن ليس في المطر (حين تحول البخار إلى سائل) كائنات حية، وإنما تدخل فيه كائنات حية حين هطوله وملاقاته (أي المطر) الأرض واختلاطه بالغبار والتراب. واستمرت إلى سنة ١٨٧٦م وهي السنة التي أيد فيها تندال (Tyndall) نظرية هوك. حتى جاء (باستور) وبرهن بصورة قطعية، أن لا تولد ولا توالد إلا من كائنات حية سابقة وأن الكائنات الحية هي موجودات مستقلة تدخل في المطر من الخارج عند هطوله أو بعد سقوطه على الأرض وليس للبيئة أن تولد شيئاً حياً. ففتنت نظرية التولد الذاتي تفنيداً قطعياً. مع ذلك، جاء (برتلو Berthelot) فادّعى أن الكائنات الحية (Bacteris) التي تحصل نتيجة تخمير العنب إنما هو أمر مادي وليس

هناك موجودات حية سابقة كانت سبباً لوجود هذه الكائنات الحية . وقال بالتكوّن الذاتي (Auto dynamisme) أو الحركة الذاتية . ولكن (باستور) قام بتجربة على أشجار العنب تشبه تجربته السابقة من حيث التعقيم ومنع تسرب كائنات حية من الخارج . فرأى أنه لا تحصل (باكتري) أو جراثيم للتخمير . وأن (الخلايا Cellules) التي توجب التخمير إنما تقع على حبات العنب من الخارج قبل النضج والحلوان بأيام وليس للبيئة أن تولد شيئاً حياً أبداً .

لكن الماديين ما برحوا يتهزون الفرص لإثبات نظريتهم السقيمة . حتى إذا اكتشف المجهر الإلكتروني (Microscope Electronique) وتمكن العلماء من معاينة الجراثيم ما بعد الذرية (Ultravirousses) التي كل واحدة منها أصغر من حبة الدخن (٧٠٠٠٠) أو مائة ألف مرة ، أخذوا يقولون : «إن هذه الجراثيم إنما تتولد من المادة الميتة نفسها وليس هناك عامل حيوي أو موجود حي سابق تولدت منه وأن الأحياء المرشحة وما بعد المرشحة (Virus Ultra virus) «إنما هي مواد كيميائية سامة وليست هناك حيوية سابقة» . وتنازلوا عن القول بأن الفأرة تتولد من مادة ميتة! ولكنهم بقوا مصرّين على أن الحيوية إنما تأتي من الشمس على وجه الأرض وأن الأحياء المرشحة وما بعد المرشحة (الجراثيم ما بعد الذرية) هي مولودة المحيط والبيئة وأن البيئة (الجامدة الصماء) هي المولدة لها!«

إلا أن علماء الأحياء برهنوا على فساد هذه النظرية أيضاً بتجارب دقيقة أخرى ، وأخفق الماديون إخفاقاً نهائياً ، وعُلم أن كل كائن حي إنما يتولد من كائن حي آخر أو بانتقال النطفة بالتلقيح .

إذا كانت نظرية التولد الذاتي صحيحة وأن التفاعل الكيميائي وأشعة الشمس وذرات ألفا وكاما وأمواج كاسميك وما فوق البنفسجي وآزوت وبخار الماء وغيرها تكفي لحدوث الحياة على وجه الأرض دون خالق للحياة والحيوية لزم أن نرى رأس قرد مثلاً يتشكل في القفار والصحارى بصورة تدريجية ، ثم تتشكل له ساق فأطراف وهكذا . . . فعلم من كل ذلك أن ليس للبيئة أن تخلق كائناً حياً وأن الحيوية شيء قد جاء من

الخارج وليس بأمر مادي بحت. وأن الله تبارك وتعالى هو الذي خلق الكائنات الحية وأعطاهها نفساً وروحاً بقدرته ولا يمكن إدخال النفس والروح في المعادلات الكيميائية أو التحليلات الرياضية. ﴿وَسَخَّلُونَا لِلرُّوحِ قُلُوبًا أَلَمْ يَخْلُقْكُمْ مِنْ عَلَقٍ وَإِنَّهَا غَلِيظَةٌ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبُّهُمْ﴾ [الإسراء: الآية ٨٥].

وزيادة في التوضيح نقول: إنا لو ملأنا حوضاً كبيراً بالماء واتخذنا الاحتياطات اللازمة لعدم دخول بويضات السمك أو الضفدع فيه، فلا نشاهد، مهما نظرنا، سمكة أو ضفدعاً في ذلك الحوض وإن طالت الأعوام. مع أن الشمس على ما يعتقد الماديون. (إنها أساس الحياة وموجدها) تعمل عملها وترسل أشعتها. ولكنها غير خالقة للحياة، بل الشمس عامل من عوامل النمو واستمرار الحياة على هذا الترتيب الذي نراه.

إن الماديين، هذه الطبقة الجاحدة وجود الخالق! يحاولون أن يجعلوا العوامل الطبيعية المادية مبدأً وسبباً للحياة والحياة. إلا أن العلم يخالفهم في طيشهم وهذيانهم وضلالهم وهم ينسبون (مع الأسف) نظرياتهم الفاسدة إلى العلم. والعلم من ذلك براء. وكم من أشياء ينسبها هؤلاء إلى العلم ويدعون أنها نتيجة درس وتمحيص علمي والعلم بعيد عنها كل البعد. ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِنَّ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: الآية ٤٦] ويراد بها النفوس.

وما يقال عن تبديل الطاقة بالمادة (Materialisation) إنما هو في النواحي المادية فحسب. إن الطاقات المادية، الكهربائية أو الحرارية أو الحركية. وغيرها تتكدر فتشكل مادة، وهذا لا يعني أن هذه الطاقات المشعة مثلاً من الأورانيوم أو الراديوم تتكدر فتولد حيوية وروحاً ونفساً. وقد ثبت في الفلسفة أن الخلية (Cellule) إنما تتولد من خلية حية أخرى إذن ثبت أن الروح من أمره تعالى. ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: الآية ٨٥].

يستنتج مما تقدم أن المادة لا عقل لها كي ترتب وتنظم ولا منطق لها لتفكر في مستقبل الأشياء وما تحتاجه. وما أعظم قوله تعالى حين يقول:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ

لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرْزَأْ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُنْسِكُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ [النحل: الآيتان ٧٨/٧٩].

وما القمر الصناعي إلا نتيجة فكر أودعه الله في بعض عباده ومواد وعناصر أودعها الله في أرضه وتوالي أيادي كثيرة من العلماء منذ ٤٠٠ سنة قبل الميلاد إلى يومنا هذا . وهل قوليل هذا الفوز والاكتشاف بالشكر؟ ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سَبَأ: الآية ١٣] .

ولقد قالوا: إن المثل العليا تابعة إلى ما يحدث من نظم اقتصادية وكذا الحياة الاجتماعية نتيجة من نتائج الوضع الاقتصادي!، وهكذا تسافلت البشرية نفسياً بسبب تركها ما أمر الله به على لسان أنبيائه ﷺ حتى صارت لا تؤمن إلا بالمادة وما يحقق شهواتها . فأمست فلسفتها فلسفة بهيمية ، فلسفتها أن تقول: «لا تهمني أخلاق فلان وإنما تهمني أعماله» . حتى أمست تعتقد أن هنالك تنافياً بين ركوب الطائرة أو الاستماع إلى المذيع أو النظر إلى التلفزيون^(١) ، وبين السمو بالنفس إلى أعلى مراتب الكمال حسب ما رسمه الله لنا في قرآنه الكريم .

حتى أمست أمريكا بلد الحرية الشخصية المطلقة! والبلد الذي نادت بفصل الفضائل والأخلاق عن الحياة العملية تفصل ٣٣ موظفاً في وزارة خارجيتها لإصابتهم بالشذوذ الجنسي! لأن هؤلاء لا يمكن ائتمانهم على أسرار الدولة! حتى أمسى الولد الثري لا ينفق على أبويه العاجزين!

حتى أن جلسة من جلسات الكونكرس (Congress) الأمريكي تتعطل ، لأن امرأة كانت تسكن في عمارة مواجهة للمجلس وقفت في شرفتها عارية تماماً ، لا يستر جسدها شيء ، فينشغل الأعضاء بفتنتها الشيطانية وتتعطل أعمال الدولة ، يرشما يبعث رئيس المجلس يرجو ، السيدة الفاضلة! تدخل غرفتها أو تكتسي شيئاً ، ليتسنى للمجلس أن ينظر في سياسة العالم . حتى تأتي فتاة أمريكية إلى باريس فتتزع ثيابها كاملة وتضعها في حقيبة لها يدوية وتمشي وهي عارية في شوارع باريس لثري الناس الدرجة التي وصلت إليها أمريكا في الحرية والتقدم الخلقي!

(١) في ما لا يثير الشهوات ويؤدي إلى تسافل النفس وترك ذكر الله تعالى من أغاني ومناظر .

كل ذلك بسبب هذا الاختلاط البريء! والانتهاه إلى فساد وإفساد في الأرض .
﴿وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ (المؤمنون: الآية ٧١) .

فطوبى لنفوس اتبعت الحق والواقع وترفعت عن أدراة المادة العمياء والمملذات المميتة للنفوس واستجابت لله وللرسول لما فيه حياتها وسعادتها في الدارين ، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (الأنفال: الآية ٢٤) .

تكاد لا تجد فيلسوفاً، درس الرياضيات العالية أو الفيزياء الرياضية العالية أو الفلك العالي وتوغل فيها، ملحداً ينكر وجود الخالق . فـ (بركسون) و (أينشتين) و (كاميل فلا مريون) وأمثالهم موحدون . ذلك لأنه عندما يرى أحدهم أن جميع أجزاء الكون مرتبطة بعضها ببعض بقوانين رياضية متقنة ، وأن الرياضيات مفتاح فهم ظواهر الطبيعة ، عند ذلك يعلم أنه لابد من عاقل قد ربط أجزاء هذا الكون بعضها ببعض . وأن هذا العاقل الجبار هو الله تعالى واهب الوجود ومرتب أجزاء هذا الوجود ترتيباً محكماً بقوانين رياضية رصينة لم يصل العلم الحديث إلا إلى جزء ضئيل وضئيل منها جداً .
لذلك كان يحاول (أينشتين) أن يستنبط من معادلة المجال المتواصل وحدها عموم الفيزياء بما فيها عالم الذرات والخصائص الكونية (Quantiques) .

وكان يقول : «لولا الاعتقاد الجازم بالنظام الباطن الذي يسود عالمنا ، لما قامت للعلم قائمة . فهذا الاعتقاد هو الدافع الرئيسي لكل اكتشاف علمي وسيبقى كذلك إلى الأبد» .
وهو القائل : «ما من شك ، أن كل بحث علمي عميق يقوم على عقيدة تشبه الشعور الديني ، مؤداه أن العالم مبتني على العقل ومن الممكن تفهمه» .

لكن الفلاسفة الذين رسبوا كثيراً في الرياضيات في تحصيلهم الابتدائي والثانوي وفروا من الرياضيات العالية لعدم فهمهم لها ، وإنما صاروا يذكرون اصطلاحات منها في كتبهم! ، أخذوا يصدرن أحكاماً جزافاً عن الكون دون إرجاعها إلى أصول ثابتة

رياضية ومبادئ عقلية عميقة وسموا اعتباراً نظرياتهم الفاسدة بل أهواءهم فلسفة؟ وجاؤا باصطلاحات جديدة لا يؤيدها العلم، فخدعوا العوام والسذج من الناس. إن هؤلاء الذين لا يقبلون نقاشاً لهذيانهم، صاروا يأخذون الفلسفة من وسطها ويبدوا واحدة؛ إن هؤلاء، بنفوسهم الملوثة وصفاتهم المذمومة وما يترشح من هاتين، شوشوا على الناس الحقائق الفطرية الحقة وأفسدوا على ثلثة من عباد الله عقائدهم بالمبدأ الأعلى. إنهم أخفقوا في النمو وكسب الشهرة والصيت في الأوساط العلمية، فعمدوا إلى ترويج الزيف والإلحاد وما يترشح من نفوسهم المتسافلة: «وكل إناء بالذي فيه ينضح».

- القصور الذاتي -

القصور الذاتي أو الاستمرارية: (Inertie) موضوع معروف في الفيزياء، يعترف به الفيزيائيون، وهو أن الجسم لو كان ساكناً لبقى ساكناً على حالته الأصلية، فلا يتحرك من تلقاء نفسه إلا بمحرك آخر، ومع ذلك يحاول أن يبقى على حالته السابقة. لذلك لو كنت جالساً في قطار ساكناً، والقطار ساكن وتحرك القطار بسرعة، تأخر القسم الأعلى من بدنك في متابعة حركة القطار عن القسم الملصق بسطح القطار. كل ذلك ليحافظ على سكونه أي على حالته السابقة. فإذا استمر القطار في حركته أخذ بدنك يتحرك مع القطار. فإن وقف القطار فجأة، فإن القسم الأعلى من بدنك ليحافظ على حالته السابقة (أي الحركة)، فيتحرك قليلاً إلى الأمام عند وقوف القطار فجأة.

مثال آخر إننا لو وضعنا فوق إناء (كأس) قطعة من المقوى (الورق السميك) ووضعنا على المقوى درهماً مثلاً، وسحبنا المقوى بسرعة نرى أن الدرهم لا يتابع الحركة الفجائية بل يحاول أن يحافظ على حالته السابقة أي على سكونه فيسقط في الإناء.

كان الأتراك يسمون القصور الذاتي بـ (العطالة). ذلك لأن كل جسم في ذاته عاطل لا يقوى على تغيير في ذاته، فالساكن ساكن إلى أن يحركه غيره والمتحرك يبقى على تحركه وعلى نفس السرعة التي يتحرك بها إلى أن تتدخل قوة، فتزيد من سرعته أو تنقصها. فالشيء بذاته عاطل لا يؤثر في نفسه كرجل عاطل لا خير فيه. ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكٌ

الْمَلِكُ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبْدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ [آل عمران: الآية ٢٦] .

يقول زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام في دعاء علمه أبا حمزة الثمالي، «ومن أين لي الخير يا رب ولا يوجد إلا من عندك، ومن أين لي النجاة ولا تستطاع إلا بك، لا الذي أحسن استغنى عن عونك ورحمتك، ولا الذي أساء واجترأ عليك خرج عن قدرتك»^(١). فالأشياء جميعها فيها قصور ذاتي، فلا تتمكن من أن تؤثر في نفسها. بل تبقى عاطلة أو محافظة على ما هي عليه من حالة سابقة، سكون أو حركة. فإذا كان علم الفيزياء يعترف بذلك، فما بال من يتصور للنبات والحيوان حركة تكاملية ذاتية من تلقاء نفسها! وأنها هي التي تكمل أعضائها بنفسها أو تنكامل من آميها حتى يكون قرداً! مثلاً مع اعترافه عند دراسته الفيزياء بالقصور الذاتي. ثم إذا كان الأمييا قد تكامل (ولا مؤثر ولا مكمل إلا الله) فصار دجاجة فما بال الأمييا نراه موجوداً ليومنا هذا مع اتحاد الظروف. ومن الذي أوجد الظروف وكيف وجدت، ومن جاء باختلاف الظروف. ومن الموجد لهذا الاختلاف؟

وإذا كان الإنسان (مع اعترافهم أن فيه عقلاً لا يدري كيف جهز به) هو نتيجة تكامل القرد، فما بال القرد موجود ليومنا هذا مع اتحاد الظروف، على أنهم يقولون: إن هناك حلقة مفقودة بين القرد والإنسان يجهلها العلم. فكيف تبنى النظرية على الجهل! وقد ثبت أن لا أثر للمحيط في إيجاد عضو ما.

وغني عن البيان أن محو الذنب عمل جبار لا يقوى عليه الإنسان العبقري، فكيف بهذا القرد الذي لا يتمكن من دفع أقل مكروه عن نفسه. ولما لم يجهز القرد نفسه بوسائل من الدفاع إذا كان يستطيع أن يخلق أعضاء ويغير أعضاء ويحذف أعضاء. ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: الآية ٤٣] .

وأما ما يقال عن الطفرة (Mutation)، فإن موهلاتها وموجباتها وإمكانياتها إنما جاءت من الخارج. ثم إن كانت هذه الطفرة هي من تلقاء الكائن الحي، فلم لا يغير

(١) دعاء أبي حمزة الثمالي للإمام زين العابدين عليه السلام يراجع كتب الأدعية.

هذا الكائن الحي في جسمه ما يزيل به عنه حاجاته، ولم لا يجهز نفسه بأعضاء يقوى بواسطتها على النظر والسمع... الخ، أكثر مما هي عليه الآن كي لا يحتاج إلى صنع آلات يستعين بها في إبصار ما لا يبصر بعينه المجردة، كالتلسكوب والميكروسكوب... الخ. إن الله تعالى يقول: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْتَبِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل: الآيتان ٦٨/٦٩].

ولكن الإجمام والمظالم تسد على الإنسان أبواب الاعتبار بآيات الله والتدبر والتفكر، فيعزو الخوارق إلى الطبيعة العمياء الصماء: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنعام: الآية ٢١].

فالظالم هو الذي سد على هذا البشر المجرم الباغي آفاق الاهتداء، فصار يفترى على الله الكذب ويكذب بآياته وكتبه ورسله. فلينته عن إجرامه من يشك، أن ترك الإجرام وأن الإنابة والاستغفار والأعمال الصالحة تفتح على الإنسان أبواب الهداية، ليرى كيف تتفصح عنه الشكوك، فيعود الإيمان الفطري إليه وتطمئن نفسه بما أنزل الله من آيات. ﴿أَلَا يَنْكَرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: الآية ٢٨].

عرفت رجلاً قد لوث نفسه في صباه وفي شبابه وفي شيخوخته، ولم يوفق إلى التكفير عن الذنوب ولا إلى توبة ما. إنه لم يدع منكراً إلا وقد ارتكبه.

كان مجموعة ظلم وبغي وجشع، فصرت أتبع حياته، وإذا به أمسى جرثومة فساد، ينكر وجود البارئ جلّ جلاله، ويستدل على ذلك بأدلته الواهية. ﴿ثُمَّ كَانَ عَقِيبَ الَّذِينَ اسْتَفْتُوا الشُّرَاطَ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الرؤم: الآية ١٠]. ولكن الله أراد أن يعذبه في الدنيا (ولعذاب الآخرة أشد). فحكم عليه بالإعدام، فطلب وهو في السجن مصحفاً يتبرك به ويجعله شفيماً لينجو من العقاب، ﴿الَّذِينَ وَقَدَّ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس: الآية ٩١]، ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يُتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٧٧﴾﴾ [يونس: الآية ٧٧].

الْتَوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ [النساء: الآية ١٧/١٨].

أعدم هذا الطاغى وقد شوهد وجهه على المغتسل مسوداً كريهاً بعد أن كان أبيض ناصعاً. ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: الآية ٦٠].

وكم شوهد من أشخاص حالة الاحتضار اسودت وجوههم بسبب أعمالهم في الدنيا وما يحملونه من عقائد فاسدة، وكم شوهد أشخاص ابيضت وجوههم حالة الاحتضار، ﴿سَعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَنْفِهِمْ﴾ [الحديد: الآية ١٢]. وفي الحديث: «الناس قيام فإذا ماتوا انتبهوا».

فالفيلسوف أو المتبع هو ذلك الذي يعقب بدقة حالات بعض الناس وأعمالهم من خير وشر دونما تجسس، يتتبع ذلك في أدوار الحياة المختلفة ليرى كيف أن الجرائم والموبقات والتزوات تؤدي إلى انسحاب الفطرة وزوال العقيدة فالإلحاد، فالزندقة.

ولقائل أن يقول: لو بلغ هذا الفيلسوف مرتبة من التسافل وضعة في النفس حتى أمسى في نظره المنكر معروفاً والمعروف منكراً، لا يستطيع إذ ذاك، القيام بهذه التجربة كي يوفق بين عقيدة الإنسان وسلوكه! . لأنه قد بلغ حداً من التردى حتى ضاعت لديه الموازين، ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [التين: الآية ٦/٥].

نعم، قد يبلغ بالشخص التسافل مرتبة لا يشعر معها بما هو فيه من تردٍ مريع. فيأتي دور الاستهزاء بمن لا يوافقه في سلوكه وهذيانه فيصمه بالخرافة والرجعية والجهل!

أسفاً على بعض أفراد هذا البشر حين يسمي أحدهم المعارف الإلهية والتدبر في آيات الله الكونية جهلاً وخرافة!!

إنها لعمرى فلسفة شيطانية! فلسفة رجعية! ترجع بالفرد إلى جاهلية الجهلاء. فيظن، بل يوقن قد بلغ من التفكير والوصول إلى الواقع مرتبة لا تقبل الرد والنقاش! ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَمْ نُورًا يَمْشِي يَوْمَ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٢].

معالجة الشكوك

لا يخلو شخص من شك في حياته عدا الأنبياء والمعصومين عليهم السلام. وما جاء في القرآن من آيات بهذا الشأن ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: الآية ٩٤] إنما هو إزدیاد اليقين وتنبيه الآخرين. ذلك لأنه ليس هناك أحد عدا المعصومين عليهم السلام إلا وقد أذنب في حياته ذنباً، من غيبة أو نسيمة أو كذب أو بهتان أو افتراء أو ازدراء لأخيه المؤمن أو كبر أو حسد أو بخل أو لهو أو فسق أو أكل مال الغير أو الربا أو غير ذلك. وإن هذه الذنوب لها أثرها الفعال في تحريف النفس الإنسانية عن الفطرة. وإن الشيطان أيضاً لعامل مهم في هذا المضمار. يملئ على الإنسان، إن سيطر عليه بسبب ذنوب اقترفها، أنواع الريب والشكوك. وقد قال الله تعالى عنه، ﴿وَالضَّلَائِلُ لَهُمْ وَلَا أُمْنِينَ لَهُمْ﴾ [النساء: الآية ١١٩]. وفي موضع آخر، ﴿لَا زَيْنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا غَوِيَّةٌ لَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: الآية ٣٩]. فمن خالف الشيطان في إغوائه اهتدى ومن وافقه هلك، ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٣٠]. إلا أن المادي لا يعترف بوجود الشيطان مع اعترافه بأشياء كثيرة لا ترى بالحواس كالأمواج الهرتزية والإلكترونات على ما هنالك. وكذلك لا يعترف المادي بوجود الجن وما هو غير مادي، مع اعترافه بقوة الجاذبية والكهربائية والعقل الإنساني.

لقد قال لي صديق وكان ممن يحرص على الدين ويتوجه إلى الحق إن من الأدلة القطعية على أحقية ما أنا فيه من عقيدة إسلامية ومبدأ صحيح، ما يعتريني من شكوك من حين لآخر. كان يقول، «إنني أشك في معتقداتي في وجود الحجة القائم المهدي عجل الله فرجه، أشك في النبوات إلى ما هنالك، فيصيبني حزن وانقباض عميقين وأشعر بكآبة لا أستطيع وصفها. وأعلم إذ ذاك أن شيطاناً يريد أن يغويني ويزيل عني ما أنا فيه من حسن العقيدة والمبدأ. فاستغفر الله من ذنوب أدبرت لذاتها وأقامت تبعاتها، أَدْعُو الله بفنون الدعوات، أَتَصَدَّقُ وأصلي وأصل رحمي وأقوم ببعض الأعمال

الصالحة وإذا بالشكوك تنكشف وتزول ويصيبني بعد ذلك فرح وابتهاج عميق .. كان يقول هل رأيت أحداً من أهل الباطل أصابه شك في ما يعتقد. ذلك لأن الشيطان يرتضي له ذلك ويؤيد له ما هو فيه. كان يقول: إنني عاشرت أصحاب عقائد فاسدة، وسبرت أعمالهم فعلمت أن أعمالهم تلك، هي التي أوصلتهم إلى هذه العقائد المنحرفة عن الحق، وكنت أرى أنه لا يصيبهم شك في ما يعتقدون من عقائد منحرفة عن الحق، ما داموا لم يزكوا أنفسهم وما داموا ملوثين. وقد ترى شخصاً يحمل عقيدة صحيحة وعمله عمل لا يتفق وما أمر به الشرع، فهذا لا يخلو من حالتين. إما له أعمال صالحة سرية لا نعلمها تربو على عمله الفاسد، ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: الآية ١٠٢]. وإما هو سائر نحو الظلمات بعد قليل ومآله الخسران. على أن هناك أيضاً عوامل أخرى ضمن رحمة الله وعدالته وعظيم فضله، لا نعلمها.

لا أعلم، هل قام علماء (آثار) النفس بهذه التجربة الروحية الخطيرة؟ كل فرد من أفراد الإنسان يصيبه في حياته شك أو شكوك، ذلك لأنه لا يبقى على حالة واحدة من التقوى والورع واجتناب المعاصي. فهو في شبابه غير ما هو عليه في وقت آخر. وقد يكون في شيخوخته منحرفاً عن الحق وفي شبابه متوجهاً إلى الحق. ولكن قلّ من يفكر في الأسباب فيعالج نفسه معالجة تؤدي به إلى النجاة والزلفى.

نعم، لا منجى لأحد من شك أو شكوك، قليلة أو كثيرة. تتوارد هذه الشكوك برهة ثم تختفي إذا عقب هذه الشكوك استغفار وعبادات وأعمال صالحة. فإذا طهرت هذه النفس بما يطهرها من مأكّل حلال طيب وأداء للحقوق من زكاة وخمس وإنفاق، وصلاة مقبولة والتجهد جوف الليل والتضرع والبكاء ندماً على الذنوب، وبرّ الوالدين وصلة الرحم وقضاء حوائج المؤمنين والاستغفار والتسبيح وذكر الله تعالى في كل حال، يقوى عند ذلك الإيمان، فلا يزحزحه شيء ويبلغ من اليقين مرتبة لا تؤثر فيه تسويلات الشياطين من الجن والإنس ووساوسهم. لذلك، يقول الإمام علي عليه السلام «لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً»^(١).

فلا ينبغي أن يرتبك الشخص عندما يختلج في نفسه بعض الشكوك. بل عليه أن يبادر حالاً إلى تطهير نفسه والتكفير عن ذنوبه. عليه أن يفتش عن نفسه وعن أعماله في ذلك اليوم أو في ذلك الأسبوع أو الشهر، أو السنة. هل كان ظالماً لأحد؟ هل اغتاب أحداً. هل كان عاقاً^(١) لوالديه. عليه أن يعالج ما أعوج من سلوكه الديني. فإذا فعل ذلك يرى جلياً أن ما اعتراه من شكوك ينقشع رويداً رويداً.

إن طريق الحق واحد وطرق الباطل متعددة، وقد أراد رسول الله ﷺ ذات يوم أن يفهم أصحابه ذلك. فحفظ لأصحابه خطأ وقال: «هذا سبيل الله». ثم خط خطوطاً عن يمينه وشماله. فقال: «هذه سبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه». ثم تلا قوله سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: الآية ١٥٣]. ولما كانت النفس ميالة إلى الشهوات وإلى الباطل، لذلك كانت طرق الشيطان موافقة لميول النفس ومتعددة ومفتوحة. فما على الإنسان إلا أن يعرض ما يختلج في ذهنه على كتاب الله وسنة نبيه وأقوال الأئمة المعصومين عليهم السلام، ويتذكر عظيم حق الله وجزيل ثوابه وشديد عقابه. ويتذكر أن الصبر على هذه الوسوس أسهل من الصبر على نار جهنم. ويتضرع إلى الله تبارك وتعالى في أن ينجيه من هذه الوسوس بأعمال صالحة ويوفقه إلى إنجازها ويكثر الذهاب إلى بيوت الله (المساجد) ومراقدة أهل البيت عليهم السلام، ويكثر من ذكر الله، لأن ترك الذكر يؤدي إلى وسوسة الشيطان على حد قوله تعالى ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: الآية ٣٦].

وقد جاء في حديث عن الرسول ﷺ: «إن الله ليبغض العبد الفارغ»^(٢). ذلك لأن الشاب إذا فرغ من عمل مفيد تسلط عليه شيطانه، فأوقعه في المهالك. وما أكثر ذلك: إن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة فلو اجتمع شبان كل حي في محل كل ليلة أو ليلة واحدة في الأسبوع على الأقل واستمعوا إلى مواعظ وإرشادات دينية تثلج الصدور وتبعث الإطمئنان إلى النفوس لرأوا

(١) عق الولد والده: عصاه وترك الشفقة عليه والإحسان إليه واستخف به.

(٢) عوالي اللآلي: ج ٣، ص ٢٠١.

أنفسهم في عالم قدسي جديد . وقد شاهدت أمثال هذه الاجتماعات في بعض المدن الإسلامية، فيها تهذيب النفوس وتطهيرها من برائن الضلال . ورأيت المداومين فيها يزدادون نوراً وإيماناً يوماً بعد يوم . كما أنه يجب تأسيس نوادٍ دينية، يداوم فيها الشبان . يتلقون فيها دروساً دينية، يصلُّون فيها أوقات الصلاة ويطالعون فيها صحفاً دينية، ويقومون في نفس الوقت بخدمات دينية ويكونون دعاة لبث حقائق الإسلام .

كيف تزول الوسوس

أولاً: بسد الأبواب العظيمة للشيطان في القلب وهي الشهوة والغضب والحرص والحسد والعداوة والعُجب والحقد والكبر والطمع والبخل والجبن وحب الدنيا وحطامها الزائل وحب التزيُّن بالثياب الفاخرة وخوف الفقر والتعصب لغير الحق وسوء الظن بالله وبالناس . فإذا سدَّت هذه الأبواب لم يجد الشيطان باباً منه إلى النفس الإنسانية .

ثانياً: تحلية النفس بأضداد ما ذكر، أي بكرائم الأخلاق وفضائل الصفات وملازمة التقوى والورع والاشتغال بالعبادة والمواظبة عليها .

ثالثاً: كثرة ذكر الله بالقلب واللسان فإن الذكر اللساني وحده لا يكفي في إزالة وسوس العدو الأكبر وهو الشيطان . ألا ترى أن الشيطان يهجم على الإنسان حين اشتغاله بصلاة يصليها لربه، فإن الشيطان يعمل بجِد ونشاط كبير لإغواء الإنسان وصرفه عن مناجاة ربه بقلبه . ولكن إذا طهر القلب من الأخلاق المذمومة أي إذا تخلَّى القلب عن الرذائل وتحلَّى بالفضائل ووافق الذكر القلبي الذكر اللساني وطرد الشيطان إذ ذاك . فلا مدخل له ولا مجال . ولا مواخذه على مجرد ما يخطر في قلب الإنسان من وسوس، فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: «يا رسول الله هلكتُ» . فقال له: هل أتاك الخبيث، فقال لك: من خلَّقك، فقلتُ: الله تعالى . فقال لك: الله من خلَّقه؟ . . . فقال له الرجل: «إي والذي بعثك بالحق، لكان كذا» . فقال: رسول الله ﷺ: «ذاك والله محض الإيمان»^(١) .

وفي حديث آخر أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، نافقت، فقال

(١) أصول الكافي: ج ٢، ص ٤٢٥، باب الوسوسة .

رسول الله: «والله ما نافقت! ولو نافقت ما أتيتني تُعلمني ما الذي رابك؟... أظن أن العدو الحاضر أذاك، فقال لك: مَنْ خلقت!... فقلت: الله تعالى خلقتني... فقال لك: مَنْ خلق الله؟

فقال^(١): إي والذي بعثك بالحق، لكان كذا... فقال إن الشيطان أتاكم من قبل الأعمال، فلم يقوَ عليكم، فأتاكم من هذا الوجه لكي يستزلكم. فإذا كان كذلك، فليذكر أحدكم الله وحده^(٢).

وسئل الإمام الصادق عليه السلام عن الوسوسة وإن كثرت، فقال: «لا شيء فيها. تقول: لا إله إلا الله». وعن جميل بن دراج، قال قلت للصادق عليه السلام: أنه يقع في قلبي أمر عظيم... فقال: «قل لا إله إلا الله» قال جميل: فكلما وقع في قلبي، قلت لا إله إلا الله... فيذهب عني^(٣).

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «وضع عن أمتي تسع خصال، الخطأ والنسيان وما لا يعلمونه وما لا يطيقونه، وما اضطروا إليه وما استكروهوا عليه والطيرة والوسوسة في التفكير في الخلق، والحسد ما لم يظهر بلسان أو يد»^(٤).

وإن الإنسان ليواخذ حتماً على أعمال القلوب من كبر وعُجب ورياء ونفاق. لما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنما يحشر الناس على نياتهم». وقد روي عن الإمام محمد ابن علي الباقر عليه السلام: «إن الله تعالى جعل لآدم في ذريته من همٍّ بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة. ومن همٍّ بحسنة وعملها كتبت له عشر (حسنات)، ومن همٍّ بسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه سيئة ومن همٍّ بها وعملها كتبت عليه سيئة»^(٥).

وهكذا يتجلى فضل الله ورحمته مع عباده المحسنين والمسيئين. وما أعظم قوله تعالى حين يقول: ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكَرُمَةٌ ذَرِيرٌ مُّيِّنٌ﴾ ﴿الذَّارِيَات: الآية ٥٠﴾.

(١) أي الرجل.

(٢) أصول الكافي: ج ٢، ص ٤٢٥، باب الوسوسة.

(٣) أصول الكافي: ج ٢، ص ٤٢٥، باب الوسوسة.

(٤) أصول الكافي: ج ٢، ص ٤٦٣، باب ما رفع عن الأمة.

(٥) أصول الكافي: ج ٢، ص ٤٢٨، باب من بهم بالحسنة.

ويفيد في إزالة الشكوك عدا القيام بملاقة ما اجترحت الأيدي من معاصي وآثام لاسيما إرجاع حقوق الناس إليهم، ما يلي:

- (١) قراءة سورة الناس (قل أعوذ برب الناس)، كثيراً. حتى في الطريق حال المشي.
- (٢) أن يقول لا إله إلا الله كثيراً، حتى محل عمله حين يفرغ من مراجعة الناس أو الكتابة.
- (٣) تلاوة سورة الإخلاص: (قل هو الله أحد) كثيراً. فإن الملائكة قد شيعت جنازة سعد بن معاذ (رضوان الله عليه) ومشى رسول الله خلف جنازته حافياً وأدخله قبره بيده المباركة، لأنه كان يواظب على تلاوة سورة الإخلاص ليل نهار.
- (٤) أن يقرأ كثيراً لاسيما في القنوت: «يا الله، يا رحمن، يا رحيم، يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك».

(٥) أن يقول عند عروض الشك: «هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم».

- (٦) وقد روي عن الصادق عليه السلام: يمسح الشخص بيده على صدره، ثم يقول: «بسم الله وبالله، محمد رسول الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. اللهم امح عني ما أجده» ثم تمسح بيدك على بطنك وتقول ذلك ثلاث مرات^(١).

(٧) ويفيد في إزالة الشكوك والوساوس الشيطانية أيضاً: غسل الرأس بماء السدر وشرب ماء نيسان والصوم ثلاثة أيام من كل شهر، أول خميس من الشهر وآخر خميس منه ويوم الأربعاء المصادف أواسط الشهر.

(٨) المواظبة على صلاة الليل (التهجد).

هذه تعاليم روحية ليس لمن لم يمارسها أن يشك في صحتها ويرتاب. وما عليه إلا أن يقوم بالتجربة حتى يرى اثر ذلك جلياً ولا توفيق إلا بالله ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [التحل: الآية ١٢٨].

أثر الذنوب في اتجاه النفس

ما من شيء يبعّد الإنسان عن الاعتقاد بالله وكتبه ورسله ويجعله يمقت الدين

والمتدينين ويزدريهم كالكبائر من الذنوب! . . فإن هناك علاقة متينة بين اتجاه النفس نحو الحق والواقع وبين طهارتها وخلوها عن المعاصي والآثام كما أن هناك رابطة قوية بين توجه النفس نحو العقائد السخيفة والإلحاد والزندقة، وتوغلها في كبائر الذنوب والآثام. وإن هذا الموضوع من أهم المواضع التي يجب على علماء النفس أو بالأحرى علماء آثار النفس أن يبحثوا عنها ويرسموا لها خطوطاً بيانية ومنحنيات تقريبية! فإن الإيمان يتغير حسب كثرة الآثام. وقتلتها بنسب لا يعلمها إلا الله. إن الفيزيائي يرى علاقة متينة بين التعجيل الأرضي وزمن السقوط والمسافة التي يقطعها الجسم الساقط في زمن ما:

$$m = \frac{1}{2} - 20$$

وهكذا هناك علاقة متينة بين طول الرقاص والتعجيل الأرضي وزمن الذبذبة الواحدة للرقاص (في الفيزياء):

$$n = 2 \sqrt{\frac{L}{g}}$$

ولكن العلاقة بين توجه نفس الإنسان نحو خالقها وبين ما تقوم به هذه النفس من جرائم وموبقات لهي أقوى من العلاقات الفيزيائية أو الكيميائية بدرجة لا تقاس. قال الإمام علي عليه السلام: «من اقترف ذنباً فارقه عقل لم يعد إليه أبداً». فإذا انسحب العقل الطبيعي تدخل الشيطان فسؤل لصاحبه ما يريد من موبقات وعقائد باطلة. فقد جاء في الحديث: «العقل ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان»^(١). ويقصد العقل الفطري، ذلك العقل الذي لم ينسحب بسبب الذنوب والآثام.

وجاء في ما قال الصادق عليه السلام بهذا الشأن: «إن الرجل يذنب الذنب فيحرم صلاة الليل وإن العمل السيئ أسرع في صاحبه من السكين في اللحم»^(٢).

(١) أصول الكافي: ج ١، ص ١١، كتاب العقل والجهل.

(٢) أصول الكافي: ج ٢، ص ٢٧٢، باب الذنوب.

وقال الباقر (عليه السلام): «ما من شيء أفسد للقلب من خطيئة. إن القلب ليواقع الخطيئة. فما تزال به حتى تغلب عليه، فصير أعلاه أسفله»^(١). ويراد بالقلب هنا: نفس الإنسان. فالذنب حجاب بين العبد والمعبود.

وبسبب ذلك كله، يقوم المستعمرون وأعداء الإسلام بإدخال وسائل الفجور والفسوق ونشر الخمر والربا والفواحش والميسر ومجالس اللهو واللعب والرقص وغيرها في البلدان الإسلامية بأي ثمن كان، بالصحافة والإذاعة ودور السينما والملاهي والتلفزيون إلى ما هنالك... فينكب الشباب وغيرهم باسم الحرية على ارتكاب هذه الموبقات والمدنسات، فتتدنس نفوسهم وتظلم قلوبهم. فينسحب منها الإيمان الفطري رويداً رويداً ويأتي دور الاستخفاف والازدراء تحت عنوان الثقافة! والثقافة من كل ذلك بعيدة غاية البعد.

ولذلك يعمل علماء الدين أيدهم الله تعالى في إبعاد وسائل اللهو واللعب وما من شأنه تلوث النفس من موبقات وملهيات عن المساجد والمشاهد، حفظاً للنفوس من أن تتدهور إلى أسفل سافلين، فإن للبيئة أثرها الفعال في توجيه النفس. لذلك يقول الله تعالى:

﴿قُلْ يَعْبادُ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى

الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزُّمَر: الآية ١٠] فعلى المؤمن أن يهاجر إلى حيث يتمكن من إقامة شعائر دينه ويصبر على العناء لينال أجراً بغير حساب. ذلك لأن الإنسان إنما خلق ليتكامل. ولا تكامل إلا بتطهير النفس ولا تطهر النفس إلا بالعبادة (بما فيها من أعمال صالحة والقيام بالإحسان إلى الغير) وإقامة الشعائر الدينية. فوجب إذن أن يبذل المؤمن النفس والنفيس حتى يجد محلاً يتمكن فيه من إقامة شعائر دينه. ومن هنا وجب حفظ الأوطان وصيانة الثغور ما دامت هذه الأوطان تقام فيها الشعائر الدينية. فإن لم يتمكن من إقامة الشعائر الدينية فما عليه إلا أن يهاجر إلى حيث يتمكن فيه من إقامة الشعائر كما هاجر النبي ﷺ من مكة إلى المدينة. وهاجر قسم من المسلمين من مكة إلى الحبشة.

ونحن نذكر هاهنا بعض كبائر الذنوب وبعض الحدود ليكون المسلم على علم

منها فيتجنبها، ويتوب من أغواء الشيطان فارتكب البعض منها. فقد جاء في الحديث: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له».

ويحسن بالمسلم إذا أراد النوم أن يقول ثلاث مرات: «استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه». ويواظب عليه، فإنه يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه. ومن الكبائر ما يلي:

(١) الكفر بالله. وقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يَخْرِجُوهُمْ مِنَ التَّوْرِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٧].

(٢) اليأس من رحمة الله وروحه.. قد قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ يَأْتِشُّ مِنْ رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: الآية ٨٧].

(٣) الكذب على الله أو على رسوله أو على أوصيائه ﷺ: وقد قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْفَيْصَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الرؤم: الآية ٦٠].

(٤) قتل النفس التي حرمها الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: الآية ٩٣].

(٥) عقوق الوالدين^(١): إذ قال تعالى في كتابه المجيد عن عيسى عليه السلام ﴿وَبِرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْ جَبَّارًا شَفِيًّا﴾ [مريم: الآية ٣٢]. فالعاق هو الجبار الشقي. وقد قال تعالى: ﴿وَحَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [١٥] ﴿مِنْ ذُرِّيَّتِهِ جَهَنَّمَ رِيسًا مِّنْ مَّاوِي صٰدِيْدٍ﴾ [١٦] [إبراهيم: الآيتان ١٥/١٦]^(٢).

(٦) أكل الربا: «درهم ربا عند الله أشد من سبعين زنية كلها بذات محرم» كما جاء في الحديث. وقد قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْطِئُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: الآية ٢٧٥].

(١) الإساءة إليهما وعدم الإحسان إليهما. (٢) هو الصديد الذي ينزل من جلود أهل النار.

(٧) ترك الصلاة. إذ قال تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ۚ ﴿٧﴾ قَالُوا لَوْ نَك مِنْ الْمُصَلِّينَ ۚ ﴿٨﴾﴾ [المائدة: ٤٢ / ٤٣].

(٨) الزنى وحده مائة جلدة للمرة الأولى، وكذا مئة جلدة للمرة الثانية وفي المرة الثالثة: القتل. هذا في غير المحصن (غير المتزوج). إذ قال تعالى: ﴿وَلَا يَزْنِيَنَّ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۖ ﴿٩﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ۖ ﴿١٠﴾﴾ [الفرقان: ١٦ / ١٧]. وأما في المحصن فحده الرجم للمرة الأولى.

(٩) اللواط: وحده أحد أمور يتخير ولي الأمر (الحاكم) فيها. وهي إما القتل أو الرجم أو إلقاءه من شاهق تنكسر عظامه أو إحراقه بالنار. وهكذا يعاقب المفعول به أيضاً إن كان بالغاً مختاراً، وإن كان صغيراً عزر.

وقد جاء عن النبي ﷺ: «إن من قبل غلاماً بشهوة لعنته ملائكة السماء وملائكة الأرض وملائكة الرحمة وملائكة الغضب وأعد له جهنم وساءت مصيراً»^(٢).

(١٠) شرب الخمر والفقاع وكل ما كان مسكراً؛ إذ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَلْهَابُ وَالْأَزْلَمُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: الآية ٩٠]. وحده ثمانون جلدة عارياً على ظهره وكتفه ولو تكرّر الحد ولم يرتدع قتل في الرابعة. ولو شربها مستحلاً فهو مرتدٌ يجب قتله. ويستتاب بائع الخمر، فإن تاب، وإلا قتل.

(١١) إنكار ما أنزل الله تعالى.

(١٢) الأمن من مكر الله وبطشه.

(١٣) محاربة أولياء الله.

(١٤) معونة الظالمين والركون إليهم، إذ قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود: الآية ١١٣].

(١) إذا تاب بينه وبين ربه فقد تاب الله عليه. مع العزم على عدم العود أبداً والندم العميق على ما كان منه. ويجلد (القواد) خمساً وسبعين جلدة ويحلق رأسه ويشهر وينفى ويثبت بشاهدين عدلين أو بالإقرار مرتين. وأما السحق أو المساحقة فتجلد كل من الفاعلة والمفعولة مائة جلدة ولا يبعد الرجم مع الإحصان (أي بأن تكون ذات بعل).

(٢) مستدرک الوسائل: ج ١٤، ص ٣٥١، باب ١٨.

(١٥) قطيعة الرحم، إذ قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمّد: الآية ٢٢].

(١٦) الفرار من الزحف في الجهاد أو الدفاع الواجب. والزحف هو السير نحو العدو. إذ قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤَلِّمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقَبَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: الآية ١٦].

(١٧) شهادة الزور.

(١٨) كتمان الشهادة، إذ قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ مَاءٌ ذَرِيٌّ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: الآية ٢٨٣].

(١٩) السحر ويليهِ تسخير الجن والأرواح والكواكب، إذ قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سَلِيمٍ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ^(١) وَلَيْسَ مَا شَكَّرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: الآيتان ١٠٢/١٠٣].

(٢٠) اليمين كذباً. إذ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: الآية ٧٧].

(٢١) نقض العهد والنذر واليمين. وكفارة اليمين إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة. مخيراً بين الثلاثة. فإن عجز فصيام ثلاثة أيام متتابعة. وكفارة النذر أو العهد هي كفارة إفطار شهر رمضان. فإن عجز لجأ إلى الاستغفار.

(٢٢) أكل مال اليتيم. إذ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ آلَتَنِي ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: الآية ١٠].

(٢٣) أكل الميتة. إذ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ

لِيَغْفِرَ اللَّهُ فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٣﴾ [البقرة: الآية ١٧٣].
(٢٤) أكل الدم. للآية المتقدمة.

(٢٥) أكل لحم الخنزير. للآية المتقدمة.

(٢٦) أكل السحت. (المال الحرام).

(٢٧) الخيانة.

(٢٨) السرقة.

(٢٩) تنقيص المكيال والميزان. إذ قال تعالى: ﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا

عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين: الآيات ١/٦].

(٣٠) حبس الحقوق، كالخمس والدين وغيرهما.

(٣١) ترك الصوم مع القدرة.

(٣٢) الإضلال عن سبيل الله. إذ قال تعالى: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَمُ فِي

الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِسْمَةِ عَذَابَ الْعَرْسِ ﴿٩﴾﴾ [الحج: الآية ٩] ^(١).

(٣٣) التخلف عن الدفاع الواجب أو الجهاد. إذ قال تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ ^(٢)

بِمَقْعَدِهِمْ خَلَفَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾ [التوبة: الآية ٨١].

(٣٤) الإسراف والتبذير، إذ قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ

الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٧٧﴾﴾ [الإسراء: الآية ٧٧].

(٣٥) اللهو، (الاشتغال بالملاهي).

(٣٦) الغناء، إذ قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

يَبْتَغِي عَلَيْهِ وَيَتَحَدَّثَ هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٦١﴾﴾ [لقمان: الآية ٦].

وقد جاء في الحديث: «الغناء مجلس لا ينظر الله إلى أهله» ^(٣).

(١) ثاني: أي متكبراً. = مع الرسول ﷺ في غزوة تبوك.

(٢) المخلفون: الذين تخلفوا عن الذهاب = (٣) الكافي: ج ٦، ص ٤٣٣، باب الغناء.

حقاً، إن استماع الأغاني وما تلقنه من اتجاهات سلبية تأخذ بالنفس إلى التسافل. وإن الدوام على ذلك ينسي ذكر الله. فلا ترتاح النفس إلا إلى سفاسف الأمور ومعان رخيصة متسافلة. تزول مع الغناء صفة الخشوع والخضوع تجاه القادر المتعال وبحرم الشخص نفسه بذلك من لذيذ مناجاة الله تعالى جوف الليل حيث لا واسطة بين العبد والمعبود. مناجاة فيها من العروج إلى معالم القدس وسرور فائق مما لا يشعر به إلا عباد الله الفائزون. إنها دموع ساخنة، تثلج الصدور وتبعث على الاطمئنان واليقين.

(٣٧) الميسر (القمار). ولو كان دون أخذ شيء من المغلوب.

(٣٨) القذف؛ ويراد به الاتهام بالزنا وما شابه. وحده ثمانون جلدة. إذ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاضِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعْنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: الآية ٢٣]. وفي آية أخرى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَا يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا يَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: الآية ٤].

(٣٩) منع الزكاة؛ إذ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْزِبُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [٢٤] يَوْمَ يُخَمَّى عَلَيْهِمَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذَرْقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْزِبُونَ﴾ [التوبة: الآيتان ٣٤/٣٥].

(٤٠) ترك الحج مع الاستطاعة؛ إذ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: الآية ٩٧]. وعن أبي عبد الله عليه السلام: قال: «من مات ولم يحج حجة الإسلام، لم يمنعه من ذلك حاجة تجحف به أو مرض لا يطبق فيه الحج أو سلطان يمنعه. فليمت يهودياً أو نصرانياً»^(١).

(٤١) الغيبة؛ إذ قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: الآية ١٢].

(٤٢) القيادة: وهو الجمع بين أهل الفجور.

(٤٣) إساءة الخلق. وقد جاء في الحديث: «إن سوء الخلق ليفسد الإيمان والعمل كما يفسد الخل العسل»^(٢) و «إن لكل ذنب توبة إلا سوء الخلق».

(١) الكافي: ج ٤، ص ٢٦٨، باب من سوف الحج.

(٢) أصول الكافي: ج ٢، ص ٣٢١، باب سوء الخلق.

(٤٤) النميعة، فعن الباقر عليه السلام: «محرمه الجنة على القتاتين» ^(١) المشائين بالنميعة» ^(٢).

(٤٥) إضرار المسلم بغير حق.

(٤٦) السعاية إلى الظالم.

(٤٧) قطع الطريق؛ إذ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ^(٣) أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزَاؤُ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ

(٤٨) الظلم؛ إذ قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾^(٤) وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا
يَغَاثُوا يُمَاءً كَالْعُتَلِّ بِالشَّرَابِ وَسَاءَتْ مُرْتَقَقًا﴾ [الكهف: الآية ٢٩].

(٤٩) الكبير؛ إذ قال تعالى: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾
[النحل: الآية ٢٩].

(٥٠) كتمان ما أنزل الله من الأحكام الشرعية وغيرها؛ إذ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيُسْرَوْنَ بِهِ، ثُمَّ قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: الآية ١٧٤].

(٥١) المنع من المساجد؛ إذ قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهِ أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: الآية ١١٤].

(۵۲) الاستهزاء بالمؤمنين.

(٥٣) إشاعة الفاحشة؛ إذ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: الآية ١٩].

(١) القنوات : النّمام .

(٢) أصول الكافي: ج ٢، ص ٣٦٩، باب النعمة.

(٣) أي تقطع أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى.

(٤) فسطاطها، خیمتها.

(٥) القيقع أو صديد الميت خاصة أو ما ذاب من صفر أو حديد أو زيت.

(٥٤) الحكم بغير ما أنزل الله؛ إذ قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: الآية ٤٤] .

(٥٥) لبس الرجل الحرير .

(٥٦) لبس الرجل ألبسة منسوجة بالذهب أو خاتماً من ذهب .

(٥٧) الأكل والشرب في الأواني المصنوعة من الفضة أو الذهب .

(٥٨) ترك الزوج حقوق الزوجة أو بالعكس .

(٥٩) الرياء في العبادة؛ فعن الصادق عليه السلام أنه قال: «كل رياء شرك، إنه من عمل للناس كان ثوابه على الناس ومن عمل لله كان ثوابه على الله»^(١) .

(٦٠) المراء؛ وهو الجدل في المباحثات بالباطل، لقوله تعالى: ﴿وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [التحل: الآية ١٢٥] .

(٦١) أن يلبس الرجال ألبسة النساء وبالعكس .

(٦٢) الرشوة والارتشاء: (إعطاء الرشوة وأخذها) .

(٦٣) نحت المجسمات وصنعها على شكل إنسان أو حيوان . فقد جاء في الحديث: «إن من أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورين» .

(٦٤) التعرض للذل؛ وقد قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] .

(٦٥) الشعوذة؛ وهي ما يرى الناس بها ما ليس له حقيقة بسبب حركات سريعة توجب الالتباس وهي محرمة كأجرتها وتعلمها وتعليمها إلا أن يكون التعلم لغرض صحيح كرد من ادعى النبوة ونحوها بها .

(٦٦) طالب الرياسة مع عدم الأمن من العدل وقد ورد عنهم عليه السلام: «ما خفقت النعال خلف رجل إلا هلك وأهلك»^(٢) . «وإن من طلب الرياسة هلك» . «وأنه ملعون من ترأس، ملعون من همَّ بها، ملعون من حدّث نفسه بها»^(٣) .

(١) أصول الكافي: ج ٢، ص ٢٩٣، باب الرياء .

(٢) أصول الكافي: ج ٢، ص ٢٩٧، باب طلب الرئاسة .

(٣) أصول الكافي: ج ٢، ص ٢٩٧، باب طلب الرئاسة .

(٦٧) ظن السوء بالمؤمن ؛ فقد قال الله تعالى : ﴿ أَجْتَنُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْرٌ ﴾ [الحجرات : الآية ١٢] .

(٦٨) العُجب ؛ وقد ورد عن الأئمة عليهم السلام : «من دخله العجب هلك» . وأن «إعجاب المرء بنفسه دليل على ضعف عقله»^(١) .

(٦٩) الغش ؛ فقد ورد عن الأئمة عليهم السلام أنه : «ليس منا من غش مسلماً»^(٢) .

(٧٠) الكذب ؛ وقد عدّه الصادق والرضا عليهم السلام من الكبائر . وقد ورد ، «أن الله عزّ وجلّ، جعل للشّر أقفالاً وجعل مفاتيح تلك الأقفال الخمر والكذب ، والكذب شر من الخمر»^(٣) .

(٧١) مجالسة أهل المعاصي والبدع . لما ورد من النواهي الأكيدة عن ذلك . قال تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَلَمَّا يُنْشِئَنَّ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنعام : الآية ٦٨] .

(٧٢) إتيان البهائم .

(٧٣) منع المؤمن أخاه المؤمن شيئاً يقوى عليه من عنده أو من عند غيره وحبس الحقوق من غير عُسر^(٤) . فعن أبي عبد الله عليه السلام ، قال : «أَيُّمَا مُؤْمِنٍ مَنَعَ مُؤْمِنًا مِّمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ مِنْ عِنْدِ غَيْرِهِ أَقَامَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَسْوَدًّا وَجْهَهُ ، مَزْرُقَةً عَيْنَاهُ ، مَغْلُولَةً يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ . فيقال : هذا الخائن الذي خان الله ورسوله ، ثم يؤمر به إلى النار»^(٥) .

وعن ابن سنان عن يونس بن ظبيان ، قال : قال أبو عبد الله عليه السلام : يا يونس ، من حبس حق المؤمن ، أقامه الله عزّ وجلّ يوم القيامة خمسمائة عام على رجله حتى يسيل عرقه أودية ، وينادي مناد من عند الله عزّ وجلّ : هذا الظالم الذي حبس عن الله حقه .

(١) أصول الكافي : ج ٢ ، ص ٣١٣ ، باب العجب .

(٢) من لا يحضره الفقيه : ج ٣ ، ص ٢٧١ ، باب البيع في الظلال .

(٣) أصول الكافي : ج ٢ ، ص ٣٣٨ ، باب الكذب .

(٤) كنا ذكرنا حبس الحقوق في موضع آخر . ولا بأس بتكراره هنا مع حديث في هذا المقام الخطير .

(٥) أصول الكافي : ج ٢ ، ص ٣٦٧ ، باب من منع مؤمناً شيئاً .

قال فيويخ أربعين يوماً، ثم يومر به إلى النار^(١). وهناك كبائر أخرى نرجئ ذكرها إلى محل آخر. ونختتم هذا البحث بما جاء عن الإمام علي عليه السلام:

«من كفارات الذنوب العظام، إغاثة الملهوف والتنفيس عن المكروب». وقال عليه السلام مخاطباً كميلاً: «يا كميل، مر أهلك أن يروحوا في كسب المكارم ويدلجوا في حاجة من هو نائم. فوالذي وسع سمعه الأصوات، ما من أحد أودع قلباً سروراً إلا وجعل الله له من ذلك السرور لطفاً، فإذا أصابته نائبة جرى إليها كالماء بانحداره حتى يطردها كما تطرد غريبة الإبل»^(٢).

وقال سلام الله عليه: «أدنى الإنكار أن تلقى أهل المعاصي بوجوه مكفرة»^(٣). وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من رأى منكراً فاستطاع أن يغيره بيده فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»^(٤).

كيف نتوب

يجدر بنا أن نذكر بعض ما ينبغي أن يقوم به الشخص عند إرادته التوبة. فإنه ما من عبد (عدا المعصومين سلام الله عليهم) إلا وقد أذنب، وما عليه إلا أن يتوب من ذنبه عاجلاً كي لا تتراكم عليه ذنوبه فيسود قلبه، فيعمى إذ ذاك عن رؤية الحق والواقع. ولا شك أن الاستغفار على نوعين، عملي وعبادي. فالاستغفار العملي هو إرجاع ما للناس على الفرد من حقوق إلى أصحابها، والاجتهاد في جلب رضاهم، وقضاء ما فاته من عبادات. وأما العبادي:

(١) فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما من عبد أذنب ذنباً فقام فتطهر وصلى ركعتين

(١) وسائل الشيعة: ج ١٢، ص ٢١٠، باب ١٢٢.

(٢) وسائل الشيعة: ج ١٦، ص ٣٥٤، باب ٢٤.

(٣) تهذيب الأحكام: ج ٦، ص ١٧٦، باب ٨٠.

(٤) مستدرک الوسائل: ج ١٢، ص ١٩٢، باب ٣.

واستغفر الله إلا غفر له وكان حقيقاً على الله أن يقبله. لأنه سبحانه قال: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: الآية ١١٠].

(٢) وفي الإقبال أنه: خرج رسول الله في اليوم الثاني من شهر ذي القعدة فخطب الناس قائلاً: «أيها الناس من منكم يروم التوبة؟ فقالوا: كلنا نروم التوبة. فقال: «اغسلوا وتوضأوا وصلوا أربع ركعات واقرأوا في كل ركعة سورة الفاتحة مرة واحدة وسورة التوحيد (الإخلاص) ثلاث مرات والمعوذتين (قل أعوذ برب الفلق، قل أعوذ برب الناس) مرة واحدة، واستغفروا بعد الانتهاء من الصلاة سبعين مرة وقولوا: (لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) سبع مرات». ثم قولوا: «يا عزيز يا غفار. إغفر لي ذنوبي وذنوب جميع المؤمنين والمؤمنات، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

ثم قال رسول الله ﷺ: «ما من أحد من أمتي يأتي بهذا العمل إلا ومناد يناديه من السماء عن الله تعالى: عبدي، استأنف العمل، فقد غفرت لك. وإن ملكاً آخر ينادي من تحت العرش: بورك أنت ومن يلوذ بك وذرايك. وينادي ملك آخر يقول: سوف يرضى عنك خصماؤك يوم القيامة. وآخر يقول: يا عبد الله، ستموت على الإيمان ولا تعدم الإيمان ويفرج لك في قبرك وينور قبرك. وآخر ينادي: سوف نغفر لأبوك وذريتك ويوسع لك في رزقك. وإن عزرائيل يخاطبه، فيقول: سوف أرفق بك عند قبضي روحك».

ثم سأل سائل رسول الله. لو أن رجلاً جاء بهذا العمل في غير ذي القعدة ما نتيجة ذلك؟ فقال ﷺ: عين ما كان له من النتيجة في شهر ذي القعدة، ثم قال: إن جبريل قد علمني هذا العمل عند معراجي إلى السماء^(١).

(٣) أن يقول بعد كل فريضة قبل أن يثني رجله ثلاث مرات: «أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم ذو الجلال والإكرام وأتوب إليه»^(٢).

(٤) المواظبة على صلاة الليل وهي ١١ ركعة، ٨ ركعات منها نافلة الليل تصلي

(١) إقبال الأعمال: ص ٦١٤، بتفاوت يسير.

(٢) أصول الكافي: ج ٢، ص ٥٢١، باب من قال أستغفر الله.

ركعتين، ركعتين كصلاة الصبح توتى بنية نافلة الليل. وركعتان تسميان: بـ (الشفع) وركعة واحدة تسمى بـ (الوتر). ووقتها بعد انتصاف الليل إلى الفجر. وكلما كان قرب الفجر كان أفضل. ويُستحب أن يقال في قنوت (الوتر)، الركعة الأخيرة سبعين مرة: أستغفر الله ربي وأتوب إليه. وهناك مستحبات أخرى لا مجال لذكرها.

إن الله تعالى يمتدح المستغفرين بالأسحار بقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا أَرَاهُمْ مِنْهُمْ قُلُوبًا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجُونَ ﴿١٦﴾ وَلَا يَنْصَرِفُونَ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّهِمْ ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَرْجُونَ عَذَابَ اللَّهِ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى الدِّينِ فَكَرِهُوا فَأُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاكِبُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات: الآيات ١٥/١٩].

فطوبى لنفوس فكرت في عقباها. فلازمت التقوى وما يؤدي إلى الزلفى ووفقت إلى أنواع الاستغفار. فظهرت من أدرانها وتزكت مما علق بها من دنس ورجس. فذهبت إلى نعيم خالد وحياة كلها سرور وحبور. ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴿١٠٠﴾ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [العنكبوت: الآية ٦٤]. أي إن الدار الآخرة هي الحياة الحقيقية الأبدية. ليس فيها حزن أو قلق أو خوف. ﴿إِلَّا لِمَن يَأْتِ اللَّهَ لَا حَافَظَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْرُزُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يونس: الآية ٦٢].

حقاً، إن الحياة الدنيا بما فيها من مشاكل وأعمال كثيرة لا طائل تحتها وملهيات أخرى لا تفيد في تكامل النفس فهي لهو ولعب. فالإنسان في دنياه وإن كان في دوره بالتكاملي، إلا أن حياته فيها أشبه شيء بحياة الطفل بالنسبة إلى حياة الرجل المتكامل. وسيعلم ذلك، (إن وفق إلى تطهير نفسه)، في جنة ﴿عَرْشُهَا كَعَرْشِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ؕ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد: الآية ٢١].

الإجابة على شبهات الماديين

نورد هنا ما عثرنا عليه من شبهات الماديين التي لم تتوارد في أذهانهم إلا لأنهم أزاحوا الفطرة بأعمالهم عن فعاليتها وتأثيرها الطبيعي. فأملى عليهم الشيطان شكوكاً

وشبهات هي في غاية السخافة في نظر من كان محافظاً على فطرته الطبيعية ولم تدنسه الموبقات. ولو أنهم وقفوا حين جهلوا لم يكفروا، على ما جاء في كلام علي عليه السلام حيث يقول: «ولو أن العباد إذا جهلوا وقفوا ولم يجحدوا لم يكفروا»^(١). ولكن هيهات، فإن المدنسات لم تدع لهم مجالاً للتوقف أو التردد وأزاحتهم عن التفكير الطبيعي وهو الاعتراف بالخالق المبدع الرؤوف الرحيم.

على أنني موقن أن هذه الردود التي نوردتها جواباً على الشبهات لا تفيد المادي الذي أعمى الله قلبه لظلمات في نفسه، فاكسبها بسبب ذنوبه. لأن المنطق ليس هو الشيء الوحيد الذي يردع هذا الإنسان (الكنود) عن غوايته ويهديه إلى النور وإلى صراط مستقيم. فقد جاء في الحديث: «ما ضرب ابن آدم بعقوبة أعظم من عمي القلب»^(٢). فإن عمي القلب فلا منطق ولا هداية ولا قبول. إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: الآية ٦/٧]. ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: الآية ٥].

ولنما نورد في ما يلي بعض الردود، ليزداد الذين آمنوا إيماناً ولكي يتمكنوا عند المجادلة مع الملاحدة من الرد والإجابة ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرُ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: الآية ٥٤]. ولعل الله يمن على من لم تنقطع صلته به تعالى بعمل صالح كان يأتي به من حين لآخر، بعد الاطلاع على هذه الأجوبة، بتوفيق الهداية والرشاد والرجوع إلى الفطرة بفضلته تعالى.

الشبهة الأولى: إن لم يكن العالم المادي أزلياً وقلنا أنه حادث مخلوق لزم من ذلك القول بأن العالم قد وجد من العدم وأن الله قد خلق الأشياء من عدم وهذا أمر محال لا يتفق مع معطيات العلم الحديث.

الجواب: إن العلوم الحديثة تؤكد لنا أنه لا يمكن وجود شيء من العدم وهذا

(١) أصول الكافي: ج ٢، ص ٣٨٨، باب الكفر.

(٢) مستدرك الوسائل: ج ١٢، ص ٩٣، باب ٧٦.

دليل على وجود الله تعالى . إلا أن بعض الأعراض قد تحصل من انفصال شيء عن شيء آخر . كما أن اتصال شيء بشيء يؤدي إلى وجود أعراض جديدة . ولكن العرض ليس بجوهر ولا بد لوجودها من وجود أشياء أخرى من قبل .

ولا شك أن الله تعالى قد أبدع الأشياء بقدرته ولولا قدرته والطاقات التي أوجدها بقوله ﴿كُنْ﴾ لما وجد شيء أبداً . ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (١) ﴿الَّذِي يَدِينُهُ مَلَكُوتٌ﴾ (٢) ﴿كُلُّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٣) [يس : الآيتان ٨٢ / ٨٣] .

ولكن ، كيف قول الله تعالى (كن) يؤدي إلى إبداع السموات والأرض ووجود هذه الطاقات الهائلة التي قد اكتشف أخيراً أنها هي الأساس في تكوّن هذا الكون . هذا مما لم يجعل الله تعالى للبشر مجالاً إلى معرفته . ﴿مَّا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الكهف : الآية ٥١] إنه تعالى يقول : ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ (٤) [القمر : الآية ٥٠] ويقول أيضاً : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (٥) فحقيق بالكيماوي المومن ، ذلك الذي لم يلوث الفطرة بمويقات ومهلكات أن تفيض عيناه بالدموع عند تلاوة هذه الآية المباركة : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (٦) [القمر : الآية ٤٩] لما يشاهد تلك التفاعلات بين العناصر بمقادير معينة واتجاهات ثابتة تؤدي إلى وجود هذا العالم المملوء بالعجائب والغرائب . ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ فَأَنظِرْ إِلَىٰ بَصَرٍ هَلْ تَرَٰى مِن فُتُورٍ﴾ (٣) [الملك : الآية ٣] .

إن الطاقات التي أوجدها الله بقوله (كن) أي إن الطاقات والقوى التي أوجدها الله تعالى بإرادته ومشيتته تكدست حسب النظريات الأخيرة في علم الفيزياء فكانت مادة . وإن هذه المواد شكلت كما يشاء الله هذه العوالم . إذ علم أن : $E = M C^2$ ، الطاقة الكامنة في كتلة ما تساوي مربع سرعة الضوء مضروباً في تلك الكتلة . فسبحان من منح هذه الطاقات هذه العوالم بعظيم قدرته وربها خير ترتيب . وليس لهذا الإنسان مع عقله المحدود وقابلياته المحدودة أن يعرف كيف أن الله بقوله : (كن) يوجد هذه

(١) فتزنيهاً لله عن النقص ، سبحانه أي نزهه عن (٢) الملكوت ، مصدر ملك ، مختص بملك الله تعالى .

(٣) فطور : صدوع وخلل .

النقص .

الطاقات . فإن نسبة قابلية الإنسان المحدودة في جميع الحقول إلى قدرة الله تعالى كنسبة: $\frac{ب}{\infty}$.

ومآل هذه النسبة هو الصفر . فأنى للصفر أن يفهم اللانهاية فهماً تاماً ويقف على كيفية خلق الله الخلق وانقلاب إرادته تعالى إلى طاقات هائلة . وأن هذه الشبهة إن دلت على شيء فإنما تدل على نفس متحجرة وكبر وغرور وطيش وانسحاب للعقل الفطري . الشبهة الثانية: إن كل موجود لا بد له من مكان يستقر فيه ولا بد له من زمان يقع فيه . وإن العلوم الطبيعية الحاضرة تقول: بأن المادة موجودة في الزمان والمكان . إذن ليس في الأماكن أن نتصور وجود الخالق الأزلي خارجاً عن الزمان والمكان .

الجواب: إن الله تعالى غني عن الزمان والمكان ، لأنه ليس بمادة وقد كان موجوداً من الأزل دون أن يكون له ابتداء . وهو الذي أوجد وأبدع الزمان والمكان . ولا مراء أن المكان والزمان مفهومان يتفرعان عن المادة . ولولا خلق الله تعالى السموات والأرض والقمر لما كان هنالك زمان ولا مكان . وإن الله تعالى موجود في كل مكان وزمان . وعند ما نقول ، إن الله لا زماني ولا مكاني ، نقصد بذلك أنه لا يشبه سائر ما خلق من الموجودات ، بسبب احتياج هذه الموجودات جميعاً إلى زمان وإلى مكان . أي أن المكان لا يحيط به وأن الزمان لا يحويه ولا يكون له ظرفاً ، لأنه تعالى هو خالق هذين الظرفين (الزمان والمكان) . على أن تطبيق ما يقال عن المحدود على غير المحدود (اللانهاية) وهو الله تعالى من الغباوة والقساوة بمكان . وهو هراء لا فلسفة ! وقد قال الإمام علي عليه السلام : «وَمَنْ قَالَ فِيمَ؟ فَقَدْ ضَمَّنَهُ وَمَنْ قَالَ عَلامَ فَقَدْ أَخْلَى مِنْهُ . كَائِنَ لَا عَنْ حَدَثٍ ، مَوْجُودٌ لَا عَنْ عَدَمٍ ، مَعَ كُلِّ شَيْءٍ لَا بِمُقَارَنَةٍ ، وَغَيْرُ كُلِّ شَيْءٍ لَا بِمُزَايَلَةٍ ، فَاعِلٌ لَا بِمَعْنَى الْحَرَكَاتِ وَالْأَلَةِ»^(١) .

الشبهة الثالثة: إن العلم الحديث يقول: أنه لا بد للمادة من زمان ومكان . وأن المادة لا توجد إلا في زمان . وبما أنكم أيها اللاهوتيون تقولون إن الله هو خالق

العالم . وحيث لم يكن عندما خلق الله العالم زمان ، إذن ليس الله هو الذي خلق العالم ، لعدم وجود زمان إذ ذاك ليخلق المادة فيه . إذ لا يمكن خلق المادة دون وجود زمان لخلقها فيه .

جواب ذلك : إن الزمان والمكان إنما حدثا مع وجود المادة وهما من عوارضها . وليس لنا أن نحكم بما كان قبل خلق المادة وكيف كان . الزمان من عوارض المادة ووجوده ، ولم يسبق أحدهما الآخر . أي إن الزمان إنما وُجد مع خلق الله تعالى الشمس أو الأرض وحركتهما أو حركة أحدهما وأن الزمان مفهوم استمراري لوجود المادة وهكذا المكان .

وإن الله تعالى حين خلق المادة الأولى سواء كان (أثر) على ما يقول بعضهم أو غير ذلك وجد مفهوم الزمان والمكان مع تلك المادة . فلا زمان ولا مكان بالمعنى الذي نفهمه قبل أن يخلق الله شيئاً .

الشبهة الرابعة : يقول بعض الماديين : لو كان لهذا العالم خالق لكان له هدف وغاية من هذا الخلق . ولكننا لا نفهم القصد والغاية من هذا الخلق . ومنهم : (هودسن توفل) الأمريكي ، حيث يقول : «إن القمر يدور حول نفسه مرة حين يكمل حركته الانتقالية حول الأرض . وهو يواجه جهة واحدة منه نحو الأرض ؛ ألسنا محقين لو سألنا عن السبب ؟ فلا قصد ولا غاية من ذلك . إذ لو كان هناك قصد لظهر لنا وبان» ! . ويقول (بوختر) الألماني المادي المعروف : «لو كان لهذا العالم خالق لعلمنا الغاية من وجود هذا الفضاء الواسع (السموات) والغرض من سبح الأنجم والسيارات فيه ولا استفادت أرضنا من الأنجم السيارة في المنظومة الشمسية وحيث لا نستفيد ولا نعلم الغاية من ذلك ، إذن ليس هنالك خالق خلق الأشياء تحت غاية معينة» ! .

جواب ذلك : إن جهل المادي للغايات والخواص لا يكون دليلاً على عدم وجود غايات حكيمة وخواص في غاية الإتقان . وإن العلم البشري لا يزال في مراحل الأولى . أوما ترى كيف أن الاكتشافات الحديثة توضح وتعلل كثيراً ما كان يجهله البشر سابقاً ويقف على كثير من المقاصد والغايات السامية التي أودعها الله تعالى في

مخلوقاته . راجع تاريخ العلوم لتعلم كيف أن البشر كان يجهل ثم علم . وأن موقع الشمس من الأرض وموقع القمر من الشمس والأرض والمسافات التي رتبها الله بين الكواكب وما هنالك من حركات تشير إلى حكم سامية لا يعلمها إلا علماء رياضيون فلكيون . فلو تغير موضع الشمس عما هو عليه الآن لاستحالت الحياة ، وهكذا بالنسبة إلى موضع القمر وبقية الأنجم ، ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ^(١)﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ^(٢) [السماء رفعها ووضع الأميزات^(٣)] ﴿الرَّحْمَنُ: الآيات ٥/٧﴾ .

فإذا بلغ المادي من السخافة والجهل وعدم الاطلاع والطغيان مرتبة ينكر معها الحقائق فإنما الذنب ذنبه ، لنقص متأصل فيه . وإن أمثال هودسن وبخنر أقل من أن يدركوا المعادلات التفاضلية المعقدة والمعادلات العالية الصعبة الحل وقوانين الفلك العالي المستندة على عصارة الرياضيات العالية .

فطوبى لمن طهرت نفسه ، فإذا نظر إلى السموات العلى ، قال : خاشعاً خاضعاً وعيناه تفيضان بالدموع : ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلاً سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران : الآية ١٩١] . إنما هذه الدموع رشحات نفس زكية .

الشبهة الخامسة : يقول المادي بما أنا لم نشاهد حدوث المادة ولم نشعر به ، إذن فالمادة شيء أزلي وغني عن خالق يخلقها ويوجددها .

جواب ذلك : هل أحس هذا المادي بأزلية المادة وعلم بها علماً يقينياً . ومن المخزي أن يأخذ المادي بالحط من منزلة الفلسفة فيحصرها بالحس والمشاهدة دون ربط عقلي ومحاكمات دقيقة . هل الحكم بأزلية المادة نتيجة لمحاكمات منطقية دقيقة وتعقلات سديدة أم هوى وجحود . ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُبْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الباقية : الآية ٢٤] ^(٣) . وفي آية أخرى : ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾ [النجم : الآية ٢٨] . وفي أخرى : ﴿قُلْ هَلْ

(١) بحسبان : أي يجريان بحساب مقدر .

(٢) يسجدان : أي أنها جميعاً تسجد لله مطيعة حسب ما أودع الله فيها من قوانين وخواص .

(٣) إن هم : ما هم .

عِنْدَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَوْلَا أَن تَخْرُجُوهُ لَأَاطَلَنَّ وَإِن أَتَيْنَا إِلَّا مَحْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ [الأنعام: الآية ١٤٨] .
 إن الله تعالى يقول: ﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ﴾ [الكهف: الآية ٥١] . فالله تبارك وتعالى لم يُرنا كيف خلق السموات والأرض ولم يرنا كيف خلق نفوسنا، لاستحالة ذلك. فكيف يجوز لنا أن نعلم كيفية خلقنا ونحن لم نوجد بعد. فالمعدوم لا يشعر ولا يحيط بشيء.

أو لا يفكر هذا المادي أن المادة شيء مركب وفيها من القوانين والأحكام على ما ثبت في علم الذرة ما يدهش العقول ويحير الألباب. من الذي وضع هذا النظام الخارق وتلك القوانين والمعادلات في الذرة؟ وكيف كان هناك الإلكترونات والبروتونات والنيوترونات. حتى كان العدد الذري لكل عنصر يعادل عدد البروتونات أو الإلكترونات الموجودة في ذلك العصر.

من أوجد هذا التعادل؟ ومن حرك الإلكترونات حول البروتونات؟ ومن الذي وزعها توزيعاً علمياً، حتى كانت هذه العناصر من ذهب وفضة وهيدروجين وأوكسجين إلى ما هنالك. ومن الذي بنى بناء الذرة الرصين، هذا البناء الذي هو أدق من أعظم الأبراج والبنائيات! إنه مهندس عالمي، هو الله جلّت قدرته، ﴿فَإِنَّمَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِنَّ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: الآية ٤٦] .

الشبهة السادسة: يقول المادي، إن الإلهيين يؤمنون بخالق لا يُدرك بحواسنا، وما لا يدرك بحواسنا معدوم.

الجواب: قد أسهبنا في الفصول السابقة أن هناك كثيراً من الأشياء موجودة ولا تدرك بحواسنا ولكن العقل يحكم بوجودها كالإلكترون. يقول الله تعالى في سورة الحاقة، ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّمَا لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٣٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة: الآيات ٣٨/٤١] . وإن الإنسان الذي جهز بحب الاستطلاع، إن لم يلوث الفطرة بخموره وفجوره، يعترف بصورة طبيعية بالله تعالى كما يعترف الفيزيائي بوجود الإلكترون، ومعلوم أن الإلكترون لا يمكن إدراكه مادياً ومع ذلك فهو معروف بآثاره أكثر من قطعة من الخشب. إن المادي ينكر وجود الجن والخوارق. ذلك لأنه

يريد أن يرى الجن بحواسه الخمس، فتلمسه يده. (ولكن الجن ليس بمادة). وتسمعه أذنه ولكن ليس للجن حركات في الهواء تؤدي إلى حدوث أمواج هوائية تصطدم بالأذن فبعظمها فالأعصاب، فالمنخ حتى تسمعه. وخلاصة القول هو أن ليس الجن من هذه المادة التي ندرك بالحواس الخمس. ولكنه موجود يعترف به من اعترف بمعاجز الأنبياء ﷺ، فالقرآن؛ ويعترف به من قام برياضات خاصة، فأعطي قابلية خاصة لمشاهدة الجن وشرح ذلك يطول.

وهكذا الاعتراف بالخوارق، اعتراف بقدرة الله تعالى وبما وراء المادة. وعدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود. واعتراف المادي بروحه وعقله وهما لا يُريان كافٍ لإثبات ما نذهب إليه. ووجود هذا المادي بهذه الملكات في هذا الكون من أكبر المعاجز والخوارق. فليعترف بنفسه إن كان يصعب عليه الاعتراف بخوارق أخرى.

﴿وَقَدْ أَنْفَسِكُمْ أَفَلَا تَبْصُرُونَ﴾ [الذاريات: الآية ٢١].

الشبهة السابعة:

(١) قد أخذت العلوم الحديثة في الأيام الأخيرة توضح ما في هذا الكون من ظواهر وحوادث دون اللجوء إلى وجود الله!

(٢) وأن الإنسان قد وقف بعد هذه المكتشفات العلمية على علل الحوادث الكونية وعلم أن الكون سائر حسب قوانين ودساتير عدة، فليس هناك من حاجة إلى الاعتراف بوجود صانع أزلي وقوة مطلقة عالية.

جواب ذلك أولاً أن علماء الفيزياء وغيرهم من الذين يعملون في كشف القواعد والقوانين التي تربط الحوادث الفيزيائية بعضها ببعض مترفون بجهلهم سر الجاذبية الأرضية وحقيقتها وحقيقة الكهرباء والمغناطيس إلى ما هنالك. ويقولون: إنما نعمل في كشف القوانين التي تربط الحوادث بعضها ببعض إما بالهام أو حدس أو تجربة أو صدفة ولا نعلم السبب الحقيقي لهذه القوانين ونعجز عن تفهم حقيقة هذه المعادلات الفيزيائية وأسبابها. إنهم يعترفون بجهلهم العلل والأسباب ويقولون: إنما نرى تعاقب الحوادث بعضها إثر بعض ونظن أنها معللة، حين أنه ليس هناك تعليل وإنما مشاهدة لتسلسل الظواهر والحوادث.

وهكذا علماء الكيمياء يعملون في وضع الروابط والعلاقات التي تربط العناصر بعضها ببعض حين التركيب والتحليل وكذا علماء النبات يعملون في التعرف على شرائط نمو النبات وتصنيفها وقُلْ مثل ذلك في بقية العلوم، معترفين بأنهم لا يستطيعون تغيير شيء مما يشاهدونه ويجهلهم الأسباب والعلل الحقيقية. وهم في معزل عن البحث عن خالق وضع هذه القواعد وجهاز العناصر بخواص التركيب والتحليل، إلا المؤمن التقي منهم. ذلك لأن البحث عن الخالق موضوع نفسي يترشح عن تكامل النفس وعن صفات يتصف بها الشخص من ورع وتقوى وأخلاق فاضلة. والتقوى كما جاء في الحديث: «أن لا يراك الله حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك». وأين علماء أوروبا من العمل بهذا الحديث. فإن معرفة الله لا تحلُّ نفوساً مدلهمة حالكة، وإن التفكير في الفيزياء أو الكيمياء تفكير مادي واستعمال للقوى المنطقية Logique التي منَّ الله بها هذا الإنسان. وإن التفكير في ما وراء المادة تفكير فلسفي لا ربط بينه وبين هذا التفكير الميكانيكي. مثال ذلك: لو أضيفت مقادير متساوية إلى أخرى متساوية فالنتائج متساوية... إلى ما هنالك. وإن عملية الضرب 43×375 مثلاً يقوم به المؤمن والملحد على السواء ولا أثر للاعتقاد بالله في صحة عملية الضرب. إنما هو تفكير مادي يقوم به المحافظة والذكاء (مع جهل الإنسان كيفية ذلك) وهو في معزل عن رشحات النفس الزكية وتوجهها إلى الحق.

فقضية البحث عن الخالق وعزو جميع ما في الكون من قوانين وخواص إليه تعالى، قضية نفسية بحتة تترشح من نفس زكية. هي رشحات الأعمال الصالحة والتقوى. فإن حب الله تعالى أو العشق الإلهي لا يحلُّ إلا في نفس مطهرة من الدنس والرین. ﴿يَوْمَ لَا يَفْعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ ﴿لَا مَنْ أَقَى اللَّهَ يَنْفَلِ سَلِيمٍ﴾. وأين القلب من معادلة تفاضلية في التحليل الرياضي أو حكم الرقاص في الفيزياء.

إن قَطْع النجار الخشبة إلى أقسام (مثلاً)، يحتاج إلى قابلية يدوية وبدنية وليستا من تكامل النفس في شيء. النفس أمر من ما وراء الطبيعة (Metaphysique) وتقسيم الخشبة وقطعها إلى أقسام، عمل ميكانيكي بحت لا أثر للعقيدة في حصوله. فإن

المكائن التي لا روح فيها تقوم بهذه العملية أيضاً كالإنسان من ناحية الميكانيكية .
فهذا خلط بين النفس والمادة واعتبارهما شيئاً واحداً . وهذا شأن من خسر نفسه وكان
من الأخسرين أعمالاً . على حد قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُتِبَ
عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَ كُتُبُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْوَعْدِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا
يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام : الآية ١٢] . وفي آية أخرى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ
الَّذِينَ نَسُوا مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلٌ بِالْحَقِّ أَفَبَالِغُوا فِي شِقَاقِنَا أَمْ نَسُوا أَنْفُسَهُمْ فَيَسْأَلُنَا أَوْ نَزِدُّهُمُ عَنْ آلَاتِهِمْ
أَمْ نَجْعَلُ لَهُمُ الْحَدِيدَ أَفَبَالِغُوا فِي شِقَاقِنَا أَمْ نَسُوا أَنْفُسَهُمْ فَيَسْأَلُنَا أَوْ نَزِدُّهُمُ عَنْ آلَاتِهِمْ أَمْ نَجْعَلُ لَهُمُ الْحَدِيدَ أَفَبَالِغُوا فِي شِقَاقِنَا أَمْ نَسُوا أَنْفُسَهُمْ فَيَسْأَلُنَا أَوْ نَزِدُّهُمُ عَنْ آلَاتِهِمْ أَمْ نَجْعَلُ لَهُمُ الْحَدِيدَ ﴾ [الأعراف : الآية ٥٣] .

كان يقول (كروستالوبون) : «حسب الماديون أن مذهبهم يحل محل الدين ، غير أن
المادة أصبحت سرّاً من الأسرار» .

ثانياً : وأما من يقول بالمقال الثاني : (وهو أن العالم يسير حسب قواعد معينة
وقوانين منظمة ، فلا حاجة إلى الاعتراف بصانع أزلي) ، فهو مجنون ، ليس له نصيب
من التفكير والمنطق الصحيح . أو مغفل لا يعد في زمرة العقلاء . ذلك لأنه يجعل ما
هو دليل واضح على وجود الصانع دليلاً على عدمه . كمن يرى أشعة الشمس بجميع ما
هنالك من وسائل تحقيقية وتجريبية ثم ينكر وجود الشمس . إنه ممن ختم الله على قلبه
لكثرة ذنوبه ، فأمسى جرثومة فساد لا تفيد معه الهداية والإصلاح . ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ
وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة : الآية ٧] . نعم ، ﴿ بَلْ طَبَعَ
اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ [النساء : الآية ١٥٥] وجحودهم وعدم قيامهم بواجب الشكر تجاه نعم
الله التي لا تعد ولا تحصى .

أليست القوانين نتيجة تدبّر وتفكر وتعقل ؟ وهل يجوز أن يوجد الترتيب والتنظيم
دون مرتّب ومنظم . وهل من الممكن أن توجد عوالم الجماد والحيوان والنبات وما في
السموات والأرض وحركة الكواكب والليل والنهار والأمطار والأنهار ، وأن ترتبط هذه
الأشياء بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً ودقيقاً دون مدبّر حكيم . وقد برهنا في الجزء الأول
من هذا الكتاب على انتفاء الصدفة . وأنه لا يحصل انتظام وترتيب في ما لا يحصى من
أشياء متسلسلة مستندة بعضها على بعض ، ومع ذلك فلا بد من موجد لهذه الأجزاء

المرتبطة بعضها ببعض، والتي تكاد لا تحصى، بقوانين تحير العقول حتى يأتي دور الصدفة. كيف حصل العقل من المادة! (على ما يقوله الماديون)؟ وكيف وجد الروح؟ هل القوة كانت قبلاً أم المادة؟ وكيف انقلبت القوة إلى مادة؟ فلو قلنا أن هناك يداً خفية^(١) تعمل في حدوث شيء من شيء آخر وتكامل بعض النباتات والحيوانات، فذاك هو الله تعالى.

إن العلم الحديث لا يزال في عنفوان اكتشافاته للقواعد الرياضية التي أودعها الله في هذا الكون، رابطاً بها أجزاء العالم بعضها ببعض. والعلماء يعترفون أنهم كلما اكتشفوا شيئاً كالأشعة الكونية مثلاً رأوا أنفسهم أمام أودية من الجهل. ولكن المتطفلين على العلم الحديث، هؤلاء الذين لم يكتشفوا نظرية رياضية ولا آلة كهربائية، يظهرون خبائة بواطنهم الملوثة فيهدرون ويخرصون ويشوهون سمعة العلماء، والعلم مما يقولون براء.

يقول جان جاك روسو (Jean Jacques Rousseau) ليس لنا أن نعتقد أن مادة ميتة تقدر على إيجاد هذه الكائنات الحية الكثيرة، وإن الضرورة العمياء تتمكن من خلق الموجودات العاقلة! وإن شيئاً عديم العقل يستطيع أن يوجد أشياء مدركة، (عقلاً). ومن البديهي أن الحركة ليست بأمر ذاتي في الجسم. فلا بد من محرك ومتصرف. وأن سلسلة الحركات الكونية كلها تنتهي إلى المحرك الأول وهو الله تعالى.

وأما هرشل فيقول: «كلما توسع أفق العلم، كلما ازدادنا معرفة بالله. ذلك لأن العلم يزودنا ببراهين قطعية على وجود الخالق الأزلي القدير الذي لا حدٌ لقدرته». وأما لينيه (Linne) العالم الطبيعي المعروف، فإنه يقول: «يبر أمام عيني ربي الذي خلق كل شيء، إني لا أراه ببصري ولكن نفسي تراه حين تشع عليها آثار عظمتة وجلاله وترى ما أودع في هذا الكون من جلال الأعمال وخوارق لا تعد. يكفيني أن أرى الكائنات الحية الصغيرة جداً التي لا ترى بالعين المجردة كيف جهزها الله بجوارح وأعضاء تحير العقول».

يقول فولتر (Voltaire): «إن الموجودات برمتها تنادي برفيع صوتها أن لها بارئاً قد برأها وصانعاً قد أتقن صنعها». وقد أخرج رواية تتكلم فيها الطبيعة مع فيلسوف، قائلة: «يا بني، إن حيرتك هذه قد جاءتك من أن الناس قد سمتني خطأ (الطبيعة)؛ حين أني صانع عظيم، متقن الصنع غاية الإتقان، هل هذه العوالم من حيث الصنع والنظام والترتيب أقل من ماكنة ساعة تدق الدقائق. فكما أنه لا يمكن أن يتصور وجود ساعة دون صانع قد صنعها، هكذا لا يمكن أن يتصور هذه العوالم دون صانع قد صنعها وأتقن صنعها».

ويقول (جان لوك): «إن العقل هو الذي يرشدنا إلى وجود الخالق، ذلك، لأننا نوقن بوجودنا ونوقن بأن وجودنا حادث ولم نكن موجودين قديماً. ونرى أن العقل يحكم أن ليس للمعدم أن يوجد شيئاً، إذن نجزم يقيناً أن ذاتاً أخرى قد أوجدتنا وكونتنا. وهذه الذات، وهي ذات الباري، كانت موجودة بصورة دائمية، أي أن الخالق، أزلي سرمدي. وبما أننا مخلوقون من قبل الغير فكل ما فينا من قابليات وإمكانات فهي منه. إذن وجب أن يكون الموجد في كمال القدرة. وبما أن لنا عقلاً ندرك به الأشياء فوجب أن يكون لموجدنا عقل أيضاً».

ويأتي هذا الفيلسوف بدليل آخر، فيقول: «بما أن جميع ما في هذا الكون حادث ولم تكن موجوداً قبلاً، فلا بد من وجود قديم أزلي أوجد هذه الأشياء ولم يوجد شيء آخر».

* * *

لقائل أن يقول: لماذا (جان لوك) يعترف بوجود الخالق جلّ جلاله في محيط غربي مفعم بالشهوات والمعاصي، وقد لا يعترف بذلك من وجد في محيط خير من محيطه، وكيف يترشح من نفسية (جان لوك)، هذه الأفكار التي هي مرآة العقل السليم والفطرة التي فطر الله الناس عليها وقد لا ترشح من غيره.

إن هذا الموضوع يسترعي الانتباه والتفكير. وقد أوضح الله لنا ذلك في قرآنه الكريم بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (الأنفال: الآية ٢٩).

فبالتقوى يفرق الإنسان بين الحق والباطل وبالتقوى يكفر الله عنه سيئاته ويغفر له ذنوبه، فما من فرد، عدا المعصومين إلا ويحمل ذنباً: ﴿أَخْصَلَهُ اللَّهُ وَسْوَءٌ﴾ [المجادلة: الآية ٦] لا سبيل إلى تكفيرها ومحوها إلا بالتوبة والتقوى، فتتجلى لهذا الفرد الحقائق بدرجة تطهير نفسه من الذنوب والأرجاس ومن كل ما دُئس به نفسه وجعلها متسافلة. فالإيمان ورشحات النفس التقية الزكية. ولا بأس أن أكرر كلمة أحد الفلاسفة المعاصرين حين يقول: «ترك الكذب يعترف الإنسان بمعبود هو الله القادر المتعال». وأما: «التقوى: أن لا يراك الله حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك». كما جاء في الحديث^(١).

ولابد لمثل (جان لوك) نصيب من التقوى حتى صار يعترف بوحدانية الله تعالى ويقده. وأن درجة هذا التقديس لتتناسب مع درجة التقوى. يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلًا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ٦٩]. وإن أعظم الجهاد هو الجهاد مع هذه النفس الأمارة بالسوء وردعها عن شهواتها ونزواتها وأطماعها^(٢). وكلما نجح الفرد في هذه المجاهدة الثمينة: المجاهدة مع النفس، كلما زاد يقينه حتى عد من الراسخين، أولئك الذين يصفهم الإمام علي عليه السلام بقوله: «هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة وباشروا روح اليقين واستلنوا ما استوعره المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى»^(٣)! ..

ولامراء، أن اليقين الحقيقي، يلزمه نور وبهجة وسرور وعدم الالتفات إلى ما سوى الله والاستغراق في أبحر عظمة الله والمثول بين يدي الله صاغراً ذليلاً، يلزمه القيام بالأعمال الصالحة ویر الوالدين وصلة الأرحام وقضاء حوائج الناس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواضع واحترام الكبير والرفق بالصغير ومعاملة الأهل معاملة ملوها

(١) قد أكرر الحديث لأهميته ولكن يرسخ في الذهن وهكذا بعض الآيات.

(٢) يراد بالأطماع: غير المشروعة منها.

(٣) بحار الأنوار: ج ٦٧، ص ١٦١، باب ٥٢.

الشفقة والحنان. «خيركم أبركم بأهله». يلزمه بذل كثير وإنفاق دائم وتصدق مستمر حتى يقال: أنه أسرف، وخدمة الجار وإيجاد عمل للعاطلين في حدود الإمكان، (وما أكثر إمكانيات هذا الإنسان لو لطفت نفسه ورقّت روحه)، يلزمه: الاهتمام بأمور المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، يلزمه التهجد والمناجاة والبكاء والاعتراف بالذنوب والتذلل والخشوع، يلزمه استغفار عملي واستغفار عبادي.

والاستغفار، كما يقول الإمام علي عليه السلام: «درجة العليين وهو اسم واقع على ستة معاني».

أولها: الندم على ما مضى.

والثاني: العزم على ترك العود إليه أبداً.

والثالث: أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملتس ليس عليك تبعة.

والرابع: أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيّعتها فتؤدّي حقها.

والخامس: أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السّحت فتذيبه بالأحزان حتى

تلتصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد.

والسادس: أن تُذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك،

تقول: استغفر الله^(١).

وقد يستشّم مني البعض التقشّف عند ذكرى بعض الأحاديث التي بُعدّ الناس عن

مصاديقها وتطبيقها ولكن الإسلام يجب أن يعرض كما هو، فيستقي من ينبوعه الفياض

كل بحسب قابليته وجده وجهده: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (٣٩) وَأَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ يُرَى

﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوَّلُ﴾ (٤١) [النجم: الآيات ٣٩/٤١].



يقول أحد علماء الألمان: «الإسلام جوهره وغطاؤها المسلمون».

ويقول أحد فلاسفة الغرب: «إن المسلمين بعدم مباشرتهم هذه القواعد يقترفون

جرماً عظيماً، لأنها هي الغايات التي تتمناها الفلاسفة».

ويقول، ليوبولدفايس^(١)، في كتابه: الإسلام على مفترق الطرق: «إن تقليد المسلمين، سواء أكان فردياً أم إجماعياً، لطريقة الحياة الغربية لهو بلا ريب أعظم الأخطار التي تستهدف لها الحضارة الإسلامية». ويقول أيضاً: «إننا نحلم بنور الإسلام يتشر على البلاد المترامية، بينما الشباب المسلم في جوارنا القريب يقعدون عن قضيتنا ويفرون عن آمالنا».

علة بعث الأنبياء ﷺ

إن هذا العالم بأسره بما فيه من نظم ثابتة وقوانين محكمة تدل دلالة صريحة على أن صانعها مدرك حكيم عليم. فإن السيارات تدور في أفلاك ومنحنيات لا يمكن لأكبر رياضي فلكي أن يعين حدودها ويضبطها بقوانين دقيقة إلا القسم اليسير منها جداً. وإن ما ندرسه في علم النبات والحيوان وطبقات الأرض أكبر شاهد على أن صانعها عالم حكيم خبير قد أتقن الصنع إلى حد بعيد. وإن آلاف الكتب في العلوم المادية تدل دلالة واضحة على سعة علم الصانع وإتقانه الخلق إلى أبعد الحدود. ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلَّمْتُ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَفِدَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِبِئْرٍ مِدَادًا﴾ [الكهف: الآية ١٠٩]. ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُومُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: الآية ٢٧]. فلا يعقل بعد هذه المقدمة أن الله تبارك وتعالى يخلق شيئاً عبثاً؛ ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَأَتَّخِذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ١٧]. وفي آية أخرى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْبٍ﴾ [٢٨] مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾. [الدخان: الآيتان ٣٨/٣٩]

فالإنسان لم يخلق عبثاً، وإنما خلق للتكامل والاختبار والابتلاء. ليرى نتيجة عمله، فإن أصبح من الفائزين دخل الجنة ونعم الثواب، وإن أمسى من الهالكين دخل النار وبش المصير.

(١) أنه نمساري الأصل. اعتنق الدين الإسلامي سنة ١٩٢٦م، وتسمى باسم (محمد أسد). فحسن إسلامه وأصبح من دعاة الإسلام.

يقول الله تبارك وتعالى في قرآنه المجيد: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ أَتَعْلَمُونَ﴾ [محمّد: الآية ٣١]. ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ^(١) نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [إنا هدّيناهُ السبيل إنا مأكرا وإنا كفورا] [الإنسان: الآية ٢/٣]. ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: الآية ٧].

يدخل في هذا الاختبار الفقير والغني، يدخل فيه الوزير والعامل والموظف والكاسب. ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره] [الزلزلة: الآية ٧/٨]. فالدنيا مدرسة يديرها الله وتعطي درجات لطلابها، فالراسب فيها مصيره جهنم والناجح فيها مصيره الجنة. فلا أسف لمن سقط في امتحان المدارس. فمجالات الحياة متنوعة، ولعل كثيرين نجحوا في امتحان المدارس ورسبوا في الامتحان الإلهي وكانوا من الخاسرين مدى الدهور.

وكان من عدل الله ولطفه أن يلهم البشر طريقي الخير والشر. وقد فعل ذلك. وألهم البشر عندما خلقه، طريقي الخير والشر: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [فألهمها فجورها وتقورها] [٨] ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَّاهَا﴾ [وقد خاب من دسّاهها] [الشمس: الآيات ٧/١٠]. ويقول الله في محل آخر من القرآن المجيد: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: الآية ١٠]. أي طريقي الخير والشر.

فالإنسان عالم بالخير والشر بصورة فطرية ولكنه ظلوم كفارا ميال إلى الشهوات. فأرسل الله تعالى الأنبياء ﷺ لا ليقوموا اعوجاجه فحسب، بل ليديروا على اتباع الطريق الذي يؤدي به إلى التقرب إلى الله عز وجل ليكون أعلى منزلة من الملائكة. ففتح الله للبشر الطريق، على لسان أنبيائه، للتقدم في الدرجات العلى، درجات لا يستطيع تصورها من لم يمارس تزكية النفس وتطهير القلب من الدنس والرجس.

فالإنسان في هذه الدنيا أشبه شيء بخليطة من المعادن، فيها معادن خسيصة وردية وفيها معدن نفيس وثمان، فعليه أن يظهر نفسه من الأوساخ أي من المعادن الخسيصة

(١) أمشاج: أخلاط، لأنه من مجموع ماء الزوجين.

بعبادات يتخللها الخشوع والخضوع والبكاء وبأعمال صالحة لوجه الله تعالى دونما رياء، ليذهب من هذه الدنيا بمعدن نفيس ثمين وليكون أهلاً للقاء الله تعالى أي ليكون قميناً للتقرب من الساحة القدسية الإلهية.

نرى أن الخلق على نوعين: خلق تكويني، كخلق الكواكب والأنجم والمعادن والنباتات والحيوانات، وخلق أمري: كخلق الأنفس والأرواح: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: الآية ٨٥].

فالمخلوقات الكونية لا اختيار لها. إنها مطيعة منقادة لقوانين أوجدها الله فيها. فالجاذبية الأرضية تجذب والبخار يتصاعد وأن حجمه يتناسب تناسباً عكسياً مع الضغط وطردياً مع الحرارة. هذا شيء ثابت لا تغير فيه في العالم الدنيوي. كما أن زمن الذبذبة الواحدة للرقاص (باندول) يتناسب تناسباً طردياً مع الجذر التربيعي لطول الرقاص وعكسياً مع الجذر التربيعي للتعجيل الأرضي لمحل وضع فيه الرقاص. وكذا تركيب الماء، أسيد آزوتيك، أسيد سولفوريك، ثابت لا يتغير. ونرى عين هذه الحالة في عالم الزراعة واللقاح والعضويات. فمن درس الكيمياء وكتاب الطبيعة علم أن البشر لا يخترع بل يكتشف خواص موجودة قبلاً وقابليات مخلوقة سابقاً. فالله يساعد الإنسان بما أودع فيه من قابليات فكرية، من حدس والهام واستقراء واستنتاج وتجريد وتعميم لكشف هذه الخواص.

لكن النفوس والأرواح مختارة... في إمكانها أن تسرق وأن لا تسرق. وفي إمكانها أن تزني وأن لا تزني، أن تشرب الخمر وأن لا تشرب. فهي إذن بحاجة إلى مرشد يرشدها وهادٍ يهديها إلى الطريق السوي.

حين أنه ليس هناك من الضرورة إلى مرشد ليجعل حجم البخار يتناسب تناسباً عكسياً مع الضغط.

فالبشر بحاجة إلى معدل يعدّله ومقوّم يقومه. فالأنبياء ﷺ والأوصياء من بعدهم معدّلون ومقوّمون.

ونظرة بسيطة إلى الاختلاف الحاصل في القوانين البشرية وأنظار الفلاسفة أو

تناقضها وتغيرها في كثير من الأحيان مع اتحاد الظروف والأوساط تجعلنا نعترف بأن البشر ناقص ليس من شأنه أن يسن قانوناً لا نقص فيه يؤدي به إلى سعادة النشأتين .

البشر يريد أن يعامل بالربا ويريد أن يظلم ويريد أن يزني ويريد أن يشرب الخمر ويريد أن يقوم بكل ما يفسد النفس ، هذه النفس الأمارة بالسوء ولكن الله لا يريد أن يرى ناقصاً في ما خلق ويريد تكميل هذا الإنسان .

ذلك لأنه لا يترشح من الكامل على الإطلاق ، وهو الله تعالى ، إلا الكمال . ولأن كل ما في هذا الكون في غاية الكمال . وأن المعادلات الرياضية التي تربط أجزاء العالم بعضها ببعض لأكبر شاهد على وجود هذا الكمال .

وأن ما نرى من خواص وجمال وتناسق في الأزهار والأوراق وما نرى من أشكال هندسية دقيقة في الثلج المتساقط من السماء وما نرى في الذرة وغير الذرة من كمال خارق وقوانين رصينة تنزه الله تعالى عن كل نقص وتقذسه . وتسبح الله بأنواع التسبيح : ﴿وَلَنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ أي تنادي بصوت رفيع ، أن الذي خلقها قد خلقها في غاية الإتقان ويستحيل عليه النقص . على أن هناك تسبيحاً آخر لا نفقهه ، على حد قوله تعالى : ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء : الآية ٤٤] . وقوله تعالى : ﴿يَجِئَالُ أَوْيَ مَعَهُمُ وَالطَّيْرُ﴾ [سبأ : الآية ١٠] . وقوله تعالى : ﴿لَوْ أَرْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَشِيعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر : الآية ٢١] . فلا يجوز لهذا الإنسان أن يحيد عن سنة الكمال التي أودعها الله تعالى في كل ما خلق ، وما عليه إلا أن يتكامل ويستنير نحو ما قرّر له من كمال منشود . فإن حاد وزاغ فقد خسر نفسه ومأواه النار . فجهنم آخر محل لتطهير من ثلوث وفسد أو تعذيبه .

وإنما أرسل الله الأنبياء مبشرين ومنذرين تحقيقاً لسنة الكمال في هذا العالم . ولولا الأنبياء لما عرفنا الله ولما تكاملنا ولما تمكنا من أن نتقرب إليه تعالى . فالأنبياء ومن بعدهم الأوصياء سلام الله عليهم أجمعين أنوار نستضيء بهم ونهتدي بهداهم .

فالله الذي خلق ما لا يعد من الأنجم وجعلها لا تصطدم بعضها ببعض ورتبها ترتيباً متقناً ما بعده ترتيب : ﴿وَلَكِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكْتُهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر : الآية ٤١] حتى

أصبحت لا تصطدم بعضها ببعض ، لا يخلق ما خلق عبثاً ، لا يخلق هذا الإنسان ليسعى في الأرض فساداً ، فلا كمال ولا حساب : ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: الآية ٢٠٥] .

وقد حسب «جيمس جينز» أن اصطدام نجم معين بنجم آخر يحتمل مرة واحدة في كل (٦٠,٠٠٠) مليون مليون سنة أي في (٦ × ١٠^{١٠}) سنة . وباعتبار ما للنجوم من أعمار وهي على الأرجح أكثر من ١٠٠٠٠٠ مليون عام أي (١٠^{١٠}) سنة . ينتج أن الذي يكون قد تصادم من بين الكواكب لا يزيد عدده عن نجم واحد في كل خمسين مليون نجم .

كان يظن الفلكي في القرون الماضية أن هناك نجوماً ثابتة لا تتحرك وأن هناك نجوماً سائرة سُميت بالكواكب وهي التي تدور حول الشمس كالأرض والمريخ . وقد عُلم أخيراً أن كل ما في الكون متحرك ، فالنجوم كلها تتحرك وتجري تحت قوانين معينة ثابتة وهي تدور أيضاً حول نفسها . وعلم أن النجوم الزرقاء أسرع دوراناً حول نفسها من الصفراء .

ولأجل أن نعلم سعة هذا الفضاء الذي خلقه الله تعالى نقول : إن أقرب نجم إلى الشمس يبعد عن الشمس ٢٦ مليون مليون ميل . وهذا مما يدل على المسافات الشاسعة والفراغ الكبير بين الأنجم . وما أشد وحشة النجم الواحد في هذا الفراغ الهائل . ولا نعلم ، أفمن أجل هذا كثر التزاوج بين النجوم استيحاشاً واستثناساً . إن رابطة الجاذبية تربط النجمين ، فلا يستطيعان فكاكاً . وحيثما وجهنا المنظار إلى السماء وجدنا أزواجاً ، إنها ألوف ألوف ، إنها الثنائيات النجمية ، ومداراتها إهليلجية ، ذات تفرطح عظيم وقد وجب أن تكون هكذا وهذه هي الزوجية التي يقول عنها القرآن الكريم . ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: الآية ٤٩] . فالوحدانية له تعالى وحدته والزوجية متجلية في الذرة : (الإلكترون والبروتون) ، وفي السماء ، وفي النبات والحيوان . فالله الذي جاء بهذا الكمال العالمي ، لا يريد بهذا الإنسان إلا الكمال والتكامل . لذلك كان طبيعياً أن يرسل أنبياء هادين مهدين .

نظرة واحدة إلى هذا الكون الذي فيه ملايين من المجموعات الشمسية ومجرات تبعد عنا (٧٥٠,٠٠٠) سنة ضوئية ومجرات تبعد عنا مئات الملايين من السنين

الضوئية^(١) تكفي ليتصاغر الإنسان أمام عظمة الله تعالى، فيفكر في نفسه وعلة وجوده، فلا يركبه الغرور على ما من الله عليه من مخترعات، بل يزداد يقيناً بخالقه وخالق المخترعات. فتقوده فطرته إلى هذه النتيجة: أن الله الذي أنقذ خلق العوالم جميعاً جل أن يلهو فيريد بالإنسان اللهو واللعب! بل أن غايته وأهدافه تتناسب مع عظمته، فلا بد للإنسان من تكامل، ولا بد من إرسال من يقدمون لهذا البشر قوانين هذا التكامل وطرق هذا السير التكاملي وهم الأنبياء سلام الله عليهم أجمعين.

الله الذي جعل لبنات ثلاثاً في بناء الذرة (١) الإلكترون (٢) البروتون، (٣) النيوترون. وأودع فيها من نظام ثابت بديع مثل ما تدرج نغمات الموسيقى الثمان في مفاتيح البيان (Octave) حتى تمكن العلماء بذلك النظام من إيجاد عناصر جديدة، استخدموا بعضها في القنبلة الذرية، وتمكنوا من هدم العناصر وبنائها من جديد وإحالة الراديوم إلى هليوم وإلى رصاص، وإحالة التروجين إلى أوكسجين وإلى كاربون وإمالة النحاس إلى زنك ثم إلى نيكل الخ، لتحقيق بأن يودع الكمال في كل جزء من أجزاء هذا العالم. ومن أهم هذه الأجزاء هو هذا الإنسان الذي يظنه البعض لظلمات في نفوسهم إنه حر في الإفساد وإيجاد الفساد! فلا حساب ولا كتاب! ﴿وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ [القصاص: الآية ٧٧].

إن الإنسان قد عمل لحد اليوم إلى حد ما كي يجيب عن (كيف)؟ في فهم أسرار الكون. ولكنه لا زال بعيداً جداً من أن يجيب عن (لماذا)؟.

يقول: أينشتين: «إن أعظم جائشة من جائشات النفس وأجملها، تلك التي تستشعرها النفس عند الوقوف في روعة أمام هذا الخفاء الكوني والإظلام. إن الذي لا تجيش نفسه لهذا ولا تتحرك عاطفته حي كميّة. إنه خفاء لا نستطيع أن نشقّ حجبته. وإظلام لا نستطيع أن نطلع فجره. ومع هذا نحن ندرك أن وراءه شيئاً هو الحكمة، أحكم ما تكون، ونحس أن وراءه شيئاً هو الجمال أجمل ما يكون، وهي حكمة، وهو

(١) سرعة الضوء ٣٠٠٠٠٠ كيلو متراً في الثانية وبما أن السنة ٣١٥٣٦٠٠٠ بالية. فالسنة الضوئية ٩٤٦٠٨٠٠٠٠٠٠٠٠٠ كيلو متراً.

جمال لا نستطيع أن تدركهما عقولنا القاصرة إلا في صور لهما بدائية أولية. وهذا الإدراك للحكمة، وهذا الإحساس بالجمال في روعة، هو جوهر التعبد عند الخلائق». إنه يقول: «إن ديني هو إعجابي، في تواضع، بتلك الروح السامية التي لا حد لها! تلك التي تتراءى في التفاصيل الصغيرة القليلة التي تستطيع إدراكها عقولنا الضعيفة العاجزة، وهو إيماني العاطفي العميق بوجود قدرة عاقلة مهيمنة تتراءى حيثما نظرنا في الكون المعجز للإفهام، وأن هذا الإيمان يولف عندي معنى الله»!

فالله الذي يعترف به «أينشتين»، (وهو أعلم علماء الأرض في الكون وظواهره، وأحقهم بالكفر إن كان علم يدعو إلى كفر، وأولاهم بإتباع ما اعتاد بعض علماء الغرب ومقلدوهم من أهل الشرق، من إغفالهم ذكر الله)، أعلى وأجلّ من أن يلهو وأن يريد بهذا الإنسان فوق البسيطة، النقص نقصاً في الخلق، نقصاً في المعاملات والحياة الاجتماعية، نقصاً في العفاف والعفة، نقصاً في البذل، نقصاً في التوجه إلى خالقه ومعبوده، نقصاً في النفس. وقد ظهرت بأمره وقدرته روائع الكمال في جميع أجزاء هذا الكون. فكان حقيقاً على الله أن يتصدى إلى تكميل الإنسان بإرسال الرسل ويجعلهم في الأرض أئمة أدلاء على مرضاته لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعلمون: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ٧٣].

إن الله قد وهب الإنسان من الفكر والذكاء حتى تمكن، بما أودع من نظم وقوانين متقنة عند خلق هذا الكون، من أن يعلم أن كوكب (السماك الرامح) تبعد عنا ٣٨ سنة ضوئية ويعلم أنه إذا أريد الاتصال به (بالسماك الرامح) بالراديو الآن لوصلت إليه رسالتنا بعد ٣٨ سنة ويجب أن ننتظر ٣٨ سنة أخرى كي يأتينا الجواب من الكوكب المذكور. ويعلم أن سرعة أمواج الراديو كسرعة الضوء: (٣٠٠٠٠٠ كم/ ثانية)، ويعلم أننا نرى اليوم سنة ١٣٧٩هـ أو ١٩٥٩م طيفاً وخيلاً نقله إلى أعصابنا البصرية شعاع انطلق من مصدره سنة ١٣٤٠هـ أو ١٩٢١م فقبل حلول سنة ١٤١٨هـ أو ١٩٩٧م وهو

موعد وصول جوابنا إلى الكوكب المذكور لا نستطيع أن نقطع فيما إذا كان (السماك الرامح) موجوداً حقاً. على أنا يجب أن ننتظر ٢٨ سنة أخرى لوصول الجواب إلينا. عند ذلك نعلم أن الكوكب المذكور كان موجوداً سنة ١٤١٨ هـ أو ١٩٩٧ م. ذلك لأن كواكب تتشكل من جديد وأخرى تفتى وتبيد.

كل ذلك كافٍ بأن يحمل هذا الإنسان، قبل أن يلوث نفسه، على التفكير في عظمة خالق هذا الكون وموجد هذا الإنسان، ويستنتج من كل ذلك أن أهداف الخالق يجب أن تتناسب مع عظمته وكماله. وهذا يؤدي إلى القول بأن الله المنظم لهذه الكائنات تنظيمًا لا يتخلله أي نقص لجدير بأن يأخذ بهذا الإنسان إلى التكامل والتقدم الروحي والخلقي فيرسل أنبياء ومرسلين لتطهير الناس مما علق بهم من أدران ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: الآية ٢٢٢]، ينيرون لهم ما أدلهم عليهم من سبيل ويضيئون لهم الطريق، فيأخذون بنفوسهم إلى حيث الكمال والخلود. فقد قال رسول الله ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». وقد خاطبه الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: الآية ٤].

الله الذي سخر لهذا الإنسان ما في السموات^(١) وما في الأرض^(٢) والشمس والقمر^(٣) والليل والنهار^(٤) والبحر^(٥) والفلك^(٦) والأنهار^(٧) جل أن يريد بهذا الإنسان أن يكون آلة فساد في هذه الدنيا يتسافل يوماً بعد يوم بظلمه وطيشه وغروره حتى يقول المتطفل على العلم الحديث متبخرأً، أن العلم ينتزع الفضاء وأن العلم يسخر من الطبيعة وأن العلم هو حلال المشاكل، فيجعله معبوداً له، دون أن يتوجه إلى معطي العلم وواضع العلم في هذا الكون، بخشوع وخضوع.

-
- (١) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَيْمًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. (٤) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾.
 (٢) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمَا فِي الْأَرْضِ...﴾. (٥) ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾.
 (٣) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾. (٦) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ﴾.
 (٧) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾.

فالله تبارك وتعالى إنما سخر لهذا الإنسان ما سخر وهياً له أسباب التعرف إلى بعض ما أودع في هذا الكون من خواص وقوانين لكي يتكامل نفسياً فتتحقق إنسانيته ولكي يتطهر مما علق به من رجس وذنس . وبما أن الوصول إلى هذه الغاية العظمى التي هي غاية الغايات غير حاصل إلا على أيدي الأنبياء الطاهرين وبما جاؤوا به من سنن تكامل النفس من جانب الله تعالى ، لذلك أرسل الله عدداً كبيراً من الرسل يهدون البشر سواء السبيل .

ولا مرأ أن الله أعرف بطرق تكامل النفس من هذا البشر الملوث ، لأن هو خالق النفس ومبدعها . فلا تفيد متابعة رأي الفيلسوف أو علماء النفس في سير الإنسان التكاملي لأنه بشري غير سماوي ، ولأنه يحمل من نفس الفيلسوف غير المتكامل ما يناسب نفسيته وهو غير ما أمر الله به على لسان أنبيائه ﷺ . فلا تكامل ولا نجاة إلا بإتباع سنن الأنبياء ﷺ وتعاليمهم تلك التي لم تمسها يد التحريف .

كان نبينا محمد بن عبد الله ﷺ خاتم النبيين وأكملهم خلقاً وخلقاً ، جاء بشريعة سمحاء ، لا تتغير ولا تتبدل ، من لدن رب العالمين ، «حلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرام محمد حرام إلى يوم القيامة» ، وقد هدى البشرية إلى طريق الحق وإلى صراط مستقيم بتعاليمه وأعماله . وقد قال الله تعالى فيه : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب : الآية ٢١] .

فلا أخلاق أعلى من أخلاق الرسول وآله الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين . عبادتهم فوق العبادات وخشوعهم لا يقاس بخشوع غيرهم من البشر . فمن أراد أن يتطهر ويتزكى ، فعليه أن يقتفي آثارهم ويسلك مسالكهم .

فاقرأوا الأدعية الواردة عنهم ، لتروا كيف يجب أن يقبل العبد مولاه . نعم ، إن الديانة الإسلامية لا تقتصر على العمران الدنيوي فحسب وقد أدت حقه بنظمها المتينة وقوانينها العادلة ، ولكن للديانة الإسلامية غاية أعلى وأرفع وهي إيصال الفرد إلى الدرجات العالية من التقرب إلى الله تعالى والدنو من الساحة القدسية .

فكلما طهر الإنسان من الرجس وكلما عمل عملاً صالحاً يرتضيه الله ولوجه الله،
تقرب إلى الله وأحبه الله وقربه منه، حتى يصبح مصداق هذا الحديث: «عبي أطعني،
أجعلك مثلي تقول للشيء كن فيكون». وفي الحديث القدسي يخاطب الله الإنسان
بقوله: «خلقت الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي». وفي القرآن الكريم: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا
فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: الآية ٢٩].

قال رجل للإمام الصادق عليه السلام: ما علامة المؤمن؟ فقال عليه السلام: «أن يقول للشجرة
تأتي، فتأتي». فشقت الشجرة الأرض وتوجهت نحو الإمام الصادق عليه السلام.
فإنّ للإنسان قابلية سامية تعلو جميع القابليات؛ قابلية الخلق والإبداع بإذن الله
تعالى وذلك بعد تزكية النفس، ولكن لا على ما يتصوره الغربي، ذلك لأن الغربي يعلم
شيئاً من ظواهر الطبيعة فحسب وذلك بصورة ناقصة، كما يعترف بذلك كبار علمائهم.
كان يقول (كوستا ولوبون): «قد علمت الفلسفة بعد عناء طويل أن لا سبيل إلى ما وراء
الطبيعة». فهذا مبلغ علماء أوروبا من العلم بما وراء الطبيعة.

قام في الغرب، مهد الفجور والفسوق، ثلة من الناس أرادوا أن يسنوا سنن تزكية
النفوس وأسموها تطهير العقل أو غاسل الدماغ (Brainwashing) وأخذوا يوصون
أتباعهم بالنوم على الأرض والأكل القليل والتقشف والتخشن والصمت، ظناً منهم أن
هذه التعاليم البشرية توصل الفرد إلى كمال ما^(١)، أو إلى الحقيقة الواقعية، وظنوا على
أنفسهم بأن يستقوا من تعاليم محمد وآل بيته الأطهار سلام الله عليهم أجمعين، تلك
التعاليم التي قد جاءت من جانب الله تعالى من وراء الطبيعة، لإصلاح نفوس ليست من
المادة في شيء وتهيتها لسعادة الدارين.

وما معنى تطهير العقل أو غسله. إن التزكية أمر نفسي تتصل بأفعال النفس
مباشرة. والعقل الفطري لا يحتاج إلى غسل أو تطهير. ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ (٧) فَأَلَمَهَا فُجُورَهَا

(١) إن ما ذكر من الأعمال قد توصل الفرد نتيجة رياضات خاصة إلى ما يميزه عن أقرانه من ملكات
وقابليات جزاء منه تعالى في الدنيا. ولكنها أرضية بشرية لا تصفي النفوس ولا تزكيها ولا تجعلها
مستعدة لآخرة سعيدة. وشرح ذلك يطول.

وَتَقَوَّيْنَهَا ﴿٨﴾ [الشَّمْس: الآيتان ٧/٨]. وقول الإمام علي عليه السلام: «يشهد بذلك العقل لو سلم من أسر الهوى» بل العقل يعمل عمله ما دامت النفس طاهرة غير ملوثة بالذنوب. فإذا تلوّثت انسحب العقل ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ [الأنعام: الآية ٢٥] وقام مقامه الشيطان ونفس مطيعة لهواها ولما يملئها شيطانها. فقد قال علي عليه السلام: «من قارف ذنباً فارقه عقل لم يعد إليه أبداً». إلا أن التوبة وملاقة ما فات ترجعان إلى الإنسان عقله الطبيعي الفطري، ذلك العقل الذي يُعبد به الرحمن ويكتسب به الجنان.

إن هذا النوع من الخلق والإبداع خلق فجائي بإذن الله تعالى دون مقدمات. وهي معاجز قد أظهرها الله تعالى على أيدي الصفوة من عباده. فمحمد ﷺ ليس مصلحاً فحسب، بل هادٍ وموصل بعض الأفراد إلى الدرجات العلى، درجات لا يعلمها ولا يدركها إلا من قطع هذا الطريق. موصل إلى مقامات لا تدخل تحت مخبر الكيميائي ومجهر العالم الطبيعي.

مقامات قد ينكرها بادئ ذي بدء كل من مارس الحياة المادية وعلومها وقوانينها المادية ولم يمد يداً إلى عوالم تطهير النفس ولم يشم رائحة من روائح ما وراء الطبيعة الفواحة.

إنما بعث الله الأنبياء لتكميل البشر بصورة تدريجية في عوالم النفس، ذلك لأن الإنسان إنسان بنفسه وروحه لا بعظامه وعضلاته وبرّته وأثائه. وليس من وظائف الأنبياء ﷺ تعليم الناس الفيزياء والرياضيات والكيمياء. ذلك لأن قوانين الفيزياء والقوانين الرياضية لا تمتُّ إلى النفس الإنسانية بصلة ولا علاقة بينها وبين مراحل النفس الإنسانية. فالمهندس يعمل حسب ذكاء أودعه الله فيه ويضع التصاميم الهندسية سواء كان مؤمناً أو كافراً أو وثنيّاً. ثم أن قوانين العلوم الحديثة تكاد لا تنتهي، لعدم تناهي علم الله تعالى، لذلك أوكل الله تعلّم هذه القوانين إلى ذكاء الإنسان نفسه، وعلمه طرق الملاحظة والتجربة والاستنتاج والاستقراء، فكانت هذه القوانين التي نراها في طيات الكتب وهذه العلوم والمكتشفات.

ولقد سمعت أحدهم، كان يفاضل بين أديسون «هذا الذي كان يؤمن بالله وبالنبي

عيسى عليه السلام، وأحد الأنبياء ظناً منه أن الحياة لا تستقيم إلا بالكهرباء. والناس كانوا موتى قبل ذلك! .

لم يؤت بهذا الإنسان إلى هذه الدنيا لكي يتنعم بالكهرباء فحسب، (مع قلق لا مزيد عليه)، بل الغاية الأسمى من وجوده في هذه المرحلة الدنيوية، التكامل؛ التكامل في عالم النفس، في عالم الأخلاق، في عالم الروح، والتطهر من كل رجس ودنس. ولا يقدر بل لا يفهم ما أقول من كان بعيداً عن هذا العالم القدسي، منغمراً في أحضان المادة العمياء ولا ينظر إلى هذا العالم إلا من الناحية المادية أو الاقتصادية فحسب. فقد جاء في الحديث: «الدنيا مزرعة الآخرة». وفي القرآن الكريم: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ﴾ [الحجرات: الآية ١٣]. فالنبي ﷺ يعلم البشر سنن التقوى، سنن التكامل، سنناً بها يكون الإنسان ملكاً من الملائكة.

فهنا حرثان (Culture) حرث دنيوي وحرث أخروي، فلو اقتصر الفرد على الحرث الدنيوي تسافل إلى حضيض المادة ﴿إِنَّهُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: الآية ٤٤] ولكن لو أخذ نصيبه من الحرثين، بل أثر حرث الآخرة على حرث الدنيا كان من الفائزين المقربين: ﴿مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزَدَ لَمْ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: الآية ٢٠]. ولذلك يذكر الله تعالى عباده بالحياة الآخرة ولزوم الاستعداد لها حين يأمر بالعمل في هذه الدنيا من تجارة وصناعة وزراعة وغيرها بقوله: وإليه النشور، ﴿فَأَمْسُوا فِي مَنَاجِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: الآية ١٥]. إن الله تعالى أرسل الأنبياء لتزكية الناس وتطهيرهم مما علق بهم من أدران وأوساخ على حد قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: الآية ٢].

بعثهم ليعلموا الناس الحلال والحرام، لأن النفس الإنسانية تتردى وتتدنس بالحرام وتزكى وتطهر بالحلال.

بعثهم ليعلموا الناس آداب المعاشرة والاجتماع ليعيش الناس في دعة وسلام مؤمنين مخلصين.

بعثهم ليعلموا الناس الأعمال الصالحة التي بها تزكو النفس فتخرج من الظلمات إلى النور، ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هُود: الآية ١١٤] .

بعثهم ليجعلوا هذا الإنسان (لو اتبع الحق وأطاع) إنساناً كاملاً بالمعنى الصحيح ولتأسيس الإنسانية الكاملة في هذا العالم . لا في تلك المرتبة التي يفهمها من كلمة (إنسانية humanite) الفيلسوف الغربي .

وليس للبشر أن يعدل ما سنّه الله على لسان أنبيائه، مع اختلاف الظروف والأوساط والأزمنة . ذلك لأن الله تعالى أعرف بحاجات البشر وطرق تكامله، ولا تنظر هذه السنن الإلهية إلى حاجات بهيمية موقته أو أمور دنيوية عاجلة فحسب، بل تهدف إلى تكميل النفس الإنسانية وجعلها قمينة بالخلود في «ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» .

على أن الفقهاء يستنبطون أحكام ما جدّ من أمور وحوادث على ضوء النصوص والقواعد العامة ولا يخرجون عن فحواها وحقيقتها .

إن البشرية مغرورة في يومنا هذا في أفكارها مع كثرة جهلها النواحي الروحية وانغمارها في كثير من الملاهي والمفاسد . وإن الإصلاح الحقيقي ينحصر في الرجوع إلى كتاب الله وسنة نبيه الأمين وآله الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين . لا إدخال ما جاء من أوروبا المضطربة من المدنية الغاشمة الفاسدة في دين محمد ﷺ الطاهر . فتحليل الربا وتجويز البغاء ومجالس اللهو والطرب ليس من الإصلاح الحقيقي في شيء .

إن الله يريد أن يطهر النفوس الإنسانية ويقربها إليه، ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: الآية ١٠٣] . ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رُسُلًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَزَكَاةً وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٥١] . فلا إمكان لنيل هذه الغاية الشريفة إلا أن يكون الإنسان مصداق كلام الإمام علي عليه السلام حيث يقول: «صبروا أياماً قليلة فأعقبتهم راحة طويلة» . ولا أعني بالصبر، الصبر على الضيم والأذى . ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: الآية ٨] . والمؤمن يعمل حسب هذه الآية الشريفة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَوَاقِلُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: الآية ٥١] . بل يراد بهذا

الصبر، الصبر عن الشهوات والنزوات والجُلْد تجاه النوايب والكوارث.

إن دين الإسلام وهو خاتمة الأديان دين تزكية وتطهير، بنواميسه وقوانينه وواجباته ومستحباته: ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ [الليل: الآية ١٨]. ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾. ﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ [فاطر: الآية ١٨].

إن تقهقر المسلمين ليس إلا لأنهم تركوا العمل بما أمر به الله ورسوله ﷺ وقلدوا الغرب في كثير من شؤونهم الاجتماعية والاقتصادية. فليس الشرق بمحتاج إلى الغرب إلا في العلوم المادية، من صناعية وزراعية وميكانيكية وهندسية... الخ. ولكن الشرق (ومع الأسف) قد تأثر بكتب الغرب الأخلاقية والاجتماعية والفلسفية والمادية والإلحادية أكثر من صنائعها واكتشافاتها في عوالم المادة. فصار الشاب (إلا من عصم الله) يزدري بعض ما كان يعتقد سابقاً من عقائد دينية وهو لم يبلغ من العلم المادي مبلغاً يذكر وهو حين يزدري يظن بل يوقن أنه قد انفتح عليه باب من أبواب العلم الحقيقي وقد بلغ مرتبة مرموقة من ثقافة العصر. وقد تبلغ به الحالة إلى الإلحاد. ومع الأسف. فقد باع بعض الأمم الإسلامية تلك المدنية الإسلامية القيومية لاقتناء هذه المدنية المادية الحالكة ظناً منهم أنهم بلغوا مرتبة مرموقة من التقدم والتطور. حين أنهم أضاعوا المقدسات واندكوا في القومية الغربية. على أن هنالك إمارات تبعث على الاعتقاد بأنهم سوف يرجعون إلى تطبيق قواعد الإسلام عن قريب إن شاء الله، معترفين بأن الكمال النفسي ليس من المادية في شيء.

إن التطور ذو جنبتين: تكامل إلى العلى، وتدهور إلى أسفل السافلين. لكن العصري المتجدد، يزعم أن الحياة في تقدم مستمر وكل شيء في تقدم. فلا تردي ولا تدهور. فذهاب العصمة والعفة مثلاً ليس إلا نوعاً من التطور. ويجب أن تتابع القوانين الموضوعية (الوضعية) هذا التطور وإلا فالحياة غير ممكنة! كلا. لا تطور للإسلام. الإسلام دين ثابت وأوامر الله ثابتة لا تتغير، وهو أعرف بطرق تكامل من خلق من العباد. فإذا رأينا أن التيار اللاديني (لا سمح الله) أخذ في وقت من الأوقات في ازدياد، علينا أن نسلم لهذا الحديث: «لا يزال ينقص من هذا الدين حتى لا يقال: الله».

فيكون، إذ ذاك واجب المسلم الغيور على دينه، من حيث الأمر بالمعروف والنهي

عن المنكر، أعظم. ذلك لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: الآية ١٠٤] وقد فسرت كلمة (الخير) في الآية، بالإسلام.

ففي هذا اليوم، في كل بقعة من بقاع الأرض، شرقها وغربها عدد غير قليل من المسلمين، يؤدّون الفرائض، يصلّون ويصومون، وقد جاء في مجلة العرفان، عن طالب كان يدرس في الغرب: أنه بينما كان يسير في شوارع إحدى العواصم الغربية وإذا به يرى رجلاً شيخاً واقفاً على عتبة داره يؤذن للظهر بصوت رفيع، يقول هذا الطالب: تريت حتى أتم الشيخ أذانه، سلمت عليه فرد عليّ السلام وزيادة، قائلاً: «عليكم السلام ورحمة الله وبركاته». عملاً بهذه الآية الشريفة: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِحِجَّةٍ فَيَحْوَ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: الآية ٨٦]. ثم دعاني وأدخلني داره. فقام هو وزوجته يصليان صلاة الظهر ثم طلبا مني أن أتناول طعام الظهر معهما فلم يبدئا بالأكل حتى قالوا: «بسم الله الرحمن الرحيم». وبعد الانتهاء من الطعام، قالوا: «الحمد لله رب العالمين»، فسألت عن وظيفة يقوم بها الشيخ المؤذن المسلم. فقال: إنه أستاذ في الجامعة. وبلغ مرتبة (Doyen): شيخ الأساتذة.

فدين الإسلام، دين يعتنقه كبار المفكرين من الذين صلحت أعمالهم وطابت نفوسهم. وهذا (برناردشو)، يقول: «لقد تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولاً لدى أوروبا غداً». وكان يقول كارليل: «بإتباع التعاليم الإسلامية يصبح الإنسان إماماً كبيراً لهذا المعبد: (الكون)». وقال أيضاً: «كان العرب يضربون في الصحراء لا يؤبه لهم عدة قرون. فلما جاء النبي العربي أصبحوا قبلة الأنظار في العلوم والعرفان. وكثروا بعد القلة وعزّوا بعد الذلة ولم يمضِ قرن حتى استضاءت أطراف الأرضين بعقولهم وعلومهم».

ولو قام المسلمون بتأسيس جمعيات للنشر والتبشير في أصقاع الغرب لأسلم ملايين من الناس ولأصبح الإسلام ديناً عالمياً.

كان جابر الجعفي من كبار المجاهدين في الكوفة وكان ينشر أخبار محمد وآل

محمد ﷺ، وكان قد حفظ سبعين ألف حديثاً سمعها من الإمام محمد الباقر عليه السلام. فما راق الحاكم ما كان يقوم به جابر، لأن أهل البيت عليه السلام كانوا مضطهدين في العصر الأموي. وأحس جابر بأن الحاكم قد أمر بالقبض عليه، فلم يَرِ بدأً من أن يضع على رأسه فلنسوة من خوص ويتخذ عصا كحصان له ويركض في الطرق والشوارع كالمجانين، فحسبه الحاكم مجنوناً وتركه، ثم إن جابراً رجع إلى جهاده ونشر أخبار أهل بيت العصمة عليه السلام بعد ستين وبلغ مراده.

فلنقتفِ آثارَ أولئك الأبطال الذين بذلوا النفس والنفس في سبيل نشر هذا الدين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: الآية ٣٠].

كيف يختار الله أنبياءه ﷺ

إن الله تبارك وتعالى هو معطي الكمالات، فلا ترى أي خلل في ما خلق، وإن جميع المخلوقات من مادية وروحية مرتبطة بعضها ببعض، تشير إلى أن خالقها واحد لا شريك له: ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ فَإِنِّي جَعَلُ الْبَصَرُ هَلْ تَرَىٰ مِن تُورٍ﴾ ﴿٣﴾ ثُمَّ أَتِجِ الْبَصَرَ كَرَيْنٍ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ [المُلْك: الآيتان ٣/٤].

وإن من توغل في فلسفة العلوم التي تربط عصارات العلوم ونتائجها بعضها ببعض يرى ذلك جلياً ويقوى إلى حد ما على تفسير الآية المتقدمة التي يجب أن تدون في تفسيرها كتب عدة.

النبوة ليست إلا سفارة ربانية يودعها الله أكمل عباده خلقاً وخلقاً، أي أكملهم في البدن والروح أو في الحسب والنسب وطهارة النسل والمولد والأخلاق المثالية الكاملة وخلاصة ذلك أن الله يودع النبوة شخصاً مستجمعاً لصفات العصمة والكمال.

إن الله وهو الكامل على الإطلاق لا يرجح أحداً على أحد دونما سبب وحكمة، وهو معطي الحكمة وحاشا أن يلهو وهو القائل: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًَا لَّاتَّخَذْتُهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ﴿٧﴾ [الأنبياء: الآية ١٧]. فلا يسند أمر السفارة بينه وبين خلقه إلا إلى أكمل عباده.

والله تعالى عادل، إذ العدل صفة ملازمة للكمال، وأن الكامل غير محتاج، ولا يحيد عن العدل إلا من كان محتاجاً إلى الجور والظلم، والكامل غني عن ذلك كله، لعدم وجود حاجة لديه إلى شيء. إذن وجب أن نبحث عن الصفات التي توفرت في ثلثة من الناس حتى أسند إليهم منصب السفارة الإلهية كي يقوموا بتكميل البشر وإيصاله إلى الكمال المنشود.

الصفة الأولى: هي طهارة المولد. ذلك لأن لهذا النوع من الطهارة أثراً فعالاً في الاتجاهات النفسية كما تؤيده التجارب. فالأنبياء كلهم وأكملهم نبينا محمد ﷺ كانوا يتقبلون في أصلاب طاهرة وأرحام مطهرة «طابت وطهرت بعضها من بعض». «فأسرة محمد ﷺ خير أسرة^(١)»، وشجرته خير شجرة، أغصانها معتدلة، وثمارها متهدلة، كلما قسم الله الخلق فرقتين جعله في خيرهما. لم يسهم فيه عاهر ولا ضرب فيه فاجر». وفي إثبات الوصية للمسعودي شرح وافٍ في كيفية انتقال النبوة والسفارة الإلهية والوصية من لدن آدم من بطن إلى بطن حتى انتهت إلى محمد ﷺ. فنور محمد ﷺ توارثته الأنبياء حتى انتهى إلى عبد الله بن عبد المطلب.

ثم إن الله تعالى لا يجتبي أحداً ولا يرجع بين عباده إلا بالتقوى. ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ [الحُجُرَات: الآية ١٣]. فالأنبياء ﷺ هم أنقى الناس وأورعهم وأزهدهم. وإن محمداً ﷺ كان منذ صغره وطفولته مثلاً رفيعاً للتقوى والكمال. لم يتأثر ببيئة كانت تعبد الأصنام وتأتي بأنواع الفجور والفسوق والبغي والظلم خلافاً لما يقرره علماء التربية وعلم النفس في عصرنا، «إن الطفل يتأثر من بيئته إلى حد كبير». فلم يسجد لصنم ولم يحضر مع قومه في أي عيد من أعياد الأصنام. ولم يأكل قط مما كان يذبح قرباناً للأصنام. فكان منذ صغره حسن الخلق، طاهر العقيدة، لم يتلوث تفكيره بعقائد الجاهلية ولم يحايط أترابه في لهوهم وسمرهم. ولما صار زوجاً لخديجة كان على درجة من رغد العيش تمكنه من أن يعيش عيشة هنيئة كما يعيش عظماء مكة وأغنياءها، لكنه مع

ذلك كان زاهداً في الحياة الدنيا ولذاتها، متقشفاً مؤثراً ببساطة العيش. فحببت إليه العزلة. لقد اختار غار (حراء)، في جبل يبعد عن مكة ثلاثة أميال. كان يخلو فيه بنفسه أياماً وليالي متتالية، فيفكر فيه في عظمة الخالق جلّ جلاله وما أودع في هذا الكون من خواص وأنظمة ما يحير الألباب ويتعبد فيه لربه. إنه صلوات الله عليه لم يشرب الخمرة في شبابه خلافاً لمن هم في سنه من الشبان. وكان متحلياً بمكارم الأخلاق من صدق وأمانة وعفة ووفاء إلى حد بعيد. إن عزلة محمد ﷺ كانت للتفكير والتأمل وذلك بإلهام منه تعالى كي يزداد صفاءً وتقرباً إلى الله جلّت عظمته، حتى تصبح نفسه الزكية على أتم استعداد لتلقي أعباء الرسالة العظيمة التي اختاره الله لها.

كل ما ذكرنا موهلات لأن تجعل محمداً ﷺ فوق من على البسيطة في ذلك الوقت بل وفي كل وقت وزمان فتتخصر فيه الرسالة بجدارة لا يضاهيه فيها أحد أبد الأبدن.

* * *

إن عصارة التقوى تتجلى في الشكر، ولا صفة تقرب العبد إلى الله تعالى كالشكر. يأتي النبي ﷺ إلى بيت إحدى زوجاته، ينهض من فراشه ولا ينام. يتوضأ بماء قليل، يستقبل القبلة ويصلي. وكلما تستيقظ زوجته تراه مصلياً، وشاكراً ربه. فتقول: «ألا تنام، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر»، فيقول صلوات الله عليه: «أفلا أكون عبداً شكوراً».

إن الشكر على ضربين. شكر لساني وقلبي، وشكر عملي. فأما اللساني: أن يذكر العبد مولاه في كل لحظة ويحمده على عظيم نعمائه وحسن بلائه، وأن لا يفتر عن ذلك. وأما الشكر العملي، فيتجلى في الأعمال الصالحة والقيام بمبررات وأعمال خيرية والإيثار والجهد في سبيل الله والقيام بأداء الحقوق من مادية ومعنوية وأمثال ذلك. وإن رسالة الحقوق لمولانا الإمام زين العابدين ﷺ توضح ذلك. فهنيئاً للعاملين «وقليل ما هم». نفس النبي فوق النفوس المتعارفة وما تجمعت فيه من الأخلاق المثالية فوق الأخلاق العادية. ولا تودع السفارة الإلهية نفوساً لها من الشراء والمال والجاه والمكانة شيء مرموق، لأن هذه الأمور لا تمتُّ إلى النفس بصلة. وإنما النبوة

قضية نفسية بحتة، كما أن الإيمان لا يلج نفوساً لها شيء من المكانة والاعتبارات الدنيوية فحسب، بل تدخل نفوساً شاكراً لله، نفوساً لها من الصفاء والجلاء ما يجعلها لا ثقة لقبول الحق، فلا تتكبر عن الإذعان بما هو حق ولا تحسد ولا تبخل. فإن أصول الكفر ثلاثة: «البخل والحسد والكبر» كما جاء في الحديث.

كان محمد ﷺ مشهوراً بين قومه بأمانته وطهارة نفسه وعفته، وكان متحلياً بمكارم الأخلاق على عكس غيره من شبان زمانه. والمعروف أن فترة الشباب من عمر الإنسان هي الفترة التي يندفع فيها الشبان إلى الشهوات. ولكن حياة محمد ﷺ في هذه الفترة كانت حياة مثالية نموذجية حتى لقبه قومه بالأمين. ولذلك لم يجد قومه عند ما اشتد الخصام بينهم وبينه، شيئاً يمس شرفه أو يطعن في عفته، مع أنهم كانوا حريصين على النيل منه في هذه الناحية. فقد كانت دعوته قائمة على إشاعة طهارة النفس والمحافظة على العفة، ومقاومة التيارات النفسية الخبيثة. فإذا نفذوا إلى شيء مما يريدون استطاعوا أن يشككوا العرب في دعوته حتى ينفضوا عنه. وكان من المألوف آنذاك الانحراف الخلقي، ومع ذلك فلم يقف أعداؤه على حادثة واحدة يجرحونه بها. وإذا أضفنا إلى ذلك ما يقوله علماء النفس من أن فترة الشباب فترة خطيرة تثور فيها الغرائز الجنسية^(١) استطعنا أن نفهم قوة إرادة محمد ﷺ في ضبط نفسه في شبابه وتحكمه في ميوله الجنسية تحكماً جعله مثلاً للطهارة والعفة. وطهارة النفس وخلوها من الشهوات المحرمة والنزوات لمن أهم العوامل التي تجعل الفرد قميناً بلطف الله وعنايته وجديراً بأن يكون هادياً للناس أجمعين. يقول (السير وليم موبر): «إن النبي محمداً في شبابه طبع بالهدوء والدعة والطهر والابتعاد عن المعاصي التي كانت قريش تعرف بها». فمن

(١) لذلك يستحب التكبر في الزواج. وفي الحديث: «من تزوج أحرز نصف دينه فليثق الله في النصف الآخر». وفي آخر: «ما بني بناء أحب إلى الله تعالى من التزويج». ويكره أن تحيض البنت في بيت أبيها. ويستحب لمن أراد التزويج أن يصلي ركعتين ويقول بعد الانتهاء: «اللهم إني أريد أن أتزوج، فقدر لي من النساء أعفهن فرجاً وأحفظهن لي في نفسها ومالي وأوسعهن رزقاً وأعظمهن بركة وقدر لي ولداً طيباً تجعله خلف صالحاً في حياتي وبعد موتي».

كان في شبابه مثلاً لطهارة النفس والعفة إلى حد بعيد، يستحيل أن يجري وراء الشهوة واللذة بعد بلوغه سن الاكتمال والرزانة. وهو يخوض معارك طاحنة مستمرة. فقد اكتفى بخديجة عليها السلام وهي أكبر منه ١٥ سنة إلى أن بلغ ٥٤ من عمره. ثم تزوج بسودة ثم بعائشة تلبية لرجاء أبي بكر حيث شاهد الرسول ﷺ مغموماً على فراق خديجة عليها السلام، ثم تزوج بالمعجائز والأرامل اللاتي فاتهن سن الشباب وقد أصبحن بلا عائل لأنه قد استشهد أزواجهن في الغزوات ولقد تنبه بعض كتاب المسيحية المنصفين فقالوا: «إنه لا يمكن أن يكون الدافع لمحمد على الإكثار من زوجاته في هذا الوقت إلا الرحمة والشفقة. ومن البعيد جداً أن يكون قد قصد من هذا اللذة والمتعة، لأن من تزوج منهم كنَّ متقدّمات في السن وأرامل فقيرات».

لا سيما وأن الرسول قد أمر بالتهجد وإحياء بعض الليل بالصلاة. وتلاوة القرآن ومناجاة ربه، وما أعظمها، وذلك لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْمِلُ^(١)﴾ ﴿قُلْ أَيْلٌ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿يَضَعُهُ أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَبِّيَ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: الآيات ٤/١]. ثم يقول: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي إِلَيَّ وَنَضَعُ وَثْقَتَهُ مِنْ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ بِقُدْرِ أَيْلٍ وَالتَّهَارُّ﴾ [المزمل: الآية ٢٠]. وقد ثبت من حياته ﷺ أنه كان يقرأ القرآن وهو قائم في صلاته حتى تتورم قدماه. فأين الوقت الذي يبقى بعد ذلك حتى يبلغ فيه مراده من اللذائذ مع ما هنالك من غزوات وحروب؟

وكان في استطاعة الرسول ﷺ أن يمتلك الجواري والعبيد ويعيش في قصور وتكون له أبهة كسرى وعظمة هرقل، لكن رضي ببساطة المسكن والملبس، وكان يشد على بطنه حجر المجاعة. ولما رأت زوجاته أن نساء المسلمين قد تغيرت أحوالهن وأصبحن تثقلن في النعيم شكون إليه، وكنَّ يعتقدن أنهن صاحبات حق في التمتع بما يتمتع به غيرهن، بسبب الرخاء الذي أصاب الدولة الإسلامية. فنزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَوَلَدَهَا فَفَعَالَيْنَّ أُمَمِعْكُمْ وَاسْرِيحْكُمْ سَرَامًا جَمِيلًا﴾ ﴿٧٨﴾ وَلَئِنْ كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ

(١) المزمل: أي المتزمل. أدغم التاء في الزاء. من تزمل: أي تلفف ثيابه. خوطب به ﷺ لأنه ارتعد بدء مجيء جبرئيل. فقال: زماوني او من: تزمل الزمل أي تحمل الحمل، أي المتحمل لأعباء النبوة.

وَرَسُولُهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٨﴾ [الأحزاب: الآية ٢٨/٢٩].

وقد قلنا أن من أهم الصفات التي تجعل الفرد قريباً إلى الله تعالى وموضع لطفه ورفده إنما هو (الشكر). ذلك لأن الكمال الإنساني إنما يتجلى بأدائه واجب الشكر تجاه المنعم، لذلك يقول الله تعالى وهو الحق: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: الآية ٥٣].

إن المشركين أخذوا يزدرون الذين آمنوا، يعترضون على إيمانهم، لأن هؤلاء المؤمنين ما كانوا يملكون من المال والجاه شيئاً وذلك بقولهم: إزدراء، ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: الآية ٥٣]. وقد فاتهم أن الإيمان رuchi، يتوجه إلى النفس الإنسانية مباشرة، ولا علاقة له بالمال والجاه. والإيمان يحل في النفوس الشاكرة. فكلما كانت النفس شاكرة أكثر كان إيمانها أقوى وأمتن، حتى ينتهي إلى الوصاية والنبوة. والنفس الشاكرة ليس لها إمارات خارجية وعلامات فارقة مادية كالثياب الفاخرة وأعوان وأنصار ومنصب وجاه. وقد تجد هذه النفس الشاكرة في رقاد ولا تجدها في قارون.

نعم، إن هؤلاء المتكبرين كانوا يقولون: «لو كان خيراً ما سبقونا إليه». أي لو كان ما أتى به محمد خيراً ما سبقنا إليه، هؤلاء الفقراء المهينون ونحن أرفع منهم. كان الخير يتبع المال والمنال والجاه والمنصب. حين أن هذه الأمور عوائق تعوق النفس الإنساني من أن تتوجه نحو الحق والواقع لو لم تستعمل في ما أمر الله به، ولم تؤد حقوقها وواجباتها، وقل من يقوى عليها إلا من رحم الله.

روي أن أبا جهل قال: «زاحمنا بني عبد مناف في الشرف حتى إذا صرنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يوحى إليه، والله لا نرضى به ولا نتبعه أبداً إلا أن يأتينا وحي كما يأتبه فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا

يَتَكُورُونَ ﴿١٢٤﴾ [الأنعام: الآية ١٢٤] ^(١). فإن هؤلاء المعترضين كانوا مع إجرامهم وأثامهم وفسوقهم يريدون أن يكونوا أنبياء. حين أنهم يستحقون الصغار والهوان والعذاب والخزي بما كسبت أيديهم. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: الآية ١٨٢]. فالبشر كلهم في نظر الله على حد سواء. من أطاع منهم بلغ مراتب عالية حتى تنتهي إلى النبوة أو ما يقارب النبوة، وقد جاء في الحديث القدسي، أن الله تعالى يقول: «عبيدي أطعني أجعلك مثلي تقول للشيء كن فيكون». أرأفة أعظم من هذه؟ يعطي الله عبده إذا أطاعه صفة الخالقية والإيجاد بإذنه تعالى: يقول للشيء كن، فيكون. وهذه هي المعاجز التي ظهرت على أيدي الأنبياء والأوصياء عليهم السلام بإذن الله تعالى وقدرته جلّ وعلا.

ثم يجب أن تكون نفس النبي نفساً متعلقة بالحق لا تفتقر عن التوجه إلى الله ومناجاته تعالى وذكره جلّ وعلا طرفة عين أبداً. لا ترى شيئاً إلا وترى الله معه وقبلة وبعده.

إن النبي ﷺ كان لا يقوم بعمل إلا ويذكر الله تعالى. يراقب الله في جميع الأمور ويخشاه. فإذا جاءه أمر يحبه، قال: «الحمد لله الذي بنعمته تنمو الصالحات». وإذا أتاه أمر يكرهه، قال: «الحمد لله على كل حال». وإن قصد فعل شيء، قال: «اللهم خرلي واختر لي». وإن أراد سفرأ، قال: «اللهم بك أصول وبك أجول». وإذا أراد نوماً، قال: «اللهم باسمك وضعت جنبي وباسمك أرفعه». وإذا استيقظ قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور». وإن لبس ثوباً جديداً، قال: «الحمد لله الذي رزقني ما أتجمل به في حياتي». وإن أكل، قال: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا من المسلمين». وإن شرب، قال: «الحمد لله الذي جعل الماء عذباً فراتاً برحمته ولم يجعله ملحاً أجاجاً بذنوبنا». وإذا أفطر، قال: «الحمد لله الذي أعانني فصمت ورزقني فأفطرت». وإذا رفع بصره إلى السماء، قال: «يا مصرّف (مقلب) القلوب ثبت قلبي على طاعتك». وإذا أصابه هم، قال: «حسبي الخالق من المخلوقين، حسبي الرازق من المرزوقين، حسبي الذي هو حسبي، حسبي الله ونعم الوكيل».

فهذه الصفات هي بعض ما يجب أن يتوفر في من يناط به تكميل الناس أجمعين.

ثم إن قدسية النفوس لتؤثر في سيماء الأبدان فتضفي عليها نوراً وبهاءً، من شاهدها ابتهج وسكن إليها وآمن بها، يعلم ذلك من خالط الأتقياء والصالحين من عباد الله. فكان وجه رسول الله يتلأأ تلالو القمر ليلة البدر. ولذلك كان يأتيه الأعراب، فيقولون حين وقوع أبصارهم على محيَّاه: والله ما هذا الوجه بوجه كذاب.

ولامراء، إن الصدق يصاحب الخير والبر، والكذب يساير الفجور والشر؛ وعلى ذلك كانت خديجة سلام الله عليها، تعلم من النبي ﷺ أنه الصادق البار. تقول للنبي ﷺ حين جاءه الوحي «والله لا يخزيك الله أبداً. إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتُقري الضيف وتكسب المعدم وتعين على نوائب الحق»^(١).

قال ابن سعد في الطبقات: «كان محمد ﷺ قبل النبوة، أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً وأكرمهم مخالطة، وأحسنهم جواراً وأعظمهم حِلماً وأمانة وأصدقهم حديثاً، وأبعدهم عن الفحش والأذى وما روى ملاحياً»^(٢) ولا ممارياً^(٣) أحداً حتى سماه قومه الأمين»^(٤).

وكان رسول الله وهو الذي بُعث رحمة للعالمين، يجلس على الأرض تواضعاً وينام عليها ويخصف النعل ويرقع الثوب ويفتح الباب ويحلب الشاة ويعقل البعير ويطحن مع الخادم إذا أعبى، ويضع طهوره بالليل بيده ولا يجلس متكئاً، ويخدم في مهنة أهله، ويقطع اللحم ولا يثبت بصره في وجه أحد، يغضب لربه ولا يغضب لنفسه، وكان يعصب الحجر على بطنه من الجوع ويلبس الغليظ من القطن والكتان ويشيع الجنائز ويعود المرضى في أقصى المدينة ويجالس الفقراء ويؤاكل المساكين ويناولهم بيده ويكرم أهل الفضل في أخلاقهم ويتألف أهل الشر بالبر إليهم، يصل ذوي رحمه من غير أن يؤثرهم على غيرهم إلا بما أمر الله، يقبل معذرة المعتذر إليه. وكان أكثر الناس تبساً ما لم ينزل عليه قرآن، لا يرتفع على عبيده وإمائه في مأكلا ولا في ملبس، يأكل مع الخادم ويحمل بضاعته من السوق، لا يأتيه أحد حر أو عبد أو أمة إلا قام معه في حاجته، ولا يجزي السيئة بالسيئة ولكن يغفر ويصفح، ويبدأ من لقيه بالسلام، وإذا

(١) العدد القوية: ص ٣٤٠.

(٢) مجادلاً.

(٣) منازعاً، وفي المثل من قد لاحاك فقد عاداك. (٤) الطبقات الكبرى لابن سعد: ج ٦، ص ٢١٨.

لقي مسلماً بدأه بالمصافحة . وكان لا يجلس إليه أحد إلا خفف صلاته وأقبل عليه وقال : «ألك حاجة»؟ . وكان يجلس حيث ينتهي به المجلس ويأمر بذلك . وكان أكثر ما يجلس مستقبل القبلة . وكان يكرم من يدخل عليه حتى ربما بسط له ثوبه . ويؤثر الداخل بالوسادة التي تحته . وكان في الرضا والغضب لا يقول إلا حقاً ، وإذا لقيه الرجل فصافحه لم ينزع يده من يده حتى يكون الرجل هو الذي ينزعها . وإذا لقيه أحد فقام معه أو جالسه أحد لم ينصرف حتى يكون الرجل هو الذي ينصرف .

كان صلوات الله عليه أشجع الناس قلباً وأشدّهم بأساً وأكثرهم حياءً . لا أعلم أن رجلاً يقوى على أن يثابر على صفة واحدة من هذه الصفات السامية طيلة حياته مهما عظمت نفسه وتكاملت روحه ، إلا إذا كان نبياً أو وصي نبي أو بالأحرى من كان جزاءه النبوة أو الوصاية . نعم ، إن صفات الكمال لا تصدر إلا عن نفس قدسية وروح ملكوتية قد تخلصت من قيود الأهواء وتحررت من عبودية الشهوة ، وحبّ الصيت واستمدّت من النور الإلهي والهداية الصمدانية .

يجب أن تكون نفس النبي باللغة من القدسية درجة يتحمل معها الوحي ويقوى على الاتصال بالمبدأ الأعلى . وكان نبينا صلوات الله عليه مع تلك القدسية البالغة يرجف ويعرق حين نزول الوحي عليه ويقول : «زملوني» .

فكان يغطى إلى أن يذهب عنه الروح . لذلك خاطبه الله تبارك وتعالى بقوله :

﴿يَا أَيُّهَا الْمُرْسَلُ ﴿١﴾ قَرِ أَيْلًا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾﴾ [المزمل : الآيتان ١/٢] .

ولما قدم (جارود) على النبي ﷺ ، قال : «إن كنت نبياً فأخبرني عما أضمرت» . فخفق الرسول خفقة كأنها سِنَّة ، ثم رفع رأسه والعرق يتحدر عنه . فقال : «إنك أضمرت أن تسألني عن دماء الجاهلية وعن حلف الجاهلية وعن المنيحة في الإسلام . ألا وإن دم الجاهلية موضوع ، وحلفها مردود . ولا حلف في الإسلام ، ألا وإن أفضل الصدقة أن تمنح أخاك ظهر الدابة ولبن شاة»^(١) .

وقد تأثر بعض علماء المسلمين بروح الغرب المادية، ففسّروا القرآن متأثرين بالمادية العصرية وأنكروا نزول الوحي بواسطة جبرئيل ﷺ. وأنكروا وجود الجن. وقالوا إن روح محمد قد بلغت مرتبة من السموات حتى صارت تتجلى لها الحقائق، وخالفوا صريح القرآن والسنة المتواترة والعقل. وقاسوا الأمور الروحية وما هو وراء الطبيعة بمقاييس مادية طبيعية ولم يحتملوا أنه سيأتي يوم، يعترف فيه فلاسفة عظام بما وراء المادة. ذلك لأن الروح الإنسانية مهما تعرفت على حقائق المادة، ليس لها إذا أرادت التكامل في عوالم النفس إلا أن تستفيض من ما وراء الطبيعة. ولا بد لها أن تستقي من المبدأ الأعلى الفياض بواسطة سفراء بين الله وعباده وهم الأنبياء ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُمْ عَلَىٰ حَكِيمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشورى: الآية ٥١].

إن النفس القدسية التي لا تجارها النفوس المتعارفة أو ما هي فوق المتعارفة لا تسيل إلى الدنيا وزخارفها وتتوجه إلى الله تعالى بكلها. فنبينا محمد ﷺ أعرض عن زخرف الدنيا وحضارتها ولم يستمتع بحلاوتها وقد ملك من أقصى الحجاز إلى عذار^(١) الفرات ومن أقصى اليمن إلى شحر^(٢) عمان وهو أزهّد الناس في ما يُقتنى ويدخر، وأعرضهم عما يستفاد ويعتكر. أتى يوماً إلى داره، فرأى ستاراً قد علق على الباب، فقال: «ارفعوه، إنه ليذكرني الدنيا»..

ويقول فيه السير (وليم موير): «إمتاز محمد ﷺ بوضوح كلامه وبُسر دينه، وأنه أتمّ من الأعمال ما يدهش الألباب. فلم يشهد التاريخ مصلحاً أيقظ النفوس، وأحيا الأخلاق ورفع شأن الإنسانية في زمن قصير كما فعل محمد ﷺ».

نعم، يجب أن يكون النبي محقراً للدنيا، متوجهاً إلى العالم الأعلى، نفسه في اللاهوت ويدنه في الناسوت. فالدنيا، كما يقول الإمام علي عليه السلام: «إن الدنيا دار مجاز

(١) العذار من النصل: شفرتها. أو جانب اللحية أو الشعر الذي يحاذي الأذن.

(٢) شحر عمان: ساحل البحر بين عُمان وعدن.

والآخرة دار قرار، فطوبى لمن أخذ من ممره لمقره^(١).

أنظروا كيف يصف عليٌّ عليه السلام نبينا محمداً عليه السلام، إنه يقول: «قد حُقِر الدنيا وصغرَها وأهون بها وهونها وعلم أن الله زواها عنه اختياراً وبسطها لغيره احتقاراً. فأعرض عنها بقلبه وأمات ذكرها عن نفسه وأحب أن تغيب زينتها عن عينه، لكيلا يتخذ منها رياشاً أو يرجو فيها مقاماً. بلغ عن ربه مُعذراً، ونصح لأمته منذراً، ودعا إلى الجنة مبشراً. وخوف من النار محذراً نحن شجرة النبوة ومحط الرسالة ومُختلف الملائكة ومعادن العلم وينابيع الحكم. ناصرنا ومحبننا ينتظر الرحمة، وعدونا ومبغضنا ينتظر السطوة»^(٢).

لقد دخل على رسول الله عليه السلام بعض الأعراب فارتاع من هيئته. فقال: «خُفِّض عليك، فإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة»، وكان صلوات الله عليه يمتزج بأصحابه وجلسائه، فلا يتميز عنهم إلا بإطراقه وحيائه وجليل سَمته وروائه. وكان صلوات الله عليه جالساً ذات يوم في بعض أسفاره تحت شجرة، فاخترط أعرابي سيفه عليه، فأرعدت يده وسقط منها السيف ومع ذلك عفا عنه. فرجع الأعرابي إلى قومه قائلاً: «جتكم من عند خير الناس».

ومن صفاته الخارقة: أنه صلوات الله عليه كلما رجع إلى بيته ألقى يهودي من أعلى بيته على رأسه الشريف طبقاً من رماذ، فاقتده رسول الله عليه السلام بعد أيام، إذ رأى أنه لا يقوم بعادته! فقليل إنه مريض. فعاده في مرضه، فلذاب هو وزوجته حياءً وخجلاً وأسلما. فمن أراد الكمال وأراد أن يتخلص من برائن المادة وظلماتها التي تجعل الإنسان كالبهيمة أو أحط منها، فليتمسك ببعض هذه الصفات الجليلة، ليرى كيف يتسامى عن حضيض المادة وكيف يزداد معرفة بالله تعالى.

لا بد لهذا الإنسان من أن يسير سيره التكاملي، ولا تكامل إلا بجعل سيرة النبي محمد عليه السلام مثلاً رفيعاً يقتدى به. فالإنسان إن لم يكن محمدياً في صفاته وأعماله فهو غير متكامل نفسياً لا محالة. ولا مرأ أن الإنسان إنسان بنفسه لا بماله وبدنه وما حوله من أجهزة وآلات وما يسكنه من بيوت وقصور. إذ التكامل أمر نفسي. فطوبى لمن لم

(١) نهج البلاغة: ص ٣٢٠، خ ٢٠٣ بغاوت. (٢) نهج البلاغة: ص ١٦٢، خ ١٠٩.

تغرّه المادة وتشويهات الماديين الذين إذا استعمروا النفس فقد استعبدوا الإنسان استعباداً ما بعده استعباد.

قد سبق في علم الله أنه سوف لا يأتي بعد محمد ﷺ شخص يطيعه إطاعة تامة كإطاعة محمد ﷺ ويقوم بواجب الشكر كما يقوم به محمد ﷺ. وتجمع نفسه من الكمالات والفضائل ما جمعتها نفس محمد ﷺ. لذلك يخاطبه الله تعالى: ﴿وَأِنَّكَ لَكَلِمٌ خُلِيٍّ عَظِيمٍ﴾ [الْقَلَمُ: الآية ٤]. فيختم به النبوة والرسالة، ويرسل معه قوانين خالدة ما بعدها دستور، أحكام وتعاليم تؤدي إلى سعادة الدارين: «حلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرام محمد حرام إلى يوم القيامة». وذلك بقوله: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّحَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الْحَرَاب: الآية ٤٠].

وحاشا لله أن يصدّ سائر الناس عن البلوغ إلى هذه المرتبة من الكمال (أي النبوة) بعد محمد ﷺ. ولكنه تعالى علم بما سيكون. وأن العلم بما سيكون من لوازم كمال الله تعالى. والعلم بما سيكون لا يوجب أن يكون شخص مطيعاً وآخر عاصياً. إذ العلم بالشيء غير الجبر في تحقيقه. فإن العلم لا ينافي الاختيار. ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَالِفِينَ﴾ [الصَّافَات: الآية ٣٠]. وهذا رد على المجبرة القائلين بالجبر. فالله لطيف بعباده، يهديهم سواء السبيل، ولكنهم لعدم إطاعتهم يتعدون عن ساحة الله القدسية ويقولون: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٨] ^(١). ولكن من اتبع سنة محمد وآله الأطهار سلام الله عليهم أجمعين يبلغ مرتبة من الكمال حتى يكون كأحد أنبياء بني إسرائيل. كما في الحديث: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل».

يقول علماء الاجتماع: إن النبوغ نتيجة تكامل اجتماعي؛ أي إن العظيم يأتي

(١) تخرصون: أي تكذبون.

متأثراً بعوامل البيئة وظروف الوسط الاجتماعي . إنهم يقولون ، إذا ظهرت في بيئة ما مشكلة من المشاكل العقلية مثلاً وأخذت تشغل الأذهان واشتد الجدل حولها بين الناس واضطربت الأفكار ، ظهر الفيلسوف الحكيم ! لحلّ غوامض هذه المشكلة وبيان وجه الصواب . وإذا طغت موجة من موجات الفتح في بيئة ما ظهر القائد الذي يقود الجيوش ليستولي على البلاد . وهكذا في كل ضرب من ضروب النشاط الإنساني . ويقولون إن العظيم إنما يبرز في ناحية واحدة .

فكيف إذن ، ظهر محمد ﷺ في بيئة تصفها فاطمة الزهراء سلام الله عليها بقولها : «وكنتم على شفا حفرة من النار . مذقة^(١) الشارب ونُهزة^(٢) الطامع وقُبسة العجلان^(٣) وموطئ الأقدام^(٤) ، تشربون الطرق^(٥) وتقتاتون القِد^(٦) ، أذلة خاسئين . تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم فأنقذكم الله تبارك وتعالى بأبي محمد بعد اللتيا^(٧) والتي^(٨) ، وبرز صلوات الله عليه في نواح متعددة خلافاً لما يقوله علماء الاجتماع . . ذلك أمر رباني ومعجزة إلهية .

إن قوانين علم الاجتماع لا تنطبق على ما هو خارج عن نطاق البشر العادي أو فوق العادي بقليل . وأن الله تعالى إتماماً للحجة يبعث النبي الكامل في وسط فاقد الكمال ، كي لا يقال : أن التدرج الاجتماعي أو التكامل الاجتماعي هو الذي أدى إلى إيجاد نابغة من النوابع أو جهبذة من الجهابذة . على أن التكامل الاجتماعي الذي يقول به علماء الاجتماع تكامل في عالم المادة والعلوم المادية أكثر منه في عالم تكامل

(١) أي شربته .

(٢) لنهزة ، بالضم أي الفرصة .

(٣) القُبسة ، بالضم : شعلة من نار تقتبس من معظمها والإضافة إلى العجلان لبيان القلة والحقارة .

(٤) مثل يضرب للمغاوية والذلة .

(٥) الطرق ، بالفتح : ماء السماء الذي تبول فيه الإبل وتبعر .

(٦) سير بقدر من جلد غير مدبوغ . أو لشيء المقدود . قدد اللحم : جعله قطعاً وجففه .

(٧) كناية عن الداهية الصغيرة والكبيرة . واللتيا تصغير (التي) .

(٨) الاحتجاج للطبرسي : ج ١ ، ص ١٠٠ ، احتجاج فاطمة ﷺ .

النفس، كما نشاهد ذلك في الغرب. بل يكاد أن لا تكون علاقة بينه وبين التكامل الروحي والأخلاقي.

ثم يجب أن لا يعزب عن البال إنه لا نسبة بين النوايغ والأنبياء ﷺ. إذ النبوغ على ما يعرفه علماء الاجتماع: نبوغ فكري في خواص المادة والوقوف على بعض ما أودع الله فيها من خواص وذلك تفضلاً منه. ولا يخرج هذا النبوغ عن التفكير في خواص المادة والأوضاع البشرية من النواحي المادية. حين أن النبوة سموً روحاني وتقرّب إلى الله تعالى إلى درجة تؤدي بلطف الله ومشيتته وإذنه إلى خوارق يعجز عنها النوايغ كلهم أجمعون.

النبوغ كما يصفه (بوفون) دقة متناهية، فهي لا تخرج عن حدود المادة أي استعمال الحياة العقلية (أعني الفكرية) بدقة فائقة في الأمور المادية. فكم رأينا من النوايغ هم من أخط الناس في عالم تكامل النفس. إذ لا علاقة بين النبوغ والتفكير الفائق في خواص الأشياء وربط بعضها ببعض. وبين الكمال النفسي. إلا إذا كان هذا النبوغ في عوالم تزكية النفس وتحليلتها بالفضائل. وإن المشاهدات الآتية تبرهن لنا صحة ما أقول مع أن القضية ثابتة بطريق عقلي.

نقل لي أحد طلاب دار المعلمين العالية في إحدى العواصم أنه رأى ذات ليلة أستاذه الدكتور في الفلسفة والتربية ملقى على قارعة الطريق بحالة يرثى لها، ثملاً فاقد الشعور، قال: فلم استطع أن أرى أستاذي في هذه الحالة المخزية، فحملته في سيارة إلى فندق كان يسكنه وأخذت أعالجه حتى صحا. فقلت ما هذا يا دكتور؟! ووصفت له ما كان به، فقال: «أقتل مرارة الحياة بمرارة الخمرة»! وقال أيضاً: رأيت دكتوراً آخر في الآداب كان يرتاد محلات البغاء والفجور بصورة علنية ولا يبالي كأنه جاء بأمر معتاد. وكان في إحدى الجامعات أستاذ بلغ في الرياضيات العالية مرتبة النبوغ، ذا مؤلفات مهمة عميقة، وقد قام بتأليف كتاب يشتمل على ٤ مجلدات، يحقق فيه ما قام به المسلمون في العهد العباسي من خدمات جمة في عالم الرياضيات. وقد طلبت إليه وزارة المعارف في أمريكا أن يمنحها رخصة الترجمة بإزاء مبلغ جسيم، فأذن بذلك وقبض الدراهم وأصبح

لا يرى مدة شهرين . فعُلم بعد ذلك أنه خلا بالعاهرات والبغايا فأصيب بسبب ذلك بمرض زهري مميت (سيفيليس) فآدى به إلى الجنون ومات في دار المجانين .

نستنتج مما ذكر أن النبوغ والشهادات العالية لا تعمل في كبح الشهوات وتقوية الإرادة بصورة موجبة ، تلك الإرادة التي تراقب الله وتستعمل في ترك محارم الله وتقاوم رغبات النفس الأمارة بالسوء وتضادها . فإن النفس الإنسانية أينما وجهتها تتقوى في تلك الجهة . فإن وجهتها نحو الرياضات الروحية والتخلق بالأخلاق الفاضلة قويت في هذه الناحية وإن وجهتها نحو تتبعات علمية مادية وأهملت أمر تكامل النفس وتزكيتها وتحليلتها بالملكات الفاضلة نبغت في الناحية العلمية المادية مع نفس قد تكون أخط من نفس البهائم . ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْآنَثَمُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [مَحَمَّد : الآية ١٢] .

فلا علاقة بين النبوغ من الناحية العلمية للتطلع على خواص المادة أو على طباع المجتمع (نفسيات المجتمع) ومظاهر الفرد ، وبين سمو النفس وتكاملها . وقد التبس الأمر في ذلك على كثيرين لاسيما الشبيبة المثقفة بثقافة العصر . يرى الشاب أن أستاذه الغربي يقول (مثلاً) مجموع زوايا مثلث يساوي زاويتين قائمتين ، أو أن ضغط كتلة معينة من الغاز يتغير تغيراً عكسياً مع حجمه عندما تبقى درجة الحرارة ثابتة أو أن الشعاع الحامل الذي يوصل الشمس إلى إحدى السيارات يرسم ويقطع في أزمنة متساوية سطوحاً متساوية ؛ ويستدل له على ذلك كله ببراهين صحيحة . فيزعم أو يوقن الشاب المتعلم أن كل ما يقوله أستاذه الغربي في عالم تكامل النفس وعوالم الروح والدين صحيح ، مع علمه أن هذا ليس من اختصاصه . فينقاد إلى رأي أستاذه في ما لم يختص فيه ويتابعه في عقائده ونفسياته المادية . ومن هنا أوتي الشرق وأصيب بما أصيب به من تبليل في العقائد والأخلاق والآداب الإسلامية المثالية .

نعم ، قد بُهت الشرقي عندما رأى الحياة الصناعية في أوروبا وأمريكا يسندها قوانين رياضية وتجارب علمية دقيقة وحياة قد توفرت فيها أسباب الراحة بصورة ظاهرية لاسيما إذا نظر إليها من الخارج ، فظنَّ بل أيقن أن كل ما يقوله الغربي في الدين والأخلاق والفلسفة صحيح ، فاستقى من فلسفته المادية الزائفة أكثر من أن يأخذ من

رياضياته وطبيعياته وصنایعه، بل أخذ من أخلاقه واستهتاره بالمقدسات وخلاعه ومراقصه ومجونه وطيشه، ترفه قبل أن يأخذ من مخترعاته ويتعب ذهنه في حل غوامضها، ذلك لأن النفس ميالة إلى التسافل والتدنس. وفي اقتباس الاختراعات أو القيام بشيء من الاكتشافات من الصعوبات التي لا تلائم النفس الميالة إلى الشهوات أو الراحة. والنفس الأمارة بالسوء ميالة إلى التجرد من القيود. وليست وسائل تكميل النفس إلا قيوداً! والنفس تستسيع الخلاعة والاستهتار والانغماس في الخمر والفجور قبل النظريات العلمية. فتلبسها لباس المدنية والحضارة ويكون هذا الاسم المغري مبرراً لشهواتها ونزواتها. لذلك كله دبّ في الشرق التبليبل وتشتت الأفكار والآراء: بين مغال يريد قلب البلاد الإسلامية إلى بلدة غربية بجميع مظاهرها وبين محافظ على الطرق الصناعية القديمة البائدة في الحياة المادية. فأخذ المتطرف من المسلمين يشك في النبوات والقضايا الروحية وقيسها بمقياس مادي مقتضب، فقد قال لي من أكمل دراسته العالية في باريس لماذا ظهر الأنبياء كلهم من الشرق ولم يظهر نبي في الغرب؟ وإن ما أسلفناه من الشروط والشروح كاف لمن توخى الحقيقة.

ولا ريب أن شروط النبوة ليست بشروط صناعية ميكانيكية حتى توجد في أوروبا وأمريكا وإنما هي روحية بحتة. «ثم إن أوروبا كانت مادياً منذ زمن الرومانيين وقبلهم»^(١) وإن الاتجاه الديني مبني دائماً على العقيدة بأن هنالك قانوناً أدياً مطلقاً شاملاً وأنا نحن البشر مجبرون على إتباعه ولكن المدنية الغربية لا تقرر الحاجة إلى خضوع ما، إلا لمقتضيات اقتصادية أو اجتماعية أو قومية. إن معبودها الحقيقي ليس من نوع روحاني، ولكنه الرفاهية (Confort) وأن هذا موروث عن المدنية القديمة. وليس هناك وجه شبه بين الإمبراطورية الإسلامية والإمبراطورية الرومانية، وإن عدل الرومانيين كان عدلاً لأنفسهم وحدهم وكان الاتجاه مبنياً على اتجاه مادي خالص للحياة والحضارة. إدراك مادي هذبه ذوق فكري. ولكنه على كل حال بعيد عن القيم الروحية. إن الرومانيين لم يعرفوا الدين وإن آلهتهم الحقيقية لم تكن سوى خرافات يونانية وبعيدة من أن تمنح

(١) من كتاب «الإسلام على مفترق الطرق» تأليف (ليوبولدفايس) الذي قد تشرف باعتناق دين الإسلام.

البشر شرائع خلقية . تلك كانت التربية التي نمت فيها المدنية الغربية الحديثة . والحقيقة الثابتة أن كل ما هو اليوم حقيقي في الاستشراق^(١) الغربي للحياة والأخلاق يرجع إلى المدنية الرومانية . وكما أن الجو الفكري والاجتماعي في رومية القديمة كان نفعياً غير ديني ، فكذلك هو الجو في الغرب الحديث . ولم يؤثر المسيحية في أوروبا ولم تطف شيئاً من جوها المادي ، إن الأسس الفكرية الحقيقية في الغرب يجب أن تطلب في فهم الرومانيين القدماء للحياة على أنها قضية منفعة خالية من كل استشراق مطلق وكأن الغربي يقول : بما أننا لا نعرف شيئاً من طريق الاختبار العلمي والتقدير في الحساب ، لا عن أصل الحياة الإنسانية ولا عن مصيرها بعد موت الجسد ، فإن من الخير لنا أن نحصر قوانا في وجوه إمكاننا المادي والفكري من غير أن نسمح لأنفسنا بأن نتقيد بالأخلاق المطلقة والقضايا الأدبية المبنية على دعاوى تتحدى الأدلة العلمية^١ .

فأخطأ الغربي في التطبيق والقياس لظلمات في النفس وقاس الأمور الروحية البحتة بمقاييس تستعمل في المختبرات كمتشاعر كان يزن شعره بالسانيمترات ! نعم ، أراد الغربي أن يجد قوانين الكمال الروحي ومعالم الدين تحت المجاهر والمخابر . وقلده الشرقي فانجرف نحو المادة الصماء وترك روحياته الفواحة التي بها يسمى الإنسان إنساناً .

فكيف - مع ما قدمنا من مقدمات - يتتظر أن يظهر نبي من أوروبا أو أمريكا . الشرق مهد الثقافات الدينية ومعهد تكامل النفوس الإنسانية ومهبط الوحي . نبغ فيه بنتيجة تربية الأنبياء ﷺ أناس أفذاذ تطهروا من الدنس والرجس يباهي بهم الله وملائكة السماء ..



والوصي ، وهو الذي يقوم بعد النبي بأعمال النبي (عدا تلقي الوحي) وليس بنبي ، مستجمعٌ لصفات النبي وكمالاته ، فهو معصوم ، يأتمر بأوامر الله وينتهي بمناهيه ، ذلك

(١) استشرف : رفع بصره لينظر إليه باسطاً كفه فوق حاجبه .

لأن من يرتكب المعاصي حتى صغائرهما تسقط منزلته من النفوس، فلا يكون رادعاً لها. فالعصمة في الأوصياء أمر طبيعي لا يشك في وجوبها من له إمام بروحيات المجتمع والجماعات. وقد دلت الأخبار القطعية أن الأئمة من لدن أمير المؤمنين ﷺ إلى الحجة المهدي عجل الله تعالى فرجه كانوا في غاية الكمال منزّهين عن كل عيب خلقي أو خلقي، معصومين عن كل ذنب، «كانوا مصابيح الدجى»^(١) وأعلام التقى وذوي النهى وأولي الحجى^(٢) وكهف الورى وورثة الأنبياء والمثل الأعلى والدعوة الحسنى وحجج الله على أهل الدنيا؛ والأدلاء على مرضات الله والتأمين في محبة الله والمخلصين في توحيد الله والمظهرين لأمر الله ونهيه وعباده المكرمين الذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون؛ قد اصطفاهم الله بعلمه وارتضاهم لغيبه واختارهم لسره واجتباهم بقدرته وخصهم ببرهانه، كانوا خزنة لعلمه ومستودعاً لحكمته وتراجمة لوحية ومناراً في بلاده وأدلاء على صراطه،^(٣) يقول الإمام علي عليه السلام: «إنه ليس على الإمام إلا ما حُمِّل من أمر ربه، إلا البلاغ في الموعظة والاجتهاد في النصيحة والإحياء للسنّة وإقامة الحقوق على مستحقّيها وإصدار السهمان»^(٤) على أهلها»^(٥). ويقول الإمام علي عليه السلام في موضع آخر عن آل البيت عليهم السلام: (هم) موضع سره ولجأ أمره وعيية^(٦) علمه وموئل حكمه وكهوف كتبه وحبال دينه، بهم أقام انحناء ظهره وأذهب ارتعاد فرائضه، إلى أن قال عليه السلام: «لا يقاس بآل محمد ﷺ في هذه الأمة أحد ولا يسوّى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً. هم أساس الدين وعماد اليقين، إليهم يفى المغالي»^(٧) وبهم

(١) مقتبس من الزيارة الجامعة عن الإمام الهادي عليه السلام.

(٢) النهى أو الحجى: العقل.

(٣) من لا يحضره الفقيه: ج ٢، ص ٦٠٩.

(٤) جمع سهم بمعنى الحظ والنصيب وإصدار السهمان إعادتها إلى أهلها المستحقين لها لا يتقصهم منها شيئاً.

(٥) نهج البلاغة: ص ١٥٢، وفيه: إقامة الحدود.

(٦) الوعاء.

(٧) يريد أن المغالي يرجع إليهم ليعتدل. فإن النجاة بالرجوع إليهم.

يلحق التالي . ولهم خصائص حق الولاية . وفيهم الوصية والوراثة . الآن إذ رجع الحق إلى أهله ، ونقل إلى متقله^(١) .

وقد قال علي عليه السلام أيضاً^(٢) : «أين الذين زعموا أنهم الراسخون في العلم دوننا كذباً وبغياً علينا . أن رفعنا الله ووضعهم وأعطانا وحرّمهم . وأدخلنا وأخرجهم . بنا يُستعطي الهدى ويُستجلى العمى . إن الأئمة من قريش ، غرسوا في هذا البطن من هاشم ، لا تصلح على سواهم . ولا تصلح الولاية من غيرهم» .

وقد قال عليه السلام أيضاً : «ولانما الأئمة قوام الله على خلقه وعرفاؤه على عباده ، لا يدخل الجنة إلا من عرفهم وعرفوه ولا يدخل النار إلا من أنكرهم وأنكروه»^(٣) .

وقال عليه السلام : «نحن الشعار»^(٤) والأصحاب والخزنة والأبواب ولا تؤتى البيوت إلا من أبوابها . فمن أتاها من غير أبوابها سمي سارقاً فيهم (يعني آل النبي) كرائم^(٥) القرآن وهم كنوز الرحمن ، إن انطقوا صدقوا وإن صمتوا لم يسبقوا»^(٦) .

وقال عليه السلام يصف فيها آل محمد ﷺ : «هم عيش العلم وموت الجهل . يخبركم حلمهم عن عملهم (وظاهرهم عن باطنهم) وصمتهم عن حكّم منطقهم . لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه هم دعائم الإسلام وولائج^(٧) الاعتصام . بهم عاد الحق في نصابه وانزاح الباطل عن مقامه . وانقطع لسانه عن منبته ، عقلوا الدين عقلَ وعاية ورعاية ، لا عقل سماع ورواية ، فإن رواة العلم كثير ورُعاته قليل»^(٨) .

وهكذا تعمل سنة الكمال بأمره تعالى في ختم النبوة بمحمد ﷺ وختم الوصاية

(١) نهج البلاغة : ص ٤٧ .

(٢) من نهج البلاغة : ص ٢٠٢ .

(٣) نهج البلاغة : ص ٢١٢ .

(٤) ما يلي البدن من الثياب والمراد بطانة النبي ﷺ .

(٥) جمع كريمة والمراد أنه قد نزلت في مدحهم آيات كريمات والقرآن كريم كله وهذه كرائم .

(٦) نهج البلاغة : ص ٢١٥ .

(٧) ولائج جمع وليجة وهي ما يدخل فيه السائر اعتصاماً من مطر أو برد أو توقياً من مفترس .

(٨) نهج البلاغة : ص ٣٥٧ ، خ ٢٣٩ .

بالأئمة عليهم السلام من بعده . فرسول الله محمد ﷺ أكمل الأنبياء وخاتم النبيين . وأوصيائه ، وهم اثنا عشر إماماً ، أكمل الأوصياء وخاتمة الوصيين .

وكان من لوازم سنة الكمال أن يكون الأوصياء من ذرية محمد ﷺ . لأنه من أعطى صفة الكمال يجب أن يكون كاملاً في جميع النواحي وبه يختتم الكمال البشري . إن الكمال سلسلة متصلة الحلقات بين نبينا محمد ﷺ وأولاده المعصومين عليهم السلام . وقد نص عليهم رسول الله في مواضع عدة . فطوبى لنفوس اهتدت بهداهم واستقت من معين علومهم واستفادت من ينبوع كمالهم وعملت بما أمروا به وانتهت عما نهوا عنه ، فسلكت مسالكهم وتابعت خطاهم . وقد روى أحمد والترمذي قال رسول الله ﷺ : «إني تارك فيكم الثقلين : أحدهما أكبر من الآخر ، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي . وإن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض ، فانظروا بـم تخلفوني فيهما» . وقال ابن حجر في صواعقه : قال رسول الله ﷺ : «إني تارك فيكم أمرين لن تضلوا إن تبعتموهما ، وهما كتاب الله وعترتي أهل بيتي» وزاد الطبراني : «إني سألت ذلك لهما ، فلا تقدموهما فتهلكوا ولا تقصروا عنهما فتهلكوا ولا تعلموهما فإنهم أعلم منكم» . وفي حديث آخر : «إن مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح . من ركبها نجا ومن تخلف عنها هلك»^(١) .

فلا كمال لهذا البشر إلا بانتهاج مناهجهم والسير وفق تعاليمهم ولا تكامل للنفس إلا بولائهم ومودتهم : ﴿قُلْ لَا أَتْلُوكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى : الآية ٢٣] .

دروس النبي ﷺ في ساعاته الأخيرة^(٢)

في مثل هذا اليوم يفارق خاتم النبيين محمد بن عبد الله ﷺ هذه الدنيا الفانية ، ويلقي على أمته درساً هو من أهم الدروس في توجيه الأمة نحو السعادة الأبدية . وقد علم رسول الله ﷺ بدنو أجله بإمارات كانت تشير إلى ذلك . منها أن جبرائيل ، كما

(١) رواه أحمد بن حنبل في مسنده وغيره بطرق عدة .

(٢) أُلقيت هذه الكلمة في ٢٨ صفر ١٣٦٧هـ .

روى ابن سعد في الطبقات، كان يعرض عليه القرآن في كل سنة مرة. فلما كان العام الذي قبض فيه عرضه عليه مرتين. ومنها نزول آية: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: الآية ٣٠]، فقد قال بعدها ليتني أعلم متى يكون ذلك، فنزلت سورة النصر: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [١] وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾. فكان يسكت بين التكبير والقراءة بعد نزولها، فيقول سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه. فقليل له في ذلك. فقال: أما إن نفسي نعبت إلي ثم بكى بكاءً شديداً. فقليل له يا رسول الله أوتبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر. قال: فأين هول المظلم؟ وأين ضيقة القبر وظلمة اللحد؟ وأين القيامة والأهوال؟.. لذلك اعتكف^(١) صلوات الله عليه في السنة التي قبض فيها عشرين يوماً حين أنه كان يعتكف كل سنة في شهر رمضان: العشر الأواخر.

وروى أبو إسحاق الثعلبي أن رسول الله ﷺ لما مرض قال لابنته فاطمة رضي الله عنها: أدني مني. فأكبت عليه، فناجاها، فرفعت رأسها وعيناها تهملان، فقال لها أدني مني فدنيت فأكبت عليه. فناجاها، فرفعت رأسها وهي تضحك، فعجبنا لما رأينا، فسألناها، فأخبرتنا أنه نعى إليها نفسه، فبكت، فقال يا بنية، لا تحزني. فإني سألت ربي أن يجعلك أول أهل بيتي لحاقاً بي. فأخبرني أنه استجاب لي، فضحكت.

ثم دعا رسول الله ﷺ الحسن والحسين، فجاءا يصيحان ويبكيان، فوقعا عليه. فقبلهما وشمهما وجعل يترشفهما وعيناه تهملان، ثم أغمى عليه، فأراد علي رضي الله عنه أن ينحنيهما عنه، فأفاق. وقال يا علي، دعني أشمهما ويشماني وأتزود منهما ويتزودا مني، أما أنهما سيُظلمان بعدي ويُقتلان^(٢).

وأمر صلوات الله عليه بلالاً وهو على فراش المرض بأن يجمع الناس، فاجتمعوا، فخرج معصباً بعمامة متوكئاً على قوسه حتى صعد المنبر، فحمد الله،

(١) الاعتكاف: هو اللبث في المسجد بقصد العبادة. وهو مستحب مؤكد. له شروط مشروحة في الرسائل العملية والكتب الفقهية الاستدلالية.

(٢) بحار الأنوار: ج ٢٢، ص ٥٣٢، باب ٢.

وأثنى عليه، ثم قال: معاشر أصحابي، أي نبي كنت لكم، ألم أجاهد بين أظهركم، ألم تكسر رباعيتي، ألم يعقر جبينني، ألم تسل الدماء على حر وجهي حتى لثقت^(١) لحيتي، ألم أكابد الشدة والجهد مع جهال قومي، ألم أربط حجر المجاعة على بطني، قالوا بلى يا رسول الله، لقد كنت على بلاء الله صابراً وعن المنكر ناهياً. فجزاك الله عنا أفضل الجزاء. قال: وأنتم فجزاكم الله، ثم قال: إن ربي عز وجل حكم وأقسم أن لا يجوز ظلم ظالم، فناشدتكم بالله، أي رجل منكم كانت له قبل محمد مظلمة إلا قام فليقتص منه في دار الدنيا، فهو أحب إلي من القصاص في دار الآخرة على رؤوس الملائكة والأنبياء. فقام إليه رجل من أقصى القوم، يقال له سودة بن قيس، فقال له: فذاك أبي وأمي، يا رسول الله، إنك لما أقبلت من الطائف استقبلتك وأنت على ناقتك العضباء ويديك القضيب الممشوق^(٢)، فرفعته وأنت تريد الراحلة فأصاب بطني، ولا أدري عمداً أو خطأ، فقال معاذ الله أن أكون تعمدت. ثم أرسل بلالاً إلى بيت فاطمة عليها السلام. فأتى بالقضيب وناوله رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: أين الشيخ، فقال ها أنا ذا يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، قال: فاقتص مني حتى ترضى، فقال الشيخ فاكشف لي عن بطنك يا رسول الله، فكشف عن بطنه. فقال الشيخ: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أأذن لي أن أضع فمي على بطنك؟ فأذن له، فقال أعوذ بموضع القصاص من بطن رسول الله من النار يوم النار، فقال رسول الله ﷺ: أتغف أم تقتص. فقال: بل أعفو يا رسول الله، فقال ﷺ: اللهم أعف عن سودة بن قيس كما عفا عن نبيك محمد^(٣).

وقد ألقى النبي ﷺ درساً بليغاً حين خرج إلى المسجد، كما يخبرنا المفيد عليه الرحمة، معصوب الرأس معتمداً على أمير المؤمنين بيمنى يديه وعلى الفضل بن العباس باليد الأخرى، حتى صعد المنبر، فقال: «معاشر الناس، قد حان مني خفوق من بين أظهركم، فمن كان له عندي عدة فليأتني أعطه إياها. ومن كان له علي دين

(٣) أمالي الصدوق: ص ٦٣٣، مجلس ٩٢.

(١) لثقت: نديت.

(٢) الممشوق: الطويل الدقيق.

فليخبرني به، معاشر الناس، ليس بين الله وبين أحد شيء يعطيه به خيراً أو يصرف عنه به شراً إلا العمل، أيها الناس لا يدَّع مُدَّع ولا يتمنّ، متمنّ، والذي بعثني بالحق نبياً، لا ينجي إلا عمل مع رحمة ولو عصيتُ لهويت^(١).

وإن رسول الله ﷺ بعد تحقّقه من دنو أجله، جعل يقوم مقاماً بعد مقام في المسلمين، يحذرهم الفتنة بعده والخلاف عليه، ويوصيهم بالتمسك بسته والاجتماع عليها ويحثهم على الاقتداء بعترته والطاعة لهم. روى ابن سعد بسنده عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «إني أوشك أن أدعى فأجيب، وإني تارك فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتي، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي. وإن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما». وقال في مقام آخر على ما جاءت به الرواية على اتفاق وإجماع: «يا أيها الناس، إني فسر لكم. وأنتم واردون عليّ الحوض، إلا أني سائلكم عن الثقلين فانظروا كيف تخلفوني فيهما فإن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يلقياي. وسألت ربي ذلك فأعطانيه. ألا وإني قد تركتهما فيكم، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، لا تسبقوهم فتفرقوا ولا تقصروا عنهم فتهلكوا، ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم^(٢)». ثم إن رسول الله قام بأمور مهمة أخرى حالة مرضه، لتوجيه المؤمنين بل العالم أجمع إلى طريق الحق والسعادة الأبدية، لا مجال لذكرها.

وأخذ يشغل حال رسول الله في مرضه، فقال ادعوا لي علياً، على ما يرويه الطبري، فدُعي، فلما دنا منه، أوماً إليه فأكبّ عليه، فناجاه طويلاً، ثم قام فجلس ناحية، حتى أغفى رسول الله ﷺ. فلما أغفى خرج، فقال له الناس: ما الذي أوعز إليك يا أبا الحسن، قال علمني ألف باب من العلم يفتح لي من كل باب ألف باب. ولا يمكن تحقيق هذا النوع من الإلقاء بمقاييس عادية متعارفة، لأن قياسات أمور هي مما وراء الطبيعة تختلف عن قياساتنا العادية، وليس لنا أن نقيس عوالم الروح بمقاييس

(١)، (٢) بحار الأنوار: ج ٢٢، ص ٤٦٦، باب ١، نقلاً عن الإرشاد للمفيد.

مادية متعارفة، لاسيما إذا كنا ممن لم يقطع في عالم تكامل النفس أشواطاً ولم يبلغ مرتبة في عوالم التزكية والتحلية.

ثم حضر رسول الله ﷺ الموت وعليّ عنده، فلما قرب خروج نفسه قال له: ضع يا علي رأسي في حجرك، فقد جاء أمر الله، فإذا فاضت نفسي فتناولها بيدك وامسح بها وجهك وتولّ أمري وصلّ عليّ أول الناس ولا تفارقني حتى تواريني في رمسي، واستعن بالله^(١).

وكانت وفاته صلوات الله عليه يوم الاثنين عند الزوال لليلتين بقيتا من صفر، وأخذت فاطمة تقول: وا أبتاه من ربه ما أدناه، وا أبتاه جنان الخلد مأواه، وا أبتاه ربه يكرمه إذا أتاه. ثم أخذت من تراب القبر الشريف ووضعت على عينيها وأنشأت تقول: ماذا على من شمّ تربة أحمد أن لا يشمّ مدى الزمان غواليها صبّت علي مصائب لو أنها صبّت على الأيام صرن لياليا^(٢)

سيدة النساء ﷺ

كثيراً ما يعرض علينا الكتاب مثلاً عُليا عن رجال نبغوا في عالم التقوى وتكميل النفس وعالم العلم والفن، وقلمنا نجد مثلاً عُليا عن السيدات. فهذه فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ هي إحدى النساء الكاملات الأربع اللواتي بلغن أقصى مراتب الكمال الإنساني. فقد روى كل من البخاري ومسلم والترمذي عن النبي ﷺ: قال: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم ابنة عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد». وفي الاستيعاب عن ابن عباس قال: «قال رسول الله ﷺ سيدة نساء أهل الجنة مريم ثم فاطمة بنت محمد ثم خديجة ثم آسية امرأة فرعون». وروى مسلم في صحيحه والإمام أحمد في مسنده في حديث مسارة النبي ﷺ فاطمة ﷺ أنه قال: «ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين أو سيدة نساء هذه

(١) بحار الأنوار: ج ٢٢، ص ٥٢١، باب ٢. (٢) بحار الأنوار: ج ٧٩، ص ١٠٦، باب ١٦.

الامة». وفي الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي من المسند للإمام أحمد بن حنبل عن حذيفة بن اليمان وذكر حديثاً إلى أن قال: «قال رسول الله ﷺ: هذا ملك من الملائكة لم يهبط إلى الأرض قط قبل هذه الليلة، استأذن ربه في أن يسلم عليّ ويبشّرني أن الحسن والحسين سيذا شباب أهل الجنة وأن فاطمة سيدة نساء العالمين»^(١).

ولم تزل فاطمة رضي الله عنها بعد أبيها رسول الله ﷺ بادية الحزن، معصبة الرأس، ناحلة الجسم، لم تُر ضاحكة ولا مبتسمة، فلم تعش بعد أبيها إلا خمسة وسبعين يوماً. وهي تفارق هذه الدنيا الدنية في مثل هذه الأيام. وتقام تخليداً لذكراها وإظهاراً لفضائلها ومناقبها مجالس واحتفالات. فيجدر بنا أن نذكر طرفاً من مكارمها وعلو منزلتها كي تتأسى بذلك المؤمنات في أنحاء العالم. فإن الناس إلى تكميل نفوسهم أحوج من إملاء بطونهم. وإن المدنية الحاضرة لا تعمل إلا لأجل إصلاح الظاهر وإملاء البطون. بل قد تأخذ بالناس باسم الحرية والانطلاق إلى الجاهلية الجهلاء وعبادة المادة الصماء. قد روى الحاكم في المستدرک بسنده عن أبي ثعلبة الخشني كان رسول الله ﷺ إذا رجع من غزاة أتى المسجد فصلى فيه ركعتين، ثم ثنى بفاطمة، ثم يأتي أزواجه. وبسنده عن ابن عمر أن النبي ﷺ: كان إذا سافر كان آخر الناس عهداً به فاطمة وإذا قدم من سفر كان أول الناس به عهداً فاطمة. وفي الاستيعاب بسنده: سُئِلَتْ عائشة أي النساء كان أحب إلى رسول الله ﷺ قالت: فاطمة، قلت فمن الرجال؟ قالت: زوجها، إن كان ما علمته صوماً قواماً»^(٢).

وروى الحاكم في المستدرک بسنده عن عائشة: ما رأيت أحداً كان أشبه كلاماً وحديثاً برسول الله ﷺ من فاطمة. وكانت إذا دخلت عليه قام إليها فقبلها ورَحَّبَ بها وأخذ بيدها فأجلسها في مجلسه، وكانت هي إذا دخل عليها قامت إليه مستقبلة وقبلت يده. وقد أخرج الطبراني عن أنس أن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة إذا خرج إلى صلاة الفجر ويقول: «الصلاة، يا أهل البيت، الصلاة، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس». وقال الحسن رضي الله عنه رأيت (أمي) فاطمة رضي الله عنها قامت في محرابها ليلة جُمِعَتْها، فلم

تزل راکعة ساجدة حتى اتضح عمود الصبح وسمعتها تدعو للمؤمنين والمؤمنات وتسميهم وتكثر الدعاء لهم، ولا تدعو لنفسها بشيء. فقلت لها ألا تدعين لنفسك كما تدعين لغيرك، فقالت: يا بني، الجار ثم الدار^(١).

وروى البخاري في صحيحه بسنده أن رسول الله ﷺ قال: فاطمة بضعة مني، فمن أغضبها أغضبني^(٢). وعن كنز الدقائق: «إن الله يغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها». ومن كرامتها على الله كما روى الحاكم في المستدرک أنه إذا كان يوم القيامة نادى مناد من وراء الحجب: يا أهل الجمع، عُضُّوا أبصاركم عن فاطمة بنت محمد ﷺ حتى تمر. كيف لا يكون كذلك وأن فاطمة ﷺ، كما روى الصدوق في العلل عن الإمام علي ﷺ، قد استقت بالقربة حتى أثرت في صدرها وطحنت بالرحى حتى مجلت يداها، وكسحت البيت حتى اغبرَّت ثيابها، وأوقدت النار تحت القدر حتى دكنت ثيابها (أي اسودت)، فأصابها من ذلك ضرر شديد، فقال لها علي ﷺ لو أتيت أباك فسألته خادماً^(٣) فجاءت فوجدت عنده جماعة فاستحييت وانصرفت. فعلم النبي أنها جاءت لحاجة فغدا علينا ونحن في لفاعنا، فأردنا أن نقوم، فقال مكانكما، فجلس عند رؤوسنا، فقال يا فاطمة، ما كانت حاجتك أمس؟ فأخبره علي ﷺ، فقال: أفلا أعلمكما ما هو خير لكما من الخادم، إذا أخذتما منامكما، فسبحا ثلاثاً وثلاثين، واحمداً ثلاثاً وثلاثين، وكبراً أربعاً وثلاثين، فأخرجت فاطمة رأسها وقالت: (رضيت عن الله ورسوله) ثلاث مرات^(٤). وروى ابن حجر في الإصابة نحوه، ثم قال: قال علي فوالله ما تركتهن منذ علمنيهن، فقال له ابن الكواء ولا ليلة صفين فقال: قاتلكم الله ولا ليلة صفين.

وفي المناقب عن الحسن البصري أنه قال: ما كان في هذه الأمة أعبد من فاطمة،

(١) بحار الأنوار: ج ٤٣، ص ٨١، باب ٤.

(٢) صحيح البخاري: باب فضائل فاطمة ﷺ.

(٣) الخادم يطلق على المذكر والمؤنث والمراد هنا: المؤنث.

(٤) علل الشرائع: ج ٢، ص ٣٦٦، باب ٨٨.

كانت تقوم حتى تورمت قدماها . وعن أبي جعفر عليه السلام قال : ما عبد الله بشيء من التحميد أفضل من تسبيح فاطمة ولو كان شيء أفضل منه لنحله رسول الله ﷺ فاطمة عليها السلام ^(١) . وقد روى أحمد بن حنبل أن رسول الله ﷺ رأى ذات يوم مسحاً (وهو كساء معروف) على باب دار فاطمة ورأى على الحسن والحسين عليهما السلام قلبين (أي سوارين) من فضة، فرجع ولم يدخل عليها . فظنت أنه من أجل ما رأى، فهتكت الستر ونزعت القلبين عن الصبيين فقطعتهما ، فبكى الصبيان فقسمته بينهما ، فانطلقا إلى رسول الله ﷺ وهما يبكيان ، فأخذه رسول الله منها وقال : «يا ثوبان ، اذهب بهذا إلى بني فلان ، واشترِ لفاطمة قلادة من عصب (هو سن دابة بحرية) وسوارين من عاج ، فإن هؤلاء أهل بيتي ولا أحب أن يأكلوا طيباتهم في حياتهم الدنيا» ^(٢) .

وروى الصدوق في الأمالي ، قال : كان النبي ﷺ إذا قدم من سفر بدأ بفاطمة ، فدخل عليها ، وأطال عندها المكث ، فخرج مرة في سفرة . فصنعت فاطمة مسكتين من ورق (أي فضة) وقلادة وقرطين وستراً للباب ، لقدوم أبيها وزوجها ، فلما قدم رسول الله ﷺ دخل عليها ، فوقف أصحابه على الباب ، فخرج عليهم وقد عرف الغضب في وجهه ، حتى جلس عند المنبر ، فظنت ، فاطمة أنه إنما فعل ذلك لما رأى من المسكتين والقلادة والقرطين والستر ، فنزعت ذلك وبعثت به إلى رسول الله ﷺ ، وقالت للرسول : قل له : «تقرأ عليك ابنتك السلام وتقول اجعل هذا في سبيل الله» فلما أتاه ، قال : (فعلت فداها أبوها) ، ثلاث مرات ، ليست الدنيا من محمد ولا من آل محمد ، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء . ثم قام فدخل عليها ^(٣) .

وعن جابر الأنصاري رضي الله عنه : أنه رأى النبي ﷺ فاطمة وعليها كساء من أجلال الإبل وهي تطحن بيديها وترضع ولدها ، فدمعت عينا رسول الله ﷺ ، فقال : «يا بنتاه تعجلي مرارة الدنيا بحلاوة الآخرة» ، فقالت يا رسول الله ، الحمد لله على نعمائه

(١) بحار الأنوار : ج ٤٣ ، ص ٦٤ ، باب ٣ . (٢) أمالي الصدوق : ص ٢٣٤ ، مجلس ٤١ .

(٢) بحار الأنوار : ج ٤٣ ، ص ٨٩ ، باب ٤ .

والشكر على آلائه. فأنزل الله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى: الآية ٥]^(١). وقال لها النبي ﷺ ذات يوم أي شيء خير للمرأة؟ قالت: أن لا ترى رجلاً ولا يراها رجل، فضمها إليه وقال: ذرية بعضها من بعض^(٢)، ولا يعلم حقيقة هذا الدستور وفلسفة هذا النظام إلا من سار في مدارج الكمال النفسي وتقرب بأعماله الصالحة وطاعته دون عجب ورياء إلى الله تقريباً يجعله أن يرى الحق حقاً والباطل باطلاً.

وكانت صلوات الله عليها كأبيها فصيحة بليغة غزيرة العلم. فإذا خطبت أتت بالدر المنثور. ومن قولها سلام الله عليها: «الحمد لله على ما أنعم وله الشكر على ما ألهم، والثناء بما قدم من عموم نعم ابتدأها وسبوغ آلاء أسداها، وتمام نعم والاهـا، جمـ عن الإحصاء عددها ونأى عن الجزاء أمدها وتفاوت عن الإدراك أبدها. (إلى أن قالت): الممتنع عن الأبصار رؤيته، ومن الألسن صفته ومن الأوهام كيفيته، ابتدع الأشياء لا من شيء قبلها وأنشأها بلا احتذاء أمثلة إمتثلها، كَوْنها بقدرته وذراًها بمشيئته، من غير حاجة منه إلى تكوينها ولا فائدة له في تصويرها. إلا تثبيتاً لحكمته وتنبيهاً على طاعته وإظهاراً لقدرته وتعبداً لبريته وإعزازاً لدعوته، ثم جعل الثواب على طاعته ووضع العقاب على معصيته، زيادة لعباده عن نعمته وحياشة لهم إلى جنته»، (إلى أن قالت): «كتاب الله الناطق والقرآن الصادق والنور الساطع والضياء اللامع، بينة بصائر، منكشفة سرائره، متجلية ظواهره، مغتبطة به أشباعه، قائد إلى الرضوان أتباعه. وموَدُّ إلى النجاة استماعه، به تنال حجج الله المنورة وعزائمه المفسرة ومحارمه المحذرة وبياناته الجالية وبراهينه الكافية وفضائله المندوية ورخصه الموهوبة وشرائعه المكتوبة، فجعل الله الإيمان تطهيراً لكم من الشرك، والصلاة تنزيهاً لكم عن الكبر، والزكاة تزكية للنفس ونماءً في الرزق، والصيام تثبيتاً للإخلاص والحج تشييداً للدين، والعدل تنسيقاً للقلوب، وطاعتنا نظاماً للملة وإمامتنا أماناً من الفرقة، والجهاد عزاً للإسلام وذلاً لأهل الكفر والنفاق، والصبر معونة على استيجاب الأحد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مصلحة للعامة وبر الوالدين وقاية من السخط وصلة الأرحام منسأة في

العمر، والقصاص حقناً للدماء، والوفاء بالنذر تعريضاً للمغفرة، وتوفية المكاييل والموازين تغييراً للبخس، والنهي عن شرب الخمر تنزيهاً عن الرجس، واجتناب القذف حجاباً عن اللعنة وترك السرقة إيجاباً للعفة^(١).

فإلى التأسي بهذه المكارم والأخلاق الملكوتية أدعو إخواني وأخواتي المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات، ففي إتباعها الكمال النفسي المرجو، ذلك الكمال الذي لا بد للإنسان من أن يقطع مراحلَه وأن يسمو بنفسه إلى حيث أراد الله تعالى. فإن الله لم يخلق هذا الإنسان إلا ليتكامل نفسياً. ولذلك أرسل أنبياء ﷺ وعين أوصياء ﷺ. وأن فاطمة الزهراء ﷺ المعصومة من كل رجس وزلل خير مثال لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. وللإسلام فلسفته الخاصة. قد لا تروق لمن بهرته زبارج الغرب وزخارفه، فلسفة ترمي إلى سعادة الدنيا وسعادة الآخرة. وللإسلام تعاليمه الأخلاقية ونظمه الاقتصادية، قد جاءت من وراء المادة، ليسير على ضوئها البشر لينال سعادة الدارين. والإسلام يعارض كل نظام أو عمل يفسد الحياة الأخروية التي هي الحياة الحقيقية السرمدية: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِیَ الْحَيَاةُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: الآية ٦٤]. أي أن الدار الآخرة هي الحياة الحقيقية.

فطوبى لمن أيقن أن النظام الآتي من وراء المادة لإصلاح وتكميل ما هو من وراء المادة أيضاً وأعني به النفس الإنسانية ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: الآية ٤٢]. وليس للبشر أن يأتي من تلقاء نفسه بهذا النظام مهما تسامى. وأن النظم البشرية ناقصة لا تؤدي إلى الكمال المنشود، لأنها صادرة عن بشر ناقص مفتقر إلى الكمال...

المأثور عن رياضيات الإمام عليّ عليه السلام

قد أجمع المسلمون من الصدر الأول إلى اليوم أن علياً عليه السلام أعلم الصحابة وأعلامهم

(١) أن هذه الخطبة طويلة للتفصيل. يراجع كتاب بحار الأنوار: ج ٢٦، ص ٢٢٠.

كعباً وأكثرهم زهداً. فقد قال عليه السلام: «عَلَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ أَلْفَ بَابٍ مِنَ الْعِلْمِ يَنْفَتَحُ لِي مِنْ كُلِّ بَابٍ أَلْفُ بَابٍ». إن هذا النوع من التعليم لا يتوصل إليه إلا من زاول تزكية النفس وتطهيرها. ولا يعلم كيفية: انفتاح ألف باب من العلم من كل باب، إلا من أيقن أن العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء. وذلك بتطهير نفسه من الدنس والرجس وما أصعب ذلك. ولا يقوى عليه إلا الأفاضل الأقلون. ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سَبَأ: الآية ١٣]. وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّا يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَلَا لَهُ نُورٌ﴾ [النور: الآية ٤٠]. وجاء في حديث: «المؤمن ينظر بنور الله، فعلم علي علم يسطع من نور أودعه الله فيه. فقد قال رسول الله ﷺ: «من أراد أن ينظر إلى آدم في علمه وإلى نوح في عبادته وإلى إبراهيم في خلته وإلى موسى في هيبته وإلى عيسى في زهده وإلى يحيى في ورعه، فلينظر إلى علي ابن أبي طالب، فإن فيه سبعين خصلة من خصال الأنبياء»^(١).

وقال علي عليه السلام بحضرة المهاجرين والأنصار: «إن هاهنا علماً جمّاً لو أصبت له حملة». وقال عليه السلام: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً». وقال عليه السلام: «سلوني قبل أن تفقدوني، هذا سفظ العلم. هذا لعاب رسول الله، هذا ما زقني رسول الله زقاً». وقال أيضاً: «سلوني، فإن عندي علم الأولين والآخرين. أما والله لو ثنيت لي الوسادة، وجلست عليها لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم وبين أهل الزبور بزبورهم وبين أهل الفرقان بفرقانهم حتى ينادي كل كتاب بأن علياً حكم في بحكم الله ويقول: يا رب، إن علياً قضى بقضائك» إلى آخر ما قال عليه السلام^(٢).

وقد روى الشيخ سليمان الحنفي أنه قال رسول الله ﷺ: «لما صرت بين يدي ربي كلمني وناجاني. فما علمت شيئاً إلا علمته علياً، فهو باب علمي». وقال رسول الله ﷺ أيضاً: «أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد العلم فليأت الباب»^(٣).

وقد قال علي عليه السلام ذات يوم وهو على المنبر: «سلوني قبل أن تفقدوني فوالله، لا تسألوني عن فئة تضل مائة وتهدي مائة إلا أخبرتكم بناعقها وسائقها». قام إليه رجل،

(١) بحار الأنوار: ج ٣٩، ص ٣٩، باب ٧٣. (٢) ينابيع المودة: ج ٢، ص ١٨٣.

(٣) بحار الأنوار: ج ١٠، ص ١١٧، باب ٨.

فقال: أخبرني بما في رأسي ولحيتي من طاقة شعر. فقال ﷺ: (والله لقد حدثني خليلي أن على كل طاقة شعر من رأسك ملكاً يلعنك، وأن على كل طاقة شعر من لحيتك شيطاناً يغويك، وأن في بيتك مسلحاً يقتل ابن رسول الله ﷺ). وكان ابنه قاتل الحسين ﷺ يومئذ طفلاً يحبو وهو سنان بن أنس النخعي^(١).

فعلم علي ﷺ من علم رسول الله. وهو علم ينتقل من نبي إلى وصي أو من ولي إلى ولي. بطريق لا يعرفه أو لن يعرفه علماء العصر الحاضر ما داموا في حضيض المادة. إن هذا النوع من العلم نور إلهي، لا يعلم حقيقته علماء النفس أو بالأحرى علماء آثار النفس (Psychologues) في الوقت الحاضر. إنه مجهول كجهل علماء الذرة حقائق الذرة وأسرارها مهما بلغوا من العلم وكجهلهم حقيقة الأشعة الكونية. ذلك لأنهم يحومون حول الظواهر وهم في معزل عن الواقع والحقيقة، إنه علم يترشح من إذابة المادية والترفع عن حضيض المادة والعروج إلى أوج الملكوت. إنه علم لدني لا يحتاج إلى وضع معادلات أو حك وإصلاح فلا يتدخله سهو أو شك. إنه علم ارتجالي دون ترو أو تفكر. ذلك لأن النبي أو الإمام يجب أن يكون أفضل أهل زمانه في كل فن وفي كل علم. وما ينقل عن البعض خلاف ذلك بشأن النبي ﷺ مردود بحكم العقل. ذلك لأن الله تعالى لو لم يجهز النبي بجميع الكمالات لسقطت منزلته ولما أثر في النفوس ذلك التأثير الذي يجعل الأفراد منقادين إليه مطيعين.

فلا تثبت الإمامة إلا بامتحانات عدة في عوالم النفس وفي شتى العلوم وفي إتيان الخوارق والمعجزات، تلك التي يعجز أهل ذلك الزمان من الإتيان بها مع الشروط العادية والعلوم البشرية المكتسبة.

ولقد امتحن المسلمون جعفرأ (أخا الإمام الحسن العسكري ﷺ)، حين ادعى الإمامة في مسائل عدة فأخفق في الجواب. وقد طلبوا منه أيضاً أن يذكر أسماء

أصحاب الكتب وعن مقدار المال الذي كانوا قد حملوه إلى الإمام عليه السلام، أي إلى خليفة الحسن العسكري (الإمام الحادي عشر من أئمة الهدى) المهدي عليه السلام، فقام جعفر ينفذ أثوابه قائلاً: «يريدون منا أن نعلم الغيب»، فعلموا أنه ليس بإمام^(١).
وما نحن نذكر بعض ما أثر عن علي أفضل الصلاة والسلام في حل بعض المسائل الرياضية:

(١) يسأل علي عليه السلام، عن عدد يقبل القسمة على ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠ وهو راكب فرساً له، فيقول مرتجلاً: «اضرب أيام سنتك في أيام أسبوعك». ثم يهزم فرسه وينصرف^(٢).

ذلك لأننا لو ضربنا ٣٦٠ (عدد أيام السنة على ما كان معروفاً في ذلك الوقت) في ٧ عدد (أيام الأسبوع)، لكان العدد: $7 \times 360 = 2520$. فالعدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٢ لأنه عدد زوجي له نصف كامل.

ويقبل العدد ٢٥٢٠ القسمة على ٣، ذلك لأنه مجموع أرقامه (القيمة المطلقة) = ٩ مضاعفات ٣.

توضيح ذلك:

$$1 + 9 = 10 = \text{مضاعفات } 3 + 1$$

$$1 + 99 = 100 = \text{مضاعفات } 3 + 1$$

$$1 + 999 = 1000 = \text{مضاعفات } 3 + 1$$

وبما أن العدد ٢٥٢٠ مؤلف من ٢٠ + ٥٠٠ + ٢٠٠٠

إذن:

(١) بحار الأنوار: ج ٥٠، ص ٣٣٢، باب ٥.

(٢) لم يحتج علي عليه السلام إلى إيجاد المضاعف المشترك البسيط للأعداد المذكورة. فإن علمه بالأشياء يختلف عن علمنا. إنه علم الإمامة، وهو أعلم الناس أجمعين. وهكذا كل إمام من أئمة الهدى عليهم السلام.

$$٢٠ = ١٠ \times ٢ = ٢ (مضاعفات ٣ + ١) = مضاعفات ٣ + ٢$$

$$٥٠٠ = ١٠٠ \times ٥ = ٥ (مضاعفات ٣ + ١) = مضاعفات ٣ + ٥$$

$$٢٠٠٠ = ١٠٠٠ \times ٢ = ٢ (مضاعفات ٣ + ١) = مضاعفات ٣ + ٢$$

$$٢٥٢٠ = مضاعفات ٣ + ٢ + ٥ + ٢ = مضاعفات ٣ + ٩$$

$$٢٥٢٠ = مضاعفات ٣$$

إذن: ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٣

وإن العدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٤، ذلك لأن ٢٠ وهو العدد الذي يتألف من رقمي العشرات والآحاد يقبل القسمة على ٤.

ومعلوم أن: ٢٠ = مضاعفات ٤.

وأن العدد ٢٥٢٠ = ٢٥٠٠ + ٢٠

$$= ٢٠ + ٢٥ \times ١٠٠ = ٢٠ + ٢٥ \times مضاعفات ٤$$

$$= ٢٠ + مضاعفات ٤$$

$$= مضاعفات ٤$$

∴ العدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٤.

وإن العدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٥ لأن العدد منته بالصفير (أي إن رقم الآحاد،

تجوزاً، صفراً) ذلك لأن العدد المنتهي بالصفير يساوي: ٢٥٢٠ = ١٠ × ٢٥٢

وبما أن ١٠ = مضاعفات ٥

إذن: ٢٥٢٠ = ٢٥٢ × مضاعفات ٥

فالعدد يقبل القسمة ٥.

وإن العدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٦، ذلك لأن ٦ = ٣ × ٢، (حاصل ضرب

عددين أوليين). وقد علمنا أن العدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على كل من ٢، ٣

إذن: $\frac{2520}{3 \times 2}$ ، يختصر مع ٢ أولاً، ثم مع ٣. فلا يبقى باق.

وإن العدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٧، لأنه من مضاعفات ٧، ذلك لأننا ضربنا ٣٦٠ في ٧ فكان ٢٥٢٠.

وإن العدد: ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٨ أي العدد ينتهي بثلاثة أرقام تولف العدد: (٥٢٠) وهو يقبل القسمة على ٨ أي $\frac{520}{8} = 65$ والدليل على ذلك كما يلي:
 $2000 + 520 = 2520$

$$= \text{مضاعفات } 8 + 2 \times 1000$$

$$= \text{مضاعفات } 8 + 2 \text{ مضاعفات } 8$$

$$= \text{مضاعفات } 8$$

$$\therefore 2520 \text{ يقبل القسمة على } 8$$

وإن العدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٩ لأن قيمته المطلقة أي $2 + 5 + 2 = 9$ ، أو (مضاعفات ٩).

برهان ذلك:

$$\text{الآحاد} = 0 \text{ (تجوزاً)}$$

$$\text{العشرات} = 20 = 2 \times 10 = 2 \times (1 + 9) = 2 + 9 \times 2$$

$$= \text{المضاعفات } 9 + 2$$

$$\text{المئات} = 500 = 5 \times 100 = 5 \times (1 + 99) = 5 + 99 \times 5$$

$$= \text{مضاعفات } 9 + 5$$

$$\text{آحاد الألوف} = 2000 = 2 \times 1000 = 2 \times (1 + 999) = 2 + 999 \times 2$$

$$= 2 + 999 \times 2 = \text{مضاعفات } 9 + 2$$

∴ العدد

$$٢٥٢٠ = ٩ + ٢ + ٥ + ٢$$

$$٢٥٢٠ = ٩ + ٩ = ٩ مضاعفات + ٩ مضاعفات$$

$$٢٥٢٠ = ٩ مضاعفات$$

فالعدد يقبل القسمة على ٩

وإن العدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ١٠ لأن رقم آحاده (تجوزاً) = ٠

$$١٠ \times ٢٥٢ = ٢٥٢٠ \quad \therefore$$

$$٢٥٢٠ = ٩ مضاعفات$$

فثبت أن العدد (٢٥٢٠) يقبل القسمة على كل من الأرقام الطبيعية وعلى ١٠ .

(٢) رجلان: أ، ب. كان لأحدهما: (أ) خمسة أقراص من الخبز وللآخر (ب) ٣

أقراص، فجاءهم رجل ثالث وأخذ يأكل معهم. فلم يبق شيء. ودفع إليهم بعد الانتهاء ٨ دراهم.

فقال (أ) لـ (ب): خذ أنت ٣ دراهم وأعطني ٥. فأجابه (ب): لا، أبيت إلا العدل ومر الحق. خذ ٤ وأعطني ٤ دراهم. فأجابه (أ) قائلاً: كان لي ٥ أقراص وكان لك ٣. فكيف تأخذ نصف المبلغ؟ فأجابه (ب): لتحاكم عند علي عليه السلام.

فجاء علياً عليه السلام وعرضاً عليه القضية. فخاطب علي عليه السلام الرجل (ب). وهو الذي كان معه ثلاثة أقراص قائلاً: إقنع بما منحك صاحبك (أ). وأقبل منه ٣ دراهم. فقال (ب): لا والله، لا رضيت منه إلا بمر الحق، فقال عليه السلام: ليس لك في مر الحق إلا درهم واحد وله سبعة. فقال (ب): سبحان الله يا أمير المؤمنين، هو (أي أ) يعرض علي ٣ دراهم فلم أرض. وأشارت علي بأخذها فلم أرض وتقول لي الآن: لا يجب لي في مر الحق إلا درهماً واحداً.

إن علياً عليه السلام لم يفكر كما يفكر الرياضيون في حل المسألة وإنما ارتجل ارتجالاً بعلم لا يشبه علم البشر العادي.

وإن الرياضي يحل المسألة المذكورة بعد التفكير كما يلي:

أكل الرجال الثلاثة ٨ أقراص. إذن أكل كل واحد منهم $\frac{8}{3} = \frac{2}{3}$ من الأقراص وبما أن (أ) كان له ٥ أقراص وقد أكل منها $\frac{2}{3}$ إذن بقي من أقراصه:

$$5 - \frac{2}{3} = \frac{1}{3} \quad \text{وهذا ما أكله الرجل الثالث من أقراص (أ)}$$

وأن (ب) كان له ٣ أقراص وقد أكل هو $\frac{2}{3}$ (قرصين وثلثي القرص) إذن بقي

مما كان عنده: $3 - \frac{2}{3} = \frac{1}{3}$ من القرص وهذا ما أكله الرجل الثالث من أقراص

(ب) فيجب أن تقسم ٨ دراهم بنسبة: $\frac{1}{3}$ ، $\frac{1}{3}$ أي بنسبة $\frac{1}{3}$ ، $\frac{7}{3}$

وبما أن المخرجين متحدان، إذن تقسم ٨ دراهم بنسبة الصور (البسوط) أي بنسبة

١، ٧.

∴ مجموع الحصص $8 = 1 + 7$

فحسب قواعد التقسيم المتناسب:

$$\frac{8 \text{ دراهم}}{8 \text{ حصص}} = 1 \text{ درهماً (الحصة الواحدة)}$$

وبما أن لـ (أ)، أي الرجل الذي كان لديه خمسة أقراص، ٧ حصص

$$7 \times 1 = 7 \text{ دراهم، نصيب الرجل (أ)}$$

وبما أن لـ (ب)، حصة واحدة.

$$1 \times 1 = 1 \text{ درهم واحد وهو نصيب الرجل (ب).}$$

(٣) جاء إلى علي عليه السلام ٣ رجال ومعهم ١٧ جملاً، فقالوا قسم بيننا هذه الجمال

بنسبة: النصف، والثلث، والتسع.

فأجاب عليه السلام: أضيفوا إلى ١٧ واحداً، ثم أعطوا نصف ذلك إلى (أ) فيكون نصيبه

٩ جمال. وأعطوا ثلث ذلك إلى (ب) فيكون نصيبه ٦ جمال، وأعطوا تسع ذلك إلى

(ج) فيكون نصيبه جملين.

وهكذا قسم علي عليه السلام ١٧ جملاً بين الأشخاص الثلاثة مع حفظ النسبة في ما كان لكل منهم ٩ + ٦ + ٢ = ١٧ .

توضيح ذلك :

من المعلوم : أنه لو أريد تقسيم عدد بنسبة كسور اعتيادية ، يجب أولاً : توحيد المخارج (المقامات) ، وذلك بإيجاد المضاعف المشترك البسيط المخارج : (٩،٣٥٢) وهو ١٨ وأن ١٨ يربو على ١٧ بواحد :

١٧ (عدد الجمال) + ١ = ١٨ (على سبيل الصدفة) ، أي أن هاهنا حالة خاصة كما يعبر عنه الرياضيون . فتكون الكسور الأصلية حسب المخرج المشترك الجديد : (١٨) كما يلي :

$$\frac{٩}{١٨} = \frac{٩ \times ١}{٩ \times ٢} = \frac{١}{٢} = \text{حصة أ}$$

$$\frac{٦}{١٨} = \frac{٦ \times ١}{٦ \times ٣} = \frac{١}{٣} = \text{حصة ب}$$

$$\frac{٢}{١٨} = \frac{٢ \times ١}{٢ \times ٩} = \frac{١}{٩} = \text{حصة جـ}$$

فحسب قواعد التقسيم المتناسب مع الكسور ، يجب تقسيم المقدار : (١٧ جملاً) حسب الصور أو البسوط وهي ٩ ، ٦ ، ٢ ، لأنها مأخوذة من نفس المخرج . (أي من نفس الأساس) . ومعنى ذلك أن الحصص التي يستحقها الأشخاص الثلاثة تكون البسوط أو الصور الجديدة ، ومجموعها : ٩ + ٦ + ٢ = ١٧ حصة .
وذلك لأن :

$$\text{في النسب الجديدة} \quad \frac{٣}{٢} = \frac{٩}{٦} = \frac{١٨}{٦} \times \frac{٩}{١٨} = \frac{٦}{١٨} \div \frac{٩}{١٨} = \frac{١}{٣}$$

$$\text{في النسب الأصلية} \quad \frac{٣}{٢} = \frac{٣}{١} \times \frac{١}{٢} = \frac{١}{٣} \div \frac{١}{٢} = \frac{١}{٣}$$

$$\text{و: } \frac{\text{ب}}{\text{ج}} = \frac{6}{18} \div \frac{2}{18} = \frac{6}{18} \times \frac{18}{2} = \frac{18}{2} = 9 \text{ في النسب الجديدة}$$

$$\text{وأيضاً } \frac{\text{ب}}{\text{ج}} = \frac{1}{3} \div \frac{1}{9} = \frac{1}{3} \times \frac{9}{1} = \frac{9}{3} = 3 \text{ في النسب الأصلية}$$

وهكذا يمكن الاستدلال على أن $\frac{1}{9}$ في النسب الجديدة والأصلية واحدة. فتكون البسوط (الصور) الجديدة متناسبة بنسبة الكسور الأصلية، $\frac{1}{9}$ ، $\frac{1}{3}$ ، $\frac{1}{6}$ ، فلو قسمنا ١٧ جملاً بنسبة البسوط فقد حفظنا النسبة بين ما للأشخاص الثلاثة من جمال.

$$\therefore \frac{17 \text{ جملاً}}{17 \text{ حصة}} = 1 \text{ الحصة الواحدة}$$

وبما أن لـ (أ) ٩ حصص $9 \times 1 = 9$ جمال لـ (أ).

وبما أن لـ (ب) ٦ حصص $6 \times 1 = 6$ جمال لـ (ب).

وبما أن لـ (ج) ٢ حصتان $2 \times 1 = 2$ جمال لـ (ج).

فالمجموع = ١٧ جملاً.

ويجوز ضرب المقادير المتناسبة $\frac{1}{9}$ ، $\frac{1}{3}$ ، $\frac{1}{6}$ في عدد واحد (١٨) وهو المضاعف المشترك البسيط للمقامات، فإن النسبة لا تختل، فيكون الناتج، ٩، ٦، ٢، فينقسم عدد الجمال بنسبة الأعداد الصحيحة وهنا حالة خاصة إذ أن المضاعف يزيد على عدد الجمال بواحد، وإن عدد الجمال = مجموع الأعداد المتناسبة.

(٤) جيء إلى علي عليه السلام برجل قد حلف أن يزن الفيل فقال عليه السلام: لِمَ تحلفون على ما لا تطيقون، فقال الرجل: قد ابتليت. فأمر عليه السلام بقرفور (أي سفينة طويلة) فيه قصب. فأخرج منه قصب كثير، ثم علم صبغ الماء، بعد ما عرف صبغ الماء قبل إخراج القصب، ثم صبر فيها الفيل حتى رجع إلى مقداره الذي كان انتهى إليه صبغ الماء أولاً. ثم أمر بوزن القصب الذي أخرج، فلما وزنه، قال هذا وزن الفيل^(١).

توضيح الحل: معلوم في الفيزياء: أنه لو غمر جسم في سائل فإنه ينقص من وزنه

مقدار يعادل وزن سائل بحجم ذلك الجسم المغمور. ذلك لأن الجسم المغمور يكون تحت ضغطين متعامدين من ذلك السائل. أحدهما من الأسفل إلى الأعلى يعادل عموداً من ذلك السائل طوله من سطح السائل إلى نهاية الجسم المغمور، والآخر من الأعلى إلى الأسفل، يعادل عموداً من السائل طوله من سطح السائل إلى سطح الجسم المغمور. فلو طرح الضغط الثاني (قوة الدفع من الأعلى إلى الأسفل) من الضغط الأول (قوة الدفع من الأسفل إلى الأعلى) لحصلنا على مقدار من القوة الدافعة من الأسفل إلى الأعلى يعادل مقداراً من السائل بحجم الجسم المغمور.

فلو فرضنا وزن الجسم المغمور = w ، ووزن السائل الذي بحجمه = w_0 . لظهر هاهنا حالات ثلاث:

(١) $w < w_0$ أي يكون وزن الجسم أكبر من وزن سائل بحجمه. أي $w < w_0$.
فينزل الجسم إلى قعر السائل ويستقر في القعر.

(٢) $w = w_0$ أي أن وزن الجسم يكون أقل من الوزن سائل بحجمه فالجسم ينغمر في السائل ويكون سابحاً في وسطه ولا يستقر في القعر.

(٣) $w > w_0$ أي أن وزن الجسم يكون أقل من وزن سائل بحجمه عند ذاك يطفو الجسم على السائل (أو الماء) ولا ينغمر كله في السائل بل يزيح هذا الجسم من ذلك السائل مقداراً يعادل وزنه. أي أن مقدار الماء المزاح (أو السائل) يعادل وزن الجسم الطافي.

إذن، إن السفينة التي وردت في السؤال (٤) تزيح من الماء بقدر وزنها (بما فيها من القصب). وقد وضعوا علامة على صفحة السفينة حيث بلغ الماء (وهذا ما يسمى بصيغ الماء).

لنفرض أن وزن السفينة في الابتداء = w ، فوزن الماء المزاح = w_0 ، أيضاً ولنفرض أنا قد أخرجنا منها أولاً مقداراً من القصب = w_1

فقد أصبح الوزن الجديد للسفينة: w_2 و w_1

ووزن الماء المزاح حديثاً = w_3 و w_4 أيضاً.

فإن نزلت السفينة في هذه المرة في الماء أقل من المرة الأولى ثم نضع الفيل في السفينة فتثقل السفينة وتنزل مقداراً في الماء ويُفرض أن وزن الفيل = س إذن يكون وزن السفينة و - و + س .

ثم نضع مقداراً من القصب في السفينة حتى تنزل في الماء إلى العلامة الأولى ونرمز عن هذا المقدار من القصب بحرف: ب، فيكون وزن السفينة و - و + س + ب . وبما أنه قد نزلت السفينة إلى حد العلامة الأولى فوزنها يساوي وزنها الأصلي = و .
 ∴ و - و + س + ب = و

وبعد حذف (و) من طرفي المعادلة، ونقل و إلى الطرف الآخر

$$و = س + ب$$

$$\text{أو} \quad س = و - ب .$$

أي أن وزن الفيل (س) يساوي وزن ما أخرج من القصب أولاً ناقصاً منه ما وُضع في السفينة من القصب ثانياً .

ويظهر مما ورد في السؤال أنهم لم يخرجوا ابتداءً كثيراً من القصب، بل بعد أن أخرجوا قليلاً من القصب، وضعوا الفيل في السفينة فثقلت السفينة ونزلت أكثر مما نزلت ابتداءً ثم أخرجوا مقداراً آخر من القصب حتى ترتفع وتصل إلى العلامة الأولى، عند ذاك وزنوا القصب فكان وزنه يعادل وزن الفيل .

ولو فرضنا ما أخرج من القصب أولاً وثانياً = و

$$\text{ووزن الفيل} = س$$

$$\therefore \quad و - و + س = و$$

$$\text{أو} \quad و = س \text{ وهو المطلوب.}$$

(٥) وقال علي عليه السلام في رجل مقيد حلف أن لا يقوم من مكانه حتى يعرف وزن قيده: أن توضع رجله في إجانة فيها ماء حتى إذا عرف مقداره (أي مقدار ارتفاع الماء) مع وضع رجله فيه، يرفع القيد إلى ركبته، ثم يعرف مقدار صبغته (أي مقدار ارتفاع الماء). ثم أمر عليه السلام: فألقي في الماء الأوزان حتى ارتفع الماء إلى ذلك الصبغ (الحد)

الذي كان سابقاً والقيد في الماء . فنظر: كم وزن الذي ألقى في الماء من الأوزان . فلما وزنه، قال : هذا وزن قيدك^(١) .

توضيح الحل : معلوم أن القيد كان يزيج من الماء بقدر حجمه . فعند وضع رجله مع القيد في الماء ارتفع الماء . فوضع علامة إلى حيث ارتفع . وعند رفع القيد نزل الماء قليلاً . ثم ألقى في الماء من الأوزان التي وزنها النوعي (أو الكثافة) عين الوزن النوعي^(٢) للقيد، حتى ارتفع الماء إلى حيث كان أولاً . ذلك لأن حجم هذه الأوزان كان بحجم القيد وكثافتها عين كثافة الذي كان قد صنع منه القيد . وطبعي أن الماء يرتفع إذ ذاك إلى نفس العلامة لاتحاد الحجم .

فإذا عين مقدار الأوزان الملقاة في الماء كان وزن القيد .

(٦) وسأل ابن الكوَّاء علياً عليه السلام : «كم بين السماء والأرض؟» .

فأجاب عليه السلام قائلاً : دعوة مستجابة^(٣) .

توضيح ذلك :

أن في الفلسفة القديمة بحث يقول بتناهي الأبعاد . ويستدل على ذلك ببرهان يدعي برهان السلم . وذلك أنا لو أخذنا نقطة مثل (م) على الأرض ومددنا منها خطين مستقيمين تتشكل زاوية بينهما . ثم إن وصلنا بين نقطتين : أ ، ب . مأخوذتين على ذينك المستقيمين (ضلعي الزاوية) بمستقيم، فإن المستقيم أ ب ، يبقى محصوراً بين المستقيمين م أ ، م ب . ومهما مددنا المستقيمين م أ ، م ب . فإن المستقيم أ ب ، يبقى محصوراً أيضاً بين ضلعي الزاوية . إذن : الأبعاد تنهاى والفضاء محدود!! .

(١) التهذيب : ج ٨ ، ص ٣١٨ ، باب النذور .

(٢) يراد بالكثافة وزن وحدة الحجم من معدن ما . أي وزن سانتيمتر مكعب من ذلك المعدن مثلاً . ولو فرض وزن مقدار من معدن ما = و . ووزن ماء بحجم ذلك المعدن = و̇ . فالوزن النوعي لذلك المعدن = و ÷ و̇ . وهو عدد مجرد . ويرينا أن ذلك المعدن كم مرة أثقل من الماء مثلاً .

(٣) بحار الأنوار : ج ١٠ ، ص ٨٤ ، باب ٦ .

إن هذا البرهان أوهن من بيت العنكبوت. إذ لا يمكن أن يقاس ما يقع في عوالم اللانهاية بما يقع في مسافات محدودة. لو مددنا الضلعين م أ، م ب، إلى ما لا نهاية له لا نعلم ماذا سيحدث بالمستقيم أ ب. ومن درس حسابات اللانهاية يعلم صدق هذا المقال. مثال ذلك:

نفرض أن $ح < ب$ ، أي (ح) أعظم من (ب)

أي ح لا تساوي ب، $ح \neq ب$

لنضرب طرفي هذه المتباينة في ∞ ، نرى أن:

$$(١) \quad \infty \times ب = \infty \times ح \quad (\text{لأن } \infty = \infty)$$

وبعد تقسيم طرفي المعادلة (١) على ∞ يخيل إلينا أن: $ح = ب$ وليس كذلك.

فلا تبقى المتباينة على ما كانت عليه لعدم إمكان تفسيرنا التقسيم على ∞ في

الكميات المحدودة، حين أنه في الكميات المحدودة تبقى المتباينة على ما كانت عليه.

مثال ذلك: $١٠ < ٧$

لنضرب طرفي هذه المتباينة في ٥

$$٧ \times ٥ < ١٠ \times ٥$$

أي $٣٥ < ٥٠$

فيعلم من هنا أن النتائج التي تترتب على الكميات المحدودة لا تترتب على

الكميات غير المحدودة.

مثال آخر:

$$\frac{١٥}{\infty} = \frac{٢٠}{\infty}$$

$$١٥ < ٢٠$$

لنقسم طرفي هذه المتباينة على ∞ (اللانهاية).

$$٠ (\text{صفر}) = \frac{٢٠}{\infty} \quad \text{لأن}$$

$$٠ (\text{صفر}) = \frac{١٥}{\infty} \quad \text{و}$$

∴ ٠ = ٠ ، فيجب إذن أن يكون ٢٠ = ١٥ وليس كذلك .

مثال آخر :

من المعلوم في الهندسة التحليلية أن مقدار الانحناء لمنحن ما هو (ر، نصف قطر الانحناء) . فمثلاً لو كان نصف قطر دائرة ٢ سم، فإن مقدار الانحناء = $\frac{1}{2}$ ولو كان نصف القطر ١٠٠ سم، فإن مقدار الانحناء = أي أقل من الحالة الأولى بمقدار كثير .

فلو فرض $r = \infty$

فيكون مقدار الانحناء : $\frac{1}{r} = 0$ (صفر)

عند ذاك لا يوجد انحناء . أي لو فرض مثلاً نصف قطر الكرة مقداراً غير محدود، فإن سطح الكرة يكون سطحاً مستوياً، فلا كروية ولا انحناء (استدارة) .

ومعلوم في الهندسة التحليلية أن خطين مستقيمين :

$$A_s + B_c + C = 0$$

$$A_s + B_c + C = 0$$

فالمستقيمان يلتقيان لو كان $\frac{A}{C} \pm \frac{B}{C} \mp \frac{1}{A}$ (يراد بـ \mp عدم التساوي)

مع العلم أن أ، ب، ب، ح، ح، ح مقادير غير مبهمه .

وأن المستقيمين المذكورين يتوازيان، لو كان :

$$\frac{B}{C} = \frac{1}{A}$$

وأن المستقيمين المذكورين ينطبقان أي أنهما مستقيم واحد لو كان :

$$\frac{B}{C} = \frac{1}{A}$$

هذا إذا كانت المعاملات (Coefficients) والمقدار المعلوماتي مقادير محدودة

غير مبهمه . ولكن، لو كانت، أ، أ . . الخ . مقادير مبهمه فيها العامل ٧ - ١ : وهو (المقدار المبهم) نرى أن الحالة تختلف وتعطي حالات غريبة جداً لا توافق ما رأيناه في الكميات المحدودة .

وهكذا هو حال المادي حين ما يقيس ما يتعلق بما وراء الطبيعة بمقاييس مادية طبيعية . إنه يظن الروح ويظن الخالق جلّ جلاله من نوع المادة . فلما لم يره في مجهره أو ميكروسكوبه أو مكبرته أنكر ذلك . حين انه لا يزال لا يعلم لماذا يرى وكيف يرى . فإذا سئل أجاب بجواب سوفسطائي قائلاً : إن الرؤية هي ردّ فعل أو عمل انعكاسي للمادة أو العين عندما تتأثر بالأشعة الواردة عليها من جسم ما ! وأما الرؤية الحقيقية أو الإحساس والشعور فلا جواب له عليه . وقد يجيب بنفس الجواب السوفسطائي قائلاً أنه ردّ فعل أيضاً ! يقف عقل هذا المادي ، المحجوب عن رؤية الحق لظلمات في نفسه وذنوب لا تحصى قد رانت على قلبه ، عند هذا الحد . فلا يتجاوزه . فلا يسأل نفسه عن معنى رد الفعل أو العمل الانعكاسي وحقيقته وكيف يحدث وما علاقة ردّ الفعل بالرؤية والعقل والنفس . وهل حقيقة الرؤية والتحسس أمر مادي بحت . أو المادة عامل مساعد للتحسس كآلة الراديو .

فلولا الأمواج الهertzية والقوة الكهربائية لما سمعنا شيئاً من هذه الآلات ، وإن بعد التشبيه .

وما قيمة الحواس تجاه العقل أو ليس العقل هو المصحح لأخطاء الحواس الخمس . هل القمر بهذا الكبر . وكم تخطى الشائمة والباصرة !! . فيصححها العقل بتجاربه واختباراته ومحاكماته ، استقراءه واستنتاجه . ما هذا الاستقراء ومن هو الذي ركز في الإنسان قوة الاستنتاج . وقد حرم منه القرد . مع ما في تنظيمات أعضائه من دقة متناهية .

إن المادي مادي بذنوبه وآثامه وهو عندما يرى أن الوقت يستلزم التكلم بأسلوب علمي يتطفل على العلم ويعزو هذيانه وتخيلاته الباطلة إلى العلم والعلم من كل ذلك براء . ثم تزداد طفولته غباوة عندما يسمى هذره وهذيه فلسفة !

نستنتج مما سبق أنه ليس في استطاعتنا تحديد العالم والقول بأنه متناه . نحن نتصور غير المتناهي ولكن ليس لنا أن نحيط به . فلا يعلم مدى ما خلق الله من أبعاد وأجواء . وإن الله تعالى لا يخلو منه مكان . وهو القائل : ﴿وَلَمَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَقَلْنَاهُ نُفْسُهُ إِلَيْهِمْ نَقَسُوهُ وَعَمَّنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: الآية ١٦] . وفي آية أخرى : ﴿مَا يَكُونُ مِنْ

نَجْوَى ثَلَاثَةِ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةَ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴿[المجادلة: الآية ٧] .

يقول الإمام علي عليه السلام: «مع كل شيء لا بمقارنة وغير كل شيء لا بمزايلة»^(١). هذا: (لاكرانز) الذي يعرفه (نابليون بونابرت) بقوله: هو الهرم الشامخ للعلوم الرياضية يقول: «لا أعرف» معترفاً بالجهل...

وقد حاول (أينشتاين) أن يعين وزن جميع ما في الكون من كرات وسيارات وكواكب وأجرام مادية. ولكنه عدل، عندما شاهد أن هناك كرات جديدة تتشكل، لا يعلم مداها إلا الله. وقد قال (أينشتاين): بنظريات أخرى ثم عدل عنها، ليس هنا محل ذكرها. وكم من العلماء قالوا بأشياء وعدلوا عنها معترفين بجهلهم. فظهر مما سبق أنه لا يمكن أن يجاب على سؤال ابن الكواء إلا بما قاله علي عليه السلام: «دعوة مستجابة»^(٢).

ذلك لأن هذه الدعوة تسير في هذه المسافات التي لا تتناهى والتي لا يخلو منها ربنا تعالى. فقد قال الله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: الآية ٤] .

ومعلوم أن سرعة الضوء في الثانية = ٣٠٠٠٠٠ كيلومتراً وأن الروح أسرع من الضوء ولا يعلم درجة سرعته إلا الله تعالى. لاسيما أرواح الملائكة وروح جبرئيل عليه السلام. فإذا كانت الملائكة تصعد أو تعرج إليه في يوم مقداره خمسون ألف سنة، فكم تكون هذه الأبعاد. ذلك لأن خمسين ألف سنة = ١,٥٥٥ ٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠ ثانية أو = ١٥٥٥٢ × ١٠^٨ ثانية. فلو تصورنا أن الضوء سار في هذه المدة مع قلة سرعته بالنسبة إلى سرعة الملائكة، فإنه يقطع:

$$٣٠٠,٠٠٠ \times ١٠^٨ = ٤٦٦,٥٦٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ = ٤٦٦٥٦ \times ١٠^٣ \text{ كم.}$$

فكيف بالملائكة؟.. إذن ليس لأحد أن يحد ما خلق الله من أجواء وأبعاد وفضاء.

(١) بحار الأنوار: ج ٤، ص ٢٤٧، باب ٤، والمزايلة: المفارقة والمباينة.

(٢) بحار الأنوار: ج ١٠، ص ٨٤، باب ٦.

وإن قول علي عليه السلام: «دعوة مستجابة» دليل على عدم إمكان تعريف المسافة بين السماء والأرض بشكل يفهمه السائل. ذلك لأن كوكبنا الأرضي ليس إلا كحبة رمل صغيرة بالنسبة إلى المجموعة التي تشمل الشمس والكواكب والأقمار وهذه المجموعة لا تعد شيئاً مذكوراً بالنسبة إلى الفراغ الهائل الخارج عن نطاقها وفيه تتناثر ملايين النجوم. وليست النجوم إلا كتلاً متأججة من النيران المتلاطمة. ولكننا لا نحس حرارتها التي قد تكون أشد كثيراً من حرارة الشمس نظراً لبعدها النجوم الشاسع الذي يعجز عن تصويره العقل البشري. ولو أن أسرع طائرتنا وهي الطائرة النفاثة سارت بغير توقف قاصدة أقرب هذه النجوم لما بلغت إلا بعد ستة ملايين من السنين ويقول (أينشتاين): «لقد وجدت بعد التجربة الطويلة أن أرضنا بتاريخها في عمرها الجيولوجي (Geologique) وعمر إنسانها المديد أقرب شيء من ذرة رمل من رمال (ريورا) الكثيفة».

وقد سئل علي عليه السلام عن المسافة ما بين المشرق والمغرب. فقال عليه السلام: مسيرة يوم للشمس^(١).

وقد ثبت أخيراً أن الشمس تتحرك في الفضاء بمجموعتها على شكل لولبي بسرعة ٢٠ كم/ في الثانية متجهة نحو نجمة تدعى بالنسر الواقع.

وقد سئل عليه السلام: ما أخوان ولدا في يوم واحد وماتا في يوم واحد وعمر أحدهما مائة وخمسون سنة وعمر الآخر خمسون سنة؟ فقال عليه السلام: هو عزيز وعزير. لأن عزيراً أماته الله مائة عام ثم بعثه^(٢).

وقد قال لي أحد المتتبعين أنه سئل علي عليه السلام عن مقدار قطر الشمس. فأجاب مرتجلاً: تسعمائة في تسعمائة ميل. ومعلوم أن الميل في صدر الإسلام كان يساوي أربعة آلاف ذراع بذراع اليد الذي هو من المرفق إلى رؤوس الأصابع. فلو قسنا ذراع رجل متوسط القامة بالإينشات (Inch) فحولنا (٤٠٠٠) ذراع إلى إينشات فياردات فأميل لوجدنا أن ما أخبر به علي عليه السلام: $900 \times 900 = 810000$ ميل وأعني: (الميل

(١) بحار الأنوار: ج ١٠، ص ٨٤، باب ٦.

(٢) بحار الأنوار: ج ١٠، ص ٨٤، باب ٦، وفيه: عزيز وعزرة.

الذي كان معروفاً في صدر الإسلام) تساوي ما عليه اليوم علماء الفلك من أن قطر الشمس = ٨٦٥٣٨٠ ميلاً وأعني: الميل الذي = ١٧٦٠ يارداً.

حقاً، إن الإنسان ليزداد تحيراً عندما يرى: كيف أن تزكية النفوس تؤدي إلى علم لدني منبعه نور يقذفه الله في قلوب أوليائه وصالححي عبادِهِ، وقد حقق الله ذلك حين استجاب دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَأَنْعِثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ١٢٩﴾ [البقرة: الآية ١٢٩].

وفي الختام نسأل الله تبارك وتعالى أن يوفقنا إلى تكميل نفوسنا وتزكيتها بإتباع القرآن والعتره الطاهرة عليه السلام. فلا تكامل إلا بالتمسك بهما ولا نجاه إلا بإتباعهما والعمل بما أمرا به والانتهاه عما نها عنه.

(انتهى الجزء الثاني وسيليه الجزء الثالث إن شاء الله تعالى).

الشيخ محمد بن أبي بكر

بقلم
أحمد أمين

فرقة صناديد وصحبة
علاء الدين الغياثي

الجزء الثالث

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله العلي عن شبه المخلوقين^(١)، الغالب لمقال
الواصفين، الظاهر بعجائب تدبيره للناظرين. والباطن بجلال عزته
عن فكر المتوهمين، العالم بلا اكتساب ولا ازدياد، ولا علم
مستفاد. المقدر لجميع الأمور بلا رؤيـة ولا ضمير، الذي لا تغشاه
الظلم ولا يستضيء بالأنوار ولا يرهقه^(٢) ليل ولا يجري عليه
نهار. ليس إدراكه بالإبصار، ولا علمه بالأخبار.

(١) من كلام لعلي أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة والسلام.

(٢) يرهقه : يغشاه.

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أحمد الله تبارك وتعالى أن منَّ عليَّ بتقديم الجزء الثالث من هذا الكتاب: (التكامل في الإسلام)، وعلى هذا الإقبال الذي ألفيته من القراء الكرام والنشجيع الذي لمسته منهم مع مزيد الاعتزاز بهم وبتأييدهم.

وقد قرظ الكتاب، نظماً ونثراً، لفيف من المؤمنين الأفاضل الذين كنت عند حسن ظنهم، فلاني إذ أقدم جزيل شكري لهم، أعتذر عن تدوين ما تفضلوا عليَّ بما لا أستحقُّه، دفعاً لتزكية النفس واعترافاً بالواقع وما أنا فيه من قصور وتقصير.

إن الله تبارك وتعالى قد أودع في هذا الإنسان غريزة بها يتوجه العبد بصورة فطرية إلى ربه، متفكراً في ملكوت السماوات والأرض، فيعزو بصورة طبيعية هذا النظام الرائع: النظام الكوني الدقيق إلى الله العلي القدير. وهو القائل: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البَلَد: الآية ١٠] أي: طريقي الخير والشر. وفي آية أخرى: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً﴾ [الرُّوم: الآية ٣٠]^(١)، فطرة الله التي فطر الناس عليها، ﴿لَا بَدِيلَ لِمَآ خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ وَلَئِنْ أَلْفَيْتُمْ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الرُّوم: الآية ٣٠] ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطِلاً سُبْحَانَكَ^(٢) فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: الآية ١٩١]. وفي

(١) حنيفاً: أي مائلاً عن العقائد الزائفة.

(٢) سبحانك: أي تنزيهاً لك، سبح الله أي نزهه وقُدسه..

الحديث: «لولا أن الشياطين يحومون إلى قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماوات والأرض»^(١).

إلا أن الإنسان يلوث نفسه بنفسه، فيخمد بيده هذه الغريزة الثمينة، غريزة التوجه إلى الخالق المتعال، وتقديسه وتعظيمه، حتى تنحجر النفس من جرّاء شتى المعاصي والآثام، فتسود وتحجب عن رؤية الحق^(٢) والواقع، فتتوارد عليه شكوك وأفكار مادية حالكة، واتجاهات سلبية، فيتراعى له: أنه قد بلغ شأواً قاصياً من الثقافة، وأنه كان خرافياً، فأمسى متحرراً عما يشين العقل البشري أو يعوقه عن سيره التقدمي، فيعد نفسه تقدماً وغيره رجعيّاً.

لقد أجمع علماء النفس أن الدين أمر فطري عند البشر، وأن المفاهيم البشرية كالمادية وغيرها من نزعات، قد تعيش برهة من الزمن نتيجة لطغيان هذه النفس الطائشة الأمارّة بالسوء، إلا أنها سرعان ما تموت وترجع الفطرة إلى فعاليتها الطبيعية وتدين بما وراء الطبيعة بدرجة تكاملها وقطعها مراحل في عوالم تطهير النفس وتزكيتها. فإنه تعالى يقول: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: الآية ٦]. فلا بد من تقوى واجتناب للمحرمات حتى يعتبر الإنسان بما أودع الله من عظيم الصنع في هذا الكون الرحيب!

فالظلم والاعتداء هما اللذان يحجبان الفرد عن رؤية الحق وهو غافل عما ينتهي إليه من جراء بغيه وطيشه على حد قوله تعالى ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس: الآية ٧٤]. وفي آية أخرى: ﴿وَمَا يَنبَغُكَ إِتْيَانُنَا إِلَّا الْقَلِيلُ مِّنَ الْعَنَكِبُوتِ﴾ [العنكبوت: الآية ٤٩].

فلا ينبغي أن يقنط المؤمن إذا ما رأى أمواجاً وقية تناهض الدين وتقاومه، فإنها أمواج ترشحت من نفوس معدودة استولى عليها شيطانها نتيجة لآثامها، فضغطت على حريات غيرها من نفوس كثيرة جداً لا توافقها في الرأي وهي تؤمن في أعماق نفوسها بخالق أزلي أبدي، منظم هذا الكون أبدع تنظيم.

(١) بحار الأنوار: ج ٥٦، ص ١٦٣، باب ٢٣.

(٢) عن النبي ﷺ: «شر العمى عمى القلب».

وقد أملى بعض هذه النفوس على الآخرين أفكاراً لا توافق الواقع في شيء .
منها : أن هناك تنافياً بين الدين ومعطيات العلم الحديث التي تسندها التجارب ،
وتحددها المعادلات ، فلا ينبغي الالتفات إلى ما يملئ علينا الدين ! .

إن صح هذا بالنسبة إلى بعض الأديان السماوية التي مستها اليد البشرية المحرفة .
فلا يصح بالنسبة إلى الدين الإسلامي ، لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُمُ
لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : الآية ٩] .

ففي هذا الجزء يجد القارئ آيات كثيرة مما جاء في كتاب ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ
يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ [فصلت : الآية ٤٢] سبقت العلم الحديث في إعطائها عصارة ما
توصل إليه العلم المادي ، حيث لا تلسكوب ولا ميكروسكوب : (مرقب ومجهر) .

فلا تكاد تجد في الإسلام ما كان في عوالم الكنيسة في القرون الوسطى . فقد
سلمت الكنيسة (جوردانو برونو) إلى غرفة التعذيب وأذيق أمر أنواع العذاب ثم أوثق
إلى قاعدة خشبية وأحرق حياً عام ١٦١٠م لتصريحاته العلمية .

ونشر (مجمع الكرادلة المقدس) قرار الجرم لمن يقول بدوران الأرض واعتبار
القاتل كافراً زنديقاً .

وإن غاليليو^(١) قد وعد الكاردينال بالطاعة المطلقة ، مسلماً بأن ما قاله عن دوران
الأرض باطل ، كما أقسم بالأناجيل المقدسة سنة ١٦٣٣م : أن الأرض لا تدور حول
الشمس !

قد جعل الإسلام (المنطق) حاكماً عند عرض تعاليمه من واجبات ومستحبات ومحرمات
ومكروهات ومباحات بقوله : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمّد : الآية ٢٤] .
وبقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد : الآية ٣] ، ﴿ كَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس : الآية ٢٤] ، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : الآية ١٧٦] . ويقول : ﴿ إِنَّهُ

(١) هو ابن أحد نبلاء (فلورنسا) وأحد رواد العلم العظماء . وهو الذي وفق إلى إعداد مرقب الرصد
الذي أرانا به عوالم السماوات ، وقد كان يسر في تطبيق التحليل الرياضي على المعضلات
الطبيعية ، وهو في عمله على نوايس الحركة قد عبد الطريق لـ(نيوتن) .

فَكَرَّ وَفَدَّرَ ﴿٧٨﴾ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٧٩﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٨٠﴾ .

دين الإسلام يخاطب العقول، تلك العقول التي لم تحجب عن رؤية الحق والواقع بالآثام والفسوق، إنه يدعو إلى المنطق الصحيح ولا يفرض شيئاً دون أن يرافقه برهان ودليل وذلك بقوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَآلَ لُغَمٍ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٧٩] ^(١).

فما من فرد إلا وأودع الله فيه عقلاً يعرف به أصول المعارف الإلهية، «العقل ما عبد به الرحمان واكتسب به الجنان» ^(٢)، لكن الإنسان لسوء اختياره وفسوقه وفجوره يسدل ستاراً على ذلك العقل الفطري. فيكون إذ ذاك كمن لا عقل له، فلا يعمل بالنصوص الدينية، فيكون كمن لا دين له، فيكون مصداق هذا الحديث: «لا دين لمن لا عقل له» على حد قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُوعًا وَلَكِبَ الْأَلَكُ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [المائدة: الآية ٥٨]. فالعقل نبئ باطني لمن لم تبلغه الرسالة. فيحاسب حسبما يملئ عليه عقله الفطري غير الملوث بالذنوب والآثام. فمن كان في (الأسكا) مثلاً ولم تبلغه الرسالة، محاسب يوم القيامة وفق ما أودع الله في عقله من معارف أولية. فإن ظهور آثار الدين في المرء إنما هو ظهور آثار العقل فيه.

إذن. فلا يعتبر بآيات الله إلا من صلح عمله وطابت سريرته وطهرت إلى حد ما نفسه. إن نفساً كهذه تنجذب إلى آيات الله وإلى ما وراء الطبيعة بصورة فطرية، وتزداد فرحاً وسروراً عند قراءة ما يؤيد عظمة الله تعالى في هذا العالم الواسع الأرجاء: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [التجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون] ^(٣) [السجدة: الآيتان ١٥/١٦].

(١) ذرأنا: خلقنا.

(٢) نهج البلاغة: الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

(٣) خروا: سقطوا. سبحوا: أي نزهوا ربهم عن النقص حامدين له نعمه. تتجافى جنوبهم: ترتفع وتتنحى. المضاجع: الفرش ومواضع الاضطجاع.

فلا تكفي لتكامل هذه النفس العبادة والتهجد فحسب ما لم ينفق الفرد مما رزقه الله تعالى .

فالإسلام دين يحقق للناس سعادة الدارين وفي الوقت الذي يأمر بالتسبيح والعبادة يأمر في الوقت نفسه بأن يعطي الغني من فضول ماله لتزكو نفسه، ولئلا يبقى على وجه البسيطة فقير .

فقد قال الإمام الصادق سلام الله عليه : «إن الله فرض في أموال الأغنياء ما يسعهم، ولو علم أن ذلك لا يسعهم لزادهم» .

وفي البحار عن الصادق عليه السلام : «المال مال الله جعله وديعة عند خلقه، وأمرهم أن يأكلوا منه قصدا^(١)، ويلبسوا منه قصدا، وينكحوا منه قصدا، ويركبوا منه قصدا، ويعودوا بما سوى ذلك على فقراء المسلمين . فمن تعدى ذلك كان أكله حراماً، وما لبس منه حراماً، وما نكح منه حراماً، وما ركب منه حراماً، يتقلب في حرام^(٢)» .
وبنس العبد عبد يعيش فيما حرم الله عليه، يصبح ويمسي والرب ساخط عليه . هذا حاله في الدنيا . وأما آخرته : يخرج من قبره ويكون من الذين يأتيهم النداء من الله : ﴿أَذْهَبَتْ طَبِيبُكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَنْعَمْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُخْرَجُونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف : الآية ٢٠] .

إنه تعالى يقول : ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة : الآية ٩٣] .
ويقول الصادق عليه السلام أيضاً : «ولو أن الناس أدوا زكاة أموالهم ما بقي مسلم فقيراً محتاجاً ولا استغنى بما فرضه الله له، وإن الناس ما افتقروا ولا احتاجوا ولا جاعوا ولا عروا إلا بذنوب الأغنياء^(٣)» .

(١) قصدا : في حدود الاعتدال، قصد يقصد قصدا : أي استقام واعتدل . ومنه الاقتصاد أي الاعتدال والتوسط .

(٢) بحار الأنوار : ج ١٠٠، ص ١٦، باب ١، ح ٧٤ .

(٣) من لا يحضره الفقيه : ج ٢، ص ٧، ح ١٥٧٩ .

فلو كان المسلمون مومنين حقاً مطبقين أحكام الإسلام دونما تبعض وتفرق لما رأيت من يشكو الفقر والمرض والجهل. ولرأيت الأرض جنة عدن. ذلك لأن الإسلام لم يدع أمراً فيه حياة الناس وسعادتهم إلا وقد أمر به، ولم يدع أمراً فيه هلاك الناس وانحطاطهم ونسافلهم إلا وقد نهى عنه.

فدين الإسلام دين الكمال الإنساني. وما جاء فيه من قوانين أخلاقية وعبادية وقضائية وإدارية وإقتصادية واجتماعية كلها ترمي إلى تكميل النفس الإنسانية وإبلاغها أسمى مراتب الكمال.

فما علينا الآن إلا أن نقوم بتطبيق قواعد الإسلام وتعاليمه الرفيعة على أنفسنا أولاً ثم نعمل مجاهدين مخلصين لأجل نشر هذه التعاليم في أرجاء الأرض وإفهام الناس حقائق الإسلام: دين الفطرة، بأساليب عصرية لا تخالف روح الإسلام وديناته المشروعة في شيء.

فالله تعالى يقول: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيدِهِ وَإِنَّا لَهُ كَنُزُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٩٤].

﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ [النساء: الآية ١٠٠].

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: الآية ٢١٨].

وقد قال الإمام محمد الباقر عليه السلام: «إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء ومنهاج الصالحين فريضة عظيمة بها تقام الفرائض وتأمين المذاهب وتحلُّ المكاسب وتردُّ المظالم وتعمر الأرض ويتصف من الأعداء ويستقيم أمر الناس»^(١).

العلم والإيمان

قال علي عليه السلام: «بالعلم يُعرف الله ويوحَّد»^(٢). فالعلم خير وسيلة لمعرفة الخالق

(١) تهذيب الأحكام: ج ٦، ص ١٨٠، باب ٨٠. (٢) تحف العقول: ص ٢٨.

جلّ جلاله والتعريف على ما أودع الله تعالى من دقائق الصنع وخواص مرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً لإيجاد عوالم من الجماد والنبات والحيوان ولتسيير هذه الأفلاك بهذا النظام الرائع البديع. نظام يجعل عيني الفلكي الذي لم يقس قلبه بالموبقات، تفيضان بالدموع خشوعاً وتقديساً لله تعالى لما يرى هنالك من دقيق المعادلات وبديع القوانين. نظام يجعل هانري بركسون: (Henri Bergson) مؤمناً بوحدانية الله تعالى معظماً إياه حين يتتبع نظام الذرة وما فيها من معادلات وقوانين تبهر العقول. هذه الذرة التي قد بلغت من الصغر بحيث لو وضعت (١٠,٠٠٠,٠٠٠) منها، على شرط الكروية، بعضها جنب بعض لكان طولها مليمترًا واحدًا. نظام يجعل الطبيب الذي لم يلوّث باطنه بسكر أو فسق يركع أمام عظمته تعالى حين يرى أنه تعالى قد ربّ في المخ البشري (٢٠,٠٠٠,٠٠٠) عصب موضوعة بعضها جنب بعض بحساب دقيق بحيث لو جس أحد هذه الأعصاب لحدثت عوارض تخص هذا العصب المجسوس دون غيره.

نظام يخشع تجاهه العالم بالميكانيك السماوي والفيزياء، حين يرى: كيف رتب الله تعالى الأبعاد بين الأجرام السماوية ومنها بُعد أرضنا عن الشمس وبعد القمر عن الأرض وهو القائل: ﴿فَلَا أَمْسُهُ يَمَاقِيعُ النُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُ لَقَسْرٌ لَوْ تَكَلَّمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: الآيتان ٧٥/٧٦].

فلو كان بُعد الأرض عن الشمس ضعف ما عليه الآن لنقصت الحرارة التي تأتينا من الشمس إلى (ربع) ما عليه الآن^(١) ولقلت سرعة حركة الأرض حول مدارها إلى النصف^(٢) ولطال فصل الشتاء إلى ضعف ما عليه الآن ولانجمد نتيجة لذلك جميع ما على الأرض من كائنات حية ولاستحالت الحياة عليها.

ولو كان بُعد الأرض عن الشمس نصف ما عليه الآن لأصبحت حرارة الأرض

(١) حسب قانون فيزيائي: شدة الحرارة على سطح ما تتناسب تناسباً عكسياً مع مربع المسافة عن مصدر الحرارة.

(٢) ذلك لأنه يتناسب محيط الدائرة تناسباً طردياً مع نصف القطر: $m = 2 \times \text{نق ط}$. وإن حصل ضرب السرعة الزاوية في المسافة عن المركز مقدار ثابت: لا $x \text{ نق} = \text{ث}$.

أربعة أمثال ما عليه الآن بنفس السبب ولتضاعفت سرعة الحركة حول المدار ولنقص طول مدة كل فصل من الفصول الأربعة: (الربيع، الصيف، الخريف، الشتاء) إلى النصف^(١)، ولتبخر ما على الأرض من مياه ولما أمكن السكنى عليها من شدة الحرارة وذلك لقربها من الشمس.

ولولا أن الله تعالى قد أحاط أرضنا بغلاف غازي (جوي) ثخنه (٨٠٠) كم لحفظها مما تتوجه نحوها من أحجار سماوية: (٢٠,٠٠٠,٠٠٠) حجارة في كل ثانية، بسرعة ٥٠ كم/ ثانية^(٢) لما عاش على سطحها كائن حي ولاستحالت الحياة على وجه البسيطة. على أن لهذا الغلاف الغازي أو الدرع الحصينة أثراً هاماً في إيصال حرارة الشمس إلى الأرض بدرجة من الاعتدال والتناسب كي يمكن أن تعيش على سطحها النباتات والحيوانات والإنسان. وكذلك في نقل المياه وبخار الماء من المحيطات (البحر المحيط) إلى القارات. فلولا هذا الغلاف الجوي لتحولت القارات إلى أرض قاحلة.

ولو كانت الأرض بقدر القمر وكان قطرها ربع ما عليه الآن، لما كانت قوة الجذب عليها (أي سطح الأرض) تكفي لجذب المياه والهواء، ولما استقر الماء على سطحها. لأن قوة الجذب تكون إذ ذاك سدس قوة جاذبية الأرض اليوم^(٣). ولا ترتفعت درجة الحرارة إلى حد يؤدي إلى إبادة الحياة عليها.

ولو كان قطر الأرض ضعف ما عليه الآن، لكان سطح الأرض أربعة أمثال ما عليه الآن^(٤) وكانت قوة الجذب ضعف قوة جذب الأرض الحالية، ولقل ارتفاع الجو إلى حد مخطر ولا ترتفع الضغط الجوي من كيلوغرام واحد على كل

(١) إن كان بالإمكان حصول تغيير فصلي إذ ذاك.

(٢) أي تقطع هذه الأحجار السماوية مسافة قدرها خمسون كيلومتراً في الثانية، أي أن سرعتها في الساعة (١٨٠٠٠٠) كيلومتر.

وقد دلت دراسة المعلومات التي ترسلها الأقمار والصواريخ على أن حوالي عشرة آلاف طن من مواد الشهب والنيازك تتساقط نحو الأرض كل يوم.

(٣) قوة الجذب: $ق = \frac{ك}{ر^2}$ ، ولا بد من ملاحظة نصف القطر.

(٤) إن سطح الكرة يتناسب طردياً مع مربع نصف القطر: سطح الكرة = $٤ \pi ر^2$.

ستيمتر مربع إلى كيلو غرامين ولأشكلت الحياة على وجه الأرض .
ولو كانت الأرض من حيث الكبر بقدر الشمس لأمت قوة الجذب عليها (١٥٠)
مرة أكثر مما عليه الآن حسب قانون (نيوتون) ولنقص ارتفاع الجو حوالي (١٠)
كيلومترات ولما أمكن تبخر المياه وكان الضغط الجوي على كل سنتيمتر مربع من
السطح أي على (١ سم ٢) = ١٥٠ كيلو غراماً . أي لكان وزن حيوان يزن الآن كيلو
غراماً واحداً = ١٥٠ كيلو غراماً ، ولكان طول الإنسان بطول السنجاب (في الوقت
الحاضر) ولاستحالت الحياة العقلية لمثل هذه الموجودات .

وهكذا نرى أن الله تعالى قد جعل أرضنا هذه من حيث الكبر والبعد عن الشمس والقمر
وسائر الأنجم ومن حيث الكتلة وقوة الجذب بدرجة تيسر معها الحياة على سطحها ، فإن
زلَّ أحد هذه الأشياء أو غيرها مما نعلمه أو لا نعلمه لاستحالت الحياة عليها .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمِصُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَجَلٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر: الآية ٤١] ^(١) .

البروتين (Protéine) جزء هام من مادة البروتوبلازم (Protoplasme) ^(٢) ، وهي
المادة التي منها تتكون جميع الخلايا وكل الأحياء . فالبروتين هو المادة الابتدائية
الأولى التي تشكل ، مع الجزء الأصلي ، الخلايا الحية . وهذه مؤلفة من عناصر
خمسة : الكربون والإيدروجين والنيتروجين والأكسجين والكبريت . وعلم أنه يوجد
في الجزيء ^(٣) الثقيل منها : ٤٠٠٠٠ ذرة (Atome) .

فإن ادَّعى مدَّع أن في الطبيعة ٩٨ عنصراً قد وزَّعت أو وجدت دونما نظام
وترتيب ، بل وجدت ورتبت بالصدفة ، فللعلم الرياضية أن تحقق إمكان حدوث هذه

(١) إن أمسكهما : أي : ما أمسكهما .

(٢) كان يعرف : البروتوبلازم : أنه المادة الزلائية الحية التي تتكون منها خلية الأجسام النباتية
والحيوانية فهو مصدر كل حياة .

(٣) Molécule .

الصدفة! وأن تحسب مرتبة الاحتمال أو درجة الصدفة التي يمكن أن تحدث لإمكان انضمام عناصر خمسة (الكاربون والإيدروجين والنيتروجين والأكسجين والكبريت)^(١) لإيجاد ذرّات المادة الأولى: البروتين (Protéine) وأن تحسب مقدار المادة التي يجب أن تكون موجودة قبلاً وفي حالة خلط ومزج دائم، وأن تحسب المدة التي يجب أن تنقضي لحصول هذا التركيب أي لاجتماع هذه العناصر الخمسة.

فالعالم السويسري: (شارل أوثرن غوي) تمكن من حساب مرتبة الاحتمال لحدوث ما في البروتين (Protéine) من تركيب.

فقال: إن مرتبة الاحتمال لحدوث هذا التركيب للعناصر الخمسة فقط هي: $\frac{1}{10^{16}}$ أي في كل عشرة مليون مليار حادثة تركيب يحتمل أن يحصل تركيب يشبه تركيب المادة الأولى: البروتين.

وإذا قلنا أنه يوجد في الكون مثل هذا التركيب وأعقد منه تراكم لا تنتهي، وذلك لحصول هذا النظام البديع في عوالم الجمام والنبات والحيوان، لأصبحت إذن مرتبة الاحتمال $\frac{1}{10^{16}}$ (أي: واحداً منسوباً إلى اللانهاية) ومآل ذلك: الصفر. إذن فلا صدفة وانتهى كل احتمال.

* * *

وقد حسب أيضاً العالم السويسري (شارل) أن المقادير اللازمة من المواد المذكورة التي يجب أن تقع بالصدفة بعضها جنب بعض لتشكيل (البروتين)، وذلك بعد تبدلات وتحولات كثيرة جداً، هي ملايين مرة أكثر من جميع ما في هذا الكون المادي من مواد.

كما علم أنه لا بد وأن ينقضي 10^{24} [عشرة مرفوعة إلى قوة ٢٤٣، أو ١٠ متبوعة بـ ٢٤٣ صفرًا] من السنين لحدوث ترتيب البروتين المؤلف من عناصر خمسة فقط، فكيف بالمدة اللازمة لحدوث عناصر أخرى، لا تعد ولا تحصى.

(١) على أن للإنسان أن يسأل: كيف وجدت هذه العناصر الخمسة ابتداءً وما هو الأساس وهل للمادة العماء أن ترتب وتنظم وتنتظر إلى المستقبل؟

إن البروتينات مكونة من مواد متسلسلة تسمى بالحوامض الأمينية Amino acids ويحار الإنسان إذا ما رام أن يستقصي هذه المواد المتسلسلة وكيف ترتبت وتسلسلت ذرات هذه المواد. فإن الذرات، لو كانت قد اتصلت وانضمت بعضها ببعض بصورة خاطئة لشكلت مواد سامة مهلكة.

وقد حسب البروفسور (ج. ب. ليچ) أنه: تتشكل سلسلة بروتين بسيط بـ (٤٨١٠) شكلاً مختلفاً. ويقول أنه لا يمكن أن ينتظم جزيء من البروتين الحالي بالصدفة مع ضالة هذا الاحتمال.

على أن البروتين (Protéine) مادة كيميائية فاقدة الحياة. وأن الحياة أو الحيوية أمر هام خطير جداً تأتيناها من الخارج وأن الله تعالى هو الذي نفخ فيها الروح وجعلها حية بعد أن كانت مادة ميتة لا حياة فيها ولا حيوية، لا سيما مع تلك الدرجات العالية من الحرارة حين تشكل الأرض، عندما كانت سديماً^(١)، على ما ثبت في علم طبقات الأرض: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْنِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: الآية ١١].

فما أعظم قول الله بالنسبة إلى ولوج الحياة في الخلية الميتة (cellule) حين يقول: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاستَجِئُوا لِلَّهِ إِنَّكَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: الآية ٧٣].

إن العلم بأحوال الكون يجعل الفرد المؤمن يركع لله تعالى خشوعاً، ويسجد له تواضعاً وخنوعاً وتفيض عيناه بالدموع حباً وتسبيحاً وخضوعاً، لو كان قد بلغ مرتبة من اليقين لأعمال كان يقوم بها صالحة مع تهجد وتزكية وتحلية وتطهير وهو القائل: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ [١٠] ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [١١] [الذاريات: الآيتان ٢٠/٢١]. حقاً، لا

(١) السديم: الضباب، ويراد به هنا غاز عالق به مواد صلبة.

يستفيد في مجالات تكامل النفس العالمون ببعض ما أودع الله من دساتير وخواص ودقائق الصنع في هذا الكون إلا الموقنين منهم . ولا يقين إلا بعد تزكية وتطهير وترك للموبقات والإجرام ، عند ذلك يوقن من وفق إلى التزكية بهذه الآية المنيفة حين يقول تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران: الآية ٨٣] .

وقد أتم الله الحجة على عباده بقوله : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: الآية ١٥١] .

نفي الصدفة بتوضيح آخر:

لو أرادت الصدفة (دون مدبر عاقل) أن ترتب حروف هاتين الكلمتين : (إنسان يقظان) المؤلفتين من ١٠ حروف وكان عدد العلب (أو الخانات) الجاهزة في المطبعة لهذا العمل ١٠٠ علبة^(١) ، فدرجة الاحتمال لظهور حرف (أ)

$$(١) \text{ (أولاً) من بين } ١٠٠ \text{ علبة تكون: } \frac{١}{١٠٠} \text{ (واحداً من مائة).}$$

ولأجل أن يظهر حرف (ن) من كلمة إنسان، بعد حرف (أ) مباشرة . تكون درجة الاحتمال لهذا الظهور = $\frac{١}{١٠٠ \times ١٠٠}$ (واحداً من عشرة آلاف).

ذلك لأننا مع كل سحبة من السحبة الأولى لظهور حرف: أ (أولاً)، يحتمل أن نسحب ١٠٠ مرة كي يظهر حرف (ن) بعد (أ) مباشرة . وبما أنه يحتمل أن نسحب ١٠٠ مرة لظهور حرف (أ) أولاً ومع كل سحبة يحتمل أن نسحب أيضاً ١٠٠ سحبة لظهور حرف (ن)، إذن درجة احتمال ظهور حرف (ن) بعد (أ) مباشرة تكون واحداً من عشرة آلاف، أي واحداً من $١٠٠ \times ١٠٠ = \frac{١}{١٠٠ \times ١٠٠}$.

ولأجل ظهور أو مجيء حرف (س) بعد حرف (ن) مباشرة (من لفظ: إنسان) تكون درجة الاحتمال واحداً من مليون أي:

$$\frac{١}{١٠٠ \times ١٠٠ \times ١٠٠}$$

(١) باعتبار الحرف الأول والحرف الوسط والحرف الأخير والحرف المفرد.

ودرجة الاحتمال لأجل ظهور أو مجيء حرف (أ) بعد حرف (س) من لفظ إنسان، مباشرة، تكون: $\frac{1}{1,8}$.

ودرجة الاحتمال لأجل ظهور حرف (ن) بعد (أ) من كلمة (إنسان) مباشرة، تكون: $\frac{1}{1,1}$.

ودرجة الاحتمال لترتب حروف: (إنسان يقظان) بالصدفة (دون أن يكون للعقل أو الحافظة دخل في الموضوع) تكون واحداً من مائة مليون مليون مليون، $\frac{1}{1,1}$ أي نحتاج إلى مائة مليار مليار سحبة.

وإذا كان عدد حروف صفحة من كتاب رتبت حروفها بالصدفة العمياء ٢٠٠٠ حرف، فتكون درجة الاحتمال: $\frac{1}{2,000 \times 1,1} = \frac{1}{2,200}$.

وإذا فرضنا أن كتاباً عدد صفحاته ٤٠٠ وأن الصدفة العمياء هي التي نظمت ورتبت حروف هذا الكتاب. فتكون درجة احتمال وقوع هذه الصدفة $\frac{1}{1,1^{400}}$ وبما أن المقام صار يقترب من اللانهاية ∞ ، فإن درجة احتمال ترتيب حروف مكتبة تضم مائة ألف مجلد أو أكثر تساوي واحداً منسوباً إلى اللانهاية: أي:

$$0 = \frac{1}{\infty} = \frac{1}{1,1^{\infty}} \quad (\text{صفر})$$

ثم، ألا ينبغي للمقائل بالصدفة أن يسأل نفسه: كيف وجدت هذه الحروف: (الحرف الأول بشكله الخاص والحرف الوسط بشكله الخاص ... الخ) بهذا النحت الجميل عن تدبير وهندسة خاصة في بادئ الأمر حتى يأتي دور الصدفة وترتب اللفظين: (إنسان يقظان) بالصدفة العمياء دون إرادة وعلم!

فالتنظيم ضارب أطنا به ابتداءً واستمراراً وأبدأً في هذا الكون، فلا بد من موجد ومنظم ابتداءً واستمراراً وأبدأً وهو الله جلّت عظمته، ووسعت رحمته.

فلنأت بعد ذلك إلى هذا الكون الرحيب وما فيه من ذرات وجزيئات وعناصر ومركبات لا تتناهى في السماوات وفي الأرضين، سواء في عالم الجمااد أو النبات أو الحيوان وفي عوالم أخرى لا يعلمها إلا الله تعالى، لنرى انعدام الاحتمال بطريقة

الصدفة لحدوث هذا النظام الرائع في ما لا يتناهى من أجزاء مترتبة بعضها أثر بعض عن حكمة وتدبير. فدرجة الاحتمال في هذه الحالة: $\frac{1}{\infty} = 0$ (صفر)، تساوي الصفر لا محالة ودون أي ريب.

فلا بدّ إذن من مدير منظم حكيم عارف بقوانين الميكانيك والتفاعلات الكيميائية والرياضيات العالية والطبيعات إلى ما هنالك، وهو الله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [المك: الآية ١٤].

على أن للسائل أن يسأل: كيف وجدت هذه الأجزاء ابتداءً، وكيف تسلسلت متكاملة بعضها عن بعض ثم استمرت وهي متكاملة، ومن الموجد لها أولاً قبل أن تترتب؟ وما هو أساس الوجود المادي؟ وما هو أساس الوجود الروحي؟ وكيف جاءت هذه الحيوية وما حقيقتها؟

فلا مناص من الاعتراف بمن هو واجب وجوده من الأزل لإيجاد هذا الكون الرحيب بهذا الترتيب البديع وهو الله تعالى واجب الوجود.

﴿سَبِّحْ^(١) اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى^(٢) ۝ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ۝ فَجَعَلَ غَشَاءً^(٣) أَحْوَى^(٤)﴾ [الأعلى: الآيات ٥/١].

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ صَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: الآية ١٢٥].

جاء في حديث عن رسول الله ﷺ: «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً به وإنه يستغفر لطالب

(١) سبّح: أي قدس ونزه ربك عن النقائص.

(٢) قدر فهدى: أي قدر كل ما خلقه تقديراً مناسباً للحكمة ومودياً للأغراض التي خلقه من أجلها على أحسن حال.

(٣) غشاء: ما يلقيه السيل من ورق بال وزبد.

(٤) أحوى: ما به حوة، والحوة سواد إلى خضرة.

العلم من في السماء ومن في الأرض حتى الحوت في البحر. وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم ليلة البدر. وإن العلماء ورثة الأنبياء»^(١).

ما هو هذا العلم الذي تضع الملائكة أجنتها لطالبه رضاً به؟ هل هو هذا العلم المادي الذي يقطع العالم به علاقته بواضعه وموجده وخالقه؟ هل هو العلم بأحوال الكون وقوانينه دون عزو ذلك إلى مرتبها وواضعها، بل صار يكفر العالم بها بمن أوجدها ونظمها غاية التنظيم؟ هل هو هذا العلم الذي يعتبره المنحرفون والمنجرفون معبوداً جديداً وإلهاً قهاراً، حلاًّ للمشكلات، يدفع العضلات ويقهر كل شيء ويسير العالم حسب أهواء الضالين المضلين؟ فلا حاكم ولا قاهر خارج حدود هذا العالم إلا العلم؟! ولا مسيطر ولا مدبّر في الكون كله دونه! (أي دون العلم؟)!. أهذا هو ذلك العلم الذي يقول عنه الإمام علي عليه السلام: «أيها الناس إعلموا، أن كمال الدين طلب العلم والعمل به»^(٢). فأَي كمال رأينا في نفوس بعض العلماء الماديين وبعض الفلاسفة الماركسيين! فهم أعداء الله في أرضه ولا غنى لهم عن رزقه. فلو سلّط الله تعالى على مخ أحدهم جرثومة ضئيلة لا ترى بالعين المجردة لأمسوا مجانين ولعلموا ما هم عليه من فلسفة زائفة ضالة هدامة!

على أن هذا العلم لا يستطيع أبداً أن يكون بديلاً عن الإيمان بالله في حياة الإنسان، يملي على الإنسان سنن الكمال. ذلك لأن هذا العلم إنما خرج من نفوس لم تزكّ ولم تتطهر. فلا يزال عليه طابعها: ذلك الطابع المادي الحالك. ولأن هذا العلم متغير ومتطور من لحظة إلى أخرى وأن نتائجه التي تؤكّد اليوم من قبل العلماء تنقض غداً بفعل الاختبارات والتجارب في كثير من ميادين العلم. وهكذا سيظل (العلم) له خاصية التغير والتبدل ويخضع لعامل التطور، إلا ما كان مجرداً بحثاً كالرياضيات البحتة وذلك في حدود معينة محدودة.

أهذا العلم الذي يقول به المادي دون أن يتجاوز بفكره حدود الأرض والجسد،

(١) أصول الكافي: ج ١، ص ٣٤، باب ثواب العالم، ح ١.

(٢) أص. ١٠ ص ٣٠، باب فرض العلم، ح ٤.

هو ذلك العلم الذي يقول عنه رسول الله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ألا إن الله يحب بغاة العلم»^(١). أترى أن الله يحب العلماء المفسدين في الأرض، وهو القائل: ﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: الآية ٢٨].

انظروا إلى هذا الحديث، لتعلموا ماذا يراد بالعلم في لسان الشرع وماذا يراد بالفضل؟

فعن أبي الحسن موسى عليه السلام: قال دخل رسول الله ﷺ المسجد فإذا جماعة قد أطافوا برجل فقال ما هذا؟ ف قيل علامة... فقال: ما العلامة؟ فقالوا له: أعلم الناس بأنساب العرب ووقائعها وأيام الجاهلية والأشعار العربية. قال: فقال النبي ﷺ: «ذاك علم لا يضر من جهله ولا ينفع من علمه». ثم قال النبي ﷺ: «إنما العلم ثلاثة: آية محكمة، أو فريضة عادلة، أو سنة قائمة وما خلاهن فهو فضل»^(٢).

فترون أن المراد في لسان الشرع من (العلم) هو ذلك العلم الذي يوحد به الله تعالى في أرضه وسمائه فيعبد ويقدر. هو ذلك العلم الذي يأخذ بالنفس الإنسانية إلى ساحات القدس بعد تزكيتها وتطهيرها من الدنس والرجس بما يقدم للبشر من تعاليم إلهية ودساتير ربانية، وكذلك العلوم الطبيعية والفيزيائية والكيميائية والفلكية، وكل علم مظهر لعظمة الله في أرضه وسمائه، إذا كان هذا العلم لا ينفك عن عزو جميع المكتشفات إلى الله المبدع العظيم.

لذلك يقول (إسحاق نيوتن) وهو أعظم علماء القرن الثامن عشر وله الفضل الأكبر في تقدم العلوم المادية في القرن العشرين إلى هذه المرتبة، أنه يقول: «لا شك في الخالق. فإن هذا التنوع في الكائنات وما فيها من ترتيب أجزائها ومقوماتها وتناسبها مع غيرها ومع الأزمنة والأمكنة لا يعقل أن تصدر إلا من حكيم عليم».. وهو القائل أيضاً: «لا أدري كيف ينظر إلى العالم ولكن أترأى لنفسى كما لو كنت

(١) أصول الكافي: ج ١، ص ٣٠، باب فرض العلم، ح ١.

(٢) أصول الكافي: ج ١، ص ٣٢، باب صفة العلم، ح ١.

غلاماً يلهو على شاطئ البحر وأسلي نفسي بين الحين والآخر بالعثور على حصاة أكثر ملامسة، أو صدفة أجمل من المعتاد. بينما محيط الحقيقة العظيم يمتد أمامي دون كشف. . . ويقول أيضاً في محل آخر: «ما من شك أن خالق العالم هو محيط بأسرار علم الميكانيك إحاطة تامة كاملة».

(پاستور) كان ينكر إله الكنيسة. إلا أنه كان مؤمناً بالخالق المعبود، إله العالمين، خالق الجراثيم. . . على حد تعبيره.

في القرآن الكريم (٧٥٠) آية كونيّة تشرح بإيجاز: عصارة ما أودع الله تعالى من كمال في العالم المادي من سماء وأرض وفي عالم النبات والحيوان، وآيات أخرى تذكر شيئاً عن عوالم النفوس والأرواح. كل ذلك، ليوقن هذا الإنسان، لو نال قسطاً من طهارة النفس، أن هذه القوانين النظم التي لم يتوصل الإنسان إلا إلى جزء ضئيل منها، إنما هي خير دليل على وجود صانعها ومبدعها العليّ القدير وخير مرشد إلى مدبر ومسير أوحى جميعها بقدرته، بقاؤها بإرادته، زوالها بأمره. فليس (للعلم)، هذا العلم الذي يعتز به المادي وهو من صنع الله، أن يدير العالم، لو تخلف هذا العالم عن إرادة الله تعالى ومشيتته طرفة عين. «إن الله يُمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده»^(١).

لذلك يقول أبو جعفر عليه السلام: «الكمال كل الكمال، التفقه في الدين والصبر على النائبة وتقدير المعيشة»^(٢).

وفي حديث آخر: «إذا أراد الله بعبد خيراً فقهه في الدين»^(٣).

وفي حديث آخر: «عالم ينتفع بعلمه أفضل من سبعين ألف عابد»^(٤).

وعن أبي عبد الله عليه السلام: «يغدو الناس ثلاثة أصناف: عالم ومتعلّم وغشاء، فنحن العلماء وشيعتنا المتعلمون وسائر الناس غشاء»^(٥).

(١)، (٢)، (٣)، (٤) أصول الكافي: ج ١، ص ٣٢، باب صفة العلم، ح ٤ و ٣ و ٨.

(٥) أصول الكافي: ج ١، ص ٣٤، باب أصناف الناس، ح ٤٤ والغشاء: التزبد والبالى من ورق الشجر.

وقال أبو عبد الله عليه السلام: «من تعلم العلم وعمل به وعلم الله دعي في ملكوت السماوات عظيماً. فقيل: تعلم الله وعمل الله وعلم الله»^(١).

وقد جاء في تفسير ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: الآية ٢٨] من صدق فعله قوله. ومن لم يصدق فعله قوله فليس بعالم^(٢).

فالمادي الذي قد تعلم شيئاً من قوانين الطبيعة وخواصها، أو وفقه الله تعالى إلى كشفها ولم يتأثر بما أودع الله من دساتير رياضية لا تحصى في هذا الكون ومن دقيق الصنع ولم يخشع قلبه ولم يخش الله في حركاته وسكناته، ولم يكن لنفسه نصيب من الخضوع لله «الذي خلقه، فسوّاه فعدّله. في أي صورة ما شاء ركبّه»، ليس ذلك العالم الذي عناء الله في الآية المتقدمة.

فقد قال أبو عبد الله عليه السلام: «أطلبوا العلم وتزينوا معه بالحلم والوقار وتواضعوا لمن تعلمونه العلم، وتواضعوا لمن طلبتم منه العلم، ولا تكونوا علماء جبارين فيذهب باطلكم بحققكم»^(٣).

ما أعظم هذا الدستور أنه أدب التعليم الرفيع. لو عمل به لما بقى على وجه البسيطة من يشك في وجود الله جل جلاله، أو ينحرف عن الصراط السوي.

وقال عيسى عليه السلام: «بالتواضع تعمر الحكمة لا بالتكبر»^(٤). . . وقد قال الحواريون لعيسى عليه السلام، على ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا روح الله، من نجالس؟. قال: من يذكركم الله رؤيته ويزيد في علمكم منطقته ويرغبكم في الآخرة علمه»^(٥).

وإن قوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: الآية ١١] يدل دلالة صريحة أن الذي أوتي قسطاً من العلم ولم يكن مؤمناً لا ترفع له درجة بل بنص هذه الآية هو من الخاسرين: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي

(١) أصول الكافي: ج ١، ص ٣٥، باب ثواب العالم، ح ٦.

(٢) أصول الكافي: ج ١، ص ٣٦، باب صفة العلماء، ح ٢.

(٣)، (٤) أصول الكافي: ج ١، ص ٣٦، باب صفة العلماء، ح ١ و ٦.

(٥) أصول الكافي: ج ١، ص ٣٩، باب مجالسة العلماء، ح ٣.

الْآخِرَةَ مِنَ الْخَيْرِينَ ﴿٨٥﴾ [آل عمران: الآية ٨٥]. ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: الآية ١٩].

وإن قوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولَا أَلْمِزَ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: الآية ١٨] يدل دلالة واضحة على أن أولي العلم في هذه الشهادة العظيمة إنما هم من العلماء الذين بلغ بهم علمهم وتقواهم معاً إلى توحيد الله والاعتراف بعبادته.

وما أعظم هذا الحديث القدسي وما أجل معناه: «يا موسى عظم الحكمة فإني لا أجعل الحكمة في قلب إلا وأردت أن أغفر له، فتعلمها ثم اعمل بها ثم أبذلها، كي تنال بذلك كرامتي في الدنيا والآخرة»^(١).

فلا يستفيد العالم بأحوال الكون ودساتيره من علمه ما لم يكن قد جعل التقوى لنفسه شعاراً والأخلاق الفاضلة دثاراً. لذلك جاء في الحديث عن الرسول ﷺ: «قطع ظهري رجلان: عالم متهتك. يصد الناس عن علمه بفسقه، وجاهل متنسك يدعو الناس إلى جهله بنسكه»^(٢). وقال علي عليه السلام: «قصم ظهري رجلان: عالم متهتك وجاهل متنسك»^(٣).

وقد جاء في حديث آخر: «كونوا دعاة للناس بالخير بغير ألسنتكم. ليروا منكم الاجتهاد والصدق والورع»^(٤).

ومن جملة صفات العلماء على ما ورد في أصول الكافي: «لا حقوق ولا حسود ولا وثاب ولا سباب ولا عيَّاب ولا مغتاب، يكره الرفع واليشنأ السمعة، سهل الخليفة، لين العريكة، هشاش بشاش، لا بعباس ولا بجساس، كظام، بسام»^(٥).

فطوبى لأولئك العلماء الذين يدعون إلى الله بعمل صالح ويرفعون لواء الإسلام

(١) منية المريد: ص ١٢٠، الفصل ٥.

(٢) عوالي اللآلي: ج ٤، ص ٧٧.

(٣) شرح نهج البلاغة: ج ٢٠، ص ٢٨٤، حكمة رقم ٢٤٨.

(٤) أصول الكافي: ج ٢، ص ١٠٥، باب الصدق، ح ١٠.

(٥) أصول الكافي: ج ٢، ص ٢٢٦، باب المؤمن وعلاماته، ح ١.

عالياً بجهادهم المتواصل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ فَوْلاً يَمَنَّ دَعَاً إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فُصِّلَتْ: الآية ٣٣] .

إن الله تبارك وتعالى أكد في آيات جملة أن نتتبع الكون وما أودع فيه من نظم وقوانين تربط أجزاء الكون بعضها ببعض، كي نزداد معرفة به تعالى . فنخشع له وذلك بتقديسه وتسبيحه والعمل بما أمر به، فنزداد بصيرة وذلك غاية الغايات . فقد جاء في الحديث: «أعلمكم بالله أخوفكم له»^(١) شريطة أن لا يتجرد هذا العلم (أي العلم بأحوال الكون) عن طاعة الله تعالى، وأن لا يكون آلة هدم وتخريب . فقد قال علي عليه السلام: «كثرة العلم في غير طاعة الله مادة الذنوب» .

إنه تعالى يقول: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُقْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يُونُس: الآية ١٠١] . فإنه تعالى يصرح: أن التعرف على ما أودع الله من قوانين ومعادلات في الكون المادي^(٢) وما أودع فيها من قوى وطاقات، وما يربط هذه الطاقات أو المواد بعضها ببعض من قوانين وخواص لا تفيد الذين تخلّوا عن طاعة الله ولا تؤثر في تكميل نفوسهم، هؤلاء الذين لازموا الشهوات والنزوات وحضروا المراقص والملاهي ومجالس الفسق والفجور وأفسدوا في الأرض بأنواع البغي وضروب الظلم . وهذا ما نشاهده اليوم . ويشهد لنا التاريخ في الأمم الغابرة . ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ [الاحزاب: الآية ٣٨]^(٣) .

نرى اليوم من ينكر وجود الخالق جل جلاله أو يستهزئ برسالة الأنبياء ﷺ وقد درس شيئاً من قوانين الفيزياء أو الكيمياء، أو درس شيئاً من علم الحيوان والنبات إلى ما هنالك، مع اعترافه ببعض ما أودع الله من خواص ودرساتير في هذا الكون . وإن

(١) بحار الأنوار: ج ٦٧، ص ٣٤٤، باب ٥٩ .

(٢) يوجد في الكون مثل شمسنا مائة ألف مليون شمس . وإن كلاً من هذه الشمس المضئية لا بد وأن تجمع حولها كواكب أخرى ذات أقمار نضيء ساعة وتظلم أخرى .

(٣) خلّوا: مضوا .

البعض من هؤلاء مع جهلهم المرير بالعلوم الحقيقية كالرياضيات العالية والفيزياء الرياضية العالية وحقائق الكيمياء وما ثبت هناك من دساتير، يتبنون فلسفة مادية، فلسفة تجعل المادة الصماء كل شيء في هذا الكون. وتعتبر الاقتصاد محورياً أساسياً لكل الفضائل والمكرّمات والمعتقدات والمثل العليا، حين أن الفلسفة لا تبنى على جهل. ففلسفة تبنى على جهل بحقائق الكون، فلسفة فاشلة، واهية مضلة. إنها فلسفة الشهوات، والتفكك من قيود يتحقق بها شرف الإنسان وكماله. إنها فلسفة إباحية همجية ترجع بهذا الإنسان المسكين إلى جاهلية جهلاء، إنها فلسفة هدم وتخریب! ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَهْدَى مِنْ أَفْكَارٍ آلِهَةٍ لَا يَهْدَى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الفصص: الآية ٥٠].

يقول (پوانكاره) وهو من أعلام الرياضيين: «نحن الرياضيين إنما نعمل للفيزياء والفلسفة». ومعنى ذلك أن الفلسفة يجب أن تبنى على آخر ما توصل إليه العلم الحديث، لا على مفتریات وأكاذيب لا تدعمها المكتشفات الحديثة وما ثبت من أحوال الأمم الماضية.

فالتجربة ليست كل شيء في نمو الإنسان الرياضي، خلافاً لما يقوله الماديون. ففي الإنسان ملكة التعليل والتسبيب، وملكة التعميم والتجريد، دون أن يكون للتجربة دخل فيها. لذلك يقول (البرت آينشتاين): «كيف أمكن للرياضيات أن تكون أداة مناسبة بشكل يستحق الإعجاب لواقع الأشياء مع أنها ثمار التفكير الإنساني مستقلاً عن التجربة».

وقول (فيثاغورس): «العدد يحكم العالم» دليل على وجود خلق مبدع ربط أجزاء هذا العالم بحكمة فائقة تحت حساب دقيق يمكن أن يعبر عنها بمعادلات وأعداد وقوانين: ﴿وَنَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ أَفَنٌ كُلُّ شَيْءٍ إِتْمَ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: الآية ٨٨] ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدَرًا﴾ [الطلاق: الآية ٣].



إن الله تعالى يقول: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: الآية ٥]. وهو يحثنا على تعلم علم الأحياء (Biologie) وعلم الحيوان (Zoologie) وعلم وظائف الأعضاء

(Physiologie). ففي جسم الإنسان أكثر من ٢٠٠ عظم ولكل واحد منها شكل خاص، ولولا هذا الشكل الخاص لم تمكن الإنسان من الحركة. وفي جسم الإنسان ٥٠٠ عضلة: كل منها، تتغذى بمئات الأوردة والعروق، تديرها أعصاب كثيرة. والقلب، وهو بين هذه العضلات، ينبض في السنة (٣٠) مليون مرة.

وأما طبقات العين، فهي الطبقة القرنية والعدسية، ثم طبقة مائية زجاجية تنتهي في الشبكية. وإن الطبقة الشبكية لا تزيد عن ثخن الورقة، وهي تتألف من تسع طبقات، أبعدها تتألف من (٣) ملايين أسطوانة و(٣) ملايين مخروط.

وقد حسب أحد علماء الفسلجة أنه توجد في المادة السنجابية التي هي في تلافيف الدماغ: ستة ملايين خلية وأن كل خلية تتألف من ألوف الدقائق الظاهرة وأن كل دقيقة تتألف من ملايين الجواهر. أنه تعالى يقول: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: الآية ٢٠] ثم يذكرنا الله بالآخرة لنستعد لها لأنها هي الحياة الحقيقية التي تستحق أن يطلق عليها: كلمة الحياة، وذلك بقوله في بقية الآية: ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: الآية ٢٠].

لقد سبق القرآن العلم الحديث في التكلم عن بداية الخلق وهي (الخلية الحية). فهي جوهر الحياة. وذلك لأن كل مشكلة تتعلق بالحياة تبحث في النهاية في الخلية وأن كل كائن حي ما هو إلا خلية.

يقول الدكتور (كلارنس كوك لنيل): «إننا قد نفهم النشاط العظيم المتنوع في مدينة كبيرة، ولكننا قد لا نصدق أنه من الممكن أن تقوم أجسامنا بعملية أكثر تعقيداً وأشد غرابة في هدوء ودأب لا يعرف الكلل، عملية فيها صناعة تخزين وإصلاح ومواصلات ونقل وأعمال بوليسية وتخلص من نفايات وإدارة إنتاج للغذاء وضبط للحرارة. وإن هذا هو ما يحدث حقاً في الخلية الواحدة». فما أعظم ما أودع الله بحكمة فائقة من أعمال شتى متنوعة في غاية الدقة. أعمال ميكانيكية مختلفة، في هذه الخلية التي تبلغ من الصغر ما لا يمكن للعين المجردة مشاهدتها.

يقول (راتكليف): «في اللحظة التي يتم فيها الإخصاب، تقرر الخلية الصغيرة بدقة

تامة نوع المخلوق البشري الذي يجري إنتاجه، حتى لون عينيه وتموجات شعره، وإن العلم ما زال قاصراً عن إدراك الأسباب والدوافع التي تدفع بالبويضة إلى أن تتخلص من نصف مادتها بعد أن تبلغ درجة النضج وتصل إلى الرحم. وأن يتخلص الحيوان المنوي كذلك من نصف ما به، حتى إذا اتحد النصفان كوَّنا خليةً واحدة صغيرة بالغة من الصغر حداً كبيراً. إذ يبلغ وزنها ١٥ جزءاً من عشرة ملايين جزء من الغرام. وتصل يوم الميلاد إلى حوالي ثلاثة كيلو غرامات وذلك بانقسام هذه الخلية الواحدة إلى عدد من الخلايا تبلغ حوالي (٢٠٠) مليون خلية.

فالخلية على الرغم من صغرها كيان عضوي معقد أشد التعقيد. ففي الخلية خصائص ظاهرة وخصائص خفية كثيرة وكثيرة جداً، لم يظفر بها العلم الحديث، تعمل في التغيرات الطبيعية الكيميائية في الوسط الإنساني لتواجه الحالات الجديدة الطارئة في حالات الصحة والمرض تبعاً لما تستلزمه حالة الجسم.

يقول الدكتور (روسكوسينسر): «ليس في الطبيعة شيء أعجب من الحكمة التي تقسم بها الخلية نفسها إلى جماعات شتى، لكل جماعة وظيفة تؤديها، وكل جماعة منها تختلف لهذا الغرض عن الأخرى قواماً وتركيباً، ولكنها كلها أصلها واحد وإن الله تعالى قد زوّد الخلايا بقوى عجيبة وبخصائص مدهشة كل ذلك لتشييد الكيان العضوي الحي». ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتِ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَلَمْ نَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَّمَ كُلَّ شَيْءٍ لَّهُمْ قَوْمٌ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: الآية ٦٠]. (أي يميلون عنه).



وقد أمر الله تعالى بدراسة النبات كي يعتبر الإنسان بهذه الحيوية التي أوجدها الله في خلايا النبات وهذا النمو الذي نشاهده فيه، إنه (أي النمو) لأمر عجيب، إنه نمو بأمر الله ومشيتته، إذ العطالة أو القصور الذاتي: (Inertie) شيء لا ينفك عن أي جسم أو أية مادة في هذا العالم المادي على ما ثبت في علم الفيزياء. فلا بد من يد غيبية تعمل بحكمة في ترتيب هذا النمو تحت آلاف بل ملايين من عوامل وخواص وتأثيرات

مرتبة بعضها إثر بعض بحكمة فائقة وبشكل بديع وجمال رائع، إنه تعالى يوضح لنا ذلك بقوله جل من قائل: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (٢٤) ﴿أَنَا صَبَّأُ الْمَلَكُ صَبًّا﴾ (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿فَأَبَلْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ (٢٦) وَعَبَاً وَقَضًا (٢٧) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾ (٢٨) ﴿وَفِكْهَةً وَأَبًا﴾ (٢٩) ﴿مَنْعًا لَكُمْ وَلَآتِيكُمْ﴾ (٣٠) [عبس: الآيات ٢٤/٣٢].

إنه تعالى يقول في سورة أخرى: ﴿فَإِن تَذَهَبُونَ﴾ (٣١) [التكوير: الآية ٢٦]. إلى أين يذهب هذا الإنسان وهو تحت هيمنة تعالى وبين يدي جبروته سبحانه:

فمن الغفلة أن لا يطيع الإنسان ربه ولا يؤمن برسالة رسله ﷺ، حسب التسلسل، وأن يبقى جاحداً لرسالة خاتمهم نبي الرحمة محمد ﷺ وإمامة الأوصياء من بعده ﷺ. حقاً إن الآية المتقدمة ﴿فَإِن تَذَهَبُونَ﴾ (٣١) ﴿لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (٣٢) [ق: الآية ٣٧].

فالإي آين يفر وإلى آين يتوجه هذا المخلوق الضعيف بين يدي ربه، المغرور بما من عليه خالقه من علوم ومعارف، فلا ملجأ إلا إليه. على حد قوله تعالى: ﴿فَقَرَأْ إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُ مِمَّنْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (٥٠) [الذاريات: الآية ٥٠]، فطوبى لمن أقلع عن طيشه وغروره وفكر في عقباه ومصيره، فشمر عن ساعد الجد لإصلاح نفسه والمثول بين يدي ربه واستعد ليوم ﴿يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ (٦١) [الانفطار: الآية ١٩]. ﴿يَوْمَ عَظِيمٍ﴾ (٥) ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٦) [المطففين: الأيتان ٥/٦].

إن الله تعالى قد حث على تعلم علم الفلك بقوله جل من قائل: ﴿فَلَا أُقْسِرُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ (٧٥) ﴿وَأَنْتُمْ لَقَسْتُمْ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمًا﴾ [الواقعة: الأيتان ٧٥/٧٦]. فما أعظمها من آية. إنه تعالى يعظم مواقع النجوم والأبعاد المقدرة بينها بحكمته، فإنها من الدقة بمكان، بحيث لو تغير بعضها عن مواضعها شيئاً يسيراً بالنسبة إلى الفضاء اللا نهائي،

(١) قضباً: كل شجرة طالت واسترسلت أغصانها.

(٢) حدائق غلباً: بساتين ذات أشجار غليظة.

(٣) أباً: تبناً، أو العشب رطبه وبابسه، مرعى.

لاختل نظام السماء لما هنالك من تجاذب من جميع الجهات حسب الدستور الآتي :

$$ق = ي \times \frac{ك ك}{م}$$

أي تتجاذب الكتلتان في الفضاء بنسبة حاصل ضرب الكتلتين : (ك، ك) مقسوماً على مربع المسافة بينهما (م) بعد ضرب الناتج في نسبة ثابتة معلومة = $\frac{1}{10,000,000,000}$ من ثقل الغرام^(١).

اكتشف (ليفريريه Leverier) استناداً إلى القانون المذكور وقوانين الحركة الكوكب المسمى بـ(نبتون Neptune) وعين موضعه قبل أن يراه، فحرر الراصدون تلسكوباتهم إلى هذا الموضع المزعوم، فأروه رأي العين بعد أن كان (ليفريريه) رآه رأي الفكر ورأي العلم والحساب، ثم رأى الفلكيون أيضاً أن هناك أيضاً اختلافاً يسيراً في مدار الكوكب (أورانوس). زعموا من أجله أن كوكباً أبعد من (نبتون) ما زال مختبئاً في السماء فاكتشفوه وأسموه (بلوتو) سنة ١٦٣٠ ميلادية. وهكذا يتنبأ العلم والدساتير عن أشياء لا ترى بالعين، فتكشف لتبرهن مرة أخرى على ما أودع الله من نظام رياضي متقن في سير الكواكب والأنجم : مداراتها وحركاتها.

حقاً إن في مثل جزيرة العرب التي لا تربط حواضرها بعضها ببعض إلا أراضٍ واسعة جرداء غير ذات زرع، ما كان ليتمكن أن ينمو العلم وأن تكون فيها حياة علمية. فللإسلام فضل كبير في إيجاد وسائل الحضارة في البلاد العربية، ومن ثم وجود علماء في شتى العلوم والفنون ومكتشفات جمة كانت أساساً للمكتشفات الحديثة. لم يكن للعرب في الجاهلية أي أثر للعلوم ولم يكن هناك أي مظهر من مظاهر الحياة العقلية. ومنذ بزوغ فجر الإسلام لم يكن في قريش إلا (١٧) رجلاً يكتبون ويقرأون. ولذلك كان يلقب من يجيد الكتابة والرمي بـ (الكامل^١).

(١) $ي = ٦,٦٧ \times ١٠^{-٨}$ من ثقل الغرام = $\frac{1}{10,000,000,000}$ من الداين.

فالقرآن هو أول كتاب دعا الأعراب إلى التفكير في أحوال السماوات والأرض والجماد والحيوان والنبات بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿١٠﴾﴾ [الغاشية: الآيات ١٧/٢٠].

إن العلم الحديث كان يجهل حقيقة قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢٨﴾﴾ [يس: الآية ٢٨] إلى قبل ٥٠ سنة تقريباً. حتى تقدم الميكانيك الرياضي وأست مراصد كبيرة واخترعت مراقب جسيمة، فعلم أن ما كان يعتقد الفلكيون من ثبوت الشمس في محلها خطأ فاحش وأن للقرآن القول الفصل في شرح حقائق السماء والميكانيك السماوي كعصارة للعلوم. كما ثبت أخيراً أن لكل كوكب أو نجمة فلكاً خاصاً لا يتعداه، وأن الجاذبية التي أودعها الله بين الكرات لا تدع مجالاً ليزلّ بعضها عن مكانها وما رسم لها من أفلاك ومدارات وحركات قيد شعرة. ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يس: الآية ٤٠].

دعا رسول الله ﷺ، المسلمين إلى تعلم الكتابة والقراءة وأمرهم بكتابة القرآن وتعلمه ونشره. حتى أنه جعل، في غزوة بدر، فداء بعض الأسرى: أن يعلموا صبيان المدينة القراءة والكتابة، على أن يعلم كل واحد من الأسرى عشرة من المسلمين.

كما أنه أمر رسول الله ﷺ بعض المسلمين بتعلم لغات أخرى. فقد أمر زيد بن ثابت أن يتعلم السريانية. وهكذا أمر بعضهم بتعلم لغات أجنبية، وذلك لبث الدعوة في الأقطار النائية وإرسال كتب إلى بعض الملوك.

وبما حبذا لو أُنست جامعة دينية كبرى، تدرس فيها شتى العلوم الدينية مع شيء من العلوم الحديثة، لا سيما الرياضيات والطبيعيات والفلسفة الحديثة على ضوء الفلسفة الإسلامية الحقّة وردّ نواحي الضعف فيها (وما أكثرها!) بالحجج الدامغة المنطقية على ضوء العلم الحديث. وتدرس فيها لغات شتى. يتعلم كل عشرين طالباً مثلاً حسب رغباتهم لغة أجنبية خاصة بصورة متقنة، حتى يتمكنوا من الكتابة والخطابة فيها. ثم يوفدون ويوزعون على بعض مدن العالم لبث الدعوة الإسلامية الحقّة وذلك

بعد أخذهم شهادة عالية، شهادة التخرج من هذه الجامعة الدينية الكبرى. فينبروا الأرض بجهودهم المشكورة عند الله تعالى كما فعل آباؤهم من قبل.

وقد حث الرسول ﷺ على التعلم والتزود من العلوم الموجودة في كل وقت حتى قال: «اطلبوا العلم ولو في الصين». فهو أول من دعا، بقوله هذا، إلى الهجرة إلى البلاد النائية طلباً للعلم وأول من أسس مشروع البعثات. ولكن هذا النوع من البعثة لا يشبه ما نحن فيه من البعثات في الحال الحاضرة بحال. لأن المسلم عندما كان يهاجر من بلده إلى الخارج لتحصيل بعض العلوم، إنما كان يهاجر وهو مملوء إيماناً بالله وتقوى وورعاً وخوفاً من الله تعالى. لا يدفعه ولا يزيغه عن طريقته الحاد الملحدين وتشكيك الضالين ودسائس المستعمرين باسم الثقافة والتقدم! بل كان مجهزاً بمقيدة راسخة عن براهين قطعية وتعاليم إسلامية رائعة. حافظاً للقرآن، عاملاً به، مؤتمراً بما أمر الله من صلاة وصوم وزكاة وواجبات أخرى. متناهيماً عما نهى الله عنه من رقص وسكر وفجور!

ولكن شبابنا اليوم بعيد عن روح الإسلام وحقيقته وتعاليمه، فالبعض منهم يمقت الإسلام ويظنه ضرباً من الرجعية والخرافة نتيجة سموم بثها المستعمرون وأعداء الإسلام. وقد يصلي بعض هؤلاء الشبان خوفاً من أوليائهم أو إرضاءً لآبائهم وأمهاتهم إن كانوا مصلين يحثون أولادهم على أداء الصلاة. إنهم يصلون ما داموا مراقبين، ولكنهم يتركونها عند رفع هذه المراقبة. يفرح الأب عندما يرى أن ولده يطيعه فيصلي، لأنه يعلم علم اليقين إن مآل ولده النار إن ترك صلاته. وقد فاته أن السموم المبتوثة هاهنا وهاهنا قد أثرت فيه. وعلى رأسها ما يقوم به ولده من أعمال غير مشروعة. فصار لا يأنس بمناجاة ربه والمثول بين يديه خاشعاً تائباً من ذنوبه.

وقد حث رسول الله ﷺ المسلمين على الحضور في مجالس علماء الدين بصورة خاصة ليتعلموا معالم دينهم ويتأدبوا بأدابهم. وكانت المساجد محلاً للعبادة والدراسة معاً حتى القرن الرابع الهجري. فأسست دور خاصة بالتدريس في فاس. يقول (دلفان): إن جامعة (القروين) هي أول جامعة في الدنيا، وقد تخرج في هذه الجامعة

عشرات من الطلاب الأجانب من غير المسلمين ومنهم الراهب (جريت) الذي أدخل الأعداد العربية إلى أوروبا . وقد ترجم كل ما دونه المسلمون من علوم .

وقد تعلّم (سبتي بن إبراهيم) اليهودي الذي قد أسر من قبل المسلمين في النصف الأول من القرن العاشر اللغة العربية في بغداد وبقي فيها يدرس الطب، ثم عاد إلى أوروبا وقاد هناك حركة علمية مرموقة .

وهكذا (قسطنطين) الذي كان يعيش في (قرطاجة) أتقن اللغة العربية وذهب إلى إيطاليا حيث ترجم كثيراً من كتب المسلمين في علوم شتى .

وإن المسلمين هم الذين أنشأوا أول كليةً طبيّة في (ساليدين) في إيطاليا ، وأسّسوا أول مرصد فلكي في (أشيلية) . وهكذا كان للمسلمين اليد الطولى في الهندسة المعمارية والنحت والزخرفة . وإن (كنيسة نوتردام دوپاري) إنما بنيت من قبل مهندسين مسلمين .

وكذلك المسلمون هم الذين اخترعوا طريقة الكتابة بالحروف البارزة لتعليم العميان القراءة .

لذلك يقول : (أرنست رنان) : «إن الآثار والأسفار المحتوية على شتى العلوم والفنون التي أضفها علماء الإسلام على الكون ونقلتها الحملات الصليبية إلى جميع بلاد الغرب وما سبق ذلك من احتكاك بين المغرب وأوروبا عن طريق الأندلس ، أدى كل ذلك إلى إفعام المكتبات الأوروبية الخاوية الفقيرة بكنوز لا تفتنى من العلم الذي أنتجته قرائح العرب . وكان من نتائجه انتشار الثقافة والترعرع العلمي في البيئة الأوروبية بأسرها ، كما رفع مستوى شعوبها إلى أفق التمدن الذي نشاهده عليها اليوم» .

ويقول (هـ. ج. ويلز) : «قد سبق العالم الإسلامي الغرب بقرن أو ما يقاربه . فقد أسّست في البصرة والكوفة وبغداد والقاهرة وقرطبة سلسلة من الجامعات العظيمة ، فأضاء نور هاته الجامعات خارج العالم الإسلامي إلى مسافات بعيدة واجتذب إليها الطلاب من الشرق والغرب» .

ويقول (نهر) رئيس وزراء الهند الراحل وهو هندوسي العقيدة : «كان محمد واثقاً بنفسه ورسالته . وقد هيا بهذه الثقة وهذا الإيمان لأمته أسباب القوة والعزة والمنعة . . .

إلى أن يقول: إن قصّة انتشار العرب في آسيا وأوروبا وأفريقيا والحضارة الراقية والمدنية الزاهرة التي قدموها للعالم هي أعجوبة من أعجوبات التاريخ. لقد امتازوا بالروح العلميّة الاستطلاعيّة مما يجعلهم يدعون بجدارة آباء العلم الحديث». فهل يحق لأحد بعد قراءة هذه الفقرات أن يقول: إن الدين أساطير وتقاليد تقف في سبيل الحياة!

فالإسلام يناصر العقل والعلم ويرحب بالأفكار والنظريات العلمية الصحيحة والمكتشفات العلمية التي تخدم البشريّة في مجالات تكميل النفوس البشريّة ويحارب الجهل والخرافة وكل ما يخالف العقل. فالمسلمون بتمسكهم بدينهم أصبحوا مكتشفين ومنقذين قسماً من العالم من الجهل والخرافة بعكس أوروبا التي لم تظهر الحضارة الحاضرة فيها إلا بعد أن تغلب العلم الحديث على الكنيسة ورجال الدين فيها!

يقول المستشرق الإيطالي: (ليبريني) في كتابه: (الإسلام في أمجاده)^(١): «إنني أكاد أعتبر أقطاب الأندلس وجزيرة العرب - عندما أضاء سناء الحضارة العربيّة بفضل جهادهم والعلم المنتشر في ربوعهم - أكبر أعداء العالم. لأنهم لم يكتفوا بإفناء بعضهم بعضاً، بل تعدّوا ذلك إلى وأد ألمع حضارة أوجدها إنسان على وجه الأرض. وكانت لم تزل تترعرع في أحضان النهضة الإسلامية الخارقة. فلو أتاح لها أربابها والعاملون على إشعال قبسها الوضاء الباهر أن تمشي في سبيلها إلى التكامّل لما بقي على وجه الأرض إلا كل عربي أو مستعرب. ولما كان غير الإسلام ديناً للمجموعة البشريّة. فاكتفى الناس شر الفتن والحروب والانقسام إلى دول ونحل وملل لا يحصيها قلم أو تجمعها جامعة مهما سمت بجبروتها ومتين انسجامها».

يقول (نيتزه Nitza): «إن القسيسين عوضاً من أن يفتحوا أبواب أوروبا للمسلمين والمبشرين بالدين الإسلامي وأن يخضعوا وينحنوا لهم تعظيماً وإجلالاً شهروا سيوفهم

(١) المسلمون والعلم الحديث: للأستاذ عبدالرزاق نوفل.

في وجوههم، فأسمى الدين في عرفهم عبارة عن مجموعة خرافات فحسب».

وقد بدأت ترجمة معظم كتب المسلمين في الفلسفة والطب والفلك والرياضيات إلى اللغة اللاتينية منذ النصف الأول من القرن الثاني عشر، وفي مقدمة هؤلاء (رايموند Raymond) رئيس أساقفة (توليدو) وحاكم مدينة (كاستيل): (١١٣٠ - ١١٥٠م) الذي شكّل حياة من المترجمين تولّى رئاستها وأسمائها: (Dominican Gondeslavi).

وأما المسيحيون فقد جهلوا طوال العصور الوسطى محمداً ﷺ نبي الرحمة، وظلّوا قرونًا يعتقدون أن محمداً هو (إله) المسلمين. فكانوا يقولون بوجود وثن ذهبي يسمّى محمداً Mohom وأنه يمثل رسول الله. وإن كتاب العصور الوسطى قد نعتوا محمداً ﷺ بنعوت كاذبة عجيبة، فقالوا: «ليس محمد نبياً كاذباً وشاباً ماجناً فحسب بل رجل مخادع مخرب، قاد نفوساً ضعيفة بعيداً عن جادة الصواب، بعد أن نهاهم بكثير من المتع، معظمها متع شهوانية»^(١).

وإن معظم هذه الاتهامات ترجع إلى البيزنطيين الذين هوجموا من قبل المسلمين، فعمدوا إلى تشويه سمعة الإسلام باتهامات ما أنزل الله بها من سلطان.

ومما يثير الدهشة أن قساً إسبانيا يُدعى (Euloguis of Cordova) رغم وجوده مدة طويلة بين المسلمين وتعرفه على كثير من حقائق الإسلام، يذكر فيما كتب: «إن محمداً قد أخبر أن الملائكة ترفعه إلى السماء بعد وفاته بأيام ثلاثة ورغم ذلك فقد التهمت الكلاب جثمانه العفن»^(١).

إن هذه الاتهامات قد شوّهت سمعة الإسلام في الغرب، فأحدثت انطباعات سيئة أبعدت الغربيين عن الميل إلى الإسلام واستقصاء ما فيه إلا من ساقه حب البحث والاطلاع كـ(كارليل) و(تولستوي) و(كوستاولوبون) و(برناردشو) وغيرهم. فكتبوا شهادات حقيقية عن الإسلام وبعض حقائقه.

(١) الحضارة الإسلامية: تأليف: خدابخش، المؤرّخ الهندي، وترجمة الدكتور علي حسني الخربوطلي مدرّس التاريخ الإسلامي بجامعة عين شمس.

فالواعظ (نيكلدوس) الذي عاش في أواخر القرن الثالث عشر ومطلع القرن الرابع عشر طلب من إخوانه المسيحيين أن يتخذوا من الإسلام وصفات المسلمين مثلاً علياً لهم وكان معجباً بدراسة القرآن في مدارس بغداد وأثنى كثيراً على نظام الزكاة والوقف لأغراض الخير، وشفقة المسلمين على الطيور والحيوانات وفكرة التوحيد الناصع في الإسلام وكتابة المسلمين (بسم الله الرحمن الرحيم) في أعلى الرسائل وخلعهم الأحذية قبل دخول المساجد وكرمهم وحسن ضيافتهم.

ولا ننسى كتاب (الإسلام على حقيقته) تأليف (شارل فوستر) سنة ١٨٢٩ وما كتبه (كوسان) و(ويل) و(فون كريم) و(وليام ميور) وغيرهم مما أزاح كثيراً من الاتهامات. ولنذكر دليلاً على عدالة المسلمين هاتين الشهادتين:

نقل (توماس ارنولد) طرفاً مما روته كتب الفتح في كتابه الدعوة إلى الإسلام: (١) إنه لما بلغ الجيش الإسلامي وادي الأردن وعسكر أبو عبيدة في (فحل) كتب الأهالي المسيحيون في هذه البلاد إلى العرب يقولون: «يا معشر المسلمين، أنتم أحب إلينا من الروم وإن كانوا على ديننا، أنتم أوفى لنا وأرأف بنا، وأكف عن ظلمنا، وأحسن ولاية علينا، ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا». ومن ذلك أيضاً:

(٢) إن أهل حمص أغلقوا أبواب مدينتهم دون جيش هرقل، وأبلغوا المسلمين: أن ولايتهم وعدلهم أحب إليهم من ظلم الإغريق وتعسفهم وإن كانوا على دينهم. ولولا الكتب التي نشرت في أوروبا في القرن الحادي عشر للميلاد، وهي مليئة بالانتهامات والشتائم وافتراءات غريبة وما قام به القوالون في الطرق والشوارع، لكانت نظرة أوروبا إلى الإسلام غير ما نراه اليوم.

فواجب الشباب المسلم اليوم واجب خطير جداً. عليه أن يقوم بإزاحة ما ترسب من أكاذيب ومفتريات عن الإسلام في الغرب وعرض الإسلام كما هو ببيان واضح وبلغات مختلفة وبذل النفس والنفيس في هذا المضمار. فلا شيء يقرب العبد إلى الله كهداية عباد الله وإنقاذهم من الضلال.

ومما يبشّر بمستقبل زاهر أنه قد تأسس في (جنيف Genève) مركز إسلامي: (Islamic centre 333) لنشر حقائق الإسلام في الغرب وكذلك تأسست جمعيات إسلامية في (اليابان): تدعو الناس إلى الإسلام.

* * *

ومما هو دليل على تقدّم المسلمين في الهندسة إلى حد بعيد هو: أن أعظم جسر أقيم على نهر (التيمس) كان من صنع مهندسي العرب. وأن قباب معظم الكنائس الشهيرة في (باقاريا) كانت من صنع العرب. وأن الأسطول البحري الهولندي الذي قهر الأساطيل الإنكليزية في معركة (ليبونة) عام ١٥١٢م كان من صنع العرب. وإن الورق العبادي الذي كانت تستخدمه البلاد الأوروبية لتأليف الكتب ونسخ^(١) المناشير الرسمية كان من صنع العرب. وإن علم الجبر والفلك والجغرافية والمثلثات والتشريح والكيمياء كانت من وضع المسلمين. وإن أول خريطة وضعت للكرة الأرضية كانت من صنع الإدريسي العربي الأندلسي، كل ذلك: استجابة لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۖ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَواسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۖ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۚ﴾^(٢) [ق: الأيات ٨/٦]. واستجابة لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: الآية ١٠١]. واستجابة لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: الآية ١٩١].

ويقول العلامة (دوسن): «إن المدنية الأوروبية بل المدنية الغربية كلها مدنية للمسلمين. ومن المدهش أن يصبحوا - وكانوا أول أمرهم على الفطرة - عنصراً فاتحاً، ويعتبروا سادة لنصف العالم في مائة عام. ومن أشدّ العجب حماستهم العظيمة وسرعتهم البالغة في تحصيل العلوم وتكوين الثقافة اللازمة لعظمتهم. حتى وصلوا إلى مستوى عالٍ في مائة سنة. بينما نرى الجermanيين، لما فتحوا الإمبراطورية الرومانية.

(١) استنساخ.

(٢) منيب: أي راجع إلى ربه.

قضوا ألف عام قبل أن يقضوا على التوحُّش وينهضوا لإحياء العلوم.

وفي مكتبات أوروبا اليوم آلاف الكتب التي ألفها المسلمون في شتى العلوم. مما يدل على أن الإسلام دين يرافق العلم ويحث على العلم ولا تنافي بينه وبين العلم أبداً. فالمسلمون قد نبغوا في شتى العلوم. فهم الذين قد أبدعوا في علم الكيمياء والطب وأوجدوا القوانين والدساتير التي هي أساس العلم الحديث. وبشوا المراصد واكتشفوا قواعد علم الفلك ونظموا الخرائط الجغرافية. وكان الأدب والشعر يلعب دوراً هاماً في التعبير عن المكتشفات. فهم كانوا يعبرون أحياناً عن دستور رياضي أو قاعدة نحوية أو قانون هندسي إلى غير ذلك بالنظم، عدا النثر. وقد قرأت قبل أكثر من ثلاثين سنة قطعة شعرية، هي دستور لحل المعادلات الجبرية من الدرجة الثانية في كتاب ألفه أستاذ الفيزياء الرياضيّة بجامعة استانبول: صالح زكي في أربعة مجلّدات أسماه: (الآثار الباقية).

والمسلمون هم الذين أوجدوا (علم الجبر). ولا يزال يعبر عن هذا العلم في الغرب بنفس ما اصطلح عليه المسلمون: (Algèbre Algebra). كما أن أسماء كثير من النجوم في علم الفلك لا تزال باقية في كتب الإفرنج على ما اصطلح عليه المسلمون. والمسلمون هم أول من عرفوا أصول الرسم على سطح الكرة الأرضيّة وقالوا بدوران الأرض على محورها وضبطوا حركة أوج الشمس وتداخل أفلاكها في أفلاك أخرى. وهم أول من عملوا الأسطرلابات وبنوا مراصد كثيرة. ولهم اكتشافات هائلة في المساحات والحجوم وتقسيم الزاوية. وهم واضعو الهندسة التحليليّة. وقد أدخلوا تحسينات جمة على حساب المثلثات الكرويّة وأضافوا عليها وألفوا في البصريات وحسبوا زاوية الخسوف. وكانوا قد تعرفوا إلى استعمال التخدير في العمليات الجراحية. حين أن الكنيسة كانت تحرم إذ ذاك ممارسة الطب انتظاراً منها لإتمام الشفاء على يد المناسك الدينيّة التي يقوم بها القساوسة تاركين ما خلق الله من أنواع العقاقير والأدوية لدفع ما يصيب الإنسان من أمراض. وقد صنعوا الورق وأبدعوا في صناعة المنسوجات وصنعوا السكر من القصب ونبغوا في طرق الري والزراعة العلميّة.

يحدثنا العلامة : (هولميارد) أستاذ الكيمياء بكلية (ايتون) والذي يُعتبر أعظم الأساتذة في الكيمياء في أوائل القرن التاسع عشر فيقول :
 إن سبب نبوغه في الكيمياء هو تعلُّمه اللغة العربيَّة وتضلُّعه منها ودراسته ما اخترعه المسلمون في علم الكيمياء .

* * *

وهذا : (جابر بن حيان) أُملى عليه الإمام الصادق (جعفر بن محمد عليه السلام) ،
 خمسمائة رسالة في ألف ورقة عن الخواص الكيماويَّة والطبيعيَّة وكان الكيماويُّون من قبله كخالد المتوفى سنة ٨٥ هـ يروون عن الإمام علي عليه السلام موازين الصناعة .

إنَّ جابر بن حيان يُعد من أساطين علم الكيمياء وحجة فيه بلا نزاع ؛ وقد نبغ في علوم أخرى أيضاً كالطب والفلسفة وقد ألف (٢٠٠) كتاب ، (٨٠) منها في علم الكيمياء . وقد جاء بنظريَّات هائلة في علم الكيمياء تحققت صحتها من قبل علماء الغرب عندما بدأوا في توسيع علم الكيمياء . وقد علمه الإمام الصادق عليه السلام طريقة تحضير (مداد مضيئ) ، يستخدم في كتابة المخطوطات الثمينة ، لإمكان قراءتها في الظلام . وعلمه أيضاً طريقة صنع صنف من الورق غير قابل للاحتراق .

وهكذا (عز الدين الجلدكي) قد جاء بقوانين هائلة في علم الكيمياء : منها قانون النسب الثابتة في الاتحاد الكيمايائي ومن كتبه : (نهاية الطلب) ، (التقريب في أسرار التركيب) ، ويبلغ كل منهما نحواً من ألف صفحة .

وهكذا قاد (أبو القاسم المجريطي) أكبر حركة كيميائيَّة في الأندلس . فهل كان كل ذلك ، لأن الدين يعارض العلم ولا يوافق في شيء ؟! . تلك هي سلعة غربية ، جاءت من معارضة الكنيسة للعلم وإعدامها كثيراً من العلماء فسرت إلى الشرق وإلى شبابنا المثقَّف ، فتأثَّروا بها وتغيَّرت وجهة نظرهم إلى دينهم القويم ، دون أن يتحمَّلوا أعباء البحث والتنقيب !

* * *

وقد نبغ المسلمون في علم الطب ، حتى ترى أن (وليم أوسلر) يقول في كتابه :

(تطور الطب): «إن المسلمين أشعلوا سراجهم من القناديل اليونانية. وبلغت مهنة الطب عندهم أثناء القرن الثامن إلى الحادي عشر للميلاد من المكانة والأهمية ما لا تكاد تجد له مثيلاً في التاريخ».

ولا بأس بذكر ما جاء في التاريخ العام للأفيس ورامبو:

«إن انكلترا، كانت في القرن السابع الميلادي إلى ما بعد العاشر فقيرة في أرضها، منقطعة الصلات بغيرها، تعترض الأمراض والأوبئة المتكررة المواشي والسائمة. وكانت أوروبا غاصة بالغابات الكثيفة. وتنبعث من المستنقعات الكثيرة في المدن روائح قتالة، لم يعرف أهلها النظافة». ويقول (دراير): «وكان من أثر ذلك أن عمت الجهالة أوروبا وساورتها الأوهام. فأنحصر التداوي في زيارة الأماكن المقدسة^(١) ومات الطب وحييت أحابيل الدجالين. وكلما دهم البلاد وباء فزع رجال

(١) إن لشفاعَةَ أنبياء الله ﷺ والأئمة ﷺ والصلحاء من عباد الله ﷻ وفي التوسُّل بهم إلى الله تعالى أثراً بالغاً في دفع المكروه وقضاء الحوائج. مع العلم أنهم ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨]. «إنهم أبواب الله والوسيلة إليه بإذنه تعالى.. إنهم: ﴿عِبَادٌ شُكِرُوا﴾ ﴿لَا يَسْقُفُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَسْمُكُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦/٢٧].

وقد كتبت الجرائد معجزة للإمام علي بن موسى الرضا ﷺ قبل سنين: وذلك أن امرأة أصيبت بداء السرطان، وقد أثبت ذلك معهد الأشعة السينية (X. R.) ويشس الأطباء من شفاها وقالوا أنها تموت قريباً لا محالة، فندرت لله وتوسَّلت إلى الله تعالى بالإمام الرضا ﷺ. فرأت ذات ليلة في ما يرى النائم: يقال لها: قد شفيت وما بك من داء. قامت من فراشها فرحة مستبشرة، وعرضت نفسها على الأشعة والأطباء، فلم يروا أثراً للسرطان، فتعجبوا من ذلك وقالوا: «إن ما حدث ليس بحادث طبيعي وليس للطب العادي أن يفسر ذلك».

ليس المراد من الاستشفاء أو التوسُّل إلى الله تعالى بالأنبياء والأوصياء ﷺ، أن تترك ما خلق الله من أدوية للأمراض تفضلاً منه وما علم البشر من عمليات جراحية. فقد جعل الله تعالى لكل شيء سبباً. والشفاعة أو التوسُّل عند تعسر الأمور وغلق الأبواب العادية سبب من الأسباب، إن أذن الله بذلك. والحديث القائل: داووا مرضاكم بالدعاء والصدقات، ليس معناه أن تترك الطرق العادية التي هيأها الله لنا وألهمها ثلة من عباده، ولكن ندعو ونتصدَّق مع المعالجة من طرقها والالتزام بالنظافة والتعقيم إلى حد بعيد، كي لا يحدث خطأ في المعالجة ولا يحدث اشتباه في تشخيص المرض ومقدار الدواء وتسمُّم حين إجراء عملية جراحية واشتباه غير منتظر إلى ما -

الدين إلى الصلاة وأغفلوا أمر النظافة، وكانت الأوبئة تفتك بهم فتكاً ذريعاً.
المسلمون هم أول من مارسوا العمليات الجراحية. مع العلم، أن أوروبا كانت ترى، في القرن الثاني عشر الميلادي، أنه لا يجوز للإنسان أن يغير ما خلق الله وأن يتصدى إلى عملية جراحية حين أن المسلمين قاموا في ذلك الحين بتأليفات جمّة في علم الجراحة وشرحوا الآلات التي كانوا يستعملونها في كتبهم وهي تزيد على مائتي آلة عدا تأسيسهم مستشفيات، بعضها للرجال وبعضها للنساء، مقسّمين المستشفى إلى أقسام متعدّدة حسب نوع المرض، وأقاموا معازل لعزل المرضى المصابين بأمراض معدية.
والمسلمون هم أول من أسّسوا المستشفى السيار. فكان يتقل هذا المستشفى من بلد إلى بلد، مجهّزاً بالأدوات والأدوية والأطعمة والأشربة وملابس وصيدلية كاملة مع أطباء، لا سيّما حين حدوث وباء أو مرض معدٍ. والمسلمون هم أول من اكتشفوا وسائل التخدير واستعملوها في العمليات الجراحية.

* * *

وإن أجمل بناء من أبنية جامعة (برنستون) الأمريكية يحمل اسم طبيب مسلم هو: محمد بن زكريا الرازي. وإنه أوّل من أسّس الطب التجريبي، وذلك بإجراء تجاربه الطبية العلاجية على الحيوان قبل تجربتها على الإنسان. وقد وضع (٢٢٩) كتاباً في الطب ترجمت إلى معظم اللغات العالمية، وتقرّر تدريسها في كليات الطب، كما أنه اشتغل في الكيمياء وألّف فيها كتباً عدّة.
كان الرازي رجلاً متديّناً، يعالج الفقراء مجاناً ويشترى لهم الدواء من ماله. ولذا مات فقيراً رغم شهرته الواسعة.

نعم، إن رجال العلم في الإسلام ما كانوا لينفكوا عن دينهم، بل كان تعلّقهم بدينهم تعلّقاً شديداً. يتعبّدون في أوقات معينة ويستعينون بالله في حلّ مشاكلهم

= هنالك، فالدعاء والتصدّق والتوسّل والمعالجة والتعقيم والنظافة كلّها أسباب هيّأها الله تعالى لقضاء الحوائج والشفاء تفضلاً منه ورحمة.. إنه تعالى يقول: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٦﴾﴾ [البقرة: ١٥/١٦].

العلمية، بصلاة يصلونها، أو دعاء أو صدقات.

وهكذا ابن سينا^(١)، كان كلما أشكلت عليه مسألة، توجه إلى القبلة، صلى ركعتين ودعا الله تعالى، متضرعاً، فيلهمه الله تعالى ما يزيل مشكلته. كان قلبه متعلقاً بالمسجد، وقد يعتكف فيه إذا أعيته مشكلة أو عسرت عليه مسألة.

وابن سينا هو أول من قال: إن الاضطرابات النفسية تسبب اضطرابات معدية، وقد تسبب قرحة المعدة. وهو الذي اكتشف الدورة الدموية في الإنسان قبل (وليم هارفي) بـ (٦٠٠) سنة. وقال في معالجة السرطان ما توصل إليه العلم الحديث. وكتابه: القانون، هو من أكبر الموسوعات الطبية. وكان يدرس في مختلف كليات الطب. وكان أهم مرجع طبي لكل من أراد التخصص في علم الطب.

وضع ابن سينا نظريات في تكوين الصخور والجبال، اتخذت أساساً لعلم طبقات الأرض (Géologie) في الوقت الحاضر.

ويقال عنه، إنه قال عند دنو أجله: «إن الذي كان يمدني بقوة. قد أمسك عني». فاغتسل غسل التوبة وأنفق ما كان لديه واعتق مواليه وعبيده وصار يختم القرآن في كل ثلاثة أيام، حتى وافته منيته.

إن المسلمين اشتغلوا في العلوم الطبيعية وتمكنوا من حساب الوزن النوعي للعناصر. ووجدوا أن الوزن النوعي للرصاص ١١,٣٣ ويقرر العلم الحديث أنه ١١,٣٥ فالاختلاف يسير جداً.

كما أنهم اخترعوا بندول الساعة والآلات الدقيقة. واستعملوا (البوصلة)، ووضعوا قوانين الصوت والضوء، ونظريات في كلا الموضوعين لا زالت تدرس حتى الآن. ويقال أن الغربيين اندهشوا عندما شاهدوا (ساعة) أهديت إلى (شارلمان) ملك فرنسا. وقالوا: إن فيها جنياً يحركها.

(١) هو: أبو علي، حسين بن عبدالله بن سينا المعروف بالرئيس.

وقد ألف ابن الهيثم (٤٧) كتاباً في الرياضيات والطبيعات و(٥٨) كتاباً في الهندسة وكتباً أخرى في مواضيع شتى وهي مما مهد الطريق للمكتشفات الحديثة.

وإن كمال الدين الفارسي الذي عاش في أواخر القرن السادس الهجري يعتبر حجة في علم الضوء بلا منازع.

وقد وضع أبو الريحان البيروني في كتابه: (الآثار الباقية) والذي يبحث عن (الإيدروستاتيكا) مثل صعود مياه الفوارات والعيون إلى الأعلى وعن تجمع مياه الآبار بالرشح الجانبي إلى غير ذلك. ولا مجال لذكر ما وضع من كتب في مباحث علم الفيزياء. وقد نبغ المسلمون في الزراعة وعلم النبات وأعمال الري وتربية الدواجن، ووضعوا فيها كتباً مفيدة. ومن أساطين هذا العلم: عبداللطيف البغدادي، وضياء الدين البيطار، ورشيد الدين الصوري.

والمسلمون عند دخولهم إلى بلد جديد كانوا يهتمون بأمرين في وقت واحد: (١) تنظيم الحداثق، (٢) بناء المساجد.

ولا مرأ أن: محمد بن موسى الخوارزمي، يُعد واضع علم الجبر وقد ترجم كتابه في الجبر إلى لغات عدة.

والمهم أن العلماء المسلمين ما كانوا لينفكوا عن ذكر الله تعالى في عملهم العلمي وتجاربهم العلمية. سواء حين التدريس أو الكتابة أو العمل في المختبر. لذلك يقول الخوارزمي في أول صفحة من كتابه: «يقول الخوارزمي بعد حمد الله: هادينا وحامينا». ويقول في مقام آخر: «وبالله توفّقي في هذه وغيره، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم».

وأما خواجه نصير الدين الطوسي. فهو معروف في أوساط الغرب. إنه نابغة من نوابغ الرياضيات. يعتبر الطوسي كما قال بعض العلماء متفوقاً في الهندسة لا على معاصريه فحسب، بل وعلى علماء الهندسة في العصر الحاضر.

وأما (ثابت بن قرة) فقد أخذ يستعمل الهندسة في حل المعادلات من الدرجة الثالثة. وقد أخذ العالم الإيطالي (جيرو لاموركاردان) في القرن السادس عشر عن (ثابت) طريقته هذه في حل المعادلات من الدرجة الثالثة.

و(ثابت بن قرة) هو أول من وضع حساب التكامل والتفاضل وأوجد حجم الجسم المتولد من دوران القطع المكافئ حول محوره.

ولعمر الخيام حلول قيمة في الهندسة ترجمت إلى لغات أجنبية.

والمسلمون هم واضعو علم الفلك بأسلوب علمي صحيح مستعملين في ذلك الهندسة والجبر وحساب المثلثات. وقد أسسوا مراصد عدّة وكان في (مراغة) مرصد كبير، اشتهر بآلاته الدقيقة وأجهزته المتعدّدة.

وأما التاريخ والجغرافيا، فقد نبغ المسلمون ودوّنوا فيهما كتباً مفصّلة وموسوعات مشهورة وهم واضعوا علم الاجتماع.

يقول المؤرّخ (گوتيه) عن الشريف الإدريسي: «إن الشريف الإدريسي الجغرافي كان أستاذ الجغرافيا وهو الذي علم أوروبا هذا العلم وبقي معلماً لها ثلاثة قرون. ولم يكن لأوروبا مصوّر للعالم إلا ما رسمه الإدريسي».

ولو أردنا أن نستقصي علماء الجغرافيا والتاريخ من المسلمين وما ألفوا من مؤلفات وما قاموا به من اكتشافات لاحتجنا إلى وضع كتب متعدّدة في هذا المقام وأبو عبدالله القزويني اشتهر بأنّه من علماء العلوم الطبيعية ومع ذلك فهو يعد من أساطين علمي التاريخ والجغرافيا وله مؤلّفات في الفلك والعلوم الرياضيّة مما يجعله في القمة. كان أبو عبدالله القزويني رجلاً متديّناً، وهو القائل: «ليس المراد من النظر تقليب الحديقة، فإن الحيوان يشارك الإنسان في ذلك. ومن لم ير من السماء إلا زرقتها ومن الأرض إلا غبرتها فهو مشارك الحيوان. وأدنى حالاً وأشد غفلة، بل المراد من النظر التفكير في المعقولات والنظر في المحسوسات والبحث عن حكمتها وتصاريحها لتظهر حقائقها».

وكم من رجال العلم قاموا برحلات موفقة واستكشافات ناجحة وضخّوا بحياتهم بغية العثور على ما في الأرض من بقاء مجهولة.

ومما يدل أن للمسلمين كفاءة مرموقة في الاختراع والاكتشاف حتى في العصر الحاضر نبوغ بعض علماء المسلمين في بعض المواضيع الحديثة. ومنهم المرحوم الدكتور علي مصطفى مشرفة المصري. فقد وضع رسالة علمية أثبت فيها خطأ وقع فيه (أينشتين) وصحح فيها خطأه. ولذلك، قد اختاره (أينشتين) ليساعده في أبحاثه. وهو الوحيد الذي زامل هذا العالم في أبحاث المادة والذرة^(١).

كان الدكتور علي مصطفى مشرفة على جانب عظيم من التقوى وحب الله تعالى وتقديسه. وهو القائل: «إن المجد لا يبنى على القوة، حتى، ولا على العلم، إنما يبنى على شيء آخر، وهو ذلك القبس المقدس الذي نشعر جميعاً بأنه يميز الإنسان على سائر الحيوان، تلك القوة الروحية التي تحرك فينا حب الحق وحب الخير وحب الجمال. وعلى قدر استجابة البشر لذلك الداعي تأتي عظمتهم ورفعة شأنهم. وعندى إن ما وصل إليه الإنسان من العلم وما ترتب على ذلك من قدرة واختراع إنما جاء على قدر طلبه للحقيقة وشغفه بالحق كما إن حب الحق وحب الخير إنما يتفرعان من حب الجمال. فالحق والخير جميلان. ولذلك من أحب الجمال أحبهما جميعاً. ووددت لو استطعت أن أصور للقارئ فيض ذلك الجمال الذي يدركه طالب الحقيقة العلمية: ذلك التناسق البديع بين أجزاء الكون!».

وهو القائل: «اليوم، وقد امتزج العالم بحياة الأمم والأفراد صار لزاماً على رجال العلم أن يتعدوا عن الفلسفة المادية في جميع صورها وأشكالها. كما صار لزاماً على الشعوب أن يتقبلوا رسالة العلم وأن يستعينوا بها على محاربة الشر، وقد بينت أن الأرض لا تزال رحبة تنسع للناس جميعاً وأن القوى الموجودة على سطحها قوى عظيمة، فإذا استعان بها الناس على قضاء حوائجهم وسخروها لخيرهم ورفاهيتهم مستعينين بالعلم والروح العلمية، كان لنا أن ننتظر للبشر مستقبلاً يكفل طمأنينتهم وسعادتهم وسموهم».

اسمعوا ماذا يقول (أينشتاين) نابغة القرن العشرين في الفيزياء وعلم الذرة عن

(١) المسلمون والعلم الحديث: الأستاذ عبدالرازق نوفل.

التوجه الديني وأثره في الاكتشافات . إنه يقول : «إن بصيرتنا الدينية هي المنبع وهي الموجهة لبصيرتنا العلمية» . لذلك كان كلما حاضر محاضرة في النظرية النسبية يطلب إلى المسؤولين أن يكون الناس أحراراً في القيام بطقوسهم الدينية وتطبيقها .

يكفي في تأييد الإسلام النواحي العلمية أن قد ورد في القرآن الكريم لفظ العلم في أكثر من (٥٥٠) موضعاً مما يدل على الحفاوة البالغة في الدين الإسلامي بمفهوم العلم ومشتقات لفظ العلم . ولكن القرآن لا يدع مفهوم العلم مفهوماً مجرداً من التعليل والتوصل إلى النتيجة العقلية الحتمية التي يجب أن تؤخذ من العلم بأسرار هذا الكون : ألا وهو الوصول إلى (واضع العلم) وخالقه ومبدعه وهو الله جلّت قدرته . أي يريد القرآن أن لا ينظر الفرد نظرة مادية إلى ما أودع الله من دقيق الصنع والقوانين في هذا الكون دون إرجاع هذا الصنع إلى صانع حكيم قدير .

إن أول آية نزلت من القرآن الكريم هي : ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝﴾ [العلق : الآيات ١/٥] . فالله تعالى هو الذي علم الإنسان بما أعطاه من مواهب وقابليات أن يكتب بالقلم وأن يتعرف إلى أشياء كثيرة من قوانين أودعها الله في هذا الكون الواسع الأرجاء . لذلك يقول (رينورت) : «يجب أن نعترف أن العلوم الطبيعية والفلك والفلسفة والرياضيات التي أنعشت أوروبا في القرن العاشر مقتبسة من القرآن» .

ومما يؤيد اهتمام الإسلام بالعلم إلى حد بعيد ، حلّ الإمام علي سلام الله عليه كثيراً من المسائل الرياضية والفيزيائية ، ذكرنا البعض منها في نهاية الجزء الثاني من هذا الكتاب ، ووضع أسس علم النحو . وقوله لكميل عليه السلام : «يا كميل ، لو شئت أن أصير من هذا الماء نوراً لفعلت» . يقول الإمام علي عليه السلام هذا القول في وقت لم تعرف الكهرباء وكيفية استخدام الشلالات في تحريك (الدينامو) وإيجاد التيار الكهربائي ومن ثم تأسيس المصابيح الكهربائية . ولم تعلم القوى النووية وتحطيم الذرة وتحرُّر

طاقات هائلة: حسب دستور أوجده (أينشتاين): $ط = ك \times س^2$ أي أن الطاقة المنحررة من تحطيم ذرة ما تساوي مربع سرعة الضوء مضروباً في الكتلة.

لذلك يخاطب رسول الله علياً عليه السلام قائلاً: «ليهتك العلم يا أبا الحسن، لقد شربت العلم شرباً ونهلته نهلاً».

وقول علي عليه السلام: «لو شئت أوقرت سبعين بعيراً في سورة الفاتحة»^(١). دليل على أن الإسلام يرافق العلم ويعظمه.

وقد كان للمسلمين الفضل الأكبر في إيجاد الطريق التجريبي في الاكتشاف العلمي لذلك يقول: (غوستاو لوبون) أحد فلاسفة أوروبا: «إن القاعدة عند العرب هي: جرب وشاهد ولاحظ تكن عارفاً» حين أن القاعدة كانت عند الأوروبي إلى ما بعد القرن العاشر المسيحي. إقرأ في الكتب وكرّر ما يقوله الأساتذة تكن عالماً!.

ويقول (غوستاو لوبون) في كتابه حضارة العرب: «إن العرب لم يظلموا طويلاً معتمدين على كتب اليونان التي نقلت لهم. فقد أدركوا بعد حين أن التجربة والترصد والملاحظة خير من أفضل الكتب. ولذلك سبقوا أوروبا إلى هذه الحقيقة التي تُعزى إلى (بيكون)^(٢) أنه أول من أقام التجربة والاختبار اللذين هما ركننا المناهج العلمية الحديثة. فالمسلمون هم أسبق إلى نظام التجربة في العلوم».

لذلك يقول (غوستاو لوبون): «إن المسلمين العرب وحدهم كانوا أساتذة الأمم المسيحية عدة قرون. ونحن الغربيين لم يتح لنا الاطلاع على التراث اليوناني والروماني إلا بفضل العرب ولم يستغن التعليم في جامعاتنا عما نقل إلى لغاتنا من كتب العرب إلا في أزمان متأخرة».

والحق أن ما يعرف اليوم باسم الطريقة (البيكونية) التي قوامها كما يقول

(١) الصراط المستقيم: للنباطي، ج ١، ص ٢١٩، فصل ١٩.

(٢) باكون (Bacon): راهب فرنسيسكاني إنكليزي، من كبار علماء القرون الوسطى، ومطبق الطريقة الاختبارية (التجريبية).

(يكون): «إننا لا نستطيع أن نخضع الأشياء ما لم نخضع لها أولاً» أي لا نتمكن من الاستفادة منها ما لم نكتشف قوانينها، ترجع أصولها إلى المسلمين المكتشفين الطريقة التجريبية. فتأثر بها (بيكون) وغير (بيكون). لذلك يقول (سيديو): الفرنسي في كتابه عن تاريخ العرب: «إن ما يميز مدرسة بغداد هو الروح العلمية الحقّة التي تسيطر على أعمالها. فالمضي من المعلوم إلى المجهول، وملاحظة الظواهر ملاحظة دقيقة من أجل الصعود بعد ذلك من النتائج إلى الأسباب، ورفض كل شيء لم يؤيد بتجربة. تلك هي المبادئ التي سادت والتي أشاعها كبار معلمي تلك المدرسة».

ويقول (جيب) في كتابه عن: (الاتجاهات الحديثة في الإسلام): «إن انصراف الفكر إلى الحوادث الجزئية، هياً للعلماء العرب أن يذهبوا بالطريقة التجريبية إلى أبعد بكثير مما فعله سابقوهم من يونان ورومان، وإنهم الأصل في دخول الطريقة التجريبية إلى أوروبا». ويقول (همبولت: Humbolt) «من الواجب أن يعد العرب المؤسسين الحقيقيين للعلوم الفيزيائية».

يقول المؤرخ (جيبون): إن ولاية الأقاليم والوزراء (يعني في البلاد الإسلامية). كانوا ينافسون الخلفاء في إعلاء مقام العلم والعلماء ويسط اليد في الإنفاق على إقامة بيوت العلم ومساعدة الفقراء على طلب العلم. وكانت نتيجة ذلك: أن ذوق العلم ووجدان اللذة في تحصيله قد انتشر في نفوس الناس من (سمرقند) و(بخارا) إلى (فاس) و(قرطبة). فقد أنفق وزير واحد لأحد السلاطين - هو نظام الملك - مائتي ألف دينار على بناء مدرسة في بغداد. وجعل لها من الريع ليصرف في شؤونها ما يعادل: خمسة عشر ألف دينار في السنة. وكان عدد الذين يغذون بالمعارف فيها (٦٠٠٠) تلميذاً. فيهم ابن أعظم العظماء في المملكة وابن أفقر الناس فيها. غير أن الفقير يُنفق عليه من الريع المخصّص للمدرسة. وابن الغني يكتفى بمال أبيه. وكان المعلمون ينقدون رواتب وافرة».

وأن الفيلسوف الأمريكي (دراير) يعجب من وجود آراء علمية في كتب العرب كان الغربيون يعتقدون أنها لم تولد إلا في عصرنا الحديث.

وإن علماء أوروبا يقدّرون ما للمسلمين من خدمات جمّة في الفلسفة، لذلك يقول (رينان): «إن (ألبرت الكبير) مدين لـ(ابن سينا) في كل شيء وإن (سان توما الأكويني) مدين في فلسفته لـ(ابن رشد)^(١). وفي الوقت الذي نرى أن المسلمين يعملون في توسعة العلم الإنساني نرى بمزيد الأسف أن (الكاردينال: أكزيمينيس) يأمر بإحراق ثمانين ألف مخطوطة عربية في الأماكن العامة بغرناطة.

وها هو المستشرق النمساوي المسلم (ليوبولد فايس) يقول: - وما أصدق: - «إن أوروبا لتعرف هذه الحقيقة حق المعرفة: أن ثقافتها مدينة للإسلام بتلك النهضة على الأقل بعد قرون من الظلام الدامس، ولم يقف الإسلام يوماً ما سداً في وجه التقدم العلمي. إنه يقدر الجهود الفكرية في الإنسان إلى درجة يرفعه فيها فوق الملائكة. وما من دين ذهب أبعد من الإسلام في تأكيد غلبة العقل وبالتالي غلبة العلم على جميع مظاهر الحياة».



يظهر من كل ما ذكر بشأن علماء المسلمين ومكتشفاتهم وما كانوا عليه من تمسك بالدين وتعبد وتهجد: أن العلم لا يعارض الدين في شيء. بل، إن الدين وتعلق الفرد بربه واستمداده من علم الله الذي لا يتناهى، وطلب المعونة منه تعالى لكشف بعض أسرار الكون، يفتح على المتتبع أبواب المعرفة. ثم إن الله تعالى يهيئ له بلطفه مصادفات وإنفاقات غير منتظرة، وعجبية جداً، يظفر بسببها العالم المتتبع بحقائق جديدة وخواص مجهولة قبلاً، لم تكن بالحسبان. كل ذلك لتوجهه إلى الله تعالى ومكافأة له لإزاء تعبته وتضحيته.

وأي تنافٍ بين دستور يجده المتتبع في ربط العناصر بعضها ببعض أو ربط أجزاء العالم بعضها ببعض وبين عبادة الله في أرضه والقيام بتزكية النفس وما أمر الله به من صلاة وصوم وزكاة وحج وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وإنفاق وأعمال صالحة وما أكثرها... الخ.

(١) على أنا لا نوافق (ابن رشد) في نظرياته الفلسفية كلها. ففيها نقاط ضعف لا توافق النصوص القرآنية وفلسفة الإسلام الحقّة في شيء، لا مجال إلى ذكرها وردّها هنا.

بل هناك علاقة متينة بين ما يجده العالم من دساتير وبين واضح هذه الدساتير في هذا الكون الرحيب . ثم الخشوع والخضوع ، بصلاة وتسبيح تجاه عظمة مَنْ وضع هذه الدساتير بهذا الإتقان المحير للعقول وهو الله جلّت عظمته . إذ أن إرجاع المعلول إلى العلّة أمر فطري في البشر ما لم تتلوّث هذه الفطرة بخمور وفجور وبغي وظلم . أي ما لم تتلوّث هذه النفس التي هي أعزّ الأنفس علينا بما يبعدها عن ساحات القدس . فقد جاء في الحديث : «إذا أذنب العبد كانت نكته سوداء على قلبه . فإن هو تاب وأقلع واستغفر صفا قلبه . وإن هو لم يتب ولم يستغفر كان الذنب على الذنب والسود على السود حتى يغمر القلب»^(١) .

فما على هذا الإنسان إلا أن يقلع عن ذنبه حالاً ، كي لا تتراكم ذنوبه ، فيسودّ قلبه ، فلا يبصر الواقع والحق وتتغلّب إذ ذاك عليه المادية الحالكة ، فيتمسك - لا سمح الله - بالمادية العمياء ، وهو لا يعلم عن حقيقة المادة شيئاً ! لذلك يستحب أن يستغفر العبد ربه ، عندما يأخذ مضجعه ليلاً قائلاً ثلاث مرّات : «استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه» . كما يستحب له أن يستغفر الله بصوت خافت بعد التسيّحات الأربع في الركعة الثالثة والرابعة من صلاة الظهر والعصر والعشاء .

* * *

وهكذا الفلسفة التي يتبناها الفيلسوف وغير الفيلسوف هي رشحات نفسه ، فإن كانت نفسه طاهرة زكيّة بعيدة عن الفسوق والعصيان مؤمنة بالله والبعث كانت فلسفتها فلسفة تناسب نفسه ، فلسفة قريبة إلى الواقع وإن كانت نفسه نفساً لثيمة ، خبيثة ، مكّارة ، غدّارة ، قاسية ، متحجّرة ، ففلسفتها تكون فلسفة هدّامة ، سفاكة ، مخربة ، لا ينبض فيها شيء من محاسن الأخلاق ، شيء من العطف والحنان ، فلسفة كل إنسان مرآة نفسه .

وقد أخطأ (تلمان Tenne mann) في قوله «إن جملة عوائق وقفت تقدم المسلمين في الفلسفة ، وهذه العوائق ترجع إلى كتابهم المقدس الذي يتعارض مع نظر العقل الحر» . وذلك لأن القرآن الكريم يدعو الناس إلى التفكير الحر وينهى عن التقليد

(١) رشاد القلوب : ص ٤٦ ، باب ١١ .

الأعمى بقوله: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُتُورَاتِ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ۖ﴾ [محمّد: الآية ٢٤] . ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ . وبقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٦٤] . ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: الآية ١٩٠] . ﴿أَفَلَا يَتَعَقَّلُونَ﴾ [القصص: الآية ٦٠] ، ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [الغنكبوت: الآية ٤٣] . ويقول: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: الآية ٣٦] .

وقد ذمّ الله تبارك وتعالى أولئك الذين لا يعقلون بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَنبَغُ مَا أَقْبَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا ۖ وَكُنَّا كَمَا كَانُوا ءَابَاءُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٧٠] . ويقول: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٢٢] . ويقول: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: الآية ٢٦٩] .

الإسلام يريد منا أن لا نتقبل شيئاً دون تمحيص وتمييز وذلك بقوله: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۖ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: الآيتان ١٧/١٨] .

وقد عظم أمر العقل والتفكير إلى حد بعيد بقوله: ﴿وَرَبَّنَا كُنْزُ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ رَيْسًا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾ [آل عمران: الآية ١٩١] .

وقد جاء في حديث: «إنما يُدّاق الله العباد في الحساب يوم القيامة على قدر ما آتاهم من العقول في الدنيا»^(١) .

وإذا أردت أن تعرف من هو ذلك العاقل الذي يتبنى فلسفة حقة لا تزيغ به الأهواء، فيميل إلى هاهنا وهاهناك من مسالك ضالة مضلة . فانظر إلى ما يقوله الإمام موسى بن جعفر عليه السلام حين يعرفنا (العاقل) أنه يقول مخاطباً هشاماً أحد أصحابه: «يا هشام، إن العاقل هو الذي لا يشغل الحلال شكره ولا يغلب الحرام صبره»^(٢) . فمن

كان مصداق هذا الحديث فإنه يزيف كل فلسفة بشرية، ولا ترتاح نفسه إلا إلى فلسفة الإسلام الحق.

وإن كانت التجربة سند العلم الحاضر، فليجرب من كان يشك في صحة هذا المقال، ليرى كيف يخرج به الله تعالى من الظلمات إلى النور بمنه. ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٧].

القرآن وما فيه من فلسفة حقة لم يدع مجالاً لظهور فلاسفة في الشرق بالمعنى الذي يريده (تنمان)، إلا إذا انحرف هذا الفيلسوف عن النصوص القرآنية وجاء بنظريات هوجاء تعبر عن هوى نفسه! ذلك، لأن حقيقة الوجود وما أودع الله فيه من كمال ووظيفة الإنسان وما سخر له من عوالم شتى من جماد ونبات وحيوان وربط العوالم المختلفة بعضها ببعض كل ذلك مسطور في كتاب الله الذي ﴿لَا يَأْبِيهِ اَلْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَرْجُلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: الآية ٤٢] - بتعبير واضح. ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ اَلْكِتَابَ بَيِّنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [التحل: الآية ٨٩]. ﴿مَا قَرَأْنَا فِي اَلْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: الآية ٣٨].

إلا أن هذه الفلسفة الحقيقية التي يضمها القرآن الكريم، هذه الفلسفة الإلهية التي من الله بها على عباده من عالم الغيب أي من عالم غابت عنا حقيقته وليس لنا أن نصل إلى كنهه، لا يصل إلى تفهم عمقها وأثرها في تكامل البشر فيلسوف لم يخرج بعد عن ماديته الضيقة وهو ينظر إلى الوجود نظراً سخيلاً متأثراً ببيئته، فيلسوف ظن أن الاصطلاحات والظنون والمزاعم الباطلة، أو تلفيق وجهات نظر فلاسفة متعددين (أو متفلسفين) تولف فلسفة حديثة أو تقدم معطيات جديدة في عالم الفلسفة والعلم.

إن فلسفة هؤلاء، هذه الفلسفة التي طابعها المادية، هي وليدة نفوس متحجرة، بعيدة كل البعد عن فلسفة الإسلام الحق، وإن هذا البعد نفسه يجعل الفيلسوف الغربي ومنهم (تنمان) يزعم أن ليس في القرآن فلسفة أو أن القرآن يتعارض مع نظر العقل الحر، إنه يريد اصطلاحات وتلفيقات ليس من ورائها الوصول إلى صلب الحقيقة

والواقع وإنما هي ظنون وأهواء... ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ [النجم: الآية ٢٣].

إذا كان موضوع الفلسفة، البحث عمّا وراء الطبيعة وكان ما هو وراء المادة أو الطبيعة مجهولاً لهذا الإنسان لعدم وجود مقياس مشترك بين هذين العالمين، فمن العبث أن يزعم أو يوقن هذا الإنسان أن ما تملّيه عليه نفسه (هذه النفس التي تتحول معطياتها من وقت إلى وقت) هو الواقع الصحيح. أما الفكر البشري، فيعمل لأجل البحث عن خواص المادة والقوانين التي تتحكّم فيها وليس له أن يقيس ما وراء الطبيعة على ما هو في الطبيعة، فيعمّم ما يجده من قوانين ومعادلات في الطبيعة على ما وراء الطبيعة، وإن قول الله تعالى: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: الآية ٨٥] هو غاية ما يمكن أن يقال عن الروح مع ما نحن فيه من جهل مرير.

فما تقول الفلاسفة عن الوجود، وعن الله تعالى، وعمّا وراء الطبيعة لا يخلو عن مقترحات تنم عن مرتبة نفوس أصحابها في ساحات الكمال أو أودية التسافل وهو ليس من الواقع الحقيقي في شيء. ذلك لأن العقل الفطري ينحجب عن فعالّيته وإعطاء الحكم الصحيح عند تلوث النفس. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: الآية ٥٧]. ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الحجر: الآية ١٢]، لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين. فهناك رابطة وثيقة بين معطيات العقل عن الفلسفة الحقّة ودرجة تكامل النفس وتسافلها.

وأما فلسفة القرآن أو الحقائق التي أوحاها الله تعالى إلى نبيه ﷺ، فهي الحق الصريح الذي لا غبار عليه ولا ريب فيه، بعد إثبات نبوة محمّد خاتم النبيين بالعقل والمنطق. ذلك لأن هذه الحقائق إنما جاءت من منبع صافٍ فياض. جاءت بوحي منه تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [المك: الآية ١٤]. ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كَنْزٍ مُبِينٍ﴾ [النمل: الآية ٧٥].

وقد أضرت فلسفة اليونان وفلسفات أخرى بالإسلام ضرراً بالغاً على أنه قد نبغ في المسلمين من تفهّم الفلسفة اليونانية وصحّحها على ضوء فلسفة الإسلام الحقّة، ومع ذلك كلّ لم ينبج هؤلاء الفلاسفة من الزلل في القول والابتعاد عن صريح القرآن. فالإسلام في غنى عن استجداء فلسفة بشرية حالكة. فقد جاء في (أصول الكافي)، عن الصادق عليه السلام: «قال رسول الله ﷺ القرآن هدى من الضلالة وتبيان من العمى، واستقالة من العثرة ونور من الظلمة وضياء من الأحداث وعصمة من الهلكة ورشد من الغواية وتبيان من الفتن وبلاغ من الدنيا إلى الآخرة. وفيه كمال دينكم. وما عدل أحد عن القرآن إلا إلى النار»^(١).

ولا يعلم صحّة ما قاله رسول الله ﷺ إلا من سلك مسالك الصلحاء ونهج مناهج الأنقياء، عند ذلك يعلم أن لا فلسفة تطابق الواقع والمنطق إلا فلسفة القرآن الحقّة.

وكم للمنصفين من الغربيين من شهادات تنص على عظمة القرآن وأنه كتاب الله المنزل ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصِّلَتْ: الآية ٤٢].
فقد قال: «ادموند يورك» الخطيب السياسي الانكليزي: «القانون المحمدي: (القرآن) قانون ضابط للجميع من الملك إلى أقل رعاياه، وهو قانون تُسج بأحكام نظام قضائي وأعظم قضاء علمي، تشريع لامع ما وجد قط مثله في هذا العالم من قبل».
وقد قال الكاتب (مراشي): «من يتأمل أي القرآن يجد أن أساس الإسلام التوحيد وقطبيه التأخّي وتحسين شؤون العالم تدريجياً بواسطة العلم. فهذه هي الأسباب الحقيقية لظهور الإسلام».

وقال (المستر بيكتول): «القرآن هو الذي دفع العرب إلى فتح العالم ومكّنهم من إنشاء إمبراطورية فاقت إمبراطوريات اسكندر الكبير، والإمبراطورية الرومانية، سعة وقوّة وعمراناً وحضارة ودواماً».

(١) أصول الكافي: ج ٢، ص ١٠٠، كتاب فضل القرآن، ح ٨.

وقال (گوستاو لوبون): «إن القرآن لم ينشر إلا بالإقناع لا بالقوة، فاستطاع بذلك أن يجذب إليه الشعوب وتدين به تلك الشعوب».

وقال (ريتونبورث): «يجب أن نعترف أن العلوم الطبيعية والفلك والفلسفة مقتبسة من القرآن، فجميع العلماء مدينون له».

ويقول أحد الغربيين الذين اعتنقوا الدين الإسلامي: «هل يأتي لجميع فلاسفة العالم أن يشبوا غلطة واحدة في القرآن، ولو ارتكبنوا على كل ما في أيديهم من العلوم العصرية، لا يتأتى لهم ذلك. ولو وجدوا فيه خطأ صغيراً ما كانوا إلا مظهره. ولكن أنى لهم ذلك؟! والعلوم كل يوم في تبدل وتغير. وفي كل لحظة تظهر معانٍ باهرة لآيات قرآنية، ما كنا لفهم معناها إلا بعد تقدم العلوم».

«لأضرب لكم مثلاً: كان الفلكيون يدعون أولاً أن الأرض ثابتة والشمس متحركة^(١)، ثم قالوا: بل الأرض متحركة والشمس ثابتة، ثم جاءوا اليوم يقولون: علمنا الآن أن كلاً في فلك يسبحون، وأن الشمس تجري لمستقر لها. فمن هنا علمنا أن العلوم تتغير وترقى والقرآن ثابت لا يتغير بالحوادث».

«فإن وجد في الكتاب الحكيم شيء لا نفهمه، وجب علينا أن ننتظر رقي العلوم، ولا نشك لحظة في صحة القرآن».

ثم يقول: «قصدت في سياحاتي مدينة (بو تارليه) لمقابلة الدكتور (جريته) المسلم الفرنسي الشهير، الذي كان عضواً في مجلس النواب، للسؤال عن سبب دخوله في الإسلام»، فعند الوصول والسؤال منه، قال لي: «تبع كل الآيات القرآنية التي لها ارتباط بالعلوم الطبيعية والصحية والطبية التي درستها من صغري وفهمتها جيداً فوجدتها منطبقة كل الانطباق مع معارفنا الحديثة، فأسلمت، لأنني تيقنت أن محمداً ﷺ أتى بالحق الصراح، من قبل ألف سنة، من غير أن يكون له مدرس من

(١) لقد قال فيثاغورث قبل الميلاد: أن الأرض تدور حول الشمس، أي أن الشمس ثابتة والأرض متحركة. وقد فات الكاتب أن يضيف ذلك... وقد بينا حركة الشمس في الجزء الأول مع شيء من التفصيل.

البشر. ولو أن صاحب كل فن من الفنون أو علم من العلوم، قارن كل الآيات القرآنية المرتبطة بما يعلمه جيداً، كما قارنت أنا، لاسلم. دون ريب، إن كان عاقلاً، خالياً من الأغراض^(١).



يقول المؤرخ الكبير: (لوثر ب ستودارد) في كتابه (حاضر العالم الإسلامي):
«قد سارت الممالك الإسلامية في القرون الثلاثة الأولى من تاريخها (٦٥٠ - ١٠٠٠م) أحسن سير. فكانت أكثر أصقاع العالم حضارة ورفقاً وتقدماً وعمراناً، مرصعة بجواهر المدن الزاهرة والحواضر العامرة والمساجد الفخمة والجامعات العلمية المنظمة، وفيها مجموع حكمة القدماء ومخزن علومهم يشعان إشعاعاً باهراً، وما انفك الشرق الإسلامي خلال هذه القرون الثلاثة يرسل إلى الغرب نوراً».

ويقول: (گولدزيهـر) تحت عنوان (الدين والمروءة): «إن الإسلام رسم للحياة مثلاً أعلى غير المثل الأعلى للحياة في الجاهلية. وهذان المثلان لا يتشابهان وكثيراً ما يتناقضان، فالشجاعة الشخصية والشهامة التي لا حد لها والكرم إلى حد الإسراف، والإخلاص التام للقبيلة، والقسوة في الانتقام، والأخذ بالثأر ممن اعتدى عليه أو على قريب له أو على قبيلته بقول أو فعل، هذه هي أصول الفضائل عند العرب الوثنيين في الجاهلية، أما في الإسلام: فالخضوع لله والانقياد لأمره، والصبر وإخضاع منافع الشخص ومنافع قبيلته لأوامر الدين، والقناعة، وعدم التفاخر، وتجنب الكبر والعظمة هي المثل الأعلى للإنسان في الحياة».

ويقول: (ليودوروش): «إن الإسلام دين إنساني طبيعي اقتصادي أدبي، ولم أذكر شيئاً من قوانيننا الوضعية إلا وجدته مشروعاً فيه، بل إنني عدتُ إلى الشريعة التي يسميها (جود سيمون): (الشريعة الطبيعية)، فوجدتها كلها أخذت عن الإسلام، ثم بحثت عن تأثير هذا الدين في نفوس المسلمين، فوجدته قد ملأها شجاعة وشهامة ووداعة وجمالاً وكرماً، بل وجدت هذه النفوس على مثال ما يحلم به الفلاسفة من

(١) من مقال للأستاذ السيد أحمد الحسيني في مجلة «صوت المبلغين» التي تصدر بـكربلاء.

حب الخير والرحمة والمعروف في عالم لا يعرف الشر واللهو والكذب».

ويقول (ماسينيون): «يمتاز الإسلام بأنه يمثل فكرة مساواة صحيحة بمساهمة كل فرد من أفراد الشعب بالعشر من موارد الجماعة، والإسلام ينبذ التبادل غير المقيد، كما يناوئ الأموال المصرفية في حين أنه شديد التمسك بحقوق الولد والزوجة والملكية ورؤوس الأموال التجارية. فهو بذلك يقف موقفاً وسطاً بين البورجوازية الرأسمالية والشيوعية البلشفية. وللإسلام ماضٍ بديع من تعاون الشعوب وتفاهمها، وليس من مجتمع آخر له مثل ما للإسلام ماضٍ كله التوفيق في جمع كلمة مثل هذه الشعوب الكثيرة المتباينة على بساط المساواة في الحقوق والواجبات، ولقد برهنت الطوائف الإسلامية الكبرى في إفريقيا والهند والهند الشرقية والجماعات الصغيرة. منهم في الصين واليابان على أن الإسلام يستطيع أن يوفق بين العناصر التي لا سبيل إلى التوفيق بينها».

* * *

ولكي نعرف الإسلام أنه دين الفطرة والتسامح، لا بأس بذكر شهادة (سيرت. و. ارنولد) في كتابه: (الدعوة إلى الإسلام): «ومن هذه الأمثلة التي قدمناها آنفاً عن ذلك التسامح الذي بسطه المسلمون الظافرون على العرب المسيحيين في القرن الأول من الهجرة، واستمر في الأجيال المتعاقبة، نستطيع أن نستخلص بحق أن هذه القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام إنما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حرة. وإن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح».

حقَّق الله على أيدي العاملين المجاهدين: أن يدين العالم أجمع بدين الفطرة: دين الإسلام، دين العقل والمنطق، فيقول كل فرد من أبناء العالم:

﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْآبَرَارِ ﴿١٩٣﴾﴾ [آل عمران: الآية ١٩٣].

* * *

وهكذا نرى (الإسلام) دين العلم والعمل الصالح، قد حقَّق على أيدي المسلمين

من حقائق القرآن ﴿والسماء بنيناها بأيدي وإنا لموسعون﴾ ٤٤٣.

كثيراً من المكتشفات في شتى الحقول حتى عُدوا مؤسسي النهضة العلمية الحديثة في أوروبا، ولم يكتف الإسلام بالحث على العلم فحسب، بل أراد للبشر الاستمرار في البحث والاستزادة من العلم دوماً وذلك بقوله تعالى لرسوله الكريم ﷺ: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: الآية ١١٤].

غاية ما هنالك: يريد (الإسلام) أن يرافق الورع والتقوى العلم والمكتشفات، كي يترشَّح منهما^(١) اليقين بالله وكتبه ورسله وبعوالم القدس وحياة لا ظلم فيها ولا فساد. وذلك بقوله جلّ من قائل:

﴿أَمَنْ هُوَ قَتِيلٌ ءَإِنَّا أَنِلُّ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: الآية ٩]^(٢).

من حقائق القرآن

﴿والسماء بنيناها بأيدي وإنا لموسعون﴾

في القرآن الكريم (٧٥٠) آية كونية، هي عصارة ما توصل إليه العلم الحديث، لا سيّما في القرن الأخير. وإنّها معجزة خالدة ما بعدها معجزة. كل ذلك، لكي يعتبر هذا الإنسان بهذا الكتاب السماوي ويعلم أنه منزل من ربه لهدايته، ويعلم أنه لم يُخلق عبثاً وإنما خُلق لغاية سلمية تتناسب وعظمة خالقه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينًا﴾ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ [الدخان: الآيتان ٣٨/٣٩]. إنه تعالى يقول نحن بنينا السماء بقوّتنا وقدرتنا ونحن نوّسع السماء ونوسّعها حيث لا يعلم مدى هذا التوسع والامتداد إلا الله تعالى.

كان (أينشتاين) يريد أن يحسب وزن العالم: (الكتلة) أي وزن ما في الكون من كواكب وأنجم وأجرام، ثم عدل عن هذا الرأي لما رأى أن نجومياً تتشكّل حديثاً

(١) التقوى والعلم.

(٢) فانت: طاع، مواظب على الطاعة.

ونجوماً أخذت تقطع مراحل الكهولة وقد أوشكت أن تنبذ.

وقد ثبت أخيراً أن الأجزاء النائية من الكون تندفع في الفضاء بسرعة مخيفة، وأن الكون آخذ بالتوسع بسرعة فائقة.

يقول علماء الفلك: إن مجموعتنا النجمية تشمل مائة بليون من النجوم أو أكثر. وإن ما بين النجوم ممتلئ بالغازات ومواد مختلفة، خلاف ما كان يتصوره بعض الناس قبل ذلك. وإن التحليل الطيفي للنجوم البعيدة جداً قد دلَّ بصورة قطعية على وجود الغاز الكوني بين النجوم والمجرات بحالة تخلخل شديد جداً، إذ قدرت كثافته بنحو ميلغرام واحد في كل مليون ميل مكعب من الفضاء. وهذا الغاز مكوّن كله تقريباً من غازي الإيدروجين والهليوم ومن دقائق ترابية.

قد ثبت أن النجوم كلها متحركة ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد: الآية ٢] وأن مواضعها بالنسبة لبعضها البعض قد تغيرت. ولكن لكونها بعيدة عنا جداً أي بعيدة عنا ملايين السنين من السنين الضوئية لا نشعر بحركتها، فلا تتبدل خارطة السماء إلا في بضع مئات من آلاف السنين. وأما السنة الضوئية فهي ما يقطعه الضوء بسرعه الكبيرة خلال سنة واحدة من أميال أو كيلومترات. وبما أن الضوء يقطع في الثانية (١٨٦٠٠٠) ميلاً أو (٣٠٠٠٠٠) كيلومتراً تقريباً. وأن السنة تعادل (٣١٥٣٦٠٠٠) ثانية. إذن؛ $60 \times 24 \times 365 \times 186000$ ميل = 5876696000000 ميل وهو ما يقطعه الضوء من أميال خلال سنة واحدة. أي ٦ مليون مليون من الأميال على وجه التقريب. أو ١٠ مليون مليون كيلو متر تقريباً.

وقد علم أن متوسط سرعة النجوم في حركتها إلى جهات شتى هو (٢٠) كيلو متراً في الثانية. فالشمس مع سياراتها (عطارد، الزهرة، الأرض، المريخ، المشتري، زحل، أورانس، نبتون، بلوتو) وتوابعها من أقمار تتحرك بسرعة تبلغ (١٩,٥) كيلو متراً في الثانية الواحدة بالنسبة للنجوم القريبة حولها أي أن الشمس مع سياراتها وتوابعها تتحرك بهذه السرعة الهائلة: (سبعين ألف كيلو متر في الساعة تقريباً) على شكل لولبي نحو نجمة في السماء تسمى بالنسر الواقع. وتتحرك بسرعة أخرى في فلك حول مركز المجرة.

والمجرة هي منطقة طويلة من النجوم تمتد فوق رؤوسنا كالقوس ويمتد من أفق إلى أفق وقد تركّزت فيها النجوم أكثر تركّز وتكثّفت فيها بعضها فوق بعض أكبر تكثّف، أو هي كالطريق في السماء ازدحم بسالكيه ازدحاماً وما سالكوه إلا النجوم. على أن في السماء مثل هذه المجرة التي فوق رؤوسنا مجرّات متعدّدة لا تعد ولا تحصى.

وقد دلّت الأبحاث على أن نجوم كل مجموعة في المجرة فضلاً عن دورانها في أفلاك بعضها حول بعض، فإنها جميعاً تتحرّك بحركة مشتركة حول المحور الأصلي العمودي على الدائرة الاستوائية للمجرة.

فالأجرام تدور في مجموعتها في أفلاك ثابتة بالنسبة لبعضها البعض وفي الوقت ذاته تدور كل مجموعة بأجرامها المتلازمة حول المحور الأصلي للمجرة في فلك خاص. وقد دلّت البحوث الدقيقة من التحليل الطيفي للمجرّات الخارجية على أنها تتباعد عنا، أي تتباعد بعضها عن بعض باستمرار وسرعات عظيمة جداً تقدّر بالآلاف الأميال في الثانية الواحدة. فعلم أن الفضاء يتمدّد بين المجرّات ويتّسع باستمرار. وإن هذا التمدّد يقدر بمائة وخمسة أميال في الثانية الواحدة لكل بعد قدره مليون سنة ضوئية. وعُلم أن حجم الفضاء العالمي الآن يبلغ نحو عشرة أمثال حجمه منذ بداية تمدّده. أي أن كل بعد من أبعاده الثلاثة قد زاد قليلاً على ضعف ما كان عليه أولاً. وعُلم أيضاً أن هناك من النجوم حجومها ملايين المرات قدر حجم الشمس.

ولقد أمكن باستعمال أجهزة خاصة التعرف إلى نجوم قد أرسلت ضوءها منذ ملايين السنين ولكنه لم يصل إلينا لحد الآن. فعلياً أن نتصور سعة الكون الذي خلقه الله تعالى وهو يتّسع يوماً بعد يوم بأمره تعالى كما اتّسع بأمره حتى بلغ ما عليه اليوم. وعُلم أيضاً بعد مشاهدات دقيقة أن هناك ملايين من مجرّات خارجية منتشرة في الفضاء كما بيّنا وأن كل مجرة مؤلّفة من بلايين النجوم.

يقول (سير جينز): إن أكثر هذه المجرّات منتشرة انتشاراً منظماً في طبقات متتالية يبلغ متوسط البعد بين بعضها والبعض الآخر نحو مليون ونصف من السنين الضوئية مع العلم أن الضوء يقطع ٦ مليون مليون من الأميال (تقريباً) في سنة واحدة.

يقول الأستاذ (كامو): إن (هبل) مدير مرصد (مونت ولسن) الذي له أبحاث هامة عن المجرات الخارجية: قد سبر أغوار الفضاء بمرقب مرصده الكبير وتوغل فيها فتمكّن من النظر إلى مسافات سحيقة تقدر نحو خمسمائة مليون سنة ضوئية. وقد أحصى من المجرات الخارجية نحو مائة مليون مجرة وإنه يحتمل وجود مجرات أخرى على مسافات أعظم من هذه التي شاهدها (هبل).

ويقول: إن أبعاد هذه المجرات الخارجية تتضاءل بجانبها أبعاد النجوم في مجرتنا التي يبلغ قطرها نحو مائة ألف سنة ضوئية وسمكها نحو عشرة آلاف سنة ضوئية. وقد دلّ الحساب الرياضي من المشاهدات الدقيقة: على أن أبعاد المجرات الخارجية عن مجرتنا مذهلة. إذ وجدوا أن أقربها منا، ويدعى سديم: (أندرو ميذا العظيم) يبعد بنحو ستمائة وثمانين ألف سنة ضوئية. ثم تزيد أبعاد المجرات بعد ذلك إلى ملايين، ثم عشرات الملايين، ومئات الملايين من السنين الضوئية. فما أوسع فضاء هذا الكون وما أعظم ما خلق الله العليّ القدير.

إذا كانت شمسنا هذه تبعد عن أقرب نجمة إليها ٢٦ مليون مليون ميل، فإن الصاروخ يجب أن يسير بسرعة الضوء أي بسرعة (١٨٦٠٠٠) ميل في الثانية، مدة أربع سنوات وأربعة أشهر تقريباً كي يصل إلى أقرب نجمة إلينا. وأنى للصاروخ أن يسير بهذه السرعة العظيمة وأن يقطع في الثانية الواحدة (١٨٦٠٠٠) ميلاً أو (٣٠٠٠٠٠٠) كيلومتراً. مع العلم أن أسرع ما وجد من الأجسام المادية السريعة (عدا الأرواح طبعاً) هو الضوء. وكل ما كان أكثر من الضوء كانت سرعته أقل. ويقال إن سرعة الأمواج الهertzية هي بقدر سرعة الضوء تقريباً وهي طاقة كهربائية. فلا يمكن أن توجد واسطة مادية سرعتها بقدر سرعة الضوء على ما ثبت في الفيزياء. وعلى فرض الإمكان فحتاج من العمر مئات الملايين من السنين كي نصل إلى بعض النجوم التي نشاهدها بالآتنا الحاضرة، شريطة أن نسير بسرعة الضوء. ومما لا شك فيه أنه مع تقدّم العلم سوف يمكن (بإذن الله) كشف آلات أدق وأمتن، فبرى إذ ذاك من النجوم والمجموعات النجمية والمجرات ما لا يمكن رؤيته في الوقت الحاضر.

من حقائق القرآن ﴿والسماء ببناءها بأيدٍ وإنا لموسعون﴾ ٤٤٧.

إن الله تعالى يقول: ﴿تَنجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحَ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: الآية ٤] ، فيصعد الملك أو جبرائيل في ما خلق الله من أكوان في يوم مقداره خمسون ألف سنة، وبما أنه لا يمكن قطع ما خلق الله تعالى من مسافات شاسعة وأكوان متعدّدة بسرعة الضوء وإن استمرّ السير ملايين ملايين من السنين، إذن وجب أن نقول أن سرعة سير الملك أضعاف أضعاف سرعة سير الضوء.

وقد علّم أخيراً أن في الفضاء منظومات شمسيّة تعد بالملايين تشبه نظامنا الشمسي، أي أن كلاً منها له سيارات فتقت منه وتدور حوله وتوابع أقمار فتقت من سياراتها وتلفّ حولها وإنه بسبب أبعاد النجوم الساحقة وضآلة الضوء المنعكس من السيارات وضعف قوة المراقب (Telescopes) الحالية لا يمكن إثبات وجود هذه الأنظمة (المنظومات الشمسيّة) بالمشاهدة الفعلية.

فانظر كيف تتحقّق الآية الكريمة: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: الآية ٤٧] وقد نزلت في وقت لم تكن هناك مراقب (تلسكوبات)، ولم يكن يعلم أحد أن هذه السماء تتوسّع يوماً بعد يوم بنظام خاص أودعه الله فيها وطاقات هائلة جهّزها الله بها. فقد حدث انفجار في الشمس سنة ١٩٥٦م قُدّرت الطاقة المتحرّرة، فكانت تعادل طاقة ١٠٠ مليون قنبلة هيدروجينيّة مع العلم أن طاقة قنبلة هيدروجينيّة تعادل طاقة ألف قنبلة ذريّة. والقنبلة الذريّة لا تبقي ولا تذرا فسبحان الذي خلق هذه الطاقات الهائلة بإرادته وشكلها كما يشاء بحكمته، وأودع فيها من النظم والقوانين والمعادلات كما أراد بتدبيره. وهو القائل: ﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ﴾ [الكهف: الآية ٥١] .

إن الإنسان ليندهش حين يرى أن علياً عليه السلام يجب عندما يسأل عن المسافة بين السماء والأرض. بقوله: «دعاء مستجاب». ذلك لأنه ليس هناك عدد يمكن أن يُعبر به عن هذه المسافة التي لا يعلم مداها إلا الله سبحانه وتعالى. إلا أن يقال: «دعاء مستجاب». فإن الله تعالى لا يخلو منه مكان وهو القائل: ﴿وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: الآية ١٦] . . . ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاعِيَهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ

وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ إِنَّمَا كَانُوا أَتَمَّ يُنْتِظُهُمْ بِمَا وَعَدُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿المجادلة: الآية ٧﴾ .

فهل يجدر بهذا الإنسان أن يركبه الغرور، فيترك عبادة ربه، هذه العبادة التي تأخذ بمجماع قلبه وتجعله سائراً في عوالم الملكوت، سائراً في ساحات القدس، حيث لا دنس ولا رجس . سائراً في عوالم من الأطمئنان والحبور ما لا يمكن أن يقاس بأفراح هذا العالم المادي وما يترشح من المادة الصماء، منغمراً في موسيقى العالم اللانهائي تاركاً العالم المادي الضيق الحالك وراء ظهره .

فطوبى لنفوس عرفت لماذا خلقت، فازدادت معرفة بالله تعالى وحققت الغاية الرفيعة التي خلقت لأجلها . وهو القائل كما جاء في حديث قدسي مخاطباً ابن آدم: «خُلِقْتُ الْأَشْيَاءَ لِأَجْلِكَ وَخُلِقْتَكَ لِأَجْلِي» . ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥١﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴿٥٢﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات: الآيات ٥٦/٥٨] .

أيجدر بهذا الإنسان أن يعثر فساداً في الأرض والله تعالى يقول: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَسْخَرُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: الآية ٦٠] . كل ذلك: لأنه جاء بصاروخ أدواته من خلق الله، وتركيبه بعقل أوجده الله . مع علمه أن هذا الصاروخ مركب من (٣٠٠٠٠٠٠) قطعة مرتبة ترتيباً هندسياً دقيقاً لو تخلفت إحدى القطع عن الترتيب الهندسي لفشل الصاروخ ووقف عن الانطلاق فكيف لا يعظم ولا يقُدُّس خالقه الذي جهَّز مُحِّه به (٢٠٠٠٠٠٠٠٠) عصب لكل واحد منها وظيفته، فلو جسَّ أحدها حدثت عوارض تختلف عمّا لو جسَّ غيره . ولو حسبنا بحساب رياضي (حساب الاحتمالات) نرى أن ليس هناك أية صدفة تجعل عشرين مليون عصب تترتب بهذا الترتيب الدقيق حتى تتوارد عليها الإحساسات فتشعر الروح بواسطتها بما حدث . فهي دونما تشبيه كآلة الراديو . فكما أن الراديو ليس هو الصوت والمتكلم هكذا هذه الأعصاب الكثيرة في المخ الإنساني ليست هي الروح والإنسان وإنما واسطة لتحسس الروح أو النفس . وحسب ما هو مقرر في حساب الاحتمالات: إن الاحتمال الذي يجعل عشرين مليون

من حقائق القرآن ﴿والسماء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون﴾ ٤٤٩.

عصب تترتب ترتيباً هندسياً فيؤدي إلى إنتاج مطلوب هو واحد من ١٠ متبوعة بعشرين مليون صفر إلا صفرأ واحداً، أي: واحد من ١٠ مرفوعة إلى قوة عشرين مليون. ومعلوم أن من نسبة $\frac{1}{20,000,000}$ أو: $\frac{1}{2 \times 10^7}$ هو الصفر .

ولما كان ما خلق الله من عوالم مختلفة من جماد ونبات وحيوان وما رتب لكل منها ترتيباً دقيقاً لا يُعد ولا يحصى إذن تصبح النسبة:

$$0 = \frac{1}{\infty} = \frac{1}{\infty}$$

على أن للمفكر أن يقول: ومن أين جاءت هذه الأجزاء التي كل منها مشكل من جزيئات أخرى بصورة دقيقة وهندسية وهكذا دواليك حتى ينتهي بنا إلى جهل الواقع .

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: الآية ٤٦] .

كيف لا يفكر هذا الإنسان أن من يأتي بتركيب هذا الإنسان العجيب لا يخلق عبثاً ولا يوجد لاهياً، وأن وراء هذا الخلق غاية رفيعة سامية، ألا وهي معرفة الله تعالى وهو القائل كما جاء في حديث قدسي: «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق لكي أعرف»^(١). فلا بد من أنبياء ولا بد من دسائير تقرب النفوس إلى الله تعالى . وهو القائل: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًَا لَأَخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ١٧] .

ولكنها الذنوب والفجور والخمور، تراكت دون توبة واستغفار على قلب هذا الإنسان فحجبته عن رؤية الحق والواقع وأعمته: «إن أعمى العمى عمى القلب، فصار لا يؤمن إلا بالمادة العمياء، وسؤل له شيطانه مزاعمه وصار يتشدق ويعزو كل شيء حتى الأخلاق إلى المادة والوضع الاقتصادي وكأنه جاء بفلسفة! وفهم سر الحياة متهماً غيره بالرجعية والخرافة! ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [٣٦] وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [٣٧] حَقٌّ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمُسْرِقَيْنِ فَيَلْسُ الْقَرِينُ﴾ [الزخرف: الآيات ٣٦/٣٨] .

ما أعظم هذا الحديث، حيث يشرح تأثير الذنوب في النفس: «إذا أذنب العبد كانت نكتة سوداء على قلبه، فإن هو تاب وأقلع واستغفر صفا قلبه . وإن هو لم يتب

ولم يستغفر كان الذنب على الذنب والسواد على السواد حتى يغمر القلب^(١). لذلك يستحب أن يستغفر كل منا عندما يأخذ مضجعه ليلاً قائلاً: ثلاث مرات: «استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأنوب إليه». كي لا تتراكم ذنوبه بعضها على بعض فيسود قلبه، فيأتي دور الإنكار والجحود: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبْسُتُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَحْكُدُ إِلَّا الظُّلُمَاتِ إِلَّا أَلْظِلُّونَ﴾ [العنكبوت: الآية ٤٩].

﴿وَيَجْعَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَطِلِ لِيُدْخِلَهُمْ فِي الْفِتْنَةِ وَأَخْذُوا إِلَيْنِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا﴾ [الكهف: الآية ٥٦].

ولكن مهما يكن من شيء فإن الغلبة للمؤمنين في هذا العالم على قلتهم ذلك لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُمُ الْحَافِظُونَ﴾ [الحجر: الآية ٩]. فلا بد من تضحية ولا بد من جهاد. وهو القائل: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: الآية ٦٩].

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ، وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾

- ١ -

إن الله جلّ وعلا يُقسم بما نراه وبما لا نراه مما خلق من عوالم شتى: عالم الجماد وعالم النبات وعالم الحيوان وعالم الإنسان وعالم الأرواح وعالم الجن وما في السماء من عوالم لا تُرى حتى بأدق الآلات.

والقسم بما خلق قسم بعظمته تعالى وبالذقة المتناهية التي أودعها في مخلوقاته، وارتباط هذه المخلوقات بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً يحير الألباب: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ فَإِنِّي جَارِجٌ أَبْصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ﴾ [٢] ثُمَّ أَتِجِعُ الْأَبْصَرَ كَرِّينَ يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْأَبْصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ [١] [المُلْك: الآيتان ٣/٤]. ذلك لأن الإنسان كلما تقدّم في تحقيقاته وتجاربه، كلما ظفر بدساتير جديدة كانت تخفى عليه، وخواص عجيبة وسعة لا تتناهى ودقة لا

تستقصى، أودعها الله في أرجاء هذا الكون الرحيب.

فيحق لله تعالى أن يقسم بعظمته التي لا تنتهى، هذه العظمة التي تتجلى في ما نبصره وما لا نبصره.

إن قابلية الإنسان في الإبصار قابليّة محدودة، لذلك يستعين بآلات شتى (المجهر: Microscope) كي يُبصر الدقيق من الأشياء، كالميكروبات والجراثيم التي يجب أن تكبر آلاف المرات بل عشرات الآلاف، كي يمكن رؤيتها، أو يستعين بالمرقب: (Telescope) ليرى في مسافات شاسعة ما خلق الله من كواكب وأنجم وشموس ومجرات وما أودع الله في الفضاء من مادة غازية قليلة الكثافة جداً.

قد بلغ ببعض الأفراد في أوروبا التسافل في النفس حتى صاروا يجحدون الروح والنفس والملائكة، يجحدون الخالق جلّ جلاله وكل ما لا يرى بالعين ويؤمنون بكل ما يرى بالعين.

حين أن العين ذات قابلية محدودة. فهناك كثير من الأشياء كان ينكرها المادي سابقاً لعدم وجود آلات يبصرها بها، ثم اعترف بها بعد اكتشاف آلات تساعد على الرؤية. وكذلك اليوم، هناك كثير من الأشياء لا ترى حتى بأدق الآلات ولكنها سوف ترى في مستقبل قريب عندما تكتشف آلات جديدة ودقيقة جداً.

لذلك تنقسم الموجودات إلى: منظور وغير منظور. فكل ما يراه الإنسان بعينه المجردة أو بالمجاهر أو بالمراقب أو الأجهزة المقربة وكل ما في السماء وما تحت الأرض وما في قاع المحيطات وما في السحب كل ذلك من العالم المنظور. وأما العالم غير المنظور فهو ما لا يمكن رؤيته بالآلات أو بالعين المجردة ولكنه موجود، يحكم العقل بوجوده أكثر مما يحكم بوجود المنظور كالخشبة.

فهناك أشعة لا ترى بالعين ولا بالآلة أشعة غير منظورة. أي أن هناك أشعة مرئية وأشعة غير مرئية. وإن الأشعة المرئية هي جزء صغير من الصورة الكلية للضوء. والأشعة غير المرئية أكثر تفرعاً وتأثيراً من الأشعة المرئية. لذلك أخذ يقول علماء الضوء: إن كلمة (ضوء) أو (حزمة ضوئية) أو (إشعاع) قد لا تدل على حقيقة الضوء،

والأولى أن يقال: (الطاقة المشعّة)، لتدل على جميع أنواع الإشعاع: المرئي منها وغير المرئي.

على أن العلم الحديث لم يصل إلى حقيقة الضوء كما لم يصل إلى حقيقة القوى أو كل شيء قواني (منسوب إلى القوة)، لم يصل إلى حقيقة القوة الجاذبة وحقيقة الكهرباء. إنما تُفرض فروض فيفسر بها بعض الظواهر، ثم تخمد تلك الفروض بعد برهة من الزمن ويُعَوَّض عنها بفروض أو فرضيات (Hypothèses) أخرى يمكن تفسير الظواهر القديمة والجديدة بها معاً وهكذا دواليك..

فالعلم الحديث لا يتيسّر له الولوج إلى أعماق الأشياء والوصول إلى حقائقها التي لا حقيقة بعدها. وهو يعمل دوماً للوقوف على أسرار الأشياء وإذا به يقف أمام أودية جديدة من المجاهيل تدهش الألباب.

فمن تلك الأشعّة غير المرئية: الأشعّة السينيّة (X- Rays)، أو أشعّة (روتكن). هذه الأشعّة تخترق الأجسام التي لا يمكن أن يخترقها الضوء العادي وقد اكتشفت بالصدفة. إنها قويّة جداً ذات موجة قصيرة. فإن طول موجتها (١٠٠٠٠) مرّة أقصر من طول موجة (الضوء المنظور).

ومن الأشعّة التي لا ترى بالعين (ولر بالآلة) الأشعّة الجيمية (أشعّة غاما). وهي ذات موجة قصيرة أيضاً، أقصر من طول موجة الأشعّة السينيّة.

ومن الأشعّة التي لا ترى: الأشعّة (فوق البنفسجيّة Ultra - Violet) فإن طول موجتها أطول من طول موجة الأشعّة السينيّة وأقصر من طول موجة الضوء المرئي.

ومن الأشعّة غير المرئية. الأشعّة (دون الحمراء) في شعاع الشمس. وهي موجات حراريّة نحسّ بها ولا نراها وهي تصل إلى الأعصاب والعضلات، ولا يحس فيها الفيلم العادي للتصوير.

وقد استخدم الإنسان الأنواع المذكورة من الأشعّة في الكشف عن أمراضه ومعالجة كثير منها وقد استخدمها أيضاً في الغذاء والدواء.

وقد علم أن الأشعّة فوق البنفسجيّة التي هي في شعاع الشمس، تقتل كثيراً من

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ، وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ ٤٥٣

الجرائم المضرة. وقد جاء في الشرع المحمدي ﷺ: أن أحد المطهّرات هو الشمس. فتطهّر الأرض النجسة أو الأبواب أو الجدران أو الأشجار أو الثمار التي عليها (من غير المنقول) والحصران والبواري (من المنقول) بعد زوال العين: بإشراق الشمس عليها حتى تجف، وإن كان ما ذكر جافاً فيصب عليه الماء حتى تجفّفه الشمس بالإشراق عليه.

وهكذا موجات الراديو، وموجات الرادار الذي يكتشف وجود الأشياء في الفضاء ويحدّد مكانها بالضبط من النوع غير المنظور.

وقد تكون بعض الأجسام الماديّة، في وقت، من نوع غير المنظور، لعدم وجود آلات تكشف عنها. وبعد اكتشاف آلات جديدة ودقيقة وتقدم الفيزياء والرياضيات العالية، تصبح من النوع المنظور.

مثال ذلك: ما كان يعلم قبل (١٠٠) سنة أن في كل مجرّة عدداً كبيراً جداً من النجوم تكاد تعد بالملايين تسودها أنظمة كالنظام الشمسي. أي أن كلاً منها شمس في حد ذاتها وقد فتقت منها سيارات وفتقت من السيارات هذه توابع وأقمار تدور حول الأم وتدور في الوقت نفسه حول نفسها. فإذا تقدّمت الآلات الفلكيّة، سيأتي اليوم الذي يُتلافى فيه ضآلة الضوء المنعكس من الأنجم التي تقع في مسافات لا نهائيّة وسوف نشاهد أنجماً وعوالم كانت سابقاً من نوع غير المنظور.

لذلك يقسم الله تعظيماً لشأن ما خلق من عوالم لا تنتهي، عوالم لا ترى بالعين المجرّدة ولا بالآلات بقوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ (٣٨) ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ (٣٩) [الحاقة: الآيتان ٣٨/٣٩].

كما أنه كان يعد سابقاً الغاز الموجود في الفضاء بين النجوم والذي اكتشفه أخيراً العلم الحديث من غير المنظور، وقد أمسى منظوراً أو ملموساً محسوساً. ذلك لأن كثافة هذا الغاز تساوي ميليغراماً واحداً في كل مليون ميل مكعب من الفضاء.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ، وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾

- ٢ -

ومما لا يمكن إبصاره: الذرة، فإنها من الصغر بحيث لا يمكن للإنسان أن يبصرها حتى بأدق الآلات. وقد أصبح اليوم التعرف إلى (الذرة) وما أودع الله فيها من تركيب وقوانين ومعادلات من أهم العلوم الحديثة وأدقها وأصعبها. وأصبح علم الذرة علماً هاماً يتخصص فيه بعد دراسة الفيزياء العالية على ضوء الرياضيات العالية. لذلك يجدر بنا أن نتكلم عن الذرة - وهي من النوع (غير المنظور) ممّا خلق الله تعالى - بشيء من التفصيل.

كان يقول ديموقراطيس (Démocrite) الفيلسوف اليوناني منذ زمن بعيد^(١): إنه لو قسمت قطعة من الحديد مثلاً إلى جزئين، ثم قسّم أحد الجزئين إلى جزئين آخرين أيضاً وكرّرت هذه العملية مرّات متعدّدة جداً، فإنّنا سنصل إلى مرحلة لا تتمكّن فيها تقسيم الجزء الأخير إلى جزئين آخرين مع الاحتفاظ بخواص الحديد، أي أنّه لو قسم الجزء الأخير أيضاً لا نحصل على الحديد بل يكون شيئاً غير الحديد، فصار يسمّى الجزء الأخير الذي لا يمكن تجزئته بـ(جزء لا يتجزأ). وهذا ما يسمّى اليوم بالذرة: (آتوم: Atome) ومعناها في اليونانية غير المنظور.

إنّ البحوث الأخيرة في علم الفيزياء أيّدت هذه النظرية وبرهنت على صحتها. وذلك أن كل عنصر كالحديد أو الذهب يمكن تجزئته إلى أجزاء متعدّدة إلى مرحلة يقف إمكان التجزئة فيها مع الاحتفاظ بخاصية ذلك العنصر، حتى نبلغ إلى جزء لا يتجزأ أي جزء لا يمكن تقسيمه وتجزئته مع الاحتفاظ بخاصية ذلك العنصر، أي لا يكون بعد ذلك جزيء الحديد حديداً أو جزيء الذهب ذهباً. والذرة هي هذا الجزيء الذي لا يتجزأ.

إنّ العالم المادي مكوّن من عناصر مختلفة: كالحديد والذهب والفضة والكربون

(١) قبل الميلاد بخمسة قرون.

﴿فَلَا أَنْتُمْ بِمُتَّبِعِينَ، وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ ٤٥٥.

وغاز الهيدروجين (أو الإيدروجين) وغاز الأوكسجين. إلخ. وأصبح عدد هذه العناصر التي اكتشفها العلم الحديث: (١٠٠) عنصراً لحد اليوم.

وقد أعلن في عام ١٨٩٧ (السير تمسون) وغيره أنهم تمكنوا من أن يفصلوا من جميع أنواع الذرات التي هي في حالة تعادل جسيمات متساوية في الوزن وذات شحنات كهربائية سالبة متساوية، أطلقوا عليها اسم (الالكترونات) بالنسبة لشحنتها السالبة، وأن ذلك يدل على أن (الذرة) المتعادلة، لا بد أن تكون مكونة من جزيئين أحدهما: موجب التكهرب والآخر: سالب التكهرب، ومن شحنتين كل منهما مساوية ومضادة للأخرى. وكان ذلك أول اكتشاف علمي عن إمكان تجزئة الذرة. ولكن وقفت الاكتشافات العلمية في هذه الناحية مدة من الزمن حتى كشفت المواد المشعة ودرست أحوال انحلالها الذاتي.

ويقال عن (مدام كوري) مدرسة الفيزياء في جامعة (صوربون) إنها قد وضعت في جيب ثوبها بالقرب من الصدر قطعة من الراديوم قد نسيتهها وبعد مدة شعرت بخدشة في صدرها وكانت تعلم وزن تلك القطعة قبلاً، فلما فتشت عن سبب تلك الخدشة علمت أن الراديوم هو الذي أثر في صدرها بإشعاعاته ووزنت القطعة من جديد، فوجدت نقصاً فيها وعلمت أن قسماً من المادة قد تحوّلت إلى طاقة: (إشعاعات).

كما أن (بيكريل) العالم الفرنسي كشف في آخر القرن التاسع عشر بمحض الصدفة! ودون ترتيب سابق إشعاعاً غريباً غير مرئي ينبعث من أحد مركبات عنصر (اليورانيوم) - أثقل العناصر المعروفة -، ورأى أن هذا الإشعاع الغريب يؤثر في مادة اللوح الفوتوغرافي كأشعة الشمس، بالإضافة إلى ذلك: ينفذ هذا الإشعاع خلال الأجسام غير الشفافة.

فعلم بعد هذا الاكتشاف أن كل ما في الكون من مظاهر مادية وجميع ما هنالك من عناصر: (كالحديد والراديوم) وجدت من شيء واحد هو الطاقة: (Energie)، وإن هذه الطاقة هي القوة الكهربائية السالبة التي تتجلى في الإلكترونات (Electrons) وفي القوة الكهربائية الموجبة التي تتجلى في (البروتونات) (Protons) وكهربائية متعادلة:

موجبة وسالبة وتنجلى في النيوترونات (Neutrons)، وعلم أن العالم المادي هو قوة كهربائية: موجبة وسالبة أو طاقات هائلة تكدست فكانت ذرات وأجساماً، فليس هناك مادة بالمعنى الذي يفهمه المادي. وإنما هي قوى وطاقات خلقها الله بقدرته وإرادته، وربّها ترتيباً بديعاً، خاضعاً لمشيئته تعالى، فكانت هذه الذرات وهذه العناصر وهذه الأجسام والمواد.

وخلاصة ما قلنا: إن الذرة مكوّنة من:

١ - بروتونات موجبة.

٢ - إلكترونات سالبة، شحنتها مساوية ومضادة لشحنة البروتونات.

٣ - ومن نيوترونات، كل منها مكوّن من اتحاد بروتون موجب والإلكترون سالب.

فتكون الذرة في مجموعها مكوّنة من جزئين، أحدهما موجب التكهرب: (كهربائية موجبة) والآخر: سالب التكهرب: (كهربائية سالبة). وشحنتاهما متساويتان ومتضادتان.

وهذا مما يجعلنا أن نتصور العالم مكوّناً من جسيمات مكهربة. لذلك كان يقول (أينشتاين): إن العالم مجموع قوى كهربائية ومغناطيسية أو (كهروطيسية). فأين المادة التي تشدق بها المادي. ضارباً يده على منضدته قائلاً: هذه هي المادة!

تصوروا دائرة كبيرة (أو بالأحرى كرة كبيرة) نصف قطرها طويل جداً فهذه هي الذرة. توجد في مركز هذه الذرة دقائق صغيرة متجمّعة تسمى بنواة الذرة وفيها البروتونات وهي الكهربائية الموجبة أي شحنتها موجبة، وإن وزن الذرة أو وزن المادة هو وزن هذه النواة أي البروتونات (أو الكهربائية الموجبة) تقريباً.

إن عدد البروتونات في ذرة كل عنصر يختلف عن الآخر. فمثلاً عدد البروتونات في نواة ذرة الحديد لا يساوي عدد البروتونات في نواة ذرة الأورانيوم (يورانيوم). ففي نواة كل ذرة من كل عنصر عدد معين من البروتونات.

وفي محيط الدائرة (أو الكرة التي تصوّرناها) عدد معيّن من الإلكترونات (كهربائية سالبة) مجموع شحنتها مساوٍ لشحنة النواة وفي حالة تعادل معها وتحرك بسرعة عظيمة

حول النواة تبلغ مئات الأميال في الثانية لكي تمنع سقوطها عليها تحت تأثير التجاذب بينهما. وإن كتلة النواة تبلغ بضعة آلاف المرات قدر كتلة مجموع (الإلكترونات). ويفصل بينهما أي بين النواة والإلكترونات الدائرة حولها فراغ هائل. وإن حجم كل منهما ضئيل جداً بالنسبة لحجم الذرة الذي كلّه فراغ تقريباً. وقد صوّر (رذرفورد) تكوين الذرة بصورة المجموعة الشمسية وقد أدخل عليها بعض التعديلات. وهذا دليل على عدم تناهي ما أودع الله من خواص وقوانين في دقائق هذا الكون!!..

قلنا إن الإلكترونات وهي عديمة الوزن تقريباً تدور بسرعة هائلة حول مركز الذرة (البروتونات) وهي تقع عن المركز بفواصل معينة كما في النظام الشمسي. وإن الأبعاد بين الإلكترونات الدائرة ونواة الذرة هي تقريباً تساوي الأبعاد بين الشمس والكواكب السيارة حولها مع حفظ النسبة فإذاً كل ذرة هي مجموعة شمسية.

وقد ذكر الفيلسوف العربي: فريد الدين العطار: أن ذرات العالم في عمل مستمر وإنه توجد في كل ذرة شمس ظاهرة وروح باطنة.

وقال الشاعر هاتف الأصفهاني الذي توفي سنة ١١٩٨ الهجرية:

دل هر ذره را كه بشكافى آفتابش در ميان بينى
أي إذا كشفت عن باطن كل ذرة لأفيت شمساً في وسطها.

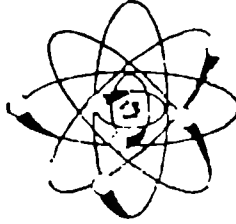
فهو قد توصل إلى كشف هذه الحقيقة بإلهام ربّاني ونور قذفه الله تعالى في قلبه. فقد جاء في الحديث وما أعظمه: «العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء»^(١).

وكم قذف الله من أنوار في قلوب المخترعين والمكتشفين وكم هيأ لهم صدفاً تمكّنوا بها من العثور على حقائق جديدة. وكم كان شكرهم وخضوعهم قليلاً! تجاه نعم الله التي لا تعد ولا تحصى...

وكذلك، فالإلكترونات وهي شحنات كهربائية سالبة يختلف عددها في كل ذرة باختلاف العناصر. كالحديد والفضة والذهب مثلاً. وعدد هذه الإلكترونات التي تدور

بسرعة هائلة في محيط الذرة يساوي دائماً عدد البروتونات التي هي وسط الذرة. وإن لحركات الإلكترونات وسيرها في أفلاكها الخاصة بسرعة فائقة آثارها العجيبة لا مجال إلى ذكرها. وإن حركة الإلكترونات هي من الانتظام والدقة مما يجعل أن يعترف الفيلسوف الفرنسي (هانري برکسون): (Henri Bergson) بخالفه وأن يقول:

«إن بدأ غيبية تعمل في تنظيم هذه الحركات المنظمة لإيجاد أو حدوث تيار كهربائي وأمواج كهربائية مختلفة وتفاعلات كيميائية إلى غير ذلك مما سيكشفه العلم الحديث». تصوّروا الذرة عادة على أنها كرة غلافها الخارجي سحابة زغبية من الإلكترونات تكوّن معظم حجم الكرة تقريباً، وبالرغم من ذلك فإنها لا تكاد تكون شيئاً من وزن الذرة. ويحدّد عدد الإلكترونات في هذه السحابة خواص الذرة الطبيعية والكيميائية. شكل (١) الذرة:



الذرة: هي أصغر جزء من المادة وتتركّب من نواة بها بروتونات ونيوترونات ويحيط بها الكترونات.

قلنا إن الذرة تبلغ من الصغر بحيث لا يمكن رؤيتها بأدق الآلات وهي من «ما لا تبصرون»، أي من نوع غير المنظور. ذلك، لأنه لو وضعت عشرة ملايين ذرة بعضها جنب بعض على شرط الكروية يكون طول ذلك كله ميليمتراً واحداً. ومعنى ذلك أن معدّل قطر الذرة هو $\frac{1}{100,000}$ من الميلمتر. وأن قطر (نواة الذرة) يساوي واحداً من مائة ألف جزء من الذرة أي يساوي $\frac{1}{100,000}$ من الذرة. إذن قطر نواة الذرة يساوي $\frac{1}{100,000,000,000}$ أي واحداً من ترليون جزء من الميلمتر أو $\frac{1}{1,000,000,000,000}$ مم. وإذا جمعنا من نوى الذرة مليار نواة فلا يمكن رؤيتها مع أقوى المجاهر

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ، وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ ٤٥٩.

(Microscope)، ومع ذلك فقد عبأ الله تعالى في هذه النواة طاقة (قوة) عجيبة خارقة تدعى: (بطاقة النواة). وإن الطاقات (القوى) المدمّرة عند انفلاق القنبلة الذريّة إنما هي نتيجة تحرّر هذه القوى الخارقة من نواة الذرّة الضئيلة. فإن كيلو غراماً واحداً من الأورانيوم: ٢٣٥ يطلق حين تحطيمه طاقة بقدر ما يطلق ٢٥٠٠٠٠٠ كيلو غرام من الفحم! فسبحان الذي أودع هذه القوّة الخارقة في نواة (الذرّة) وأجرى الإلكترونات التي لا يمكن أن ترى بأية آلة حولها، وهذا ممّا يقسم الله تعالى به بقوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: الآيتان ٣٨/٣٩]. هنالك من عظمة خارقة وإتقان في الخلق ما بعده إتقان.

قلنا إن نواة الذرّة مؤلّفة أو مكوّنة من نوعين من الدقائق:

- ١ - البروتونات وفيها شحنة كهربائيّة موجبة. والبروتون جسيم صغير ثقيل نسبياً، يبلغ وزنه $1,673 \times 10^{-24}$ من الغرام (وهو محمل بشحنة كهربائيّة موجبة).
 - ٢ - نيوترونات. وهي متعادلة من حيث الكهربائيّة أي تتعادل فيها الشحنة الموجبة مع الشحنة السالبة. ووزن النيوترون $+ 1,674 \times 10^{-24}$ من الغرام.
- وأما الإلكترونات فتدور حول النواة بسرعة هائلة تبلغ (٣٦٠٠٠٠) ميل في الساعة وهي ذات شحنة سالبة ووزن الإلكترون $= 9 \times 10^{-28}$ من الغرام.
- وهناك فضاء واسع أو فراغ رحيب بين النواة (نواة الذرّة) وبين الإلكترونات التي تدور حولها.

يختلف عدد البروتونات في ثوى ذرّات العناصر المختلفة وكذا عدد الإلكترونات التي تدور حول النواة، مع العلم أن عدد الإلكترونات في ذرّة كل عنصر يساوي دائماً عدد البروتونات في ذرّة نفس العنصر. فيعتبر عدد البروتونات الموجودة في نواة كل ذرّة عدداً دالاً على عددها الذري أو رقم ترتيبها في الجدول الدوري. أي أن العدد الذري يساوي عدد البروتونات الموجودة بها.

وفي مركز الذرة، كما قلنا، توجد البروتونات والنيوترونات مكدّسة بعضها مع

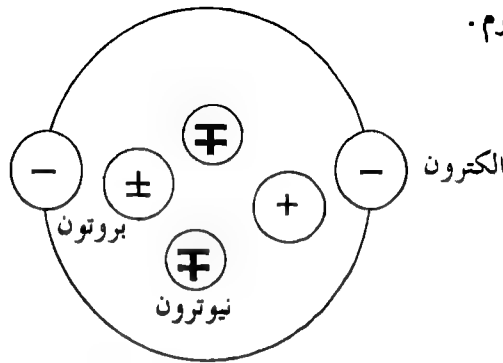
بعض في وسط الذرة، إذ أن حجمها عبارة عن جزء من ٢,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ من حجم الذرة كلها. فإذا كان حجم الذرة في حجم منزل كان حجم هذه المجموعة لا يتجاوز حجم رأس دبوس. وليبان مدى تكدّس هذه الجسيمات، فإن حجماً منها يزن ٤٨٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ مرّة قدر وزن نفس الحجم من الماء.

تصوّروا دائرة كبيرة ضعوا بروتوناً واحداً في مركزها، وضعوا: الكترونات واحداً على محيط الدائرة، فهذه تمثل لنا ذرة الإيدروجين (وهو غاز فيه قابليّة الاحتراق) وأحد عنصري الماء.

ففي ذرة الإيدروجين وهو أخف العناصر يوجد: بروتون واحد في الوسط والكترون واحد في المحيط يدور حول البروتون بسرعة هائلة وبينهما فضاء أو فراغ واسع رحيب.

ويليه من حيث الوزن: (الهليوم) وهو غاز غير محترق يُملأ به المناطيد (بالون). ففي ذرة (الهليوم) يوجد (بروتونان) في الوسط و(نيوترونان) في الوسط أيضاً ويوجد في مدارها الخارجي الكترونان.

شكل: ٢ ذرة الهليوم.

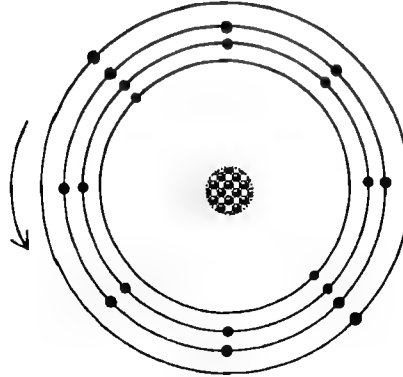


الكترونان يدوران حول بروتونين وفي النواة أيضاً يوجد نيوترونان.

وأما العنصر الثالث من حيث الترتيب فهو: (ليثيوم). يوجد في نواة ذرة الليثيوم ٣ بروتونات ومعها ٤ نيوترونات، وتدور في الأطراف حول النواة ٣ الكترونات: الكترون واحد على المحيط تماماً واثنان منها على محيط دائرة أخرى من الداخل بالقرب من المحيط الأصلي.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ، وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ {٦١}

وهناك عنصر آخر يسمّى بد(نثون). فإن في ذرّتها (١٠) الكترونات، يدور إثنان منها على محيط دائرة قريبة من المحيط الأصلي وتدور (٨) الكترونات على المحيط الأصلي تماماً. وإن الدائرتين متقاربتان. ومتحدتا المركز.



شكل (٣) ذرة الكالسيوم

شكل مبسط لذرة الكالسيوم، (٢٠) الكترونات

تدور في دوائر مختلفة بنظام خاص حول النواة (المركز)

وإذا أردتم أن تتصوّروا ذرّة الكالسيوم فارسموا أربع دوائر متّحدة المركز. وضعوا: إلكترونين في نقطتين متقابلتين على الدائرة الأولى من الداخل وضعوا على كل من الدائرتين الثانية والثالثة (من الداخل إلى الخارج) ٨ الكترونات في نقاط متقابلة أي (طرفي القطر)، وضعوا في الدائرة الرابعة (وهي محيط الذرّة الخارجي) إلكترونين في نقطتين متقابلتين، وهذه الألكترونات تدور حول البروتونات بسرعة هائلة ونظام بديع كما أمرها الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَنزُ﴾ [الأعراف: الآية ٥٤].

وأما ذرّة: (الأورانيوم) أو (يورانيوم) فيوجد في نواتها: (٩٢) بروتوناً ومن (١٣٦) إلى (١٤٧) نيوترونات تصاحب البروتونات فيها. ويوجد (ذرياً): ١٢ نوعاً من الأورانيوم يُشبه بعضها البعض، ولها تقريباً نفس الخاصيّة. وفي نواة كل من هذه الأنواع (وهي ١٢ نوعاً) يوجد ٩٢ بروتوناً ولكنها تختلف من حيث عدد النيوترونات. وتسمّى هذه الأنواع من العناصر المتشابهة: (النظائر Isotope) أو (المماكنات).

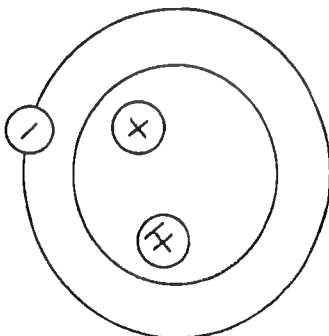
والنظائر هي العناصر التي تتساوى ذرّاتها من حيث عدد البروتونات وعدد

الالكترونات ولكنها تختلف قليلاً في عدد النيوترونات التي في نواها . وفي الحقيقة هي عنصر واحد . وهذا الاختلاف في عدد النيوترونات لعنصر واحد يؤدي إلى اختلاف في أوزانها الذرية .

وإذا جمعنا عدد النيوترونات مع البروتونات فالمجموع يعطينا العدد الكتلي (Mass Number) أو الوزن الذري . كما أن الفرق بين الوزن الذري والعدد الذري يساوي عدد النيوترونات .

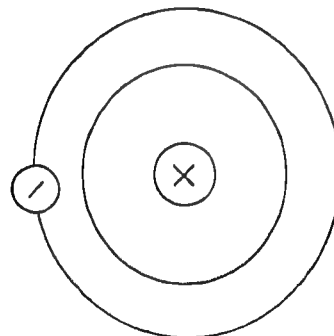
وأن النظائر أو التوائم أو المتشابهات الخاصة بعنصر معين لها جميعاً نفس التفاعلات والخواص الكيميائية . وبما أنه ما يحدد هذه الخواص الكيميائية هو عدد الالكترونات الخارجية وبالتالي عدد البروتونات التي في النواة ، وعلى ذلك ، فالنظائر الخاصة بعنصر ما لها عدد ذري واحد ، وإنما تختلف في أوزانها الذرية أي تختلف باختلاف عدد النيوترونات فيها . والوزن الذري = عدد البروتونات + عدد النيوترونات . . إذن فالنظائر لعنصر ما كالأيدروجين مثلاً هي ذرات نفس العنصر تختلف بعضها عن بعض بسبب اختلاف عدد النيوترونات الداخلة في نواة كل ذرة أو توأم أو نظير من النظائر المختلفة الخاصة بذلك العنصر .

وقد علم أنه يوجد ٣ نظائر للأيدروجين و ٣ نظائر للفسفور و ٥ نظائر للكبريت و ٦ نظائر للكالسيوم ويمكن توضيح النظائر الثلاثة الخاصة بالإيدروجين بالأشكال (٤ ، ٥ ، ٦) :



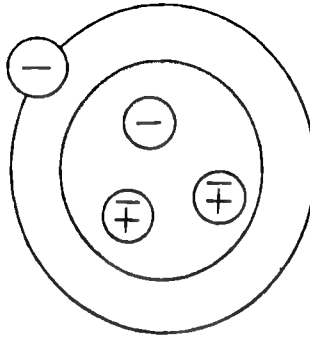
شكل (٥)

الأيدروجين الثقيل Deuterium



شكل (٤)

الأيدروجين Hydrogen



شكل (٦)

الأيدروجين الثلاثي Tritium

إن هذه النظائر الثلاثة تشترك جميعاً في شيء واحد وهو: أن فيها جميعاً إلكترونات واحدة في مدارها الخارجي، وكذا بروتوناً واحداً في نواتها، أي أنها جميعاً لها عدد ذري واحد. بينما نرى أنها تحتوي على عدد مختلف من النيوترونات في النواة.

فالإيدروجين العادي لا يحتوي على نيوترونات إطلاقاً؛ بينما يحتوي الإيدروجين الثقيل (Deuterium) على نيوترون واحد إلى جانب البروتون. ويحتوي الإيدروجين الثلاثي (Tritium) على نيوترونين. وهكذا نرى أن هذه النظائر الثلاثة لها عدد ذري واحد هو الواحد الصحيح. بينما نرى أن لها ثلاثة أوزان ذرية مختلفة. فالإيدروجين العادي وزنه الذري = ١ والإيدروجين الثقيل وزنه الذري = ٢، وعند اتحاد الإيدروجين الثقيل بالأكسجين نحصل على ما يعرف الآن باسم الماء الثقيل.

وعند اكتشاف الإيدروجين الثلاثي (Tritium) وجد أنه أثقل فعلاً من كل من الإيدروجين العادي والثقيل لأن وزنه الذري = ٣ تلك هي النظائر العادية.

وأما النظائر المشعة هي تلك النظائر الخاصة بالعنصر الواحد، والتي لها نشاط إشعاعي، وهنا نسأل ما هو النشاط الإشعاعي؟

يعرف النشاط الإشعاعي بأنه نشاط ينتج عن اضطراب نواة الذرة نتيجة اختلاف نسبة ما فيها من (النيوترونات) إلى (البروتونات) عن (النسبة اللازمة) لاستقرار نواة الذرة. وذلك كأن تواجه النواة بإدخال بعض البروتونات أو النيوترونات إليها. وبديهي

أن مثل هذا العمل يودّي إلى اختلاف (نسبة النيوترونات إلى البروتونات) عن الحد اللازم لاستقرار النواة، ولهذا السبب تضطرّ النواة إلى محاولة إصدار نوع أو آخر من الإشعاعات المختلفة حتى تصل إلى حالة الاستقرار.

وقد وجد في الهواء الجوّي أن غاز (النتروجين) مكوّن معظمه من ذرّات وزنها الذريّ ١٤ مخلوطة بقدر ٣ في الألف من ذرّات وزنها الذري ١٥. والأوكسجين في الجو كذلك معظمه مكوّن من ذرّات وزنها ١٦ مخلوطة بذرّات بقدر ٣ في كل ١٠٠٠٠ منها وزنها الذريّ ١٧.

وإن الجدول الآتي يوضّح لنا تركيب ذرّات بعض العناصر:

تركّب ذرّة الهليوم من:

(٢) بروتون موجبة + ٢ نيوترون متعادلة) + ٢ إلكترون سالبة.

تركّب ذرّة الليثيوم من:

(٣) بروتون موجبة + ٣ نيوترون متعادلة) + ٣ إلكترون سالبة.

تركّب ذرّة الكربون من:

(٦) بروتون موجبة + ٦ نيوترون متعادلة) + ٦ إلكترون سالبة.

تركّب ذرّة النتروجين من:

(٧) بروتون موجبة + ٧ نيوترون متعادلة) + ٧ إلكترون سالبة.

تركّب ذرّة الأكسجين من:

(٨) بروتون موجبة + ٨ نيوترون متعادلة) + ٨ إلكترون سالبة.

تركّب ذرّة اليورانيوم من:

(٩٢) بروتون موجبة + ١٤٦ نيوترون متعادلة) + ٩٢ إلكترون سالبة.

وقد دلّت التقديرات العمليّة على أن وزن الذرّة يساوي تقريباً وزن نواتها^(١).

وإن القنبلة الذريّة هي نتيجة انفجار نواة نوع واحد من ذرّة (اليورانيوم) تدعى:

(يورانيوم ٢٣٥). ففي نواتها يوجد: ٩٢ بروتوناً و١٤٣ نيوترونًا. فلا تصنع من بقيّة

(١) في نهاية الكتاب جدول يبيّن أسماء العناصر المكتشفة مع أوزانها الذريّة.

أنواع اليورانيوم القنبلة الذرية. فيكون الوزن الذري: $235. = 143 + 92$

فتحطيم الذرة (أو التفاعلات النووية) هو عبارة عن تفاعلات بين جسيمات نواها، وتغيير في أوضاع الإلكترونات حولها تنشأ عنها نوى ذات عناصر جديدة يحيط بكل منها العدد اللازم من الإلكترونات.

ومن الواضح أن التفاعلات العادية بين العناصر كالأكسجين والهيدروجين في تكوين الماء مثلاً تحدث بين ذرات كاملة من الأكسجين وذرات كاملة من الهيدروجين (مثلاً) في حالة تعادل دون حدوث تغيير في نواها. أي لا يحدث حين تكون الماء من الغازين (الأكسجين والهيدروجين) أي تغيير في نواة ذرة الأكسجين وذرة الهيدروجين. ذلك لأن تفاعل ذرات الأكسجين والهيدروجين المتعادلة لتكوين الماء عبارة عن اتحاد ذرة كاملة من الأول بذرتين كاملتين من الثاني. ويعززون مثل هذه التفاعلات إلى حدوث انتقال بعض الإلكترونات في المحيط الخارجي للذرات العناصر المتفاعلة من بعضها إلى بعض، فيُصبح بهذا الانتقال بعضها موجب التكهرب وبعضها سالب التكهرب فيحدث الاتحاد بينهما تحت تأثير التجاذب الكهربائي. وإن الطاقة التي تنتج من مثل هذه التفاعلات العادية تكون غالباً على صورة حرارة: تكافئ الفرق بين طاقة تماسك الإلكترونات بالنوى في الذرات قبل التفاعل وبعد التفاعل.

إلا أن التفاعلات النووية في الانحلال الذاتي أو بين نوى الذرات في أعمال التحطيم (وهو موضوعنا الذي نبحث عنه)، فيحدث عنها تغيير في (تكوين النوى) من الجسيمات التي تتركب منها وهي: (البروتونات والنيوترونات) إضافة إلى التغيير في توزيع أوضاع الإلكترونات المحيطة بها. ولذلك تكون الطاقة المنبعثة من (التفاعلات النووية) أعظم بكثير من التفاعلات العادية عند تركيب العناصر في الكيمياء وتبلغ مئات الألوف من المرات قدر الطاقة التي تنبعث من التفاعلات العادية بين الذرات والجزيئات الكاملة. ويصدر معظم هذه الطاقة من باطن الذرات على صورة إشعاع وطاقة حركية وتكون جزء من الطاقة المخزنة فيها والتي تربط جسيماتها ببعضها ببعض.

وقد قال (أينشتاين): «إن في الذرة طاقة كبيرة يمكن تسخيرها والإفادة منها. وإن

المادة صورة من صور الطاقة. وإن الغرام الواحد من المادة يتحول إلى ألف مليون مليون مليون وحدة من وحدات الطاقة: (ارگ: Erg) أو إلى ٢٥ مليون كيلو وات ساعة، أي ما ثمنه نحو ٥٥٠ ألف دينار^(١).

كانت أمنية أهل القرون الوسطى تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة كالفضة والذهب بطريق كيماوي. لكنهم أخفقوا في ذلك ولم يوفقوا رغم ما بذلوا من مساع جمة. فاستحال عليهم تحقيق ما أرادوا. فنبذوا الفكرة في القرن الثامن عشر واستبدلوا بها بفكرة ثانية في القرن التاسع عشر وهي: عدم إمكان تحويل العناصر بعضها إلى بعض.

ولكن قد حدث في عام ١٩١٩ تحطيم ذرات (النيتروجين) وتحويلها إلى ذرات الأكسجين والإيدروجين. وهكذا توالى بعد ذلك تجارب تفتيت الذرة باستخدام قذائف من جسيمات (ألفا) أي نوى الهليوم ومن جسيمات أخف ولكن أكبر أثراً منها. وهي (البروتونات) أي (نوى الإيدروجين) بعد إعطائها سرعة عظيمة. فتمكّنوا بذلك من تحطيم وتحويل ذرات عدد من العناصر بعضها إلى بعض: مثل تحويل عنصر (الإيدروجين) إلى عنصر (هليوم) وتحويل (الصوديوم) إلى (مغنسيوم) و(الليثيوم) و(البورون) إلى (هليوم). فتحقّق فعلاً أمر تحويل العناصر بعضها إلى بعض.

وممّا لا ريب فيه أن البشر لا يخلق شيئاً، فلا يتمكّن من خلق ذرة جديدة غير موجودة في الطبيعة. أي غير مخلوقة بيد الله تعالى (وأعني بقدرته تعالى). والبشر لا يقوى على إيجاد بروتون أو نيوترون من العدم دون أن يستعير من عناصر بسيطة أخرى (أي من ذراتها).

وإن أبسط الأفكار ليعترف أن العناصر وما في ذراتها من ترتيب دقيق وتوزيع البروتونات والنيوترونات وحركة الإلكترونات الدقيقة الهائلة حولها لم توجد من تلقاء نفسها، ذلك لأنه بيان شامخ قد روعي فيه تمام الحكمة وكمال التدبير^(١).

(١) قد علم أخيراً أن سرعة الإلكترونات في ذرة الهيدروجين قد بلغت ألفي كيلو متر في الثانية. =

﴿فَلَا أَتَيْسُ بِمَا تُبْصِرُونَ، وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ ٤٦٧.

كما أن العلم ليعترف أن الحيويّة في الكائنات الحيّة لم تكن نتيجة ترتيب مادي بين المواد وإنما جاءتها من الخارج بأمر من الله تعالى .

فليس للبشر أن يخلق بروتوناً أو إلكترونات، إلا أنه يستعيرهما من بعض العناصر ويدخلهما في عنصر آخر لتحويل بعض العناصر إلى عناصر أخرى موجودة قبلاً في الطبيعة (الكون) . وهذا ما يسمونه بتحويل العناصر : (Transmutation) .

وزيادة في التوضيح نقول إذا رمزنا بعدد من البروتونات في نواة ذرّة الرصاص مثلاً بـ(پ) ورمزنا بعدد من النيوترونات في تلك الذرّة أي ذرّة ذلك العنصر بحرف (ن)، فسيكون دستور النواة :

پ + ن

فإذا أردنا أن نزيد في عدد البروتونات من (پ) إلى (پ + ١)، شريطة أن يبقى عدد الإلكترونات ثابتاً، لزم أن ندخل نواة الإيدروجين في نواة الرصاص . ولتحقيق هذه الغاية يجب أن نوجّه بروتونات سريعة السير جداً نحو نواة الرصاص كي يدخل بروتون واحد (بطريق الصدفة) في نواة الرصاص، وعند ذلك يكون عدد بروتونات ذرّة الرصاص (پ + ١) .

وبهذه الطريقة نتمكن من أن نصنع من الرصاص ذهباً . وأن نصنع من الزئبق ذهباً . ذلك لأن هذين العنصرين : (الرصاص والزئبق) قريبان من عنصر الذهب من حيث عدد البروتونات . ولكن يجب أن لا ننسى أن علينا أن نصرف ١٠٠٠ غرام من الرصاص للحصول على غرام واحد من الذهب بطريقة تحويل العناصر . وهذا ما لا يجوزه الاقتصاد . فعلم مما سبق أن الذرّة ليست بجزء لا يتجزأ على ما كان يعتقد البعض، لأنها تتحلل إلى قسيمات أخرى أقوى وهي عالم برأسها لها قوانينها وخواصها، وهي ليست بمادة كما يزعم المادي . وبذلك قد فندت نظريّة (دالتون) . وكم من نظريات ماديّة سخيفة فُندت بعد كشف بعض حقائق الذرّة . إلا أن المادي (الشيوعي) مع الأسف

= وهذا في ما يعرفه العلم والعلماء أقصى سرعة أمكن أو يمكن معرفتها على وجه الأرض .

يتحكّم على العلم والعلماء بدكتاتوريته . فيقتل العلماء ويبيدهم إن لم يوافقوه في هذيانه في عصر حرّية الأفكار وفي عصر الانطلاق الفكري .

وكذلك قُنّدت نظرية (تومسون : Thomson) التي كانت تقول : إن الذرة مملوءة مصمتة وإن الإلكترونات موضوعة على البروتونات ملتصقة بها كذباب على ظهر فيل ، فعلم أخيراً أنّ الذرة خالية فارغة وفيها فضاء واسع رحيب .

وعلم أن أصل الموجودات على وجه الأرض شيء واحد . إنما هو البروتونات التي تشكّل نواة الذرة . والبروتونات هذه هي عينها من حيث الخواص والماهية في ذرات جميع العناصر ، وليس هناك أي اختلاف بين بروتون ذرة عنصر و بروتون ذرة عنصر آخر . خلافاً لما يتقوله المادّيون من نظرية التبدّل والتغيّر .

وإن عملية تبديل العناصر وتحويل بعضها إلى بعض (Transmutation) تثبت لنا هذه الحقيقة . كما أنه لا فرق بين إلكترون ذرة راديوم وإلكترون ذرة الحديد منذ ملايين السنين ولم يحدث أي تغيّر وأي تبدّل خلافاً لما يهذبه المادي الخيالي البعيد عن العلم الصحيح . وهل هناك وئام بين الديكتاتورية والعلم ؟!

فلو كان هذا (التغيّر) الذي يقول به المادي صحيحاً لوجب أن تتبدّل ذرات الإيدروجين كلّها إلى (هليوم) وأن تتبدّل ذرات (الهليوم) إلى (ليثيوم) وهكذا حتى يصل الدور إلى (اليورانيوم) ، فلا نرى في عالمنا اليوم عنصراً عدا عنصر (اليورانيوم) مثلاً ! ولكننا نرى أن العناصر كلها موجودة إلى يومنا هذا . وهي من الانتظام والدقّة والترتيب بحيث يتمكن العلم من إيجاد عناصر مجهولة استناداً إلى النظام الذي أودعه الله في سلسلة العناصر ، كما أنّ الأميبا (الكائن الحي ذا الخليّة الواحدة) لا يزال موجوداً على وجه الأرض مع وجود حشرات وحيوانات وإنسان لها من الأعضاء والتشكيلات الداخلية وقوانين دقيقة ومعادلات ما لم يصل إليه العلم الحديث إلا قليلاً : ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّ مِنْ بَعْدِيهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان : الآية ٢٧] .

قلنا إن النظام الذي أودعه الله في تسلسل ذرات العناصر المختلفة كان سبباً

﴿فَلَا أَتَسَمُّ بِمَا تُبْصِرُونَ، وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ ٤٦٩.

لكشف عناصر مجهولة، كما أن دستور (نيوتن) في الجاذبية بين الأجسام كان سبباً
لكشف كوكبين مجهولين (نبتون) و(بلوتو). ذلك لأننا نتمكّن من أن نحسب حسب هذا

$$\text{الدستور: } ق - ط \times \frac{ك}{م}$$

قوة الجذب بين الأجرام ومواضع هذه الأجرام ومداراتها، ولا بأس بتوضيح هذا

الدستور:

ك تشير إلى مقدار كتلة نجمة في الفضاء (غرام - كتلة)

ك تشير إلى مقدار كتلة نجمة أخرى في الفضاء (غرام - كتلة)

م تشير إلى المسافة بين النجمتين (بالساعات) (بالساعات)

ط النسبة الثابتة وهي $\frac{1}{10,000,000,000}$ من ثقل الغرام تقريباً.

إذن، قوة الجذب بين نجمتين في الفضاء أو كتلتين، تساوي حاصل ضرب

كتلتهما في النسبة الثابتة مقسوماً على مربع المسافة بينهما.

واضح أن دقائق النواة في الذرة (أي البروتونات) التي شحنتها موجبة يجب أن

تتبع بعضها عن بعض لاتحاد نوع الكهربائية، ذلك لأن شحنتها موجبة، مع ذلك،

فإن الله تعالى قد جهّزها بطاقة فائقة تتغلّب على الخاصية الكهربائية المودعة في الطبيعة

بإذن الله: وهي (تباعده كهربائيتين من نوع واحد بعضها عن بعض). وإن هذه الطاقة

التي جهّزت بها نواة الذرة لا يمكن أن تعزى إلى الطبيعة، لأن من شأن الطبيعة أن

تُباعد بين كهربائيتين من نوع واحد، أي بين البروتونات لأن شحنتها موجبة. فالله هو

الذي قد أودع في النواة هذه الطاقة الهائلة لتقريب البروتونات وجعلها كتلة واحدة،

وهي إذا تحرّرت بوسائل شتى (بتحطيم الذرة) هدّمت ما حوالها فلا تبقى ولا تذر.

قد وفق «آينشتاين» لحساب هذه الطاقة الهائلة في بُنية النواة في الذرة وعلم أنها

تساوي: مربع سرعة الضوء مضروباً في كتلة المادة. فإذا فرضنا الطاقة = ط، وكتلة

اليورانيوم مثلاً = ك، وسرعة الضوء = س.

فالطاقة المتحرّرة أو المودعة في كتلة ك تساوي

ط = ك × س^٢.

إذن في نواة الذرة يد غيبية تعاكس متطلّبات الطبيعة وتفند ما يتخيّله المادي الجاهل من نظرية (التغيّر المستمر)، حيث (على ما يعتقد) لا نظام ولا ترتيب.

ومن جملة ما لا يرى بالعين من (ما لا تبصرون) المارد الذري الذي كان يهرب العلماء منذ ٢٥ سنة، فقد أعلنت الجهات العلمية في ٢٠ تشرين الأول ١٩٥٥، أن الدكتور (ايرنست لورنس) قد توصّل إلى اكتشاف المارد الذري، هذا المارد الذي كانوا يشعرون بوجوده ولا يرونه، وهو جزيء ذري يسمّى (البروتون السالب). ويستطيع إفناء المادة من جميع أشكالها افناءً تاماً. خلافاً لما كان يقوله (لا وازيه): إن المادة لا تفنى! وكم من نظريات كان يُنظر إليها كحقائق ثابتة لا تقبل النقاش ولا التبدّل، فذهبت أدراج الرياح. فهل بعد هذا يجوز أن يجعل العلم معبوداً يُعبد ويستغنى الفرد في سيره التكاملي عن رسالة السماء؟. ليست القضية قضية علم ونظريات. إنها قضية نفوس. فإن النفوس لو تردّت وتسافلت ومرضت لا تدعن إلا بما تحقّق شهواتها فتبرّر موقفها منذرّة بالعلم! هذا العلم الذي تفند معطياته من وقت إلى وقت ويعوّض عنها بمعطيات ونظريات أخرى وهكذا دواليك!

نعم، لقد وقف العلم الحديث على إفناء المادة افناءً تاماً بالبروتون السالب. وهو موجود في طبقات الجو العليا. وإن عمره لقصير جداً، فلا يزيد على $\frac{1}{1,000,000,000}$ من الثانية^(١).

فتسليط البروتون السالب على الذرة يفني البروتون الموجب وإن هذه العملية (عملية الإفناء) تحرر $\frac{9.9}{100}$ من الطاقة الموجودة في الذرة.

وقد علم أن (البروتون السالب). منطلق في الفضاء حول الكرة الأرضية، ومن شأنه إفناء جميع أنواع المادة التي تصطدم بها. ومن الصعوبة السيطرة على هذا البروتون السالب. فإذا تمكّن العلم من ذلك، فيكون إذ ذاك بالإمكان: توليد طاقة من رطل واحد

(١) واحد من ألف مليون جزء من الثانية.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ، وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ ٤٧١

من آية مادة ذرية باصطدامها بالبروتون السالب تساوي الطاقة المتولدة من مليون ونصف مليون طن من الفحم. فيمكن إذ ذاك إفناء العالم بقنبلة زنتها عشرة أرتال فقط.

فالله تبارك وتعالى حفظ الكرة الأرضية من أن تصطدم بالمارد الذري (البروتون السالب) المنتشر فوقنا في الفضاء، وذلك بجعله: «السماء سقفاً محفوظاً» بقدرته. وهو القائل: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٣٢]. ﴿وَكَأَن يَنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: الآية ١٠٥].

إن (البروتون السالب) أو المارد الذري هو (البروتون) المضاد للبروتون الذي نعرفه في أرضنا هذه والتي تتكوّن منها الذرات، فالعناصر، فالأجسام. كما أنه اكتشف أخيراً (الإلكترون الموجب) وهو الإلكترون المضاد للإلكترون الذي نعرفه وقد تكلمنا عنه في بحث الذرة. ففي الوجود نوعان مختلفان من المادة بنى منهما النجوم والشموس والكواكب وسائر الأجسام. وإذا حدث أن التقى نوع منهما بالآخر أو تصادم معه تحدث عمليات إفناء ذرية تختفي معها معالم المادة من الوجود، بينما تنطلق طاقات هائلة منها: تلك التي استخدمت في الأصل في ربط جسيمات: نويات وذرات تلك المواد^(١).

ولنرمز للنوع الأول من المادة ذات البروتونات الموجبة والإلكترونات السالبة بالحرف (م) مثلاً، ولنرمز للنوع الثاني من المادة المضادة للأولى. أي ذات البروتونات السالبة والإلكترونات الموجبة بالحرف (س). فعندما يتصادم (بروتون موجب) مع (بروتون سالب)، أو عندما يتصادم (إلكترون سالب) مع (إلكترون موجب) يعدم أحدهما الآخر من عالم الوجود، بينما تنطلق الطاقة الكلية حسب الدستور الآتي:

الطاقة المنطلقة = الكتلة المادية المختفية × مربع سرعة الضوء.

وهكذا نرى أنه عندما تدخل ذرة من نوع المادة (م) إلى عالم المادة (س) أو بالعكس تفني الإلكترونات أولاً، ثم تفني البروتونات.

(١) يؤدي تحطيم بعض الذرات إلى تحرير نيوترونات ذات سرعة كبيرة وإن النيوترونات المتحررة حين التحطيم النووي تستطيع تحطيم ذرات أخرى. فينتج من هذا تفاعل متسلسل مستمر.

ويظهر مما ذكر أن الزوجية متأصلة بأمر الله تعالى في أصغر موجود في هذا الكون وهو الذرة، ففيها إلكترون (كهربائية سالبة) وبروتون (كهربائية موجبة). حتى أن المادة نفسها على نوعين أي أن الزوجية متأصلة فيها: فالبعض منها إلكترونها سالب وبروتونها موجب، كما في العناصر المكتشفة لحد الآن وعددها: (١٠٢)، تبدأ بالإيدروجين وتنتهي بـ(نوبليوم). والبعض الآخر إلكترونها موجب، وبروتونها سالب. ثم إن الزوجية متأصلة في النبات، (ففي الزهرة عضو الأنثى وعضو الذكر)، ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ﴾ [الحجر: الآية ٢٢]. وتشاهد الزوجية في الحيوان وفي الإنسان، حتى في النجوم! فإن بعضها تدور حول البعض الآخر بعلقة الجاذبية، كاجذاب الذكر للأنثى أو بالعكس. وهكذا نرى أن الآية: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: الآية ٤٩] تتجلى بعد ١٤ قرناً تقريباً، وكذلك قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: الآية ٣٦]. وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرؤم: الآية ٢١]. حتى أنه تعالى جعل عدد تردد صوت المرأة (٢٢٠) في الثانية وعدد تردد صوت الرجل (١١٠) في الثانية، ليكون صوت المرأة أرفع وأجمل من صوت الرجل حصولاً للانجذاب الزوجي، وتحقيقاً للزوجية في هذا الكون، لتكون الوحدة له تعالى لا يشاركه فيها شيء من مخلوقاته حتى الجماد: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذَرُوكُمْ﴾^(١) فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية ١١]. وما نحن نسأل المادّي، هل وجد (الإلكترون) قبلاً ثم خلق لنفسه بروتوناً أم بالعكس. وأين انعقد مؤتمر تنظيم العناصر والقانون الدوري والمعادلات التي تربط جسيمات الذرة بعضها ببعض وتتحكّم فيها؟ ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِنَّ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: الآية ٤٦].

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ، وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ ٤٧٣

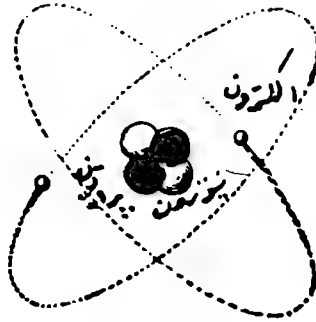
ويُرى أن العالم، مع هذا التقدم العلمي في عوالم المادّة والذرّة والطاقة ومطابقة ذلك مع ما جاء في كلام الله المجيد قبل أربعة عشر قرناً، يتقرّب يوماً بعد يوم من الإسلام. ويأتي قريباً ذلك اليوم الذي يسود فيه الإسلام في العالم كله كما تنبأ (برناردشو) قبل بضع سنين، لو تخلّى عن بغيه وطيشه ومجونه، رغم جهود عناصر الغي والضلال في الشرق والغرب لا سيّما الصهيونيّة الكافرة! ﴿الَّذِينَ مَنَّالَ عَلَيْهِمُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: الآية ١٠٤]. لذلك يقول: (تشارلس ستانيمتز) وهو من أعظم العلماء، حين يُسأل عن نوع البحث الذي سيحظى بأعظم تقدّم في النهاية: إنه يقول: «سيحدث أعظم الاكتشافات في النواحي الروحية. فسوف يأتي اليوم الذي يعلم فيه الناس أن الأشياء الماديّة لا تجلب السعادة وإنها قليلة النفع في جعل الرجال والنساء أقوياء قادرين على الإبداع. وعندئذ سوف يحول علماء الدنيا معاملهم إلى دراسة الله والصلاة. وعندما يأتي هذا اليوم يشاهد العالم في جيل واحد من التقدّم أكثر مما شاهده في الأجيال الأربعة السابقة».

انظروا ماذا يقول الكاتب (هراس ليف) عن الإسلام. إنه يقول: «ما كان شيء في العالم يقنعني بأن أي دين من الأديان يدعو إلى المساواة بين الناس، ولو أن بعضها يتظاهر بهذه الدعوة. فقد زرت كثيراً من الكنائس والمعابد، فرأيت التفريق بين الطبقات داخل المعابد كما هو خارجها. وكان اعتقادي بالطبع أن الأمر لابدّ كذلك داخل المساجد الإسلاميّة. ولكن ما كان أشدّ دهشتي حينما رأيت الشعور بالمساواة على أتمّه بين المسلمين في عيد الفطر في مسجد (ووكنج) بلندن. وجدت أجناساً مختلطين على اختلافهم في المراتب اختلاطاً لك أن تسميه بحقّ أخوياً. ولم أكن شاهدت مثل ذلك. ترى في المسجد (نوبياً) من بلاد (مباسا) يصافح عظيمًا من رجال الأعمال في مصر أو سياسياً من بلاد العرب، وقد ارتفعت الكلفة بين الجميع. فلا يأنف أحدهم مهما عظم قدره من أن يجاوره في الصلاة أقل الناس شأنًا. وإنك لا تجد أقل محاولة لتخطي الصفوف إلى مكان ممتاز بالمسجد. لأنه ليس هناك أي مكان ممتاز. فالكل عند الله سواء. لا فضل لأحد على سواه. وعندما صرّح لي إمام

المسجد بأن المسلمين يعتقدون رسالة جميع الأنبياء ويؤمنون بما أنزل إليهم كدت لا أصدق أذني. وكان هذا جديداً استفدته عن الإسلام. لذلك لم أعد أشك في أن هذا الدين يصلح لأن يكون ديناً عالمياً.

فلابد للمسلمين من تضحية مخلصه ولا بد للدعاة من التجهز بأسلحة القرن العشرين من أساليب الدعوة والإرشاد ومن معطيات العلم الحديث والتزود بالتقوى إلى أبعد حد. والتجرد عن كل نزعة عدا الإسلام. فإن فاقده الشيء لا يعطيه، إنه تعالى يقول:

﴿وَتَكَرَّزُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ الْقُتُوبَ وَأَتَّقُوا يَتَأُولَىٰ آلَ لَيْسَ﴾ [البقرة: الآية ١٩٧].



شكل : ٧. أحدث شكل لذرة الهليوم، إلكترونات في الأطراف يدوران حول النواة وفيها بروتونان ونيوترونان.

قلنا إن من جملة ما لا يمكن إبصاره حتى بالآلات الدقيقة هو (الذرة)^(١). ومع ذلك كله، فإن العلم الحديث قد استخدم ما كان يعرفه من: قوانين الكتلة والطاقة في استنباط صفاتها وتركيبها وخواصها مع كونها غير منظورة. ولقد أيدت القنبلة الذرية الأولى ما كشفت من قوانين ونظريات حول تركيب الذرة غير المنظورة ووظائفها.

إن العلم الحديث قد استدل على تلك الظواهر التي تتعلق بالذرة بآثارها وهي من ﴿وَمَا لَا بُشِيرُونَ﴾ [الحاقة: الآية ٣٩] معتمداً في ذلك على الاستدلال المنطقي الصرف

(١) حجم الذرة بالنسبة إلى تفاحة كحجم التفاحة بالنسبة إلى الأرض. وحجم كل من البروتون أو النيوترون أو الإلكترون بالنسبة إلى الذرة كلها كحجم حبة من العدس بالنسبة إلى الهرم الكبير.

﴿فَلَا تُفْسِدُوا بِنَافِثَاتٍ فِيمَا تُبْصِرُونَ، وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ ٤٧٥.

وعلى ما كان معلوماً من حقائق أوليّة بسيطة تتعلق بهذه الظواهر والأشياء .

فحري بالمادي الذي يعترف بالذرة ويستخدمها في حقول شتى ويستدل بالآثار على وجودها ووجود الإلكترونات فيها وهو لم ير شيئاً منها حتى بالآلات، أن يتبع نفس الطريقة في الاستدلال على وجود الله تبارك وتعالى وأن لا يقول: لا سبيل إلى الاعتقاد بغير المنظور... مع العلم أن غير المنظور في هذا الكون المادي أشد تأثيراً وفعاليّة من المنظور: كالكهرباء والمغناطيسيّة وأمواج (هرتز) إلى ما هنالك. فالعالم المادي كله قوى كهربائيّة ومغناطيسيّة وجاذبيّة، وكل أولئك من النوع غير المنظور.

وما أعظم قول الله تعالى حين يقول: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِنَّ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: الآية ٤٦] .

ويقول تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: الآيتان ٢٠/٢١] . فلا يستفيد من هذه الآيات التي أودعها الله أرضه وسماؤه إلا من كان له شيء من الإيمان. فإن حب الله ومعرفة الله أعلى وأسمى من أن يحل نفوساً مدلهمة، ظلماء بذنوبها وآثامها ومجونها وبغيها .

وهكذا يقول جلّ من قائل: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُقْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: الآية ١٠١] . فلا بدّ من إيمان (ولو كان هذا الإيمان ضعيفاً جداً)، كي يعتبر الفرد بما أودع الله من نظم وقوانين في أرضه وسماؤه. ولكن المادي، لظلمات في نفسه، لا يؤمن إلا بما تمليه عليه نفسه المتساقطة المريضة، ومهما سمي ذلك فلسفة! أو نظريّة علميّة دياكتيكيّة فهو مرض ولوث ورجس، بعد تفنيد العلم الصحيح كل ذلك. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: الآية ١٢٥] .

فلا دين على وجه الأرض منذ خلق الله تعالى الأحياء عليها، إلا الإسلام. بحكم العقل وبحكم العلم الصحيح وبنصوص من الكتاب. لا الظنون والأهواء ونظريات تجرح بعد زمن يسير. لذلك يقول تعالى:

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ

يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ [آل عمران: الآية ٨٣] . ومن معاني الإسلام هنا : أن ليس ما في السماوات والأرض شيء غير محتاج في وجوده وبقائه وفناؤه إلى قدرة الله وإلى قول الله تعالى : (كن) وإلى مشيئة الله واردة الله : ﴿نَسِجُ لَهُ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضَ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْجُ بِحِجِّهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْيِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: الآية ٤٤] .

فما من شيء في الكون إلا وهو ينادي ، لما فيه من نظام وجمال وكمال ، بعظمة الله تعالى ، يسبحه ويقدسه . أليست هذه القوة : قوة الجذب بين الكرات . هذه القوة التي يجهل حقيقتها العلم الحديث ، تدل على أن الكون يسير بإرادة الله تبارك وتعالى مشيئته ؟ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: الآية ٤١] ^(١) .

وما أعظم ما جاء في دعاء علمه أمير المؤمنين علي عليه السلام كميلاً حين يقول : «اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء» . . . (إلى أن يقول) «وبعظمتك التي ملأت كل شيء» ، وبسلطانك الذي علا كل شيء ، وبوجهك الباقي بعد فناء كل شيء ، وبأسمائك التي ملأت أركان كل شيء ، وبعلمك الذي أحاط بكل شيء ، وبنور وجهك الذي أضاء له كل شيء ، يا نور ، يا قدوس ، يا أوّل الأولين ويا آخر الآخرين» ^(٢) .

حقاً : إن من يتتبع العلوم الحاضرة وما اكتشف من حقائق وعوالم ونظم ودراسات وخواص لا تعد ، يعلم أن ما جاء في الدعاء المتقدم يفسر تماماً حالة الأجسام اعتباراً من الذرة إلى السماوات العلى ، فكل شيء (لو حلل تحليلاً نهائياً) يضيء بنور الله ويقدس الله تعالى وينزهه من كل نقص ، وينادي بصوت رفيع : أن لا إله إلا الله العلي القدير : خالق الطاقات ومرتبها ترتيباً حكيماً حتى كانت هذه الذرات وتلك العناصر بهذا النظام الخارق الدقيق : ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ ﴿٨﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالشَّهَادَةُ الْكَبِيرُ أَلْتَمَعَالِ ﴿٩﴾ [الرعد: الآيتان ٩/٨] ، وهكذا السماوات ، فالمجرات ، فالأرضون ، فالنباتات ، فالحوانات ، فالإنسان . . وأما كيفية خلق الله تعالى الملائكة والإنسان

(١) إن أمسكهما : أي ما أمسكهما .

(٢) راجع كتاب مفاتيح الجنان ، دعاء كميل .

﴿قُلْ أَنتُمْ بِمَا تُبْصِرُونَ، وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ ٤٧٧

والسما والارض، فذلك ما نجهله. إذ يبدو التطلع على ذلك مستحيلًا على حد قوله تعالى: ﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ﴾ [الكهف: الآية ٥١].

تدبروا هذا الدعاء وهو دعاء لطلب العافية، علّمه النبي ﷺ علياً عليه السلام، لتروا كيف أن كل ما في الكون يسبح الله وينزهه عن كل نقص:

«اللهم إني أسألك بأنك سبوح، قدّوس، يسبحك سواذ الليل وضوء النهار وشعاع الشمس ودويّ الماء وحفيف الشجر ونجوم السماء وثرى الأرض وأمواج البحار وصخور الجبال ودوابّ البحر.

أسألك يا ربّ، يا أحد يا فرد يا صمد. في السماء ميعادك وفي الأرض قضاؤك وعلى العرش استواؤك، وفي الجنة رحمتك وفي النار عذابك، والملائكة جنودك، يسبحونك ويقدّسونك ويهلّلونك الليل والنهار لا يفترون. لا إله إلا أنت الملك الجبار الحنّان المّان الديّان الرحمان، بديع السماوات والأرض ذو الجلال والإكرام.

أسألك بأسمائك الحسنى وأمثالك العليا وبرهانك العظيم وحجّتك البالغة أن تصرف عني شر ما أجد من الداء وشر ما أخاف وأحذر»^(١).

* * *

بعد أن عرفنا شيئاً عن تركيب الذرّة (Atome)، هذا التركيب الذي يحير العقول وهو أساس لجميع ما في هذا الكون المادّي من عناصر ومركبات، يجدر بنا أن نتساءل حامل الفكرة الماديّة الديالكتيكية (الماديّة العلميّة النظرية) كيف يوفّق بين حقائق الذرّة وبين نظريّته الهوجاء.

يقول (ستالين)، وهو الذي لم يدرّس شيئاً عن علم الذرّة وحقائقها وإنّ ذكاءه المحدود كان أقل من أن يمكنه من أن يتخصّص في الفيزياء الرياضيّة العالية أو الميكانيك الرياضي أو الميكانيك السماوي (Mécanique Céleste) إنه يقول^(٢): «إن الديالكتيك معناه دراسة التضاد في ماهيّة الأشياء. وإن النمو إنما هو نتيجة صراع بين الأضداد» ١٩.

(١) هذا دعاء مقتطع من أدعية وداع شهر رمضان.

(٢) نقلاً عن مذكرات لينين الفلسفيّة.

ما هو هذا التضاد الذي نشاهده في الذرة وما هو هذا الصراع؟. إنما نحن نرى أن هناك التياماً وتآلفاً وتوافقاً و(تفاعلاً) بين الإلكترونات والبروتونات، تحت نظام بديع وإن الإلكترونات تدور حول البروتونات بنظام وهي مجذوبة إليها كما في المنظومة الشمسية^(١)، لا اختيار لها ولا إرادة. وإن إرادة خارجية وهي إرادة الله، جلّت عظمته، جعلت هذه الإلكترونات تدور حول النواة وأن تتوزّع على مدارات معينة بفواصل معينة، تحت حكمة فائقة، بحيث لو اختلّ النظام المودّع فيها، لما كانت في الوجود: ذرة (هليوم) أو (ليثيوم) أو حديد أو (كالسيوم) ... إلى ما هنالك.

حقاً إن (لينين) و(ستالين) لو كانا من حيث الدراسة في مستوى عالٍ، وكيف يكون السفاك محققاً وعالماً؟) لما جاء بهذه النظريات التافهة الواهية رغبة في القضاء على من لم ينتم إلى مذهبهم الرجعي، المذهب الجنوني. هذا المذهب الذي لا يقره ولا يعترف به (لو كان حراً) من له أدنى إلمام بالعلوم الحاضرة، إلا إذا كان ممّن تلوّثت نفسه بما كسبت يده من جرائم وآثام.

لذلك يقول (لورد كيلفن) وهو الفيزيائي البارِع: «إذا فكرت تفكيراً عميقاً، فإن العلوم سوف تضطّرك إلى الاعتقاد بوجود الله»^(٢).

فأنت لا ترى في حركة الإلكترونات حول البروتونات حركة عشوائية أو سلوكاً جنونياً (كسلوك المادي) دون قصد وغاية.

وقد وجد (مانداليف)^(٣) بلطف من الله تعالى منذ ١٠٠ سنة قانوناً في ترتيب العناصر، وذلك أن العناصر الكيميائية (كالإيدروجين والحديد والراديوم ... الخ) قد ربّها الله تعالى تبعاً لتزايد أوزانها الذرية ترتيباً دورياً. وإن العناصر التي تقع في قسم

(١) ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: الآية ٣].

(٢) وهو القائل: «إن كل حادثة فيزيائية لا يمكن أن يعبر عنها بدستور رياضي ليست بحادثة معروفة فيزيائياً». وهذا خير دليل على وجود الله تعالى وعظمته سبحانه.

(٣) وقد أعلن سنة ١٩٥٥م كشف العنصر ١٠١ (أي الرقم الذري: ١٠١) وسمّي تقديرًا لـ(مانداليف): واضع أسس التصنيف الدوري للعناصر: ماندالويوم (Mendelium Mv 101) أي أن في هذا العنصر ١٠١ بروتون و ١٥٥ نيوترون فيكون الوزن الذري ١٥٥ + ١٠١ = ٢٥٦.

واحد تؤلف فصيلة واحدة وتكون لها خواص متشابهة. ولذلك تمكن العلماء بفضل هذا الترتيب أن يتنبأوا بوجود عناصر لم يكن قد عُلم بها قبلاً. حتى أن العلم قد تنبأ بفضل هذا الترتيب بخواص هذه العناصر المجهولة وجاءت صفاتها مطابقة تماماً للصفات التي توقعوها مستفيدين من القانون الذي وجدوه. وهل يمكن أن يسمى ما اكتشفه (مانداليف) بالمصادفة الدورية؟ أو يحق لنا أن نسميه بـ(القانون الدوري).

وكم من قوانين ومعادلات وما أجري عليها من أعمال رياضية قد أنبأت عن حقائق جديدة وسيّبت مكتشفات حديثة، يعلم ذلك من درس الفيزياء الرياضية العالية، وما يستعمل هنالك من معادلات تفاضلية دقيقة. فهل للطبيعة العمياء، أن تسنّ آلاف القوانين وأن تنظمها تنظيمًا يحير الألباب، حتى يكون هذا العالم الذي نشاهده ونراه.

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَائِقَ ذَاتٍ بَهْجَةً مَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ (٦٠) ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسٍ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٦١) [النمل: الآيتان ٦٠/٦١].

إذا كان كما يقول: (كارل ماركس): إن الأشياء إنما وجدت نتيجة التكامل في الأضداد! فليوضح لنا كيف أن الشيء أوجد ضده، وكيف أن الرجل أوجد لنفسه أنثى. لذلك يقول (مونتني) وهو أحد فلاسفة فرنسا: «مهما يكن من شيء، فليس للرجل أن يخلق لنفسه امرأة لها عضو التناسل إبقاءً للجنس البشري. فالله تعالى هو الذي خلق المرأة كما خلق الرجل وهكذا بقيّة الحيوانات والحشرات والنباتات».

﴿وَمَنْ مَّا يَتَذَكَّرْ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢١) [الرؤم: الآية ٢١].

أنى للكهربائية السالبة: (الإلكترون) أن توجد لنفسها كهربائية موجبة، ثم تترتب ترتيباً بديعاً لا تحيد عنه ولا تتغير، منذ خلق الله الذرة، خلافاً لما يقوله المادي من (نظرية التغير) التي لا يحققها العلم الحاضر. إن هي إلا نظرية عشوائية كواضعها

﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ ﴿١٩﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ [الزخرف: الآيات ٣٦/٣٧].

نحن لا نرى أي تضاد في الذرة، فهل المرأة ضد الرجل، بل نرى في الذرة وفي كل زوجين خلقهما الله تعالى تكاملاً وتوافقاً. فلا تتم الحياة ولا تستقر ولا تستمر إلا بذكر وأنثى. ولا تتم الذرة ولا تتحقق إلا بالإلكترون والبروتون. فهذه هي الزوجية التي أودعها الله تعالى في جميع ما خلق حتى في الجمادات لتبقى الوحداية له تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿١٩﴾ [الذاريات: الآية ٤٩]. ولذلك يقول الدكتور (جورج إبرل دافيز) رئيس البحوث الذرية: «إن كل ذرة من ذرات هذا الكون تشهد بوجود الله. وإنها تدل على وجود الله حتى دون حاجة إلى الاستدلال: بأن الأشياء المادية تعجز عن خلق نفسها».

وقد علمنا أن ذرة (الإيدروجين) مركبة من إلكترون واحد يدور حول بروتون واحد. فكيف يفسر لنا المادي حدوث الهليوم: المشتغل على إلكترونين يدوران حول (بروتونين) من ذرة الإيدروجين حسب قانون التغير! أو نظرية التضاد؟! فكان يجب إذن أن تتحوّل جميع ما في الكون من إيدروجين إلى هليوم وأن لا نرى في العالم في وقت من الأوقات إلا (الهليوم). فلا يبقى على وجه الأرض (إيدروجين) فتجف البحار وتبيس الأشجار. لأن جميعها مرّبة من إيدروجين وعناصر أخرى. ثم أين التحول الذي يقول به المادي وهو: «إن التغيرات الكمية تتحوّل إلى تغيرات كمية!». وهل للمادة الصماء أن تغير نفسها حتى يحدث نتيجة لذلك عالم كله نظام وانتظام وقوانين ثابتة ومعادلات لا يصل إلى كنهها العقل البشري مهما أوتي من قوة وكمال.

ليس العلم بهذه الدرجة من الضعة حتى يتغير حسب أهواء الفلاسفة الماديين المتطقلين على العلم. وليس العلم مجرد مقترحات تكشف عن نفس متسافلة، رائدها الهدم والتخريب!

ألا يفكر هذا المادي أنه حسب نظريته المادية الديالكتيكية السخيفة يجب أن لا

﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ، وَمَا لَا تَبْصِرُونَ﴾ ٤٨١

يكون اليوم في الكون إلا عنصراً واحداً وهو (أورانيوم) مثلاً، ذلك لأن حسب (هواه) قد تكاملت العناصر كلها وفق قانون الأضداد والتغير الذي يقول به وتحولت إلى عناصر أخرى. فإذاً يجب أن لا يبقى إلا عنصر واحد وهو (الأورانيوم)!

وهكذا القول في الأحياء، حسب هذه النظرية السخيفة، يجب أن لا يبقى في الكون إلا الإنسان الذي قد تكامل من (آميبا): وهو الكائن الحي ذو الخلية الواحدة. وأن لا يكون في الوجود من الكائنات الحية غيره..

ثم كيف يفسر لنا المادي نظرية التضاد في تركيب الماء (H_2O)، ما هو هذا التضاد الذي نشاهده بين الأوكسجين والهيدروجين وما العداوة التي نشاهدها بين (الكلور) و(السوديوم) $ClNa$ في ملح الطعام وبين الكلور والهيدروجين في (آسيد كلوريديك): HCl . بل هناك تركيب علمي وتقارب وتوافق أودعها الله تعالى في جزئيات هذه الأجسام لحدوث هذا العالم.

ثم إن المادي الديالكتيكي لا يرتضي للإنسان هذا المنطق العظيم الذي وهبه الله إياه، فكان السبب بإذنه تعالى لكل ما اكتشف من علوم تدل على عظمة الخالق، هذا المنطق الذي بُنيت عليه القضايا الهندسية والرياضيات العالية والفيزياء العالية وعلم الفلك العالي والكيمياء ومكتشفات الذرة، فيسمى هذا المنطق مع الأسف: المنطق الشكلي، ثم يأتي بمنطق في غاية السخافة (منطق الهدم والردم). منطق المتناقضات ويسميه بالمنطق الديالكتيكي.

أسفاً على ما بلغ إليه العلم في القرن العشرين، علم يتحجّم فيه جبابرة طغاة بنظريات سخيفة تبريراً لموقفهم التخريبي في العقائد والنفوس.

يقول هذا المنطق السخيف: المنطق الديالكتيكي، إن الشيء يكون صحيحاً وغلطاً في نفس الوقت، ويمثلون لذلك (فرضية دالتون) في تركيب العناصر. وإن هذه النظرية فتدت لثبوت ما فيها من أخطاء وقام مقامها نظرية (روتفورد) بشأن الذرة. فالمنطق الديالكتيكي! يقول إن فرضية (دالتون) كانت صحيحة ومغلوبة في نفس الوقت. وهذا

مما يضحك الثكلى، فالدستور لا يكون صحيحاً وخطأً في نفس الوقت، ذلك لأنه لو كان خطأ كانت النتائج التي تؤخذ بتطبيق ذلك الدستور خطأ لا محالة. إن المنطق الديالكتيكي يقول إن دستور نيوتون في الجذب العام بين الكرات والأنجم: $ق = \gamma \times \frac{ك}{م^2}$ كان صحيحاً وخطأً في نفس الوقت. وفاتهم أن (أينشتين) رأى أن هذا الدستور لا يعطي النتائج الصحيحة لو طبق في مسافات بعيدة، فأدخل البعد الرابع وهو الزمان في دستور وضعه، ذلك لأنه رأى أن سرعة الأجسام دخيلة في حساب مقدار الكتلة، والسرعة يدخل فيها مفهوم الزمان. فلذلك صحح دستوراً وضعه (نيوتون) وجاء بدساتير أخرى دقيقة لا مجال إلى ذكرها. فكيف إذن يكون الشيء صحيحاً وغلطاً في نفس الوقت؟

إنما يعترف المادي بهذا المنطق الديالكتيكي السخيف، كي يثير العمّال والنّاس فيحرّك عواطفهم ويخلق منهم أعداءً يفتك بعضهم ببعض. إن رائده الفتك والبطش. إنه يعترف بهذا المنطق الواهي: إن ما يوجد من دساتير وقوانين صحيحة وخاطئة في نفس الوقت، كي يبرّر موقفه في وضع قوانين اجتماعية مغلوطة تخالف ما طبع عليه الإنسان، تخالف ما ثبت في علم النفس من غرائز وخصال، وحمل الناس جبراً على تقبلها، كل ذلك تبريراً لديكتاتورية فئة قليلة تريد أن تحقّق لنفسها شهوة الحكم والسيطرة باسم إنقاذ العمّال والفلاحين! وهم ومع الأسف في أسوأ حال، بعيدون عن الحكم كل البعد. فئة تريد سيطرة اليهود على العالم بعد سحق الفضائل والمقدّسات والدين.

يقول المادي: إن النظام الرأسمالي صحيح وخطأً في نفس الوقت، إنه يحفر قبره داخل كيانه حتى يزول فتأتي الشيوعية وهي التي تسود العالم في النهاية وتلك نهاية العالم، فلا نظام بعد ذلك. فلماذا يتوقّف هذا المنطق الفاسد: (صحيح وخطأ في نفس الوقت) عند هذا الحد؟ فلماذا لا تحفر الشيوعية قبرها بيدها داخل كيانها؟ فتزول ويسود في الأرض، بإذن الله، نظام عادل، لا رأسمالية ولا شيوعية، نظام ارتضاه الله لعباده في أرضه: وهو نظام الإسلام.

نعم، إن ما رتبته المادي من قوانين وإن سماها، لإغواء الناس، علمية، نظرية! ولكنها تخريبية، صهيونية حقاً، يريد من ورائها سحق الفضائل والمقدسات والأخذ بهذا الإنسان إلى جاهلية جهلاء وإلى أسفل السافلين.

أجل، لو تسافلت الإنسانية في بعض بلدان العالم حتى جعل الأولاد والبنات بضاعة مادية يتصرف فيها الديكتاتوريون باسم المجتمع والبروليتاريا^(١) كيفما شاؤوا وأخمدت الحريات باسم التقدم! وأمسى الفرد آلة صماء لا حرمة له ولا إرادة، وكان رائد المجتمع وبالأحرى رائد الديكتاتوريين ماديّاً بحتاً لا ينبض فيه شيء من المعنويات، والمقدسات، فعلى مثل هذا المجتمع السلام.

فلا نجاة لهذا العالم إلا باتباع الإسلام وتطبيق تعاليمه الخالدة خلود الدهر.

وإن الروح من غير المنظور، وكل منّا يعترف بالروح ولا يقوى على مشاهدتها كما يشاهد الخشبة. إلا أن وجودها أثبت وأوضح من وجود الخشبة. لتعلقها بنا تعلقاً لا يقبل الانفكاك.

فالمخ والجهاز العصبي كآلات الراديو. فكما أن آلات الراديو ليست من حقيقة الصوت الإنساني في شيء، كذلك الأقسام المادية في المخ الإنساني والجهاز العصبي، فهي ليست من الروح المجردة في شيء. فالروح التي لا ترى بعيوننا تقوم بما تقوم به من أعمال مستعينة بالمخ والمخيخ... إلخ. كما يستعين الشخص بالراديو لإيصال صوته إلى حيث يريد. فإذا أصيبت آلة الراديو بعطب لا تقوى على التقاط الصوت وكذلك المخ، وليس المخ من الروح في شيء، كما أن النفس غير المخ، فإن النفس لا تفنى بعطب يصيب بعض أجزاء المخ، كالنسيان (مثلاً).

وقد قال الفلاسفة، وكذلك الإلهيون: إن الروح جوهر مجرد عن المادة وعوارض المادة وإن اتصال الروح بالبدن هي اتصال تدبير وتصرف، أي أن الروح أو النفس تتصرف بالبدن وتقوم بتدبيره وعندما يموت الإنسان ينقطع هذا الاتصال بين الروح والبدن.

وقالوا: إن نفس الإنسان جوهر روحاني مجرد قائم بذاته، ذلك لأنَّ نفس الإنسان تعرف وتعرف أنها تعرف أيضاً وهكذا... وإنَّ المعرفة ليست من خواص الجسم. فإذاً وجب أن تكون النفس شيئاً مجرداً عن المادة. ثم قالوا: إن المادة لو انتقشت عليها صورة تبقى هذه الصورة منقوشة عليها إلى أن تنقش عليها صورة أخرى. فيحصل اضطراب من انتقاش الصورتين فيكون شكلاً غريباً، حين أن النفس ليست كذلك. تنتقش فيها أنواع المعارف والمعلومات دون أن يؤدي إلى شكل غريب أو ارتباك أو يؤدي إلى محو الصورة الأولى. فهي إذن ليست من نوع المادة، ومعلوم أن الإنسان يزداد فهماً كلما ازداد علماً.

وقد قال الماديون: إن المخ إذا أصيب بعطب تأثرت العقلية بل الأخلاق وغيرها. وجعلوا ذلك دليلاً على أن المادة هي كل شيء، ونفوا وجود الروح وهي من أوضح الواضحات. وقد فات هؤلاء أن المادة ضرورية لإظهار شيء خفي عنّا. ومثلها مثل عدة (التليفون). فإنها ضرورية لسماع صوت من يتكلم، وإذا أصيب التليفون بعطب اختلَّ الكلام ووقف. ولكن التليفون وأعني الآلة أو (المسرة) ليس منشأ الكلام مطلقاً.

ثم ألا يرى الإنسان نفسه، في حلمه (في عالم الطيف)، في أماكن بعيدة أو في بلاد أخرى نائية، وهو ملقى على فراشه، نائم في غرفته. فمن هذا الذي سافر إلى بلاد أخرى وهو مضطجع في فراشه؟ هذه هي روحه التي بين جنبيه^(١)، روحه التي يسأل عما قريب عن أفعالها وأعمالها، عن كل صغيرة وكبيرة جاءت بها في ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ [٨٨/ ٨٩] إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ [الشعراء: الآية ٨٨ / ٨٩].

إن الفسق والظلم يسدان على النفس الإنسانية أبواب الرحمة وهذا بدوره يؤدي إلى اتباع هوى النفس وما يُملي عليها شيطانها على حد قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّبِعِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَسَبَّحْتَ بِهَدْيٍ مِّنْ أَضَلِّ أَلْسِنَةٍ أَوْ مِمَّا يَنْفَرُونَ﴾ [الرُّوم: الآية ٢٩]. وليس هناك جامع بين الفسق والإيمان: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة: الآية ١٨].

(١) ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَازِلِهَا فِيمَنِّيكَ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلَ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٤٢].

فلنفس المؤمن المتقي رشحات . كما أن النفس الفاجر المفسد رشحات أيضاً . إن الله تعالى يقول : ﴿أَمْ تَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ تَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ۝﴾ [ص : الآية ٢٨] فرشحات نفس المؤمن : الإيمان بما غاب عنه عن تعليل صحيح ومنطق واضح جلي يتجلى لعقل الإنسان الفطري غير الملوّث بالآثام . ورشحات نفس الآثم الفاجر الفاسق : الركون إلى المادة العمياء والإخلاد إلى الأرض ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ^(١) وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۝﴾ [الأعراف : الآية ١٧٦] والاعتقاد بالمحيط والبيئة وعوامل أخرى ماديّة وأفكار ما وراء المادة أو الطبيعة .

وليس المنطق والدليل في هذا المقام بعد ادلهام النفس وظلماتها بالشيء الذي يزبح المادي عن غيه وطيشه . فهو مأنوس بما وصلت إليه نفسه البهيمية البعيدة عن رحمة ربها من انحراف وميول سلبية ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝﴾ [المؤمنون : الآية ٥٣] . فالضلال لا يعي ما هو عليه من ضلال : ﴿لَعَنَّاكَ إِنَّمَتَّ لَيْ سَكَرْتَهُمْ يَعْصُونَ ۝﴾ [الحجر : الآية ٧٢] ^(٢) .

وهكذا يوضح الله تعالى حال أولئك الذين نسوا تذكير الله إياهم وفرحهم واغترارهم بالنعم التي تغدق عليهم أي بهذا الاستدراج الإلهي (ونستجير بالله من ذلك) وذلك بقوله : ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ۝﴾ [الأنعام : الآية ٤٤] ^(٣) .

إنه تعالى يقول : ﴿وَلَا تَطِيعَ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ۝﴾ [الكهف : الآية ٢٨] ^(٤) . فإن قلباً كهذا بعيد عن تلقي كل ما يهدي إلى الصواب إلا إذا تاب وأتاب وتخلّى عن طيشه وغروره وأعقب أعماله السيئة بحسنات : ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّكِّرِينَ ۝﴾ [هود : الآية ١١٤] .

هذه هي فلسفة الهداية والضلال الحقّة بشكل واضح لا تعقيد فيه . إنه تعالى

(١) أخلد إلى الأرض : أي مال إليها ودام فيها واتبع ميله الشهواني .

(٢) يعمهون : يتحيرون ، عمه : تحير وضل

(٣) مبلسون : أي متحيرون ، آيسون .

(٤) فرطاً : إسرافاً ، خارجاً عن طريق الحق .

يقول: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [العائدة: الآية ١٠٨] . ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٨] . ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: الآية ٢٦٤] . ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: الآية ٥٢] . ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: الآية ٣] . ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [صافر: الآية ٢٨] . ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ [آل عمران: الآية ٦٣] .

وإن الله تعالى لا يضُرُّه كفر الكافرين وجحد الجاحدين . ذلك أنه تعالى يقول: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ^(١) عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُمْ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾^(٢) [الإسراء: الآية ١٨] . ثم يقول الله تعالى في موضع آخر من القرآن الكريم: ﴿وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ^(٣) بِالرَّحْمَنِ لِيُؤْيِيَهُمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ^(٤) عَلَيْهِمْ يَظْهَرُونَ^(٥)﴾ [٣٣] وَلِيُؤْيِيَهُمْ أَنْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهِمْ يَتَكَوَّنُ^(٦)﴾ [٣٤] وَزُخْرَفًا^(٧) وَإِنْ كُنْ لَكُمْ لَمَّا مَتَعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا^(٧) وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ^(٨)﴾ [الزخرف: الآيات ٣٣/٣٥] .

* * *

إن دين الإسلام دين تطهير ودين تزكية النفوس . فما لم تأخذ هذه النفس في التدرج في مراحل التطهير، لا تفتح لها أبواب الهداية . وكل ما جاء في الدين الإسلامي من أوامر ونواهٍ ومستحبات ومكروهات: كلُّها ترمي إلى تطهير هذه النفوس مما علَّق بها من أدران وأوساخ معنوية . وبمقدار طهارتها يحصل لها يقين بالمقدسات وبما غاب عنها من عوالم، فيراها حقائق ناصعة لا غبار عليها . فتكون البراهين مؤيدة لما يترشَّح من نفسه الطاهرة .

(١) أي الحياة العاجلة وهي الدنيا .

(٢) مدحوراً: مطروداً .

(٣) أي لولا أن يرغب الناس في الكفر إذا رأوا الكفار في سعة .

(٤) معارج: مصاعد جمع معرج .

(٥) يظهرون: يعلون إلى فوق .

(٦) زخرفاً: زينة .

(٧) ولكن كل ذلك تمتع قليل في الحياة الدنيا .

﴿قُلْ أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ، وَمَا لَا تَبْصِرُونَ﴾ ٤٨٧

إنه تعالى يقول: ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: الآية ٦] . ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: الآية ٢٢٢] . ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحْيُونَ أَنْ يَبْطَهُرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ [التوبة: الآية ١٠٨] .

فدين الإسلام دين تطهير النفوس لو عمل به وطبق تطبيقاً تاماً .

وإن أعداء الإسلام يعملون لأجل إشاعة الفواحش بأنواع الوسائل: بالصحف والمجلات بما فيها من تصاوير خلعية وكتب غرامية وأفلام سينمائية وتمثيلية شهوانية ثم بتهيئة حانات الخمر وإيجاد محلات الزنا والفجور، كي تلوث النفوس . فإذا تلوّثت لم يكن في النفس عندئذ محل يحل فيه حب الله تعالى وذكره، تحل فيه المقدّسات والفضائل . ومن ثم يأتي دور الإنكار والجحودا فترسخ أقدام المادية في النفوس وتكون المادة معبودة لها، كما كان فريق من الناس يعبدون الأصنام من ذي قبل ولحد اليوم .

وقد قرأت ما كتبه شاب في إحدى المجلات وقد بلغ من العمر ١٩ سنة: «إن أكثرية الشباب الساحقة منصرفون إلى أعمال منكرة، أعمال تقشع منها الجلود بإفراط لا مزيد عليه وبصورة غير مشروعة . إن هذا الانهماك في الفسوق لا يدع مجالاً للشباب كي يفكر في مصيره وتكميل نفسه والتوجّه نحو المقدّسات . فإن اختلاط الجنسين في شتى المجالات وغيره من عوامل شتى قد فسحا مجالاً واسعاً للإشباع الجنسي بشكل فظيع . وهذا بدوره يجعل الشاب غير مبال بالقيم الأخلاقية والفضائل والمقدّسات وبالدين بعد تلوّث نفسه بيده . فلابدّ من معالجة جذريّة تبعد الشاب عن هذه المزالق لو أريد بالشباب الهداية والكمال الخلقي وتقديس المقدّسات . فإن النصيحة وحدها لا تكفي لردع الشاب عن غوايته!» .

ومن هنا يعلم قيمة ما وضعه الإسلام من قوانين صارمة تمنع اختلاط الجنسين وما يودّي إلى التفسخ الخلقي ومن ثم إلى تلوّث النفوس واستهزائها بالمقدّسات! . ﴿ثُمَّ

كَانَ عَنِيبَةً لِّلَّذِينَ اسْتَوُوا السُّوَاعِي أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٧﴾ [الرُّوم: الآية ١٠] .

نعم، قد أخذ الماديون في أوروبا، هؤلاء الذين قد تحجّرت عقولهم بعد أن تلوّثت نفوسهم، ينكرون كل ما لا يقع تحت أبصارهم أو حواسّهم الخمس . مع العلم أن هذه الحواس ناقصة إلى حد بعيد في قابلياتها وإمكاناتها . وهي تعمل على قدر ما أودع الله فيها من كفاءات . لذلك يستعان بآلات أخرى تزيداً لقابليّة بعض الحواس من إبصار وسماع ... إلى ما هنالك . وكلما زادت حساسيّة هذه الآلات كلما تعرف الإنسان إلى أشياء كان يعتقد أنها غير موجودة من ذي قبل . حتى استعمل (ميكروسكوب إلكترونيك) حيث تكبر الجرثومة بواسطتها (٧٠٠٠٠) مرة . ولعلّ الله تعالى يوفّق في المستقبل بعض المتبّعين إلى تكبير بعض الميكروبات الصغيرة جداً إلى مليون مرّة أو أكثر . وهكذا تتجلّى للإنسان بما يلهم الله تعالى بعض المشتغلين في الفيزياء وعلم الأحياء عوالمٌ عجيبة كانت تعد إلى زمن قريب من (غير المنظور) .

ويجب أن لا يعزب عن البال أنّ الحواس الخمس إنما هي آلات يستعان بها (على ضوء ما تعطي من معطيات) على ربط الحوادث بعضها ببعض ، ثم الاستقراء فلاستنتاج ... إلخ . والمهم هو هذا العقل الإنساني الفعّال : هذا الذي يضع دساتير العلوم ويربط بين معطيات الحواس (بقدر ما توصّل إليه العلم المادي) بالفطرة دون اللجوء إلى تجربة سابقة . ولا ريب أن هذا العامل المهم في الربط وأعني به العقل ، هو من (غير المنظور) . لذلك يقسم الله بغير المنظور بقوله : ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحاقة : الآيتان ٣٨/٣٩] . كما أن قوة الجاذبية من (غير المنظور) .

والنفس الإنسانية هذه التي يعبر عنها بـ(أنا) من النوع غير المنظور . فـ(أنا) هو غير هذه العظام التي تولف الهيكل العظمي (اسكلت) والجهاز العصبي والدورة الدموية ... إلخ . ذلك لأنك عندما تقول (أنا) تغفل تماماً عن كل ما في بدنك من دم وعظم وعصب . فـ(أنا) ليس من المادة في شيء ، وهو من غير المنظور .

﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ، وَمَا لَا تَبْصِرُونَ﴾ ٤٨٩.

وما نحن نذكر بعض ما حدث من الوقائع التي أيدت لعلماء الغرب وجود الروح . ولا يخفى أن هذا البحث لمن أهم المباحث لشبابنا المعاصر المحاط بظروف مادية حالكة، وتشكيلات محرفة مضللة :

ذكرت دائرة معارف بريطانيا أن امرأة في لندن شاهدت ذات يوم عند الصباح زوجها الذي كان قد اشترك في حرب (ترانسوال) بباب الغرفة . فتعجبت ، وتقرّبت منه ، فلاحظت أن ليس له جسم كأجسام البشر . وهو لا يتكلم بشيء . فأخبرت بعض الجهات المختصة وتمكّنوا من تصويره ! وإذا به ضابط قد قتل في تلك الساعة في حرب (ترانسوال) في جنوب أفريقيا وجاءت روحه تزور الزوجة : رفيقة الحياة .

يقول الدكتور الطبيب (أوين فردريك باورز) أستاذ الأمراض العصبية في جامعات أمريكا أنه قد أمضى أكثر من عشرين سنة وهو يبحث ويدقق ويرى اللوحات السالبة لصور الأرواح الفوتوغرافية !

وقد بلغ العلم الحديث مرتبة تمكّنه من تصوير سيارة في المكان الذي كانت فيه بعد أن غادرته . ذلك لأن الاهتزازات الخاصة بها (بالسيارة) لا تزال موجودة في المكان الذي كانت فيه ، إلا أنها غير مرئية . فباستخدام آلة خاصة للتصوير أمكن تصويرها !

وإن القرآن الكريم يوضح لنا أرواح الملائكة التي ليست من المادة والجسم في شيء بقوله : ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِيلُ إِلَيْهِ نَكَرَهُمْ﴾ [هُود : الآية ٧٠] وهو قوله تعالى :

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيزٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِيلُ إِلَيْهِ نَكَرَهُمْ وَأَوَّجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَزْشِلْنَا لَكَ قَوْمَ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾ [هُود : الآيتان ٦٩ / ٧٠] [أوجس : أي أضمر منهم خوفاً] .

ويقول الله تعالى بالنسبة إلى سرعة الملائكة التي ليست من الأجسام البشرية في شيء ، سرعة لا تقاس بسرعة ما يحصل عليه بأعمال مادية بواسطة الأمواج الكهربائية ، بل هي سرعة فائقة لا يعلم مداها إلا الله : ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج : الآية ٤] . ولا شك أن سرعة الملائكة أعظم من سرعة

الضوء: أي (٣٠٠٠٠٠ كم/ ثانية) أضعافاً مضاعفة لعدم تناهي الأبعاد! فما أبعداها من مسافات شاسعة تقطعها الملائكة في خمسين ألف سنة بتلك السرعة الهائلة!

تغلغلت المادية في أوروبا في القرن الماضي من جراء تلوث النفوس بأنواع المعاصي والآثام وضروب الفساد والظلم^(١). فصاروا يعززون كل شيء إلى المادة وهم لا يعلمون عن حقيقة المادة شيئاً، وجهلهم بالمادة أكثر من جهلهم بأنفسهم. حتى صار يُعرف بعضهم المادة: بضرب يده بقوة على المنضدة: قائلاً مع خيلاء تلازمه: «هذه هي المادة». وهو لا يعلم عن حقيقة المادة شيئاً.

حقاً، إن هؤلاء المتطفلين على العلم الحديث ذوي الأدمغة المتحجرة والنفوس الضالة أصبحوا عالّة على العلم والبشريّة جمعاء فضّلوا وأضلّوا. حتى صاروا يضغطون على علماء الذرة والأحياء أن يعدلوا نظريّاتهم التي تبرهن بجلاء وجود الصانع جلّ جلاله، وجعلها مؤيّدّة للمادّيّة الهوجاء.

أنى للنفس المتحجرة أن تدعن للدليل ودونها حجاب يصدّها عن رؤية الحق والواقع! ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [الرّوم: الآية ٢٩].

إن ما أذكره من حوادث قد لطف الجو المادي المدلهم في أوروبا في القرن التاسع عشر وبعده. فصار يعتقد ثلّة من العلماء الذين لم تتلوّث نفوسهم بلوث المادّيّة العمياء. أنّ وراء هذا العالم المادّي: (والعالم المنظور)، عالماً آخر غير منظور.

منها: أن قائداً لفرقة موسيقيّة في باريس قد سمع ذات يوم بصورة جليّة واضحة، وهو في بناء خاصّة بالفرقة المذكورة، أن شخصاً غير منظور يقول له بوضوح: إن هذه البناية ستنهدم بكاملها يوم الاثنين المقبل في الساعة التاسعة صباحاً. يبحث القائد عن صاحب هذا الصوت، فلا يجد أحداً. يرجع إلى مكانه. وإذا بنفس الصوت يؤكد ما

(١) ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْنُهُمْ وَمَا هُمْ بِمَعْكُومِينَ﴾ [الباقية: الآية ٢١].

قال أولاً. فلا يرى أحداً. فيبقى متحيراً! من هذا الهاتف، يا ترى؟
حتى كان اليوم الموعود. يخرج القائد قبل الساعة التاسعة مع من كان في البناية
على سبيل الاحتياط. وإذا بها تنهدم عن بكرة أبيها.

يذكر لنا أحد علماء الغرب في بعض مؤلفاته: أن رجلين هاجرا وطنهما وذهبا إلى
(أستراليا) بغية الاشتغال في رعي الغنم والمتاجرة بها. فازدهرت تجارتها في مدة
وجيزة وأصبحتا ثريين. إلا أن أحدهما فقد شريكه فجأة بعد مدة. وصار يفتش ويبحث
عنه بشتى الوسائل، فلم يعثر على أثره.

وفي يوم بينما كان هذا الرجل يعود إلى بيته جاعلاً طريقه على ضفاف بركة عميقة
في شارع ضيق، شاهد شريكه المفقود جالساً على ضفة البركة جلسة القرفصاء يرمق
ببصره الماء.

همَّ الرجل أن يبدي سروره وفرحه، لأنه قد ظفر بضالته بعد مدة مديدة وتعب
شديد، لكنه رأى أن كآبة تعلو وجه صديقه المفقود، وهو يتضاءل كلما همَّ أن يدنو منه
حتى انمحي ولم يبقَ منه أثر.

يقول الرجل: فوقفت في محلي ولم أقرب وإذا بصديقي المفقود يبدو من جديد
مشيراً بيده إلى محل في البركة ثم يغيب. فعلمت أن لا بد في البركة من شيء يجب
إخراجه. ففتشنا المحل الذي قد أشار إليه الصديق المفقود وإذا بجثته ملقاة في قعر
البركة، مغطاة بأوراق الشجر وقد قتل بفأس وجدوها في قعر البركة أيضاً. دفنوا الجثة
وظفروا بالقاتل، فأعدم بعد الإقرار. وهكذا استدلوا على بقاء الروح بعد الموت.

كان قد دعي پروفيسور (يواهم) أستاذ الرياضيات إلى طعام ليلاً في بلدة
(ماربوك). فبينما هو جالس مع رفاقه يتجاذبون أطراف الحديث، وإذا به يرى نفسه
تدفعه حثيثاً ليذهب إلى بيته ويعتره من جراء ذلك قلق شديد لا يدعه يستقر في مكانه.
يذهب الأستاذ إلى بيته، يفحص زوايا البيت، فلا يجد شيئاً يقلقه، ولكنه يرى شخصه

ما زال قلقاً حتى ينتهي إلى غرفة المنام . يغير مكان نومه مستعيناً بخادمه فيضع سريره في الجانب الآخر من الغرفة ويعود إلى بيت صديقه لتناول طعام العشاء . وبعد تناول الطعام يرجع الأستاذ إلى بيته وينام في غرفته . وإذا به يرى بعد منتصف الليل أن السقف ينهدم من ذلك الموضع الذي كان ينام تحته كل ليلة . فلو لم يكن قد لبَّى القلق النفسي أو الإلهام الغيبي (الهاتف) لأصيب بضرر بالغ ولعلَّه كان يقضي عليه .

ومن هنا استدلُّوا على أن وراء المادة عالماً آخر، وأنَّ الله تبارك وتعالى يتصرَّف في العوالم كلَّها حسبما يشاء وكيفما يشاء . فينجي من الهلكة من يشاء ، «كل يوم هو في شأن» .

* * *

يكتب لنا (مسيو كورما) أحد الصيادلة المشهورين أن دخله اليومي ما كان ليتجاوز (٤٠ - ٤٥) فرنكاً في صيدليَّة كان قد فتحها في (تولوز) .

ولكنَّه رأى ذات ليلة في ما يرى النائم : أنه مكتوب في نهاية الصفحة أن مجموع دخله اليومي (٧٦) فرنكاً وثلاثين سانتيماً . وقد انتقش المبلغ في ذهنه . حتى كان اليوم الثاني وذهب إلى الصيدليَّة وقصَّ قصَّته على معاونه . فقال له معاونه : لعلَّ ما رأيته في منامك هو دخلنا ليومين .

يقول (مسيو كورما) مضى النهار على العادة حتى جنَّ الليل ففوجئنا بزبائن جدد اشتروا كميات من الأدوية وعندما خرج آخر زبون من المحل كانت الساعة العاشرة والنصف . بادرنّا بغلق المحل وإذا بنا نجد الدخل اليومي ٧٦ فرنكاً و٣٠ سانتيماً كما أخبرت في عالم النوم !

لا أعلم كيف يفسِّر المادي هذا الإخبار بالغيب ، أليس هناك عالم آخر قد يفيض على هذا الإنسان بأخبار عن عالم الغيب ليزداد ثقة بما وراء الطبيعة . ﴿سَرُّبِهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۖ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٤﴾ ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيتِهِ^(١) مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ ۖ أَلَا إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطُونَ﴾ [فُصِّلَتْ : الْآيَاتَانِ ٥٣ / ٥٤] .

* * *

الروح باقية بعد الموت

ذكرت إحدى مجلات إيطاليا أنه كان يدور حديث (بقاء الروح بعد الموت) منذ زمن غير بعيد بين (كنت غالاتري) و(موسيو ديرزيني) أحد الضباط في الجيش الإيطالي. فتعاهد كل منهما لمع الآخر أن يخبر صديقه بعد موته إن كانت روحه حيّة، بأن يأتي إلى صديقه الحي فيحك أسفل قدمه. وقد مضت على هذه المعاهدة خمس سنوات حتى أوفد (ديرزيني) في جيش إلى إفريقيا، فودّع (ديرزيني) صديقه وسافر. وبعد مضي ٨ أشهر على هذه المواعدة، صارت تشعر (زوجة غالاتري) في الليل بحك شديد في رجلها وهي نائمة بجانب زوجها. فصارت تقول لزوجها (غالاتري): لماذا المزاح، ولم تؤذيني؟

فأجابها زوجها: وهل أنت تحلمين؟ إنني لم أصنع شيئاً من هذا القبيل. ولكنّها كانت تشعر أنّ هناك من يحك أسفل قدمها بصورة متكررة.

ثم أسرجا السراج، وفشّسا فلم يعثرا على شيء. عند ذلك قالت زوجته: «أما ترى هذا الضابط، واقفاً تحت رجلي وهو يرتدي قبعة جميلة مع أوسمة. إنه طويل القامة، ها هو ينظر إليك مبتسماً، وقد أصيب في صدره بجرح خطير وكذلك في ركبته. إنه يحييك تحية عسكرية، ألا تراه. ولكنه الآن غاب عن بصري».

فلم تمض الأيام حتى أخبرت جرائد إيطاليا أن الضابط (ديرزيني) أصيب في حرب مع الأحباش في صدره وركبته ومات في اليوم الذي جاء إلى صديقه: (كنت غالاتري) يخبره أنه حي بعد الموت وأن الروح لا تنفنى بموت البدن وذلك وفاءً بالوعد.

تقع كثير من هذه الحوادث عندنا في الشرق ولكننا قلّ ما ندون، لاعتقادنا بما غاب عنا وبالإلهام الربّاني وبما وراء الطبيعة.

منها: أنّ امرأة مات زوجها. فكانت تريد أن تتصدّق عنه، فصارت تصنع طعاماً ليلة الجمعة وترسل به مع ولدها اليتيم إلى فقير في أحد الأكواخ القريبة.

إن الولد كان يأخذ الطعام الذي هيأته أمه إلى ذلك الكوخ وهو يشعر في الوقت نفسه بجوع شديد. يرجع الولد إلى بيته جائعاً، فينام وهو جوعان! وهكذا صنعت الأم مرة ثانية (ليلة الجمعة) طعاماً وأرسلت به مع ولدها إلى نفس ذلك الفقير. قدم الولد الطعام إلى الفقير ورجع إلى البيت وهو يكابد ألم الجوع، نام وهو جوعان! وفي المرة الثالثة صنعت الأم ليلة الجمعة أيضاً طعاماً تقدمه صدقة عن زوجها المتوفى وأرسلت به مع ولدها إلى نفس الفقير. أخذ الولد الطعام وصار يتقدم نحو الكوخ. إلا أن الجوع كان قد أضرب به ضرراً بالغاً. فلم يستطع الصبر. فأكل ما كان في الإناء ورجع إلى البيت، نام وهو شعبان.

رأت الأم زوجها في المنام، يقول لها: «لم يصل إليّ الطعام إلا في هذه الليلة». انتبهت الأم من نومها قبل طلوع الشمس، متعجبة، فأخذت تسأل ولدها: ولدي، إلى من كنت تأخذ الطعام ليلة الجمعة الماضية وقبلها؟ فقد رأيت والدك في المنام، يقول لي: لم يصل إليه الطعام إلا في الليلة الماضية. فقال الولد: قد قدمت الطعام إلى الفقير مرتين مع ما كنت أشعر به من شدة الجوع. ونمت جائعاً. إلا أنني في الليلة الماضية لم أطق أن أتحمّل ألم الجوع، وكان قد أضرب بي كثيراً. لذلك أكلت ما في الإناء ونمت وأنا شعبان.

فعلمت الأم أن ولدها اليتيم كان أولى بأكل هذه الصدقة من ذلك الفقير في كوخه. فقد جاء في الحديث: «لا صدقة وذو رحم محتاج»^(١).

وفي آية أخرى: ﴿فَلَا أَقْنَمُ^(٢) الْعَقَبَةَ^(١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ^(١٢) فَكَ رَقَبَةٍ^(٣)﴾ أو إِطْعَمْ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبٍ^(٤) ﴿٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ^(٥) ﴿٥﴾ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبٍ^(٦) ﴿٦﴾ [البلد: الآيات ١١/١٦].

(١) من لا يحضره الفقيه: ج ٢، ص ٦٨، وأمثاله قضى الإسلام على الرق.

ح ١٧٤٠. (٤) أي ذي مجاعة.

(٢) الاقتحام: هو الدخول في أمر شديد. (٥) يتيمًا ذا قرابة.

(٦) ذا مترية: أي ذا فقر. يقال: ترب أي: افتقر.

(٣) أي تحرير رقبة: رق، أو أسير. وبهذا

ولا بأس بذكر هذه الواقعة أيضاً، لتروا كيف أن الله تعالى يريد أن يقوي رابطة الإنسان بما غاب عنه من عوالم، ليزداد يقيناً به تعالى وبعوالم غيبية، فيخشع قلبه، ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾. ثم لا يركبه الغرور، فيقسو قلبه: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ [الحديد: الآية ١٦].

فقد جاء في الحديث: «ما ضرب ابن آدم بعقوبة أعظم من قسوة قلب» وفي حديث آخر: «شر العمى عمى القلب» وفي آخر: «أعمى العمى الضلالة بعد الهدى» وكم لهذا الحديث الأخير من مصاديق في يومنا هذا، مع الأسف الشديد.

ثم أن الله تعالى يمدح الذين يؤمنون بالغيب ويخصّهم بالهداية دون غيرهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: الآية ٣].

قد ذكر لي من أثق به: «أنه كان قد غادر مدينة طهران مستخدماً بالبريد يريدان زيارة الحسين عليه السلام». وبما أن حكومة الوقت كانت قد منعت السفر إلى العتبات المقدسة، لذلك سلكا طريقاً غير معبد. فأصبحا في أرض قفراء سبخة وقد أضرّ بهما العطش ضرراً بالغاً، حتى هلك أحدهما في تلك الصحراء وتمكّن الآخر بإذن الله بعد توسّل وابتهاال من أن يرجع إلى أهله سالماً تفضلاً منه تعالى. وبعد مدّة رأى صديقه في منامه وهو في بستان في وضع مريح، فسأله عن حاله. فأجاب: «إني بحمد الله في تمام الراحة، إلا أن عقرباً تأتيني كل يوم فتلسعني في إبهامي هذا (وأشار إلى رجله)، فأشعر إذ ذاك بأنّ تكاد تخرج روحي بسببه»^(٢) وقد أخبرت أن ذلك: لأنني كنت قد سرقت سكينه جميلة صغيرة من بيت صديقي (فلان)، في يوم كنّا نأكل الخس معاً في بيته (وقد ذكر اسمه). ولأنّي قد

(١) ألم يحن.

(٢) إن الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ يَمَسَّ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: الآية ٨]، وفي آية أخرى: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: الآية ١٦]. وفي الحديث: «إنما أعمالكم ترد عليكم». فإذا استغفر العبد وتاب وأتاب وأرجع إلى الناس حقوقهم من زكاة وخمس وصلة رحم إلى ما هنالك، أمن من العذاب وذهب من هذه الدنيا ولا ذنب عليه ولا حساب يواخذ به. فطوبى لمن ظهرت نفسه في هذه الدنيا قبل أن يطهر بعد الموت بعذاب لا يطاق.

أخفيت السكينة في بيتي في الرف الفلاني في الزاوية اليسرى . فأرجوك أن تذهب إلى بيتي وتقرأ زوجتي مني السلام وتقول لها : إن زوجك قد قال لي في عالم الرؤيا أن تعطيني السكينة التي وضعتها في الرف الفلاني في الزاوية اليسرى كي أرجعها إلى صاحبها القصاب وأطلب منه أن يغفر لزوجك زلته ، لعل الله يمنّ عليه بالعفو والغفران . يقول هذا المستخدم . ففعلت كما أخبرت بالمنام ، فكان كما أخبرت .

يقول : ورأيت صديقي مرة أخرى في عالم المنام . وإذا به يشكرني وهو في تمام الدعة والطمأنينة .

وهكذا هناك من الأطياف ما لا يعد ، تنبئ عن مغيبات تدل بصراحة أنّ وراء هذا العالم المنظور عوالم غير منظورة لها من الخطورة والأهمية ما لا يوصف .

* * *

ومما قيل في الاعتقاد ببقاء الروح بعد الموت ، تفنيد آراء شتى قيلت في سبب النوم وانتصار الرأي الأخير القائل : «إن هناك روحاً آدمية في الإنسان قائمة بذاتها تنسحب كثيراً أو قليلاً من الجسم خلال ساعات النوم» . لذلك صار يعد العلماء : (اعتبار النوم طرحاً روحياً مؤقتاً) نصراً عظيماً ، لأنه بذلك أمكن تفسير الأحلام التي يراها الإنسان في نومه والتي تتحقق بعد يقظته عاجلاً أو آجلاً . كما أمكن تعليل رؤية النائم لأمكنة غريبة أو أشخاص غرباء لم يكن قد رآهم قبلاً ثم مشاهدته في عالم الشهود واليقظة بعد سنين أو مدة يسيرة نفس الأمكنة وعين الأشخاص دون أي اختلاف . وهذا تطابق بين حالة الرؤيا في النوم والملاحظة في اليقظة .

وهكذا تؤيد مكتشفات العلم الحديث ما جاء في القرآن الكريم قبل ١٤ قرناً أن النوم طرح روحي مؤقت . تعمّقوا في معنى هذه الآية لتروا صحّة ما أقول . إنه تعالى يقول :

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسَلُكٍ إِلَيْهِ فَصْنِ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرُّم: الآية ٤٢] .

ومعنى ذلك أن الله تعالى يقبض أرواح عباده إذا حان حينهم وجاء أجلهم وهكذا يقبض أرواح عباده الذين لم يموتوا في منامهم : يقبضها بقطع علاقة تلك الأرواح بالأبدان . فالعبد الذي جاء أجله وهو نائم أي (من قضى عليها الموت) لا ترد روحه إلى بدنه . بل

بمسكها الله تعالى ويرسل روح العبد الذي لم يأتِ أجله إلى بدنه ، وذلك إلى أجل مسمى (معين). لا يعلمه إلا الله . حقاً ، إنَّ في ذلك لآيات على قدرته تعالى لكل من تفكَّر في هذا الوجود الإنساني المؤلف من روح وبدن .

يقول الدكتور (جورج لندسي جونسون) ، أنه أجرى عملية جراحية في عيني فتاة وهي في التاسعة عشرة من عمرها . ولم تكن قد رأت شيئاً قبل ذلك ، لأنها كانت لا تبصر شيئاً . ولكنها صارت تتبيَّن كل فرد في الغرفة وتميِّز بين الألوان المختلفة بعد العملية الجراحية وتمائلها للشفاء . وهذا ما يؤكِّد أنَّ روح الفتاة كانت تنطلق في منامها فتري أشياء ما كانت تستطيع أن تراها بعينيها قبل العملية .

وأما الرياضي المعروف : (هوانكاره) ، فقد رأى في منامه معادلات رياضية أدَّت إلى استكشافه قوانين رياضية هامة . وكان مؤمناً بالإلهام والحدس ووجود الروح .

وكم من أناس ضاعوا في الصحراء ولم يجدوا ملجأ إلا إلى الله تعالى ، فابتهلوا إلى الله مخبتين ، فنجاهم الله بأن أراهم الطريق في منامهم أو أرسل الله لهم مَنْ ينقذهم من الهلاك . ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف : الآية ٥٨] . ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ﴿٦٠﴾ . فهو جلَّ جلاله يرحم حتى غير الشاكرين من عباده لعلهم يهتدون ، وما أفلهم !

إنه تعالى يراقب أعمالنا ويسمع نداءنا ونضرعنا في البحار والقفار ، فينقذنا من الهلكة إذا انقطعنا إليه خاشعين . فلكل واحد منَّا شواهد من حياته على ما أنعم عليه حين التضرُّع من عظيم النعم وهو القائل : «وقليل من عبادي الشكور» .

إنه تعالى يقول : ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿١١﴾ [يونس : الآيتان ٦٠ / ٦١] .

حرمة إحضار الأرواح

إن الدين الإسلامي قد حرَّم (إحضار الأرواح) ، و(إحضار الجن) وعدَّهما من

الكبائر، لما في ذلك من تدليس وتمويه وكذب وافتراء. وإن بعض المسلمين صاروا يعتقدون بما يقام به في الغرب من إحضار بعض الأرواح! في الظلام باستعمال الخبء وأنواع الخداع والوسيط الكذاب وباستعمال كوب صغير أو فنجان يتنقل بين حروف قد رسمت فوق منضدة، فتكون إجابات الأرواح مستحضرة من مجموع الحروف بحسب ترتيب تنقله بينها! أو بمؤشر كمؤشر الساعة يدور حول محور وسط نضد دائري رسمت الحروف الأبجدية على محيطه، وباستعمال طريقة السلّة... إلخ.

ومن النتائج الكاذبة في إحدى الجلسات: «أن جبريل معنا» ومحاولة البعض من التقاط صورة لجبريل عليه السلام، وأكاذيب على الرسل ﷺ وغيرهم إلى ما هنالك... .

وقد علم أخيراً أن أيد هذامة (صهيونية) تريد أن تجعل هذه الروحية الكاذبة (Spiritualism) ديناً جديداً يهدم أسس المجتمع وينشر فيه الفوضى بالتشكيك في كل المقررات الدينية والخلقية، لتسود الصهيونية بالآخر في العالم. وهذا لا يختلف عما في (پروتوكولات حكماء صهيون) وما قصده (فرويد) و(كارل ماركس) وغيرهما من اليهود.

ولا نريد أن نبرهن على فساد ما يذهبون إليه من إحضار الأرواح وكيف أن عوامل مختلفة تؤثر في الموضوع، فيخيل إلى حاضر الجلسة أن روحاً حضرت وأنها تتكلم إلى آخر ما هنالك من خداع في الظلام وتحت الخبء ووسائل ووسائط للتمويه. ولا أشك أن لشياطين الجن دوراً هاماً في تليق الأكاذيب أو الإخبار بما غاب عن الأنظار كما سنبين ذلك في البحث عن الجن.

ويكفي أن نقول أنه قد جاء في دعاواهم العريضة أن أحد المشتغلين بالأمراض العصبية في جامعة من جامعات أمريكا قد استطاع أن يجسد روح أمه وأن يقص خصلة من شعرها، ثم يفحص بعلائد الشعر فحصباً هستولوجياً ميكروسكوبياً!

ومن جملة ذلك: ما هو مكذوب على لسان القس (سنتون موزي) ما تلقى عن عالم الأرواح:

«نحن مرسلون من عند الله كما أرسل المرسلون قبلنا، غير أن تعاليمنا أرقى من تعاليمهم. فإلهنا هو إلههم، إلا أن إلهنا أظهر من إلههم وأقل صفات بشرية وأكثر صفات

إلهية. لا تخضع لأيّة عقيدة مذهبيّة ولا تقبل بلا بصر ولا رويّة تعاليم لا تستند إلى العقل، ولا تأخذ بلا تحفّظ وحيّاً جاء لأحوال خاصّة في عصر من العصور! وليس هو بامتياز لأمة دون أمة ولا لشخص دون شخص، والله يكشف نفسه للإنسان شيئاً فشيئاً^(١).

ومن جملة كلمات المشتغلين بشعوذة إحضار الأرواح (Spiritisme) قولهم: «إن الروحية ستكون أقدر من غيرها على تأسيس دين جديد واسع للعالم كله».

ومن أقوالهم: «إن لب الدين هو بذل الخير لخلق الله، ولا حرج على الناس فيما وراء ذلك. وإن طقوس الأديان على اختلاف صورها ليست إلا أساليب لبلوغ هذه الغاية. وإن الناس على اختلاف أديانهم بعد سواء:

مسلميههم ومسيحيهم ويهوديهم وبوذيهم، كلّهم يعيشون إخواناً فيما وراء الموت، وإن باب التوبة مفتوح أمام الكافر والفاسق والمخطئ بعد الموت. وإن فرصة الترفي متاحة له دائماً. وإنّ الجنّة والنار حالة عقليّة أو حالة نفسيّة أو هما واقع يجسمه الفكر ويصنعه الخيال الذي يعكس باطن صاحبهما وحالته النفسيّة».

وهذا ما يسمع كل يوم في أوكارهم ومنظّماتهم ومجلّاتهم: يوهمون للناس أن الناطق بكل ذلك روح كبير^(١)

ومثل ذلك قولهم في وصف الإنسان: «إنه عامل ومساعد وشريك لرب العلا وأقوى من الحكام الذين يحكمون بالعصا. أنت في الرب ومع الرب ولأجل الرب الأمثل»... وهنالك من المسلمين من استساغ هذه الأوهام والشرك الصريح وأراد تطبيقها على النصوص القرآنيّة مع الأسف الشديد!

وبالختام نرى أنّ مجلّة روحية تمجد الشيوعيّة، وهذا مما يدل أن هنالك ارتباطاً وثيقاً بين الروحية (الكاذبة) والشيوعيّة الهدّامة وليدة الصهيونيّة. ولا مجال لأسرد كل ما جاء من كفر وإلحاد على لسان الروحيّين ووسطائهم. ويكفي أن نقول: إن الصهيونيّة تبنت هذه الحركة وصارت تغذّيها لأغراضها الهدّامة.

(١) الروحية الحديثة، حقيقتها وأهدافها: للدكتور محمد محمد حسين، أستاذ الأدب العربي الحديث، بجامعة الإسكندرية الطبعة الأولى: ١٣٨٠هـ.

ومن المعروف أنَّ الصهيونيَّة الهدَّامة تكمن وراء كل الحركات السياسيَّة والاجتماعيَّة الكبيرة في القرن الأخير بل منذ الثورة الفرنسيَّة. وهي التي تخترع هذه الأباطيل وتنسبها للأرواح هداماً للأديان.

فحري بالمسلمين أن لا ينخدعوا بأباطيل هؤلاء وأن يطبقوا أمر الشارع الأعظم في حرمة إحضار الأرواح.

ومن جملة ما هو غير منظور هو «الجن». فقد أنكر بعض المثقَّفين بثقافة العصر من رجال الغرب وجود الجن، لعدم إمكان رؤيته بالباصرة أو لمسه باليد وذلك لتغلب مفهوم المادية على النفوس. وقد تأثر الشرق بمادية الغرب عن طريق الصحافة وغيرها، حتى أن أحد علماء المسلمين صار يفسِّر الجن في القرآن الكريم، بالميكروبات التي لا ترى بالعين. ورأيت أن البعض منهم يرى الجن وجوداً خيالياً تخيَّله البشر، وليس شيئاً إلا الخيال ولا وجود له في الخارج.

يبد أن أوساط أوروبا قد تأثرت في ابتداء القرن الحالي بإحضار الأرواح على ما فيه من التمويه والتنويم المغناطيسي، فصارت تعترف بالجن وأنه كائن حي، لا يشبه الإنسان في كيانه وقد دُوِّنت في الغرب كتب عدة في هذا الموضوع.

وإن القرآن ليصرِّح بوجود الجن وأنَّ منهم المؤمن ومنهم الكافر الجاحد.

إنه تعالى يقول: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ^(١) مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا^(٢)﴾
يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِكْ بِرَبِّنَا أَحَدًا^(٣)﴾ [الجن: الآية ١/٢]. فالجن يستمعون القرآن ويؤمنون به كما نؤمن وليس الجن بجرائم صغيرة تخفى على العين، كما قال بعضهم.

ثم يقول الله تعالى عن لسان الجن: ﴿وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا^(٣) مَا اتَّخَذَ صَحَابَةً وَلَا وَلَدًا^(٤)﴾ [الجن: الآية ٣] أي أن الجن يعترفون بوحدانيَّة الله تعالى وأنه ما اتَّخذ لنفسه زوجة ولا ولداً.
ثم يقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يُوَدُّونَ^(٤) رِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا^(٥)﴾

(١) نفر: جماعة من الجن. و(نفر) من ١ إلى ١٠. (٢) تعالى جد ربنا: أي تعالت عظمته.

(٢) عجباً: بديعاً. (٤) يعوذون: يستجيرون.

[الجن: الآية ٦] . . . إلخ. ومعنى ذلك: أن رجالاً من الإنس كانوا يلجأون إلى رجال من الجن طلباً لاستخدامهم في حاجاتهم فزادوهم ضللاً وغياً. فيعبر الله تعالى عن الجن برجال، كما عبر عن الإنس أيضاً. فعلم أن الجن عالم قائم بنفسه كالإنس. إلا أن النظرية المادية: «كل ما لا يرى بالعين فهو غير موجود» قد أثرت في بعض النفوس التي ضعف إيمانها لتساهلها في تطبيق تعاليم الإسلام تطبيقاً شاملاً، فصارت تنكر الجن تأسيساً بالماديين أو فراراً من وصمة الرجعية والخرافة أو تشهياً للقب: (العصري)، أو (المثقف) . . . لئلا يُعد متأخراً عن ركب المدنية الحاضرة بما فيها من علل وويلات! . . . أو صار يظن أن الجن ميكروبات أو بهائم أو حشرات دونما تحقيق ودون إرجاع الموضوع إلى صريح الآيات القرآنية والأحاديث المستفيضة والمشهورة.

ثم قال تعالى عن لسان الجن: ﴿وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْقًا﴾ [الجن: الآية ١١] ^(١). فيقول الله: إن من الجن رجالاً صالحين أبراراً وإن منهم مقتصدين أي أقل من أولئك رتبة وهم طرائق متفرقون. كما يقول جل من قائل في آية أخرى عن الجن: ﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِمَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ ^(٢) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: الآيتان ١٤ / ١٥] ^(٣)، فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً ^(٤)، وأما القاسطون، فكانوا لجهنم حطباً. فمن الجن من هو كالإنس مسلم، ومنهم من هو ظالم لنفسه مبين، ومأواه جهنم وبئس المصير. فلا فرق بين الجن والإنس من هذه الناحية فيحرق الظالم والكافر من الجن بالنار، إن لم يتوبا، كما أن الإنس كذلك يحرق الظالم والكافر منهم بالنار دون توبة وتطهير النفس من أوساخ الذنوب والمظالم والردائل. إنه تعالى يقول: ﴿وَقَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: الآية ١١٩].

ويقول الله تعالى في موضع آخر من القرآن الكريم: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ ^(٥) [الصافات: الآية ١٥٨]، ومعنى ذلك: أن المشركين جعلوا

(٣) تحروا رشداً: أي توخوا رشداً.

(١) قدا: أي متفرقة، مختلفة.

(٢) القاسطون: الظالمون.

بين الله وبين الجنة نسباً (ويراد بالجنة هنا الملائكة). ولقد علمت الملائكة أن المشركين أو الكفرة لمحضرون أي مقودون إلى العذاب المهين، وفي تفسير آخر: أن المراد بالجنة هو الجن، ذلك لأنَّ المشركين قالوا: إن الله صاهر الجن فخرجت الملائكة، فالله تعالى يقول: إن الجن علموا أنهم لمحضرون للعذاب إلاَّ عباد الله المخلصين^(١) منهم (أي من الجن).

ويقول تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: الآية ١٣].

ثمَّ إنَّ الله تعالى يخبرنا في مكان آخر من كتابه الحكيم بقوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ﴾ [٢٩] قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ، يَقِفْ لَكُمْ مِّنْ دُونِكُمْ وَيُجْرِكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُحِبِّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَّهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ [الأخفاف: الآيات ٢٩/٣٢].

وهؤلاء، على ما جاء في التفسير، هم جن (نصييين) باليمن أو جن (نينوى) وكان رسول الله ﷺ يبطن نخلة، يصلي بأصحابه الفجر، فصاروا ينصتون إلى القرآن حتى إذا فرغ من قراءته، رجعوا إلى قومهم ينذرونهم ويخوفونهم العذاب إن لم يؤمنوا وقد كان هؤلاء الجن يهوداً فأسلموا.

فظهر ممَّا سبق أنَّ الجن على نوعين: مسلم ومؤمن بنبوة محمد ﷺ وكافر بها، وأنَّ الإنس قد يعوذون بالجن لأغراض سيئة فيؤذي بهم إلى خسران وسوء العاقبة. ثمَّ أنَّ الله تعالى يقول في سورة (الرحمن): ﴿يَنْعَشَرُ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ إِذَا اسْتَعْظَمَ أَنْ تَنْغْذُوا﴾^(٢) مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْغْذُوا لَا تَنْغْذُوا إِلَّا سُلَاطِينَ ﴿٣٣﴾ [الرحمن: الآية ٣٣].

(١) وذلك لقوله تعالى في الآية ١٦٠: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: الآية ٤٠].

(٢) أن تنفذوا: أن تخرجوا.

ويبين لنا سبحانه وتعالى مم خلق الجن بقوله: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ [الرَّحْمَنُ: الآية ١٥] وهو لهيبها الخالص من الدخان.

ثم إن الله تعالى يتحدث الجن كما يتحدث الإنسان بقوله: ﴿قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: الآية ٨٨].
وإن الجن مدعوون إلى عبادة الله تعالى كالإنس على حد قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادَتِي﴾ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْكَلِيمِ (٥٨) [الذاريات: الآيات ٥٦/٥٨].

إن الله تعالى يقول: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْتُهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ (٢٧) [الحجر: الآية ٢٧] ولا نعلم شيئاً عن حقيقة هذه النار. فإنها طاقات. وقد علم أن الذرة في الأصل طاقات كهربائية تكدّست بإذن الله بترتيب بديع تحت نظام رائع حتى كانت هذه الذرة ثم تشكّلت بأشكال شتى، حسب اختلاف عدد الإلكترونات (شحنة كهربائية سالبة) والبروتونات (شحنة كهربائية موجبة) حتى كانت هذه العناصر المختلفة: الإيدروجين، الكالسيوم، الحديد، الرصاص إلخ..

فالعالم كله قوى كهربائية ومغناطيسية وجاذبية وطاقات أخرى نجهلها كجهلنا كثيراً من الأشياء، أشياء لا تتناهى. وهكذا الجن مخلوق من نار السموم أو من (مارج من نار) والمارج: لهب النار الخالص من الدخان. فهذه طاقات خلق الله منها الجن لا نعلم حقيقتها كما لا نعلم في الوقت الحاضر حقيقة أية طاقة من الطاقات. بل العلم الحديث إنما يعمل في كشف الآثار والاستفادة منها في الحياة الاجتماعية.

فالجان ليس من هذه الأجسام المتعارفة التي نبصرها بأعيننا وإنما هو من طاقة أخرى لا نتمكن من مشاهدتها لعدم وجود قابلية فينا لرؤيتها. يقول تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرْنَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: الآية ٢٧] فالإنسان لم يُعط ملكة يقوى بها على رؤية الجن ولكن الأنبياء والأولياء عليهم السلام قد يتمكنون من رؤية الجن بفضل الله تعالى، لما أعطاهم من ملكة خاصة نجهلها.

وهكذا ليس في استطاعة الإنسان أن يرى الملك بقابلياته الحاضرة وملكاته الطبيعية التي

وهبها الله إياه، لذلك يقول تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩/٨].

توضيح ذلك: يقول الله تعالى في الآية المتقدمة، إنا لو جعلنا الرسول ملكاً لاضطررنا لقلبه رجلاً لئتمكّنوا من رؤيته.

وكان الجن يعملون بين يدي سليمان عليه السلام: فقد قال تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ ﴿١﴾ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُنْزِلْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [سبأ: الآية ١٢]. ﴿يَعْمَلُونَ لَكُم مَّا يَشَاءُونَ مِنْ تَحْرِيْبٍ ﴿٢﴾ وَتَمَثِّلِ ﴿٣﴾ وَجَفَانِ ﴿٤﴾ كَالْجَوَابِ ﴿٥﴾ وَقُدُورٍ ﴿٦﴾ رَّاسِيَتٍ أَعْمَلُوا مَا لَكُمْ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا فَضَيَّتَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَاتَهُ ﴿٧﴾ فَلَمَّا خَرَ ﴿٨﴾ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ ﴿٩﴾ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٠﴾﴾ [سبأ: الآية ١٣/١٤].

وقد سمعت أحدهم يقول: «إن الجن هي الحيوانات أو الحشرات» وكان يقول: «إن نفبي للجن لا يحتاج إلى دليل ولكن على المثبت أن يأتي بالدليل». فقلت له: على من يؤمن بالقرآن أن يعترف بالجن كمخلوق مكلف بتكاليف عبادية كالإنس، حسب الآيات المتقدمة. ثم كيف توفق بين ما تعتقده وقوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَكُم مَّا يَشَاءُونَ مِنْ تَحْرِيْبٍ وَتَمَثِّلِ وَجَفَانِ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ﴾. وقوله تعالى: ﴿قَالَ عَفَرْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا بَيْنَكَ بِهٖ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ [النمل: الآية ٣٩]. فهل للبهيمة أو الحشرة أو الميكروب أن تقوم بهذا العمل الجبار؟!

- | | |
|---|--|
| (١) يزغ: يعدل. | (٦) قدور راسيات: القدور: جمع قدر، وقدور |
| (٢) محارب: أبنية مرتفعة يصعد إليها بدرج. | راسيات أي قدور ثابتات لها قوائم لا تتحرك عن أماكنها. |
| (٣) جمع تمثال أي صور من نحاس وزجاج ورخام ولم يكن اتخاذ الصور حراماً في شريعته. | (٧) منساته: في عصاه، المنسأة: هي العصا. |
| (٤) جفان: جمع جفنة وهي القصعة الكبيرة. | (٨) خر: سقط ميتاً. |
| (٥) الجوابي: جمع جابية وهي حوض كبير، فكان يجتمع على الجفنة الواحدة ألف رجل يأكلون منها. | (٩) تبينت الجن: انكشف لهم. |
| | (١٠) في العذاب المهين: العمل الشاق المهين لهم. |

قلنا إن الجن قد يشاهدون من قبل الأنبياء والأوصياء عليهم السلام. وهم يتطوَّرون ويتشكَّلون في صور الإنس وغير الإنس على ما أعطاهم الله من ملكات وإمكانات. كل ذلك في دائرة محدودة وبأمر من الله. وقد يتجسَّم الجن على شكل أو صورة بني آدم. وفي إمكان الجن أن يدخلوا الغرف والأبواب مغلقة. وذلك من شقوق الأبواب والمنافذ، كأمواج الراديو.

وقد سمعت محاضرة لأحد علماء مصر، كان ينكر وجود الجن، ثم سافر إلى المغرب وأتصل ببعض من كان يحضر الجن وشاهد ما يصدر على أيدي الجن من أعمال شتى تحير العقول. وقد رفع قبلاً كل ما من شأنه الخداع والتليس. فأمن بالجن بعد أن كان منكرأ أشد الإنكار.

وقد جاء في تفسير الآية الآتية: أَنَّ الشيطان أتى قريشاً في صورة (سراقه بن مالك ابن جشعم الكناني) لما أرادوا الخروج إلى بدر. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلُهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنفال: الآية ٤٨]. كما أنه روى أَنَّ الشيطان تشكَّل في صورة شيخ نجدى لما اجتمعوا بدار الندوة للتشاور في أمر الرسول ﷺ: هل يقتلونه أو يحبسونه أو يخرجونه كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: الآية ٣٠].

وقد رُوي أَنَّ أمير المؤمنين علياً عليه السلام كان ذات يوم يخطب على منبر الكوفة، إذ ظهر ثعبان من جانب المنبر وجعل يرقى حتى دنا من أمير المؤمنين عليه السلام فارتاع الناس لذلك وهموا بدفعه، فأوماً إليهم بالكف عنه، فلما صار على المرقاة التي عليها أمير المؤمنين، انحنى أمير المؤمنين إلى الثعبان وتناول الثعبان إليه حتى التقم أذنه، وسكت الناس وتحيروا، فتق نقيقاً سمعه كثير منهم، ثم زال عن مكانه وأمير المؤمنين يحرك شفتيه والثعبان كالمصغي إليه، وانساب وكأن الأرض ابتلعتة، وعاد أمير

المومنين إلى خطبته فأتَمَّها، فسأله عنه. فقال: إنه حاكم من حكام الجن التبت عليه قضية، فصار إليّ يستفهمني عنها، فأنهت إياها ودعا لي بخير وانصرف^(١).

وينبغي أن لا يُستبعد وقوع ما ذكره لعلّي عليه السلام، فقد جاء في القرآن الكريم: أَنَّ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عَلَى نَبِينَا وَآلِهِ وَعَلَيْهِمَا السَّلَامُ لَمَّا أُرْسِلَ إِلَى بَلْقِيسَ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: ﴿قَالَ يَتَأَيَّمُوا أَمَلُوا أَنْتُمْ يَا بَنِي بَعْرِشَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُوَنِي مُسْلِمِينَ﴾ (٢٨) قَالَ عَفْرِتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَايِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ نَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ ﴿[النمل: الآيةان ٣٨/٣٩]. أي من مجلسك الذي تجلس فيه كل يوم للقضاء، وكان يجلس فيه إلى الظهر. فالله تعالى قد أعطى العفريت من الجن قوة يستطيع بها أن يحضر عرش بلقيس من بلاد نائية. فالعفريت ليس بأعز على الله من الإمام علي عليه أفضل الصلاة والسلام وقد قام الإسلام بسيفه وتضحياته التي لا تعد ولا تحصى!

وقد جاء في الأخبار أَنَّ عَلِيًّا عليه السلام حارب أعداء الرسول ﷺ من الجن وانتصر عليهم، والقضية مشهورة في كتب الفريقين. لم ينكرها أحد.

ثم أن الجن يحشرون ويحاسبون يوم القيامة لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَنْعَشِرُ الْجَيْنُ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَوَلَعْنَا أَلْبَانًا الَّذِي أَجَلْتُمْ لَنَا قَالُوا نَارُ مَثْوَانِكُمْ خَلَلِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٨]. وفي آية أخرى: ﴿يَمْعَشِرُ الْجَيْنُ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُزِدُّونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ لِحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأنعام: الآية ١٣٠].

وفي أخرى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجَيْنِ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا آذَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَيْنَاهُ لِأَوْلِيَانَاهُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتَيْنَاهُمْ عَذَابًا مِّمَّنْهُمْ وَكُلٌّ فِي النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَٰكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٣٨].

وفي أخرى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجَيْنِ وَالْإِنْسِ يَجْعَلُهُمَا طَبَعًا لِّأَعْدَائِنَا لِيَكُونُوا مِنَ الْمُسْتَضَلِّينَ﴾ [القصص: الآية ٢٩].

السلوك الرحماني والسلوك الشيطاني

ذكر لي أحدهم أنَّ هنالك طريقتين في السلوك، سلوك رحماني وسلوك شيطاني؛ فالسلوك الرحماني هو سلوك حسب ما أمر الله تعالى به وما أملاه علينا الرسول ﷺ والأئمة من بعده ﷺ، من صلاة وصوم وزكاة وخمس وحج وإنفاق وأعمال صالحات والقيام بحوائج الناس وأعمال عبادية مستحبة بصورة مستمرة وبكثرة دونما فتور من صلاة جوف الليل وأوراد وتضرع وتسبيح بين الطلوعين وقبل الغروب وتطهير المأكَل والمشرب وذكر الله تعالى على كل حال والصمت إلا في ما يرضي الله. فعند ذلك تتجلى له كثير من الحقائق وتخدمه قسم من مؤمني الجن إن شاء الله تعالى.

وهذه الطريقة وأعني بها السلوك الرحماني من الصعوبة بمكان، لا يقوى عليها إلا الأوحدي.

وهناك سلوك شيطاني يتلخّص في إطاعة الشيطان الغاوي أو بالأحرى إطاعة إبليس عليه اللعنة في كل ما يريد من ترك الصلاة والصوم والحج، بل وعبادة الشيطان نفسه ومخالفة أمر الله تعالى حيث يقول: ﴿أَلَمْ نَأْمُرْكَ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ حَتَّىٰ تَكُونَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ ﴿١﴾ وَأَنْ أَعْبُدُ فِي هَذَا صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يس: الآيات ٦٠/٦٢] والإهانة بالمقدسات بل وتلوّثها.

وقد علم من أحد السالكين السلوك الشيطاني أنه كتب إلى صديق له (درويش) يقطن في شعب من شعاب جبال (همدان) بصورة سرّية: «أنه قد بلغ به الأمر حيث يلعن علياً عليه السلام ليلة الجمعة على تل في النجف الأشرف مئة مرة. فكانت نتيجة ذلك أن خدمته أبالسة الجن فائتمرت بأمره وأطاعته في ما يريد. وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: الآية ٢٣].

وقد سمعت ممن يوثق بكلامه: أنَّ شاباً كان قد صاحب درويشاً سلك مسلكاً شيطانياً وتعلّق به تعلّقاً وثيقاً، لما كان يرى من خوارق ظاهرة تجري على يديه.

يقول هذا الشاب: خرجت مع هذا الدرويش ذات يوم قبيل الظهر من مدينة (نبريز)، حتى إذا ابتعدنا عن البلدة مسافة يعتد بها، قال لي الدرويش: ما أجمل المكان وما أطيبه! لو كانت لنا هنا غرشة (نارجيلة) فقلت له: سيدي قد ابتعدنا كثيراً عن البلدة، ولا يوجد بالقرب منّا مقهى... فقال الدرويش مغضباً: أو ضعف إيمانك بي؟! ونادى بصوت رفيع. غرشة! وإذا بغرشة جاهزة توضع بين يديه، فصار يشرب. حتى إذا فرغ، استأنفنا الطريق. فبعدنا عن البلدة مسافة لا يستهان بها، فبلغنا مكاناً في غاية الجمال... وقف الدرويش عن السير. وقال: ما أجمل هذه المناظر! لو تناولنا غداءنا في هذا المكان.

فقلت له: ومن أين نجد طعاماً في هذا المكان النائي؟

فقال: وهل ضعف يقينك بي؟ فنادى بصوت عالٍ: غداء! وإذا بمائدة جاهزة توضع بين يديه، وفيها من الطعام ما لذ وطاب.

فصرتُ أنظر إليها وأنا متعجب، حائر، وألعن الشيطان!.. وإذا بالرجل، يلطمني على وجهي بكل ما أوتي من قوة...

فقلت: ولماذا؟ ما الذي صنعت حتى أغاظك؟ إنما ألعن الشيطان، لعنه الله! فلطمني ثانياً، قائلاً: أتلعن من هو ولي نعمتي، المتفضل عليّ بعظيم النعم، إنه هو معبودي ومقصودي ولولاه لما كانت هذه المكرمات، ومن جملتها هذه المائدة. فتقديسي لإبليس وعبادتي إياه وإطاعتي له جعلتني موضع عنايته، فيهيئ لي ما أريد وما أشتهي، يقول الشاب: علمت إذ ذاك أن الدرويش كافر مشرك، فتركته وسافرت إلى العتبات المقدسة تائباً مما كان مني أثناء غفلي...

فشياطين الجن يقومون بتحقيق رغبات من يوافقهم في كفرهم وجحودهم ويخدمونهم حتى يوردوهم جهنم وبئس المصير. إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: الآية ٦].

فمن الناس من يعبد الجن ويحقر المقدسات ويقوم بإهانتها لتمييز عن الآخرين بما سيهيئ له إبليس ما يدهش الألباب من أعمال يعجز عنها الإنسان حسب ملكاته الخاصة

به . إنه تعالى يقول عندما يصف أحوال يوم القيامة : ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْلُوا لِيَأْكُرْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِسْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ [سبا : الأيتان ٤٠ / ٤١] .

وقد نقل أحد كبار العلماء أنه قد كان في أصفهان رجل تصدر منه الخوارق ويخبر عن أشياء خفية لا يعلمها إلا أصحابها .

فإذا كان موسم الحج . سافر من أصفهان في السابع من ذي الحجة ، فيرى في مكة وهو يصفح الحجاج ويرجع قلبهم مع عدم وجود طائفة في ذلك الوقت . إنَّ الرجل كان معزراً مكرماً حتى وافته منيته .

وبعد مضي مدة على وفاته رأى ولده ذات يوم في موسم الحج أي في السابع من ذي الحجة وهو جالس في بيته ، إذ دخل عليه رجل قائلاً له ، إني كنت آتي أباك كل سنة في مثل هذا اليوم ، لآخذه إلى مكة ، وكان قد أحضر دابة ، فقال لي : اركب . فركبت ، وبعد مدة وجيزة جداً صرنا في البر ، فنزل ونزلت ، فقال : أنا الشيطان . . . أسجد لي كما سجد لي أبوك من قبل . .

يقول الولد ، فقلت له : لست بساجد لأحد غير الله تعالى ، إنما أسجد لله وحده لا شريك له . فطفق يلح ويلحف ، حتى أعبى ، فلم ألْب طلبه ، فتركني في الصحراء وانصرف . ثم إني صرت أدعو الله جلَّ شأنه لينجيني فما ألمَّ بي ويوصلني إلى بلدي . فمنَّ الله عليَّ بالنجاة وذلك بإلهامي الطريق المؤدِّي إلى بلدي . فكان الولد بعد هذه الحادثة يلعن أباه ، لأنه كان من عبّاد الشيطان .

وإنما نهى الشارع عن إحضار الجن والأرواح وعدَّ ذلك كبيرة لما يؤدِّي ذلك إلى إطاعة الشيطان وعبادته وسوء العاقبة ، أعاذنا الله منها .

وأنَّ مثل هذه الواقعة التي ذكرناها وقائع كثيرة ، فمن طاروع الشيطان في كفره وإلحاده وتوهمه المقدَّسات وسبَّه أولياء الله والولج في شتى المعاصي وأطاعه ، كان

الشیطان عوناً له في الإخبار عما خفي عن الناس وتهيئة ما يريد من أشياء ووسائل .
وقد سمعت ممن اتصل بامرأة كانت تحضر الجن، أنه أراد أن يقوم بإحضار الجن
بطريق غير شيطاني . فعلمته المرأة (واسمها صغرى) أن ينزل إلى السرداب ويرسم
دائرة ويجلس في وسطها ويقرأ الأوراد المعينة . يقول الرجل : «امتثلت ما قالت المرأة
وصرت أقرأ الأوراد، فظهر أمامي أنواع الحيوانات المخيفة، بأشكال شتى، ثم ظهر
أمامي بحر خضم فيه تمساح كبير أراد أن يلتقمني . ففزعت وصحت : صغرى،
صغرى، أدركيني، فقالت أخرج إلى سطح الدار، يا ضعيف النفس ! » .

فخرجت إلى سطح الدار ولم أنجح في تطبيق ما أمرتني به . .
قد يستغرب مما أقول من تطبّع على التجارب الفيزيائية أو الكيميائية، ولكن لا
ينبغي لعالم مفكر دقيق أن ينكر ما لم يدرسه ولم يجربه ولم يتتبّع فيه . بل المفكر
الحقيقي هو ذلك الذي يجعل كلّ ما طرق سمعه في دائرة الاحتمال، فيسأل ويتتبّع
ويعقب ويجرب ويطبّق ليصل إلى واقع الأمر والحقيقة، من وجود أو عدم وجود ما
ينكره، حتى يكون حكمه مبنياً على الاستقصاء والتبّع والمداقة .

وما أكثر أحكام المتطفّلين على العلم الحديث وأوهنها وأضعفها وأبعدها عن
الحقيقة . إنها هوى النفس، وكبرها وطيشها ومروقها . إنها مظهر من مظاهر النفس
البهيمية ورشحات من نزواتها ومجونها تلبست بلباس العلم، والعلم منها براء .

إن ما يشاهد ويحدث من حوادث غريبة في الهند وغير الهند يجعل غير المعتقد
بما وراء الطبيعة في حيرة من أمره، لا يعلم كيف يجيب وكيف يحلّل الموضوع .
أنقل لكم ما حدث أخيراً عن امرأة هندية، تجيب على أصعب العمليات الحسابية
بسرعة عجيبة ؛ فقد سئلت عن جذر عدد كبير أصم، ووضع السؤال أيضاً في آلة معدّة
لحساب جذور الأعداد . فأجابت المرأة ارتجالاً أسرع من الآلة . فلم يطابق جوابها
ما استخرج من الآلة من جواب . فأعادوا عليها السؤال فأجابت نفس الجواب، فعلم
أن الخطأ إنما كان في ما استنتج من الآلة، وهي محقّة في جوابها .

فهناك في الهند مرتاضون يأتون بالأعاجيب وأظنهم لا يعلمون كيف تحدث على أيديهم هذه الأعاجيب والخوارق.

فقد ذكر لي أحد أرحامي وكان يتاجر في الهند، أن رجلاً هندياً كان يأتي بالغرائب، فيلتقط من الفضاء موزاً وكل ما يراد منه، وذات يوم كان راكباً في قطار، فطوب ببطاقة، فقال: ليس لي بطاقة فأريد منه النزول، فقال انزل ولكن القطار سوف لا يتحرك. وكان كما قال: فلم يتحرك القطار حتى ركبوا.

وذكر لي أحدهم، أنه كان يريد حمل مقدار من الأفيون دون مراجعة دائرة «الجمارك» إلى خارج إيران.

وسمع أن في إحدى قرى طهران رجلاً يخبر عما سيقع. فذهب إليه لعله يعلم بما سيحدث من أمر الأفيون حين نقله خارج الحدود. فما أن دخل عليه، حتى رأى الرجل المرتاض! يخاطبه قائلاً، لا تحمل الأفيون من الطريق الفلاني، واحمله من طريق آخر (وذكر الطريق)، فأنت تفوز بمراك.

يقول الرجل، أخذني العجب الشديد من هذا التنبأ، فقلت في نفسي، أبقى هذه الليلة في هذه القرية بالقرب من الرجل. لأراقب حاله وما عليه من رياضات.

يقول: «ذهبت إليه ما بين الطلوعين وصرت بالقرب منه، وهو تحت شجرة، فأوما إليّ، فدنوت منه، فلم أجده ممن يصلي أو يقوم بذكر وأوراد بل ألفيته وسخاً ذا أظافر طويلة، لا ترتاح لرويته النفس».

فقلت له: كيف تخبر عما سيكون. فقال: أنا أيضاً لا أعلم، كيف يحدث ذلك. وإنما تجري على لساني ألفاظ، فأرى الناس يرونها مطابقة لما يدور في خلدهم ويتحقق كل ما يُقال على لساني. ولست إلا آلة صماء، لا أعلم لماذا يتحرك لساني وماذا سيجري عليه.

يقول. ثم رأيت: أخرج قنينة صغيرة، فقال هذا سم، أتناول قليلاً منه. ثم أخرج ثعباناً صار يلدغه، حتى أغمي عليه، ثم صحا، وأخذ يشرب في إناء وسخ مقداراً كثيراً من الشاي مع السكر (النبات: على ما هو المصطلح). قال، هذه رياضتي، وهذا قوتي، وبعملي هذا بلغت ما بلغت ولا أعلم كيفية ذلك.

فهل للعلم الحديث أن يحلّل هذه القضية على ضوء ما توصّل إليه العلم المادي،
إنهما من عالمين مختلفين، عالم الطبيعة وعالم ما وراء الطبيعة، فلا يمكن أن تحلّل
قضايا غير ماديّة، قضايا ممّا وراء الطبيعة على ضوء مكتشفات ماديّة طبيعيّة، لأنهما من
وادين مختلفين.

إنّ الرجل الذي تقدّم ذكره، قد سلك طريقاً شيطانياً غير مرضي عند الله تعالى، وأذى
نفسه، فجوزي بأمر من الله في دنياه بهذه الميزة التي لا يعلم كيف تتجلّى له على حد قوله
تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَنَحْمِلُهَا عَنْهُمْ وَإِنَّهُمْ لَأُولَئِكَ
الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا الْتَارُ وَحِطْ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ [هُود:
الآيتان ١٥ / ١٦].

ولكن، هناك سلوك رحمانى وهو سلوك الأنبياء ﷺ والصالحين من عباد الله، سلوك
يطابق المنطق ويوافق العقل. فكم من آيات في القرآن تدل على إخبار بالغيب بإلهام من الله
وعظيم لطفه. وممّا قاله يوسف ﷺ وهو في السجن: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا
بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ
كَافِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي ابْرَهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ تُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ
مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [يوسف: الآيتان ٣٧ / ٣٨].
وقال عيسى ﷺ: ﴿وَأَتَيْتُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ
كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: الآية ٤٩].

وقد جاء في الأخبار أن رجلاً مرتاضاً هندياً أتى الإمام الصادق ﷺ وأظهر أنه
يعلم كل ما يخفي الصادق سلام الله عليه في يده، وكان كما ادّعى. ثمّ سأله
الصادق ﷺ بعد أن أخفى في يده أشياء عدّة، سأله ماذا في يدي؟ فقال قد تناولت من
أقصى الهند بيضة كانت قد باضتها حمامة في أعلى الشجرة الفلانيّة. وتعجّب مما قام
به الإمام الصادق ﷺ.

فسأله الإمام ﷺ: بِمَ وصلت إلى ما وصلت إليه فقال: بمخالفة النفس!.. ثمّ
عرض عليه الصادق ﷺ الإسلام. فأبى، فقال له الإمام الصادق ﷺ: أنت أخذت

على نفسك أن تخالف هواك . فخالِف هواك كما عاهدت نفسك . فقبل الرجل وأسلم .
ثمَّ أنَّ الصادق سلام الله عليه ، أخفى في يده شيئاً وأراد من الرجل أن يتنبأ ، فلم
يستطع . وقال ، ضاع عني ما كنت عليه ولا ألهم بشيء .

فقال له الإمام الصادق عليه السلام ، ما مؤداه : إنك كنت ضالاً ومتبعاً خطوات الشيطان ،
فجازاك الله لمخالفتك هوى نفسك بهذا الإلهام وميِّزك عن غيرك بهذه الميزة في دنياك ،
وكننت في الآخرة من أصحاب النار . ولكن الآن ، بعد أن تشرفت بالإسلام عاملاً
بنصوصه ، ذهب عنك ما توصلت إليه بطريق شيطاني مضل . وقد هيأ الله تعالى لك
آخرة سعيدة وحياة أبدية هنيئة .

وكم قرأنا في المجلَّات أنَّ أناساً أعطوا من الإلهام بحيث يجيبون على عملية
ضرب في الحساب : عشرة أرقام في عشرة أرقام بسرعة عجيبة ، دون أن يشعروا كيف
يجري ذلك على لسانهم .

إنَّ عوالم ما وراء الطبيعة عوالم عميقة تستدعي التحقيق والتفكير وهي ليست من
عوالم المادة ، (سانتيمتر ، غرام ، ثانية) في شيء ، فلا معنى لتحليل ما هو غير مادي
بمقاييس مادية مقتضبة . وإنَّ الله تعالى ، وله الحجة البالغة ، يهيئ لهذا الإنسان بين
الفينة والفينة حوادث لتذكيره ، أنَّ وراء هذا العالم المادي عالماً آخر لا يُشبه العالم
المادي في شيء ، وليس هناك مقياس مشترك بينهما كما في الحوادث المادية (الفيزيائية
أو الكيميائية) كي يزداد هذا الإنسان إيماناً بربه وخالقه ، وقدرته التي لا تحد ، وعظمته
التي لا تتناهى ؛ مع العلم أنَّ ليس للإنسان المحدود في جميع قابلياته أن يحيط بالله
الذي لا يحده شيء . وأنى للمحدود أن يدرك غير المحدود إدراكاً تاماً وأن يحيط به ،
إنما يؤمن ويوقن بوجوده وهيمته بقدر ما في نفسه من طهارة وصفاء .

إنَّ العلم الحديث ليعترف بالأشعة الكونية وهي لا تُرى ولها آثارها العجيبة
ويعترف بالثابت الإلكتروني وبأمواج الراديو واللاسلكي والتلفزيون وكل أولئك قوى
وطاقات لا ترى بالعين وموجودة في الفضاء ولها آثارها . فلا يصعب على العلم

الحديث وحاملي لوائه الاعتراف بوجود هو من نوع طاقات خاصّة، قد مَنْ الله عليه بعقل وإرادة وكلّفه بتكاليف وهو مسؤول أمام الله تعالى (وأعني بذلك الجن)، وهو القائل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) [الذّاريات: الآية ٥٦] .

قلنا آنفأً إن الماديّة قد تغلّغت في أوساط أوروبا وسرت إلى أصقاع أخرى، كل ذلك لتوفر وسائل الترف والفساد والإفساد وهتك الأعراض والحرّمات وشيوع الربا والخمور وأنواع الظلم والفجور، فأظلمت النفوس، وتحجّرت العقول، حتّى صارت لا تبصر الحق والواقع، فقد جاء في الحديث: «إذا أذنب العبد كانت نكتة سوداء على قلبه، فإن هو تاب وأقلع واستغفر، صفا قلبه منها، وإن هو لم يتب ولم يستغفر كان المذنب على الذنب والسوداء على السوداء حتى يغمر القلب» .

ولو تتبّعت نفوس هؤلاء الماديّين المنحرفين، لوجدتهم أبعد الناس عن العطف والحنان والأخلاق الفاضلة وأقرب الناس إلى الشهوات والملذّات والإفساد والبغي والظلم، تشهد بذلك حياة (كارل ماركس) في صغره وشبابه ومع والديه وأخواته . فقد كان ينقطع عن الجامعة ويذهب إلى السكر والدعارة، يترك (بون) مقر الجامعة ويذهب إلى (كولون) في جوارها ويتبغى فيها ملاهي السمر . سيق إلى الشرطة لإفراطه في السكر والعريضة! وقد استخدم الأسلحة النارية . كان فيه شهوة الهدم والتخريب، كان أنانياً يخلق التهم، حسوداً، مغروراً . كان يعامل من يخالفه معاملة ملءها التحقير والازدراء . ويقول لكل من يخالفه في الرأي: (بورجوازي). كان مغروراً بآرائه ويقول: آرائي وأفكاري . . . ولا يقبل أي نقاش . كان مسلوب العاطفة . فلم يذهب إلى بلده حين مات أبوه وبقي في برلين وهو رب الأسرة بعد والده . واسترسل في الطلب حتى نفذ نصيبه من الميراث، فمال إلى نصيب أمه وإخوته . وكان قبلاً قد أرهق أباه في طلب المال؛ وقد انتحرت بنتاه: (لورا وأختها) . عقد مقاوله مع الجرائد وأخذ مبلغاً ولم يف بمنطوق العقد . وعقد اتفاقية مع (ألكسي) على كتابة نظريّاته الاقتصادية (هذه التي لم تتل نصيباً من التطبيق لكونها بعيدة عن واقع الحياة)، وقبض ألفاً وخمسمائة فرنكاً وعقد في نفس الموضوع اتفاقية أخرى مع شخص آخر ولم يف بكتليهما!

نعم، إن رجلاً هذا ديدنه وتلك صفاته حقيق أن تترشح منه هذه الأباطيل. بأن يقول: «إن الديانات والعقائد جميعاً إنما هي انعكاسات الضرورات الاقتصادية». إن لم يكن قد قصد وراء ذلك الانتصار للصهيونية عن طريق الهدم والإفساد، وسحق المقدسات! ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِهِمْ فَلَوْبَهُمْ هُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: الآية ٤١].

إنه تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ [البقرة: الآية ٩٩]. وفي آية أخرى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: الآية ٢٦]. فقد أغلق الله تعالى على الفساق أبواب الهداية حتى يوربوا ويتوبوا. هذه هي سنة الله في أرضه وسمائه. ﴿وَلَنْ نَحْدِلَ إِسْنَةً اللَّهُ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: الآية ٦٢].

حقاً لو تعمقنا في ما سنّه الله تعالى وأقرّه لألفينا في ذلك كل المنطق وتمام العدل. وذلك لأنه بالتقوى والورع يعمر القلب وتتكامل النفس، فتصبح قمينة للفيوضات الرحمانية والألطف الربانية، وبالفسق والفجور يتحجر القلب وتظلم النفس، فلا تجد لمعرفة الله تعالى طريقاً ولا لرفده سبيلاً. ﴿سُئِلَ اللَّهُ فَسَيِّئُهُمْ﴾ [التوبة: الآية ٦٧] والإنسان الظالم لنفسه، هو الذي قد سد على نفسه أبواب المراحم الإلهية والنفحات القدسية الصمدانية: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: الآية ١١٨]. وفي آية أخرى: ﴿سَأُورِيكَ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٥].

إن أوروبا لا تزال منهمكة في فجورها وخمورها وما دامت كذلك، فلا تجد لهداية الله سبيلاً، إلا أفراداً قلائل ممن لم تغرهم المادة الصماء، فتابوا وأتابوا واستضاءوا بنور الإسلام ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [٢٥] وداعياً إلى الله بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤١﴾ [الأحزاب: الآيتان ٤٥/٤٦].

فقد ذكر لي أحد الأصدقاء أنه ذهب إلى ألمانيا في الصيف الماضي، وقد زار أخاه في إحدى المدن وكان أخوه قد سافر قبلاً لتكميل تحصيله وأخذ درجة الدكتوراه. فرأى أخاه على غير ما كان عليه من قدسية مرموقة، وصلاة مع الجماعة ودعاء وابتهاال

لبالي الجمعة في الحرم الشريف. رآه قد انغمر في ما حرم الله وأخذ الإيمان يتضاءل في نفسه، والجحود يأخذ طريقه إلى خلده. وكان يتحدث له أخوه: أن في الغرب، يرحب الأخ بمن يتصل بأخته بطريق غير مشروع ويراه أمراً طبيعياً لا غرابة فيه... .

فصار يصف لي عوالم الليل، قائلاً: إن أكثر مدن ألمانيا مليئة بالحدائق العامة الكبيرة وتكاد تكون بعض المدن مجموعة من الحدائق. فإذا جنَّ الليل، لا تجد في هذه الحدائق إلا بصيصاً من الضوء، بقدر ما يميّز الشخص طريقه. والناس من رجال ونساء، ينزو بعضهم على بعض حتى الصباح.

قارن. أيها الفارئ الكريم، بين هذه الحياة البهيمية وحياة قدسية أخرى في بعض المدن الإسلامية ترى المؤمن يقوم قبيل الفجر بساعة أو أكثر من فراشه قائلاً: (كما كان يقول رسول الله ﷺ)، «الحمد لله الذي أحياناً بعدما أماننا وإليه النشور»^(١)، فيتوضاً متوجهاً ب كله إلى الحق المتعال. قائلاً بخشوع: «بسم الله وبالله، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين»^(٢)، فيأخذ طريقه إلى الحرم الشريف أو إلى مسجد قريب «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد... الحديث»^(٣)، فيستقبل القبلة، متهجداً^(٤)، بخشوع لا مزيد عليه، فيصلي لربه ركعات، ثم يستغفر الله تعالى مائة مرة في قنوت ركعة الوتر^(٥). فإذا انتهى من صلاته بكى^(٦) نادماً على ما اجترحت يده من ذنوب، وناجى ربه بخشوع، محاسباً نفسه على كل صغيرة وكبيرة، فقد جاء في

(١) بحار الأنوار: ج ٧٣، ص ٢١٨، باب ٤٤، ح ٢٥.

(٢) الكافي: ج ٣، ص ٤٤٥، باب صلاة النوافل.

(٣) تهذيب الأحكام: ج ١، ص ٩٢، باب ٤، ح ٩٣.

(٤) ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَجَدَ بِهِ. قَائِلًا لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: الآية ٧٩].

(٥) ﴿قُلْ أَذُنُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لَئِنْ أَتَقُوا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَعَلْتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِيشٌ مِنْ أَلْفِ نِجَمٍ وَاللَّهُ بِعَمَلِكُمْ بِالْبَصَادِ ﴿٧٥﴾ الَّذِي يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَتَيْنَاكَ فَافْزَعْ لَنَا دُؤُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٧٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُسْتَقِيمِينَ وَالْمُسْتَقِيمِينَ بِالْأَسْجَادِ ﴿٧٧﴾﴾ [آل عمران: الآيات ١٧/١٥].

(٦) روى أبو حمزة عن أبي جعفر عليه السلام: «ما من قطرة أحب إلى الله من قطرة دمع في سواد الليل مخافة من الله، لا يراد بها غيره».

الحديث: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا»^(١)، حتى إذا أعلن المؤذن دخول وقت صلاة الصبح، قام فصلّى ركعتي النافلة، ثم يبدأ بصلاة الصبح مع الجماعة إن وُجدت، وإلا فيصلّي فرادى، ثم، يقوم بالتعقيبات الواردة عن أهل بيت العصمة عليهم السلام. فيخرج من المسجد، وهو مملوء فرحاً وسروراً لهذا الاتصال المعنوي القدسي، فهو تقرب إلى الله جلّت عظمته، وإن هذا التقرب المعنوي هو غاية الغايات في الحياة الدنيا^(٢). فالإنسان يعد فائزاً في دنياه بقدر ما ينال من هذا التقرب القدسي من نصيب. وبعد ذلك يستقبل الحياة متوكّلاً على الله تعالى بتقوى لا مزيد عليها ونفس زكية تتجنّب الغش والخديعة، بل جلّ غايتها خدمة الغير. وإرضاء ربها. «من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم... الحديث».

فأي الفريقين أقرب إلى الله؟ وأيهما أولى بولوج الفكرة المادية في نفسه. إنها الذنوب ومن ورائها الشيطان يزئّن لهذا الإنسان الطائش فكرته المادية وما يقوم به من إفساد في الأرض، بل يجعله أن يقول بالتأكيد أن العقائد والشرائع كلها خرافات وأوهام، وأفكار بورجوازية (Bourgeoisie). فلا حقيقة في الكون إلا المادة. هذه المادة التي لا يقوى المادي على تعريفها وبيان حقيقتها وكشف أسرارها وقوانينها إلا اليسير منها جداً، وهل للمادة أن تضع لنفسها قوانين فتطيعها ولا تتخلف عنها. لعل هذا المادي قد أحاط بالكون، فسافر إلى مسافات تبعد عنا ملايين ملايين ملايين... ملايين من الأميال بسرعة تفوق سرعة الضوء بمقدار لا يتناهى ووقف هناك على ما تقوم به (المادة) من خوارق ومعاجز وما تنظمه من قوانين ومعادلات في تنظيم هذا الكون المادي! بعقل جبار!

فطوبى لنفوس توجّهت إلى الحق بنفس لم تتلوّث بآثامها ومظالمها، فأمنت بكل

(١) وسائل الشيعة: ج ١٦، ص ٩٩، باب ٩٦.

(٢) وقد جاء في ما أوحى الله إلى موسى بن عمران عليه السلام: «يا ابن عمران، هب لي من عينك الدموع ومن قلبك الخشوع ومن بدنك الخضوع، ثم ادعني في ظلم الليالي تجدني قريباً مجيباً».

ما أنزل الله من آيات بينات وبمن أرسل من رسل وأنبياء مبشرين ومنذرين وآمنت بوحى من نفسها وعقل لم يدنسه شيطانها ولم تُزح به إجرامها بما غاب عنها: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: الآية ٣] وصارت تعمل على ضوء تعاليم محمد والأئمة من بعده عليهم الصلاة والسلام للسير في مدارج الكمال البشري حتى تكون قمينة للخلود في جنة ﴿عَرْشُهَا السَّمَكُوتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: الآية ١٣٣] . وقد جاء في الحديث: «الدنيا ساعة، فلا تجعلها إلا طاعة».

حقاً: إن الوعظ والإرشاد لا يؤثران إلا في نفوس تخشى الله في خلواتها، نفوس تراقب الله في السر كما تراقبه في العلن، تعمل وفق ما تمليه عليه الفطرة! ﴿فَظَرَّتْ اللَّهُ أَلَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الرؤم: الآية ٣٠] . إن نفوساً كهذه قمينة بأن تسير في معارج الكمال فتقطع مراحل التزكية وما أُلذها! إنه تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا نُزِذُّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [فاطر: الآية ١٨] .

ونختم هذا المقال بقوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَقَدْ وَزَّيْنَةً وَفَافَخْرًا بَيْنَكُمْ وَتَكَاثَّرُوا فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرْتَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (١٥).

﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٢١) [الحديد: الآيتان ٢٠/٢١] .

فالله تبارك وتعالى قد هباً لصالحى عباده جنة عرضها كعرض أرضنا وما يتلوهما من سماء أى من أنجم وكرات وما بينها من مسافات شاسعة وذلك فى فضاء لا يتناهى خارج هذا الفضاء الذى هو سماؤنا، أو بشكل آخر. فعلم الفلك الحديث يخبرنا أنه قد اكتشفت مجموعة من مجموعات الكواكب تبعد عن الأرض ١٠^{٢١} × ٦ ميل. وإن شعاعه لا يصل إلينا إلا بعد (ألف مليون سنة ضوئية) ومعلوم أن الضوء يقطع فى الثانية (١٨٦٠٠٠) ميل. فيجب أن يسير الضوء أو الشعاع الصادر من تلك المجموعة بسرعة ١٨٦٠٠٠ ميل/ ثانية خلال ألف مليون سنة حتى يصل إلى كرتنا الأرضية.

فالله الذى قد عبأ فى الشمس طاقة هائلة حتى كان الانفجار الذى قد حدث فيها قبل بضع سنين قد قُدرت طاقته (الطاقة الناجمة نتيجة ذلك الانفجار) بقدر طاقة مائة

مليون قنبلة هيدروجينية دفعة واحدة، قادر أن يخلق جنة عرضها كعرض السماء والأرض في ما لا يتناهى من مسافات وأبعاد خلقها بقدرته ودبرها بتدبيره.

فليس لهذا الإنسان المحدود في تفكيره وملكاته ومحركاته أن يقيس العوالم اللانهائية بمقياسه المقتضب المحدود، فمن درس أبحاث اللانهاية في الرياضيات العالية، يعلم أن من الخطأ الفاحش قياس العوالم اللانهائية بمقياس عالمنا المحدود بجميع ما فيه من مواضيع. وإن فلسفة تبنى على مقياسنا المحدودة، فلسفة واهية ليس لها من الواقع نصيب.

وهكذا تجعلنا العلوم الحاضرة أن نعتقد بما غاب عنا مما لا يدرك بالحواس الخمس أو لا يرى بالعين. وكلما تقدمت هذه العلوم مماشية طهارة النفس والتقوى تحقق لهذا البشر أن المادية ليست إلا نزعة شيطانية جاءت من جراء تلوث النفوس ولا حقيقة لها في عالم العلم والمكتشفات، وإن إنسانية الإنسان لا تتحقق إلا بالتجرد عن هذه المادية في العقيدة والسلوك والتمسك بالمقدسات والإيمان بالغيب واتباع سنة الرسول الأمين وأهل بيته المعصومين سلام الله عليهم أجمعين.

فلسفة المعاد^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: الآية ١١٥].

هكذا يخاطبنا الله تعالى في محكم كتابه فمن شاهد هذه القوانين المحكمة الرصينة في عالم الوجود: عالم الذرة، وعالم الجماد وعالم النبات وعالم الحيوان وعالم

(١) نشر هذا البحث «فلسفة المعاد» في رسالة مستقلة من قبل «مكتب منابع الثقافة الإسلامية، بكرلاء. وقد رأيت، مع تقديري وشكري للمكتب المذكور، أن أضيف شيئاً إلى البحث وأجعله من مواضيع الجزء الثالث لكتاب «التكامل في الإسلام».

الإنسان، في الفيزياء والكيمياء والفلك العالي، وفي علم الأحياء والمستحاثات (المتحجرات)، يقطع بأن الذي رتبها ونظمها لا يلهو ولا يلعب. وهو القائل: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَأَتَّخِذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنَّ كُنَّا فَعَلِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ١٧]. وفي آية أخرى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْبٍ﴾ [٢٨] مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ [الدخان: الآيتان ٣٨/٣٩].

فإذا تتبع الإنسان حياته النفسية في هذه الدنيا وما عليه نفسه من مساوئ أخلاقية: حسد وبغضاء وحقد، ونميمة وغيبة، ظلم وبغي وبطش بغير حق، ثم ما يراه من حيف وظلم وقسوة وجفاء وبهتان وغيرها من آخرين، وما يرى من تشاجر وتطاحن لأمر مادية سخيفة أو لجشع بين الأمم، وما يرى من ظلم واستعمار وغمط للحقوق بين الدول، وما يشاهد من حروب لا تبقي ولا تذر، يقطع بأن الله الذي خلق هذا العالم المادي من سماء وأرض، وما خلق فيه من جماد وحيوان، وما أودع فيه من كمال، ما بعده كمال، لا يريد بهذا الإنسان إلا (الكمال)...

ذلك لأنه يقطع بأن الكامل على الإطلاق وهو الله تعالى لا يصدر منه إلا الكمال، ويقطع بأن البشر غير كامل في هذه الدنيا من النواحي النفسية والأخلاقية والاجتماعية. وهو في هذه الحالة - إلا من شذ فصار يتكامل على ما رسمه رسول الله ﷺ - أشبه بالحيوانات الضارية، يضر بعضه البعض، إن وجد إلى ذلك سبيلاً. يقطع بأن الله الذي أكمل كل شيء من مخلوقاته سوف يجعل لهذا الإنسان عالماً آخر كله اطمئنان وخلود وكله حبور وسرور، عالماً فيه ﴿مَا شَتَّهِهِ الْآنَفُسُ وَتَكَلُّدُ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: الآية ٧١]، عالماً لا تطاحن فيه ولا تشاجر ولا تجاوز ولا اعتداء، ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ يُبْهِرِي مِنْ تَحِيهِمُ الْآنْهَرُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَيْنَا بِالْحَقِّ وَلَوْ دَرَا أَنْ يَلَكُمُ الْجَنَّةُ أَوْ رِشْمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٤٣]، عالماً يقول عنه تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: الآية ٤٧].

عالماً ليس فيه ما يلوث النفس الإنسانية من ميسر (قمار) ولحم خنزير وفسق وفجور

وخمرة تذهب بالعقل بل ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾^(١) ﴿بِضَاءٍ لِّذَوِّ الشَّرْبِ بَيْنَ﴾^(٢) لَا فِيهَا عَوَلٌ^(٣) وَلَا هُمْ عَنْهَا يُزْفُونَ^(٤) ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَتُ الظَّرْفِ﴾^(٥) عَيْنٌ^(٦) ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾^(٧) [الصَّافَات: الآيات ٤٥/٤٩].

عالمًا فيه حياة اجتماعية رفيعة، لا تشبه ما نحن فيه من هذه الحياة الملوثة بالآثام والإجرام والإحزن والبغضاء والتطاحن والتشاجر.

عالمًا يقول فيه الفائزون ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾^(٨) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ^(٩) وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ^(١٠) ﴿[قاطر: الآيتان ٣٤/٣٥].

فلا حزن ولا تعب ولا نصب ولا لغوب في ذلك العالم، بل كله طمأنينة وصفاء وراحة لا تقاس بالراحة التي ينالها الفرد بصورة مؤقتة وغير كاملة في الحياة الدنيا. وهذه من صفات ذلك العالم القدسي، المنزه من كل ما يشين النفس أو يزعجها أو ينقص راحتها، ﴿وَيَجْنِيهِمْ فِيهَا سَلَامٌ وَإِخْرُجُوهَا أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: الآية ١٠].

هل ترى في هذه الدنيا فرداً راضياً من حياته الدنيوية؟.. لا من حيث ما من الله عليه من نعم، فهي أعظم مما يستحقه هذا الإنسان بمراتب لا تعد ودرجات لا تُحصى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التحل: الآية ١٨]، وهي بمقدار من الوفور والكثرة بحيث لا يقوى الإنسان على أن يؤدي تجاهها ما يجب عليه من شكر مهما بلغ من مراتب الكمال. ولكن من حيث ما يشعر به من حياة ملوها بالمشاكل: مشاكل اجتماعية، مشاكل خلقية، مشاكل عائلية، مشاكل مرضية، وما هناك من نوائب وكوارث... فهو يشكو طوال حياته مشاكل كثيرة سيعود أو كانت هنالك

(١) أي من شراب معين أو نهر معين أي ظاهر للعيون أو نابع من العيون. (٢) أي قصرون نظرن على أزواجهن، فهن قاصرات العيون.

(٣) فساد كما في خمر الدنيا، أي ليس فيها.

(٤) غائلة تغتال العقل، وَاغْتَالَهُ فِي أَخْذِهِ غِيلَةً أَوْ

خلصة وهو غافل. (٥) لغوب: أعياء من التعب أو كلال.

(٦) يسكرون من أنزف الشارب أي ذهب عقله.

حياة أخرى خالية عن هذه المشاكل وهذه النواقص وهذه النوائب وهذه التأثيرات! . . .
نعم، كان حتماً في استطاعة الله تبارك وتعالى أن يجعل الحياة الدنيا، هذه التي نعيشها، حياة كاملة لا كدرَ فيها ولا أحزان. لا تطاحنَ فيها ولا نقصان؛ إلا أن الله تبارك وتعالى أراد بهذا الإنسان أن يتكامل في هذه الدنيا نفسياً، وأن يميّز الخبيث من الطيب (مع علمه بهما قبلاً) إتماماً للحجة، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: الآية ٤٢]، ليذهب هذا الإنسان بعد هذه التصفية الحقيقية، (بجهود يبذلها وبجدارة واقعية) إلى عالم الخلود، حيث الصفاء والسرور.

«فالناس مجزيون بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر»، ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: الآية ٧]. إنه تعالى يقول: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِيُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا سَعَىٰ﴾ ﴿٥٦﴾ فَلَا يُصَدِّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: الأبتان ١٥/١٦].

* * *

ثم إن المفكر في مخلوقات الله تعالى وما صدر عن الله من خوارق، وأعني بها هذه القوانين الفيزيائية التي تبهر العقول، يقطع بأن الكامل على الإطلاق وهو الله تعالى جلّ أن يلهو؛ يخلق هذا الإنسان، بهذه الكثرة المتكاثرة، ليفسد في الأرض ويلوثها ويكتفي بهذا وليس وراء ذلك هدف ولا غاية. وهو القائل، ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ ﴿٧٨﴾ [ص: الآية ٢٨]. ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٥٦].
يقطع بأن هذا لهو ولعب وجلّ أن يلهو ربنا سبحانه مع قوله تعالى: ﴿وَدَّرَ الَّذِينَ

أَتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآءٍ وَلَهُوَ وَغَرَّتُهُمُ الدُّنْيَا﴾ [الأنعام: الآية ٧٠].
يقطع من تفهم سنة الكمال وشاهدها بصورة جليّة واضحة في كل زاوية من زوايا هذا الكون: أن هذه الدنيا دار اختبار وامتحان: «الدنيا دار عمل ولا حساب، والآخرة دار حساب ولا عمل».

يقطع بأن الدنيا مدرسة يتكامل فيها حسب دساتير الأنبياء والأوصياء من بعدهم ﷺ.

يقطع أن سنة الكمال توجب أن تكون هناك، بعد هذه الحياة الملوثة! حياة التهيؤ والتزود، «الدنيا مزرعة الآخرة» حياة خالدة، لا كدر فيها ولا اختبار ولا ابتلاء. حياة فيها «ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر».

يقطع هذا الإنسان الذي يرى كمال الله تعالى متجلياً في كل ما خلق من مخلوقات، أن وراء هذه الحياة الدنيا المضطربة، حياة البغي والجور ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الحديد: الآية ٢١]، جنة يصفها علي عليه الصلاة والسلام، بقوله: «فلو رميت ببصر قلبك نحو ما يوصف لك منها لعزفت^(١) نفسك من بدائع ما أخرج إلى الدنيا من شهواتها ولذاتها وزخارف مناظرها، ولذهلت بالفكر في اصطفاق أشجار^(٢) غُيبت عروقها في كَثبان^(٣) المسك على سواحل أنهارها. وفي تعليق كبائس اللولو الرطب في عساليجها^(٤)، وأفنانها^(٥)، وطلوع تلك الثمار مختلفة في أغلف أكمامها^(٦)، تجنى من غير تكلف، فتأتي على مُنية مُجتنيها، ويطاف على نزالها في أفنية قصورها بالأعسال المصفقة^(٧) والخمور المروقة^(٨)، قوم لم تزل الكرامة تتماذى بهم حتى حلوا دار القرار وأمنوا نقلة الأسفار».

«فلو شغلت قلبك أيها المستمع بالوصول إلى ما يهجم عليك من تلك المناظر المونقة^(٩) لزهقت^(١٠) نفسك شوقاً إليها، ولتحملت من مجلسي هذا إلى مجاورة أهل القبور استعجالاً بها. جعلنا الله وإياكم ممن سعى (بقلبه) إلى منازل الأبرار برحمته».

إن الله تعالى يقول: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البَلَد: الآية ٤]. والكبد معناه التعب والشدة، إذ يكابد الإنسان الشدائد منذ احتباسه في ضيق الرحم إلى الموت وما

-
- | | |
|--|--|
| (١) عزفت: زهدت. | (٦) أكمام جمع كم (بكسر الكاف) وهو رعاء |
| (٢) تضارب أوراقها بالنسيم بحيث يسمع لها صوت. | الطلع وغطاء النور. |
| (٣) جمع كتيب وهو التل. | (٧) المصفقة: المصفاة. |
| (٤) جمع عسلاج وعسلوج وهو ما أخضر ولان | (٨) المروقة: المصفاة. |
| من قضبان الشجر. | (٩) المونقة: المعجبة. |
| (٥) جمع فتن وهو الغصن. | (١٠) زهقت: خرجت. |

بعده، إن لم يُطهر ولم يكمل في دنياه، عالم التكامل والتزود بالتقوى فلا بد لهذا الإنسان أن يجهد نفسه وأن يتغلب على شهواته وأن يخالف هوى نفسه، كي ينال السعادة الأبدية، ﴿فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ ۖ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مِلْكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: الآية ٥٤/٥٥].

وهو القائل أيضاً: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: الآية ٦]. والكدح معناه بذل أقصى مراتب الجهد. فالدنيا دار جهد وعناء وعمل متواصل لنيل درجات رفيعة والبلوغ إلى راحة أبدية سرمدية: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: الآية ٤٨].

هذه هي فلسفة الحياة الحقة على وجه العموم. فلا تبديل لسنة الله وما شرع وقرر: ﴿وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: الآية ٦٢]. وإن ما قرره الله تعالى حق تعلوه رحمته، «وسعت رحمته كل شيء» يعترف بذلك العقل المتكامل والنفس غير الملوثة.

نعم، لم يخلق هذا الإنسان عبثاً: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) كَتَبْنَا إِلَيْكَ مَبْرُوكًا لِدَبَرِئِهِ ءِآيَاتِهِ وَلِنُذَكِّرَ أَوَّلُوا الْأَنْبِيَاءِ [ص: الآيات ٢٧/٢٩].

فعدم القيام بما أمر الله تعالى من واجبات الشكر، من إنفاق وبذل واهتمام بإطعام المساكين ﴿وَلَا تَخْضَوْنَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ [الفجر: الآية ١٨]، وبر الوالدين وصلة الأرحام وتواضع للفقراء والبوساء والقيام بحوائجهم وحوائج سائر الناس، وصلاة وصوم وزكاة وخمس وحج والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر وإرشاد الناس إلى معالم الدين، كل ذلك نتيجة الكفر والجحود. فإذا حلَّ الكفر اضطربت المحاكمات المنطقية الصحيحة بشأن فلسفة الحياة وانسحب نتيجة لذلك العقل الذي يُعبد به الرحمان ويكتسب به الجنان. وصار يقول هذا الفرد المتردي: ليست هنالك غاية من خلق هذا الكون. ويثَّهم من لا يوافقه في الرأي بالرجعية، أو تكون هذه الكلمة (الرجعية) أقوى دليل! لهرائه، دون أن يجعل للمنطق مجالاً للتحليل والتحقيق.

حتى إنني سمعت ممن كوَّنته المدنية المادية الحاضرة، قبل حوالي ٣٢ عاماً وهو

على فراش المرض، سمعته يقول: ما هذا النظام الأهرج في هذا الكون؟ ما هذا التبلبل، وما هذا التسبب؟ وكان يصم العالم بالانحلال والتبعثر وعدم وجود حكمة تربط ما في الكون بعضه ببعض، أو نظام تتظم بموجبه أجزاء الكون بعضها مع بعض. إنها رشحات نفسه الجاحدة لأنعم الله الكثيرة، المارقة عمّا حدّد الله ومنه في جميع مجالات الحياة...

إنه لا يجرؤ باتهام نفسه البهيمة ولا يعتبر بما أصابه من مرض وأوجاع كي يرجع عن طيشه وعيه، لكنه لذنوب كثيرة تلوث بها نفسه أمسى جرثومة لا يفيد معها أي منبه أو إرشاد أو إصلاح: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: الآية ١٤]. ونستجير بالله من هذه المرحلة التي مآلها النار، لا محالة.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طِبَنَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُخْرَجُونَ عَذَابُ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: الآية ٢٠]. إنه يسلي نفسه المتسافلة بقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: الآية ٣٧]. وبقوله: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البجائية: الآية ٢٤]. حقاً، إنهم ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الرُّوم: الآية ٧].

وأظنك قد فكرت كثيراً: لماذا هذه الأمراض في هذه الدنيا؟ ولم هذا الفقر في بعض الأوساط أو لبعض الأشخاص بصورة مؤقتة أو دائمية؟. ولماذا هذه الابتلاءات والنوائب؟ لماذا هذه الحروب التي لا تبقي ولا تذر؟ لماذا هذه الحرارة في الجو إلى درجة لا يستريح معها الفقير لعدم وجود وسائط لديه، ولماذا هذه البرودة في الشتاء إلى درجة يعجز عن مقاومتها البائس المسكين؟ أليس الله بقادر أن يجعل هذه الأرض فردوساً يتنعم فيه الإنسان فيرتع فيه ويمرح بهناء؟

فإنك بأسئلتك هذه قد شعرت أنه لا بدّ بعد هذه الدنيا الملوثة عالم آخر كله صفاء وكمال. ولعلك تصل إلى هذه النتيجة أن ليس في هذه الحياة الدنيا من نقص من جانب الله تعالى، وإنما سخر لهذا الإنسان كل شيء على حد قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ

لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَ وَبَاطِنُهُ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ [لقمان: الآية ٢٠] . وما يراه هذا الإنسان نقصاً إنما هي مواد امتحانية من صميم النفس يريد الله أن يختبر بها عباده في النوائب والكوارث . يختبر صبرهم في النوائب^(١) فيطهرهم بها ، ويختبر كذلك درجة شكرهم تجاه النعم من إنفاق وإيثار كي ينال كل فرد في الآخرة درجة تناسب مع عمله : ﴿هُم دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرُورٍ يَّمَّا يَمْتَلُونُ﴾ [آل عمران: الآية ١٦٣] . على أن هناك مسرات وأفراحاً مشروعة لا تعد ولا تحصى . لا يقوى الإنسان على أن يقوم بأداء شكر جزء ضئيل منها ، ﴿وَقِيلَ مَن عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: الآية ١٣] .

فإذا كنت أنت مع ما فيك من نقائص كثيرة، ترى ضرورة حياة كاملة مستكملة للشرائط، متوفرة فيها وسائل الراحة، يكافأ بها المؤمن تجاه صبره وشكره واجتيازه المواد الإمتحانية بطاعة واختيار، فكيف بالله ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ [الإنطار: الآيتان ٨/٧] .

إن الله قد جعل تلك الحياة السعيدة وأعني بها الحياة الآخرة المستكملة لشرائط الراحة جزاءً موفوراً لصالحى عباده، أولئك الذين نجحوا في امتحاناتهم الدنيوية وجاهدوا في تزكية نفوسهم وتطهيرها من الدنس وسعوا للتكفير عن ذنوبهم لتسير نفوسهم نحو أوج الكمال .

إنه تعالى يقول: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي يَدُ الْمَلِكِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ يُبَلِّغُكُمْ أَتْكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٢﴾ [المُلْك: الآيتان ٢/١] . فيعرفنا الله تبارك وتعالى أن الغاية من إيجادنا بعد أن لم نكن شيئاً ومكثنا في الحياة الدنيا إنما هي للامتحان والاختبار ومعرفته تعالى ولكي ينال كل منا بعد الموت درجة يستحقها نتيجة عمله . وهو القائل: ﴿وَتَسَرَّوْهُمَا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَأْتُوايَ الْأَلْبَسَ﴾ [البقرة: الآية ١٩٧] وفي آية أخرى: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

(١) ولا بأس بذكر هذا الحديث: «من صبر على خلق امرأة سيئة الخلق واحتسب في ذلك الأجر، أعطاه الله ثواب الشاكرين» .

أَعَدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾
[الحديد: الآية ٢١] .

فقد جاء في الحديث: «حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات»^(١).

وفي حديث آخر: «لا يزال الهم والغم بالمؤمن حتى ما يدع له ذنباً»^(٢).

وفي حديث عن أبي عبدالله عليه السلام: «كلما ازداد العبد إيماناً ازداد ضيقاً في معيشته»^(٣)، وكذلك عن أبي جعفر عليه السلام: «إنما يبتلى المؤمن في الدنيا على قدر دينه»^(٤). وكذلك عن أبي عبدالله عليه السلام: «المؤمن لا يمضي عليه أربعون ليلة إلا وعرض له أمر يحزنه يُذكر به»^(٥).

وفي حديث آخر: «إن المؤمن لو كان في جحر ضب لسلط الله عليه من يؤذيه».

وفي حديث آخر: «إن الله ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الطبيب المريض بالدواء»^(٦). وفي حديث آخر: «إن الله إذا أحبَّ عبداً ابتلاه ليسمع تضرُّعه»^(٧). كل ذلك ليظهر الله تعالى عبده الآثم ممّا علق به من دنس ورجس كي يذهب من هذه الدنيا طاهراً نقياً لا إثم عليه. ونذكر تأييداً لهذه الحقيقة هذين الحديثين:

فعن الإمام الصادق عليه السلام. قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول: وعزّتي وجلالي لا أخرج عبداً من الدنيا وأنا أريد أن أرحمه حتى أستوفي منه كل خطيئة عملها، إما بسقم في جسده، أو بضيق في رزقه وإما بخوف في دنياه، فإن بقيت عليه بقية شددت عليه عند الموت، حتى يأتي ولا ذنب عليه فأدخله الجنة»^(٨).

وعن الصادق عليه السلام أيضاً: قال النبي ﷺ: قال الله تعالى: «وعزّتي وجلالي لا أخرج عبداً من الدنيا وأنا أريد أن أعذّبه حتى أوفيه كل حسنة عملها، إما بسعة في رزقه أو بصحة في جسمه وإما بأمن في دنياه، فإن بقيت له بقية هونت عليه الموت حتى يأتي

(١) بحار الأنوار: ج ٦٨، ص ٧٢، باب ٦٢.

(٢) أصول الكافي: ج ٢، ص ٤٤٥، باب تعجيل العقوبة.

(٣)، (٤)، (٥)، (٦)، (٧) أصول الكافي: ج ٢، ص ٢٦١، باب فضل فقراء المسلمين، ح ٤.

(٨) أصول الكافي: ج ٢، ص ٤٤٤، باب تعجيل عقوبة الذنب، ح ٣.

ولا حسنة له عندي، فأدخله النار»^(١).

وهذا مصير من أتم الله عليه الحجة مرات، وأغلق عليه من النعم ما لا يُحصى فلم يُفقه كل ذلك وتمادى في طيشه وغيه وظلمه وبغيه، فأمسى جرثومة فساد لا تصلحه ولا تزكّيه إلا النار!

وفي حديث آخر: «إذا أراد الله بعبد خيراً، فأذنب ذنباً أتبعه بنعمة ويذكره الاستغفار، وإذا أراد بعبد شراً فأذنب ذنباً أتبعه بنعمة لينسيه الاستغفار»^(٢). وقد بينّا سبب ذلك. يقول الله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْكَذِبِينَ أَُولَى النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُزَّ قَلِيلًا﴾ [المزمل: الآية ١١].

وقد روى علي بن إبراهيم عن هارون بن مسلم عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ يوماً لأصحابه: «ملعون كل مال لا يُزكى، ملعون كل جسد لا يُزكى ولو في كل أربعين يوماً مرة، فقيل: يا رسول الله: أما زكاة المال فقد عرفناها، فما زكاة الأجساد؟ فقال لهم: أن تصاب بأفة» قال: فتغيرت وجوه الذين سمعوا ذلك منه، فلما رأهم قد تغيرت ألوانهم، قال لهم: أتدرون ما عنيت بقولي؟ قالوا لا، يا رسول الله، قال: بلى، الرجل يخدش الخدشة وينكب النكبة ويقد القدة ويمرض المرضة ويشاك الشوكة وما أشبه هذا، حتى ذكر في حديثه اختلاج العين»^(٣).

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «في كتاب علي عليه السلام: إن أشد الناس بلاءً، النبيون ثم الوصيون، ثم الأمثل فالأمثل، وإنما يتلى المؤمن على قدر أعماله الحسنة، فمن صحّ دينه وحسن عمله اشتدّ بلاؤه، وذلك أن الله عز وجل لم يجعل الدنيا ثواباً لمؤمن ولا عقوبة لكافر. ومن سَخَفَ دينه وضعف عمله قلّ بلاؤه، وأن البلاء أسرع إلى المؤمن التقى من المطر إلى قرار الأرض»^(٤).

وفي حديث آخر: «أيُّ مَنْ صَفَّتْ له دنياه فاتَّهمه في دينه»^(٥). كل ذلك يدل أن

(١) أصول الكافي: ج ٢، ص ٤٤٥، باب تعجيل عقوبة الذنب، ح ١٠.

(٢) أصول الكافي: ج ٢، ص ٤٥٢، باب الاستدراج، ح ١.

(٣)، (٤) أصول الكافي: ج ٢، ص ٢٥٨، باب شدة ابتلاء المؤمن، ح ٢٦ و ٢٩.

(٥) وسائل الشيعة: ج ٢، ص ٢٦٦، باب ٧٧.

لابد من ابتلاء ولا بد من اجتياز مراحل هذا الاختبار الإلهي العام، وهذا لا يتم إلا بنقص في العيش والصحة والهناء والأولاد والأنفس والشرات إلى ما هنالك. فإنه تعالى يقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: الآيات ١٥٥/١٥٧]. ولا يكون إكمال هذا النقص الامتحاني إلا بأخرة سعيدة ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: الآية ١٣٣].

وهكذا يعتبر القرآن الدنيا متاع الغرور بقوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ [آل عمران: الآية ١٨٥]. ويقول: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: الآيتان ١٦/١٧]. وفي الحديث: «الدنيا والآخرة ضربتان».

ولا بأس بذكر الأحاديث الآتية لنزداد إيماناً ويقيناً بالآخرة؛ ففي حديث: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر». وفي آخر: «مرارة الدنيا حلاوة الآخرة، حلاوة الدنيا مرارة الآخرة»^(١). ويراد بهذه المرارة تلك التي تطهرك من ذنوبك وتكفر به عن سيئاتك. ويراد بالحلاوة تلك التي تأتيك من مورد غير مشروع وبشكل غير شرعي. إنه تعالى يقول: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف: الآية ٣٢].

فالدنيا دار التصفية، ولا تصفية إلا باختبار ولا اختبار لهذه النفس الإنسانية إلا بالابتلاء، على حد قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُواْ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: الآية ٣١].

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تقص علينا ما كان من اختبار الماضين وامتحانهم من جانب الله تعالى، منها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَبِئْسَ مَا كُنْتُمْ تَفْعَلُونَ ﴿٩٤﴾ أَتَأْتُوا اللَّهَ بِغُلُوبٍ ﴿٩٥﴾ وَمَا كُنْتُمْ بِأَعْيُنِنَا ﴿٩٦﴾ وَتَقُولُونَ مَا لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ يَخْفَىٰ ﴿٩٧﴾ وَاللَّهُ يَخْفَىٰ عَلَى الَّذِينَ يَلْمِزُونَ رَبَّهُمْ وَهُوَ غَوِيٌّ هُوَ الْغَوِيُّ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَلِيُّ ﴿٩٩﴾﴾ [المائدة: الآية ٩٤]. ومعنى ذلك أن الله يمتحن عباده بأن يهيئ لهم ما يتمكنون من اصطیاده في وقت

يحرم عليهم الصيد، أي في حالة الإحرام. ذلك لأنَّ الصيد حرام مع الإحرام. قاله تعالى يريد أن يعلم (وهو العالم بما سيكون)، بل يريد أن يعلم الإنسان شخصه درجة نجاحه في هذا الاختبار الدنيوي أو الاختبار العالمي العام، كي يوقن بدرجة فضل الله عليه عندما يُغدق عليه من عميم نعمه وعظيم رفته فيوفقه إلى توبة خالصة، ليدخله بها الجنة برحمته، فسبحانه من رحمان رحيم ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر: الآية ٣].

وعن السجاد زين العابدين عليه السلام: «بكل ذلك يصلح شأنهم ويبلو أخبارهم وينظر كيف هم في أوقات طاعته ومنازل فروضه ومواقع أحكامه ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا يَسَاءً وَلِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [التجمل: الآية ٣١]»^(١).

وقد يبلغ ضعف النفس في بعض الأفراد مرتبة يهرب بسببها عن مواجهة مشاكله الحياتية بكأس من الخمرة، ظناً منه أنه يستريح بذلك من مشاكل الحياة وما يكابده من عناء، فتتسافل نفسه ويقع في مهالك لا تقاس بمشاكله من قبل، ويمسي بهيمة من البهائم، بعيداً عن رحمة ربه، أثماً، ملوثة نفسه بلوث الطيش والغرور.

وقد فاته أن الإسلام يكره الهروب من الواقع. إنه دين مواجهة وجلادة، دين غلبة وجلد وجهاد. وأعظم الجهاد هو جهاد هذه النفس الأمارة بالسوء. إنه تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَسْرِ وَالْيُسْرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: الآية ٩١]. ويقول الرسول ﷺ: «اجتنبوا الخمر، فهي أم الكبائر». وفي حديث آخر عن النبي ﷺ: «والذي بعثني بالحق نبياً إن شارب الخمر يموت عطشاً نائماً وينادي واعطشاه ألف سنة، فيوتى بماء كالمهل يشوي الوجوه، بشس الشراب، فينضج به وجهه وتتناثر أسنانه وعيناه في ذلك الماء»^(٢).

وقد يفرُّ هذا الإنسان من ضعف إيمانه بالله تعالى (وإنَّ رحمته وسعت كل شيء) فيعتمد عند تراكم المصائب عليه إلى الانتحار. والمؤمن لا ينتحر، معتقداً أن ما يصيبه من كوارث إنما هو لتزكياته وتطهيره. إنه يقول كلما أصيب بمصيبة: «إنا لله وإنا إليه

(١) بحار الأنوار: ج ٤٤، ص ١٩٩، باب ٩. (٢) مستدرک الوسائل: ج ١٧، ص ٤٥، باب ٥.

راجعون»، ويعلم أن مآله ومآل كل أمر إلى الله تعالى. ولا يعبأ براحة هذه الدنيا المؤقتة إن سلبت منه برهة من الزمن بغية الاختبار والتطهير. ولذلك يقع في كل سنة في أوساط الغرب (من شرقية وغربية) حوادث الانتحار. بعشرات الآلاف، رغم ما يتشدد به الغربي من تربية الإرادة: (Volonté) ودراسات عميقة في التربية. تحدث في أمريكا في كل دقيقتين حادثة انتحار ويبتلى في كل ٣٠ ثانية شخص بمرض عقلي، ولا تسلم عن عدد الجرائم التي تحدث في كل ثانية. والمجرمون جلهم من حملة الشهادات؟! كل ذلك، لضعف الإيمان بالله وعدم الاعتقاد بنعيم الآخرة بعد تحمّل شدائد الدنيا. كل ذلك لاخفاق هذا التوجيه المادي في التربية. تربية لا تعمل لربط الفرد بعوالم الآخرة.

لقد تخلّقنا للاختبار والامتحان، ولابدّ من اجتياز هذه المراحل الامتحانيّة بصبر وأناة، وليس لأحد أن يفر من هذا الامتحان الإلهي وهو القائل: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [المُلك: الآية ٢].

فالإنسان لم يخلق سُدى، يُفسد في الأرض فلا حساب ولا كتاب، بل لابدّ له من أن يقطع مراحل التكامل النفسي، كما تقطع بقية الموجودات مراحلها التكاملية، كل بحسبه، وعلى ما أقرّه الله تعالى تفضلاً منه ورحمة. وهو القائل: ﴿أَبْخَسِبَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَبْرُكَ سُئِيَ﴾ (٣٦) ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ نُفُوسٌ مِّنْ مَّيْنٍ يَّبْتَنَىٰ﴾ (٣٧) ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ فَخْلَقٍ فَنَسَوَىٰ﴾ (٣٨) ﴿يَحْمَلُ بَنُو الرِّجَالِ الذِّكْرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ (٣٩) ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يَخْتِىَ الْمَوْتُ﴾ [القيامة: الآيات ٣٦/٤٠].

يقول الإمام علي عليه السلام: «واعلموا أنه ما من طاعة الله شيء إلاّ ويأتي في كره، وما من معصية الله شيء إلاّ ويأتي في شهوة، فرحم الله رجلاً نزع شهوته، وقمع هوى نفسه. لأنّ هذه النفس أبعد شيء منزعاً. لا تزال تنزع إلى معصية في هوى، واعلموا أنّ المؤمن لا يُمسي ولا يصبح إلا ونفسه ظنون عنده، لا يزال زارياً عليها ومستزيداً بها، فكونوا كالسابقين أمامكم والماضين من قبلكم، قوضوا الدنيا تقويض الراحل وطووها طي المنازل»^(١).

(١) نهج البلاغة: ص ٢٥١، في عظة الناس.

وهكذا يؤدبنا الإمام الرابع علي بن الحسين عليه السلام، بقوله في دعاء له: «إلهي لم أعصك حين عصيتك وأنا بربوبيتك جاحد. ولا بأمرك مستخف، ولا لعقوبتك متعرض، ولا لوعيدك متهاون، ولكن خطيئة عرضت وسوّلت لي نفسي وغلبي هواي، وأعانني عليها شفتوتي. فالآن من عذابك من يستنقذني، وبحبل من أتصل إن أنت قطعت حبلك عني. ولولا ما أرجو من كرمك وسعة رحمتك ومنعك إياي عن القنوط لقنطت، فهب لي من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب. فوعزت لك لو انتهرتني ما برحت من بابك ولا كففت عن تملكك. إلى من يذهب العبد إلا إلى مولاه، وإلى من يلتجئ المخلوق إلا إلى خالقه»^(١).

أَوْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ، أَوْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ الْقَائِلَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالْكَاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: الآية ١٤٣] والقائل: ﴿قُلْ لَنْ مَآ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُتُبٌ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْفِتْمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الأنعام: الآية ١٢]. لا يريد لهذا الإنسان حياة سعيدة وادعة تجاه مجاهدته في الدنيا؟ فإن عظيم رحمته وكمال لطفه يوجب أن يوجد عالماً آخر، عالماً سرمدياً أبدياً في غاية الكمال. يخلد فيه هذا الإنسان جزاء لصبره وشكره وأعماله الصالحة، وعبادته لربه في هذه الدنيا ولو بعد عقوبة وتطهير. ويظهر من الآية المتقدمة أن الله تعالى بقوله: ﴿كُتُبٌ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ [الأنعام: الآية ١٢] قد أوجب على نفسه إيجاد عالم آخر كله هناء ودعة وخلود ما بعده موت: ﴿يَتَعَبَّدُونَ لَكَ يَوْمَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكَ الْيَوْمَ وَلَا أَنتَ تَحْزَنُونَ﴾ [الذين آمنوا يتأيننا وكانوا مسلمين] ﴿أَدْخِلُوا آلَ هَارُونَ أَهْلَ الْجَنَّةِ أَنتَ وَآزُوجُكَ تُحْبَبُونَ﴾ ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا شَتَّهِبَهُ الْآلُفُسُ وَتِلْكَ الْأَعْيُنُ وَأَنتَ فِيهَا خَالِدٌ﴾ [الزخرف: الآيات ٦٨/٧١].

إن الإنسان ليعتقد بصورة فطرية «إن كان ممن لم يلوّث نفسه بالموبقات

(١) راجع كتب الأدعية: دعاء أبي حمزة الثمالي.

والمدنسات، أن وراء هذا العالم الدنيوي عالماً آخر، يقتص الله تعالى فيه من الظالمين، ويشيب الصالحين، لذلك يقول سُقراط لتلاميذه حين يقدم إليه السم: «إنني ذاهب حيث يوجّهني الله، وإنني ذاهب إلى عالم سرمدى آخر، لا تحزنوا عليّ». فيتناول السم بكل ارتياح لشدة يقينه. كيف لا يكون كذلك؟ وهو الذي كان يقول بوحداية الله تعالى وعظيم لطفه. كان يقول: «إن الله أزلني أبدي غير متناه، سميع، رقيب، بصير، مدبر حكيم».

ولكن إن تلوّثت هذه النفس الإنسانية وأظلمت أمسى الفرد قليل الاعتقاد بالمعاد وما سيكون بعد الموت من سؤال وجواب وثواب وعقاب. فبمقدار ظلمات النفس يزول هذا الاعتقاد وقد يندم، فيعزو هذا المتسافل الاعتقاد بالمعاد والإيمان بالعوالم التي ستكون بعد الموت لا محالة، إلى ضعف النفس وعدم تمكنها من المكافحة والمقاومة، وقد يصف ذلك بـ(أفيون الشعوب)، ويعتبر ذلك تسلياً للعاجز المسكين، هذا ما يسوله له شيطانه، حتى يجعله لا يفكر في آخرته، فيرتكب ما شاء كيفما شاء: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِصْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ۖ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦/٣٧].

وقد تقوى هذه النظريّة الخاطئة: أي عدم الاعتقاد بما بعد الموت، عند الماديين العوام^(١) إلى درجة أنهم يسندونها إلى العلم والعلم كله منه براء. كيف ومتى تمكن العلم، هذا العلم المادي الذي يدرس في جامعات العالم أن يتوصّل إلى ما وراء الطبيعة وعوالم لا تُبصر بالآلات والأدوات ولا تُستقصى بمعادلات وقوانين حتى يحق له أن يقول: بأزليّة المادة ونفي الخالق جلّ وعلا؟. فالإنسان الذي قد انفتحت بصائره لصفاء نفسه ولأعمال صالحة قد قام بها وعلى

(١) إنما قلت: الماديين العوام، ذلك لأن المادي (في عقيدته) إن لم يكن قد درس الرياضيات العالية والفيزياء العالية، ولم يربط عصارات العلوم الحاضرة بعضها ببعض ربطاً فلسفياً فهو مادي عامي، لا يستند في هديانه إلى ركن وثيق أو إلى برهان عميق. ولكن، لو تضالع هذا المادي (في العقيدة) في شتى العلوم ونبغ فيها وترك شيئاً من خموره وفجوره فهو موحد لا محالة، ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المومنون: الآية ١١٧].

رأسها: البر بالوالدين وصلة الرحم، حتى من حملة شهادة الدكتوراه، ليقون أن الله الذي أودع الكمال في كل جزء من أجزاء هذا العالم، من الذرة إلى الملائكة، في عالم المادة وفي عالم القوى والأرواح وقد ربط بعضها ببعض ربطاً دقيقاً متقناً بخواص ودساتير متقنة وقوانين رياضية رصينة، ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ﴾ [المُلْك: الآية ٣]. سوف يكمل هذه الحياة الدنيوية الناقصة من جهات شتى، نقصان في الكمال النفسي نقصان في النواحي الأخلاقية، (من حيث التطبيق)، نقصان في النواحي الاقتصادية، (من حيث التطبيق أيضاً)، نقصان في النواحي السياسية (ذلك لأن الإسلام دين ودولة)، نقصان في العلاقات الدولية والإنسانية، ﴿فَأَرْجَهُمَا وَمَا كَانَا فِيهِ قُلْنَا أَهْطُوا بِعَضْكَرٍ لِّبَعْضِكُمُ عَدُوٌّ وَلَكُمُ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: الآية ٣٦]، نقصان في النواحي الصحية، نقصان في الطمأنينة والراحة الفكرية، (حتى بين بعض المتدينين)، نقصان في النواحي العلمية لجهل الإنسان كثيراً من حقائق الكون، وفوق كل ذلك قلق في نواح شتى، سوف يكمل هذه الحياة الناقصة بحياة سعيدة أخرى، كاملة من جميع الجهات، ألا وهي الحياة الآخرة، حياة ملوها رفاهة وسرور وجور، حياة كلها كمال، ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ فِيكَهْمَ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: الآية ١١] ﴿لَقَوْا فِيهَا وَلَا تَأْنِيهِ﴾ [الطور: الآيتان ٢٢/٢٣]. وفي مكان آخر: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: الآية ١٩] ﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الطور: الآيتان ١٩/٢٠]. كمال في النفس وتكامل للتطلع والوقوف على حقائق وأسرار الأكوان والعوالم المتنوعة بصورة سمرديّة، كمال في الصحة، كمال في الحياة الفردية، كمال في الحياة الاجتماعية، كمال في الحياة الاقتصادية (إن قلنا بحياة اقتصادية هناك)، وفوق كل ذلك خلود ما بعده فناء ولا زوال. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فَبِىَ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ يَجْدُونَ﴾ [هود: الآية ١٠٨] ^(١).

﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التخريم: الآية ٨].

فإنّ تمام النور للمؤمنين، هو الكمال الموعود، ذلك الكمال الذي به تزول نواقص هذا العالم الفاني، عالم العمل والاختبار. ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [التور: الآية ٤٠]. فالكمال وهو الله تعالى حاشا أن يخلق شيئاً ناقصاً إلاّ ويريد لهذا الناقص (بسنن قد سنّها) الكمال. وقد سنّ طرق الكمال وسنن التكامل لهذا الإنسان على لسان أنبيائه ﷺ، فما أوحى الله تعالى إلى أنبيائه كله سنن ودرجات تؤدي بصورة تدريجية إلى تكميل النفس الإنسانية، كي تكون قميّة للانتقال إلى عالم آخر كله كمال.

ولا مرأ أن الله إنما أرسل الأنبياء ﷺ لتكميل البشر، لعلمه تعالى بما هنالك من نقائص شتى في هذا العالم الدنيوي وفي النفس الإنسانية والحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية إلى ما هنالك. ذلك لأنّ هذه الحياة حياة تهيو واستعداد، وما فيها من نقائص هي، في الحقيقة، مواد امتحانية يجتازها الإنسان لبلوغ الكمال والانتقال إلى عالم آخر، عالم سرمدي خالد كله كمال في كمال. فما نسميه في هذه الحياة الدنيا نقائص هي ليست، في الحقيقة، نقائص، رغم تسميتنا إياها، نقائص، وإنما هي مراحل يتقدّم فيها الإنسان كما يتقدّم الطالب في مدرسة ما من صف إلى صف.

فالإنسان مريض في هذه الدنيا بأمراض معنويّة، لنقائص كثيرة في نفسه، ولذلك يقول الإمام علي عليه السلام: «إن الله أرسل إليكم رسولا ليزيح به عنتكم»^(١).

وعن الإمام الرضا عليه السلام: «خاطب رسول الله ﷺ يوماً أصحابه، قائلاً: «ألا أخبركم بداءكم من دوائكم، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: دأؤكم الذنوب ودأؤكم الاستغفار»^(٢). فالأنبياء ﷺ هم معدّلون هذه النقائص بصورة تدريجية، لو أطيعوا، فطبّقت دساتيرهم واتبعت تعاليمهم.

وأما المواد الامتحانية التي تظهر للإنسان أنها نواقص أو نقائص فتبقى ثابتة تميز بين الفرد الصالح والفرد الطالح. ومن لم يتبع دساتير الأنبياء ﷺ ومن بعدهم الأوصياء عليه السلام يذهب من هذه الدنيا وهو متسافل النفس، أعمى... ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: الآية ٧٢].

ولما كان الكامل على الإطلاق وهو الله تعالى لا يصدر منه إلا الكمال، وجب أن يكون، بعد الموت، عالم آخر كله كمال، خاص بعباد الله الصالحين، ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً^(١) يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الأعراف: الآية ٣٢].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: الآية ٣٦].

وأن الله يجازي الكافرين بعد أن أتم عليهم الحجة بعقل فطري: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾﴾ [الشمس: الآيتان ٨/٧]، وبإرساله الرسل: ﴿يَتْلَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: الآية ١٦٥]، وذلك بقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴿٣٦﴾﴾ وَهُمْ يَصْطَرِغُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر: الآيتان ٣٦/٣٧].

فطوبى لنفوس تطهّرت في هذه الفترة القصيرة الامتحانية وتكاملت في هذا العالم الدنيوي، فذهبت إلى روح وريحان بنفس مطمئنة، ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٧﴾ أَرْجِيْكَ إِلَيَّ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٨﴾ فَأَدْخِلْ فِي عَبْدِي ﴿٩﴾ وَأَدْخِلْ جَنَّتِي ﴿١٠﴾﴾ [الفجر: الآيات ٧/٢٧/٣٠].

فما علينا إلا أن نستجيب لربنا^(٢) ونعمل، كي لا نكون مصداق هذه الآية: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٢﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٣﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَبُطِئَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ﴿١٥﴾﴾ [الكهف: الآيات ١٠٣/١٠٥]. ولنتذكر هذه الآية دوماً ﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّלَاجٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن تَكْوِيرٍ ﴿٧﴾﴾ [الشورى: الآية ٤٧].

(١) خالصة: أي خالصة للمؤمنين يوم القيامة، فلا يشاركون فيها أحد. لا كما في الدنيا حيث يشارك المؤمنون غيرهم من غير المؤمنين.

(٢) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَوْتِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهٌُ مُّخْتَصِرٌ﴾ [الأنفال: الآية ٢٤].

﴿وَنَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَرٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: الآية ٤٤].

فليجرب المجرَّبون وليختبر المختبرون ليروا صحَّة ما أقول. فكلُّما كان الإنسان أقرب إلى التقوى والأعمال الصالحة، نقيَّ الثوب، طاهر الضمير، كان اعتقاده بما بعد الموت وبالمعاد أقوى وأمتن. حتى وإن لم يكن قد بلغته دعوة الإسلام. وكلِّما تردَّى وتسافل كان اعتقاده بالمعاد أوهى وأضعف. ﴿وَلَا تُطِيعْ كُلَّ حَلَافٍ مَّهِينٍ﴾ (١١) هَٰذَا (١) مَسَلَمَ يَمِينٍ (١١) مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُنِيَ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (١٣) أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٥) [القلم: الآيات ١٥/١٠].

لذلك يبكي رسول الله ﷺ، بعد نزول سورة النصر، فيقال له: يا رسول الله، أو تبكي، وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر. فيقول: «أين هو المظلم وأين ضيقة القبر، وظلمة اللحد وأين القيامة والأهوال». وهو القائل: «معاشر الناس: إنه ليس بين الله وبين أحد شيء يعطيه به خيراً أو يصرف عنه به شراً إلا العمل. أيها الناس لا يدع مدح ولا يتمنُّ مُتمنُّ، والذي بعثني بالحق نبياً، لا ينجي إلا عمل صالح مع رحمة، ولو عصيتُ لهويث».

فقضية إيمان الفرد بما بعد الموت من عوالم الآخرة والإيمان بسؤال الملكين: (منكر ونكير) في القبر عن ربه وعن دينه ونبيه وإمامه وصلاته و... إلخ. وكذلك الإيمان بالصراط^(٢) والميزان^(٣) وتكلم الجوارح^(٤)،

(١) هَٰذَا أي كثير الطعن. عُنِيَ: جافَّ غليظ. زَنِيم: دَعِي، منسوب لغير قومه - أساطير: ما سطره من خرافاتهم

(٢) الصراط: هو جسر جهنم، يمر عليه جميع الخلاق، فالمطيع يجوزه إلى الجنة، والعاصي يهوى به في النار.

(٣) الميزان هو ما يقابل فيه بين الحسنات والسيئات، وليس هو بميزان مجسم. قال الله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن تَقَلَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٥) وَمَن خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ يَمَّا كَانُوا يَكِيدُونَ﴾ [الأنعام: الآيات ٩/٨].

(٤) تكلم الجوارح: أي أن أعضاء الإنسان تتكلم يوم القيامة بأمر الله وإذنه، وتشهد على صاحبها بما=

وتطابير الكتب^(١) والحساب يوم البعث^(٢) والجنة والنار والشفاعة والحوض^(٣) وهكذا الإيمان بكتابة الأعمال^(٤) إنما هي قضية طهارة النفس وتركيتها. فكلما كانت النفس طاهرة، زكية صالحة نقيّة، زاد اعتقادها بالآخرة وعوالمها وتمنّت الموت. وكلما كانت النفس ظالمة حالكة مظلمة، كانت جاحدة عوالم الآخرة، فلا تتمنى الموت. ﴿وَلَا يَمْتَنُونَ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: الآية ٧] ومنهم من ينسب جحوده هذا إلى العلم الحديث تبريراً لموقفه. والعلم قديمه وحديثه من كل ذلك براء.

نعم آفة العلم الحديث أنه لا يرافق التقوى والإيمان بالله. وإنما تلقى مواضيعه

= فعله في الدنيا من الذنوب، وهو على كل شيء قدير، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَخَيَّرُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَكَلِمَاتٍ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: الآية ٦٥].

(١) ومعنى تطابير الكتب: هو أن الله تعالى بعد أن يحاسب العباد يوم القيامة يخرج لكل واحد منهم كتاباً يلقاه منشوراً. فيطير كل كتاب إلى صاحبه، فيجد فيه كل ما عمل في دار الدنيا، ﴿لَا يَأْخُذُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: الآية ١٩]. فيقال له: اقرأ كتابك، ﴿كُلُّ نَفْسٍ عِنْدَ رَبِّكَ حَبِيرًا﴾ [الإنشراح: الآية ١٤].

﴿وَأَمَّا مَنْ أَرَفَ كِتَابَهُ ذُرّاً ظَهَرَ﴾ ﴿سَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾ ﴿وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾. (والشبور معناه: الهلاك، أي يدعو الله أن ينزل عليه الشبور).

(٢) معناه: أن الله تعالى يحاسب العباد بعد بعثهم من قبورهم وإحيائهم بعد موتهم على أعمالهم التي عملوها في دار الدنيا. ثم يجزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾.

(٣) هو حوض النبي ﷺ يوم القيامة. عرضه ما بين ايلة (بلد بين مصر والشام وصنعاء). فيه من الأباريق عدد نجوم السماء. والساقى عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. من شرب منه شربة لا يظما بعدها أبداً.

(٤) ومعنى ذلك: إن الله تعالى وكل بكل مكلف من عباده ملكين بالنهار وملكين بالليل، أحدهما على اليمين، يكتب الحسنات، والآخر على الشمال، يكتب السيئات، فيكتبان جميع أعمال العبد. قال تعالى: ﴿وَلَا عَلَى كُفَّيْنِ﴾ ﴿كِرَامًا كَذِبِينَ﴾ ﴿يَعْلَمُونَ مَا يَقُولُونَ﴾. ومن هم بحسنة كتبت له حسنة، فإذا فعلها كتبت له عشر حسنات. ومن هم بسيئة لم تكتب عليه، فإن فعلها أمهل سبع ساعات، فإن تاب منها لم تكتب عليه، وإن لم يتب منها كتبت عليه سيئة واحدة. قال الله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثَارِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يَجْزِيهِ إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الألقام: الآية ١٦٠].

على الطلاب مع نزعة إلحادية مجردة عن عزو ذلك إلى قدرة الله تعالى وجليل صنعه .
عدا ما هنالك من مجالات وحريات ! تفسد الشاب وتذهب بحياته الطبيعي ، فإذا ذهب
الحياة ذهب الإيمان معه ، وقد جاء في الحديث : « لا إيمان لمن لا حياة له » .

أرأيت رجلاً عليه سيماء الخشوع والخضوع ، ترتاح نفسك عند النظر إليه ، يُلهمك
التقوى ويجعلك تفكر في مصيرك وعاقبتك ، ويذكرك الله وتطمئن إليه نفسك . أرأيت
كيف يأخذ بمجامع قلبك ، فلا يختلج في صدرك عند النظر إليه ما يفسد القلب ويلوث النفس !
أرأيت رجلاً يخشع قلبه عند سماع ذكر الله تعالى وتدمع عيناه ، أرأيت رجلاً غزير
الدمعة جوف الليل من خوفه تعالى كيف يؤمن بالآخرة ويرأها واضحة لا غبار عليها .
إنه أحد أولئك الذين يصفهم الإمام علي عليه السلام بقوله : « فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها
منعمون ، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون »^(١) . لذلك ورد في دعاء يقرأ بعد
نافلة المغرب : « اللهم إني أعوذ بك من نفس لا تقنع وبطن لا تشبع وعين لا تدمع
وقلب لا يخشع وصلاة لا تُرفع وعمل لا ينفع ودعاء لا يُسمع . . . إلخ »^(٢) .

كان يأتي بعض الأعراب محمداً ﷺ . فيقولون حين وقوع أبصارهم على محيّا :
« والله ما هذا الوجه بوجه كذاب » . ولقد جربت ذلك في بعض من مَنّ الله عليهم بتوفيق
الهداية . فبعد أن كان وجه أحدهم مكفهاً ذا تقاطيع خاصة لا ترتاح إليها النفوس
أصبح بعد التوبة والإنابة وضاءً يستلهم الناظر منه الخير والطمأنينة .

ولكن نفساً يتطاير منها الشر والشر والطيش والجور والبغي ، نفساً متكبرة
متحجرة ، تشتمز منها نفسك ، إن كانت قد بلغت مرتبة من التقوى . فلو نظرت إلى وجه
هذا الشخص لألفيته وجهاً مكفهاً ، حالكاً لا ترتاح النفوس عند النظر إليه . إن نفساً
كهذه لا تؤمن بالآخرة ولا تصدق بالبعث ، بل ديدنها الاستهزاء بالمقدسات وشعارها
التكذيب بآيات الله تعالى .

(١) نهج البلاغة : ص ٣٠٣ ، خ ١٩٣ .

(٢) المصباح للكفعمي : ص ٣٣ ، الفصل ٨ .

﴿إِلْهَكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ (٢٢) لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّونَ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ (٢٣) [التحل: الأيتان ٢٢/٢٣].

وهكذا لا تؤمن بالآخرة نفوس ديدنها الخديعة والمكر والغدر.

نفوس تنتهز الفرص لإيقاع الآخرين في المهالك. إن نفوساً كهذه لتفرح عندما تنجح في مكرها وخداعها وتظن أنها قد فتحت جبهة من الجبهات أو جاءت بأمر خطير. وقد فاتها أنها خانت نفسها وأبعدتها عن ساحة القدس. وقد قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من ماكر مسلماً»^(١). وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «لولا أن المكر والخديعة في النار لكنت أمكر الناس»^(٢).

أو ترى نفساً هذا ديدنها تؤمن بالحساب والجزاء وتوقن باليوم الآخر. ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٧) [المطففين: الآية ١٤]. ﴿قِيلَ الْخَرْصُونَ﴾ (٣) ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرٍ﴾ (٤) سَاهَوْنَ ﴿يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الَّذِينَ﴾ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ (٥) ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهٖ تَسْتَعِجِلُونَ﴾ (٦) [الذاريات: الآيات ١٠/١٤].

فقضية التصديق بالبعث ليست قضية عقل ومنطق فحسب، وإنما العقل يحجب بالذنوب، فتنكر النفس الملوثة كل ما كان التصديق به أمراً طبيعياً فطرياً. ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسْتَرَأْشُوا أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (١٠) [الرؤم: الآية ١٠].

ومنطق هذا الإنسان إن كان قد لوث نفسه بالذنوب قد يصدق بالله واليوم الآخر ويعترف بالمقدسات برهة ضئيلة من الزمن عندما تُملَى عليه البراهين. إلا أنه سرعان ما يغلب على النفس المتسافلة شيطانها فيأتي دور الإنكار والجحود بقوة وشدة لا مزيد عليها، ﴿ثُمَّ لَنُكْسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ﴾ [الأنبياء: الآية ٦٥].

﴿وَحَدَّوْا بِهَا وَاسْتَفْتَنَّا أَنْفُسَهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: الآية ١٤].

(١)، (٢) أصول الكافي: ج ٢، ص ٣٣٧، باب المكر، ح ٣ و ١.

(٣) الكذابون.

(٤) غمرة: جهل يغمرهم.

(٥) يفتنون: يعذبون.

فقضية التصديق بالبعث هي قضية تقوى ونفس زكية قبل كل شيء على حد قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ وَالَّذِينَ لَا يَنْتَهِونَ عَنْ مَوَاسِيئِهِمْ مَا نُهُوا﴾ [البقرة: الآيات ١/٣].

وقد أخذ بعض علماء النفس المحدثين يعترف للنفس الإنسانية ببعد رابع وهو الاعتقاد بالله واليوم الآخر بصورة فطرية. وهذا يشبه (الزمان) الذي جعله (آينشتاين) بعداً رابعاً لقياس المسافات الشاسعة ومقدار الكتلة والحجوم في تلك المسافات النائية، عدا الأبعاد الثلاثة. وإن العلم الحديث أخذ يقترب مما أملاه الأنبياء ﷺ على البشر وما أخبرونا به عمّا وراء الطبيعة.

وإني لا تذكر جيداً، أني قرأت ذات يوم خطاب رسول الله ﷺ حين دعا عشيرته الأقربين:

«إن الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس ما كذبتكم، ولو غررت الناس ما غررتكم، والله الذي لا إله إلا هو، إني لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة، والله لمتوتنّ كما تنامون. ولتبعثنّ كما تستيقظون. ولتحاسبنّ بما تعملون، ولتجزون بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً، وإنها الجنة أبدأ أو النار أبدأ»^(١). علي مدرس في إحدى الثانويات، فوضع إصبعه على هذا السطر: (ولتبعثنّ كما تستيقظون) قائلاً: «إن في قلبي شيئاً من صحة هذا الكلام»! وأظهر أنه غير موقن بالمعاد. فسألت عن عمله، فعلمت أنه اندمج أخيراً في زمرة من بعدهم الله عن رحمته. ولكن الله تعالى شاء له أن يموت على الإيمان. فضاقت أموره وتردّت صحته، فرجع شيئاً فشيئاً عن غيّه وطيشه، فصار يومئذ بالبعث: ﴿وَيَكُونُ لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِي الْكَفَّيْنِ وَالسَّيِّئَاتِ لَهُمْ نَجَاتٌ﴾ [الأعراف: الآية ١٦٨].

وكم في النكبات من فوائد وعبر ورجوع إلى إصلاح النفس ومعالجتها وأوبها إلى التوبة والإنابة. فعن الرسول ﷺ: «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً ومن كل هم فرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب»^(٢).

(١) بحار الأنوار: ج ١٨، ص ١٩٧، باب ١. (٢) أعلام الدين، للدليمي: ص ٢٩٤.

وفي حديث آخر: «من تاب قبل أن يغرغر^(١) بها تاب الله عليه»^(٢). وهذا خير دليل على عظيم لطفه تعالى وفتح باب التوبة إلى آخر لحظة من حياة الفرد. إلا أن الفرد سوف لا يوفق إلى التوبة إن رانت الذنوب على قلبه وغلبت وطبعت عليه. ﴿وَطِيعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُوْنَ﴾ [التوبة: الآية ٨٧]. والرين أو الدنس إن استولى على القلب فلا يدع مجالاً لرؤية الحق والواقع ومعالجة النقص المتأصل في النفس. فيرى الفرد إذ ذاك الحقائق أساطير وخرافات على حد قوله تعالى: ﴿إِذَا ثُلَّىٰ عَلَيْهِ مَا بَيْنَنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [٢٣] كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: الآيتان ١٣/١٤].

وقال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ [٨١] قَالُوا أَيُّذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوْنَا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [٨٢] لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَوَعَاوَنَا هَٰذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [٨٣] قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [٨٤] سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [٨٥] قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَكَاتِ السَّجِيعِ رَبُّ الْمَكْرِشِ الْعَظِيمِ﴾ [٨٦] سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِطُ﴾ [المؤمنون: الآيات ٨١/٨٧].

فبالتقوى يعمر القلب ويزول عنه الصدا ويرتفع حجاب الظلمات، فلا يعتبر بآيات الله وما أنزل على رسله إلا المتقون، ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [٢٣] ﴿ق: الآية ٣٣﴾. وهو القائل: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [١٠] إِنَّمَا تَنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَتَرُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: الآيتان ١٠/١١].

ولا بأس بذكر هذا الحديث لأهميته، يستفيد منه من من الله عليه بتوفيق الطاعة، فأدرك فلسفة الدين، فلسفة قد لا تتفق في جوهرها مع ما عليه كثير من الناس اليوم، من معاني الدين. ولكنها تفسير لما ذكر الله تعالى في كتابه المنزل:

قال أبو عبد الله عليه السلام: «كان في ما وعظ به لقمان ابنه: يا بُني، إن الناس قد جمعوا قبلك لأولادهم، فلم يبق ما جمعوا، ولم يبق من جمعوا له. وإنما أنت عبد مستأجر. قد أمرت بعمل ووعدت عليه أجراً. فأوفِ عملك واستوفِ أجرَكَ. ولا تكن في هذه الدنيا بمنزلة شاة وقعت في زرع أخضر، فأكلت حتى سممت، فكان حثفها^(٣) عند

(١) غرغر: جاد بنفسه عند الموت.

(٢) بحار الأنوار: ج ٦، ص ١٦٦، باب ٢٠.

(٣) حثفها: هلاكها.

سمنها . ولكن اجعل الدنيا بمنزلة قنطرة على نهر جُزّت عليها وتركتها ولم ترجع إليها آخر الدهر . لإخربها ولا تعمرها ، فإنك لم تؤمر بعمارتها ، واعلم أنك ستسأل غداً إذا وقفت بين يدي الله عزّ وجلّ عن أربع : شبابك فيمّ أبليت^(١) وعمرك فيمّ أفنيته ، ومالك فيمّ اكتسبته وفيمّ أنفقته ، فتأهّب لذلك وأعدّ له جواباً . ولا تأس على ما فاتك من الدنيا ، فإن قليل الدنيا لا يدوم بقاءه . وكثيرها لا يؤمن بلاءه . فخذ حذرَكَ وجدّ في أمركَ ، واكشف الغطاء عن وجهك ، وتعرّض لمعروف ربك ، وجدد التوبة في قلبك ، واكمش^(٢) في فراغك ، قبل أن يقصد قصدك^(٣) ويُقضى قضاؤك ويُحال بينك وبين ما تريده^(٤) .

ولقد عرفت شخصاً ذرّف على الستين ، كان في ريب من وجود الإمام الثاني عشر ، الحجة المهدي عجل الله تعالى فرجه ، وإنه حيّ يُرزق ، وسيظهر حين يأمره الله تعالى ، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً . وكان يخالجه شك عندما يفكر في كيفية المعاد . وعندما رجعت إلى ما أعلمه من معاملاته السابقة ، علمت أن ضعف عقيدته ناتج عمّا قام به من أعمال غير مرضية عند الله تعالى . إلا أنه ، والحمد لله ، قام بإصلاح نفسه أخيراً للتكفير عما اجترحت يده من ذنوب بعزم رصين . ويوشك أن يرجع إلى ما كان عليه في صغره من عقيدة راسخة بحياة الحجة عجل الله تعالى فرجه ، وبالمعاد . وذلك بعد تطهير نفسه وجعلها غير مشوبة بالذنوب ، فقد جاء في الحديث : «التائب عن الذنب كمن لا ذنب له» .

يرى هذا الإنسان من الكمال الذي أودعه الله تعالى في خلقه : أن جعل تردّد^(٥) صوت الرجل (١١٠) في الثانية وتردد صوت المرأة : (٢٢٠) في الثانية ، ليكون صوت

(١) الثوب البالي هو الذي استعمل حتى أشرف على الانداس . أبلى الثوب : صيره بالياً .

(٢) الكمش : السعي ، أي أسرع وعجل .

(٣) قصدك : نحوك ، كناية عن توجه ملك الموت إليه ليقبض روحه أو توجه أمراض وبلايا من الله إليه .

(٤) أصول الكافي : ج ٢ ، ص ١٣٤ ، باب ذم الدنيا ، ح ٢٠ .

(٥) التردد في الثانية : هو عدد اهتزازات الجسم الصائت أو (المهتز) ، أو عددذبذباته الكاملة في ثانية واحدة . كما نشاهد ذلك في الشوكة الرنانة .

المرأة أجمل والطف من صوت الرجل . فينجذب الرجل إليها وتكون بينهما مودة ورحمة ، فيسكن إليها وتسكن إليه^(١) . فلا يتصدى الرجل إلى ما حرم الله ودنسه من فسوق وفجور وشذوذ جنسي يدل على ضعة النفس وتدنسها وتلوثها وبُعدها عن الكمال كل البعد فيتسافل إلى أسفل السافلين وبئس المصير . فكل ما حرم الله تعالى إنما هو في ذاته ملوث ، دنس يضاد الكمال وطهارة النفس ، فقد جاء في الحديث : «من قَبَّلَ غلاماً من شهوة ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار»^(٢) . ولذلك يقول الله تعالى لردع الناس عن الشذوذ ومنعهم عما يضاد طهارة النفس ويؤدي إلى التسافل وإلى شذوذ جنسي :

﴿فَأْتَوْهُ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ . فمنع الله تعالى بكلمة (المتطهّرين) عن كل شذوذ وكل ما يخالف الذوق السليم الطاهر ويخالف سنة الكمال الذي يريده الله لعباده ولجميع ما خلق . وأيد ذلك تحقيقاً للكمال الإنساني وتوضيحاً لقوله : ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة : الآية ٢٢٢] بقوله : ﴿يَسْأَلُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْ سِئَمْتُمْ وَقَدِمُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوُهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ . فنهى الله بقوله : ﴿يَسْأَلُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ عن كل شذوذ يخالف تحقيق مفهوم (الحَرْث) ، وحذر الأزواج عن هذا الشذوذ المقيت ، المحرم مع نسائهم بقوله تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوُهُ﴾ . وبقوله : ﴿وَقَدِمُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة : الآية ٢٢٣] كي لا يتسافل هذا الإنسان بتدنيس نفسه وتلوّث فراشه ، فيتعدى حدود التكامل الذي أراده الله لعباده في هذه الدنيا . وكذا الحال في كل ما نهى عنه الله تعالى في محكم كتابه الكريم . فروح الإسلام هي التكامل والكمال في جميع مرافق الحياة ، من اجتماعية وفردية وغيرهما . هذا ما نلاحظه في كتابنا المقدس ، القرآن العظيم الذي «فيه تبيان لكل شيء» وهو القائل : ﴿مَا فَرَطْنَا^(٣) فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام : الآية ٣٨] .

(١) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم : الآية ٢١] .

(٢) الكافي : ج ٥ ، ص ٥٤٨ ، باب اللواط ، ح ١٠ .

(٣) ما فرطنا : ما تركنا من شيء .

إن التكامل غاية الغايات في هذا الكون^(١). فمن أيقن به علم أنه لا بد وأن تكون وراء هذه الحياة القلقة (المضطربة) حياة طمأنينة ودعة وهدوء وسرور، وأن وراء هذه الحياة الناقصة حياة كاملة، بكل ما في الكمال من معنى، ليس لهذا الإنسان أن يتصور مداه ما دام في هذه الدنيا.

لذلك يخبرنا الله تعالى عن حتمية يوم البعث في هذه الآية التي تدل على ما أودع الله من تكامل تدريجي عجيب في كل جزء من أجزاء هذا الكون، لا سيما تشكيلات الجنين الذي هو معجزة الله في أرضه من معاجز لا تتناهى.

إنه تعالى يقول: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَّا إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُؤَفِّقُ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُّرَدِّ إِلَىٰ أَزْدِلِ الْأَعْمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُتْبِنتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَىٰ وَأَنْتُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ [الحج: الآيات ٥/٧].

فطوبى لنفوس تدرك الكمال المودع في هذا الكون وكيف أن الله أحاط الجنين بظلمات ثلاث، أي بثلاثة أغشية صماء لا ينفذ منها الماء والضوء والحرارة^(٢) وذلك بقوله: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونٍ أُمَّهُنَّ بِحَمْلِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ [الزمر: الآية ٦]. إن نفوسنا كهذه تنزه الله تعالى عن كل نقص وتسبحه ليل نهار، لا سيما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب:

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾ [الإنسان ٣٩/٤٠]. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: الآية ١٣٠].

(١) قال رسول الله ﷺ مخاطباً علياً عليه السلام: يا علي، أربع من يكن فيه فقد كمل إسلامه: الصدق والشكر والحياء وحسن الخلق.

(٢) وهذا ما توصل إليه أخيراً العلم الحديث: وتسمى الأغشية المذكورة باسم: المنبرية والأمينونية والخوريونية.

وذلك لأنَّ التسبيح يوحى أن الله تعالى منزّه عن كل نقص وعن كل عيب وأنه في غاية الكمال وما يصدر عنه أيضاً في غاية الكمال، فمعنى (سبحان الله) أي أن الله منزّه عن كل نقص وعيب وهو في غاية الكمال، وما يصدر عنه كامل لا نقص فيه. فتكامل هذه الحياة الدنيويّة بالحياة الأخرويّة الدائمة السعيدة. ولذلك كانت التسبيحات الأربعة: (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر) في الركعتين الأخيرتين من صلاتي الظهر والعصر وصلاة العشاء أفضل من تلاوة سورة الفاتحة.

* * *

ثم إن البعض يستبعدون إمكان البعث، بعد أن تبلى الأجساد من الناحية الماديّة. حين أن الله تعالى قد خلق في هذا الكون مقادير هائلة من الإيدروجين والأكسجين والكاربون والكلس والحديد إلى ما هنالك من عناصر لتكوين القسم المادي من البدن الإنساني وخلق طاقات بمقادير لا تحد. فباستطاعة الله تعالى أن يرجع لكل إنسان بدنه المكوّن من نفس العناصر فلا فرق بين عنصر وعنصر وبين إيدروجين وإيدروجين آخر. وبين حديد وحديد آخر. فيكوّن الله تعالى ممّا خلق أو ما يريد خلقه بمقدار لا يتناهى من حديد وإيدروجين وعناصر أخرى، الأجسام أو الأبدان التي كانت الأرواح تحل فيها وتسيطر عليها لمحاسبتها يوم البعث. ولا يُحاسب إلا الروح. أما البدن فيعذب إن كانت الروح التي تحل فيه عاصية لله. فتشعر الروح بهذا العذاب. ومما لا مرأى فيه أن عمليات الهدم والبناء في الكيان العضوي لا تدع مجالاً لبقاء عضو محافظاً على نفس الخلايا والأنسجة، ذلك لأنَّ الخلايا والأنسجة تتجدّد وتتبدّل من حين إلى آخر فلا يبقى البدن الإنساني على ما هو عليه من حيث العناصر أو الخلايا والأنسجة. أي أن الخلايا والأنسجة بما فيها من عناصر تتبدّل من حين إلى آخر.

يقول الله تعالى في سورة المؤمنون، الآية ١٢: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾. أي من خلاصة سلّت من بين الكدر ومن خلاصة أخذت من الطين. ومعنى ذلك أن الإنسان إنما خلق من مجموعة عناصر شتى: (كاربون، أكسجين، إيدروجين، فوسفور، كبريت، آزوت، كالسيوم، بوتاسيوم، صوديوم، كلور،

مغنيسيوم، حديد، مانغانيز (مังกانز)، نحاس، يود (ايود)، فلورين، كوبالت، التوتيا (zinc)، سلكون، ألمنيوم. وإن هذه العناصر هي العناصر المكوّنة للتراب.

ويقول تعالى في آية أخرى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرَّحْمَنُ: الآية ١٤]. والصلصال هو الطين اليابس. والطين هو التراب الذي أضيف إليه الماء وفي آية أخرى: ﴿مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: الآية ٢٦].

ولا شك أن اتحاد الحيوان المنوي، الذي يفرضه الذكر، بالبويضة، التي تفرزه الأنثى، هو الذي يكون نطفة الإنسان. أي أن نطفة الإنسان تنشأ من اتحاد الحيوان المنوي (من الذكر) بالبويضة (من الأنثى). والحيوان المنوي والبويضة كلاهما يتولّدان من الدم، والدم يتولّد من الغذاء الذي يتناوله الإنسان، وهذا الغذاء إما نبات أو حيوان أو ماء. وكلّها متكوّنة من عناصر التراب. أي من (إيدروجين، فوسفور، كبريت، سلكون... إلخ). إذن قد خلّق الإنسان من تراب. ذلك لأن ما في بدن الإنسان من عناصر شتّى (تلك التي ذكرناها) كلها موجودة في التراب. وهكذا أثبت العلم الحديث أن الإنسان مخلوق من تراب على ما جاء في كتاب ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَرْجُلٌ مَنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [أُضِلَّتْ: الآية ٤٢] وهذه إحدى معجزات القرآن الكريم. وهو القائل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُمْ بِبَشَرٍ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الرُّوم: الآية ٢٠]. وفي آية أخرى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: الآية ٥٩]. وليس للعلم الحديث أن يتوصّل إلى أن قول الله تعالى (كن) كيف يؤدي إلى وجود موجودات شتّى وكيف قوله: (كن) أوجد التراب بعد مراحل شتى، أرادها الله تعالى عند قوله (كن)، أي أراد الله تعالى أن تتحقّق كل هذه المراحل فيتكوّن إذ ذاك هذا التراب. ثم كيف قول الله تعالى للتراب أو للطّين: (كن)، أوجد هذا الإنسان بروحه وعقله الجبّار، ﴿مَّا أَشْهَدُكُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ﴾ [الكهف: الآية ٥١].

ذلك لأن العلم الحديث، لا يتجاوز حدود المحسوسات، وأناى له أن يتعرّف إلى ما وراء الطبيعة وإلى حقيقة الروح وكيفية خلقها من جانب الله تعالى وكذلك العقل. وما

معنى التحليل العلمي في أمور تتعلق بما وراء المادة والطبيعة، ذلك لأن العلم الذي يُستند إليه في التحليلات العلميّة إنما هو علم مادي ناقص، فلا يمكن تحليل القضايا غير الماديّة على ضوء العلم المادي الناقص! كما أن ما وصل إليه العلم الحديث في بعض الأمور النفسية إنما هو مظاهر وآثار لا ربط لها بحقيقة النفس وعوالم الأرواح وما وراء الطبيعة، وهو مع ذلك في آخر درجة من النقص! فلا معنى إذن لاستعمال كلمة (التحليل العلمي) بالنسبة إلى ما هو ممّا وراء الطبيعة، إن كان يراد بهذا العلم، العلم المادي، أو العلم بظواهر المادة وظواهر الحوادث الماديّة من فيزيائيّة وكيميائيّة.

وزيادة في التوضيح نقول: إن العلم الحديث لا يزال عاجزاً عن التعرف إلى حقيقة الجاذبيّة وهي ظاهرة يعترف بها وبقوانينها وديناميها، (دستور إسحاق نيوتن، دساتير أينشتاين المعدلة لدستور نيوتن... إلخ). وهكذا نرى ليس للعلم الحديث أن يمد يداً إلى ما وراء الطبيعة ويعطي رأياً صحيحاً عنه، وهو يعترف بالعجز عن التعرف إلى ما هو غير مادي وحتى إلى حقيقة المادة أو حقيقة العناصر، كالأزوت والإيدروجين و... .

فالحديد مثلاً مؤلف من ذرات وكل ذرة مكوّنة من الكثرونات وپروتونات ونيوترونات، والعلم الحديث يعترف بعجزه عن بيان حقيقة الإلكترون وماهيّته وكذا عن حقيقة الپروتون وحقيقة النيوترون وكلها قوى وليست من المادة في شيء.

فإذن: العلم الحديث عاجز من أن يُبدي رأياً صحيحاً عن حقيقة المادة! فالماديّون يتمسكون بشيء هم عاجزون عن التعرف إليه وتفهم حقيقته: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ [النجم: الآية ٢٣].

* * *

ثم إن الله تعالى يُنطق يوم القيامة هذه الأعضاء من لسان ويد ورجل! وهي هي دونما فرق. لأن الكاربون الذي يشكل البدن هو نفس الكاربون الذي كان يشكل بدن هذا الإنسان وهو في عالم الدنيا. وهكذا بالنسبة إلى بقية العناصر التي كان يتكوّن منها البدن الإنساني: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التور: الآية ٢٤]. ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ

وَأَبْصَرْتُمْ وِجُودَهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا لِمَ لَمْ يَجْعَلْ لَنَا فِي الْأَرْضِ مَخْرَجًا ۖ فَلَوْلَا أَنْفَعَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلَئِيْهَ تُرْجَعُونَ ﴿٦٢﴾ [فُصِّلَتْ: الآيات ١٩/٢١].

والدليل على عدم بقاء نفس هذه العناصر المؤلفة للبدن الإنساني قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَفِثَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلَّتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: الآية ٥٦].

ويقول الله تعالى ردًّا على أولئك الفلاسفة الجهلاء الذين كانوا يرون إعادة الأبدان مستحيلًا يومَ البعث بعد البلى والاندثار: ﴿أَفَعَبْنَا بِالْحَقِّ الْأَوَّلِ لَوْلَا نَفَسٌ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: الآية ١٥] (١).

وأرى من المناسب أن أذكر هنا فضيلة صلاة علّمها رسول الله ﷺ جعفرًا الطيار رضي الله عنه. فهي صلاة لها تأثيراتها العجيبة في النفوس من حيث الاعتقاد بالمعاد وبكل ما يؤدي إلى تكامل هذا الإنسان. وأوصي كل من يشك في عوالم الآخرة، من سؤال منكر ونكير والبعث وتطابير الكتب والميزان والصراط... إلخ أن يواظب عليها، لا سيّما يومَ الجمعة قبل الزوال. فإنها العلاج الوحيد لقمع الشكوك والأوهام أو بالأحرى لطرد الشيطان ووساوسه وشركه وحبائله، ولحصول اليقين بيوم الجزاء وبكل ما جاء به النبي محمد ﷺ.

فليجرب من شاء. فإنَّ التجربة سند العلوم الحديثة والأساس الذي تبتني عليه المكتشفات. فليجرب من شاء وليُعلن نتيجة تجربته كي يقتفي به الآخرون، فيكونوا من الناجين (٢)، ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: الآيتان

(١) أي: عجزنا من أن نخلق الأشياء من العدم، ذلك لأنَّ المخلوقات كلها إنما خلقت من جانب الله تعالى لا من شيء سابق بل من العدم ويقول الله تعالى: كن. وقد قال علي رضي الله عنه وصفه كيفية خلق الله الخلق: «الذي ابتدع الخلق على غير مثال أمثله ولا مقدار احتذى عليه». وقال أيضاً: «أنشأ الخلق لإنشاء وابتدأه ابتداء بلا رؤية أجالها ولا تجربة استفادها». وقال رضي الله عنه في صفة خلق آدم عليه السلام: «ثم جمع سبحانه من حزن الأرض وسهلها وعذبها وسبخها تربة سنّها بالماء حتى خلصت... إلخ، [نهج البلاغة].

(٢) وسائل الشيعة: ج ٩، ص ٤٠، في ما أوصى النبي ﷺ علياً رضي الله عنه: «يا علي، ثلاث موبقات، =

٨٨/٨٩]. يَوْمَ ﴿تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾^(١) ﴿مُهْطِعِينَ﴾^(٢) مُقْنِي^(٣) رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ^(٤) وَأَفْعِدْتُمْ هَوَاءَ ﴿﴾ [إبراهيم: ٤٢/٤٣].

تسمى صلاة جعفر الطيار ﷺ بصلاة التسبيح. وهي من المستحبات المؤكدة. فعن أبي بصير، عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: قال رسول الله ﷺ لجعفر: ألا أمنحك، ألا أعطيك، ألا أحبك. فقال جعفر: بلى، يا رسول الله. قال: فظنَّ الناس أنه يعطيه ذهباً أو فضة. فتشوق الناس لذلك. فقال له: إني أعطيك شيئاً إن أنت صنعته كل يوم كان خيراً لك من الدنيا وما فيها. فإن صنعته بين يومين غفر لك ما بينهما أو كل جمعة أو كل شهر أو كل سنة أشهر غفر لك ما بينهما^(٥).

وهي أربع ركعات بتسليمتين. أي كأنه يصلي صلاة الصبح مرتين، كل ركعتين بسلام. ينوي قائلاً في خلده: أصلي ركعتين قربة إلى الله تعالى. يقرأ في الركعة الأولى سورة الفاتحة: (الحمد) وسورة أخرى والأفضل أن يقرأ في الركعة الأولى بعد الحمد، سورة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾، وبعد الانتهاء من السورة يقول خمسة عشر مرة: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر.

ثم يركع ويقول هذه التسبيحات: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر» عشر مرات.

ثم يرفع رأسه من الركوع ويقول نفس التسبيحات وهو واقف عشر مرات.

ثم يسجد السجدة الأولى ويقولها عشر مرات.

= وثلاث منجيات. فأما الموبقات: فهو متبع وشح مطاع وإعجاب المرء بنفسه. وأما المنجيات: فالعدل في الرضا والغضب والقصد في الغنى والفقر وخوف الله في السر والعلانية كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. (القصد: نقيض الإفراط: أي الاعتدال).

(١) لهول ما ترى. يقال: شخص بصر فلان، أي فتحه فلم يغمضه.

(٢) مهطعين: مسرعين.

(٣) مقني: أي رافعي.

(٤) طرفهم: بصرهم.

(٥) الكافي: ج ٣، ص ٤٦٥، باب صلاة التسبيح، ح ١.

ثم يجلس بين السجدين ويقول التسيّحات نفسها عشر مرات .

ثم يسجد للسجدة الثانية ويقولها عشر مرات .

ثم يرفع رأسه من السجدة الثانية ويقولها وهو جالس عشر مرّات .

فيكون مجموع التسيّحات في الركعة الأولى ٧٥ مرّة وهكذا في الركعة الثانية ، وهكذا في الركعة الأولى من الصلاة الثانية ، وهكذا في الركعة الثانية من الصلاة

الثانية . فيكون مجموع التسيّحات في الركعات الأربع : $75 \times 4 = 300$ تسيّحة .

ويفضل أن يقرأ في الركعة الثانية (من الصلاة الأولى) بعد الحمد سورة

(العاديات) .

وبعد الانتهاء من الصلاة الأولى يقوم وينوي كما نوى أولاً للصلاة الثانية (أصليّ

ركعتين قربة إلى الله تعالى) . ويعمل كما عمل في الصلاة الأولى . إلا أن هاهنا يفضل أن

يقرأ في الركعة الأولى ، بعد الحمد ، سورة النصر ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ . وفي

الركعة الثانية ، بعد الحمد ، سورة الإخلاص ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ .

ويستحب أن يقول في السجدة الأخيرة (أي في السجدة الثانية من الركعة الأخيرة

في الركعة الرابعة :

«سبحان مَنْ لبس العزَّ والوقار ، سبحان من تعظّف بالمجد وتكرّم به ، سبحان من

لا ينبغي التسبيح إلا له ، سبحان مَنْ أحصى كل شيء علمه . سبحان ذي المنِّ والنعم ،

سبحان ذي القدرة والكرم . اللهمَّ إِنِّي أسألك بمعاهد العز من عرشك ومنتهى الرحمة

من كتابك وباسمك الأعظم وكلماتك التامة التي تَمَّت صدقاً وعدلاً أن تصليّ على

محمد وأهل بيته وأن تفعل بي كذا وكذا . . . ويذكر حاجاته»^(١) . فإذا انتهى من صلاته

يستحب أن يقرأ هذا الدعاء :

«اللهمَّ إِنِّي أسألك توفيقَ أهل الهدى ، وأعمالَ أهل التقى ، ومناصحة أهل التوبة ،

وعزمَ أهل الصبر ، وحذرَ أهل الخشية ، وطلبَ أهل الرغبة وعرفانَ أهل العلم ، وفقه

أهل الورع ، حتى أخافك اللهم مخافةً تحجزني عن معاصيك ، وحتى أعمل بطاعتك

(١) الكافي : ج ٣ ، ص ٤٦٧ ، باب صلاة التسبيح ، ح ٦ .

عملاً أستحق به كرامتك، وحتى أناصحك في التوبة خوفاً منك، وحتى أخلص لك في النصيحة حباً لك، وحتى أتوكل عليك في الأمور كلها بحسن ظني بك. سبحان خالق النور. سبحان الله ويحمده.

«اللهم صلّ على محمد وأهله وتفضل عليّ في أموري كلّها بما لا يملكه غيرك ولا يقف عليه سواك. واسمع ندائي وأجب دعائي واجعله من شأنك. فإنه عليك يسير وهو عندي عظيم، يا أرحم الراحمين»^(١).

وروى لنا مفضل بن عمر أنه رأى ذات يوم الإمام الصادق عليه السلام يصلي هذه الصلاة، فبعد أن أتمّ صلاته رفع يديه فقال: (يا ربّ، يا رب) حتى انقطع نفسه. ثمّ قال: (يا ربّاه، يا ربّاه) حتى انقطع نفسه. وهكذا: (ربّ، ربّ)، (يا الله، يا الله)، (يا حيّ، يا حي) (يا رحيم، يا رحيم) حتى انقطع نفسه، ثمّ قال: (يا رحمان) سبع مرّات، ثمّ قال (يا أرحم الراحمين) سبع مرّات. ثمّ قال: «اللهم إنّي أفتتح القول بحمدك، وانطق بالثناء عليك وأمجّدك ولا غاية لمدحك. واثني عليك، ومن يبلغ غاية ثنائك وأمد مجّدك، وأنّى لخليقتك كنه معرفة مجّدك، وأي زمن لم تكن ممدوحاً بفضلك، موصوفاً بمجّدك، عوآداً على المؤمنين بحلمك. تخلف سكان أرضك عن طاعتك، فكنت عليهم عطوفاً بجودك، جوآداً بفضلك، عوآداً بكرمك، يا لا إله إلا أنت المنان، ذو الجلال والإكرام»^(٢).

يروى لنا المفضل: أنّ الإمام الصادق عليه السلام بعد أن انتهى من الدعاء، قال لي يا مفضل، إن كانت لك حاجة، صلّ صلاة جعفر وادعُ الله بهذا الدعاء وسلّ منه قضاء حاجتك، فإنّها تُقضى إن شاء الله.

ويجوز الفصل بين الصلاتين إذا أعسرته حاجة، فإنه يصلي ركعتين ويقضي حاجته، ثمّ يصلي ركعتين أخريين.

ويجوز تأخير التسيّحات إلى ما بعد الصلاة مع الاستعجال. أي يصلي الأربع ركعات ثم يسبّح.

ولو سَهَا عن بعض التسيبحات أو كلها ولم يأتِ بها في محلها أتى بها في محل آخر مضافاً إلى وظيفته، وإن ذكر بعد الصلاة قضاها بعدها.

إن الأنبياء ﷺ كلهم أخبرونا عن الله تعالى: أَنَّ هناك عالماً آخر بعد الموت. وأنَّ الناس يحشرون جميعاً يوم القيامة، فيؤخذ بالمحسن إلى الجنة وبالمسيء إلى النار. وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تؤكد ذلك. منها: ﴿وَحْشَرْنَهُمْ فَلَمْ تُقَادِرْ مِنْهُمْ أَعْدَاءُ﴾ [الكهف: الآية ٤٧]. ومنها: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: الآية ٨١].

ومنها: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الرؤم: الآية ٢٧].

فإذا ثبت نبوة الأنبياء بمعاجزهم وصحة دساتيرهم وتعاليمهم ومطابقتها مع العقل السليم. ثبتت صحة ما أخبرونا به ومنه المعاد.

وفي الآيات ما يدل دلالة واضحة على وقوع المعاد الجسماني، أي أَنَّ الناس يُحْشَرُونَ بأجسادهم وبأرواحهم. منها قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتَّخَذَ عِظَامُهُ ۖ بَلَىٰ قَدِيرِينَ عَلَىٰ أَنْ تُسَوَّىٰ بَنَاتُهُ﴾ [القيامة: الآية ٣/٤]. وإنما خص البنات دون سائر الأعضاء لدقة هناك ولاختلاف ما على البنات من خطوط ونقوش على عدد الناس: ﴿سُبْحَنَهُمْ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: الآية ١٨].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنُجْلِدَهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ [نصلت: الآية ٢١]. ومنها: ﴿كَلَّمَ نَبِيَّتْ جُلُودَهُمْ بَدَلَتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: الآية ٥٦].

وأما ما قاله بعض القدماء من الفلاسفة من أَنَّ المعاد لا يقع جسمانياً وإنما هو روحاني بحث، فذلك لمحدودية ما كان لديهم من معلومات عن الكون المادي والقوى المسيطرة بإذن الله على هذا الكون، وقياس الأمور على ما كانوا يرونه في حياتهم من إمكانات. ولو كانوا أحياء في مثل هذا العصر، عصر الذرة والمعادلات التفاضلية،

عصر النظرية النسبية والنظائر المشعة، لعلموا أن آفاق العلم لا تحد وما يراه الإنسان في عالم الممكنات مستحيلًا في وقت، يراه ممكنًا بعد تقدم البشر في التعرف إلى بعض مظاهر الكون وما أودع الله فيه من نظم وخواص وقوانين تبهر العقول.

﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ قَوْلُهُمْ أَهَذَا كَمَا تَزَكَّاهُ نَأْتِي خَلْقَ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَعْلَى فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الرعد: الآية ٥].

ثم إن الإنسان ليرى أن هناك ثلة من الناس بالغوا في الظلم والطغيان حتى أنهم أنكروا وجود الله جلَّ جلاله، وأن الله لم ينتقم منهم في دنياهم ولم يقتص للمظلوم من الظالم، فيحكم، لعلمه بعدالة الله تعالى أن هناك عالماً آخر يكافأ فيه المحسن ويُعاقب فيه الظالم.

إن للكبر أثراً عجبياً في ردع الإنسان عن الاعتقاد بالبعث واليوم الآخر. إن الله تعالى يقول: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [٢٢] لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُرْسُوتُ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ لَا يُحِيبُ الْمُسْتَكْبِرِينَ [٢٣] وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا اسْطِغِيرِ الْأَوَّلِينَ [٢٤] لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ [٢٥] [التحل: الآيات ٢٢/٢٥] (١).

فالنفس المتحجرة المتكبرة لا تخشع ولا تخاف عقاب الله تعالى، فتعصى الله تبارك وتعالى في أرضه. فيفسد القلب نتيجة ذلك الإنكار والاستهزاء بما أنزل الله من آيات فتصورها أسطورة وخرافة: ﴿قَالُوا اسْطِغِيرِ الْأَوَّلِينَ﴾ [التحل: الآية ٢٤].

وإن هؤلاء بفعالياتهم السلبية يضلون كثيراً من الناس دون سند علمي: «بغير علم» فيحملون أوزارهم وأوزار الذين يضلونهم.

لذلك يسأل أبو عبد الله عليه السلام عن أدنى الإلحاد؟ فيجيب عليه: «إن الكبر أدناه».

وعنه سلام الله عليه: «إن المتكبرين يجعلون في صور الذر، يتوطينهم الناس حتى

(١) الوزر: الإثم، الحمل الثقيل. يزرون: يحملون.

يفرغ الله من الحساب»^(١).

إن المتكبر يعزو جميع المواهب والقابليات إلى نفسه، وهكذا كل ما يفضّل الله عليه من نعم لا تعد ولا تحصى. وهذا جحود وكفر. والكافر مطرود عن ساحة القدس. مُبْعَد إلى حيث يستحق من الدرك الأسفل من النار.

إن الظلم وما يتبعه من كبرياء يسدّان على البشر أبواب الهداية على حد قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ وَاَسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأحقاف: الآية ١٠].

وهكذا أثر الغش في إبعاد البشر عن الإيمان بيوم المعاد. ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَذَّبْتُمْ طَيِّبَتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: الآية ٢٠].

إن هؤلاء المتكبرين^(٢) يصمون مُعْطِيَاتِ العقل السليم بالخرافة. والمنطق بالقدم. ويزعمون أنَّ المنطق البشري قابل للتغيير، فالشيء يكون صحيحاً وخطأ في وقت واحد، ويجتمع الضدّان في وقت واحد وفي صُقع واحد إلى ما هنالك من خرافات بل جنون ما أنزل الله بها من سلطان. ويعدّون هذا منطقاً جديداً! وأمّا المنطق الفطري، هذا المنطق الذي كان هو الأساس في ما اكتشفه البشر من مكتشفات منذ تدوينه علوماً شتى، أي منذ ألفين وخمسة مائة سنة حتى اليوم، فهو في نظرهم منطق شكلي! يا لها من مغالطة خادعة! تخدع السُدُج والقلوب المريضة وذوي العاهات. إنهم يخدعون السُدُج بكلمة: جديد!... تقدم!... وكلمة: قديم!... بال، خرافة، رجعية!... تأخر..

ولولا ما دوّنه اليونانيون ومن بعدهم المسلمون من رياضيات وطبيعيّات وطب وعلوم أخرى، استناداً على المنطق الطبيعي. (هذا المنطق الذي يمؤه فيه الشيوعي الواقع والحق فيسمّيه منطقاً شكلياً)، لما وجد هذا الصاروخ الذي يتشدّق به خطيب من خطبائهم حُرْم موهبة التفكير الرياضي والتحقيق العلمي، لما في نفسه من كبر وغرور. وقال موسى عليه السلام: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾

(١) أصول الكافي: ج ٢، ص ٣١١، باب الكبير، ح ١١.

(٢) وأعني بهم: الشيوعيين.

[غافر: الآية ٢٧]. وفي آية أخرى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارًا﴾.

أسفاً لنفوس تلوثت بشتى الجرائم. فوجدت الشيوعية وكرراً تستر تحتها ممّا حلّ بها من نقص وضعة في النفس. أسفاً لنفوس أمست محجوبة عن رؤية الحق والواقع ومطرودة عن مقامات القدس لما اجتاحت من موبقات ومنكرات، فصارت تتشذّق مستكبرة، مترنّمة بكلمة تقدم، ثقافة. كأنّ من لوازم الثقافة والتقدّم، الانحلال الخلقي، والتسافل، والتفكّك عن كل مقياس وإنكار الفضائل وبالتالي، إنكار المعاد! لم تدف هولاء ما منّ الله عليهم من سمع وبصر وقلب، لأنها أمست لجرائم لا تعدّ محجوبة عن التطلّع إلى ما وراء المادّة الصمّاء. فهم ومع الأسف مصداق هذه الآية المباركة: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِيْمَا إِن مَكَنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَآبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: الآية ٢٦].

إنّ الله تعالى جلّ أن يظلم أحداً. وإنّما يصل الفرد إلى نتيجة عمله، إن خيراً فخير وإن شراً فشر. وفي الحديث: «إنما أعمالكم ترد عليكم».

وقد قال الله تعالى: ﴿فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف: الآية ٣٥].

وقد جاء في الحديث أيضاً: «من لقي الناس بوجهين ولسانين جاء يوم القيامة وله لسان من قفاه وآخر من قدامه يلتهبان ناراً»^(١). وفي حديث آخر: «من خاف الناس لسانه فهو من أهل النار»^(٢). وفي آخر أيضاً: «إن في الجنة غرفاً يسكنها من أطاب الكلام وأطعم الطعام وأفشى السلام»^(٣).

إذن، فطريق الجنة، العمل الصالح مع عبادة مقبولة. وطريق النار هو الفسق والكذب والنميمة والغيبة وترك العبادة وما إلى ذلك.



(٣) بحار الأنوار: ج ٩٤، ص ٩٩، باب ٥٩، ح ٢١.

(١) ثواب الأعمال، للصدوق: ص ٢٦٩.

(٢) جامع الأخبار: ص ٩٣، الفصل ٥٢.

إن العوالم القدسيّة ثابتة منذ الأزل، ولا تتبدّل حسب الأهواء، ﴿وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [المؤمنون: الآية ٧١]. ﴿وَلَنْ تُلَاقَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: الآية ١١٦]. ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ ﴿٤٧﴾ [البقرة: الآية ١٤٧]. نعم جلّ ما عند هؤلاء، كلمات فارغة لا يستطيعون تحديدها تحديداً علمياً، لا شائبة فيه: الرجعيّة، أساطير، خرافة، قديم، بال، أفيون الشعوب، إلى ما هنالك من كلمات مسبليّة!

فالصدق عند هؤلاء أسطورة. والفضيلة خرافة والاعتقاد بما وراء الطبيعة رجعيّة، والصلاة تناقض الماديّة! إلى ما هنالك ممّا يخالف المنطق السليم الذي نجده في قلب سليم. نجده في نفس فيها شيء من الحياء والتواضع والإذعان للحق وفيها شيء من الفضيلة ومرتبّة من السمو. إنه تعالى يقول: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿لَا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ ﴿٨٩﴾ [الشعراء: الآيتان ٨٨/٨٩].

ولقد تتبععت هؤلاء المهوسين، الذين لا يركنون في أهوائهم إلى ركن ركين، تتبّعتهم فالفيتهم منفلتين عن الفضائل، منغمرين في أنواع الرذائل، فأمسوا لا يرون ما هم عليه من كثرة النقائص والمفاسد، فهم حقاً من ذوي العاهات! ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسَتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: الآية ١٩].

إنهم عما قريب مصداق هذه الآية الكريمة: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهَ بُنْيَانُهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٦٦﴾ [التحل: الآية ٢٦].

فلكل نفس رشحات تتناسب مع درجة كمالها، ومرتبّة تسافلها، فتكون فلسفتها في الحياة وفيما بعد الممات تابعة لهذه الدرجة وتلك المرتبة: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ ﴿٧٢﴾ [الإسراء: الآية ٧٢]. هذه حقيقة الحقائق، حقيقة ما بعدها حقيقة، تنكرها النفس المتسافلة وتسلم بها النفس المتكاملة.

فالذي كان دأبه الإفك والإثم وسوء الخلق وجرح الخواطر وإيذاء الناس والكذب، تكون عاقبة أمره، إنكار آيات الله تعالى والاستهزاء بما أمر الله، على حد

قوله تعالى: ﴿وَبَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ^(١) أَثِيرٌ ۝٧﴾ يَمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تَنَزَّلَ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ وَمَن زَايَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿[الجنابة: الآيات ٧/ ١٠].

إن الشيطان ليعقب أولئك الذين لم يطهروا أنفسهم تطهيراً كاملاً قبل نفاذ عمرهم إلى آخر ساعة من حياتهم فهو لهم بالمرصاد. فقد قال أبو عبدالله عليه السلام: «ما من أحد يحضره الموت إلا وكل به إبليس من شياطينه من يأمره بالكفر ويشككه في دينه حتى تخرج نفسه. فمن كان مؤمناً لا يقدر عليه. فإذا حضرتم موتاكم فلقنوهم، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، حتى يموتوا»^(٢).

ومما يؤثر كثيراً في أن يوفق الشخص للإقرار بالشهادتين، المواظبة على الصلوات الخمس بإخلاص عند مواعيتها كما جاء في مفاد الحديث، فالناس هلكى إلا العالمين، والعالمون هلكى إلا العاملين، والعاملون هلكى إلا المخلصين، والمخلصون على خطر عظيم... الحديث»^(٣).

قد ذكر لي أحدهم: أنه كان عند صديق له عندما حضرته الوفاة، وكان صديقه هذا ممن يصلي ويصوم ويؤدي ما في ماله من حقوق، ويتقي الله في أموره، وكان عنده ساعة موته أصدقاؤه الآخرون. فيلقن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن علياً ولي الله؛ فلم ينطق بها وأبى، وأخذ يصرق. ولكن الله تعالى لم يشأ أن يموت الرجل على هذه الحالة، فعادت، بإذن الله، إليه روحه، فصحته. وسئل بعد ذلك عن عدم إقراره بالشهادة، فأجاب: «إني كنت أسمع ما ألقن به من شهادة... ولكنني أمسيت في تلك الآونة عطشاناً إلى حد لا يُطاق. فقرَّب إليَّ شخص قدحاً مملوءاً ماءً،

(١) (أفَّاك = كذاب).

(٢) الكافي: ج ٣، ص ١٢٣، باب تلقين الميت، ح ٦.

(٣) جاء في تنبيه الخواطر للأمير ورام هكذا: «العلماء كلهم هلكى إلا العاملون والعالمون كلهم هلكى إلا المخلصون والمخلصون على خطر».

وأخذ يقول لي: لا تقرّ بالشهادة، كي أرويك من هذا الماء. فصرتُ أبصق في القدح كي لا أستسيغه. وأشكر الله على إنجائه إِيَّاي من ذلك الموقف الحرج.

وهكذا حدث لرجل آخر حينما حضرته الوفاة. فأبى الإقرار بالشهادتين وصار يرمق ببصره إلى رف في فرقة فيه إناء مرصّع. ثم رُدَّت بإذن الله إليه روحه، وسئل عن عدم إقراره بالشهادتين، فقال: «لني كنت شديد العلاقة بالإِناء المرصّع، ورأيت شخصاً^(١) رافعاً الإناء وهو يقول لي: إياك أن تقرّ بالشهادتين. فإني سأرمي به على الأرض إن أنت أقررت بهما. ولذلك ترددتُ في الإقرار رغبةً في ذلك الإناء المرصّع، وأشكر الله على إنقاذه إِيَّاي».

وفي الحديث: «حب الدنيا رأس كل خطيئة». فطوبى لنفوس تهيأت ليوم ﴿يَعْمَلُ آلَ لَدْنٍ شَيْبًا﴾ (٧) أَلَسَمَاءٌ مُنْقِطِرٌ بِهِ. كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿٨﴾ [المزمل: الأيتان ١٧/١٨]، فلم يقوَ الشيطان على إغوائها حين خروج الروح.

وقد جاء في أخبار آل محمد ﷺ: «كل عين باكية يوم القيامة إلا ثلاث أعين، عين غَضَّتْ عن محارم الله وعين سهرت في طاعة الله وعين بكت في جوف الليل من خشية الله»^(٢). وفي خبر آخر، في ما أوصى به النبي ﷺ علياً عليه السلام: يا علي، كل عين باكية يوم القيامة، إلا ثلاث أعين سهرت في سبيل الله، وعين غَضَّتْ عن محارم الله، وعين فاضت من خشية الله»^(٣).

وفي الكافي: «إذا قبضت الروح فهي مُظَلَّةٌ على الجسد».

ولا بأس بذكر هذه الحادثة، فهي مفاد الحديث المتقدم. يقال: إنَّ أحدَ العظماء صاحب المؤلفات العظيمة^(٤) والخدمات المشكورة تعاهد مع أحد أصدقائه أن يأتي كل من مات قبلاً إلى حلم (طيف) صديقه، ليخبره عما شاهده حين موته وبعد الموت.

(١) إنه الشيطان، يرافق الإنسان إلى آخر لحظة من حياته.

(٢) أصول الكافي: ج ٢، ص ٤٨٢، باب البكاء، ح ٤.

(٣) أصول الكافي: ج ٢، ص ٨٠، باب اجتناب المحارم، ح ٢.

(٤) وهو العلامة السيد محمد باقر المجلسي صاحب بحار الأنوار.

وقد مات هذا العالم الكبير قبلاً، فلم يَرَهُ صديقه في منامه حتى مضت سنة كاملة. عند ذلك رآه في حلمه. فعاتبه على تأخره هذه المدة. فأجاب قائلاً: «علامَ تعاتبني يا أخي، كنت مشغولاً بالحساب، أحاسب حساباً دقيقاً عسيراً». فأجابه صديقه.

«أو تحاسب أنت، مع ما لك من خدمات جمّة». فأجاب قائلاً: «كلها لم تفدني».

ثم قال: «عندما حضرته الوفاة، جاءني ملك الموت، فمسح على رجليّ فذهب ما بهما من وجع، وهكذا بقيّة أعضاء بدني، فخرجت روحي وصارت تُشرف وتُطل على البدن. وأهلي ييكون. فصرت أقول لهم. ما لكم تبكون، وقد ذهب عني ما كان بي من ألم. ثم أمرت بتعقيب البدن، فصرت أتبع بدني حتى واروني في رمسي. فبدأ السؤال، وصار الملكان يستنطقاني. فأجبت بلطفه تعالى عمّا سألا. ثم بدأ الحساب، وأيّ حساب!.

فصرتُ أشرح ما قمت به من أعمال، قلت: ألفت كتاباً ضخماً، وموسوعة إسلاميّة. فقبل لي: إنك فرحتَ وسُررتَ عندما مدحوك لأجل ذلك المؤلف الضخم ومولفاتك الأخرى، فذاك جزاؤك... إلى ما هنالك. فأوشكت أن أقنط. فقبل لي، قد أدخرنا لك عملين كانا لوجه الله تعالى لا شائبة فيهما:

إنك عندما ذهبت لمقابلة الملك، استقبلك رجال الملك، وأخذت الشرطة تنحي الناس بعنف، فقلت: إذ ذاك، إن كان هذا لي، فإنّي لا أرضى بذلك، ورفضت الاستقبال. ثم إنَّ الملك قدم لك تفاحة في غير موسمها. خرجت من عند الملك، فبينما أنت سائر في طريقك وإذا بولد يتيم صار ينظر إلى تلك التفاحة، فدفعتهإ إليه لوجه الله^(١). فهذان عملان لك، لم تقم بهما إلا لوجه الله، قد أدخرناهما لك، تدخل بهما الجنة».

يقول عدد من الفيزيائيين المحدثين: «إن هنالك عالماً آخر وراء العالم الذي تنحصر فيه الفيزياء، إنَّ العالم الآخر وحدة روحية أو عقلية وما المادّة سوى مظهر من مظاهرها، إنَّ العقل وحده هو الشيء الحقيقي، وإنَّ المادّة هي من مخلوقات

(١) ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا أَتَيْنَاهُ بِجَوْدٍ وَالْأَعْلَى﴾ ﴿١٦﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ [الفرزل: الآيات ١٩/٢١].

العقل؟!». وصاروا يعلنون هذا الرأي بنفس القوّة التي أعلن فيها أسلافهم الماديّون قبل خمسين سنة، وذلك: «أنّ المادة وحدّها هي الشيء الحقيقي، وإنّ العقل ما هو إلّا انبعاث طفيف من انبعاثات المادّة!».

ويظهر بعد هذا الاعتراف من علماء الفيزياء مع ما فيه من جوانب ضعيفة وخاطئة، أنّهم سوف يؤمنون يوماً ما بالبعث والمعاد، كما اعترف الكثير منهم بخلود الروح وأنّها لا تفنى بعد تفسخ المادة. ولقد أصبحت دراسة الروح والنفس موضوعاً هاماً مرموقاً في جامعات العالم. وأخذ العالم يلفظ رويداً رويداً الفكرة الماديّة الخاطئة معترفاً بالروح وخلودها، وأنّ المادّة مسخّرة من قبل النفس والنفس تستخدمها لأغراضها.

لقد ثبت في الفيزياء أنّ المادّة تتحوّل إلى قوى وطاقات بنتيجة الإشعاع. أي أنّ المادّة تشع فتتحوّل إلى طاقات. كما أنّ الطاقات (القوى) تتكدّس بإذن الله تعالى فتكون مادة (عنصراً من العناصر) أو جسماً من الأجسام. وهكذا النفس الإنسانيّة هي من أجل مظاهر الطاقة. طاقة تختلف عن الطاقات الناشئة عن إشعاع المادة وتحوّلها إلى قوى. فإنّ النفس تبقى خالدة إلى ما شاء الله، ولا تتلاشى بتلاشي الجسد. لأنّها ليست مادّة حتى تتحوّل إلى طاقات بالإشعاع، ولأنّها هي التي تدير الجسد وتؤثّر فيه. ولا تناسب بين الروح والجسد تناسباً يؤدّي إلى اختلاف كمال النفس باختلاف الجسد من حيث قوة العضلات وجسامة الأعضاء. والنفس في غنى عن الجسد في حالات شتى تبرهن ذلك الأحلام (الأطياف) وحوادث جمّة.

وقد ذكر لي صديق لي وهو ممن يوثق بكلامه، أنه كان لأحد أرحامه خادمة من أسرة فقيرة عمرها إحدى عشر سنة، اسمها: أنور، كانت تصدر منها الأعاجيب، كانت تأخذ من الفضاء ما يطلب منها من فواكه نادرة في غير موسمها، وتأخذ من الفضاء دراهم كثيرة بصورة سريعة دون أن يكون مما تأخذ من الفضاء أثر في البيت. وهكذا تلبي طلب من يطلب إليها إحضار شيء من الخارج بصورة سريعة جداً إلى حد يدهش الألباب.

وفي يوم من الأيام حبسها سيدها في الغرفة كي لا تقوم بما تقوم به من العجب والعجاب، وإذا بها تُرى وسط البيت، فتسأل عن كيفية خروجها من الغرفة والباب مغلق، فتجيب قائلة أنها قد خرجت من بين شقوق الباب!

كان يصدر من (أنور) أنواع الأعاجيب والخوارق، حتى إذا تزوّجت وأصبحت امرأة غيرها من النساء ذهبت عنها هذه الميزة والملكة الموهوبة وتلك الخوارق العجيبة.

هل للعلم الحديث أن يفسّر لنا ما كانت عليه هذه الخادمة من ملكات محيرة للعقول وما كانت تأتي به من أعمال خارقة. وكم من حوادث كهذه الحادثة وأعجب منها تحدث من نساء ورجال في الهند وفي غير الهند وليس للعلم الحديث أن يتكلّم فيها بكلمة واحدة.

نحن نعيش في أودية من المجاهيل لا سيّما في عوالم النفس ومما يتعلّق بما وراء الطبيعة، ولكن الغرور لا يدع مجالاً لهؤلاء الماديين للاعتراف بالله خالق الأشياء ومرتبها ومنظّمها إلى أقصى حد من التنظيم، تنظيمًا يحير الأبواب، وللاعتراف بالآخرة وعوالم ما بعد الموت...

﴿سَرُّبِهِمْ ءَايَتَنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فُصِّلَتْ: الآية ٥٣].

* * *

إن العلم الحديث يوضح لنا بقدر ما اطلع على العالم المادي (وهو ضئيل وضئيل جداً بالنسبة إلى ما أودع الله من حقائق وقوانين لا تتناهى في هذا الكون)^(١) ما سيقع قبل يوم المعاد، ويفسّر لنا إلى حد ما قوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾﴾ [التكوير: الآية ١]. ذلك، لأنّ الذرّة على ما هو معروف مؤلّفة من نواة في الوسط (وهي مجموعة نيوترونات وپروتونات) والكترونات في المحيط أو الأطراف، تدور حول النواة.

ومعدل قطر الذرة = $\frac{1}{100,000,000}$ من المليمتر، أي = $\frac{1}{10^7}$ مم

(١) ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُّ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ آبْحَرٍ مَا نَفَذْتَ كَلِمَتُ اللَّهِ﴾ [القلم: الآية ٢٧].

ومعنى ذلك : لو وضعت عشرة ملايين ذرّة بعضها جنب بعض (شريطة أن تكون كروية كلها) كان طول هذه الذرّات الموضوعة بهذا الشكل ميليمتراً واحداً.
ولأن قطر نواة الذرّة (أي مجموعة البروتونات والنيوترونات) =

$$\frac{1}{100,000} \text{ من قطر الذرة. ومعنى ذلك أن:}$$

$$\text{قطر النواة} = \frac{1}{10,000} \text{ مم (من الميليمتر)}$$

ولا يمكن أن ترى الذرّة وهذه النواة مع أقوى الميكروسكوبات الحديثة.
وقد عبّأ الله تعالى قوّة هائلة في جوف النواة، تعرف بالطاقة النووية. فإذا حرّرت هذه الطاقة بوسيلة ما، هدمت ما حوالها، فلا تبقي ولا تذر.
إنّ الذرّة الـ(أورانيوم) مثلاً تنشق، فتتفرّق أجزاؤها، فنتج مع هذا الإنشقاق الحرارة والطاقة الهائلة، أمّا الأجزاء التي انقسمت إليها الذرّة فهي عناصر دون الأورانيوم وزناً، وإذا فرضنا أننا جمعنا هذه الأجزاء ووزنناها لكانت أقل ممّا استخدم من الـ(أورانيوم) وزناً. فأين ذهب الشيء الناقص؟ إنّه تحول إلى (طاقة)، إلى (حرارة) وإلى (نور) إلى (إشعاعات أخرى). أي أنّ المادّة تحوّلّت إلى طاقة وقوى. إذ الغرام الواحد من المادّة يتحوّل إلى طاقة، فينتج منها ما يعادل ٢٢ مليون مليون سعرة^(١) من السعرات الحرارية.

فذرّة (الأورانيوم) تعطي من مادتها، فنتج الطاقة بالتقسيم والتجزؤ والتفرّق. وذرّة (الإيدروجين) تعطي من مادّتها لا بالتشقق والتفرّق، ولكن بالتجمّع، وهكذا تتحوّل بعض المادّة أو كلّها (مع تقدّم العلم الحديث) إلى طاقات هائلة جداً.

وقد ثبت أنّ المادّة إنما وجدت من تكدّس طاقات هائلة أوجدها الله تعالى بقوله :
(كُنْ). فترتّبت بأمّره عناصر تحت نظام بديع وقانون ثابت، وإن هذه العناصر تختلف بعضها عن بعض من حيث عدد البروتونات والالكترونات. أي تختلف من حيث بنية

(١) السعرة: مقدار الحرارة اللازم لرفع درجة حرارة (غرام واحد من الماء) درجة واحدة مئوية، أي من درجة ١٤ مئوية مثلاً إلى درجة ١٥ مئوية.

النواة وما يدور حولها من الكترونات . فكانت ، بإذن الله وأمره ، هذه العناصر المختلفة كالإيدروجين والأكسجين والحديد والراديوم والأورانيوم إلى ما هنالك ، فقد عبأ الله تعالى في ملعقة واحدة من الزئبق ، طاقة تكفي لتسيير قطار كبير حول الكرة الأرضية سبع مرّات .

وقد جعل الله فضاءً واسعاً بين النواة والالكترونات التي تدور حولها . ومعنى ذلك أن الالكترونات في الذرة تبعد عن النواة مسافة شاسعة (مع حفظ النسبة بين صغر الالكترون والنواة والمسافة التي بينهما وقطر الذرة) . هذه المسافة (مع مراعاة النسبة) بين النواة والالكترونات هي كالمسافة بين الشمس وبين أبعد كوكب سيار يدور حولها . فإذا انفصلت الالكترونات في يوم من الأيام عن الذرات في الكرة الأرضية ، وذلك بأمر الله تعالى ، واندمجت الهروتونات بعضها ببعض ، ستصبح أرضنا هذه كبرتقالة ثقيلة جداً ، وزنها بقدر وزن أرضنا هذه التي نعيش عليها ولكن حجمها بحجم البرتقالة .

وإن علماء الفلك المحدثين يخبروننا أن الشمس سيكون مصيرها التلاشي وذلك باندماج نواة ذراتها بعضها ببعض . فيتحقّق قوله تعالى : ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ^(١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ^(٢)﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿[التكوير : الآيات ١/٣] . وذلك من مقدمات يوم المعاد . ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم : الآية ٤٨] . وإنّ قوانين (ديناميكا الحرارية) ، أو علم الحرارة الحركية من أبحاث الفيزياء تدل على أن مكوّنات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجياً ، وأنها سائرة حتماً إلى يوم تصير فيه جميع الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض هي الصفر المطلق ! ويومئذٍ تنعدم الطاقة وتستحيل الحياة . وهكذا تدلّ الشمس المستعرة والنجوم المتوهّجة على أنّ لها بداية . . وقد أثبت العلم فوق ذلك أنّ لهذا الكون بداية وأنّه بدأ دفعة واحدة منذ نحو خمسة بلايين سنة .

(١) ومعنى كورت هنا أي رفعت .

(٢) انكدردت : أظلمت . سیرت : أي ذهبت .

وهكذا سيكون مصير (القمر)، على ما استنبط ذلك بعض علماء العصر الحاضر. فإنهم يقولون: يأتي يوم فيتجزأ القمر بالتأكيد، فيصبح قمرين فأكثر. ثم تنفجر هذه الأجزاء انفجاراً هائلاً وتستحيل إلى ألف شظية أو أكثر، فإذا قربت هذه الشظايا من الأرض تستحيل إلى آلاف من الشهب الصغيرة. وقد قال تعالى: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَشَقُّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: الآية ١]. فتبدأ في الأرض سلسلة من الزلازل ويشند نشاط البراكين وتقذف ما فيها إلى الخارج وتعمل الهزات في القشرة الأرضية عملها، فتسوى أعالي الجبال وقممها إلى سوية قاع البحار. ﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ [١٦] لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿يَوْمَيزِلُهَا يَبْقَعًا﴾ [١٧] الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿يَوْمَيزِلُهَا يَنْفَعُ الْشَّفْعَةُ إِلَّا مَنْ أِذْنُ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه: الآيات ١٠٥/١٠٩].

ولقد توصل ثمانية من العلماء، من رجال الفلك بمرصد: (مولارد) نتيجة بحث استغرق ٨ سنوات: أن هذه الأرض إنما هي شظية من إحدى الشظايا التي تطايرت نتيجة لانفجار هائل حدث قبل عشرة آلاف مليون سنة على حد قوله تعالى في (سورة الأنبياء، الآية: ٣٠)، ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ (١) ﴿فَفُتِنْتَهُمَا﴾ [الأنبياء: الآية ٣٠] (٢).

وقد استعمل هؤلاء في استكشاف الفضاء عدة أجهزة جبارة من بينها تلسكوب (مِرْقَب) وجهاز التقاط للإشارات، وحكموا أن الكون سوف ينتهي في يوم من الأيام. ﴿يَوْمَ يُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم: الآية ٤٨].

واعترفوا أن في الكون مسافات هائلة يعجز الدهن عن تخيلها: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الدَّارِيَات: الآية ٤٧].

(١) أي كانتا مرتويتين: مضمومتين ملتحمتين، أي أن السماوات والأرض كانتا جميعاً كتلة واحدة.

(٢) أي ففصلنا بعضها عن بعض وجعلناها شمساً وكواكب ونجوماً وأقماراً تنويع للنجوم، ومجرات إلى ما هنالك.

كما أثبتوا أنَّ هناك أجساماً شمسيَّةً ميَّنة فوق حافة الكون، وهذا ما يؤكد أنَّ الكون يقترب من نهايته . وهذا هو عين ما درسته عندما كنت طالباً في الجامعة في فرع (الفيزياء الرياضيّة العالية) من أن الشمس آخذة بالأفول والنضاؤل والاندثار .

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: الآية ٣٤] .

وإنَّ هؤلاء العلماء الثمانية توصَّلوا أيضاً إلى أنَّ كل الأجسام الموجودة في الكون من كواكب ونجوم وشموس وغير ذلك تنطلق في الفضاء بسرعة خياليَّة تاركة ثغرة في الوسط . وإنه قد كانت لهذا الكون بداية قطعاً، كما جاء في القرآن الكريم : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [١٩] قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ٢٠] . وإن الكون لن يدوم إلى الأبد وإنَّه يتغيَّر مع الزمن حتى تقترب النهاية، لشرع عالم آخر تتحقَّق فيه عوالم يوم القيامة .

وهكذا ذهب هؤلاء العلماء يعتقدون أنَّ الانفجار الهائل الذي وقع منذ آلاف الملايين من السنين في عدَّة كتل من المادة أسفر عن انتشار شظايا ماديَّة في مختلف الاتجاهات، ثمَّ تطوَّرت هذه الشظايا إلى الكواكب والنجوم التي نراها اليوم . فنرى أنَّ العلم الحديث يقترب من الاعتراف بما جاء في القرآن الكريم عن البداية والنهاية كلما أتيح له من آلات دقيقة ومعلومات رياضيَّة عميقة . وإنَّ مُعطيات العلم لم تكن لتخالف ما جاء في كتاب الله المجيد إلَّا لضالَّة ما وصل إليه العلم وعجز الآلات المكتشفة عن الاستقصاء .

يعترف العلم الحديث : أنَّ الذرَّات قد استحدثت منذ زمان لا يتجاوز جملة قليلة من بلايين السنين، وأنَّ عمر أكثر النجوم ٣ بلايين من السنين، كما أنَّ عمر المحيطات عدد قليل من بلايين السنين وأنَّ النظام النجمي كان موجوداً قبل زمن يتراوح بين بليونين وخمسة بلايين من السنين وأنَّ عمر الصخور المختلفة - ونعني بذلك الزمان الذي انقضى

منذ أن تصلّبت بعد أن كانت مائعة - (١٩٨٠) مليون سنة . وقد قدّر ذلك بكل دقّة بواسطة
«الطريقة الزمنية للنشاط الإشعاعي» (Radioactive - Clock method).

كما علّم بنفس الطريقة أنّ عمر قشرة الأرض لا يقل عن بليونين من السنين . ومن
هنا نرى أنّ البحث عن عمر أية ناحية من نواحي الكون ينتهي إلى جواب تقريبي
واحد: هو بضعة بلايين من السنين قدماً .

وقد رفض العلم الحديث «فرضيّة الكون الثابت غير المتغيّر» ، ويعتقد اليوم جازماً
أنّ الكون لم يكن فكان ، وأخذ يتطوّر تحت نظام وحساب دقيق وتدبير عميق منذ بضعة
بلايين من السنين ، وأنّ الكون كان في الماضي السحيق أقلّ تعقّداً ممّا هو الآن . كما
يعترف العلم أنّ صورة مجموع الفضاء الكوني وما يأهل به من بلايين (المجرات) هو
في حالة انتشار سريع وأنّ كلّ أعضائه يتبعد بعضها عن بعض بسرعة مرهقة . ﴿وَالسَّمَاءَ
بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذّارّيات: الآية ٤٧] .

كما أنّ العلم الحديث يقدر أنه عند بلوغ سنة ٤٧,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ بعد الميلاد
سوف تتلقّى شمسنا وثيقة إعدامها .

ومن الأمور المعروفة عند علماء الطبيعة والفلك أنّ مادة الكون الصلدة آخذة في
الانحلال والتلاشي أثناء تحوّلها إلى إشعاع . وأنّ وزن الشمس يقل كل يوم ٣٦٠ ألف
مليون طن . أي أنّ هذا القدر من مادتها يتلاشى لكي تشع كل ما تشعه يومياً . وهذه
الأشعّة التي تنطلق منها تسير في الكون ، وستظل سائرة فيه إلى نهاية الدنيا . وتحوّل
المادة إلى إشعاع عمل جارٍ الآن في كل النجوم . وأنّ الأرض تخسر من وزنها يومياً
بالإشعاع تسعين رطلاً !

والله تعالى يقول : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ
وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الزّمد: الآية ٤١] .

وفي آية أخرى : ﴿بَلْ مَتَعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي
الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٤٤] فتشير الآيتان
الكريمتان أنّ الأرض منذ أن خلقها الله تتناقص من أطرافها وهي ظاهرة كونية لم يلتفت

إليها العلماء إلا في السنوات الأخيرة إذ أثبتت الأبحاث العلمية عن شكل الأرض أن قطرها الواصل بين القطبين يتناقص بكمية ضئيلة جداً، إلا أن عملية التناقص هذه مستمرة منذ أن خلق الله الأرض، حتى أن شكلها تطور بمرور الزمن من الشكل الكروي إلى الشكل البيضاوي تطوراً مستمراً لا انقطاع فيه .

وقد علم أنه ليس لهذا التحول الذي ذكرناه ما يقابله من تحول الإشعاع إلى مادة حسب قواعد الفيزياء . أي ليس ما تفقده الأرض والشمس والنجوم في ناحية من نواحي الكون يعوّض في ناحية أخرى : بتحول الإشعاع (الطاقة) إلى مادة . أي ليست القضية كتحويل المياه إلى بخار ثم تحول البخار إلى مياه وهكذا دواليك . ذلك لأنّ المادة حين الإشعاع تتحول من قوة ذات موجة قصيرة إلى قوة أخرى ذات موجة أطول منها . ويتعدّد تحول قوة ذات موجة أطول إلى قوة ذات موجة قصيرة حسب قواعد الفيزياء . وإنّ هذا الانحطاط - أو التحول - في القوة لا يمكن أن يمضي كذلك إلى الأبد، إذ لا بدّ أن يجيء وقت تتحول فيه آخر وحدة من القوة الصالحة للعمل إلى قوة غير صالحة للعمل وعندئذ تجيء نهاية الكون ويخبرنا الله تعالى عن ذلك بقوله : ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انشَظَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ﴿٣﴾﴾ [الإنفطار: الآيات ١/٣] . ويقول : ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَخُفَّتْ ﴿٢﴾﴾ [الإنشاق: الآيتان ١/٢] .

ويعترف العلم الحديث أنّ الطاقات (الإشعاعات) التي حدثت نتيجة تحول المادة (كل ما في الكون) إلى طاقات لا يمكن أن ترجع إلى مادة من جديد إلا بقوة خارجة عن الكون . ذلك لأنّ الكون، حسب قواعد علم الفيزياء، خاسر يوماً ما كل القوة الصالحة للاستعمال التي كانت فيه والكون الذي لا توجد فيه قوة صالحة للاستعمال، كون ميت . فنهاية الكون تحين متى انحل كل جوهر من جواهر المادة وانطلق في الفضاء إشعاعاً قوياً قصر الأمواج . ولا بدّ من قوة خارجية وهي : إرادة الله تعالى لإرجاع هذه الطاقات إلى عوالم أخرى من جنات عدن ﴿عَرَضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [آل عمران: الآية ١٣٣] وغيرها من عوالم لا يعلمها إلا الله ﴿يَوْمَ بُدِّلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: الآية ٤٨] . ويقول الله تعالى في سورة التكوين ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١﴾﴾ [التكوين: الآية ١١] أي أزيلت .

فكل شيء آتِل إلى زوال وفناء، حتى يبدأ بعد ذلك بإذن الله وإرادته عالم من جديد، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٦١﴾ وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٦٢﴾﴾ [الرحمن: ١٦/١٧].

إن الله تعالى يقول: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [الدخان: الآية ١٠]، وفي هذه الآية إشارة إلى يوم القيامة، وتخبرنا بعلامة من علاماتها. فالمعروف علمياً أن كل نجم أو شمس كشمسنا لابد وأن تطراً عليه حالة يتمدد فيها سطحه قبل أن يصل إلى حالة الاستقرار. وشمسنا بالذات لم تمر بعد بهذا الدور وهي لا تزال في مقتبل عمرها. وعندما تمدد يصل لهبها وغازات جوها المستعرة إلى الأرض حسب قوله تعالى: ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾ [القيامة: الآيات ٩/١٢].

﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ عَسِيرٌ ﴿١﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿٢﴾﴾ [المذثر: الآيات ٩/١٠].
إن الله يصف حالة هؤلاء الكافرين بعد أن أدخلوا نار جهنم، يصفهم بقوله ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴿١﴾﴾ فيجيبهم الله تعالى بقوله: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يُبْدِكُمْ فِيمَا مِنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٢﴾﴾ [فاطر: الآية ٣٧]. نستجير بالله من سوء العاقبة! من ﴿لَظَى ﴿١٥﴾ نَرَاةَ لِلشَّوَى ﴿١٦﴾ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ﴿١٧﴾﴾ [المعارج: الآيات ١٥/١٨]: جمع الأموال، فلم ينفقها في سبيل الله.

إن الله يصف حالة الأرض بعد أن يبلغ أهلها ذروة الطيش والغرور وكيف أنها تكون هباءً منثوراً في طرفة عين بقوله جلّ من قائل: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهِآ أَنهَآ أَمَرْنَا لَبَآ أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ ﴿١﴾﴾ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢﴾﴾.

العلم الحديث يخبرنا بالمارد الذريّ السابح في الفضاء وهو (البروتون Proton) السالب الذي إذا اصطدم بشيء من الأشياء أرجعه في طرفة عين إلى إشعاعات وطاقات! بل جعله نسياً منسياً. وقالوا إن هذا المارد يفني ما يصطدم به من مادة،

فيتحقق «إفناء المادة»^(١) بهذا الاصطدام، فلا يبقى شيئاً.

ثم إن الله تعالى بقوله في الآية المتقدمة: ﴿أَتْلَاهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾. يشير على حركة الأرض حول نفسها، وذلك: لأنَّ الليل والنهار يكونان على الكرة الأرضية في وقت واحد. والله تعالى لا يتردد في علمه ولا يتردد في وقت يريد فيه إفناء الأرض، هل يكون ذلك ليلاً أم نهاراً؟ وهو خالق كل شيء والعالم بما سيكون. فيشير قوله تعالى: ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس: الآية ٢٤] إلى أن قسماً من الأرض يتلقى أمر الإفناء من جانب الله تعالى، ليلاً، والقسم الآخر في نفس اللحظة، يتلقى هذا الأمر نهاراً. وهذا لا يتم إلا بحركة الأرض حول نفسها وحدث الليل والنهار في نفس الوقت نتيجة هذا الدوران. .

إن الله تعالى يقول: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبُّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾^(٢) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: الآيتان ١/٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا الْبَحَارُ سُجِّرَتْ﴾^(٣) [التكوير: الآية ٦]، وقد ثبت أنه عندما تنطلق ذرة الإيدروجين المتحدة مع الأوكسجين نتيجة للانفجار الذري يجعل كافة البحار ناراً في أقل من لمح البصر.

وإذا انضمت ذرتان من ذرات الإيدروجين نتج عنهما (الهليوم) ونتج عن ذلك أتون مشتعل يشمل الكون وما فيه، فتصبح السماء ناراً: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾^(٤) [الرحمن: الآية ٣٧]^(٢).

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: الآية ٧٧]. وقد أخبرنا الفلكيون أنَّ نجمة (سيريوس) التي تشاهد كل ليلة باستخدام للتلسكوب قد استحالت في طرفة عين أو أقل إلى نجمة صغيرة جداً مظلمة وأنَّ نواة ذراتها قد اندكت بعضها ببعض.

(١) Annihilation of la Matière

(٢) أي أنَّ السماء صارت حمراء مذابة كالدهن.

وهكذا سيكون مصير منظومتنا الشمسية ويتحقق كل ما أخبرنا الله تعالى في كتابه الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصِّلَتْ: الآية ٤٢].
﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ١٠٤].

وهكذا يخبرنا الله تعالى في (سورة الزمر، الآية: ٦٧):

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَتَّى قَدَرُوهُ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٦٧]. ومعنى ذلك أنه إذا كان يوم القيامة تكون الأرض جميعاً مقبوض عليها في يده تعالى (أي تكون تحت قدرته وطوع إرادته)، ذلك. لأنَّ الله ليس بجسم حتى تكون له يد، وتكون السماوات على أبعادها غير المتناهية مطويات بيمينه، فسبحانه أي فتزبهاً له عما يشركون. وهذا يدل أن هناك تبديلاً هائلاً في الكون عند حلول يوم القيامة؛ يخبر عنه ربنا جلَّ جلاله في آيات عدة، كي تنزود بالتقوى، وتنتهي في دنيانا هذه لجنة ﴿عَرَّضْهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أَعَدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: الآية ١٣٣].

إنَّ الله تبارك وتعالى بيّن لنا أيضاً بوضوح ما سيقع في الأرض أولاً ثم ما سيقع ثانياً حين تتبدّل هذه الأرض بأرض أخرى وكذا السماء بسماء أخرى أيضاً وذلك بقوله تعالى ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ فِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [١٨] وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءُ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [١٩] وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [٧٠] (١) [الزُّمَر: الآيات ٦٨/٧٠]. ومعنى ذلك أنَّ (إسرافيل) ينفخ في بوق يوم القيامة، فيموت كل حي، ثم ينفخ مرة أخرى، فيقومون للبعث. وإنَّ النفخ في البوق لا يشبه ما نفهمه نحن اليوم من كلمتي النفخ والبوق، وإنما علم ذلك عند الله. وهذا إيذان بمجيء يوم القيامة ثم إيذان بالبعث.

(١) صعق، أي خرباً ميتاً أو مغشياً عليه.

فلا سبيل للإنسان إذا أراد تصحيح معتقداته إلا التمسك بالعمل الصالح^(١) وير
الوالدين^(٢) وصلة الرحم^(٣) وصدقات، وإحسان وقضاء حوائج الناس^(٤) والتفاني (إن
أمكن) في هذا المضممار. وتطهير المأكول والمشرب مما حرم الله، وإرجاع حقوق الناس
إليهم، وتجنب الحسد والبخل والكبر وهي أصول الكفر كما جاء في الحديث. وتجنب
الغيبة^(٥) والنميمة والخداع والكذب وكل ما يلوث هذه النفس من خمر وميسر (قمار) وفسق
وفجور وغمط حقوق الناس واعتباره مكسباً. والقيام بصلاة^(٦) فيها خشوع وخضوع، ﴿قَدْ
أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون: الآيتان ١/٢]. وصوم لوجه الله
(لا إرضاء للوالدين أو حياء من الناس) وحج أداءً للواجب الديني^(٧) وأداء خمس

(١) قال رسول الله ﷺ: «إن على كل مسلم في كل يوم صدقة، قالوا ومن يطيق هذا؟ قال ﷺ: إماطتك الأذى عن الطريق صدقة، وإرشادك الضال إلى الطريق صدقة، وعيادتك المريض صدقة، واتباعك الجنازة صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وردك السلام صدقة». (الأذى في الطريق كالشوك والحجارة) [مستدرک الوسائل: ج ٧، ص ٢٤٢].
(٢) وعن النبي ﷺ: «وأبويك فبرهما وأطعمهما حيين وميتين فإن أمرك أن تخرج من أهلِكَ ومالك فافعل، فإن ذلك من الإيمان» [أصول الكافي: ج ٢، ص ١٥٨، باب البر بالوالدين].
(٣) في الحديث: «صلة الأرحام تطيل الأعمار وتعمّر الديار وإن كانوا كفاراً» [بحار الأنوار: ج ٤٧، ص ٢١١].

وفي خبر: «اتقوا الحالقة، فإنها تميت الرجال، قيل وما الحالقة يا ابن رسول الله؟ قال: قطيعة الرحم» [أصول الكافي: ج ٢، ص ٣٤٦]. وفي حديث آخر: «لا صدقة وذو رحم محتاج» [من لا يحضره الفقيه: ج ٢، ح ١٧٤٠]. وفي حديث آخر: «إن الله خلق الجنة وطيبها وطيب ريحها ولا يجد ريحها عاق أو قاطع رحم» [بحار الأنوار].

(٤) عن أبي عبد الله ﷺ: «لقضاء حاجة امرء مؤمن أحب إلى الله من عشرين حجة كل حجة ينفق فيها صاحبها مائة ألف» [أصول الكافي: ج ٢، ص ١٩٣].

(٥) قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا الغيبة، فإنها إدام كلاب النهار. وقد سئل النبي ﷺ: ما كفارة الاغتيال؟ فقال: «تستغفر الله لمن اغتبه كلما ذكرته» [أصول الكافي: ج ٢، ص ٣٥٧].

(٦) عن النبي ﷺ: «من ترك الصلاة متعمداً فقد برئت منه ملة الإسلام» [الكافي: ج ٣، ص ٤٨٨].

(٧) عن النبي ﷺ: «من وجد إلى الحج سبيلاً، فلم يحج، فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً» [تهذيب الأحكام].

الأرباح^(١) وأداء الزكاة الواجبة^(٢) والزكاة الباطنة ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ﴾ [الذَّارِيَات: الآية ١٩] ، والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(٣) إلى ما هنالك من واجبات ومستحبات أخرى، كي يرى كيف تذهب عنه الشكوك رويداً رويداً وتتفشع عن نفسه الشبهات شيئاً فشيئاً، بل يدخل في عوالم القدس، حيث اليقين والطمأنينة، ﴿أَلَا يَنْصُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرَّعد: الآية ٢٨] ، فيكون إذ ذاك مصداق هذه الآية المباركة: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [٢٧] أَرْجِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْضِيَةً [٢٨] فَأَدْخِلْ فِي عَبْدِي [٢٩] وَأَدْخِلْ جَنِّي [٣٠] [الفجر: الآيات ٢٧/٣٠].

وهذا غاية التكامل لهذا الإنسان.

ولكن إذا تمادى الشخص في طيشه وإجرامه ومكره وظلمه^(٤) ونكرانه ما عليه من حقوق الناس وواجب الشكر تجاه خالقه، وارتدى رداء الكبرياء وثابر على فسوقه وفجوره، كان من المبطلين الذين خسروا أنفسهم على حد قوله تعالى: حيث يقول: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ [٢٧] وَرَىٰ كُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةً^(٥) [الجاثية: الآيتان ٢٧/٢٨] ، ﴿كُلُّ أُمَّةٍ دُعِيَ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [٢٨] هَذَا كُنْتُمْ يَطِيقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [٢٩] فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ

(١) عن النبي ﷺ: «إن مانع الخمس يحشر مع الظالمين لآل محمد حقهم».

(٢) عن النبي ﷺ: «من منع قيراطاً من الزكاة فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً» [الكافي: ج ٣، ص ٥٠٥].

(٣) قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليبغض المؤمن الضعيف، قيل يا رسول الله، من المؤمن الضعيف؟ قال: الذي لا يأمر بالمعروف ولا ينهي عن المنكر». وفي حديث آخر: «ويل لقوم لا يدينون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» [الكافي: ج ٥، ص ٥٩].

(٤) قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا دعوة المظلوم ولو كان كافراً. فإنه ليس دونها حجاب» وفي حديث آخر: «من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم، فقد خرج من الإسلام» وفي حديث آخر أيضاً «من أعان ظالماً ليدحض بباطله حقاً فقد برئت منه ذمة الله وذمة رسوله». وفي حديث آخر: «من أَرْضَىٰ سُلْطَانًا بِمَا أَسْخَطَ اللَّهُ خَرَجَ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ» [وسائل الشيعة: ج ١٦، ص ١٥٤].

(٥) جاثية: باركة على ركبها.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَتَّبِعُونَ النَّاسُ عَلَى اللَّهِ وَالسَّاعَةُ لَا إِلَهَ إِلَّا نَحْنُ نَحْنُ الْمَوْلَاةُ إِنَّ نَظْرَنَا بَمَقَّةٍ وَّهِيَ سَائِغَةُ السَّاعَةِ﴾ [الباقية: الآيات ٢٨/٣٣]. «وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا وما واكم النار وما لكم من ناصرين»^(١).

نسأل الله تعالى تطهير نفوسنا وتكفير ذنوبنا، لنخرج من الظلمات إلى النور بإذنه، فتتذكر يوم المعاد: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْآَلَمِينَ﴾ [المطففين: الآية ٦] عند كل عمل نقوم به، فلا يصدر منا إلا ما يرضي الله تعالى، كي نذهب من هذه الدنيا، طاهرين، مطهرين، أزكياء نقيين، إلى روح وريحان وخلود في جنان، دونما قلق واضطراب وذلك هو الفوز الممين.

﴿اسْتَجِبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾^(٢) [الشورى: الآية ٤٧].

من آثار الإيمان باليوم الآخر

للإيمان باليوم الآخر آثار ثمينة جداً؛ منها:

١ - أن الإنسان يراقب نفسه في كل عمل يقوم به خوفاً من العقاب الأخروي، فلا

(١) لا بأس بذكر هذين الحديثين عن رسول الله ﷺ لأهميتهما، لا سيما في مثل هذه الظروف. فإن عاقبة الإنسان منوطة بعمله ودرجة تطهير نفسه. قال رسول الله ﷺ: «من زوج كريمته بفاسق نزل عليه كل يوم ألف لعنة ولا يصعد له عمل إلى السماء ولا يستجاب له دعاء ولا يقبل منه صرف ولا عدل» [مستدرک الوسائل: ج ٥، ص ٢٧٩].

وقال ﷺ: «أي امرأة وضيت بتزويج فاسق فهي منافقة وجبت في النار. وإذا ماتت فتح في قبرها سبعون باباً من العذاب. وإن قالت: لا إله إلا الله، لعنها كل ملك بين السماء والأرض وغضب الله عليها في الدنيا والآخرة وكتب الله عليها في كل يوم وليلة سبعين خطيئة» [إرشاد القلوب: ص ١٧٤، باب ٥١].

(٢) نكير: أي ما تستطيعون من إنكار لما اقترفتموه من الذنوب.

يتصدى إلى ما حرم الله من ظلم وفسق وإجحاف بحقوق الآخرين. وإن أغواه الشيطان يوماً، فهو يتوب حالاً ويعالج بصورة فعلية وعملية ما كان منه من إجحاف بحقوق الغير أو جرح الخواطر إلى ما هنالك.

٢ - أنه يرى أن الحياة ليست بالشيء الذي ينقطع مع الموت، بل هي خالدة مستمرة إلى ما بعد الموت بصورة دائمة، وأن «الدنيا مزرعة الآخرة»، كما جاء في الحديث، فيقوم في هذه الدنيا بأعمال صالحة وما يقربه إلى الله من عبادات كي يجني ثمرها، الجني في الحياة الآخرة، إن هذه العقيدة نفسها خير مؤدب للفرد وعامل قوي لإيجاد حياة اجتماعية سعيدة يعلوها الهدوء والاطمئنان. فمن تجرد عن عقيدة المعاد لا يردعه شيء عن ارتكاب ما تهواه نفسه الطائشة إلا هذه القوانين الوضعية. وإن هذه القوانين البشرية لا أثر لها في تعديل الأخلاق الشخصية الفردية والأخلاق العائلية والاجتماعية، لأنها أبعد من أن تستوعب كل ذلك. فالعقيدة بالمعاد خير حافز لإصلاح النفس الإنسانية وقطعها مراحل الكمال الإنساني.

٣ - إن المعتقد بالمعاد يقوم بما أوجب عليه الإسلام بالنسبة إلى الوالدين والأرحام والأصدقاء وبقية المؤمنين من بر وإحسان وخدمات اجتماعية «من أصبح ولم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم» وهذا مما يؤدي إلى تساند اجتماعي وتكوين مجتمع متكافل هو مصداق هذا الحديث: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو واحد تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى».

وقد قال بعضهم، إن الاعتقاد بالآخرة يعوق الفرد عن السير في أمور الدنيا قُدماً بجذً ونشاط. ولكننا نرى أن المسلمين الأوائل قد قاموا بأعمال جبارة في حقول شتى من تجارية وصناعية وزراعية وعمرانية وإن أكثر من ربع المعمورة كانت للمسلمين، وما كان ليُعيقهم الاعتقاد بالآخرة للعمل في عمارة الدنيا بشكل لا يؤدي إلى فساد في الأرض وتساقل النفوس ونسيان الآخرة. فقد قال رسول الله لأصحابه: «إن أخوف ما أخافه عليكم اثنان: اتباع الهوى وطول الأمل. فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق وأما طول الأمل فيُنسي الآخرة»..

على أن الإنسان بطبيعته ميّال إلى الدنيا، يحرص على عمرانها والتزود منها كلما وجد إلى ذلك سبيلاً. لذلك يحث الدين الإسلامي الإنسان على التفكير في حياة أخروية خالدة والتهيو لها كي لا تميل النفس إلى المادّة فحسب، فتتسافل. وفي الخبر: «تذكروا هادم اللذات».

وإنّ للاعتقاد بالمعاد أثراً بالغاً في تهدئة النفوس إذا ما حُرِّموا (لحكمة ما) من بعض زخارف الدنيا أو أصيبوا ببعض النكبات. فالله تبارك وتعالى سوف يعوّضهم عن ذلك جزاءً موفوراً في نعيم خالد لا يُقاس بنعيم الدنيا بحال. يقدر ذلك علماء النفس. وصفوة القول هي أنّ الاعتقاد بالمعاد خير رقيب لهذا الإنسان يصدّه عمّا يؤدي إلى فساد أو إفساد. ويحثه على ما هو خير وصلاح. فتكون الحياة الاجتماعية قد بلغت شأواً قاصياً من تحابب وتوايد وتراحم... ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: الآية ١٠].

فما على المسلمين في أرجاء البسيطة إلا أن يقوموا بتطبيق تعاليم الإسلام لتحقيق حياة اجتماعية سعيدة على وجه الأرض وجعل الإسلام ديناً عالمياً خالداً كما تنبأ بذلك كثير من العلماء.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ^(١) قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ ﴿٩﴾﴾ [آل عمران: الآيتان ٨/٩].

(انتهى الجزء الثالث، والحمد لله، وسيليه الجزء الرابع إن شاء الله تعالى).

جدول بأسماء العناصر المستكشفة لحد الآن

مع العلم أنَّ كل ما عرفناه من مواد يتكوَّن من واحد أو أكثر من العناصر الآتية:

العنصر	العدد الذري	الوزن الذري المتوسط
أيدروجين	١	١,٠٠٨
ليثيوم	٣	٦,٩٤٠
بورون	٥	١٠,٨٢
نيتروجين	٧	١٤,٠٠٨
فلور	٩	١٩,٠٠
صوديوم	١١	٢٢,٩٩٧
ألومنيوم	١٣	٢٦,٩٧
فوسفور	١٥	٣٠,٩٨
كلور	١٧	٣٥,٤٥٧
پوتاسيوم	١٩	٣٩,٠٩٦
سكانديوم	٢١	٤٥,١٠
فاناديوم	٢٣	٥٠,٩٦
منجنيز	٢٥	٥٤,٩٣
كوبلت	٢٧	٥٨,٩٤
نحاس	٢٩	٣٦,٥٧
جاليوم	٣١	٦٩,٧٢
زرنينخ	٣٣	٧٤,٩٦
هيليوم	٢	٤,٠٠
بيريليوم	٤	٩,٠٢
كربون	٦	١٢,٠١
أوكسجين	٨	١٦,٠٠٠
نيون	١٠	٢٠,١٨

٣٤,٣٢	١٢	ماغنيسيوم
٢٨,٠٦	١٤	سليكون
٣٢,٠٦٤	١٦	كبريت
٣٩,٩١	١٨	أرجون
٤٠,٠٧	٢٠	كالسيوم
٤٧,٩٠	٢٢	تيتانيوم
٥٢,٠١	٢٤	كروم
٥٥,٨٤	٢٦	حديد
٦٨,٦٩	٢٨	نيكل
٦٥,٣٨	٣٠	خارصين
٧٢,٦٠	٣٢	جرمانيوم
٧٨,٩٦	٣٤	سيلينيوم
٧٩,٩١٦	٣٥	بروم
٨٥,٤٤	٣٧	روبيديوم
٨٨,٩٢	٣٩	بثريوم
٩٢,٩١	٤١	نيوبيوم
٩٩,٠٠	٤٣	تكنيتيوم
١٠١,٩١	٤٥	روديوم
١٠٧,٨٨٠	٤٧	فضة
١١٤,٨	٤٩	إندسيوم
١٢١,٧٧	٥١	أنتيمون
١٢٦,٩٣	٥٣	يود
١٣٢,٩١	٥٥	سيزيوم
١٣٨,٩٠	٥٧	لاتانوم
١٤٠,٩٢	٥٩	براسيوديميوم
١٤٦,٠	٦١	ألنيوم
١٥٢,٠	٦٣	أوريوم

١٥٩,٢	٦٥	تيريوم
١٦٤,٩٤	٦٧	هولميوم
١٦٩,٤	٦٩	ثوليوم
١٧٥,٠	٧١	لوتيسيوم
١٨٠,٨٨	٧٣	تانتالوم
١٨٦,٣١	٧٥	رينيوم
٨٣,٨	٣٦	كريتون
٨٧,٦٣	٣٨	سترنشيوم
٩١,٢٢٠	٤٠	زركونيوم
٩٥,٩٥	٤٢	مولبدنوم
١٠١,٧	٤٤	روتينيوم
١٠٦,٧	٤٦	بلاديوم
١١٢,٤١	٤٨	كدميوم
١١٨,٧٠	٥٠	قصدير
١٢٧,٥٩	٥٢	تليريوم
١٣١,٣	٥٤	زينون
١٣٧,٣٧	٥٦	باريوم
١٤٠,٢٥	٥٨	سيريوم
١٤٤,٢٧	٦٠	نيوديميوم
١٥٠,٤٣	٦٢	سماريوم
١٥٧,٢	٦٤	جادولينيوم
١٦٢,٥	٦٦	ديسبروزيوم
١٦٧,٧	٦٨	أربيوم
١٧٣,٦	٧٠	يتريوم
١٧٨,٦	٧٢	هفنيوم
١٨٣,٩٢	٧٤	تنجستون
١٩٠,٢	٧٦	أوزميوم

١٩٣,١	٧٧	إيريديوم
١٩٧,٢	٧٩	ذهب
٢٠٤,٣٩	٨١	ثاليوم
٢٠٩,٠٠	٨٣	بزموت
٢١٨,٠٠	٨٥	استاتين
٢٢٣,٠٠	٨٧	فرانسيوم
٢٢٧,٠٠	٨٩	اكتينيوم
٢٣١,٠٠	٩١	بروتاكتينيوم
٢٣٧,٠٠	٩٣	نيبتونيوم
٢٤١,٠٠	٩٥	أمريسيوم
٢٤٣,٠٠	٩٧	بركليوم
٢٥٣,٠٠	٩٩	أينشتينيوم
٢٥٦,٠٠	١٠١	مندلفيوم
١٩٥,٢٣	٧٨	بلاتين
٢٠٠,٦١	٨٠	زئبق
٢٠٧,٢١	٨٢	رصاص
٢١٠,٠٠	٨٤	بولونيوم
٢٢٢,٠٠	٨٦	رادون
٢٢٦,٠٥	٨٨	راديوم
٢٢٣,١٢	٩٠	ثوريوم
٢٣٨,٠٧	٩٢	يورانيوم
٢٣٩,٠٠	٩٤	بلوتونيوم
٢٤٢,٠٠	٩٦	كيوريوم
٢٤٤,٠٠	٩٨	كاليفرنيوم
٢٥٤,٠٠	١٠٠	فرميوم
٢٥٧,٠٠	١٠٢	نوبيليوم

فهرس الجزء الأول

١٩ ماذا يراد من الدين؟
٢٤ دين العقل
٣٢ العقل والإيمان
٣٦ منزلة العقل والعلم في الدين الإسلامي
٣٩ تأخر العلوم الحديثة عن الدين
٤٤ تأخر العلوم عن الحقائق الدينية
٤٧ علاقة الدين بالعلم والظن
٥١ الدين والعلوم الحديثة
٥٤ لا تنافي بين الدين والعلم الصحيح
٥٨ لا تنافي بين الدين والعلم الحديث
٦٢ رأس الحكمة مخافة الله
٦٦ أثر الخشية في تكامل النفس
٧٠ قيمة البلايا في تكامل النفس
٧٤ أثر النوائب في تطهير النفس وتكاملها
٧٧ أثر الصوم في تكامل النفس
٨٥ أثر الحج في تكامل النفس
٩٠ كل منا ممتحن لا محالة
٩٩ مراتب الامتحان الإلهي

٥٨٢ التكامل في الإسلام ٣/١
١٠٤ إنما المؤمنون إخوة
١٠٩ التراحم في الإسلام
١١٣ التألف في الإسلام
١١٧ التزاور في الإسلام
١٢٠ التعاطف في الإسلام
١٢٤ آداب السلام في الإسلام
١٢٩ آداب التلاقي في الإسلام
١٣٣ التربية الاجتماعية في الإسلام
١٣٨ الإنفاق في الإسلام
١٤١ المثل العليا في الإنفاق
١٤٥ الصدقات في الإسلام
١٥٣ الزكاة وأثرها في تكامل النفس
١٥٧ الزكاة الباطنة
١٦١ الزكاة الواجبة
١٦٧ كيف يجب أن نكون
١٨١ الترتيب لا يولد الحياة

فهرس الجزء الثاني

٢٠١ المقدمة
٢٠٩ أفي الله شك فاطر السماوات والأرض
٢٢٣ لهذا آمنت بالله
٢٣٠ أدلة أخرى في إثبات الصانع
٢٣٧ ما من دابة إلا أمة
٢٤٢ كيف يتسرب الشك إلى النفوس

فهرس الجزء الثالث ٥٨٣

٢٤٧	تفنيد أقوال الماديين
٢٦٩	هل من حاجة إلى الدور والتسلسل في إثبات الصانع
٢٧١	استحالة معرفة الله معرفة تامة
٢٨٥	هل هناك تولد ذاتي
٢٩١	- القصور الذاتي -
٢٩٥	معالجة الشكوك
٣٠٠	أثر الذنوب في اتجاه النفس
٣١١	كيف نتوب
٣١٣	الإجابة على شبهات الماديين
٣٢٧	علة بعث الأنبياء ﷺ
٣٤٢	كيف يختار الله أنبياءه ﷺ
٣٦١	دروس النبي ﷺ في ساعاته الأخيرة
٣٦٥	سيدة النساء ﷺ
٣٧٠	المأثور عن رياضيات الإمام علي ﷺ

فهرس الجزء الثالث

٣٩١	المقدمة
٣٩٦	العلم والإيمان
٤٤٣	من حقائق القرآن ﴿والسمااء بنيناها بأيدي وإنا لموسعون﴾
٤٥٠	١- ﴿فَلَا أُفْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ، وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾
٤٥٤	٢- ﴿فَلَا أُفْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ، وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾
٤٩٣	الروح باقية بعد الموت
٤٩٧	حرمة إحضار الأرواح
	السلوك الرحماني والسلوك الشيطاني

٥٨٤ التكامل في الإسلام ٣/١

٥١٩ فلسفة المعاد

٥٧٤ من آثار الإيمان باليوم الآخر

٥٧٧ جدول بأسماء العناصر المستكشفة لحد الآن

٥٨١ الفهرس